

آراغون

اورپليان

ترجمته: صيکاح التجليہ

روایات عالیہ « ۵۲ »



Bibliotheca Alexandrina

0104413



الإشراف الفني: زهير الحمو

اوريليان

روايات عالية

« ٥٢ »

آراغسون

اوريليان

ترجمته :
مسيح الجهميد



منشورات وزارة الثقافة

في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

العنوان الأصلي للكتاب:

AURELIEN

ARAGON

GALLIMARD

أوريليان = Aurelien / أراغون ؛ ترجمة صياح الجهم -
دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٥ . - ٦٦٩ ص ، ٢٤ سم . -
(روايات عالمية؛ ٥٢)

٨٤٣-١ ف أ ر ا ١ ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموازي
٤ - أراغون ٥ - الجهم ٦ - السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٣٢ / ١ / ١٩٩٥

إن الشخصيات والمواقف في هذه الرواية
محضُ تخيل، وكلُّ شبه يمكن أن يُلمح فيها
بين تلك الشخصيات والمواقف وبين الوقائع
العادية أو الأشخاص العاديين إنما هو من
قبيل الاتفاق الخالص، وهو خارجٌ كلياً عن
مشيئة المؤلف.

المرّة الأولى التي رأى «أوريليان» فيها «بيرينيس»، وجدها بشعة حقاً.. لم تعجبه، لم يحبّ كيفية لبسها، ما كان ليختار هذا القماش، كانت له أفكاره عن القماش، كان قماشاً رآه على نساء كثيرات، وقد حملّه ذلك على ألاّ يتوسّم خيراً في هذه التي تتسمّى باسم اميرةٍ شرقيّةٍ دون أن يبدو عليها أنها تعدّ نفسها ملزمةً بسلامة الذوق، كان شعرها كامداً، هذا اليوم، سيء التصفيف، الشعرُ المقصوص يحتاج إلى عنايةٍ دائمة، وما كان بوسع أوريليان أن يقول أكانت شقراء أم سمراء، فهو لم يمعن النظر إليها، وقد بقيَ له منها انطباعٌ مُبهمٌ، عام، من التبرّم والسُخط، حتى إنه تساءل لماذا، كان ذلك غير متناسب، كانت أقرب إلى القصر والشحوب فيما أظنّ.. ولو كان اسمها «حنّة» أو «ماري» لما عاد ففكّر فيها بعد ذلك، أما «بيرينيس»! يالها من خرافة غريبة، هذا هو بعينه ما كان يُسخطه.

هناك بيتٌ من الشعر لراسين ذكّرته حاله هذه به، بيتٌ لازمه أثناء الحرب، في الخنادق، وفيما بعد، وهو مسرّحٌ، بيتٌ لم يكن ليراه بيتاً جميلاً، أو أن جماله كان يبدو له موضعاً للشك، لا سبيل إلى تفسيره، لكنه حاصره وما يزال يُحاصره.

ظلمتُ زمناً طويلاً هائماً على وجهي في «قيصرية...»^(١)

الأشعار، على العموم، كانت... لكن هذا البيت كان يتردد ولا ينفك يتردد، لماذا؟ هذا ما لم يكن يفسّره، وعلى نحوٍ مستقلٍّ تماماً عن قصّة «بيرينيس»، الأخرى، الحقيقية... بيد أنه لم يكن يتذكّر هذه الأغنية العاطفية التي لاتني تُعاوده إلا في خطوطها العامة.

(١) البيت من مأساة راسين «بيرينيس»، المترجم

سمراء إذن «بيرينيس» المأساة. أما «قيصرية» فهي من ناحية انطاكية، بيروت، منطقة تحت الانتداب. بل لقد كانت شديدة السمرة، وما تشاء من الأساور، وأكوام من أدوات البهرجة ومن البراقع، «قيصرية» ... اسم جميل للمدينة، أو لامرأة، اسم جميل على كل حال.

قيصرية... ظلتُ زمناً طويلاً... آه، مالي! أصبحتُ خَرَفاً لاسبيل إلى التذكُّر. ما اسم الشخص الذي كان يقول هذا. كان رجلاً مديد القامة، مُهدماً، كُتُيباً، خائر القوى، بعينين فحميتين، الملاريا... التي كمنت ولم تظهر إلا عندما أصبحت «بيرينيس» على وشك الزواج في روما، من شخص تافه معتدٍ بجماله،^(١) ممتلىء الجسم، له هيئةٌ بائع المنسوجات الذي يمدح بضاعته على نحو ما يلبس ثوبه الروماني، تيتوس، بلا مزاح، نيتوس.

ظلتُ زمناً طويلاً هائماً على وجهي في قيصرية... لا بد أنها مدينةٌ عريضةُ الطرقات، خاويةٌ، يخيم عليها الصمت. مدينةٌ نزلت بها مصيبةٌ. شيءٌ كالهزيمة. مدينةٌ موحشةٌ. مدينةٌ صالحةٌ للرجال الذين بلغوا الثلاثين والذين لا يتعلّقون بعد ذلك، بشيء. مدينةٌ من الحجر يجوبها المرء ليلاً نون أن يؤمن بطلوع الفجر.

كان «اوريليان» يرى كلاباً تهربُ خلف الأعمدة، وقد بُوغتت وهي تمرّق جيفةً، وسيفاً مهجوراً، ودروعاً. بقايا معركة مخزية.. الغريب أن إحساسه بالنصر كان ضئيلاً جداً. لعل ذلك لأنه سافر إلى «التيرول» وإلى «سالزكاميرجوت»، وأنه رأى «فيينا» في هذه اللحظة التي كان الدانوب يحمل فيها جثث المنتحرين، وكان سقوط العملة يُثير في السيّاح دواراً كريهاً. خيّل إلى «اوريليان» أنه قد هُزم، لا لأنه صاغ ذلك لنفسه بوضوح، بل هكذا. على نحو غريزي. هُزم، هناك، هزمتُ الحياة. وعبثاً كان يقول في نفسه: دعك من هذا، فنحن المنتصرون...

(١) لم يتزوج تيتوس «بيرينيس» مع حبه لها خوفاً من غضب روما. المترجم

لم يشفَ تماماً من الحرب،
أخذته الحربُ قبل أن يحيا، كان من تلك القرعة التي خدمت ثلاث سنوات
وأحسّت أنها ممكنة التسريح عندما فاجأها أب ١٩١٤.

فقضت ثماني سنوات في خدمة العلم... لم يكن شاباً مبكراً في شبابه،
لقد وجدته الثكنة غير مختلف عن الطالب الثانوي الذي هجر أسرته إلى الحيّ
اللاتيني سنة ١٩٠٨، انتزعته الحرب من الثكنة وأعادته إلى الحياة بعد هذه
السنوات الطوال من العيش الموقت، من تعود هذا العيش الموقت، فلا المخاطر
ولا الفتيات الفاتنات تركن، في الحقيقة، أثراً في ذلك القلب، هو لم يحب ولم
يحي، ولم يمّت وهذا شيء غير قليل، وكان أحياناً ينظر إلى ذراعيه الطويلتين
الهزيلتين، وإلى ساقيه اللتين تشبهان ساقِي الصقر، وإلى جسده الفتي، جسده
السلیم، فیرتعش وهو يستعيد الماضي، يفكر في المشوّهين، رفاقه، الذين
يشاهدون في الشارع، وفي الذين لن يعودوا إليه.

هاقد مضى عليه ثلاث سنوات، وهو حر، لا يطلب منه شيء، إلا أن يتدبّر
أمره، ولا تهيأ له وجبته كل يوم مع وجبات الآخرين، وفي مقابل ذلك فهو لم يعد
يحيي أحداً، وهو في الثلاثين تماماً، نعم، حسّب عمره في حيران. إنه فتى
بالغ رسده، لم يكن بوسعه أن ينظر إلى نفسه نظرة جادة ويقول: رجل، وأخذ
يأسف على الحرب، لا على الحرب، في الحقيقة، على زمن الحرب، فهو لم يشف
منها بعد، لم يعثر بعد على إيقاع الحياة، كان يتابع الحياة التي كان يحيها
آنئذ كل يوم بيومه، وذلك بالرغم منه، وكان يؤجل إلى الغد، منذ ثلاث سنوات
ساعة القرار، وكان يتصور مستقبه، بعد تلك الساعة، وهو يجري جرياناً
مختلفاً، أشد حيوية، منهكاً، كان يحب أن يتصوره هكذا، لا أكثر، ثلاثون عاماً،
والحياة لم تبدأ بعد، ماذا ينتظر؟ لم يكن يحسن شيئاً إلا أن يتسكّع، وكان
يتسكّع.

..ظلّت زمناً طويلاً هائماً على وجهي في قيصريه...

ربما كان هذا هو معنى تلك الذكرى الكلاسيكية... لقد حمل حمى الملايا من جيش الشرق حيث أنهى خدمته. أخذ بتذكّر بشيء من الحين تلك السهولة في «سالونيك»، النساء اليونانيات، الروايات المزيفة التي لا تخدم أحداً، تعدد العروق، تلك القوادة الشديدة، في كل مكان، في الشارع، في الحمامات... كان أوريليان ذاقامة فوق الوسط، وحاجبين أسودين كثيفين يلتقيان بين العينين، وقسمات جبهة، وجلد غير مستقر قليلاً، متغصن. وكان آنذاك ذا شاربين فحلّقهما لدى عودته. لا لأن أحداً طلب إليه ذلك. لا، بل لقد طلب ذلك إلى أحدهم أمامه، في عشاء، في قاعة المناوبة، حيث دعاه صديق له، طالب خارجي في المستشفيات، هو أخو كاتب كان سيغدو كاتباً كبيراً لو قيّضت له الحياة، وبرفته اتفق لأوريليان أن يقضي الحرب. ذلك ما دعا أخاه الذي حلّ بباريس حديثاً، إلى التردد على وسط أدبي كان خلاصة مدعوّيه، هذا المساء، كان هناك امرأة حميلة جداً، ووقحة جداً. تقول إنها لا تنتظر البتة إلى الرجال ذوي الشوارب، أقلت ذلك ليسمعها أوريليان؟ لم يعتقد ذلك، لكن الطالب الخارجي انسحب لحظة وعاد وقد ضحى بشاربيه. ليسب هذه القصة مدهشة، ثم إنها معروفة. وقد كان مع السيدة على العشاء ناشر رواها، وكثير من المؤلفين لديه رويها في كتبهم روايات شتى. وإن المرء ليتساءل لماذا؟ ثمة نفاهاً نسنوقف، بل إن هذه منشورة ولا بد من الاعتدال عن ذلك. لكن أحداً لم يلحظ أن أوريليان خلق شاربيه بعد ثمانية أيام. ولم يعلّق أحداً على ذلك. ذلك لأن أوريليان لم يكن يثير اهتمام أحد. كان طالباً في الحقوق لم ينجح في امتحانه وهو يقضي وقته في مكتب محام مرموق من غير سنك، لكن دون أن يكون أحد هؤلاء الرجال المتألقين، مفاخر القضاء. ومع ذلك فهذه القصة تظهر أكثر من أي شيء آخر ببطء ردود أفعال أوريليان، وأنه يتأخر عن فعل ما يجب فعله.

فبعد شهر فقط إنما قال في نفسه أن صديقه الطالب الخارجي ربما كان يُغازل تلك السبدة الحميلة الوقحة. لم يدهشه ذلك أول الأمر. ولم تكن هذه المرأة قد أعجبتة، هو أوريليان. ومع ذلك، فلا بدّ أنه أقدم لا شعورياً على خلق ساربيه

من أجلها . فعلى شيءٍ من الشَّبه بها ، بتلك السمراء المشوقة القُد ، كان يتصوّر
المرأة التي تُدعى بيرينيس ، لكن بيضاء مثل حصاةٍ مغسولةٍ جيداً . تصوّرُها
كذلك ... عندما حدّثه بارينتان عن ابنة عمه بيرينيس (مع أنه مضى نحو عامين
على حادث الشارين) ..

ومن هنا شيءٌ من خيبة الأمل . كان يسعى إلى تذكّر قسمات بيرينيس
هذه . فإذا أخطأ التذكّر ، عاد إلى ذهنه ، على نحو مزعج ، رسمُ قماش ثوبها من
البيج البشع بمضلّعاته الزغبية ... ما لهُ ولذلك ؟
مرّر أصابعه في شعره الجعد ، كما يُمرّر المشط . أخذ يفكّر في التماثيل
الموضوعة في ساحات قيصرية . تماثيل ربّات الصيد ، ربّات الصيد ليس غير
بنظراتهن الزائغة .
وعند أقدامهن ينام متسوّلون .



لم يكن يحب سوى السمرات وكانت بيرينيس شقراء، شقرتها كامدة، وكان يحب النساء الطويلات على شاكلته، وكانت قصيرة دون أن تكون لها تلك السحنة الطفولية التي يمنحها القصر أحياناً، وكان شعرها المقصوص خشناً، ولونها شاحباً وكان الدم لم يجر تحت الجلد، لم يكن جبينها منخفضاً وكانت تلك الصغيرة تصغره كثيراً، إن ما كان يحير في هذا الوجه ذي الوجنتين البارزتين هو العينان، العينان السوداوان خلف أهداب لا لون لها، وكانت غرابيهما لا تتبع من سوادهما بل من طابع التحديق فيهما، كالذي نجده لدى الأطباء، ومن قوس الحاجبين المائل الى الصدغين والذي يكاد يكون آسيوياً، وكان الفم مدهشاً أيضاً كانت الشفتان مرتفعتين، دون أن تكونا سميكتين، وكانت بالطبع حمراوين في هذا الوجه الشاحب، مع حركات اختلاجية مبالغية ينخفض فيها طرفاهما في تعبير من الألم الذي لا يسوغه شيء، وفكر أوريليان: شفتا فتاة، وكان الأنف نحيفاً وقصيراً، أرنباته بارزتان يحملهما على الارتعاش أدنى انفعال، وكان يبدو أن هذه القسمات المجتمعة هنا تخص عدة نساء متميزات بعضهن عن بعض، والذي كان يسبغ عليها شيئاً من الوحدة هو هذه الأسالة الخالصة في صفحة وجهها، هو هذا الميل في وجنتيها حيث يسقط النور الملامس على رسم كامل، لكنه غريب وكأن النحات شغف بالوجنتين، بكمال الوجنتين، وذلك بالرغم مما سوى ذلك.

عندما كان أوريليان يحاول تصوّر جسد بيرينيس، لم يكن يفلح في ذلك، كان يردّد على نفسه أنها قصيرة، وهذا كل ما استطاع أن يثبتته في ذهنه عنها، ولا شك أنها لو كانت مشوهة أو بارزة الصدر للاحظ ذلك، بيد أنه كان يتذكر، بجهد بالغ لون ثوبها، لا أكثر، ومرة أخرى، لم تكن تذكر بفتاة صغيرة، كان لا بد لهذا الجسد من أن يتكون من أن يحيا، لكن كيف؟ الساقان النحيفتان كانت بيرينيس تغطيها هذا اليوم بجوربين من الاسوف وهو أمر بدا لأوريليان متكلفاً، غير مستحسن.

الشيء الوحيد الذي أحبه فيها رأساً كان صوتها . صوتٌ خفيضٌ دافئٌ، عميقٌ، ليليٌّ، حافلٌ بالأسرار مثل عيني الظبية تحت ضفيرة المعلمة تلك، كانت بيرينيس تتكلم بشيءٍ من البطء، مع اندفاعات مباغته سرعان ماتكبتها، مترافقة بوميضٍ في العينين مثل وميض العقيق، وفجأة كان يبدو على هذه المرأة الشابة إحساسها بأنها فضّحت نفسها، فتنخفض زاويتا فمها، وترتجف الشفتان، ثم ينتهي ذلك كلّه بابتسامة، وتتوقّف الجملة التي بدأتها تاركةً أمر اتمام الفكرة الجريئة لحركة خرقاء من اليد؛ وحينئذٍ تُرى الأهدابُ الخبازية وهي تُسبل، وقد بلغ من نحافتها أنه كان يُخشى عليها من التمرّق.

لا بد من القول أيضاً أن بيرينيس كانت تحرك كتفيها حركةً كأنها تريد أن تمنع شالها من الانزلاق، وهي حركةٌ كانت تخلصها من ورطةٍ عندما كانت لا ترغب في متابعة الحديث أو عندما ترغب في تغيير مجراه.

كان قد قال لها «ليس لك هيئة ابنة «البروفانس»»^(١)، كان في صوتها نكهة، ليست نكهة اللهجة، بل نكهة اللهجة المصحّحة، شيء من عدم اليقين، فأجابت أن ليس في ذلك ما هو غريب فأمّها من «الفرانش كونييه»، وليس لها من ابها سوى العينين السوداوين.

كان «ادمون باربنتان» يضايق أوريليان بأسئلته: «هل رأيت إذن ابنة عمي بيرينيس؟ هذا كلّ ماتقوله عنها؟»، ومئة سؤال آخر كان ينبغي أن يجيب عنها بمثل هذا الأسلوب «إنها فاتنة... شخصٌ غريب... طبعاً، طبعاً، إنها تعجبني كثيراً...» لأن قوله إنها لا تعجبه، وهو الحق، يتطلّب أن يشرح ذلك، أن يتكلم كلاماً لا نهاية له.

كان ادمون يمزح وماذا يضيره في نهاية الأمر، من رأي أوريليان بابنة عمه؟ لقد نزلت عند باربنتان في باريس، وستعود إلى مقاطعتها، المصادفة وحدها هي التي أرادت أن يأتي أوريليان العاطل عن العمل ليرى رفيق الجبهة القديم، كان ينزعج دائماً من الترف في هذا المنزل، وكان يستحسن خمر

(١) مقاطعة في فرنسا المترجم

باربنتان الفاخر واستخفافه. خرجا معاً بعد الغداء، انحدرنا من «باسي»^(١) نحو المدينة عن طريق الأرضة، «ليكورارين». كان الجو صحوماً مائلاً إلى البرودة. وكان الهواء والشارع نظيفين، مثل ادمون باربنتان الذي كان يُثير الدهشة دائماً أنه يسير على قدميه. وكان اوريليان دائم النظر خلف صديقه ليرى إن كانت عريتّه لا تلحق به. وهو يسير مع ذلك سير لاعب كرة القدم.

«هذا، إذن، كل ماتقوله عن بيرينيس؟»

هوس. ليس لديه ما يقوله عنها، لكن بما أن امتناعه عن الكلام عليها، سيجرّ ادمون إلى استنتاجات فليقل: «إنها تبدو رقيقة جداً. لا شك أنها مصدر للراحة في المنزل، حضور امرأة مثل هذه...»

لقد حاول أن يقول شيئاً خالياً من الابتذال يُعفيه من الكلام بعد ذلك، أكثر من محاولته أن يقول شيئاً فُكّر فيه حقاً. فمن حيث الرقّة كان يجد في ابنة الاقليم الصغيرة هذه شيئاً من تلك الرقّة. وبدا له أن ليس هذا هو ما كان ينبغي أن يقوله، ونحن نعلم كيف يفكر الناس: لقد كُونوا فكرتهم عن أحد الناس وصاغوها مرات عديدة، ولم يجدوا معارضة، بل إنهم قد لقوا موافقة عليها. فاتخذت تلك الفكرة مرتبة الفكرة المفروغ منها. ولم يَنْجُ «ادمون» من هذه الآلية. فقهقه ضاحكاً. آه، من غلطك...

«رقيقة؟ بيرينيس؟ رقيقة؟ حسناً، يا صاحبي، أتمنى لك رقيقات بالعشرات مثل هذه الرقيقة! أسخف شيء سمعته في حياتي! أنتَ تمزح. ألم تنظر إليها؟ إنها مصدر للراحة إذن، وأنيقة، تريد أن تقول. كالشيطان في الإناء المقدس. الجحيم في البيت!»،

رفع اوريليان حاجبيه من الدهشة. أيّ شيطان؟ أيّ إناء مقدّس. لم يشأ أن يقول ما يفكر فيه بخاصة وهو أن بيرينيس هذه لا تبدو له لافتة للنظر، وأن الشيطان مع ذلك... الحاصل أننا لا نكون بحضرة الشيطان دون أن نحس برعشة خفيفة. وتتم بشيء من هذا القبيل لم يلحظه ادمون. كان اليوم يوماً من

(١) حي ارستقراطي في باريس.

آخر تشرين الثاني مشمساً، وكانت العربات تجري على الطرق المكدّمة دون وضوء ولا غبار، وكانت الاشجار العارية ترسمُ تشابكاتها السوداء فوق الممرات وكأنها من عمل الصياغة المزخرف، كان كلّ شيءٍ نظيفاً ومُترفاً تماماً، حتى «القصر الصغير» الشنيع الذي نظر اليه اوريليان وكأنه عدو شخصي.

ورغبةً منه في أن يقول شيئاً ما كعادته، قال: «أوضَحْ ماتقول...» ونظر إليه، على الفور، لأن أدمون استنتج من ذلك أنه يهتم بابنة عمه، ولم يزدہ الإنكار سوى ترسيخ هذا اليقين. ولذلك انطلق يوضّح له رأيه في بيرينيس.

الأمرُ جليّ، في آخر الأمر. هذه المرأة تحترق. مثل امرأة كُتِب عليها الهلاك، لعل الجحيم هو حياتها. حياة خفيفة، هادئة، موفقة بالفعل، ولا أقول لك غير هذا. في الاقليم، وزوجها هو ايضاً ابن عم بعيد لي. فتى من النوع الطيّب. فكرٌ شديد الفضول، لكنه محدود، أُغرمتُ به وهي صبيّة، أو أُغرِم بها، مَنْ يَدري؟... الحاصل أنها قصة قديمة عُلقتُ بها، ولم تشأ أن ترجع عنها لأن الاسرة كانت تعارض هذا الزواج في اول الامر... ثم إنه تُخُن وبَشِع منذ الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين، لستُ أدري، لكن هذين الزوجين نُؤذِي رؤيتهما... أرادته ولم ترّجع عن كلامها... وتزوّجا بعد الحرب ولا شك أنه كان يُمثّل بالنسبة إليها، بعد الحرب، الحياة الفكرية، والروايات التي كان يُعطيها إياها، والفلسفة التي كان يقرؤها ولا تفهمها، أو على الأقل التي لم تكن تحفظ منها سوى صورٍ لا رابط بينها... تم إن لها من الإباء ما يمنعها من الاعتراف بأنّ المُساءة هاهنا.

لقد كابرَتْ ولسوف تُكابِر. إنها تستمر في هذا الزواج غير المعقول. وهي تؤكّد أنها تعبد زوجها، ولعلها تحبّه... والزواج يقوم بجمع مجموعةٍ من الصّحون وعلى نحو جد ذكيّ. ومن الطريف الاستماع إليه وهو يتحدث في هذا الموضوع، أصحاب الاختصاص مثيرون للاهتمام عندما يتحدثون عن اختصاصهم،

الصحون!... إنها اختصاص ضيق قليلاً... أه! هو صيدلي، بالطبع...
لكن أخله من صحونه، فلا يبقى منه شيء... غبي حقيقي...»
افترقا في ساحة «الكونكورد». ليس في العالم مكان أكثر ترفاً، ترفاً على
نحو مبالغ فيه. وقدّر أوريليان أن ذرة الغبار قد تُلاحظ فيها، تملكته فكرة الترف،
فكرة طاغية من الترف، أكثر مما تملكته بيرينيس، نظر إلى بارينتان وهو ينأى
ببزته الحسنة التفصيل، وحذائه الثمين، ومنكبى رياضي من المجتمع الراقى،
تذكره وهو في الوحل، في «الشمبانيا»^(١)، وقد تغير شكله، وتغطي بملابس
صوفية متنافرة، وهو غير حليق، وسخ، يشرب من الالكسیر المهدئ كمصل
اللبن ليوقف ذلك الاسهال المستعصي الذي جعل ساقيه ترتخيان، هز أوريليان
كتفيه.



(١) مقاطعة فرنسية

كان درب «ادمون باربنتان» سريعاً وباهراً. بدأ بداية سيئة، لكن الأمور استتبت أخيراً في الثلاثين ولم يعد الوضع الباهر لهذا الشاب يثير أياً من الانتقادات التي مرّ بها شبابه. ثم إن الحرب طمست كل ذلك أيضاً حين وضعت المسافات الضرورية. ومن ذا الذي ظلّ يلتفت الى الحكايات القديمة؟ كان يكفي أن يكون آل «باربنتان» الاثنان، ادمون و«بلانشيت» رفيعي التهذيب، في رغدٍ من العيش، محمودي العشرة، وان كانا صغيين في علاقتهما.

ارتحل ادمون من مقاطعته حوالي ١٩١٠، وهو ابن طبيب في المقاطعة كان يعمل في السياسة المحلية، وأصبح بفضل المصادفة أمين سر «كيسنيل» كيسنيل العظيم، قطب اصحاب سيارات الأجرة الذي كانت أعماله العقارية ضخمة، ومالبث أن أصبح موضع ثقته. وكان يقال إن ادمون قُيِّضَ له أن يبرهن لمعلمه أن رجال أعماله يختلسونه، وقد رأى «كيسنيل» الذي حقق صفقة عظيمة في مراكش، في هذا الشاب، أمين السر اللامع الذي يُعجب النساء إعجاباً شديداً، المتمم لعمله. هذا على الأقل ما كان يُروى، وأن باربنتان أظهر جرأة حين ترك الطب ليندفع إلى الأعمال التجارية، والحق أن هؤلاء الذين يروون ذلك يريدون أن ينسوا أن ادمون كان عشيق عشيقة «كيسنيل» وهي فتاة حسنة، ايطالية، وأن «كيسنيل» كان يعلم ذلك، وأنه أراد أن يوفّر لهما السعادة إذ يوفّر الثروة لأدمون. وعلى كل حال، لم يبق أيّ داع لتذكّر ذلك كله لأن كارلوتا تزوجت في النهاية، من كيسنيل بعد أن أدركت أن ادمون أقلت من يديها حين وقع في حب ابنة معلمه، وأن «بلانشيت كيسنيل» العنيفة والعنيدة، اجبرت والدها على القبول لتصبح زوجة «ادمون باربنتان». ثم كانت الحرب ومات «كيسنيل». ووهبت «كارلوتا» بيتها في «رأس الأنتيب» الصليب الأحمر، وأكسبها تقاينها في خدمة الجرحى وسام جوقة الشرف. وكانت ابنة زوجها التي لم تعد تغار من الماضي، لا تراها إلا فادراً، لأن كارلوتا كانت دائمة السفر من القاهرة إلى لندن، ومن فينيسيا إلى الهند، وبيع منزل «حديقة مونسو» لتسديد نفقات الإرث الباهظة،

بعد أن زهدت فيه الأرملة والزوجان اللذان كان يقيمان في شارع «رينوار» في منزل من طابقين ومصطبة. وكانا يقضيان الصيف في دارتهما، في «بيارتين» كما يخبر بذلك دانييل «بوتان». وكان ادمون يجتمع بين وقت وآخر بمجلس الإدارة، ويمثل فيه زوجته وأرملة أبيها.

وكان من لاعبي غولف «البوليه»، كان ينظر إلى ذلك كله وكأنه مزحة. وكان مضحكاً عندما يتكلم عنه، لم يكن يؤمن بهذه العمليات السحرية التي كانت ثروته تنبع منها مع ذلك. ولم يكن اتحاد شركات سيارات الأجرة بحاجة إليه عملياً، لقد كبر، كالفطر، على مؤسسيه، ولم يكن جيل أصحابها الجديد يولي ذلك الاتحاد من العناية ما أولاه كيسنيل وشركاؤه، كان هناك رجال إدارة ماهرون، وضرب من جهاز ضاعت فيه الذاتية الفردية. وإذا كان باربنتان قد احتفظ بمكتبه (وهو مكتب كيسنيل القديم) الذي يفترض أن يمر به بانتظام، إلا أنه كان جلياً أنه إنما أراد أن يحتفظ بحريته أكثر مما أراد أن يضحي بها للأعمال التجارية. وكان ذلك الاتحاد، تفادياً منه لمساويء الرسملة، يقوم بشراء الأراضي، ويبني، وفي مبنى شركة «العقارات والسيارات» التابع له كان مكتب «باربنتان». والواقع أنه اكتفى بأن يكون غنياً ووجد ذلك كله مهزلة كان أوريليان يحب كثيراً تلك اللهجة التي يصطنعها «باربنتان» ليتكلم عن الشؤون المالية، لم يكن مغفلاً البتة، ولا رصيناً، ضد المغرور. بل كان فيه «جانب» مشعوذ... فاجأ أوريليان نفسه وهو يفكر في هذه الكلمة «جانب» الملائمة جداً، التي تنطبق على كل شيء عندما يقصد إلى تحديد ما لا نعرف تحديده، ما لا يشبه غيره، كانت تلك الكلمة حينئذٍ شائعة، شائعة على نحو فظيع، كان ذلك آتياً من رواد «الثور على السطح» ومن جمهور الباليهات الروسية، لم يكن أوريليان من هؤلاء، لكنه كان يصاب بالعدوى من ناقلي الجرثومة، مثل ذلك الطالب الخارجي الذي تحدثنا عنه آنفاً، «الجانب» المشعوذ هو إذن ولادة المال وعلم تحويله، حب غريب، رجال حول طاولة، يقرأ أحدهم تقريراً لا يصغي إليه أحد، ثم يجري تبادل التوقعات وتتم الولادة عند شبابيك المصارف، في الحسابات

الخاصة بالطبع، في الطابق الأول، لا حيث تنتظر عامة الناس الجالسين على مقاعد من السنديان، وبين أصابعهم الأرقام النحاسية.

كان من غير المعقول تقريباً أن يكون لهذا الشاب الرياضي الأنيق الملبس، مايمت بصلة إلى تلك الشخصيات التي تكتنفها الأسرار، التي لا وجه لها، والتي كانت تكوّن في خيال أوريليان، عالم رجال المال، رجال الدليل الذين نستطيع أن نتتبّع آثارهم في فهرس الشركات المساهمة من الكهرباء إلى المناجم ومن صناعة النسيج إلى الخطوط الحديدية.

كان ذلك يخيفه قليلاً عندما يفكّر فيه، ثم إن ذلك كان يجتذبه لاتصاله بعالم مجهول. وفي الوقت ذاته كان يقول في نفسه إن ذلك كان أثراً من آثار الحرب، كان ضرباً من تجديد شباب المجتمع، علامة على... لقد ترمى بروح الأسف على العهد البابليوني وعهد جنرالات الخمسة والعشرين عاماً.

في ذات مساء من صيف ١٩١٦، في أعالي «الموز» شهد الملازم المرشح «أوريليان» قدوم طبيب مساعد ألحق بسرية المشاة التاسعة حيث كان قائد فصيلة السرية الثالثة عشرة. وكانت سرية من الأشداء، نقيبها ضابط متخرج من المدرسة العسكرية، وكلهم شاربو خمير بلا طعام، ازوار نساء، ألفاً للصخب، وبينهم من نال أوسمة من أوسمة الحرب، وقد عزل. فيها أربعة أطباء مساعدون، قُتل أحدهم، أما الآخرون فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هذا الهرل القذر والكحول، والاستنفار الدائم، وأما الأخير فلم يكن يطبق تلك الاعارات التي كانت متوقعة على المخفر الصغير، مع تلك الضوضاء التي تحدثها الضفادع في الأسلاك السائكة والتي تُوهم دائماً بهجوم مضاد، بدورية، وأصيب بمرض في القلب. ولذلك استقبل القادم الجديد بروح باقذة. كان طالباً في الطب ترك مهنته وتذكّر تسجيله في غمرة الحرب ليتخلص من كتيبة قناصة كان فيها عريفاً. وقد ساعده ذلك أيضاً في زمن السلم من أجل تأجيل خدمته، ثم إن باربنتان هذا كان وسيم الطلعة، حلو الصوت، كان يغني في المطعم وقت تناول الحلوى.

وقد انيطت إليه مهمة الطباخ، فكان يقوم بها قياماً حسناً. وكان يتلقّى بالبريد كبداً دسمة. لم يكن عديم الشجاعة، فلقى القبول.

ومع أنه كان هو وأوريليان من سن واحدة وقرعة واحدة، فقد كان لا بد من سنةٍ كاملة لكي يرتبط به أوريليان، وذلك قبل سفره بالذات الى سالونيك في ١٩١٧ في الفتره الحافله بالاضطرابات، في هذا الوقت، لم يعد أوريليان يؤمن بشيء.

لقد طال أمدُ الحرب كثيراً، وزاد عليها تلك الثكنة المخيبة للآمال، كانت الروح المعنوية في حالةٍ يرثى لها، الجنود والضباط أيضاً، لفرط ما كانوا يسمعون أن الألمان لا يجدون ما يأكلونه، وما يصيبهم من شظايا الحجارة في وجوههم، تم ذلك الجو الذي لا يتغير. «فردان»، «أرتوا»، «الشامبانيا»، في ذلك الشتاء القاسي الذي حلّ بهم. وهذا بالذات ما حدا «أوريليان» الى تسجيل اسمه عندما طُلب المتطوعون الى الشرق، فبالرغم من قصة «الدرنديل» لا بد أن يكون للبلاد هناك وجهٌ آخر، وهل آمن بشيء قط، في الحقيقة؟... الأفضل ألا يكثر المرء من سؤال نفسه، إن هؤلاء الذين يسرفون في التفكير هم الذين سيسقطون ذات يوم، هكذا يُقتل الناسُ. يأخذون أولاً باضناء انفسهم، يقولون في أنفسهم إنهم لن ينجوا، وحينئذ لا ينجون. جميع القصص التي تُروى بهذا الصدد، لعلها من قبيل المصادفة. لكن إذا كان الناس يعيشون في عالم من المصادفات فإن اللقاء بين رجلٍ ورساصة إنما هو مصادفة.

حينئذ تغلبَ مرحُ الطبيب المساعد باربنتان وكونه من صنف هؤلاء الذين ينطبق عليهم القولُ متى عرفت الشرّ سهل عليك اتقاؤه، على شكوك الملازم الثاني «ليرتيلوا»، فكان كلما اشتدت همومه لم يجد ما يقاوم به الودّ الذي أخذ يشعر به تجاه هذا الشاب الذي كان سيجده سطحيّاً ومتكفّفاً، لو ظلّ يتوقف عند مثل هذه الأمور في حين أحسّ الجميعُ بقوة أنهم طعمَةٌ للموت. لا يختار المرء رفقاءه في الحرب كما أنه لا يختار أصدقاءه في زمن السلم. كان أوريليان في هذه اللحظة بأشدّ الحاجة إلى مَنْ يتعلّق به، كانا يلعبان بالشطرنج معاً، دون أن يُحسنا اللعبة، ابتدأت الأمور هكذا، ثم افترقا، وكان لا بدّ من هذا الحرح، عند نهاية الحرب تماماً، ومن هذا السفر الطويل على ظهر سفينةٍ، ومن

العودة إلى الشاطئ اللارودي، ومن المستشفى، لكي يتيح له الحظّ ثانية الاتصال بهذا الصديق «ديفوكوا» الذي كاد ينساه، وقد تبين أن المستشفى الذي عولج به وساقه في الجبس، مع الجرح الجانبي الذي أبى أن يلتئم، إنما هو بيت السيدة «كيسنيل» أرملة والد زوجة ادمون. بدا له ذلك علامة دالة.. فكتب إلى طبيبه المساعد القديم. ربما دفعه إلى ذلك أملٌ خبيءٌ بأن يُدَلَّلَ قليلاً، بأن يحظى بعناية أكبر. فالتقيا، وتتعبّ بهما الحديث.



الحقيقة أن أوريليان كان لا يحب كثيراً أن يحدث عن الحرب، وأنه كان يخشى ترثرة الذين خاضوها كما كان يخشى الفضول الفاسد للذين لم يخوضوها. ما كان بوسع أن يشرح النتيجة المنطقية لهذه الأشياء، لكن سياسة ما بعد الحرب كانت تضايقه تقريباً بالطريقة نفسها، لم يلبّ دعوات شركات القدامى من افواجه، ودعته جمعيات كثيرة فلم يدخل أياً منها. كان يُنقل معه حربه، وله وحده وكأنها جرحٌ خفي. كان سيء المعرفة بما يجري، الانتخابات، الوزارات، لم يكن يقرأ ذلك البتة في الصحف، وكان يفضل عليها الرياضة والمسرحيات. وكان يصغي بشروءٍ إلى ما يُقال له عنها، وكانت الكلمتان أو الثلاث التي تلفظها شفتاه حينئذ تنم على جهله، وتجعل أصدقائه يصنّفونه على أنه من رجال اليمين، طيب، قبلنا باليمين، أنت، يارجل اليمين... أوريليان الذي هو من اليمين...

لم يُبلّ من هذا المرض الذي طال، لم يكن يفلح في الهيمنة على أفكاره، ولم يكن يعثر على مجال لاستخدام طاقته، وعلى الأصح لم يكن يُحسن أن يُريد. وتلك نتيجة طريقة لحالة عنيفة تبدو أنها مدرسة الشجاعة والعزم الرجولي. لكن الجندي لا يُصمّم من ذاته أو هو لا يُصمّم إلا في إطار عمل مفروض عليه، كان أوريليان يقول في نفسه أن الحرب ما كان لها أن تقذف بجميع الناس في هذا التذبذب، وكان يتهم طبيعته. ولم يعلم أنه كان بشارك في مرض كثير الانتشار. بيد أنه كان بحاجة إلى العمل ليعيش، فالجوع واللبؤس قد يحلان محل رؤسائه ليمليا أمرهما الجديد بالسير، لكنه كان مبتلى بهذه البلية المستساعة وهي أن عليه ألا يفكر في غده، فإرث والديه الذي وُزِع عند موتهما بينه وبين أخته البكر جعل لها المعمل الذي كان زوجها يُديره فعلياً منذ حوالي عشرين سنة، وحصل هو على أرض «سان جينييه» التي كان يستثمرها مزارعون ممتازون، وكانت المزارعة مع ما يُرسله إليه زوج «ارماندين» كل سنة، تبلغ نحو

ثلاثين ألف فرنك، كان ذلك حينئذ هو اليُسْر الذي عبّر عنه مسكنه العزوبي في جزيرة «سان لويس»^(١)، وسيارته الصغيرة ذات الأحصنة الخمسة، وفكرته عن الحرية.

وإذا كان قد تسجّل في كلية الحقوق فذلك تنازلٌ خالصٌ منه للرأي العام. فلم يكن ينوي الدوامَ فيها، بل إنه فعل ذلك التماساً للعُذر، وردّاً على أسئلة أصدقاء الطفولة الذين التقاهم. وقد مضى عليه من الزمن ما يكفي حقاً لنسيان ما كان تعلّمه قبل الحرب، وحتى قبل الخدمة العسكرية. تصوّروا ثغرةً من ثماني سنوات. نحح حينئذ في امتحانات السنة الثانية، ولم يزد على ذلك، وعلى مقاعد الدراسة، تعرّف بخاصة على الفتيات اللواتي كن يتهرّبن من بيوتهن بحجة الدروس. وهكذا اتّصل بأوساط شتّى، وكان أكثر اهتماماً بتنوع الناس والأوساط منه بالقوانين التي تحكمهم، وشيئاً فشيئاً، هجر الدروس والفتيات اللواتي كان يلقاهن فيها، ولعل ذلك لأنه استنعد امكانات المدرسة كما يُستنفد امكانات المقهى الذي ألفناه. كان يحسّ على العموم، بأنه طاعنٌ في السن جداً وسط هؤلاء الشباب الذين كانوا أصغر منه بعشر سنوات، وكان التدريب الذي يقوم به لدى المحامي «بيرجيت» خالياً من الجِدِّ. وقد قبل به المحامي «بيرجيت» في مكتبه وإن زاد عن اللزوم لأنه كان يعرف أهله. وكان يعلم أن أوريليان ليس سوى هاوٍ، شابٍ ذكي من غير شك، يمكنه أن يوضّح قضية الزبون توضيحاً جيداً خيراً من توضيحه لقضية الزبونة على كل حال، وكان تكليفه استحواب احدهم مع ورقة وقلم كسباً للوقت، إذ سرعان ما كان يعثر على النقطة الجوهرية. صحيح، لكنه كان غير منتظم الدوام. ما كان يمكن الاعتماد على وجوده، وكان المحامي بيرجيت، من جهة أخرى، يفهمه لم يكن طموحاً أبداً، وكان له إirاده... لم ينصحه، وكفّ عن اعتباره مساعداً، ودعاه إلى العشاء في نهاية الأمر. ترك «ليرثينوا» الدراسة، دون أحاديث ولا مناقشات، ولم يعد يعمل شيئاً.

كانت عطالته تغتذي بقلق يشبه كثيراً القلق الذي عرفه في اوقات الفراغ الطويلة، في الخنادق. ولا شك أن قلق الخنادق هو الذي مهّد الطريق لقلقه

(١) في باريس.

الحاضر، وجعل الانتظار بلا عاية وجعل غياب المنظور شيئاً طبيعياً فيه. مع هذا الفرق الجوهرى وهو أنه يستطيع الآن أن يعتقد أنه سيد حياته.

ماذا يلزمه إذن فوق ذلك أو غير ذلك؟ من الخطأ الحكم بهذه السرعة على أوريليان، والاعتقاد بأنه راض، أو الاستدلال بقلقه على مطامح أعلى، على الطمع. فالحياة التي قُدرت له، هذه الراحة، هذه الطمأنينة الظاهرة، لا يد له فيها. لم يتحرر هو ذلك كله، لم يرغب فيه. لقد وجد ذلك كله عند عودته. وحتى شقته كانت لصديق مُعسر أخذها خدمةً له، وابتاع عربته من رقيق بدأ تمتيله النيابي. وكان في غنى عن زيارة الخياط فهو يؤثر الملابس الحاضرة. ولم تكن له مبادرة أولئك الذين يحبون الطعام. كان غير مبالٍ بالطعام. ولما لم يتخذ في بيته شيئاً لأعداد الطعام فقد اكتفى بالحانة الصغيرة على رصيف «بيتون»، وهي مطعم رخيص الثمن كان يأكل فيه البحارة. كانت إقامته هكذا، منذ ثلاث سنوات. وإذا ما فكرنا أن هذه السنوات الثلاث كانت، في الحقيقة، حياته كلها، بعد ثماني سنوات من الخدمة، وبعد الأيام غير المسؤولة في الحي اللاتيني عند خروجه من الثانوية، أدركنا أنه بلغ الثلاثين ولم يكد يدخل الحياة، وأنه مازال يحبس وهو في الثلاثين، أنه في ثياب رجلٍ آخر، مثل دخيلٍ في هذا العالم، مثل طفل انسَلَّ إلى غرف الاستقبال في مسكن ريفي، مغاليق شبابيكه مُسدلة، والأغطية تغطي أثاثه.

الغريبُ في القصة كان فقط في أنه وصل إلى هنا عبر سهول الشمبانيا والأرتوا المرعبة، عبر شمس «تراسيا» والعنف القاتل. الغريبُ أنه عاش في الخنادق-الطباشيرية، في الوحل، في الأرض والقَدَر، قبل أن يحلَّ بهذا المِجثم الذي تديره السيِّدة «دوفيني» خادمة المنزل، الغريبُ كان تلك القوة الغافية والذكرى القابعة في نفسه، ذكرى الذين ماتوا بين يديه، لم يكن يفكر في ذلك إلا قليلاً، فالمرءُ يحَيِّ جانباً الصور المؤلمة لزمان انقضى، تلك التي لا يُكرهها شيءٌ على الظهور ثانية. إنها تنتقل، على نحوٍ غير محسوس إلى مصاف الأحلام، إلى اشتباه الأحلام القديمة وما فيها من إحساسٍ بأنها قد شوهدت من قبل، قد حُلم

بها من قبل. لم يكن أوريليان متأكداً مثلاً، من بعض فصول طفولته، ومن المساجرات بين أبيه وأمه في هذه الشقة في شارع «كورسيل» حيث استقروا حالما استطاع «جاك دوبريه» أن يؤمن سير العمل، دون الحضور الدائم للسيد «ليرتيلوا» الأب. إن الكثير من شؤون طفولته كان فيها هكذا إبهامُ الأحلام واشتباهاً، بل ربما كان ذلك مبالغاً فيه لقد احتفظ احتفاظاً أقوى بذكر بعض الفصول التي كان واثقاً ثقة ثابتة أنه حلم بها... مثلاً أن لصوصاً كانوا يسطون بشكل معتاد على غرفته وهو طفل، عن طريق الشرفة، مع قطعة الأرضية الخشبية كل ليلة، ومع خفقان القلب الذي أصابه فيما بعد وهو مضطجع، في الأسلاك الشائكة، في «الايبارج»...

كان السيد والسيدة «ليرتيلوا» على غير وفاق وإن لم ينفصل أحدهما عن الآخر. الأسباب ذاتها لها أو يبدو أن لها نتائج متعارضة فالمشاجرات العائلية دفعت «ارماندين» إلى الزواج، أما «أوريليان» فقد كان يزعم أنه إن لم تكن له علاقات نسائية أو إن لم يتزوج فمرد ذلك إلى تلك التجربة العائلية التي كانت تجري أمام عينيه، وكانت كلمة «عائلة» فضلاً عن ذلك، تتخذ في فمه مذاقاً مرّاً، مثل كثير من الكلمات. كان يزعم، في نهاية الأمر، ولكي يكون صادقاً مع نفسه، كان يعترف أن تلك حجة ملائمة، اخترعها ذات يوم ورددها لكي يتخلص من المسائلين والمزعجين. لقد اعتاد الناس أن الرجل إذا بلغ الثلاثين أفصح عن رغبته في الزواج واتخذت حياته مسار حياة الآخرين. ومن لا ينصاعون لهذه القاعدة يثيرون السخط والقلق، على نحو يقل أو يكثر، أي إن لم تكن فيهم أفة ظاهرة، نقص ينم على ذاته. ثم إن هناك الأزواج الذين يجدون هذه الحياة سيئة. فالعزب دون علاقة غرامية شيطان. كان يكفي أن يرى أوريليان وهو يُحدد النظر إلى امرأة ليُدرك الخطر. لا شك أنه لم يكن «دون جوان» لكن الآخرين لا يعلمون عن ذلك شيئاً. والقليل من الجاهزية الدائمة عند الرجل تغدو محسوسة ولا تكاد تغتفر لدى من ليسوا مثله، ولا سيما إن كان أطول منهم بسبعة سنتيمترات أو ثمانية، وإن كان عريض المنكبين، وبدا عليه أنه لا يتمسك بشيء.

يجب دائماً أن نتذكر أنه لم تكن لديه سوى ثلاث سنوات حرة لكي يحدد مصيره. ثلاث سنوات أراد فيها أوريليان أولاً أن يعوض فيها تجربة الزمن الضائع، لا في الدّوامة العسكرية، لكن في حياته الخاصة. أرادت أخته على الفور أن تزوجه، كانت أخته على العموم تحب أن تزوج الناس. كانت الحياة خارج الزواج تبدو لها غير ممكنة التصور، فارتدت بعزم على «جاك ديبريه» منذ بلوغها سنّ الرشد، وارتاحت إلى ذلك. كان لها ذوقها الراسخ في الحب، والحاجة إلى الرجل الذي هو أساس عالمها. ولذلك كانت هذه المرأة الشريفة لا تفهم البتة كيف لا يتزوج الإنسان، إلا أن يكون ذلك من جرّاء روح التهلكة الكريهة. ولا بدّ من القول أنها لم يكن لها أيّ تأثير في أخيها الشاب، وفشلت جميع محاولاتها، بل إنها أبعدت أشدّ الأبعاد، «أوريليان ليرتيلوا» عن الزواج. كان - هو وأخته ارماندين - متباينين تبايناً شديداً، وكان يكفي أن تفكر على نحو من الأنحاء حتى ينعطف إلى قرار معاكس.

هذا التباين بينهما لم يكن معنوياً فحسب، لم يكن بينهما جامع، من الناحية الجسدية، سوى القامة المشتركة. كانت ارماندين ديبريه امرأة طويلة. لكنها ضخمة على خلاف أوريليان، مع ضرب من امتلاء الشبع، وجلد مشدود على عضلات ريلة، بحيث أنها لم تكن تُعطى أكثر من عشرين عاماً وأنها لم تبد قط في الأربعين، وكانت شقراء أيضاً، شقرتها معقولة تباين سواد شعر أخيها. شقرة ملساء بقدر ما كان سواده جعداً. وكانت هادئة، قوية. والخلاصة أنها كانت المرأة اللازمة لجاك ديبريه هذا الدموي، المشدود الحزام، الذي حافظ لفرط ممارسته الرياضة على المشية الخفيفة لجسد تترصده السمنة، ذي شارب مدبّب وشعر قصير واقف، وذقن ضخمة، وعنق غليظ إلى الحد الذي لا يمكن العثور على قمصان له. وكان، على كل حال، يخدع ارماندين كثيراً. لكنه كان من أولئك الرجال الذين لا تكفيهم امرأة واحدة، وحتى ولا المرأة النهمّة مثل زوجته.

في المشاجرات بين السيد والسيدة «ليرتيلوا»، كان هذا الفرق الجسدي بين ولديهما موضوعاً يتردد ما شاء له التردد لأن ارماندين كانت حقاً تشبه

أباها، لكن أوريليان لم يكن يشبه لا السيد ليرتيلوا ولا أمه الجميلة، الرقيقة الجسم، الشديدة الخفة، الدقيقة، مثل جميع أفراد أسرتها في أهلها، وكان الناس يؤكدون أن الوصية والقسمة في أسرة «ليرتيلوا» فُسرتا على هذا الأساس، وأن السيد «ليرتيلوا» ترك المعمل لابنته لا لابنه، وأن أرض «سان جينييه» ألت إلى الابن من جهة الأم، ولقد دار بخلد «أوريليان» أحياناً أنه ليس من أسرة «ليرتيلوا» وأن أمه عرفت عشيقاً، رجلاً طويلاً أسود من أقرانه وأوحى اليه بذلك، من جهة أخرى، أناس طيبون، وربما كان بحاراً، وبعد فلاحية تُذكر لهذا، كان أوريليان على جانب كبير من التهاون بحيث أنه لم يحاول قط جلاء هذه الحكاية، كان أحياناً لا يسوءه التفكير في أن هذه القصة حقيقية، فقد أحب كثيراً هذه الأم التافهة، الخارجة عن جادة الصواب، مع أنها لم تمنح ابنها الكبير الذي هبط عليها من السماء، سوى القليل من الوقت.

كانت ارماندين تكبره بثمانى سنوات، كان عمره ثلاثة عشر عاماً عندما تزوجت، ولم تقم بدور الأخت الكبرى إلا عند عودته من الحرب لتقدم له فتيات كانت ترعاهن وترى أنهن يصلحن أزواجاً لأخيها، كان قد وُضع في مدرسة داخلية ثانوية، لأنه كان يُضايق أباه وأمه، كان موضوعاً لأحقاد مستمرة، وبعد أن تزوجت ارماندين، كان وحده هو الذي يشوُّش تلك الحياة الاجتماعية الراقية التي تحياها فيرناند ليرتيلوا الجميلة، كان يحبها، تلك الأم الجميلة، على طريقته، كانت هي فكرته الأولى عن المرأة، بسبب التعقيد غير العادي لزيبتها، والعناية التي كانت توليها نفسها، لم يكن يحب أباه الشديد الشبه بارماندين إلى الحد الذي يغدو فيه ذلك الشبه مزعجاً، بشاربيه الطويلين ونظارته الأحادية الزجاجية، كان أوريليان الشاب في فوجه في «كوميرسي» عندما علم بتلك النهاية القاسية التي انتهت بها قصة والديه اللذين قُتلا كلاهما في حادث سيارة، على الطريق، قرب أفينيون، حادث، لم يقنع أوريليان قط قناعة تامة بأن سبب القتل حقاً حادث، كان أبوه يقود السيارة فاندفعت بسرعة جنونية لترطم بشجرة، كان أبوه يحسن قيادة السيارة بولا شبيء يفسر هذا الجنون، هذه السرعة الطائشة،

هذه الوثبة فجأة خارج الطريق الذي لم يكن يمرّ عليه أحدٌ. لعله العصبُ، المشاجرةُ، كان عمرُ «فرناند ليرتيلوا» حينئذٍ ستة وأربعين عاماً، وكان الناس يتحدثون عن زينتها، وكان أوريليان يفكرُ في أبيه، على الرغم منه وكأنه قاتل. منذ عشرين سنة كان وميضُ القتل في عينيه. ففي ذات يوم كان الوالد والابن عائدين فيه الى المنزل، وكان عمر أوريليان خمسة اعوام...

عندما يُقتل أبوك وامك في حادث سيارة فأنّت تُمنَح اجازةٌ للدفن. جرى الدفنُ في «أفينيون»، في ريح الميسترال العنيفة، في قلب الشتاء من عام ١٩١٢. وقد كان هناك صديقٌ قديم للأسرة بادر الى الدفن، وكان الاولاد يدعونه العم «بليز»، مع أنه لم يكن شيئاً يذكر بالنسبة إليهم، وامراته الطيبة التي لعلها كانت جميلة قبل اربعين سنة، بصوتها الجهوري وشعرها المسبّل، استقبلا أوريليان وعُنيا به. أما أخته فلم يرها إلا في الموكب وقد انتظرت ثوب الحداد اربعاً وعشرين ساعة لتأتي، كان «ديبريه» وزوجته التي وصلت بثوب الحداد، يسيران خلف النعشين، مع ذلك الفتى العسكري الطويل، ووكيل الاسرة، وكان «ديبريه» يمسك «ارماندين» من ذراعها ليمنعها من النحيب. وكان يسحق تلك الذراع بقبضة رجل الأعمال الى الحد الذي استطاع فيه، عند المساء، أن يعد آثار تعزية أصابعه الخمس على جلد امرأته. حينئذ علم أوريليان نهائياً أن ليس بينه وبين هذين الزوجين، أسرته، أي جامع مشترك.

لكن اذا كان إلحاح «ديبريه» وزوجته على تزويجه قد أبعده عن الزواج، فربما كان بوسعه أن يُسارع فيربط حياته خارج الزواج، بامرأة كما كان يحلم بهن أو بامرأة قد يعجبها، بواحدة من تلك النساء اللواتي كان يعجبهن. لأنه كان مُعجباً، ولم تبدر منه قط البوادرُ اتي قد تستبقي المرأة، وكل ماقام من علاقات بينه وبين فتوحاته النسائية - وفي هذه الكلمة شيءٌ من عدم الدقة بالنسبة إلى أوريليان - قد انحلّ بسرعة كبيرة لأن النساء لا يتحملن هذا الإغفال الممزوج بالاحترام الذي يكنّه لهن، كان عزباً أيضاً بسبب كل هذه السنين بدون أي

شخص، ومنذ أول صباح كانت النساد يشعرون أنهم دخيلات عليه، ولا يغفرون له ذلك.

ومع ذلك فقد فكّر أحياناً في صديقتين أو ثلاث كان يمكن لهن أن يبقين هنا، أو أن يعدن، أن يعدن دائماً إلى أن... كانت تلك أحلام يقظة غير تامة، ملتبسة. كان اوريليان يخشى أن يكذب على النساء، أن يضطر إلى الكذب عليهن. لم يقل قط لامرأة أنا أحبك، مع أنه حاول أن يفكر في ذلك، كانت له فكرة سامية جداً عن الحب. وكان له أيضاً هذا الحياء من الاعتراف بالحب. وهو حياءٌ يستطيع أن يحول، أكثر من أي شيء آخر، دون ولادة الحب. لم يحب قط. كما كان واضحاً أنه لم يحب قط. ويمكن القول إن بعض النساء قد رضىن باوريليان، لا أكثر، وهو في ذلك شبيه بأولئك الفتيات الجميلات اللواتي يلقين كثيراً من النجاح، لا من التعلق بهن. بل لقد ترك لدى عشيقاته إحساساً بأنه هو العتاة في مغامرتهن. وكان ذلك يهزهن هزاً، ولا سيما بسبب مظهره الجسماني الذي يخلو من اللطف المتكلف. وكان ينفصلن عنه من ذاتهن، وقد أصابهن شيء من الخيبة، دون أن يحققن عليه، سعيدات لأنه لم يلح عليهن، ومتكدرات، جسم عجيب.

كان يحتفظ بصداقاته الانثوية عندما يفقد الحب. بل كان يغدو موضعاً للسر مريحاً. والحاصل أنه لم يكن يترك أثراً خطيرة، وكان ذلك مدهشاً لأنه كان يستطيع أن يمنح النوار، لكن مرة واحدة. ولما كانت تستأنف العلاقة، دون أن يفسر السبب في ذلك.



قالت بيرينيس: « مهلاً، يابن عمي، فهو لم ينظر إليّ ». وظهرت عليها المضايقة الشديدة التي بدا أنها تزيد من شحوبها. وتابع باربنتان.

بما أنني أكرّر لك أنه لم يكن له من همّ طوال الطريق سوى الكلام عليك، وطرح الأسئلة غير المباشرة، بلهجة من يخاف أن يكتشف الآخرون دخيلة نفسه...

قاطعته بلانشيت قائلة:

- أنت سخيف، يا صاحبي، بمضايقتك بيرينيس، فأنت ترى أن ذلك مزعج لها...

- وما المزعج في أن تُعجب، وأن تُعجب شاباً مثل أوريليان الذي لا هو سيء ولا هو خالٍ من الجاذبية، وإذا كانت بيرينيس تعلق على ذلك مثل هذه الأهمية، فأنا أميل إلى الاعتقاد أنها هي أيضاً...

نهضت بيرينيس وعبرت الصالة. بدا عليها أنها تتعذّب حقاً، وتبعها ادمون بنظره بين المقاعد والمارق، مثل زورق بين صخور الشواطئ. وكانت ثلاث درجات عراض تفضي إلى المكتبة بسقفها الجلدي القرطبي المذهب والأحمر والأسود. لكن المرأة الشابة لم تذهب بثوبها الأزرق طلباً لكتاب يصرفها عما كانت فيه، فمن المكتبة يمكن المرور إلى المصطبة. والهواء الذي اندفع إلى الغرفة دلّ على أنها فتحت النافذة.

كان عمر بلانشيت حينئذ سبعة وعشرين عاماً، وقد احتفظت بصفائرها الشقراء - صفائرها منذ أن كانت طالبة داخلية - المعقوصة على شكل دويرات فوق الأذنين، كان وجهها طويلاً كوحه أبيها، وكان مناسباً لها أنه سمن سمنة خفيفة. وكانت لا تكاد تفارق الثياب السوداء، وبدرت منها تلك الحركة المألوفة من يديها المفنوحتين عارضتين راحتيهما ومتعاعدتين، وهي حركة كان ادمون يمازحها بها.

- رويدك، لقد هجّتها مرة أخرى... أنت تعلم جيداً أنها عصبية، وهي تأتي إلينا لتُسّرّي عن نفسها، وأنت سوف...
- أيتها الغرّة الصغيرة، ما الذي يُسرّي عن امرأة أكثر من رجل يغازلها.
- لكنه لا يغازلها...
- سوف يفعل ذلك.
- ماهذا، أهى مؤامرة؟

على المصطبة المَرُضَة للريح، كانت بيرينيس ترتعب من كل خردوات السقوف فوقها قبعات الزنك، الخوذات ذات الدخان، فرسان ودون كيشوت، مداخن... ثم هل في العالم منظر أبلغ تأثيراً من أعالي مباني «باسي» المتسلّقة فوق غيرها، والتي تشكل مايشبه نيويورك ضائعة في أراضٍ غير مسكونة.
كان المنظر يُشرف على السنين والقناة وجسر «الميترو» مع «التروكاديرو» و «شان دي مارس» وبرج «ايفل» وكل المدينة، كل المدينة اتي تنتهي بالبياض هناك، مثل عروس، بكنيسة «القلب الاقدس» وبين الفينة والفينة بريقٌ ذهبي على قبة في شمس الشتاء. أعماق الشوارع كالشقوق.

لم تستطع «بيرينيس» أن تمنع نفسها، من الجمع بين باريس الراحشة المجهولة المحفوفة بالاسرار وبين هذا الشاب الطويل الصّمت الذي لم يفعل مايبايقها، والذي لم يزد على أن ناولها صحيفة الطعام، وإن التقت نظرته مرة واحدة. قلبت الريح على المصطبة أصيصاً من الفخار فتحطّم. وارتعبت بيرينيس واغرورقت فجأة عيناها بالدموع، أهو طالعٌ سوء؟ كلا. لا ينبغي لها أن تستسلم للطوالع، كما كانت تستسلم قديماً في البيت الكبير، لا ينبغي لها، وباريس من حولها مترامية الأطراف، غير مضيافة، وعلى جيدها الرمادي أضواء وردية عريضه، كان يدعى اوريليان.

دخلت الصالون «ماري روز» و«ماري فكتوار» مع المربية، كان عمر «ماري روز» سبع سنوات، من مواليد ١٩١٥، عندما انقطعت اخبار ادمون الذي كان في فردان، عن بلانشيت، وكان عمر «ماري فكتوار» بعمر النصر، أي ثلاث

سنوات ونصف، وكانتا تلبسان كلتاهما ثياباً بيضاء، وقد رُدَّ شعرهُما إلى أعلى الرأس بشريط وردي، وكانتا كلتاهما تشبهان أمهما وجدهما صاحب سيارات الأجرة.

قالت المريئة: سوف آخذهما إلى منتزه «رانلاغ»، لكن «بلانشيت» كانت تنظر الى زوجها وهو يعبث بالهاتف.

- «مالك، يا صاحبي؟ (حسناً، يا أنسة، يمكنك أن تأخذيهما) لمن تُريد أن تهتف، دون أن أسمع؟».

كانت تعرفه... وما كانت تعرفه فيه... احمرَّ خجلاً، واغتاظ من أن أمره قد انكشف مرة أخرى.

- «اوه! دون أن تسمعي، ماري روز هيّا، ألا تعانقين والدك؟ ليس لديّ ما أقوله للسيدة «دي بيرسيغال» مما لا تستطيعين... حسناً حسناً يا صغيرتي الطوة، وأنت، يا صغيرتي «فكتوار»؟ (ورفع بيد ممدودة البنت الصغرى، وكأنه يريد أن يُرقصها في النور، ثم حطّها على الأرض، ولم تفارق يده الأخرى الهاتف).

«أه! تريد ان تهتف للسيدة «دي بيرسيغال»...؟»

امسكت الأنسة بالبنتين باتضاع، وقد غاب لونها. وقادتاهما إلى الباب. وعندما خرجت قال «ادمون»:

- أهو تقرّيعٌ لي؟

- تقرّيع؟ يا الهي، لا. بين عشيقائك مَنْ تُثير غيرتي، إلا «بيرسيغال» التي بلغت...

- ستة وثلاثين عاماً.

- تُصرّح هي بها! ويعود تاريخ حماقات شبّابك معها إلى ... متى ... إلى؟

قالت ادمون وهو يفرّق بين المقاطع

- سنة ألف وتسعمئة وثمانية عشرة، يا عزيزتي، كنت حلي، وكانت

الاجازات قصيرة

- لستُ ألوّك على شيء.

- لا ينقصنا سوى هذا... بالمناسبة القطاع الهاتفي، هل تذكرين، أهو

«باسي» أم...»

- «تيرن»، كيف، ينبغي أن تعرف ذلك خيراً مني!

طلب الرقم من «تيرن» وهمس، وهو ينتظره، ويده على الهاتف، وقد

استدار نصف دورة «لا أستطيع أن أتصوّر أن «تيرن» هي القطاع الذي نطلب

منه شارع «بيلفي»...»

لم تكن السيدة «دي بيرسيغال» في بيتها.

- طيب، سأمرّ عليها.

وقالت بلانشيت: «خذُ لها شيئاً من البنفسج، فهي تحبّه، وهذا فصله...»



عندما تلقى «ليرتيلوا» دعوة السيدة ديرسيفال وهي بطاقة خبازية الون،
نُقش عليها شمواه^(١) يثب من جبل صغير الى آخر تحت راية كُتب عليها. «أنا
أخترق الوادي»^(٢)، قلبها عشر مرات بين اصابعه متسائلا عما يعنيه ذلك. لقد
قُدّم، قبل ستة أشهر، في «بوا» ولم يعد يذكر مَنْ الذي قدّمه، إلى أرملة المؤلف
المسرحي الذي كان زينة «البولفار» قبل الحرب. ثم اذا بها تدعوه فجأة، لم تكن
البطاقة بطاقة زيارة مع «ستستقبل»، كلا، بل كلمة خطتها بيدها. «أما زلت
تذكرني؟؟ سيزورني بعض الأصدقاء مساء الخميس، فتفضل، ياسيدي العزيز،
بالانضمام اليهم في نحو الساعة العاشرة، بالسترة الرسمية لانها تناسبك. دون
إلزام... ومن المسنحسن أن تحضر قبل خمس دقائق، فإني أود أن أكلّمك قبل
أن يصل المدعوون. وإذا أصررت أن تحمّل إلي شيئاً ما، فليكن باقةً من
البنفسج، لا بنفسج «بارم»، بل البنفسج العادي. لست أقبل شيئاً آخر ممّن
أحبهم كثيراً!!! «ماري دي بيرسيفال».

تخيّلها مرة أخرى. ليست بالطويلة، ولا هي بالمائلة الى القصر، برأسها
الكبير، وشعر بلون الحناء، وأساليب مركب يشق البحر، وساقين جميلتين تحب
ان تريهما، لكن في ذراعيها ونهديها نضجاً بارزاً... وتلك الشفة الرقيقة، النهمة.
نظر مرة أخرى إلى البطاقة الخبازية، ودهش من وفرة علامة التعجب
والاستفهام، الثنائية والثلاثية، وكلمة «تفضل» بأحرف كبيرة...

فكر: «لن أذهب»، ونظر إلى مفكرته... الخميس كان حراً.

كان «روبيردي بيرسيفال» طاعناً في السن بالنسبة إلى امرأته، عندما
مات في غمرة الحرب، مما حرّمه من نشر اسمه في باب الوفيات في الصحف

(١) شمواه حيوان في جبال البرينيه المترجم

(٢) بين اخترق الوادي وبين الاسم بيرسيفال جناس تام المترجم

كما كان من حقّه أن يأمله، كان ذلك في أيام هجوم «نيفيل»، وكان الموت قد انخفضت قيمته قليلاً، لكن موته جاء في الوقت المناسب لكي لا يحرم من الإرث «ماري»، وكانت تحبّ الطيارين، والجنود الانكليز، وحتى المدنيين، مع أنها كانت منفصلة عن زوجها فعلاً بعد ما يشبه الفضيحة، ولم يصل الأمريكيون إلا فيما بعد؛ إن منديلاً مخططاً وعليه نجوم ليُجمل نقاب امرأة، وهكذا فإن حقوق مؤلف «ابتسمي للطفل»، «بابوج وقلوب»، «نيني، اخفضي تنورتك»، وكثير غيرها من المسرحيات التي لاقت نجاحات باهرة جعلت الحياة ممكنة لهذه المرأة التي ماتزال شابة ولم تتجاوز السادسة والثلاثين. وقد جعلت من شقتها في شارع «البيل في» مجمّعا لأشياء غريبة، جُميعها بيضاء، أكاليل نعوش، باقات أعراس لافتات نزل «إلى الجواد الأبيض» أنية لبنية بيضاء، كلب من الخزف مجعد الوبر، داراب صغيرة من البورسلين الانجليزي، زنجي معرض يلبس ثياباً بيضاء، بالحجم الطبيعي، عند باب غرفة الطعام، وفي غرفة الطعام أغرب مجموعة من واقيات الصدر، من القمصان البيضاء، مع جميع النقوش والتخطيطات والمضلعات المصنوعة باللون الأبيض على نسيج أبيض من بلاد «الكو» حتى «اللانند»، مروراً بحفلات الاوبرا.

في الأنية المنتشرة في كل مكان، بنفسج وأزهار كنسية مدهبة، الأثاث مذهب، وهو مالم يعد يُصنع، وعلى الأرائك والكرسي ساتان ابيض، أما الستائر فمبطنة باللون الذهبي عند النوافذ.

هذا الجنون حمل الناس على الإكثار من الكلام بل والكتابة، ونشرت «الفيغارو» حول ذلك رسالة موجزة تقول فيها السيدة «دي بيرسيفال» إنه بما أن الآخرين يضعون على الجدران صحنواً كان يجب أن تكون على المائدة، فهي لا ترى لماذا لا تضع على تلك الجدران قمصاناً رجالية^(١)، كانوا يقولون إنها قمصان عشاقها، والحقيقة أبسط من ذلك دائماً.

(١) غير قياسية لكنها تناسب «نسائية» الشائعة

وفوق ربيع مؤخرة بيانو أبيض من طراز «ايرار»^(١) صورة سيدة المنزل رسمها «فان دنجن». تحت عينيها دوائر واسعة خضراء، وشعرها أحمر، وساقها متصلبتان تبرزان من الفستان البرتقالي في تصغير جريء، وفي يدها سيجارة دخانها أزرق. وكانت العلاقة بين الأصل والصورة معدة للتأمل. مثل علاقة ما ينتقل إلى الخلود، بلا شك.

وصل اوريليان في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، وفي اعتقاده أن ذلك مضحك، ولم يكن يعلم إن كان مدعواً بعد العشاء، أو إن كانت السهرة تبدأ إذ ذاك، والواقع أنه لم يكن هناك أحد، وأن الخادم أدخله إلى الغرفة الكبيرة التي كانت غارقة في الظلمة إلى نصفها، وسط أشباح بيضاء، وأشياء تافهة متكدسة. وكان الزنجي يحرس باب غرفة وإطئة رأي فيها الأقداح والصحون وأنضاد الشطائر، والكافيار، والزجاجات، ودوات المزج. وفي داخلها كان النور نافذاً.

انتظر عشرين دقيقة كاملة بباقته من البنفسج، وقد استبد به شعور اللامعقول، ولا سيما بسبب كثرة البنفسج في الأصص، فما أكثر، إذن، الناس الذين «تحبهم كثيراً» السيدة «دي بيرسيفال»... أخرجته صوت منحدر من الرواق فوق، خلفه، من السُعار الهادر الذي كان فريسة له.

«سيد ليرتيلوا» كنت أعلم أنك ستأتي!

كانت تهبط الدرج في فستان مذهب، يغطي الصدر والكتفين، بلا أكمام، وقد بدا ضيقاً، وكانت تضع على شعرها قبعة صغيرة مذهب لها أجنحة قصيرة انتفخ من تحتها الشعر الناري القاتم. وخُيل إلى اوريليان أنه لم يكن يرى في الوجه الناصع البياض سوى الفم الذي كان مثل خط دقيق من الحمرة. أقبلت تمد يدها اليمنى، وترفع بيدها اليسرى الفستان القصير رفعاً خفيفاً. وهي بذلك كانت تُري ساقها، لكنها عندما هبطت الدرج أخيراً، رآها اوريليان تتقدم

(١) صانع بيانوات فرنسي مشهور المترجم

بانفعال، لأنها لم تكن تمشي بل كانت تتقدم بسلطان جسمها، وتلك الطريقة الراقصة للحذاء الذهبي ذي الكعب الأسود، التي تتحدّى التوازن والتي تجعل بعض النساء لا يُقاوَمُن، وفكّر بكثير من عدم الاحترام «سيارة السيدة جاهزة...» ووقعت عيانه بتناقل على ذلك العنق المزيّن، الممدود، المقبل عليه، «أه! سيد ليرتيلوا، أنا عظيمة السرور برؤيتك هنا حتى لأظن أنني مجنونة حقاً... أو ساردة الذهن لأنني لم أطلب منك أن تأتيني أبكر من ذلك... وهو يحمل لي باقةً من البنفسج»!

تناولتها منه بعجلة، وهو يبهض من تقبيل يدها الذي ترك على شفثيه الإحساس بتدّ خواتمها، وحملتها كما يُحملُ الشيءُ الثمينُ، التمديد الدرة، الذي لم يرَ من قبل، كانت الباقة قدّامها لكي لا تغيب عن ناظرها، وذقنها متّحّة الى شيء أبيض سحبته من العتمة، من وراء المصابيح. وقالت - ما أظرفه، مع ذلك!

تساءل اوريليان إن كانت تقصد البنفسج، ودهش قليلاً، كما دهش من الحركة المسرحية التي بدرت منها وهي تعود بأصيص الورود إليه. أجلسته قريباً، على أريكة لشخصين، كان كلُّ منهما عليها بجانب الآخر وقبالتة. استرّوح عطرها ولاحظت ذلك، وهمتت قائلة

- لا تسألني عن نوع عطري! سنبدأ صداقتنا برفض من قلبي، وسيكون ذلك فائلاً سيئاً إن البوح سوع العطر هو كالتعري أمام أول عابر سبيل.

وبدا عليها أنها لاحظت مافي هذا الحديث من فظاظة، فوضعت يدها على يد اوريليان، فأحسّ مرة أخرى بخواتمها «ولست أول عابر سبيل...» أدرك ذلك حيداً، وفكّر في نفسه أنه لو طلب إليها أن تتعرّى لما تعرّضت صداقتهم لأن تندأ بالرفض. إلّا كان ذلك يقصد، على العموم؟ كان يتردد بين البرودة والوقاحة، وتغلّبت الضرورة في أن يقول شيئاً على الوقاحة.

«إنني أتساءل، ياسيديتي العزيزة، كيف تذكرتني فجأة... إن صحّ تذكرني، ففي غاب بولوبي، كان لي الشرف...» (وانحى انحاءة خفيفة) «وإن...»

- إذن، ماذا؟ أيها السيد العزيز؟ أتظن أنه يسهل نسيانك إذا كنت قد رأيتك هناك في الغاب؟

- كلا... الحاصل... كيف استطعت أن تعرفي أن السترة الرسمية تناسبني جداً؟»

نظرت إليه منذهلة، تم تذكرت، وانقلبت لتحسن الضحك، وضحكت أخيراً ضحكة حادة...

«أولاً، يجب أن يقال ذلك دائماً للرجال، فهذا يحيرهم ويرضي غرورهم، ويسرهم، ثم ما الخطر؟ السترة الرسمية تناسب دائماً أكثر من السترة العادية...»

نظرت إليه خلسة لترى إن كان ظنّه قد خاب، لم يخب ظنّه، كان يبتسم، وربما كان يبتسم بشيء من الضيق، وأدرك من جهة أخرى لعبتها، تلك النظرة المائلة، فغيرت مناورتها،

«بالنسبة إليك، كنت رأيتك بالسترة الرسمية مرتين أو ثلاثاً، من بعيد، مع السيدة «دي نوتنكور»...

أظهر توجيهه من الغمزة بـ«أه؟» تنمّ على الضيق، مما أطلق الضحك ثانية، وأحسّت السيدة «دي بيرسيغال» أن عليها تنمية هذا الضيق...

«نعم» وطبعاً، أنت لم تلاحظ حضوري، لما تعودت من أن تتجه جميع الأنظار إليك...

«اقسم لك أنني إن كنت أتذكر حقاً... في حفلة سترافنسكي الموسيقية... لا... في «البوف»

- أوه! كان هناك زحمة شديدة...

- وفي سهرة تلك الراقصة الدائرية...

لجأ من جديد إلى الوقاحة.

- في حفلة كارياتيس؟ ممكن... لكنني كنت باللباس...

نظرت السيدة «دي بيرسيغال» نظرة الصياد إلى الطريدة التي وثت وثبّة

لعلها لا تنفعها، لكنها أخرت إطلاق النار
- جميلة هي «ديان دي نوتكور... وإن كانت قاصرة فكرياً قليلاً... أنت
تحبها كثيراً، فيما أعتقد»
أراد «اوريليان» أن يقول «كان ذلك في العام الفائت...» لكنه جَبَنَ
وصاغ فكرته.

- إنها امرأة رائعة، تؤكد لك ذلك.
- أوه! أنا أعرفها، نحن من جيل واحد.
ومرة أخرى، فكر أوريليان على هامش ما كان يقوله «من جيل واحد...
هذه كلمة مطأطة...» لا أهمية لما قاله، ولا ريب في أن ذلك بدا لمحدثته في كل
مرة مثل إضاعة للعينين اللتين لاتبثان أن تنطفئا على الفور، لتكونا شاهدين
على هذه المناجاة الداخلية، صالبت ساقها وكشف الذهب عن ركبتها. كانت
تعلم ماتفعله، وانخفضت عينا «اوريليان».

استأنفت كلامها
«ديان تبدو شابة بالنسبة إلى الستة والثلاثين عاماً، في الحقيقة، كلانا،
أنا وهي، كان يمكن أن نكون صديقتين للسيدة والدتك.
- كانت أُمِّي تحب كثيراً البنات الصغيرات...
- مجامل...»

- عمري ثلاثون عاماً...»
عضّ شفّتيه. كان ذلك فوق الحدّ. لقد حاد عن هدفه وهو أن يعلم لماذا
استدعته هذه المرأة، قطّب بين حاجبيه.
- «كل هذا يُبعدنا، ياسيديتي العزيزة، عن السترة الرسمية... ما الذي
ذكرك بوجودي على هذا النحو المُسعد لي؟»
تملصت من الجواب، وردّت فستانها، وكأن نظرات أوريليان أذعرتّها.
«أوه! أنا أعلم جيداً من أجل مَنْ جئتُ هذا المساء!
- عجباً!...»

- أنت ترى، أيها الطائش، أنك لم تأت من أجلي!

أحس بنفسه أنه أحمق، فاحتجّ

قالت:

- «لا، لا. أعرف مَنْ يشغلك في هذه اللحظة، وهي ليست السيدة «دي

نوتنكور...» وسوف تراها... وسأتواطأ معك، بما أنه لا بدّ من ذلك!»

تتهدّت، انزعج، وتخوّف من إظهار انزعاجه، متعجّب قائلاً:

- «أنتِ تحدّثيني عما لا أفهمه! بل جئتُ لأراك... وأنا أجهل كلّ الجهل

مَنْ تنتظرين، ومن جهة أخرى...

- اوه! حسناً، اطمئن. سوف تأتي.

- مَنْ هذه؟ أوكّد لك أن ليس هناك «هذه»...

- اوه! ممتاز، ممتاز، كن متحفّظاً! يالك من رجل عالي التهذيب! لكن لا

تقلّ إنك جئت من أجلي...

أوشك أن يلفظ شيئاً لا سبيل إلى مقاومتها، شيئاً مقنعاً ليدلّ على صديق

نيتها. الحقيقة على كلّ حال... أنه لم يأت من أجل السيدة «دي بيرسيغال» بل من

أجل علامات التعجب. كان يشقّاق إلى معرفة المرأة التي تبذّر على هذا النحو

بعلامات التعجب. لعل ذلك لن يقع موقِعاً حسناً. لكنه كان سيفعله لو لم يدخل

أحدهم.

كان شاباً لم يكّد يتجاوز العشرين إلا قليلاً، بسترّة رمادية فاتحة، بعيداً

عن العناية بأناقته، وسخّ الحذاء، وليس في بنطاله ثنية. مع ذلك الهزال، هزال

السن، وشعر كثّر ردّ إلى الخلف ووجه شاحب كثير الحركة.

قالت السيدة «دي بيرسيغال» وهي تناوله أصابعها

- بول، وصلت متأخراً جداً، وأنت لم تلبس... ألم تلتقيا من قبل؟ «بول

ديني» الشاعر... السيد «اوريليان ليرتيلوا»...

- أهلاً... تعلمين، ياماري، أن سترتي الرسمية غير صالحة...

- لا، ماذا جرى لها؟

- مالك، لقد قلت لك ثلاث مرات . أنني أحرقتها في ظهرها بقنديل «نسين»...

- ومن أين جاعك هذه الفكرة؟

- إنها ليست فكره، احترقت بقنديل «نسين»...

- السترات الرسمية وقناديل «نسين» يامول، ليس لها أي مسوغ للالتقاء خارج الشعر الحديث...

- شرحتُ لك أن ما حدث كان في ذلك المساء، في مَحْذ...

- وهل تلبس اللباس الرسمي حين تذهب الى المختبر؟

والتفتت إلى اوريليان

- بول ديني لا يكتفي بأن يكون شاعراً، فهو يجمّد جميع انواع الأسماك والأفاعي في المعهد الأوقيانوغرافي.

- إني أدرس نقطة تجمّد السوائل الداخلية في الحيوانات

شرح الواحد الجديد ذلك متوجّهاً إلى «ليرتيلوا» بلهجة صوته الحميمة المختلفة جداً عن اللهجة التي استأنف بها قوله

- كنتُ قد ارتديتُ ثيابي لكي لا أعود إلى «أسنير» ولكي لا تنتظريني...

ولا سيما أنني مضطر إلى البقاء إلى ما بعد الساعة الثامنة مساء في ذلك المختبر مع تلك الدعاميص المشؤومة... تم إني حين جئت لأتحقق من أن كل شيء في مكانه، استدردتُ، وكان هناك قنديل بنسين...

- طيّب، دعك من السترة الرسمية.. لكن لديك سترة زرقاء، ومالم أعطك

مربيّة، فأنك تخرج مدعوكاً على نحو غريب... وهذا الحذاء... اذهب، يا عزيزي إلى المطبخ، سيمسحونه لك... سيأتيني زوّارُ هذا المساء...

تمتم الشاب شيئاً بلهجة غاضبة، لكنه خرج من باب صغير في صدر غرفة الطعام، وخطف في طريقه شطيرةً خطف امرئ يتردد على هذا المنزل، ودلّ بذلك على دوره فيه. تبعته «ماري دي بيرسيغال» بعينها.

- «اثنان وعشرون عاماً، تصوّرًا أقلّ مني بأربعة عشر عاماً... وله موهبة

غنية... وهو عازف بيان! سوف تسمعه! لكن أربعة عشر عاماً... الحاصل... هذا يجعلني مضحكة، لأن ابني الأكبر له من العمر أربعة عشر عاماً، ياسسد ليرتيلوا، أنا، ابني الأكبر له أربعة عشر عاماً ألا ترى أن هذا لا يُصدّق؟...»
انتظرتُ أن يقول «لا يُصدّق!»، ولم يقلها.
أردفت.

- تزوجتُ وأنا جد فتية... لكن الشيء الغريب أن يكون لنا ابنٌ بكاد...
يكاد... اتفهمني؟ بالطبع، أنت لا تتصوّر...
- يمكن أن يكون لي ابن أربعة عشر عاماً... كنتُ مبكّر النضج...
- لا؟ كان لا بد أن تبلغ الخامسة عشرة...
- لم أبلغها تماماً...
- يا للفظاعة! عندما أفكر أن ماكس ربما... هو ابني...
أه! أنت لا تعلم إلى أي حدّ لا تطيق الأمّ مثل هذه الفكرة...
- لقد كانت لي أم، ياسيديتي العزيزة...
دخل «بول ديني» مسروراً من حذائه، وقال:
- أهو يلمع جيداً؟
- أيها الصبي الوسخ! اعزّف لنا شيئاً ليُغفَرَ لك!«
تكلّف التمنّع، ثم رفع غطاء البيان، وجلس وأخذ يوقّع أنغاماً مؤتلفة، دون أن يعزف شيئاً، مستطرداً من نغم إلى نغم.
- أنت لا تُحتمل، يابول، أنت لا تُحتمل هذا المساء... اعزف شيئاً، في نهاية الأمر!«

كان يتسلّى بعزف موسيّا «الجان» لا أكثر...
قالت لاوريليان:

- ينبغي ألا تُعيّره انتباهاً، وتلك أفضل وسيلة لكي نحصل منه على شيء،
نعم، تصوّر أن ماكس الكبير ابني... أربعة عشر عاماً... هاوٍ للأدب... إنه يشبه
«دي بيرسيغال»، بالتأكيد... وهو ينظم الأشعار أيضاً... ولعله تأثّر قليلاً بجان

كوكتو .. يا الهي، لمَ لا؟ «سول ديني» لا يسمعنا لحسن الحظ... إنه لا يطيق كوكتو في فن الرسم... إنه فريدٌ من نوعه في وسطه... وعندما يتحدّثون عنه، فكأنه في الحقيقة... أنا، أحبّ جان كثيراً، إنه طريفٌ، وله أفكاره، ونباهته... أتعرفه؟

كان اوريليان قد رآه، لكنه لم يكن يعرفه «- اسمع، لقد قلتُ لك ذلك! إنه يَعْرِفُ الآن... «لا غارزا لادرا»... اه! أنا أعشق روسيني، «دونيزيتي»... «إيلزير»... جميعُ الناس في هذا الزمن على كل حال... أتعرف «الايطالية في الجزائر»... و «نورما»... لا أحد يستطيع، في أيامنا، أن يغنّي «نورما»...

كان اوريليان يتساءل مَنْ سيلقى هذا المساء عند السيدة «دي بيرسيفال» وهو ساهٍ عن هذه الموسيقى الايطالية التي لم يكد يحبّها، عندما توافدت زمرُ الحضور، بينما كانت ماري تغيّر الإضاءة، وتُظهر دفعةً واحدة مصابيح صغيرة في جميع الارتفاعات مثل النجوم في تلك الغرفة، وكشافاً للنور أبيض كبيراً في السقف، فوق منطقةٍ من العتمة.

حضر أولاً زوحان مسنان، المرأة بلفافة خضراء على شعرها الرمادي، وفستان مشدّر، أما الرجل فكان عقيداً، عقيداً جداً، مدبّب الشاربين، الشعرة التي لا تريد أن تنتظم مع اخواتها. وقبل أن ينتهي التعارف حضر آل باربنتان مع ابنة العم من الريف... وأنسة يونانية بثوب أسود، كل مافيها كبير، الأنف والعيان والقدمان وذراعاها العاريتان اللتان لم تكونا تستطيعان أن تلتقطا وتشاحاً فاحاً. كانت السيدة «دي بيرسيفال منهمة».

هل يعرف الجميع بعضهم بعضاً؟... السيد ليرتيلوا... العقيد والسيدة دافيد... الأنسة آغا توبولوس... الجميع يعرفون آل باربنتان، لا؟ أعذر... ادمون باربنتان الأنسة آغا توبولوس.. السيدة باربنتان... اه! ما أغباني! أروع الجميع، ابنة عمكما السيدة... السيدة...»

كانت «بيرينيس» مركز الاهتمام

قالت بلانشيت باربنتان بعجلة «السيدة لوسيان موريل...»

- بالضبط... السيدة موريل... أين أضعت رأسي؟ أنا التي لم تنظّم هذه السهرة إلا من أهلها، من أجلها... إنها فاتنة! أبرزي... لكي ينظروا إليك، بأسبدي، ما أجمل هذا الفستان!« أجل، كان فستاناً جميلاً، أسود في الأسفل، مع رسمٍ لخطوط بيضاء تعرضُ كلما صعدتُ، مثل دوائرٍ حول حجر أُلقي في الماء، وبهايته بيضاء عند تقويرته، أشد بياضاً من الساتان مع دثار اسود صغير ملقى على الكتفين. ولعل الفستان أو المرأة هما ما يستوقف، هذا الجسم وهو أكثر لحماً وأكثر امتلاءً مما يؤذن به هذا الوجه الخالي من الاتساق، على كل حال، زمتُ الآسنة آغاتوبولوس شفيتها ونظر الجميع إلى بيرينيس (السيدة لوسيان موريل، كما فكر أوريليان). قالت، مثل طفلةٍ صغيرة، بتصميمٍ مفاجيء وبحركة من فيها تشبه القبلّة «لوتوس».

دهشتُ السيدة «دي بيرسيغال» «كيف؟ ماذا تقول؟

- «لوتوس»^(١) كانت هي الكلمة التي سمعتُ حقاً، اتجهت ربةُ المنزل، وعليها مظهر الأشخاص الكبار الذين يتخلّون عن فهم ولدٍ، اتجهت باستفهامها الصامت إلى السيدة باربنتان التي كانت ترتدي فستاناً ضيقاً رمادياً، عاري الظهر، له ذيلٌ مما كان يُعمل حينئذٍ مربع لكنه من الكبر بحيث تتعثر به القدمان.

أوضحتُ بلانشيت:

- قالت «لوتوس»، وهو اسم الفستان في مجموعة الخياط

- آه! حسنٌ... وهو من عند مَنْ...

- «بواريه»^١

صرخت بيرينيس بالاسم وبعدة أصعدت الدم إلى وجنتيها. كانت فخورة بأن تملك فستاناً من عند «بواريه». هرت السيدة دي بيرسيغال رأسها، وعيناها تلمعان

- كان ينبغي لي أن أخمن ذلك.

(١) نيلوفر أبيض.

أحسّ أوريليان كم في هذه الجملة الصغيرة من نقدٍ ومن ازدراءٍ لهذه
الريفية اتى تجري بشكل طبيعي الى «بواريه»، ولم يكن بوسع أحد أن يعلم أن
الفكرة كانت فكرة بلانشيت التي أعطت ابنة عم زوجها هذا الفستان، خصيصاً
لهذه السهرة.

«أسف، يا صديقتي العزيزة، لقد نسيتني... فأنت لم تعرفي بي...»
كان هذا «بول ديني» الذي برز من عند البيان مثل اليعازر الذي قام من
بين الاموات.

«أوه! صحيح. بول... بول ديني، الشاعر... السيدة بارينتتان، السيدة
موريل...»

وكانت الأنسة أغاتوبولوس تثثر مع السيدة دافيد والعقيد، وجرّ ادمون
السيدة دي بيرسيفال إلى زاوية. قالت «بيرينيس» بحرارة وبصوت منخفض
لبلانشيت: «الشاعر، هذا شاعر! هل قرأت أشعاره؟ فأسكتتها الأخرى. كان
أوريليان يتابع اللعبة. كان ذلك مثيراً... وإن ساعته قبل مرة. من المؤكد أن ذلك
كان بسبب الفستان..»

سألت السيدة بيرسيفال بارينتتان.

- حسناً، هل أنت مسرور؟ أهذا ماكنتَ تتمناه؟

- أجل، يا صديقتي العزيزة، أنت لم تتغيري... فأنت ذكيةٌ أبداً في
الصدّاقة وفي اللذة...

- اسكت... لو سمعك بول...، إن لي الفضل في ذلك، وصاحبك أوريليان

يعجبني...

- سيكون لك متى شئت، يا ماري، لأن بيرينيس لن تلبث في باريس الا

قليلاً... وإذا كنتُ أرغب في أن تحمل ذكرى تستعيدّها عنه، فلا أريد أن يكون
ما تحتفظ به حزناً...

- لست أفهمك.

- أوه! حسناً، إن أوريليان الوسيم مغرّوف، وهو ليس بالخطير. فمغامراته

تنحل كما تنعقد، وبلا مأساة، وهذا ما يلائمني بالنسبة إلى ابنة عمي، هوى عابر...

- أنا معجبة بك، يا ادمون، أنا معجبة بك. أنت تملك التصرف بها وبه... وقبل كل شيء لم يتم هذا بعد...
- سوف يتم...

- رائع! لكن يجب ان تكون لذلك الحرارة التي تلائمك... لهب غير مسرف الطول... ثم تنفخ عليه متى رأيت أنه يجب أن ينطفئ... أتعلم أن هذا خطراً!
- دعك من ذلك! أنت تتحدثين عن هذه الأمور مثل طالبة داخلية. إن بيرينيس بلغت النضج اذني يتيج لها أن تخدع زوجها.. وتصوري أنني لست، غاضباً، غبي «لوسيان» هذا...

- ما حاجتك إذن، يا عزيزي، إلى «ليرتيلوا» هذا؟ فأنت نفسك فتى كبير...
- لم تحسني التفكير... بيرينيس ابنة عمي... ثم هناك بلانشيت...
- لأن ذلك يضايقك...

لنقل إنني لا أجد رغبة...

كانت السيدة بارينتان تتقدم نحوهما.

«كنت أقول لزوجك، يا عزيزتي، أنني أجد السيدة «موريل» بكل بساطة، عذبة... وأنني لو كنت في مكانه... لكنه لا يتطلع إلى سواك...
قالت بلانشيت:
- أتعنين ذلك حقاً؟

وجلست بجانبهما على طريقتهما المتأنقة، أرواح جلسة واندفعت في الحديث عن انتصارات «ادمون»، وهو حديث دفعه الى الفرار.
قضى اوريليان، على عادته، بعض الوقت كي يدرك أن السؤال الذي طرحه عى ماري دي بيرسيغال يجد جوابه في الأحداث نفسها، لم تكن تتوقع أن يغازل الآنسة آغا توبولوس، ولا السيدة بارينتان... وأذن، فالأمر واضح، ثم ألم تقل إن السهرة كانت عى شرف بيرينيس... على شرف السيدة لوسيان

موريل؟ لكن كيف خطر لهذه المرأة أن تعتقد أنه جاء من أجل بيرينيس؟
كانت بيرينيس تحدث الشاعر، وكان الشاعر يبدو كالصبي المراهق
الفاقد سعيداً جداً في أن تخصّه «اللوتوس» بالامتياز. كما بدا عليه أنه يجد
ذلك جدّ طبيعي، شخصان من عمر واحد مع أن عمر بيرينيس ربما كان أربعة
وعشرين عاماً... أو ثلاثة وعشرين.

كان الشاعر يتشرح لها،
- لديّ كتيب طبع حديثاً في «سان باري» ومخطوطة لديّ «كرا»... نعم...
لا... ليست قصائد، هذه المرة...

- أهي رواية؟
- لا، لا، لا يُخيفني سوى شيء واحد هو أن تُعتبر رواية... إنها نوعٌ من
النزّهة، حلم يقظة، شيء لا يمكن تصنيفه، وفيها استطرادات في كل
الاتجاهات، قليلٌ من جان جاك، وقليلٌ من «ستيرن»... أوه! يجب أن أسكت،
فمن الغباء المسرف إيضاح ذلك... ثم إنك عديمة الاكتراث لذلك!
- لست عديمة الاكتراث البتّة. هذا يهمني، أتعلم أنني أقرأ، ألتهم... نزّهة
حلم يقظة... أين يقع ذلك؟

- ليتنا نتحدّث عن شيء آخر؟ ماذا تحبّين، وما الذي تعرفينه قبل كل
شيء؟

- أوه! ستقول عني أنني غبيّةٌ شديدة الغباء... «مولن الكبير» ثم «شارل
لوي فيليب»... ورامبو طبعاً...
- أه؟ رامبو؟

غير لهجته، أصبح مهتماً بدوره،
- ألا ترعبين في شطيرة، في شيء من «الجن»، أتحبين أبولينير؟
فطن أوريليان أنه لا يكلم أحداً وأنه ينظر إلى بيرينيس، هل سيقع، مثلاً،
في شباك السيدة «دي بيرسيغال» هكذا؟ أين تلك السيدة موريل التي أرادت أن
تراه ثانية؟ ليس في الأمور ما ينبىء بذلك، وفجأة ثارت ثائرتة، لسبب خفي أريد

له أن يهتم ببيرينيس هذه. كلا. بل سيهتم ب... بمن؟ بالآنسة آغاتوبولوس مثلاً، ينبغي انتزاعها من العقيد، من العقيد وزوجته. فتقدم نحو الثلاثة.

- ألم ألك، يا آنسة لدى آل «شلزر» منذ ثلاثة أشهر؟

- طبعاً... ما أعظم ذاكرتك! كان هناك خلقٌ كثير... وكنت قد وصلتُ

لتويّ إلى باريس...

كانت تلفظ الراء غيناً على نحو يشع، قال العقيد

- آه! اليونان! أنت تشعرين، دون شك، أنك تهبطين علينا من «الاولب»...

الأكروبول... رينان...

ومن تحت لفافة الرأس الخضراء برز صوتُ السيدة دافيد العميق مع

شيء من اللهجة الألزاسية كما يبرز الطزون

- لاتحدث الآنسة عن اليونان، يا صاحبي، هي أعرفُ بها منك... هل زرت

اليونان، ياسيد «ليرتيلا»؟

تحدث عن سالونيك، ونظر إلى الرفيقة أتى اختارها لنفسه، يمكن أن

تفسد السهرة. جسمٌ غريب، أما بالنسبة إلى اليونان فكانت مرسومة رسماً مثل

شخصيات نوجود «بايو».

لكنه شاهد بطرف عينه السيدة دي بيرسيغال تراقبه، قال في نفسه

مهما يكن من أمر فإن في هذا الفتاة الطويلة غير المتناسقة شيئاً مثيراً... وعلق

العقيدُ ببارينتاتان، وبدا على امرأته تعبيرٌ أصاب قلبَ أوريليان: لقد أحسّت أنها

غريبة بينه وبين اليونانية، بعد أن تركها زوجها... حينئذ ارتفع صوت البيان من

جديد، وكان من الممكن رؤية كأس^(١) بيرينيس الأسود والأبيض منحنياً على

الموسيقا، وبول ديني يعزف، وقد ظهرت على وجهه تكشيرات صغيرة تشف عن

الجهد الذي تبذله أصابعه، بدت حركة كتفيه وجسده كله، إلى ذراعيه الرقاصتين

(١) كأس زهرة اللوتس أو كمّها المترجم

اللتين كأنهما تضرعان قشياً، كان يعزف موسيقا الجاز البطيئة.
قال العقيد.

- ياسيد بارينتال، كيف حال النائب الشيخ؟
- شكراً لك، أبي ما يزال كما كان، نشاط جنوني. وقد سمعت أنه يعدّ
صالحاً للوزارة وهذا ما يشعرني بأني ابن متآمر.
- إنه يصلح لأن يكون وزيراً ممتازاً للصحة...
كانت بيرينيس تتابع الموسيقا على وجه «بول ديني» الصبياني. ذلك الفم
الحدّ والغريب. كان يعزف شيئاً غريباً بهجاً. وقد سرّت حين تعرّفتُ المعزوفة،
قالت

- «بولنك»!
رفع الآخر ذقنه مدهوشاً.
- أتعرفينها؟ أتعجبك؟
أجابت «نعم» برأسها، وعيناها مفتوحتان، وأضافت.
- إنها تضحك.
مما دفع العازف الى زَمّ شفّتيه، وتساءل إن كان ينبغي أن يستغرب هذه
الرفيعة أو أن يتعالى عليها، وأخذ يعزف شيئاً غريباً، نشازاً.
- وهذه، هل تعرفينها؟ ماقولك؟ (لا، لم تكن بيرينيس تعرفها) إنها من
موسيقا «جان فريديريك سيكر»... شاب... موسيقي عظيم...
ومن طريقة قوله «شاب» كان يمكن أن يفهم أن «بولنك» الذي لعله كان
في الثالثة والعشرين لم يعد شاباً بالنسبة اليه.
وفجأة، حدث في الغرفة شيء كالريح. رأت بيرينيس في عيني بول أن
شيئاً قد طرأ.

كان الإعصار امرأة دخلت، كان وراءها رجل، لكن المرأة هي التي دخلت.
لم تكن كالاعصار، كانت كشيء مثل ريح البحر. ماكان بالامكان معرفة ما الذي

يخلف فيها هذا الاختلاف عن الآخرين، لكن، يا للعجب، كم كانت مختلفه... كانت صامته كل الصمت، ولم تتخلص بعد من الظلمة ومن الشارع، وكتفاها مرفعتان بعد ان خلعت اثوها معطفاً كان ضرورياً جداً في هذا البرد القارس. لم تشأ أن تفرض نفسها بألقها، كان في عيبيها قصرٌ نظرٌ واهدابهما طويلة لم تكد تتشقق بعضها عن بعض، وكان الرأس مردوداً إلى الخلف، والذقن جدّ حادة، وبدا العنق الضخم، بسبب تقويرة الفستان الضيق، كأنما يزل إلى ما بين النهدين، إلى موضع النهدين.

همست بيرينيس «ما اجملها»

لم تكن هذه الكلمة هي المناسبة، لكن اللغة فقيرة جداً، ولم يعرض لها غيرها. كانت امرأة كبيرة، طويلة أكثر منها كبيرة، امرأة طويلة شقراء، رمادية، مجملة بالمساحيق بحيث بدت شديدة السحوب، كانت بعمر من تجاوز الشباب، وليس بالوسع أن يمتنع المرء عندما يتساءل ماعمرها عن التفكير في أن عمرها هو عمر الحب.

قال اوريليان كنت غيباً. فلم تكن بيرينيس هي المقصودة

كان يعلم من هي هذه الوافدة الأخيرة في فستانها المخملي الأخضر المائي، أطول مما كان يلبس هذا العام، هذا الفستان الذي كان جديراً أن يجعل من جميع النساء الأخريات لو ارتدينه حزمة من الحزم، بطياته حول الخصر التي تنطلق منه رأساً لتتكسر عند العقبين مثل احجار التماثيل، وهذا الشريط الأسود الذي يلتف حول الشعر المقصوص، شعر فتى مجنون يتذكره الناس بسبب «دانزويو»، بسبب مشهد «الساتليه» المشهور في نهاية آخر نصر لها حيث تمسك في الفضاء فوق الرأس خصلة من الشعر ملفوفة على يدها اليسرى. كان الجميع يعرفونها، حتى بيرينيس التي لم تتعرفها، اتجهت السيدة «دي بيرسيغال» اليها وكان بالطبع، في الحركة المزوجة لهاتين المرأتين، خصومة، صراع يختصر صداقة ألف غيرة، وفكر اوريليان في انهما ستفترس كل منهما الاخرى. فتعانقتا.

همس «بول» لبيرينيس «هذه «رور ملروز» فقالت: لذلك هي عظيمة
الجمال! وسألت السيد - هذا زوجها...

كان يبدو كمن يعتذر عن وجوده، كان أطول منها، لكنه كان يتدبر أمره
لكي لا يلحظ ذلك. لا بد أن يفكر أنه كان نافعاً مثل زينة طباعية في إثرها، كان
جديراً بأن يحمل ذيل فستانها لو كان لفستانها ذيل. وفضلاً عن ذلك سبقها في
الدخول.

فلعله كان سيحمل لها الكراسي، سيهيئ لها مكاناً، وسيعود بطوق
ذهبي، بدرّاجة، بطاولة حمراء، بمنديل...

هتفت ماري دي بيرسيفال

- روزتي، روزتي! ياله من فستان لا يُصدّق... لا يُصدّق... القديم! القديم!
فقط «فيوي» كالعادة؟ كنتُ أظنّ ذلك... ليس هناك سواها... لو كان لي أنا
فساس كهذا لدوتُ مثل بائعة في سوق الخضروات... لكن روز هذه! إنها
برديه وكان لم يكن شيء!

حينئذٍ أحدثت «رورملروز» تأثيرها، حينئذٍ فقط بعد أن ظنّ أن الدهشة
بها قد زالت، ذلك أن صوتها قد دخل المكان، لا سبيل إلى التعبير بغير ذلك.
كان صوتاً محتشماً دافئاً في آن واحد، تشبيهاً بالعرشة، قالت
- اسقني، اسقني شيئاً يماري، شيئاً من الكحول، أي شيء... الجو
فظيع... كدتُ أموت في الخارج...

بادر الجميع، الرجال. لكن زوجها سبقهم.

هذا التحفظ، هذا الجبين العريض، هاتان العينان الشديدا السواد...
كان زوجها رجلاً شديد الهزال، وربما كان أصغر سناً مما يبدو، بجبينه
الهادئ المتفصّل، وقناعه الاجتماعي الراقى، وذلك البطء في الحركات الذي
تكذبه المهارة السريعة التي خدم بها زوجته، كان ثمة شيء مؤثّر في العناية التي
نمّ عليها شخصه، وكان، بين جميع الرجال هنا، الوحيد الذي يحرص بوضوح
على أناقته، لم يكن في سترته الرسمية شيء خاص، أو لعله ضيق الكمّين، ومع

ذلك فإن هذه السترة الرسمية تبدو أنه قد فُكّر فيها . وكان وجهه مائلاً إلى السمينة على نحوٍ غير منتظر. لا تنيء غير وجهه، ليس جميلاً على الإطلاق، كان يبدو رجلاً مهماً، لكنه كان يمكن أن يكون مراقباً في المسرح جاءت به روز إرضاءً لهواها. لا بد أنه يعلم ذلك، ويمارسه

لم تهدأ الجلبة التي أثارته كلمات «روز» الأولى:

كان هناك توافد الرجال للسلام على الممثلة الكبيرة ومسارعتهم الخرقاء ليُنسوا النساء الأخريات تلك اللحظة التي أهملوهن بها، أضف إلى ذلك صوت السيدة دي بيرسيفال الذي عدا حاداً وهي تطلب التسمبانيا الفاخرة والكافيار، مع أنها كانت تفضل الشطائر بالسلطة والويسكي الأيرلندية.

ترك بول ديني البيان وقام بدور الخادمة في المنزل، وبين يديه صحون تريد أن تنهار وثلاثة أقذاح في يد واحدة. وصاحت به الأنسة آغاتوبولوس «إياك فستانني، لكن هذا الإنذار كان كاذباً. فهدأت ورأت حينئذ أن أوريليان، بجنبها، لم يكن ينظر إلا إلى «روز»، وقالت وعلى فمها الكبير تعبير هزلي ومرّ: «لا بأس! لقد خانني الحظ، هذا المساء، إنني أرى ذلك جيداً» وشدّت باصابعها على كمّ «ليرتيلوا»، فالتفت إليها مذهولاً، ربما كانت بشعة لكنها لم تكن غبية. احمرّ قليلاً وقال: «ماذا تقصدين؟» وكأنه لم يفهم. هزّت رأسها وقالت ستذهب من غير شك وتحمل إلي أيضاً كأساً من التسمبانيا؟ فأسرع، مرتبكاً ومرّ بين بلانشيت وزوج «روز» اللذين كانا يتحادثان عند مدخل غرفة الطعام، وسمع مرة أخرى قرب الطاولة بارينتنان يشرح للعقيد. «لقد تزوجتُ طبييها... بعد أن أعيتها الحيل... كان الدكتور «ديكور» يصّر كثيراً منذ سنوات... فهو يعبدها... وهو يسهر على جسمها، ووجهها، ومجدها وشبابها... إنه يخترع لها حليباً ودهوناً... لقد عرفته قليلاً من قبل...»

وبينما كان يعود ومعه كأس التسمبانيا انتزعته ماري من الأنسة آغاتوبولوس وكانت ماري تسدو وكأنها التهمت على حين غرة، واستفاقت على

الرغبة في اثاره الإعجاب، في أن تلمع، من جرأ ظهور «روز» المتهدد.
تناولت اليونانية الكأس على عجل، وكان فمها كفم مهرج مسكين، كأنها
تريد أن تقول لاوريليان: «أرأيت؟»، حاول أن يقول «لا» بعينه، لكن السيدة دي
بيرسيفال اختصرت هذا النفي، وسحبته.
- كيف تضيّع سهرتك مع هذا الحصان الكبير يا صاحبي العزيز، ثمّة من
ينتظرك، هيا.

- حقاً، أنت عظيمة الطيب، ولم يضع الوقت سدى....
- الرجال مجانيّن: إني أهيا لقاءً... ثم إني...
- النساء غريبات لم تفعلين ذلك؟
- قلّ شكراً ولا تسألني أكثر من ذلك، أنا أحبّ «زوي» كثيراً... الآنسة
«أغاتوبولوس»... لكنك ستصاب بلطومات لمجرد الكلام معها...
- لست من رأيك... إن لها سحراً... أتعلمين ما الذي يُقال عن النساء
الكبيرات الانوف.

- أنت قليل الحياء... ليس هذا هو المقصود.
- وما المقصود، ياسيديتي العزيزة معي أنا، هذا هو المقصود دائماً...
فعندما أنظر إليك، أقول في نفسي...
- إياك أن تقول لي ذلك! هيا خلّص السيدة موزيل من هذا التور الصغير
«بول ديني»... حباً وصدقةً لي...
- غيرة؟

- دعك من هذا! لكن أين تربّي هذا الوحش! إنها تنتظرك.
- من؟ بيرينيس؟
عضّ شفتيه.
- فصدت السيدة موريل... أنت تمزحين! أتظنين انني لم أفهم؟
- تفهم ماذا؟

- أنك لم تستدعيني إلا من أجلك، من أجلك وحدك...
قال ذلك وانحنى عليها بخبث انحاءة الحبّ الأول، ومن وراء ماري، كان

ينظر إلى «روز» جالسة غلى نمرق في هالة من الظل، وهي تتحدث مع باربنتان واقفاً.

قالت ماري وهي مغتبطة:

- أنت مغرور، أنت مغرور يظن أن جميع النساء عند قدميه وأن ليس عليه
الا أن يختار، لكن مع ذلك، أختار «زوي»!

- إذا كثرت النسوة ضعفت. وقد يكون من المؤكد أن أخذ الزنجية... هذا مفهوم...

- اصغ إليّ، بيتي ليس... كيف يقال ذلك على نحو لائق؟ ماخوراً...

- أفضل أن أكون عديم اللياقة...

- لا تخاطرا هيا اذهب والقي السيدة موريل!

- لكن ما هذا الاصرار، في النهاية! أن كنت تعتقدين أنني ضللت طريقي
هذا الزمن الطويل... كوني لطيفة...

التبس على السيدة دي يرسيفال معنى هذه الكلمات الأخيرة فأغضت
عينها.

- كوني لطيفة... أهي التي طلبت إليك أن تجمعيننا؟

- السيدة موريل (وتفتحت عيناها) يا الهي، لا!

- كفى مزاحاً... ليست السيدة موريل... أهي السيدة ملروز...

- روز؟ أه! عجيب! إني أمنعك من هذا... مَنْ تسئت، لكن غير روز! لن
أقبل هذا.

- تظاهري بالبراءة...

أقسم لك... هذه بلاهة... إنني أعبد الدكتور... زوجها... أما هي فأنا
أندرك، أنا غيورة...

كان أوريليان كلما احتجت هنأ نفسه على نفاذ بصيرته. الأمر واضح
لكل ذي عينين، إنما استدعته من أجل «روز». إن له أولاً فكرة خاطئة عن
المثلاث، ثم إن السيدة دي يرسيفال كانت مأكرة كانت تتصور أن تدفعه
جهاراً إلى امرأة أخرى، لأنها اكتشفت فيه روح المخالفة الذي اوشك أن يفعل

فعله ضد بيرينيس بلا سبب، ومن قبيل الحذر... لكنه كان يشناق، ولو مرة، أن يحمل نفسه حملاً... كان به فضولٌ إلى معرفة روز...

- روز، لا، يا صغيري روز، لا! سوف اغتاذ من ذلك. كلتانا تعبد الأخرى، أتفهم... القصة طويلة... مع بيرسيفال قديماً... ولاحظ، مع بيرسيفال لم أكن أبالي... إنها امرأة غير عادية... لا ينبغي أن أقول لك ذلك، أنا حمقاء... لا أستطيع أن أكون ظالمة... أتفهم، كلما أعجبني رجل... جميع النساء يمكننا مقاومتهن... لكن هذه لها نبوغها... النبوغ... انه لشيء غدار، النبوغ عند امرأة... ثم ينبغي لها أن تدعني وشأني... إن لها فنّها، وانتصاراتها، لن تفعل أنت بي هذا! لست مستبدة برأيي من تريد، بلانشيت، زوي، هيّا، زوي، بما أنها تشوقك...

تظاهر اوريليان أنه لم يلحظ أن ماري تمنحه ثقتها، ولا اللهجة التي اتخذها الحديث فجأة، لقد قبلت الأشياء بينهما على حين غرة وكأنها مقررة. كانت تغارله... وكأنه كانت هناك اسابيع من الاستيضاحات، من مواعيد لم تتم، ورسائل، ومغاضبات، أتاحت لهما أن يصلا إلى هذا الحد... لكن «ليرتيلوا» كان يعلم أن ذلك كان يتضمن خطتين متناقضتين، موضوعين يتتاليان، كالموضوعين في التتالي الموسيقي... المكر، المكر! كل ذلك لكي تدفعه دفعا أشد إلى هذه المرأة... سأل:

- ما عمرها؟

أدارت «ماري» رأسها مرتين وقد دهشت «من؟ روز؟ أه! لا، أنا أصرح بعمرى، لا بعمر صديقاتي... يمكن أن نخطيء... نجاحاتها من قبل الحرب... نجاحاتها الأولى...

- لعلها كانت فتية جداً...

- نعم، بالتأكيد... كنّا كلنا فتيات جدا قبل الحرب... كنّا... وروز أيضاً... لا تكاد تكبرني ألا قليلاً... قليلاً... دقيق أمر التذكّر... على كل حال بحسب زوجها...

- أوه! الدكتور «ديكور» أصغر منها بكثير! لا بد أنه بلغ الثالثة والثلاثين... لا أقل من عشر سنوات... ومع ذلك فإن «روز» لم تبلغ الأربعين... وهل تبلغ المرأة الأربعين إذا كانت «روز»؟ وهو يعيدها، أتعلم، هذا يؤلني أحياناً، لأن لها فنّها، وأنت تفهم ذلك. ذلك العالم الخاص بها حيث لا يدخل هو، لا شك أنه يتألم في بعض الأيام...»

تركها تتحدّث، بدأ يحسّ بحضورها، حتى وهو يفكر في «روز» بدأ يدرك كيف ستكون في سريرها. وهو الأمر الذي استشفّه بغموض في رسالتها... علامات التعجب... وفاجأ نفسه وهو يحلم، ياله من تناقض! مثل الصياد الذي لا ينيّ يغيّر طريقته، بل لقد فكر على نحو لاذع في إحدى تناقضاته الأشدّ أدهاشاً: فقبل هنيهة أعرضَ عن بيرينيس لأنه ظن أنه يُدفع إليها دفعاً، أما الآن، فكلما اكتشف لعبة ماري المزدوجة، وكلما تُبَيّنته انكاراتها الماهرة على روز، ازداد انسياقاً وازداد انزلاقه في المنحدر تحت قدميه...

قاطع «بول ديني» ماري التي لم تنته من كلامها عن «روز» وزوجها، وجهٌ خبيث المزاج، فمُ طفلٍ مشرفٍ على البكاء، وقد ازداد شعره الكستنائي تشعثاً. - مامعنى هذا، ياسيديتي؟ لم توجهي إليّ الكلام طوال السهرة... وصلت، فوجدتك مع هذا السيد...

كان يتكلم بقوة، ويقوم بحركات، أوقفته ماري - مابك يا «بول»؟ مشاحنة؟ لسنا وحدنا...

- لا أبالي... أنت تهزئين بي... تهمليني... لا تتركين السيد...

وأشار بحركة طويلة، شأن المرة السابقة إلى «أوريليان» الذي أخذ يضحك.

- أستطيع أن أقول لك بسهولة، يا صغيري بول، أنك لم تُفارق السيدة «موريل» طوال السهرة...

- هذه هي الغيرة إذن! لا تغشّي، يا ماري، أنا الغيور، وأنا لي الحق...

- لك الحق في أن تسكت أو في أن تذهب لتنام.. اعذرني، سيّد

«ليرتيلوا»...

وجرت شاعرها بذراعه، ابتعد أوريليان واشعل سيجارة، وتردد بين اتجاهين، نحو «روز» أو نحو «بيرينيس»، ومال إلى بيرينيس لأن الأمر كان أقل خطراً، لكنه اصطدم ببارينتاتان الذي ترك امرأته مع روز، والسيدة دافيد مع الدكتور. وشاعت لعبة المبادلة الدائرية أن تتحدث بيرينيس، في ركنها، مع العقيد.

- هيا، ادمون، أفهمني قليلاً، العقيد دافيد، ماهو؟ وماذا يفعل هذان

الزوجان هنا؟

- هما يقضيان السهرة... مثلنا وفيما عدا ذلك، لعب العقيد دوراً سياسياً ما... لا يمكن أنك لم تسمع عنه... كان تماماً من جماعة الجنرال بيكار، في بداية القرن... ثم خدعوه، كان ينبغي أن يُرْفَع فجعلوه يُرَاح في مكانه... بيد أن هناك من يروي القصة رواية مختلفة... ترك الجيش، وكان مدير مكتب في وزارة الحرب، أو شيئاً من هذا القبيل. وقد زعموا أنه انتقم من رؤسائه... لا أدري، فأنا أحبه كثيراً، إنه رجل رائع، وهم ذوو آراء شتى... إنه يعمل مع «بريان»... الغريب بالنسبة إلى عقيد مثله أنه داعية متحمس من دعاة نزع السلاح... داع إلى السلام...

تجهّم «أوريليان» عقيد يدعو إلى السلام؟ يا للعبث! لاحظ «بارينتاتان»:

- عجباً، ها إن المحارب القديم يعود إلى الظهور فيك! لم أر لك مثل هذه

الهيئة منذ «فردان»...

- اغربّ عني مع «فردان»... لكن نزع السلاح! في اليوم الذي تغادر فيه

«الرين»...

- اوها! أنت تعلم أنني أُرهِقُ خلال السنوات الأربع، أدعُ لك أمر العناية

بهؤلاء النسوة الجميلات... وإن تفضّلت فخلّص لي ابنة عمي من العقيد... مع أن هذه البنت الغربية الأطوار يبدو عليها أنها تجد تسلية بالغة معه... (وتجلى

المكرُ على وجهه المنتظم، المشدود كثيراً) ولا أعدتك إلى الأنسة «زوي بولوس»...
كنت تبدو شديد التعلق بهذه الفتاة المشوّهة.
- دعك من هذا! من أين طلعت هذه؟

- من أملاك أبيها الذي أوى ماربي عندما قامت برحلتها إلى «السيكلات»
في سنة فانتة... أتعلم أين تقع أملاك الوالد؟ في «ليسبوس». هذا يوضح كل
شيء...!

دفعه بلطمة مفاجئة نحو بيرينيس، انحنى اوريليان ليعود إلى روز، لكن،
في هذه اللحظة، وبينما كان «بول ديني» يصب كأساً من الويسكي وهو بادي
السخط، تقدّمت السيدة «دي بيرسيغال» من روز، ويدها ممدودتان قائلةً بأعلى
صوتها:

- لن ترفضني طلبنا يا «روزنا» العظيمة... أليس كذلك، يا روز؟ الجميع..
السيد «ليرتيلوا» مثلاً...

تساءل لماذا لفظت اسمه، لم يسمع جيداً الكلمات الأولى...
- الجميع... جميعهم... هذا الشاعر الصغير الذي لا يُطاق... العقيد...
ولا أذكر لك النساء، يا روز، إني أعرفك... ستقولين لنا شيئاً ما!
سَمِعَ «بول ديني» يختنق في كأس الويسكي، وارتفعت ضوضاء
التوسلات، بلى... بلى... أوه، أرجوك... لمَ لا... بينما كانت روز تؤكد أنها
دخلت كثيراً، وأنها فقدت صوتها، لأنها متعبة... وفجأةً أحسَّ بمنْ لامس ذراعه.
فالتفت ورأي بيرينيس: كانت تومئ إيماءً بعينيها المفتوحتين لتشير إلى
الممثلة. لم يستطع اوريليان أن يمنع نفسه من التفكير في الشبه بين هذه المرأة
الشابة وبين أحد حيوانات الغابات. بدت كأنما تنبعث من تحت الأوراق بنظرتها،
نظرة الظبية، تلك الماسسة السوداء التي لا أضلاع لها...

سألها، فهمست:

- اطلب منها، أنت... لن ترفض لك طلباً...

- يالها من فكرة غريبة!

قالت:

- لا أستطيع، أنا...

وفجأة، رمت بنفسها إلى الوراء، وقد أربعها هذا الاعتراف، وخاطبت

بلانتيشيت، من جهتها، الدكتور «ديكور»

- دكتور! قلّ لها... إنها تسمع منك...

- ما أعظم هذا الخطأ، ياسيديتي! فلا سلطان لي على «روز ملروز»...

انسلّ بول ديني بكأسه إلى جانب أوريليان، وهمس:

- قلّ لي، هل أدركت مايجري، نحن في عام ١٩٢١... وسوف تلقي

السيدة اشعاراً... في صالون... من المؤسف أن ليس هاهنا مدفأة لرفقها...

اقتنعت الممثلة، فنهضت، وأمسكت عنقها بيديها كأنما تريد أن تدفئ

حنجرتها، مع حركة من الكتفين تعني دون شك

ليكن ما يكون... كانت بجانب مصباح على ساق، وكانت كمّته البيضاء

الذهبية تتيج للضوء الخافت أن يمرّ نحو وجهها، لكن جسدها المغمور بالضوء

مباشرة بدا في ثنايا الفستان هو الجوهري، الجوهري اللاشعوري للكلمات

إلاّية من الرأس، وكان هناك حفيف الحرير المتسارع الذي أحدثه فستان

بلانتيشيت وهي تجلس، والذبذبة المبهمة للرجال لكي يروا رؤية أفضل، وهبط على

الوجوه شفق من الانتباه.

أغمضت روز عينيها، وأخذت نفساً عميقاً كأنه تنهيدة، وشوهد نهذاها

يرتعشان، وذراعاها تمتدّان على طول جسدها، ويدها خلفها، وصار في الجوّ

ضيق شديد، سمع الصمت، وأحسّ الناس بدقات الساعة الجدارية التي لم تكن

تُحَظّ حتى الآن. أين كانت هذه الساعة الجدارية؟ ثم إن التمثال انتعش

برعشات، ولم تكد تتحرك الثنايا الخضراء المائية، وارتفعت الذداعان،

وتصالبتا، كأنما كانتا تبحثان، على الكتفين، عن خمار غير مرئي، كان التمثال

ينضمّ بين ذراعيه نفسه. وانفتحت العينان ببطء، وتلوّى الفم قليلاً، واتّخذ الشكل الفارغ لقبلة، وملأه صوتٌ، صوتُ راعش، صوتٌ لاشبيه له،
«عانقتُ فجر الصيف... لم يكن يتحرّك شيءٌ على واجهة القصور. كان الماء راكداً، لم تفارق معسكراتُ الظلال دربَ الغابات، سرتُ موقظاً الأنفاسَ الحيةَ والفاترة، نظرتُ الأحجارُ الكريمة، ونهضتُ أجنحةً بلا ضوضاء...»^(١)
لم يستطع أوريليان أن يرفع عينيه عن يدي «بول ديني» الشاحبتين اللتين كانتا تتشنجان حول كأسه. كان يُخشى من أن يكسرها، إذ أن الأصابع العصبية كانت تتسلّق وتهبط. كان هذا الشاب متضيقاً تماماً، وقد انتابه نوعٌ من الحياء الهائج، فخفض أنفه وكفّ عن النظر الى المثلة. دهش أوريليان إذ أنه لم يرقط على وجه «إنساني» تعبيراً عن البغض بهذا النقاء وهذه الشدة. كان في هذا التعبير شيءٌ بعيدٌ جداً عن التناسب مع المشهد، حتى إنه لم يعر القصيدة سوى انتباه تافه، متمسكاً، دون أن يعلم لماذا، بهذا الهمس القضي الذي للقصيدة في مركزها حيث تُحدث كلمة «شلال» صوتاً غريباً.
«في أعلى الدرب، قرب غابة من الغار، لففتُهُ بالغلائل المجمعّة، وأحسستُ قليلاً بجسده الضخم. الملاك والصبي في أسفل الغابة... وعند اليقظة كان الوقت ظهراً».

تعاظم الصوتُ كالانتصار، دوتِ الجملة الأخيرة التي هي ختام آخر القصيدة مثل الأجراس المعدنية. ودهش الحضور لأنهم لم يسمعو الدقات الاثنتي عشرة. ضوضاء المستمعين المتخلّصين، المقدّرين، المتنوعين، والتعجب الذي عبّروا عنه، وقضاة الإطراءات، واللهجة الزائفة للصفات...
همس أوريليان في أذن «بول ديني» تمالك نفسك.. فذلك يرى...
كان ذلك كأنما أدير الزرّ الكهربائي. فجرى الدم من جديد تحت جلد الوجه. وانتعشت العينان. وأدركت اليدان أن ماتمسكان به كأسٌ. تنهّد «بول»

(١) النص لرامو من الإشراقات. المترجم

تنهداً خفيفاً ومال نحو جاره:

«... البغي... لا أستطيع أن أتحمّل هذا... كل ماتشاء، ماعدا هذا...»

ماعدا هذا... ماعدا رامبو...

قال «اوريليان» الذي لم يعرف أن القصيدة لرامبو

– آه! أكان رامبو؟

وفكّر أن «روز» كانت رائعة، ومضحكة قليلاً ككل مايلامس المساوي. وكان حساساً لما جعل الشاب يصكّ أسنانه. وكذلك للمرأة الواقفة أمامه، لهذا الحسّ العجيب بالجمود والاضطراب. قال «بول» أيضاً: «البغي...» وشرب جرعة كبيرة من الويسكي. ازدحم الناس حول «روز» يتوسّلون إليها أن تقول أيضاً شيئاً آخر، ماتشاء... فاقترح بول على اوريليان. «الذنب والحمل»^(١)... وسمح لنفسه بضحكة صغيرة... إنها تتمنّع لتلقي ذلك المثل! أحس اوريليان بابرعاج من مشاركته بهذا الهرء. فأشاح بوجهه، ووقعت عيناه على بيرينيس. كانت العبرات المنهمرة تجري على خديها. عبرات حرّى غير مكفكفه، وعيناها غائبان كأنما تتابعان أغنيةً.

وبناء على طلب الطبيب، أي على اقتراحه، بدأت الممتلئة العظيمة قصيدة لـ«دانزيو»، قصيدته لفرسا التي ألقتها في العالم كله...



(١) من أمثال لافونتين. المترجم

كان «أوريبيان» يعرف في نفسه هذا العيب، هذه السمة من سمات الطبع على الأقل، التي تجعله لا يَتَمَّ شيئاً، لا الفكرة ولا المغامرة. كان العالم عنده مليئاً بالاستطرادات التي تقوده دائماً على غير هدى. كان ما يعزم عليه من عزم ومن قرارات يُخفق أمام ذلك. لم يكن ذلك من قبيل التردد. لكنه لما كان موضعاً للجذب من كل شيء فعلام يقتصر؟ وهو لم يكد يصوغ لنفسه حقيقة مؤكدة حتى يبدو غير المؤكد فيها، وحتى يكون مستعداً للمراهنة ضد نفسه، ولاعتناق اليقين المضاد.

إن هذه الأمسية كلها، عند السيدة دي بيرسفال التي استبدَّ به منها حنقٌ على مناورة لم يُحطَ علماً بها، وإن أخذ يتصورها، قد ألفتَه موزعاً بين حركاتٍ شتَّى: فالشعور المعتاد أكثر من غيره وهو أن يُقاوم كل ما يريد له أن يفعله كان يوشك أن يُخلي مكانه لدى أوريبيان لمجرد الفضول في أن يسترسل في لعبةٍ لم يشارك فيها. لكن أقوى الإغراءات كان تنوع النساء، كان أوريبيان ميالاً بطبيعته إلى الانتقال من هذه إلى تلك، وقادراً على النشوة مع «روزي» الهزيلة الشنيعة ومع روز العظيمة التناسق، العارفة من غير شك بأمور الحب، على حدٍّ سواء. كان بوسعه أن يتصور نفسه مع «روزي» في أغطية السرير، وأن يتصور الحركات العجلة التي بها تطفئ الكهرباء، وكيف ستخلع فستانها. لكنه كان يحمل من شارع «بيل تري» بخاصة هاجس ماري، لما في ذلك من إمكان، من احتمال، من بذل. إن الرجل لا يدع امرأة تمضي دون إحساسٍ رهيب بالتشوش، بالخيبة. لقد تخيل ساقها، وحذاءها من عند «هليستر»، وأحس بيديها الملمومتين بالخواتم.

ومع ذلك فإن «روز»... وجه روز الساكن تقريباً، الذي لاعمُر له كالحب. هذا التمثال الخارج من بين أصابع المدلِّك الماهرة. هذا الجسد المنقوع بالحليب

والفكر، السر... وكونها كانت عشيقة غابرييل داننزو لم يكن يملؤه بالأوهام بل إن ذلك كان يضايقه قليلاً. كان يحب لها أن تكون أقرب الى الإغفال، لكن هناك مع ذلك جاذبية المسرح، لمن يعرفه معرفة سيئة، عطر الأسطورة...

وفي وسط ذلك كله، كان كلما أعرض عنها، وكلما ألحت عليه صورة أخرى، محت بقوة أعظم النساء الأخريات. تكاد لا تكون امرأة أو صورة، وكانت تعثر في أقل الأشياء على قوتها، وقدرتها على أن تلهي عن غيرها، التعبير الهارب الذي تغيّر الذاكرة طبيعته، حين تثبته... هذا المزيج من الصيانية (اللوتوس) والنار... هذه الطبيعية أي... فبين جميع النساء الحاضرات هذا المساء، كانت هي وحدها تجلس وتنهض لتجلس وتنهض، هي وحدها التي تتنفس بلا خداع... هل هذا مؤكد، بعد كل شيء؟ رأى مرة أخرى دموعها على خدها، فاهتز اهتزازاً أشد من ذي قبل... عندما كانت تسيل حقاً... لا بد أن «روز» تتقن البكاء. لكن «تتقن»...! وأخيراً لم يخفي عن نفسه مم كان يتكون وسواس بيرينيس بخاصة؟ كان أوريليان يعرف مابه من غرور، أية كبرياء مجنونة يجب أن يملكها الإنسان لكي لا يكون مجبولاً بالغرور! إن الرجل الذي لايهزه اعتراف امرأة ويعدّه ديناً مستحقاً.. هذا الرجل غير موجود. كان أوريليان يسمع بيرينيس بوضوح، كما لو أن الكلمات لفطت في لحظتها «... لن أستطيع، أنا...» وفرار عينيها، عيني الظبية المطاردة، في نهاية الجملة.

«لن أستطيع، أنا...» ماذا أرادت أن تقول بالضبط، ينبغي له أن يستعيد السياق بيقين، كان ممكناً مع ذلك أنها تقصد أنها لن تجرؤ على مواجهة السيدة ملروز... بكل بساطة. فكيف لم تخطر هذه الفكرة له؟ تفسير طبيعي، أحسّ بالجل قليلاً ألا يجد هذا التفسير إلا بعد فوات الوقت. أكان ينبغي له أن يكون مغروراً أكثر مما كان يظن؟ حسناً، المشكلة حلت... فليكن. ومع ذلك...

ومع ذلك فهو لم يتردد إذ ذاك في التأويل الممكن، ولكي لا يظهر له الالتباس فيها، كان لابد من عنصر آخر، فقد منذ ذلك الوقت، من نور البداة

التي ترافق الكلام... كان يصفي في ذاكرته الى النبرة التي وضعتها بيرينيس في ذلك الكلام... لم يكن الأمر كذلك... كان يفش نفسه بالتأكيد... كان يفش نفسه.. وكان الصدى الخداع يضعف ماشاء له الضعفُ. «لن أستطيع أنا...» كان هذا صوته هو لاصوتها هي، كان يريد بكل قوة أن يقولها ماسمعه دون أن يفكر فيه، فماذا الذي فهمه؟ «لن أستطيع، أنا...» نعم هذه المرة، كان الأمر كذلك.. تقريباً... هل أرادت أن تقول حقاً... لن أستطيع أنا أن أرفض... شيئاً... لو طلبته مني... مهما يكن ذلك الشيء... أنا بيرينيس... لك أنت، اوريليان... رأى نفسه مضحكاً. إن تجزئة هذه الجملة الصغيرة رده الى المدرسة... التحليلات... أستطيع فعل مضارع من فعل استطاع... كفى! لأن ذلك قد يعنى أيضاً: «لن أستطيع، أنا» أن أرفض ذلك لرجل... أي رجل... أي لأحدهم... لا أحسن الرفض...»

لماذا إذن ذلك الانسحاب المفاجيء؟ لعلها أدركت، بعد أن تكلمت المعنى الآخر الذي اتخذته الجملة بالنسبة إليها... على كل حال، كان هو مُبعداً من الجملة... ولم تتضمنه صراحةً. «أستطيع، أنا...»

أه، هذه المرة، استعاد ذلك النبر العابر! لم يكن هو الذي يفكر، بل بيرينيس... بيرينيس... أية عذوبة يضعها في هذا الاسم... فاجأ نفسه، لانسك أن هذه العذوبة كانت تناسب ملكة قيصرية لالسيدة لوسيان موريل، لم تكن هذه أول مرة يستدرك فيها خطأه ليسمّيها باسم زوجها، وكأنه يلوم نفسه على هذه الدالة، أو كأنه يخافها، أو يخاف شيئاً من هذه الدالة، غير معقول،

وردّد أمام نفسه: بيرينيس... ليقنع نفسه برباطة جأشه.. بيرينيس... بيرينيس... وهاهو ذا يرى العبرات... السيدة لوسيان موريل.

حسناً، ما هذه المازوشية؟ إن كان اسم بيرينيس يعجبه... أراد أن يمتحن نفسه تماماً، فقال همساً، وقد تأكد من أنه يملك وحده سرّ الأداء المضبوط «لن أستطيع، أنا...» لم يكن شيئاً سوى اوريليان وهو يتكلم بصوت الرجل... دعك، بهم رحت تفكر؟ أيها النادل، سيد كار!

كان اوريليان متكئاً بمرفقه في حابة «لولي»، في «مونمارتر»، لقد توقف هنا، ألياً، بعد شارع «بيل فوي». كان ثمة شيء يزيل عنه النعاس، لعله جميع هؤلاء النسوة، أو إحداهن. كانت آفة اوريليان أنه يسير في النوم. وكان يحب أن يشرد في أماكن النور هذه حيث لا تنطفئ الحياة إذا نام الآخرون. كانت له هنا عاداته، وينبغي ألا نبحث كثيراً في سهرة «ماري» عن أسباب هذا التسكع، لقد جاء الى هذا المكان بالأمس وربما قاده إليه الغد أيضاً.

«أنت وحدك».

التفت وابتسم لسيمون، لقد سئمت من مراقبة الرواد. فانتكأت بمرفقها قربه.



لا يجد الباريسيون اللذة التي يجدها الريفيون بمدينتهم، فباريس بالنسبة إليهم، أولاً تنحصر في مستوى عاداتهم وقضولهم، الباريسي يحول مدينته الى بعض الأحياء، فيجهل كل مايتجاوزها، كل مايكف أن يكون باريس بالنسبة إليه، ثم ليس هناك ذلك الشعور المتصل تقريباً بالضياح الذي هو السحر الحلال، تلك الطمأنينة في ألا نعرف أحداً وألا يلقانا أحدٌ مصادفةً، كان يقع له أن يحس هذا الإحساس الغريب، على العكس، في المدن الصغيرة التي يمر بها مروراً، والتي يكون فيها الوحيد الذي لايعرف أحداً من الآخرين، لكن فكر في الأمر عندما يسلمك هذا التخفي تلك الغابة من الحجارة، تلك الضحارى المرصوفة.

كانت بيرينيس تستمتع بوحدها، لأول مرة في حياتها غدت سيّدة نفسها، فلا بلانشيت ولادمون كانا يفكران في استبقائها، ولم تكن ملزمة حتى لأن تهتف لتقول إنها لن تعود للغداء عندما كان يحلو لها أن تتابع نزهتها، أوه، ياالشتاء باريس الجميل، ووحله، وقذارته، وشمسه على حين غرة! حتى ذلك المطر الناعم الذي أخذ يروقهها هنا، فإذا غدا شديد النفاذ، وجدت المتاجر والمتاحف والمقاهي والمترو، كل شيء سهل في باريس، لاشيء أبداً تشبيه بذاته فيها.. ففيها شوارع وجادات يتلهى فيها المرء في المرة المئة كما يتلهى في المرة الأولى، ثم إذا لم يكن الإنسان تحت رحمة الطقس السيء...ساحة النجمة مثلاً... سرّ حول النجمة، واسلك جادة، بلا تعيين، ستجد نفسك، دون أن تختار حقاً، في عالم مختلف عن الذي تغيب فيه الجادة التالية... كالتطيرين حقاً، تلك الزهات... بيد أننا عندما نطرز نتابع رسماً مصنوعاً، معروفاً، زهرة أو عصفوراً، أما هنا فلا يمكننا أبداً أن نعرف مسبقاً إن كان الفردوس الحالم في حادة «فريد لاند» أو العجيج السوقي في جادة واغرام، أو ذلك الريف ذو التخاريم في جادة

«الغابة». النجمة تشرف على عوالم مختلفة، كالكائنات الحيّة. عوالم مختلفة تغوص فيها أذرعها المضيئة. هناك إقليم جادة «كاربو»، والجلال التحاري للشانزليزية».

وهناك جادة فيكتور هوغو. كانت بيريبس تحب أن تدلف من حادة من هذه الجادات التي تنسى دائماً نظام تتاليها، الى شارع مُقرب لتقصد الى الجادة التالية، كما لو كانت تترك ملكة من أجل فتاة، ورواية فروسية الى قصة لموياسان. كانت طرقاً حيّة تقضي من ميدان الى ميدان آخر من ميادين الخيال، وكان يطيب لبيرينيس أن تكون هذه الشوارع كذلك قطعاً من مقاطعة غريبة، مفاجئة أو شوارع فارغة كأن شبك شرفاتها رسوم معقدة لأعمال قاطنيها وواجباتهم، أو التشابك الملتبس للفنادق والغرف المفروشة، والحانات، والنساء العابرات سراً، ممّا يبعث، وعلى خطوتين من الأحياء الغنية، الرعشة الفاجرة لأبناء الأسرة الغنية واللفئات المنحرفة. وفجأة كانت المدينة تنفتح على منظور، وكانت بيرينيس تخرج من هذا العالم الذي كان يربعها ويجذبها، لترى على البعد قوس النصر، ونحوه خط الأشجار الذي حُبس من الأسفل بشبكة. ماأجمل باريس! كم من منعطف حتى حيث الطرقات مستقيمة واضحة الحدود...

ليس في الريف من مكان يتغير فيه المشهد بمثل هذه السرعة. ليس من مكان لافي «الآلب»، ولا على شواطئ البحر من غذاء بمثل هذه القوة من أجل حلم امرأة شابة، عاطلة عن العمل، مفتونة بذلك وحرّة، حرّة بأن تفكر على هواها، دون أن تراقب نفسها، ودون أن تخشى من أن تُفَضَح أعماق قلبها على وجهها، أو أن تقلت جملةً تأسف عليها لأنها قد تسيء الى أحدهم.

كانت تشتتهي أحياناً أن تغير مدينتها، فتقفز الى الباص، أيّ باصٍ وتقصد الى الطرف الآخر من باريس. وكانت تحب أن تبقى في مكان وقوف الركاب يدفعها الذين يصعدون والذين يهبطون. وكانت حساسة لتغير الكثافة في الأحياء، لتكلم عن استسعار التحوّلات من حولها. كان شارع «ربفولي» يبدو

ضيّقاً جداً بعد «الشانزليزيه»، وبعد «الكونكورد»، وكان تالياً تماماً كما سلو الفكرة مراحل المحاكمة الى هدفها، بحذاء حديقة أولاً، وكأن خيال الأشجار الحرّة قبل قليل صارت الآن محجوزة خلف هذه الشباك السوداء، تجتاحها شيئاً فشيئاً التماثيل لتُعدّ بيرينيس كي تسير بحذاء قصر. وكانت الأقواس من الجهة الأخرى تُضيف طابعها من الزخرف المنطقي لتوسّع الأحجار هذا. وبعد قليل يسلم القصر والأقواس مكانها بسرعة، وحينئذٍ يتخلّى الشارع عن الخيال الى العقل، البيوت من الجهتين، بيوت كسائر البيوت.

كبرياء التجارة مع «الساماريتين» كصرح الساماريتين التي تحلّ محلّ اللوفر. تجارة «الهاال» عبر الشارع، ثم فرجة الأشجار المبذولة أيضاً عند المرور بمستوى «الساتليه»، نحو الضفة اليسرى وأحلامها، ثم ينتهي الأمر. فإذا قطعنا دار البلدية، لختنق الشارع واستمرّ في شارع «سانت انتوان» المفعم بالذكريات، المثقل بالتهديدات، الى أن يبلغ الباص تلك الساحة الضخمة، هذه النسخة المطابقة لساحة النجمة والتي يرتفع فيها عمود تموز التذكاري.

هنا يمكن للعبة أن تُستأنف... كانت بيرينيس تتيه من جديد من شارع «الروكيت» الى جادة هنري الرابع، ومن ضاحية «سانت انتوان» الى قناة «سان مارتان»...

ولامجال للكلام على الحي اللاتيني، فسره عظيم بالنسبة الى امرأة من الريف تراه مع كل ما قالت الروايات عنه، مع سحر التقاليد. ثم هناك المكتبات الكبرى الملأى بالكتب المنشورة الحديثة التي تعادل ثمار «ايديار»، في ساحة «المارلين»، في شارع «سان جيرمان»، لدى «كريس»، حيث يمكن أن يتجول المرء ساعات وهو يقرأ الكتب والمجلّات بين الصفحات غير المقصوفة. وتمة حانوت رمادي صغير في شارع الاوريون أحبّت فيه النساء اللواتي يُدرنه، إحداهن، الشقراء قالت لها إنها من «السافوا» وباعتها الطبعة الأولى لـ«جول رومان» وكتاب «بول ديني» الصغير «ممنوع الدخول»، كان محيراً، قصيراً، الكتب تحت معارض «الأوديون» لها جاذبية مختلفة. ولم تكن متأكّدة من ان حق التفرج

مسموح.

تلك معجزة باريس، كان بوسعها أن تكفّ عن التفكير، ألا تُحسّ أنها انحنت من الطيبة والتقى، أن تعود كما كانت من قبل طفلةً تثب الحبل دون أن تطرح على نفسها الأسئلة. كان يمكنها أن تضحك بلا سبب، لا يُربكها إنسان يسألها بالنية الحُسنَى. ما الذي يُضحكك؟. كان يمكنها أن تنظر الى الناس أو تتجاهلهم، وأن تنسى «لوسيان» دون أن تلوم نفسها على ذلك، كان هناك الجادات الكبرى، واللوكسمبورغ، كان هناك محطة الشرق، وكان هناك «مونروج»، وتغيير الحي لم يكن خيانة لأحد. لن توبّخها «الانفاليد» على الوقت الذي قضته في «بوت شومون».

عادت الى شارع «رينوار» سعيدة، لدنة، بوجنتين مورّتين وكأنها جرت في الحقول طوال النهار. صاحت بها بلانشيت: «ثمة رسالة لك...» رفعت قبعتها، وتناولت الرسالة وقد غدت جديّة فجأة. ومضت الى المصطبة لكي تقرأها فوق هذه المدينة التي ستفقدّها ذات يوم، لكي تقرأها ببطء، ضاغطة كل كلمة على قلبها، تلك الرسالة الملأى بالحنان، اللطيفة، العظيمة، التي شهتّها أن تعضّ وأن تنتحب.

سألتها بلانشيت على المائدة:

– ماذا يقول لك لوسيان؟

– أوه! لاشيء، كعادته... أن أتسلّى... وتحياّته لك... أصابت أُمي نوبة

روماتيزم...

قاطعهما آدمون بغير مناسبة.

– بالمناسبة، صادفتُ ليرتيلوا...

قطّبت «بلانشيت» حاجبيها، فهي لاتكاد تحب اوريليان، هذا واضح

للعيان.

– وإذن؟

- إذن... لاشيء... صادفتُ «ليرتيلوا»، قلتُ إنني صادفتُ ليرتيلوا.
حسناً، توقف البحثُ في الحادث، وسمِع صوت الشوكات، حينئذ قال
ادمون كمن يجيب عن سؤال:
- «في جادة الغابة»... كان ماشياً، فالتقطته وأعدته الى مسكه...
مسكه أخأض حقاً...

لم تكن بيرينيس تشتهي الحديث، بيد أنها أحسَّت أن الأمور ليست على
مايرام بين قريبيها، ولذلك طرحت سؤالاً دون أن تهتم بالجواب، لكي تُغذي
الحديث، لكي تدع لبلانشيت إمكان أن تثور عصبيتها من غير جلبه، سألت:
- وأين يسكن؟

رفع ادمون رأسه، ونظر الى «بلانشيت»، ثم التفت الى ابنة عمه:
- في «جزيرة القديس لويس...» غرفتان ومطبخ... لكنك لاتستطيعين أن
تتصورِي...

تذكرت بلانشيت فجأة أنها نسيَتْ أن تقول شيئاً للمربية... بصدد
الأولاد... فنهضت، وأوقعت كرسيها... ورفعتة .. وخرجت...
قالت بيرينيس.

- ما بها؟ لعلك كنتَ شريراً معها، يابن عمي...



ياله من يوم جميل! لم يُر منذ زمن بعيد مثل هذا الشتاء... عندما يُخالط مثل هذا الجفاف الشمس التي يعترضها الصقيع، في ضواحي باريس وحداثتها المعرّاة، والجدران الرمادية التي أزهز عليها النور فجأة، والأحراج المتصالبة وفقاً لخطوط هندسة الغابات، والدهشة عند أحد المنعطفات من استمرار طائفة من أوراق الشجر، خضرتها عقيمة، على عكس نتاج البيت الزجاجي... ما كان ألد السير بسيارة الأحصنة الخمسة في بحر الأسبوع عندما لا يتعرض المرء لملاقاة الناس على الطرقات، أو في النزل السخيفة، بديهي أن المرء يستطيع أن يمضي أبعد من ذلك، وأن يتعمق داخل البلاد، بعربة أقوى من هذه...

- هل لاحظت يا صديقتي العزيزة، أننا كلما ابتعدنا عن باريس، بدأ لنا أننا ننحرف عن الزمن؟ فعلى بعد خمسين كيلومتراً نغدو في القرن التاسع عشر، لكننا ندرك القرن الثامن عشر على مئة كيلومتر... إن ذلك يكون مناطق.. وهكذا حتى نبلغ العصر الوسيط...

كان يحب ويعرف تلك الطرقات الصغيرة التي يخرج من الانتقال المعتاد لدى الباريطيين الذين يلزمون بيوتهم، والذين تظل طرين «كاترسو» عندهم هي العقدة وهي أفضل الطرقات، فيما يتصل بالسياحة بالسيارة، أو أن هؤلاء الناس كانوا يريدون مهما كلف الأم أن يكون لهم هدف، أن يذهبوا لزيارة شيء قديم... أن يكرموا بكاوتشوك عجالاتهم مشهداً مصنفاً، مال أوريليان قليلاً نحو رفيقته وأشار بيده إلى السهل الذي كانا يقطعانه، وهو سهل محدب قليلاً، عارٍ كما شاء له العري، دون أن يكون فيه ما يستوقف النظر، مما تعلمنا أن ننظر إليه عبر أجيال من الرسامين، والأرض فيه مقلوبة بغباء هنا، مهمة هناك، مع منحدرات خفيفة من الأعشاب الضاربة، وأكوام صغيرة من الخشب اليابس... وكله بلون أرنب لها عدة بطون...

همست «ماري دي بيرسيفال» التي لم تكن ترى ما كان ينبغي أن يرى،
والتي كانت تشدّ نفسها الى جارتها تحت غطاء الغروب. أنت رجلٌ محير. نظر
إليها. كانت تظهر تعبيراً عاشقاً، وفمها ممدود إليه. لم تكن تفهم شيئاً مما
يُعجب أوريليان. كان ذلك واضحاً، لكن هل سألها؟ لا. إنها امرأة لمدن الميالا
والريفيرا. أراهن أنها مشغوفة بالنخيل. ذلك أسوأ، أو أفضل... تنهدت.
«ياعزيزي» جاء ذلك مثل الشّعْر على الحساء، مع تلك البرودة القليلة القاطعة
في الأنف.

أخذا يعبران الآن من طريقٍ محدّبة، ضرباً من سياج يابس شائك تحيط
به أسلاك حديدية مع لافتات لاعدّها لها مكتوباً عليها. المصاد^(١) خاص.
تنهدت السيدة «دي بيرسيفال» وقالت كمن تلوم:
- ياعزيزي، عندما أفكر فيما يؤكّده الناس من أن لي أجملُ ساقين في
فرنسا، وأنت لم تُننِ عليهما أدنى ثناء...

انعطف أوريليان بحركة من المقود حول عربة أبت أن تتنحّى، ثم صحح
مساره، وأرسل يده تتقرّى بلطف تحت الرداء، وغايته أن يمرّ بها على الساقين
المذكورتين الى الحدّ الذي يقف عنده الجوربان، ثم مظر الى الشمس المائلة الى
الغروب:

- لم أكرّر ما قاله جميعُ الناس... وماتعلمينه جيداً... ثم إن ذلك ليس
اكتشافاً؛ فلقد أريتني إياهما من قبل... أما ساقِي... فلم تقولي لي شيئاً
عنهما...

ضحكت ضحكة المرأة الراقية، وفكّرت قليلاً، ثم غضبت. «ياعزيزي،
لا يُصدّق ما أنتم عليه... رجال هذا الجيل... بنات حقاً... كأنكم لم تخوضوا
الحرب... أنتم مشغولون بأنفسكم... قليلو الرقّة...
- أظنّين أن خوض الحرب يجعل الرجل رقيقاً؟

(١) المصاد: الصيد ومكانه.

- لست أعلم، أنا ... الذين سبقوكم كانت لهم تقاليد، لطفٌ...
هزّ كتفيه، كان بوسعه أن يقول بسهولة كلمات فظة، لكنه خشي أن
يسرّها، وقالت أيضاً: أنتم تسيئون معاملتنا...
- إنني أكره أولاً هذه الجموع.. أنا أسيءُ معاملتك، أنا أسيءُ
معاملتك... أما نحن، أنتم... مَنْ نحنُ وأنتم؟ أم أنك تقصدين أن تضعيني في
كيس واحد مع «ديني» الصغير...
- أنت غبيّ أولاً، إنني لأغتاب «بول»، لالأنني خدعتُ معك... إن له موهبة
عظيمة... وعوداً، الحاصل أن له موهبة... أنت لم تقرأ «ممنوعُ الدخول»
بالطبع... وله مزايا كثيرة من كرم القلب...
انتابت أوريليان ضحكةً من تلك الضحكات المجنونة البلهاء التي لاسبيل
إلى ردها. اعتذر، لكن الاعتذار يُفاقم الأشياء، كما نعلم، ثم هداً: «عفواً، فلم
أشأ أن أجرحك...»

- أنت لاتجرحني... لكنك تظلم ذلك الصغير، ويمكنك أن تكون أكرم...
بعدها جرى...

قال بكل نية طيبة

- ماذا؟ ماذا جرى؟

وحينئذ جاء دورها لتردّ بضحكة مجنونة، لكنها ضحكة مخنوقة من بيان
ميكانيكي، كان المشهد يتغيّر. قرية، إعلانات كبيرة عن مشروبات وزيوت
للسيارات، وسارا في طريق أوسع، سيارات، كانت ماري تفكّر وهي غارقة في
الغطاء، واستغل أوريليان ذلك ليختلس منها بعض لحظات الوحدة، وتابعت
أفكارها بصوت عال، وكان دورة كبيرة قادتها إلى بداية ما بعد الظهيرة هذه...
كان رائعاً حقاً الركن الصغير الذي قدتني إليه... هذا الفندق... أظن
أن كثيراً من الناس يعرفونه؟ خيّل إليّ أن لا... لعل ذلك ساذج... أو لأنك، في
نهاية الأمر، قد شوشتني..
- شكراً.

- لا، أنا التي تشكرك لأنك دألتني عليه...
- نعم، وهكذا يمكنه أن يصلح لخدمتك مرةً أخرى...

هتفت:

- يالك من وقح، يالك من وقح! ثم لم لا؟ سنعود إليه...
قال.

- أوه! إن كان هذا وحده ما يسعدك...
صمتت لحظة ثم عادت الى هجومها.

- أيها الخليع، لقد جئت الى هذا النزل مع جميع نساء الأرض...
كشّر، لم يكن يحب هذه اللغة، فعاقبها:
- كلهن، لا، نحو اثنتي عشرة...

لقد أرضى فضوله من تلك التي كان يسمّيها بينه وبين نفسه «الأرملة بيرسيغال». وكان كلما عرفها ازداد يقيناً بأنها أرملة، الأرملة بيرسيغال، متلا هذا التفكير عن نقص الرقة لدى أبناء جيله... لقد ضاجع عالماً لامراًء.. عالماً مضى زمنه، بعاداته وتقاليده، حتى عندما يكون المقصود أن... آه، الآن يستطيع أن يقول ماذا تعادل علامات التعجب! ومع أنه في الحقيقة أوشك ألا يكرّم هذه السيدة المعقّرة بالمسحوق، التي كانت شديدة العناية بنهديها حتى في اللحظة التي كانت تسترخي فيها، عندما خطرت لها تلك الفكرة المكدرّة في أن تتأوّه في أذنه: «كلّ ماتشاء... إلا الولد!»

ومن سخطه لهذه الذكرى المزعجة، ضغط بشدّة على دواسة السرعة، فوثبتت السيارة، صاحت:

- ماذا حلّ بك؟

- إني أنتقم!

سارا لحظة دون أن يكلم أحدهما الآخر، ثم لم تستطع أن تصمد - أنا أجذك شديد التخلّ.

- تقصدين من التقاليد، أليس كذلك؟... أنت تحبّين الكذب.

- يمكنك ألا تكذب...
- يمكنني أن أكذب أيضاً..
- أنت غريب اليوم...
- أنا على عادتي...
- هذا ما ألومك عليه، يا شريراً كأن لم يجز شيء.
- وماذا جرى؟
- وأيضاً أيها الفظا ' .
- أنا فظ؟ ظننت نفسي متحفظاً لأنني لم أتذكر كثيراً...
- عجباً! أتعلم أن رجلاً ترجوني عشر سنوات من أجل مامنتك إياه من أول مرة.
- أأنت نادمة على ذلك؟
- ستجعلني أندم عليه.
- تتدمنين على أي منهما؟ السنوات العشر أم المرة الأولى؟
- أنت لا تحتمل... هل سأفتن بك، لأتجاوز حماقاتك؟ لأتمنى ذلك!
- انتظرتُ جملةً لم تأتِ
- أأنا التي عليها أن تتصرف معك كما يتصرف الرجال معنا؟ وهل ينبغي أن أرتجف لأستبقيك؟ أن أنتظرك، أن أتصور ما الذي يسرك... أن أقدم لك ريبات العنق...
- كلا... كلا.. قلت لك إنني لست «بول ديني»...
- أتريد أن أضحي به لك؟
- يا للسماء! لا تفعلني شيئاً من ذلك! لا توضحيات يا «ايفيجيني» العزيزة...
- لأنك لو طلبت ذلك مني لرفضت طلبك بكل صراحة... لن أدع ذلك الولد يتألم من أجل شخص لا قلب له مثلك.. أجل، إنه ولد بالنسبة إلي... مثلما هو رجل... وأنا أعلم جيداً ما يفصلنا، وأن ذلك لن يدوم طويلاً... لست أتمسك

به، على كل حال... لكن ليحتفظ من لقائنا بذكرى... ذكرى...

سَلِّمْ «ليرتيلوا» بطاقة الوقود لمكتب رسوم الدخول الى باريس وقد بقي ما يكفي من النور في أعالي السماء، وأخذت البيوت تسبح في هواء «بارم».

- أُنْزِلْ في شارع «بيل فوي»؟

قالت وهي تمسك بذراعه:

- الآن؟ الآن؟ اصغ... كن لطيفاً... أرني مسكنك... أشتهي ذلك... ولم يبقَ لي ما أخشاه...

- إذا شئت... إلا أن تتعرضي لمصادفة أحد...

- فليكن... سنسرع على الدرج!

غالباً العتمة ووصلا جزيرة «سان لويس» قبل الظلام الصاعد من النهر. والتفتُ السيدة دي بيرسيغال التي أصلحت وجهها، وتلقحت بمنديل كبير من الصوف الانكليزي، بحيث لم يبد منه سوى عينيها، وقالت:

- وأيضاً، لايتصور أحد... هذه السكنى في منزل في باريس يعرفك فيه جميع الناس... وفي أي دور مسكنك؟

- في الأعلى

- في الأعلى؟ لكن هذا جنون! مسكن العزب يؤخذ في الطبقة الأرضية، في الدور المسروق عند الاقتضاء...

- ليس هذا مسكن عزب، إنه منظر...

كان المنزل في مقدمة الجزيرة، نحو منحدر النهر حيث تنتهي الضفة بباقة من الأشجار، ومنعطف منعزل وكئيب حيث يأتي العشاق والبائسون ليرتفقوا^(١). صعدا، أخذ أوريليان ينظر الى الساقين وهما تسرعان لتتسلقا الدرج أربعاً فأربعاً، نعم، لابس ساقياها، لكن يجب ألا نبالغ.

عرف البواب المستأجر، عند مروره، فأضاء الدرج، ولم تكن ماري تتوقع ذلك فزادت من تدثرها وحثت خطاها. وفي الدور الرابع توقفت، وقلبها يدق

(١) ارتفق: اتكا بمرقه للتأمل.

«أهذا هو؟»، لا. هاهنا درج جانبي نصعد فيه دوراً وبصف... واندفعت الى الشقة ولم يكد الباب يُفتح.

- كنت خائفةً أشدَّ الخوف من ألقى الأمير «ر»... في الدرج! أتعرفه؟

- يسلم كلانا على الآخر عند مطلع الدرج.

أخذت تجري في الغرف كما تفعل طفلةٌ صغيرة

- رائع، رائع... برج حمام... لكنه رائع.

الحقيقة أنها كانت لا تنظر الى الأشياء إلا قليلاً جداً. كانت تخبئ في رأسها فكرةً حزرها «ليرتيلوا» في غَبَشِ الغرفة بشيء من الضجر. وقالت أيضاً وهي تُلقي نظرة خاطفة على الأريكة البيج

- عندما أفكر فيما قد جرى هنا...

لكنها لم تكد تتَمَّ جملتها حتى أطلقت صرخةً إعجابٍ صغيرة.

كانت آخر مزقة من النهار تضيء مسحةً سحريةً على المشهد الذي كان المنزل فيه يتقدّم على شكل قَرْنٍ كالسفينة. كان المنزل فوق تلك الأشجار العريضة والفريدة التي تحفّ بطرف الجزيرة، وكان قلبُ المدينة يُرى على الضفة اليسرى وقد أخذت تلمع فيه المصابيح، كما كان يُرى خطُّ النهر الذي يضمها، ويعود، ويضمّها من جديد ويتّحد بالذراع الأخرى، فيما وراء الأشجار، الى اليمين، وهي تطوّق جزيرة «سان لويس». وكان هناك «نوتردام» وهي أجمل كثيراً من جهة صدر الكنيسة منها من جهة فنائها، والجسور، لاعبةً حجرَ الرجل^(١)، لعبةً غريبة، من قوس الى قوس، بين الجزر، وهناك، في مقابل قلب المدينة على الضفة اليمنى... وباريس، باريس مفتوحة مثل كتابٍ بمنحدرها اليساري الأقرب صوب «سانت جينيفيف»، والبانتيون، والصفحة الأخرى ملأى

(١) حجر الرجل. لعبة الصغار المعروفة، وهي هنا على سبيل المجاز. المترجم

بحروف مطبعية تصعب قراءتها في هذه الساعة حتى الجناح الأبيض لكنيسة
«القلب الأقدس»... باريس الهائلة، التي لا يشرف عليها شيء لا كما هي الحال
على مصطبة آل بارينتان.. باريس التي تُرى من قلبها، في أقصى خفاياها،
بأصواتها المجاورة، التي يغشيها النهر المتعدد حيث كان ينزل قارب، قاربٌ
طويل طليت حافاته بالمنيوم^(١)، وعلى حباله غسيل يُنشف، وشخص بدا عليها
أنها تلعب عليه لعبة التخبة... وكان في السماء أيضاً ركنها من المنيوم...
وفجأة، انطلق كل شيء، وغدت المدينة سميكة، وفي الليل خفق ما يشبه
القلب. وأرسل القارب شكاةً طويلة ممزقة. وبوقت سيارات. ولاحظت ماري
وميض طيور الخبل في النوافذ المضاء وهي أكثر عدداً. فالتفتت الى اوريبيان
ورأت أن نظره شاردا يتبع النهر، وكأنما كان يحاول أن يتعرف هناك جسر
الاسكندر الثالث على الأقل.

قالت، وبدا له صوتها غريباً:

- ياله من مكان عجيب!

- أليس كذلك؟ هاقد مضى ثلاث سنوات... ولم أعود... لقد قال لي
بارينتان الذي جاء بي الى هنا ذات يوم، شيئاً عن هذا المكان، شيئاً ينيره قليلاً
بالنسبة إلي... بغرابة...

- وما هو؟

أصابتها الغيرة من ادمون سلفاً.

- قال لي إنني أسكن هنا في طية مرفق النهر، في «ميمه م» الوريديّة.

- جميل هذا... قمين بـ «بول نوران».

- لأعتقد، وقد شوّسني ذلك.

- بغي في ادمون شيء من طالب الطب... ومن المثير أنه هجر حمّاه الذي
أراد... ولذلك تفوح منه العفونة...

(١) المنيوم: اكسيد الرصاص الأحمر. المترجم

قاطعها اوريليان بجفاف شديد.

- قلتُ لك إن هذا يشوّشني... أن أفكر في أنني هنا في «الميم» الوريديّة من السنين... تبلبلني طريقيّتي في النظر الى مالم يمكن أن يصبح لديّ مألوفاً تماماً... إنه يتغير تغييراً هائلاً مع الساعات والفصول... وهو يغني أغنية هي نفسها دائماً... لكن إذا شئنا أن نعود الى «الميم» الوريديّة... وليست أعلم أن المرء يموت وهو يقطع طيّة المرفق كما يُقطع المعصم إذا كان فيلسوفاً ويملك مفصورة...
- اسكت!

- السنين يتحدث طوال الوقت، طوال الوقت عن الانتحار... فكم يطوي... وصرخات رؤاده... مايبلبلني هو أن عليّ الآن... لكي ألتزم بتلك الصورة «الميم» الوريديّة... أن أتصور باستمرار معنى هذا الماء الذي ينساب، هذا الدم الأزرق أمامي... إنني أدرك جيداً أنه يأتي من الخلف وأنه يجري نحو المنحدر، نحو البحر... لكن الأوردة... ماري، أوردة المرفق تأتي من اليد، لتصعد نحو الكتف، نحو القلب... قد أميل الى تصور الأشياء على العكس... القلب في الجبال... يجب أن نعتقد أن القلب هو البحر، ياله من نمو زائداً وأن الأصابع مثل الجذور مع ركام تلوج في الأظافر...

لقد ذهب بعيداً عنها في هذا الليل الذي أرخى سدوله، تماماً حتى ان السيدة دي بيرسيغال اشتتت أن تبكي.. بدا لها غريب الأطوار. هذه اللغة التي لم تكن تتوقعها منه... من هذا العاشق الوقح... الواقعي جداً... وقالتها بينها وبين نفسها بالانكليزية، لأن الأشياء التي لا تُطابق تصبح أكثر احتمالاً عندما تترجمها الى الانكليزية... وهمست

- لقد بردتُ...

لم يسمعها أو لم يرد أن يسمعها، وصمت. وأخذ يملأ عينيه بالعتمة، وكأنما يملؤهما بنخيرة سحرية. أدركت أنها الراحبة لو انسلت، لكنها أرادت أن تلقى أيضاً نظرة خاطفة على مقرّه، فدخلت الغرفة التي كانت غرفة ومكتباً في الوقت نفسه، لونها بيج وأسمر مع أثاث من السنديان الفاتح... ظلّ اوريليان في

الخارج... نادته إذ لم تجد الزرَّ الكهربائي. قال بصوت تغيّر كلياً.

- المعذرة، لأحسُّ أنني بحال حسنة...

- مابك، يا صاحبي؟

أدار زرَّ مصباح على الطاولة الكبيرة. جاءه النورُ من تحت. ارتفعتُ من

تبدّل قسماته، وردّدت. مابك؟

كان وجهه يعبرُ تعبيراً شديداً عن الضيق. لقد اكتهل فجأةً، وكان العرق
يتصبّب منه برغم البرد. وأردّ لونه وكأنا وضع قناعاً، أو رماه، على الأصح.
وحول العينين غُضُونٌ صغيرة. والفم مفتوحٌ نصف فتحة. والتنفس صعب.
تناولت يده الباردة، المبلّلة.

أحسّنت أنه يرتعش. أعاد قوله: لأحسُّ أنني بحال حسنة... فارتعبت.

تمدّد. يا صغيري، هيا... مابك. أنت مصابٌ بقشعريرة... ما الذي أستطيع

أن أفعله لك؟ أعندك كحول؟ ربما نفعلك المشروب الساخن؟ كم يُرعج... أنني
لأعرف حتى المطبخ..

قال.

- لا، لا شيء. دعيني، ياماري...

تهالك على الأريكة نصفه مستلقٍ ونصفه جالسٌ. كدّست له الوسائد خلف

رأسه، تحركها أمومتها، وهي تتكلّم:

- اهدأ... اهدأ... لعلك برّدت... ربّما في الفندق... مشيت حافي

القدمين... قيل لي إن هناك نزلات وافدة سيئة...

- لا، لا... ليس هذا مهماً، دعيني، ماري، أعرف مابي، أحب أن أبقى

وحيدي... سيزول ذلك...

كانت أسنانه تصطك، وكانت الحمى تهزّه وكان يُقارب بين كتفيه كأنما

يريد أن يدع عاصفة تمرّ.

- يجب أن تضطجع... لأريد أن أتركك هكذا... الطبيب...

- قلتُ لك إنني أعرف ما هذا... الحميات... حملتُ هذا من الشرق...

سحبت غطاء السفر الذي لقيته على الأريكة، وغطته، فقبل ذلك نصف

قبول

- أحب أن أبقى وحدي..

بزعتُ حذاءه، وأمسكت بقدميه بين يديها

- أنت ترتجف من الحمى، وقدماك متجمدتان... يجب أن تضطجع...

كان ذلك شيئاً عريباً، لقد فهمت فجأةً شيئاً ما لم يكن يجرؤ على خلع ثيابه أمامها، خلع ثيابه كالمريض... هزّت كتفها لهذه الأفكار... حملته على التخلّص من ثيابه، بكل ما أُوتيت من مَلْاطفةٍ خرقاءٍ قليلاً، وفظةٍ قليلاً، مع الصوت المزعج لكعبيها على أرض الغرفة، موشكة على السقوط إذ تعثرت بهذبٍ سخيف من أهداب السجادة، ورفعت غطاء الزينة من على الأريكة، وكشفت عدّة السرير، والأغطية، ودخلت قسراً في خصوصيته كعزب. وعندما اضطجع رأت الهاتف على الطاولة الصغيرة المنخفضة قرب الأريكة. طلبت رقماً، فسألها بضعف.

- مَنْ تطلبين؟

- الدكتور «ديكور»... بلى، بلى... لا تكن طفلاً.

- لاجاجة بي الى الطبيب... عندي «كينيس»...

- اسكت!... واعرام سبعة وثلاثون... أه! هذا أنت دكتور! عرفتُ صوتك!

نعم... ماري... ماري... لا، ليس من أجل «روز»... عندي مريض... بالتأكيد...
شكراً...

- مهلاً، قلتُ لك، لا تزعجيه...

- أنا في انتظارك... في جزيرة «سان لويس»...

كان المريض يتململ، وهو متكدّر. ذهب لتأتيه بالويسكي من الخزانة الصعيرة التي استطاعت أن تستدلّ عليها، سيكون الدكتور هنا بعد خمس عشرة دقيقة... أجل، ستنتظره... لم تكن تخبىء سرّاً عن زوج «روز»... ثم إن هذا لبس وارداً... أين الأقداح؟

وبينما كانت تصبّ الكحول، رفعتُ عينيها فرأت على الجدار شيئاً أوقفها
أتناء حركتها، شيءٌ مصنوع من الجص. رأس امرأة، وجه مستعارٌ فقط، وجهه
كالذي يؤخذُ قالبه من الموتى. هذا الشيء الأبيض المغمض العينين كان معلقاً
هنا في مكانٍ مختار، ولابد أن هذا الوجه هو أول ما يراه من سريريه في
الصباح، وفجأةً أحسّت ماري بالغيرة، اشتتت أن تصرخ، وعضّت شفتيها، أيّ
كشف! الرجلُ العاشقُ المدلّ وحده يمكنه أن يعيش قبالة هذا الوجه الذي بدا
عليه أنه كفّ عن التوجّع، هذا الوجه الذي تعود فيه الانسامة من وراء الألم، من
تكون هذه المرأة؟ خطت خطوةً نحوها، وهي تصبّ لاشعورياً الويسكي الذي
كانت تبعث صوتاً فريداً في القدح، أمعنت النظر، في هذا الوجه ذي العينين
المغمضتين، فعرفته، وحينئذ تألمت حقاً.

أعطت أوريليان الكينين، وانتظرت الطبيب، في الخارج، كانت المدينة تقوم
بمصاحبته الليلية لهذه الأفكار في هذا الرأس الطائش، قالت في نفسها، وهي
تتنظر الى المريض المتكبّب في أغطيته والذي تخضّه عاصفةُ الملاريا
«كم كبرت... كم كبرت...» وأخيراً، طُرق البابُ.



هناك أنواع تسمى من اللون الرمادي. هناك الرمادي المليء بالوردي الذي هو انعكاسٌ لقصري التريانون^(١). هناك الرمادي الأزرق الذي هو أسفُ السماء. الرمادي البيج لون الأرض بعد حرثها. الرمادي من الأسود الى الأبيض والذي يصطبغ به الرخام. لكن هناك رمادياً وسخاً، رمادياً رهيباً، رمادياً أصفر ضارباً الى الخضرة، رمادياً شبيهاً بالقار، طلاءً بلا شفافية، خانقاً، حتى لو كان فاتحاً، رمادياً قَدرًا، رمادياً بلا صَفَح، الرمادي الذي يجعل السماء أرضيةً مبتذلة، هذا الرمادي الذي هو حظيرة الشتاء، وحل الغيوم قبل الثلج، هذا الرمادي الذي يشبك بالأيام الجميلة ليس مُقنطاً في أي مكان أبداً مثلاً هو هي باريس فوق هذا المشهد المترف الذي يسطّحه شيئاً فشيئاً عند قدميه ذلك الجدار الواسع والفارغ لسماءٍ لاتعرف اللين، في صباح أحد من كانون الأول فوق جادة الغابة...

في هذا الأحد، عند قدم هذا الستار الرؤيوي^(٢)، كان شريطُ الحادة الدقيق والطويل، بأشجاره العارية، ومروجه الخالية من العشب، بكهوفه البيضاء لسكانه من أصحاب الملايين، يَحْمِل على سطوحه العريضة زبدًا راعشاً من المنتزهين، ووسط رائحة الجياد كان الرمل المتفتت وروثٌ ممرّ الخيالة يحدثان أمام تمثال «آلفان» الواقف في مدرّجه الكلسي، ترقيماً من السحب لحوافر الخيول التي يَحْمِل كلُّ منها على ظهره ثروة أو دماراً.

كانت عليّة القوم في ثيابها التي لا يصح أن نقول عنها إنها أنيقة حقاً، والتي جاءت تعرض هنا طقومها، وفروها الفضّي، وكلايبها الطويلة الشعر والقصيرة الشعر، قد أخذت تكتُف، ولا سيّما وراء جادة «مالاكوف». إن هذا الجزء من الجادة حلّ بعد الحرب محلّ درب «الفيرتو»، في نزعات الفتيات،

(١) في فرساي.

(٢) نسبة الى رؤيا يوحنا اللاهوتي. المؤذنة بنهاية العالم. المترجم

والسيدات المتقدمات في السن، والرجال الحسبي الهذام. كان هناك خليطٌ من
علية القوم، الحقيقي منهم، ونصف الحقيقي، والزائف كلُّ الزيف، ومن الذين
يجيئون ليتمسّحوا بهم. وكانت اللحظة الأنيقة أو التي تُعدُّ كذلك هي الثانية
عشرة تماماً. كان هناك سدادات يُمَتَّن من الخجل إن رآهنَّ الناس في جادة
الغابة في الثانية عشرة إلا خمس دقائق. وكان هناك شباب مكتئبون أو شرهون
يتسكعون هنا منذ العاشرة صباحاً، ولا عمل لهم، ويعلِّون أنفسهم بهذا الظُّهر
وبما يفترض من نساء يفوح أريجهن، ويلبسن الملابس النفيسة، يلسعن الهواء
الذي؛ وكانوا برؤوسهم المسكينة، رؤوس موظفي المتاجر والطلاب والفنّبان
يينون سلفاً، على نظرة محتملة، روايات نعثرُ فيها على مؤلفي «المجموعه
المختارة»، وبودلير، والحياة الباريسية الى آخر ماكتبه «فايانو». وكان هناك
الخروج من القدّاس في «سانت اونوري ديلو».

كان المطرُ قد هطل مبكراً، لكن الجوُّ كان يكون حسناً -والحمد لله- منذ
التاسعة، أي إنه كان شنيعاً لكن دون أن يتخبّط الناسُ في الوحل. أرض الجاده
وحدها كانت تحفظ بذكرى المطر، لم يكن فيها نقع ماء لكن كان تحت الحصى
المنتثر حفيرةً في الأرض لونُها مائل الى لون الكرتون. وكانت نمرُ صفوفُ
مرقّزة من التسيببة ينحني بعضهم على بعض ليتحدّثوا، والذين في الطرفين
من فوق رفيقاتهم في الوسط. وعلى الكراسي الحديدية المثقّنة سيدات مُسنّات
يتخفّفن مثل حلوى بائنة، وبدا الناسُ كأنما حضروا لشيء ما، دون أن يعلموا
ما ذلك الشيء. ذلك مثل مشيتهم المستعجلة. فمن الواضح أن كانوا الأول كان
قاسياً، لكن، لا، لم تكن الغلطة غلطة قانون الأول. ففي أي شهر من سهور
السنة كانوا سيحتفظون بهذه الخطوة التي يخطوها ناس يقصدون الى مكان
ما، في حين أن هدفهم الوحيد كان هذا المكان نفسه. كان ذلك جزءاً من طقوس
الاحتفالات، أن يوحي المرءُ بأنه جاء على عجل وهو مارٌ، وذهب الى مكان آخر
أو أت من مكان آخر لأنه قد وعد أحدهم بذلك، تنازلاً منه. لم يضع أحدٌ قانون
النزهة هذا، كما لم يضع أحدٌ هذا المنع، المطلق مع ذلك، من عبور حناج

«الدوفين»، عند مدخل الغابة، ومن الوصول إليه، في حين كان مسموحاً مع ذلك دخول رواق الغابة حتى أول منعطف... كان ذلك مايفعله الجميع، وهذا كل شيء، ومن أنفسهم، دون أن يحسّوا بلا معقولية هذه الخطوات المنبئة عن الغيب بعد الباب، والحق أن هذه الخطوات لم تتجاوز ١٩٢٢، وأنها، في ١٩٢٣ كانت ستجعل الآخرين ينظرون إليك على أنك فطّ غليظ. إذ ذاك صار الناس يقفون على السطح الترابي أمام المحطة. إذ ذاك فقط، وبالطبع، كان في باريس أناس من جنس الدين كانوا يأتون ويظلّون على الجادة، لكنهم لم يكونوا يُروّون هناك قط لأنهم كانوا «يعلمون» أفضل من غيرهم، لا كثيراً، لكن أفضل قليلاً، وأنهم لو قُطّعوا تقطيعاً لما قبلوا المجيء.

هذا ماشرحته بلانشت لبيرينيس بعبارات أخرى كما كانت ستُطلعها على مصطلح الأقمشة الدارجة في هذا العام. وأضافت دون سوء نية أن جادة الغابة كانت ريفية قليلاً.

قالت بيرينيس بذلك الطريقة الفاتنة التي كانت لها وهي ألا تغضب ممّا يُغضب.

- لأنني ريفية بالذات تشوقني جادة الغابة في صباح الأحد... أما أنتِ فمعك العالم كله، إن شئت... ستطيعين أن تحتقريه... لكني أنا... هل تتصورين مامديتي الصغيرة التي لم تصبح بعد منطقة فرعية مع أن فيها من السكان أكثر مما في أية منطقة في المقاطعة.

- هيا، مادام ذلك يسرّك...

تركنا السيارة في جادة «مالاكوف»، سيارة «ويسنر» كبيرة، بحراسة «جان» السائق. كانت الصغيرتان أمامهما، وقد تورّدتا، وألهبتهما ألعاب غير محتملة اخترعتها «ماري روز» لتدهش «ماري فكتوار»، استخفّ الفرع بيرينيس، كانت تلتهم بعينها كل شيء. كانت ترى كثيراً من النساء الجميلات فقالت لها بلانشت إن كانت ترى هذه الكثرة منهن فمن السهل فهم ذلك. وكابت الفساتين تُلقى بها في جنون الفضول فتحبر «بلانشت» فجأة على أن يعود

أدراجها لتتأمل طاقماً صغيراً رائعاً حقاً، وكانت تردّد جملاً التقطتها في طريقها، وتسعى الى أن تتصور مايقصّه الناسُ بعضهم على بعض، مثل هؤلاء العلماء الذين يعيدون تركيب الماموث استناداً الى سنٍّ وُجِدت في قطعة خبز من ذلك العصر، كانت بلانشيت تضحك من ذلك كله، وتحسّ بتراخي المقاومة فيها، فتترك نفسها على سجيّتها، استضاءت بيرينيس كلياً مرتين أو ثلاثاً وكأنها تعرّفت أحداً، كان ذلك خطأ دائماً، لكن ابنة عمها رأت في هذه اللحظات العابرة الى أي حدٍّ يمكنها أن تصبح جميلةً علي حين غرّة، وأدركت مايمكن أن يُعجب فيها، وفكرت: «أه هكذا...» وفي الوقت نفسه فقدت شيئاً من تلقائيتها، تصوّرت سحر بيرينيس واقعاً على ادمون، كان ذلك غير معقول البتّة، لكن ماحيلتها؟ فكل مايتصل بسحر النساء في نظر الرجال كان يرتبط دائماً بادمون، مع أن...
- ظننّته أيضاً السيد «ليرتيلوا».

أفلتت هذه الجملة من بيرينيس فاحمرّت، وشحبت بلانشيت، كانت تلك صدمةً لها، في هذه اللحظة بالذات، مجرد اتفاق، لكنها أحسّت، على كل حال، بهذه الصدمة في كبدها كذلك التي يصدمك بها جرسُ المنبه، ليس هذا بذوي أهمية، وسيزول، وسألت بلهجة هادئة تماماً، وفيها شيء من السخرية:
- أه؟ أكان هذا، إذن؟ تتعرفين أحدهم كل عشر خطوات، لذلك...

- اوه! يابنة عمي، تعلمين جيداً أنني لاأستطيع أن أخبئ شيئاً، لقد قال لي ادمون في يوم غير بعيد أنه صادف «ليرتيلوا» في جادّة الغابة... وإذن، كنت أقول في نفسي، بشكل طبيعي تماماً... إن كان هذا هو مُتنزّهه المعتاد... ثم إن هناك كثيراً من الشباب مثله بين المارّة... طوالُ نحفاء، ولهم أكتاف... الحاصل شبابٌ جميلون.

عضّت بلانشيت شفّتيها: «من أجل هذا إذن حرصت هذا الحرصَ الشديد على المجيء الى الغابة... من أجل هذا...» وقالت لها:
- إن كنتُ أفهمك جيداً، فإن السيد ليرتيلوا يعجبك؟

كانت الصغيرتان تضحكان، وتتدافعان، وتعودان الى أهمهما وهما تتراخضان، كان ذلك مثل زوبعةٍ من البهجة تسنّى لبيرينيس فيها أن تفكّر،

وقالت أخيراً

- نعم، يعجبني... فهو ليس كالآخرين...

- لا؟ وفيم؟

- إنه لا يحكي جملاً رثاءة، ويبدو كمن له قصة، قصة غير معروفة.

فهتفت بلانثيت على نحوٍ غير إرادي

- اوه! على كل حال، إنه ليس عاشقاً!

- حقاً؟

خرجت هذه الكلمة من بيرينيس بحيوية شديدة، حيوية السرور، حتى

ذهلت بلانثيت منها.

- أكان يسوءك لو كان محباً؟

- لا... لكن ذلك كان سيغيره في نظري...

صمتتا وسارتا قليلاً. كانت بلانثيت تتجهّم. عادت بيرينيس الى الكلام

على المارة، والزينة النسائية.

فقاطعتها السيدة «باربنتان»

- اصغي إليّ، يا بيرينيس، أريد أن أكلّمك بجدية... اصغي إليّ... اصغي

إليّ...

- لكنني أصغي إليك، أنت غريبة!

- بيرينيس، أحبّين زوجك... أحبّين «لوسيان»؟

- بالتأكيد... لكن ما الذي...

- صه... دعيني أقل لك... أنت تحبّين زوجك، بيرينيس، وأنت هنا لعدة

أسابيع، لعدة أيام... فإذا انتهت هذه الأيام عدت الى «لوسيان»... الى حبك...

الى حبه... لا، لا تقاطعيني... لا تبترسي هكذا... لا تقاطعيني!

وقربهما توقفت سيارة زرقاء من طراز «بوغاتي» وهي تفرقع وسط طائفة

من الفتيات الصاخبات اللواتي اندفعن الى السائق.

- لاتطيشي، بيرينيس... من أجل هذه الأيام القليلة... من أجل تهورك في

هذه الأيام القليلة، إن حياة بأكملها ستفسد، ستتسخ... لا تبترسي هكذا... لست

أعظك... ولست أظن نفسي في معبد... إن مغامرة واحدة ليست شيئاً ذا بال
هذا ما يُعتقد على الأقل... إنها تُنسى... هذا ما يُعتقد على الأقل... ليس
المغامرة... ليست المغامرة هي الوسخة... التي تلتخ... ومع ذلك... مع ذلك
فنحن سنفكر فيها، فيما بعد، بالرغم منا، وماتبقى، كل ماتبقى، الشيء المهم،
الذي به نتمسك... الذي هو الحياة... الحب الحقيقي... ما الحيلة، نحن نحقد
عليه إذ يستمر عندما يتلاشى ماسواه... لم يكن ذلك شيئاً هاماً... هو الذي
اتّسخ... هو. (١) ..

- تركتها بيرينيس، وهي مأخوذة، تتكلم، خيل إليها أنها رأت ابنة عمها
مبللة العينين، لعله البرد. إذ لا يمكن أن يكون في ذلك كله شيء شخصي كانت
بلاشيت لاتعيش إلا من أجل «ادمون»، وكانت المأساة هنا، وأن ادمون... تبيّت
بيرينيس ذلك، وقالت:

- الحاصل أن السيد «ليرتيلوا»... لم أقل له ثلاث كلمات، لست متعوفة
به، أؤكد لك ذلك، إنه يعجبني كثيراً. لعله الشخص الذي رأيته عندكم والذي
أعجبني أكثر من غيره... كنت أود أن أكلّمه... بالتأكيد... لالشيء إلا لأسطيع
بعد ذلك، وأنا مستغرقة في أحلامي أن أعطيه لهجة صوته في هذه القصص
التي اخترعها عندما أكون وحدي... والتي أدخل فيها الناس الذين صادفتهم .
لأكثر... فلكي أذكّر «ديني» الصغير جئت بكتابه.. بأشعاره... والسيد
«ليرتيلوا» مثله مثل غيره.

- مثل غيره؟ أعتقد ذلك حقاً؟

- أؤكد لك ذلك... أنت حمقاء عجباً، إنني لا أكاد أتذكره... ولا أدري
ماشكله... أؤكد لك... إن هذا حقيقي جداً حتى اني توهمته في كثير من
المتطرفين... معتقداً طوال الوقت أنني أراه فيهم...

كانت تقول ذلك بكل براءة، ولم يبدو أن ذلك أقنع السيدة باريسان

- وهكذا تودين، عندما تصبحين وحدك، أن تتمكني من تذكره نذكراً

أفضل... طائشة!

(١) بلاشيت هنا تتحدث عن تحريرتها الخاصة كما سيأتي، لكن العيرة المنطنة هي التي
تحركها. المترجم

- مهلاً، مهلاً، يابلانشيت! أنا في الغالب وحدي، هناك، في منزلنا..
وحدي في معظم الوقت... ولابد لي من أن أشغل رأسي...
- والقلب؟

- القلب؟ أتعلمين أن لاقلبَ لي... أي لم يعدَ لي قلبٌ... كان هناك
لوسيان... وأخذ قلبي... ولم يبقَ من قلب...
- لستُ واثقةً من ذلك، يا صغيرتي... اوه! لا تتصنعي! وهل يعلم الإنسانُ
إن كان له قلب؟

لم تكن بيرينيس تصغي، لم تعد تصغي. لقد تعرّفت حقيقة على بعض
الناس هذه المرة. تعرّفت عليهم في جادة الغابة، كم كانت تحسّ أنها باريسية!
ولم يكن ذلك خطأ... امرأتان أقبلتا عليها، إحداهما طويلة والأخرى تكاد تكون
قصيرة، حسنتا اللبس، متأنقتان، كأنهما خارجتان من عند الحلاق، من عند
الخياط، من بين يدي المدلك، وقد رُشّتا بالذرور، وبألوان اصطناعية ولطيفة على
نحو عجب، وكأنما كُوّيت ثيابهما لتوها، وكأنهما لم تطأ الأرض بأقدامهما،
فاحتفظت بالطية التي طوتها بها خادمة في بيتٍ راقٍ... الحاصل. كانت
السيدتان «ماري دي بيرسيغال» و«روزملروز» مع مظلّتين ملفوفتين تحت الذراع،
كما يحمل الضباطُ العصي.

قالت ماري وقد بدت الدهشة عليها.

- اوه! يالها من مفاجأة! تركنا لتونا السيد «ليرتيلوا»...

السماء الرمادية، السماء المترامية الأطراف والفارغة، السماء الكثيفة،
استعادت بهبة واحدة كلّ أهمية إرهابها، والناس، غبار الناس هذا، برؤوسهم،
وؤوس النمل المجنون، الذين أحرقوا أمام المرأة ساعات ليقضوا هنا بضع
دقائق، هؤلاء الناس عابوا صفاراً، مع الأشجار الصغيرة، والجياد الصغيرة،
البيوت الصغيرة، والمرجات الصغيرة، على لوحة الذوق السيء الزاهية من
ساحة النجمة الى الغابة. ومن جهة أخرى، كانت الساعة الثانية عشرة وعشرين
قيقة... ساعة العودة: ماري روزا هيّا، ماري روزا.

دخل البحاران الأمريكيان الطويلان الحانة وكان اهتزازاً شديداً قد حدث، فضحكهما المتتابع جعل النساء يلتفتن، وينظرن الى وجهيهما، وجهين حمرتُهما داكنة، مسفوعين، تحت شعر واقف كالقش وقصير.

عملاقان: الراقص الممتَهن «لويجي» الذي يشبه مقلمة من اللك^(١) الأسود، تجمّع على نفسه لكي يمرّ قريهما دون أن تنشب السترة الرسمية بأقدامهما، وتمتم بانكليزيتة الايطالية. «عفواً، ياسيدي». كان سيدعو سيّدة ناضجة الى الرقص.

تنهّدت سيمون: لاخلاف في ذلك... إنهما ثملان، لكنهما جميّلان، هذان الشخصان... جميّلان حقاً... المصيبة أنهما لا يحسنان أن يضبطا نفسيهما... ولولا ذلك... أنت تفهم، «لولي» يحرص على حشمة المظهر... وإذا ماخطفت إحدى هذه العصافير فإن ذلك سيُرى على الفور... وأنت تعلم أن «لولي» لا يمزح... إذا ماخرجن فليقلعن ماشنن، أما داخل الدار فلا خلاعة... لقد أوقفتُ عن العمل خمسة عشر يوماً ذات شهر غير بعيد... وطبيعي أنني لأشتهي أن أعود الى ذلك!

كانت ترشف عصير البرتقال قرب السيدين ببذلتهما، الواقفين، المرتفقين على واجهة الحانة وهي ممرّ ضيق ملبّس بالأكاجو، والديكور زجاجات مختلطة بأعلام صغيرة لجميع الأمم، والنادلان الأبيضان اللذان يذهبان ومجيبان، وعند الباب المطلّ على المرقص، أمينة الصندوق، السيدة «لولي» بذاتها، وهي فينيسية ضخمة مغطاة بالخواتم، تدقّق حساباتها طوال الليل. إنها آلة للحسابات، كان يمكن أن يكون الوقت الثانية عشرة والنصف ليلاً، لكن الوقت كان متماثلاً، تحت الأضواء الوردية المخفية في الأفاريز والتي تغمر التيمات المعلقة في الجدران من لعب وشارات نواد أمريكية، وأعلام جامعات، وإعلانات للشمبانيا، ولوحات تركها

(١) عصارة صمغية حمراء. المترجم

شخصٌ من اوروعواي ثمناً لحسابه، وجهاز اليا نصيب الآلي الذي كان يحركه بين الحين والآخر زبونٌ ثملٌ قليلاً. ونحو ست نساء لم يكن يرقصن في هذه اللحظة، وكُنَّ يتناولن قدحاً أو يثرثن بكل بساطة مع رجال يُسرّون عن أنفسهم، بعد محطة في المرقص، أو أنهم بكل بساطة لا يذهبون ليجلسوا، إذ لم يكونوا بثيابٍ لائقة، ثم إن الشمبانيا في الحانة ليست إجبارية. وفي طرف الحانة، انكليزية ثملةٌ قليلاً، جاثمةٌ على مقعد، وذقنها موضوعٌ قرب قدحها، تحدث عن كتبٍ أرجنتينية في بذلتها. ومن حين لآخر، كانت تترك محفظتها، ورشاشة البودرة تسقطان، فيلتقطهما الأرجنتيني حتى دون أن ينحني بعفوية مذهلة. وكانت اللوحة كلها تزوج بين ملابس الرجال القاتمة وبين ألوان قوس قزح في فساتين المساء: البرتقالي، الفستقي، التوتي، الزمرد، الأبيض المبرق، المذهب بالمعدن، والأوشحة الناعمة أدخنة وردية أو مياهاً زرقاء على المقورات الدراقية أو الحليبية، أو التي كقلب فطيرة الطوى، أو زغوة الشمبانيا... ما أغرب هذه الذبول الصغيرة التي تضاف إلى فساتين المساء نصف القصيرة! كان ذلك يُسبغ على المشية تلالؤاً مرتبكاً، وأهمية غريبة على أحذية المساء التي كانت كأنما تريد أن تنشب بها وتمزقها... أجال الدكتور نظره طويلاً في هذه الظهور الشابة والقليلة النفور. ثم التفت نحو «ليرتيلوا»: أتريد كأساً أخرى؟ قال اوريليان بكتفيه: «لَمْ لَا؟». «أيها النادل. الشيء نفسه... لاثنين...» كان مشهداً لطيفاً أن يرى وهو يصب في الخلط.

قالت سيمون لاوريليان: «أجددت الطلب؟... كم يشرب صديقك!» وقالت هذه الجملة الأخيرة همساً. ثم قالت بصوت غنج: «لم تقدمني...» تراجع اوريليان بجذعه وقام بحركة التعريف بين جاريه على يمينه ويساره: «دكتور، سيمون، صديقة... أحد أصدقائي، سيمون...»

سألت مهتمة:

- هل السيد طبيب؟

أجاب الآخر بذلك النوع من اللهجة الساخرة والمتواضعة التي يصطنعها
بين الحين والحين مع أناس لم يتوقع لقاءهم.
- نعم، وعندما يروق لي، يا أنسة..

منذ أن جاء زوج «روز ملروز» الى منزل ليريلوا بسبب نوبة الملاريا،
تكوّن بين الرجلين نوعٌ من صداقةٍ متواطئةٍ شديدة الغرابة، وتوطّدت بسرعة. لقد
تلاقيا كثيراً مصادفةً، وساعدا تلك المصادفة قليلاً، في هذه اللحظة، كانت روز
تمثّل في «بروكسل»: «جيكوندا»، جيكوندا «دانونزيو» في دورٍ عظيم، حيث كانت
«الدوز» لامثيل لها. وهي سابقةٌ خطيرة... فالدكتور «ديكور» لم يرافق امرأته،
وكان يحسّ أنه وحيدٌ جداً. فانجرف في فلك «اوريليان». والحق أنه كان كُثر من
الشراب، شراب كؤوس كبيرة من «الجين».

سألت سيمون. «أمعك سيجارة». أخرج «ليرتيلوا» علسته المذهبة، وبحركة
من يده، وبينما كانت سيمون تطبطب سيجارتها، قدم «اللوكي سترايك» الى
«ديكور». سحبوا بصمتٍ الأنفاس الأولى، ثم أوضح «ليرتيلوا»
- سيمون صديقة قديمة..

فصحّحت له:

- رفيقة...

- وعندما أتى الى هنا مساءً لأختم أمسيّتي، وأنسى الناس قليلاً...
نمضي دائماً لحظةً معاً... وأنا أدفع لها ثمن كأسها...
قالت سيمون حادةً:

- كأسٌ واحدة. أنت تعلم، يادكتور، أن مايحسوه الناسُ هنا مضرٌ
بالمعدة... اوه، لأريد أن أقول... لا ونحن هنا من العاشرة مساءً الى الخامسة
صباحاً، ولا بد من تناول شيءٍ مامن وقتٍ الى آخر، ثم على الطاولات، مهما كان
قليلاً مانتناوله من الشمبانيا... لا بدّ من ذلك... رواد الحانة... وإذن فلا بدّ من
كأس من عصير البترقال، أترى... وهذه الكأس من عند رفيقي!

ضحكت قليلاً ببلاهة، ودغدغت أذن أوريليان، وأضافت «كالأخ وأخته»،
وغمزت بعينها، ثم قالت جادةً ومُسِرَّةً «ذلك منذ زمن بعيد جداً... ألن تصحبني
مرة أخرى ذات مساء؟... ما زلتُ أسكن في المكان نفسه...»

كان الدكتور ينظر إليها بفضول، كانت كما يجب أن تكون تماماً،
ولاشيء غير ذلك، فتاة أقرب إلى الطول، شقراء، بشعرها المقصوص والمعنى به،
المعقوص عقائص عاطفية، حول وجه كوجه الهرة، وبأنفها القصير، الخانس
الذي يشد الشفة العليا لتكشف قليلاً عن أسنان صغيرة ناصعة البياض، وكانت
عينها المجهلتين، ورموشها المزركة، تحمل تعبيراً مستفهماً، أبدأً، تصنعاً أو
غباءً خالصاً. وكانت عنقها وظهرها مقبولين، ويدها مدورتين، لكن عادةً سيئة
كانت تجعلها تجلس وكتفاها مرفوعتان، غارقتان إلى الخلف، فتبدو دائماً كمن
يلملم فستانها وخمرها، كما تلملم الأغنية إذا فوجئت على السرير. وكان ذلك
يجوّف لها صدرها قليلاً، ومع هذا كان فستانها فقيراً وإن كان غالي الثمن،
كالفساتين التي ترى في واجهات شارع «بيغال» و«فونتين»، كان فستاناً وردياً،
مع ريشات مصبوغة بلون أشد قتامة حول التقويرة، وبلى الكتف قرنفل غضة
مع أوراق بذلك الأسلوب الهوائي يتهافت هواة الأزهار على تعليقها في العروة.
- آه، سأتركك لحظة... أتعذرني؟ (بطرفه عين متواطئة كعادتها)

«العمل... هل تسمح لي، يادكتور؟

- أرجوك...»

- سيكون هناك عرضٌ عارٍ... المشهد، تعلمان... اذهباً لرؤيته... لا بأس

به...

نصحت هذه النصيحة وابتعدت، وهي لا تني تلملم حولها، بتلك الحركة
الآلية، تلك الحماية المحتشمة لعدة سرير متنقلة... وفي الصمت الذي حمله هذا
الذهاب بين الرجلين سُمع، بشدة أكبر وبدقة أعظم، ضجيج المكان، هذا المهاد
من الضوضاء الملائم جداً للوحدة، مع الجلبة المزدوجة لأحاديث الحانة
والأوركستر التي كانت تعزف «النانغو» جانباً، وأصوات الراقصين، وهتافات

المرح، وصوت «لولي» الذي كان يصيح في المدخل، بين حين وحين «أولي! أولي!» مع حركة مناسبة، لكي يشجع ذلك الجو الأسباني. وكان البحاران الأمريكيان اللذان يحيط بهما جمع من السيدات، يدهعان بغير حساب، ثمن الشراب، ويقربان رأسيهما ليتمكننا من غناء أغنية «جونني وفرانكي»، مما أفرح مستمعاتهما.

قال أوريليان رداً على سؤال لم يُطرح. «ماذا تريد؟... ما زلت أ صاحب هؤلاء البنات. وذلك يغير، ويريح. أه لا، من أجل المضاجعة. يا الهي!... كلاً... الحق أن ذلك يقع لي نادراً جداً. حياتهن كثيفة، وهي في حقيقتها، بسيطة كلياً. يجب ألا نراهن في وضوح النهار. ما لم يكن في زمرة من تلك الزمر التي ننتهي فيها أن ننتحب... كذبهن ليس كذباً. إنها مواضع محترمة جداً، مواضع مسكينة صغيرة. وأنا أشعر معها بالراحة حين أخرج من ذلك العالم الذي أعيش فيه، الذي لا يحملن أية فكرة عنه.. لامكائد، إذا كنا نتسهي... تم بعد ذلك، كالأخ والأخت، كما تقول سيمون... أحب كثيراً هذا المكان اللامعقول... حيث من المؤكد أن تلقاني هنا نحو هذه الساعة... لأنني، على الأعم، مبتلى بالسيدات المتزوجات اللواتي يتركنني لقدرتي... عزباً مسكيناً، ليذهبن ويلقبن مالكن صاحب البراءة... أو في النهاية...

- أنا الذي سأشفق على العزب المسكين...

- لا يشفق أحدٌ إلا على نفسه، هذا متفقٌ عليه... أنا أحيا أي أنام كل ليلة،

وأستيقظ كل يوم بين ذراعي «السين»...

- طفل كبير!

- اضحك، اضحك... بين ذراعي «السين» كالغريق... ومع الزمن يصبح ذلك فكرة مستحوزة... رأيت كثيراً من الموتى في حياتي... إن صورة النهر التي تمتزج بأحلامي، كما تمتزج، فيما أظن، صورة الجرف الثلجية بأحلام الجبليين، يجب أن تُعارضها بشيء... بجو الابتهاج... إن الفلاحين يرقصون لكي لا يخافوا بعد من القوى الطبيعية...

- وأنت، لك هذه الحانة... «أولّي، أولّي»
- تماماً... ولقد مزجتُ قصصِي كلها بهذا المكان... وإليه جئتُ بكل
صاحباتي... حتى إن صديقتي سيمون تعرفهن إذا رأتهن... وإنها تقول لي أَلَمْ
تعد تراها الحمراء الطويلة... أو السمراء القصيرة التي لا تحتمل الشمبانيا...
- آه! يحسُن بي أن أعرف ذلك، عندما تغازل امرأتي بإصرار... سأعرف
ممن أستعلم...

كان قرعُ الطبل يُعلن بدءَ العرض،
- أتذهب إليه، دكتور؟... لا... موافق... نحن أفضل هنا...
- أنت جسمٌ غريب، «ليرتيلوا»... وكلما عرفتُك وجدتكُ مختلفاً عما كنتُ
أُتصوّر... لك صيتٌ دون جوان... وأنا أَسْأَلُ الآنَ لِمَ لم تتزوج، ومع الأولاد...
مع الأولاد من ناحية المرقص... إنني أراك جيداً هكذا...
- ربما، يادكتور، ربما... لكن... فيما يتّصل بالأولاد...

أراد أن يقول شيئاً فتوقّف فجأة، لعله الحياء، كانت عيناه حلمان
بعيداً... أما «ديكور» فكان يضحك في أعماقه إذ رأى نفسه رسوياً للزواج. وفي
مدى لحظة، تغشّت الأشياء، غشاها شيءٌ كبيرٌ مبهمٌ ومتناسق، خُيِّلَ إليه أنه
يسمع صوتاً معروفاً وعميقاً، صوتاً محبوباً وممرقاً... نبّهه فجأة صوتُ أوريليان
إلى هتاف الزوجين، وقد سعد بأن يراه شارداً، لأن ذلك كان يخفي هربه العابر
هو نفسه:

- ها أنت ذا تعود إلى التفكير بـ«روز»!
انتفض الدكتور وقال: «لا... بلى... لايجوز أن أخفي شيئاً عنك... كنتُ
أَسْأَلُ نفسي كيف سيتمّ الأمرُ في بروكسل... وأنت، إذا كنت تعتقد أنني لم أر
شروذك مني!»

سكتَ أوريليان وابتلع جرعةً كبيرةً من «الجين»:
- شيءٌ غريب، أمسياتنا، يا عزيزي... نحن رفيقان متوافقان من أجل هذا
بالذات... لأننا نستطيع أن نصمت معاً... أو نتكلم دون أن يُصغي الآخرُ حقاً...

فَكَرُّ فِي رُوزٍ، يَا صَاحِبِي، فَكَرُّ فِي رُوزٍ، وَلَا تَتَحَرَّجْ مِنِّي...
- إِنِّي أَفَكَّرُ دَائِماً بِرُوزٍ، حَتَّى عِنْدَمَا أَتَكَلَّمُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ آخَرَ... لَا يَسْتَطِيعُ
أَحَدٌ أَنْ يَسْرِقَهَا مِنِّي... وَمِنْ عَادَتِي أَنْ أَفَكَّرَ فِي «رُوزٍ» أَمَامَ أَيِّ إِنْسَانٍ... لَكِنْ
مَعَ ذَلِكَ أَيْنَ شَرِدْتَ أَنْتَ، يَا «لِيرْتِيلُوا» أَيْضاً؟ أَلَمْ تَكُنْ تَفَكَّرُ فِي رُوزٍ أَنْتَ...
- لَا، دَكْتُورَ، لَا، سَأَقُولُ لَكَ فِيمَ كُنْتُ أَفَكِّرُ، وَسَيَبْدُوكَ ذَلِكَ سَيِّئَ الذَّوْقِ...
كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، وَلَا أُدْرِي لِمَ... أَضَعْتُ حَلْقَةَ التَّسْلُسِلِ... نَعَمْ، الْفِكْرَةُ الَّتِي
ضَلَلْتُ عَنْهَا وَالَّتِي أَلْقَيْتُ بِهَا فِي هَذِهِ الْقِصَصِ الْعَتِيقَةِ... عَمَّ كُنَّا نَتَحَدَّثُ؟
- عَنِ الزَّوْجِ،

- آه! صَحِيحٌ... عَنِ الزَّوْجِ... الْأَوْلَادِ... حِينَئِذٍ رَأَيْتُ فَجْأَةً رَكْنًا مِنْ
«الشَّمْبَانِيَا»... بِصَفَاءِ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ... رَائِحَةِ الْأَرْضِ... الرُّطُوبَةِ الْعَمِيقَةِ...
النُّورِ... وَكَانَ فِي الْأَسْلَاقِ الشَّائِكَةِ جِثَّةٌ لَمْ يُمْكِنَ رَفْعُهَا مِنْذُ أَيَّامٍ وَأَيَّامٍ...
صَمِتَ مَرَّةً أُخْرَى... وَطَالَ الْوَقْتُ، تَمَّ. «وَسَاعَلْتُ نَفْسِي أَيْضاً... لَا بَدَّ أَنْكَ
خَفَضْتَ الْحَرْبَ... أَيْنَ كَانَ ذَلِكَ؟

تَفَضَّنَ قَلِيلاً وَجْهَ «دِيكُور» السَّاحِبِ. وَقَالَ بِهَدْوٍ تَامٍ، وَهُوَ هَدْوٌ يَشْبَهُ
هَدْوَ الْفِيلِ الْأَمْرِيكِيِّ: «نَعَمْ... كَجُنْدِي فِي الْمُؤَخَّرَةِ...»
عَلَا التَّصْفِيقُ، لَقَدْ أَنْهَى الرَّاكِضُونَ الرُّوسُ عَرْضَهُمْ.

قَالَ «أُورِيلْيَان» بِخَجَلٍ وَيَنْوَعُ مِنَ الشَّعُورِ بِالدُّوْنِيَّةِ «أَتَعْلَمُ أَنَّنِي لَمْ أَخْرَجْ
مِنَ الْحَرْبِ تَمَاماً بَعْدُ... لَمْ أَتَخَلَّصْ مِنْهَا تَمَاماً... إِنَّنِي مَا زِلْتُ أُسْتِيقِظُ لَيْلاً وَبِئْسَ
خَوْفٌ مِنَ الْأَلْغَامِ، كَمَا كَانَتْ الْحَالُ فِي ١٩١٥... تَمَّةُ الْكَثِيرِ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ فِي
هَذِهِ الْحَيَاةِ اللَّامِعْقُولَةِ... الْحَرْبِ... مَا زِلْتُ هِيَ الَّتِي أَهْرَبُ مِنْهَا إِلَى حَانَةِ
«لُولِي»...

وَفَجْأَةً عَافَ الْكَلَامَ عَلَى ذَلِكَ، فَحَاوَلَ بِعَنْفٍ أَنْ يَعْثُرَ عَلَى الْاسْتِطْرَادِ
الضَّرُورِيِّ، لَكِنْ الْاسْتِطْرَادُ جَاءَهُ بِكُلِّ بَسَاطَةٍ مِنْ صَاحِبِهِ.

قَالَ الدَّكْتُورُ: نَعَمْ، نَحْنُ جَمِيعاً نَهْرَبُ مِنْ شَيْءٍ مَا... فِكْرَةُ لَمْ تُصْنَعْ، عَلَى
الْأَغْلَبِ، فِكْرَةُ مَلَاذِمَةٍ... لَمْ أُسْتَطِعْ قَطَّ الْعُودَةَ إِلَى مَنْزِلِي إِذَا كَانَتْ «رُور» غَائِبَةً

عنه... إني أتسكع ليالي... ليس «العين» شيئاً رديئاً... «روز»، يا عزيزي،
«روز»... أه! ليس بوسعك أن تفهم، فأنت لم تعشق قط... كيف أُعبر لك؟ «روز»،
بالنسبة إلي... «روز» هي حربي... هكذا... حربي أنا... لعل هذا يُعبر لك أكثر
من أي شيء آخر، حربي أنا، حربي العظمى!
وضحك ضحكته المتأنقة، وعاد إلى الأرض، بأنف من قال شيئاً منكلفاً،
شيئاً تكعيبياً، ألا تجد...

وتابع كلامه: ماذا تريد، الناس الذين هم أسياد أنفسهم، الذين لهم
دخولهم يمكنهم بيسر أن يصمدوا في هذا الجو من العقلانية الرفيعة... بودلير،
رامبو، فيرهارين... حيث تجد روز نفسها، بصورة جد طبيعية، في بيتها،
لأسباب تتعلق بالعبقرية... أما المساكن مثلي!
واستأنف لهجة الوقاحة والتذلل.

- أقول لك إنها حربي... الحرب كلها... لقد علمونا في الثانوية أن الحرب
هي قابون الحياة... مَنْ قال هذا؟ «هيراقليط» يا عزيزي، هيراقليط... لكن الرجل
الذي يتزوج امرأة غنية، سرعان ما ينسى الفرق بين امرأته وبينه... انظر إلى
بارينتات... عرفته في الكلية قديماً... مَنْ الذي كان يلومه على سيارته؟ ليس
الأمر واحداً عندما تكسب المرأة حياتها، وبطريقة صاخبة... مسرحية إن جاز
لي القول... بوسعك أن تنهك نفسك... أن تلجأ إلى الشعر... ليس لك حتى الحق
في الكلام على الحب... أنت قواد سوقى...
- أه! مهلاً، دكتور، أنت تبالغ... فلك مهنتك...

- نعم، لنتحدث عنها... كان بوسعي أن أغدو طبيباً... طبيباً حقيقياً... مع
مركز... سيخبرك بارينتات عن ذلك... لكنني تركت كل شيء من أجلها... يتعذر
الاستقرار في مكان ما مع هذه المرحلة... هذه الهاربة... في المراحل الأولى...
ثم إن الأمر كان شديد القسوة... فعدت عن ذلك...
- لكنك تمارس مهنتك!

- أمارسها، أمارسها... في الصيف، أقضي موسم المعالجة في إحدى
مدن المياه... وأنا أدعى إلى هناك بسببها، أعلم ذلك جيداً... روز تتعالج لتظل

رهيفة... وبالحال من دعاية المؤسسة المياه الحارة والكارينوا ويتعذر في سائر العام أن يكون لي مكتب، شيء ثابت... وإذن فقد تدبرْتُ أمري... فيما أنني أصبحت طبيب «روز» قبل كل شيء، وأنني أنا الذي يُعنى العناية الكليّة بجمالها... على كل حال، لم أكن لأتحمل أن يعمد آخر... شيء مثير، الغيرة... أن يكون لها عشاق، يا الهي... لكن هذا... مجرد التفكير فيه يصيبني بالبرد... ماذا كنت أقول؟ أه نعم، وإذن فقد انزلت الى هذا الاختصاص، وهو غير جدير بالاهتمام كثيراً، هو غير علمي... العناية بالجمال، التدليك، الحمية لتظلّ شابة وجميلة... وبجانب طبيعاً هذا المثال الرائع... هذا الدليل على مهارتي، روز دائماً... أنت ترى إذن أنني حتى في مهنتي، أغتذي بـ«روز». أظن أن المسرح، والعبقريّة، أظن ذلك يعوّض على واحدة مثل «روز»... لا بدّ من المال شأنها شأن جميع الذين لا يعلمون ماذا... في هذا الجو من العقلانية الرفيعة... ولذا فقد ابتكرتُ أشياء... تولّدتُ بسيدة روسية... من الأرستقراطية العليا، في المنفى، وهي لا تأكل إلا في صحون القيصر... وهي تصنع مستحضرات للتجميل... وأنا أوصي بها... وتسير الأمور عندما أكون بمعية روز في البرازيل أو البلقان... مراهم للتجميل تشدّ الجلد... وهناك مرهم قدرُ شكلاً ورائحة... يدهن به الوجه، وهو يلدع، كالنار بكل بساطة... ثم لا يلبث اللدع أن يهدأ... ويُغسل الوجه بمادة أنا ابتكرتها... فيعود الجلد الى جلد ابن خمسة عشر عاماً، وذلك لمدة اثنتي عشرة ساعة... وقد تخيلنا أن نضع صورة «روز» على قارورة المرهم... فأنت ترى جيداً...

ملاً كأساً جديدة، كان «اوريليان» يصغي الى صاحبه، ويفكر في «روز»، تخيلها وهي في منزل «ماري» في فستان المخمل الأخضر المائي، وتخيل فمها. غريب أن يعلم المرء هكذا الوجه الآخر لهذا الجمال... والأغرب أن الدكتور كان يجعلها بهذه الوسائل أشدّ جاذبية أيضاً... ويثير الفضول، أبعد اوريليان الفكرة التي كانت تتسلّ بمكر الى نفسه، فلا شك أن «روز» كانت مشجّعة على نحو فريد عندما تناولوا ثلاثتهم العشاء معاً... لكن حب هذا الرجل لامرأته كان عظيماً جداً، فريداً...

همس «ليرتيلوا» «كم تحبها! لابد أن يكون شيئاً مُبليلاً ذلك الحب، الحب الذي في الكتب... والذي يدوم... أسابيع... وأشهر... وأعواماً... السعادة... قهقهه ديكور السعادة! آه! نعم... السعداء لاتاريخ لهم... يالها من مزحة... ليس هناك من سعادة، هناك الحرب... ياهيراقليط العزيز القديم!... الحرب...

فكر «اوريليان» آه!... هاقد جاء الشرح الموسع.. ونظر الى ذلك الوجه الطويل، وهو أقل هذا من الرجل ذاته، الى تلك الجبهة العريضة المقوسة، والتشعر الأملس الذي يكاد يكون أزرق، والعينين السوداوين، وتعبير المראה المكبوح.. لم يكن يستطيع أن يقرر اعتبار «ديكور» كائناً متكلفاً، لكن إن كان ذلك كله طبيعياً فيا للفضاعة... إن اعتدال هذه الشفة الملأى بالمرارة لابد أنه كان ثمرة سنين وسنين من الألم. كانا قريباً بقامة واحدة... لا، كان الدكتور أقصر قليلاً...

- «روز»، يا صديقي، فتَح دائم... هناك الخيبات... فنحن لانربح جميع المعارك... هناك لحظات يجب أن نخسر فيها، أن نترك ساحة المعركة... أن نحتال... وذلك لكي نُحسن الظفر... ليس العالم فارغاً أيضاً... هناك كائنات أخرى... رجال ونساء وحوش... «روز» حرة... كائن فذ كهذا... بأي حق أطلب منها أن ترفض ما يغريها؟... العبقريّة لها حقوقها... يجب فقط أن نكون أقوى ممّا يُغري... أن نكون ما يدوم... فتعود إليّ...

ما أكثر ما صار اوريليان يكره نفسه... فما كان يسكنه، لم يكن، في حكمه، جميلاً.. وكان تقديره كله يذهب الى هذا الرجل، الى هذا الصديق الجديد... لكن صورة «روز» كانت تملأ الحانة، مع دخان السحائر الدوار، تلك الیقظة الراحشة للحياة فيها، عندما تنتقل أبدأ من السكوت الى الكلام. كان يراها ثانية وهي تمد شففتها لتطلب خبزاً، خبزاً فقط. وكأنها كانت تبحث عن قبلة، ومرة أخرى، عادت الى الدكتور تلك اللهجة المتذكّلة، المليئة بالأفكار المبطنّة، وهو مالم يكن يحبه «اوريليان» فيه

- خذ مثلاً، في ذلك المساء القريب العهد... كنتُ أنظر الى روز وهي تنتظر

إليك... لاحتجج، أنا أعرفها... نظرتُ إليك في مدى دقيقة كما يُنظرُ الى شيء في
الواجهة... أعرف مايعنيه ذلك... اوه! لقد مرّ ذلك، على نحو طبيعي... لأدري لم
أقول لك ذلك... لأن ذلك هو حياتي... السعادة... الحرب... أنت أيضاً ممّن
يستطيعون أن يحبسوا أنفسهم في جو العقلانية الرفيعة... أنت لاتخلط حبك
بالتجارة... ببيع المراهم... بالنصائح الصحية.. أنت ذو امتياز...

أُخذ «اوريليان» فجأة يكره الدكتور، ويفكر عندئذ في «روز» بدقة قاسية.
وكان قد دخل أناسُ جددُ الحانة حيث كان البحاران برقصان الآن في ركنٍ
رقصة «الجيك»، وهما مقرقصان، في ظلّ تصفيق بنات الحانة وروّادها.
قال ديكور. وأيضاً فأنت لاتعلم ما«روز»... لكني أتكلم عنها بغباء... من
يعلم، لعلك ضاجعتها!

لابدّ أنه ألم نفسه إيلاماً شديداً وهو يقول ذلك. كان في عينه زعراً. لم
يكن لما قاله، مع ذلك، كبير احتمال. أخذ ينتظر جواباً. قرأ «اوريليان» في نظراته
أن الصمت يُفقدّه عقله. لاشك أنه كان يفكر في أن رفيقه يحاول أن ينخلص من
السؤال غير المباشر. كان ينبغي أن يتكلم. قوَّس اوريليان كتفيه، وأحسّ بقوّته
وخبثه.

قال: لم أفعل ذلك بعد. دخلتُ سيمون كالإعصار مع مراقصها، ورأسه
كرأس تاجر البقر، وعلى واقية الصدر جواهر. قالت في طريقها، وهي مهتاجة،
ودون أن تتركه.

- هناك صديقات في الصالة، أتعلم؟

قطب اوريليان حاجبيه: مَنْ هنّ؟

- ثلاث سيدات ورجلان...

لقد تعب من تسبح «روز»، ولم يعد «ديكور» ظريفاً جداً، في الحقيقة، قال

له.

- ليتنا نذهب الى الصالة لنرى، دكتور؟... أنت تعلم أن الناس قد يأتون

الى هنا وفي نيّتهم أن يلقوني...

وانتقلا الى المرقص.

من اللون الوردي دلفوا الى الأزرق، كانت الاوركسترا تعزف «فالساً» انكليزياً تدندن به نساء حول الطاولة في إنارةٍ شبه ليلية أُعيدت قبل هنيهة، بينما كان الراقصون يدورون مثل العشاق على البطاقات البريدية (أنت حقاً جميلة جداً- بحيث أحبيتك حتى الجنون...).

كانت -حانة «لولي» تبدأ خلف أبوابها الزجاجية الصفافة ذات الستائر البرتقالية، بنوعٍ من السهو، أو الغرفة الخلفية التي تُفتَحُ عليها الحانة يساراً، والمغاسل يميناً، والتي تتصل اتصالاً عريضاً بالمرقص. وكان هذا البهو سوقاً لكل ما يُباع هنا، من قلوبٍ وسجائر، وأشياء أخرى يصعب تحديدها. وكان فيه، على الدوام، أناسٌ يتحدثون عن كتب، من روادٍ يعتزلون جانباً للحظة من الزمن، أو بغايا يثرثرن فيما بينهن، أو ينضممن الى شبابٍ لن يتعرفوا عليهن بعد قليل وهم يرقصون، وهن شخصيات مضطربة وشاحبة ينطفئ نقاشها لدى دنو زوجين أو دنو مدير الخدم. هناك أيضاً، في الزاوية، حجرة الثياب بمديرتها العاطفية، وبجانب المغاسل التي تنبعث منها ضحكات هؤلاء السيدات، بابُ المطابخ التي يخرج منها الجبُّ المذابُ على الخبز المحمص، وأفراخ الدجاج بين أسطال الشمبانيا.

- أتريدان طاولة؟ ..

كان هذا هو السيد «لولي» بشخصه، وهو ايطالي من أمريكا، عظيم البطن لكنه متين، عضلاته ملاصقة لسترته الرسمية، وما بقي من شعره الأسود متجعّد حول صلعته، وقد أقبل على السيد «ليرتيلوا» أحد رواد الحانة، وشدّ على يده.

- شكراً... إن لنا أصدقاء...

غمر الفالس القاعة. وهي رقصةٌ رقصها اوريبيان في ١٩١٩، في لندن، من حانة ليلية الى حانة ليلية أخرى، مع تلك الصديقة آنذاك التي غرقت في

«التايمز» ذات ليلة... على إثر رهان غبي، موسيقا الفالس... أغمض عينيه، لكنه لم يرَ لندن، وفكّر في «السين» حول الجزيرة...

كان مرقص «لولي» صالة كبيرة مربعة حولها شرفة، تحت أعمدتها غرقت أربعة صفوف من الطاولات، مع حلبة الرقص في الوسط. وفي الصدر، غرفة أخرى، شبه دائرية، تكبرها، وفيها تستقرّ الاوركستر، وطاولات أخرى أيضاً، كالكهف، نادراً ما يأتي الناس الى طاولات الشرفة المنزوية، التي كان يتم الوصول إليها بدرجين من على جانبي القاعة. وكان كل ذلك مغموراً بالنور الذي يترك ظلالاً فوقها، نحو السقف غير المرئي، بأسلوب مغربي كاذب، أزرق وأحمر وذهبي يُبرم الجصّ على أعمدة الشرفة،

والمقصورة الكبرى في الصدر، وكانت الطاولات تحت الشرفة مرفوعة قليلاً بمقدار درجتين، وتغطي ذلك كله شرائط أرسلها المتعشّون قبل رقصتين أو ثلاث مثل قالب حلوى تزيّنه قشدة من كل الألوان. وكان الخدم ينسلّون بين الطاولات، والأطباق في توازن خطرٍ فوق الرؤوس. إذ أن الحانة كانت غاصة بالناس، فأضيفت مناضد صغيرة عند أرجل الراقصين الذين كانوا يدورون في الوسط. وكان ضوء القمر الاصطناعي يساير الموسيقى مسامرة ديكور ابن سراج لنات مونمارتر.

همس الدكتور هاهم أصدقاؤك.. وكان ينظر الى اليسار، الى الوسط، على حافة الراقصين. فتتبع اوريليان نظرتة. وكانت «بيرينيس» أول شخص رآه، في فستان «اللوئوس» الذي ارتدته في منزل «ماري»، ويقربها «بول ديني» و«بلانشيت»، و«پارينتات».

هزّ الدكتور رأسه. ألم تستدعه السيدة «دي بيرسيغال» الى منزل اوريليان المريض؟ سيمون تعرفها أيضاً، تعرف ماري، كذلك فكّر الدكتور، وفكّر أيضاً، وهو يسير الى الطاولة أن «ليرتيلوا» المتحفّظ من نواحٍ أخرى، لم يكن يعتبر سيمون داخلة في قواعد هذا التحفّظ.

«آه، دكتور! «ليرتيلوا»!

بهض باربنتان واستقبلهما. أزعج ذلك الراقصين قليلاً لدى مرورهم، وعبرت كرسيان فوق الرؤوس، واستقرا حول طاولتهم.

صاحت ماري بالدكتور. «أنت عزب، هذا المساء» صيحة جعلت الكريستال يطن في طريقه. وكان الدكتور يقبل يد بلانشيت، وكلها بالساتان الأسود ماعدا الذراعين العاريتين وست الصفوف من اللآلئ التي ورثتها عن أمها...

ابتسمت بيرينيس لـ«ليرتيلوا» «أكدت السيدة «دي بيرسيفال» أننا سنجدك هنا...»، واحمررت، صبت في كؤوس الوافدين الجدد آخر قطرات الشمبانيا. صفق «باربنتان» بيديه «هات زجاجتين من الصنف نفسه» فسارع الخدم.

توقفت الموسيقى، وتوقف الراقصون أيضاً مع تلك الخيبة المتوجهة الى الاوركستر والى مراقصاتهم في آن واحد. كرر الموسيقيون الفالس نفسه. أحس أوريليان بيد على ذراعه، كانت بلانشيت «ألا تريد أن ترقص هذا الفالس؟» نظر الى بيرينيس نظرة اعتذار، ولحق بالسيدة باربنتان. ورأى بمؤخرة عينه أن «ماري» نهضت مع «ديكور» فزم شفتيه قليلاً. قال لمراقصته رقصت هذه الرقصة أول مرة في لندن... في ١٩١٩...

- أه -

كان رأسها في مكان آخر. ولاحظ أنها تصطنع في وجهها قسوة أكثر من المعتاد. كانت شفتها السفلى ترتجف قليلاً.

- اصغ... أوريليان... طلبت منك هذه الرقصة لأنني أريد أن أكلّمك...

- أرجوك، سيدتي العزيزة...

كان يتلهى برؤية ماري إذ تراقبهما وهي ترقص. نظر الى الطاولة بدا «بول بني» شديد الاحتفاء ببيرينيس. كان باربنتان يشتري سجائر من صبي الحانة.

- أوريليان... أرجوك... مادام في الوقت متسع... دع بيرينيس وتأنها...

وتحاشيا في آخر لحظة الاصطدام بزوجين أخرقين.

- ماذا تقصدين، بلانشيت؟ السيدة موريل...

فاستشاطت

- لا تكذب... أظن أنني لأرى لعبتك... ولعبة «ادمون»...

- لكن، ماهذه المزحة، يا صديقتي العزيزة؟

- أنت تُلقي لدى كل خطوة... وكأن الأمر مصادفة... ويرمى بك إليها...

ولا تعرف شيئاً من ذلك...

- أؤكد لك...

- أوريليان، هذا سيء... سيء جداً...

- يا صديقتي العزيزة، السيدة «دي بيرسيغال» تنتظر إلينا!

- صدّقني، «أوريليان»، صدّقني... هذا سيء... سيء جداً...

- لكن...

- اسكت... اصغ إليّ... اوه، اصغ إليّ... بيرينيس شابة... سعيدة...

نعم، إنها لا تعلم شيئاً من ذلك... لكنها سعيدة... لها زوجٌ يعبدها... طبعاً إن

حياتها... مسطحة قليلاً... في الريف... بالطبع... لكن زوجها يعبدها...

- ممتاز... ولا أدري...

- اسكت! اوه! إن كان ما يزال فيك شيءٌ إنساني فتذكّر... تذكّر ماجرى

بيننا.. والسوء الذي ألحقته بي...

- مهلاً، بلانشيت، لم يجر شيء... أولم يجر سوى شيء طفيف جداً...

- نعم، طفيف، بالنسبة إليك لكنه كافٍ لتدمير السكينة...

أه أنت تعلم أنني أحب «ادمون»، أحب ادمون وأكرهه...

- أؤكد لك، ياسيدتي العزيزة، أن السيدة «دي بيرسيغال» لا ترفع بصرها

عنا...

تساءل ما الذي يمكن أن يكون في نفس بلانشيت، أهى تغار؟ الحاصل

أنها كانت تحب زوجها، ومن أجل بضع قبلات ذات مساء... نكايّة بطيش

باربنتان دون شك أكثر من أي شيء آخر.

قالت أيضاً

- اصغ، أنا أعرف بيرينيس... سوف تدمرها بكل بساطة، إن مضيتُ أبعد من ذلك.

- لكنني أقسمُ لك...

- أنتم الرجال لاتعرفون ماالأمانة... الحقيقية... العميقة... أحب أحياناً أن أموت بسببك... بسبب تلك الدقائق... بسبب ذلك الشيء التافه... اصطحبها الى الطاولة، وعاد النور الكامل، وصوت الضحكات والأحاديث، وحلّت «الفوكس تروت» محل الفالس، واتفق لأوريليان أن جلس قرب ماري، ماري التي في لآلىء الكريستال، مكشوفة الظهر الى ماوراء رافعة النهدين.

همست إليه. أنت ترقص كالإله ياعزيزي، كنتُ أنظر إليك...

- كان ذلك واضحاً للعيان...

ضحكت من لهجته المستاءة: «أوه! لاتخش شيئاً!».

بين هاتين المرأتين، انتابته ثورةٌ، فالتفت الى بيرينيس ليدعوها... لكنها كانت قد نهضت لتوها مع «بول ديني»، لقد فشل مشروعه...

قال بارينتان

- أعترف لك، ياصاحبي، أننا جئنا الى هنا من أجلك على وجه الخصوص... ذهبنا الى «الباليه»... ثم عند الخروج من «البوف»... كان كئيبياً هذا المساء، ولاندري لماذا... ولذلك فعندما اقترحتُ ماري... هتفت السيدة بارينتان متعجبة:

- أوه! ماري، ماري تحتمل المضايقات بلا تأفف!

ضحكت السيدة «دي بيرسيغال» ضحكتها القصيرة الحادة، وقالت:

- على كل حال، أنا أستغل الالتباس... أنت لست رقيقاً، ياسيد ليرتيلوا،

هأنت لاتراقص سوى السيدة بارينتان...

نهض وهو ظاهر التكلف، تبعته ماري ورقصا، قال كمن يعتذر:

- لأحب «الفوكس تروت».

- أوه! لا تتعب نفسك... فليس هناك ماتخشاء، وأنا أعلم جيداً أن الأمر قد انتهى... ولست متتنبئة...

ظن من واجبه أن يضغط على يدها ضغطةً مهدّبة، من النوع المشغوف، فأمعنت في الضحك، كانت تضحك طوال الوقت، هذا المساء.

- أبله! لا تتظاهروا... أنت ترى جيداً أنني جئتُك بها...

- ماذا تعنين؟

- دعك! أيها البريء... تستطيع أن تخفي ذلك عنّ تشاء... لاعتني... على كل حال، بما أنك تحبّها...

- أنا أحبّها؟ لكن، ويحكم...

- اتّقسم الآن؟ عزيزي أوريليان، أنا مطلّقة... لقد أوحى إليّ «ادمون» من جهة أخرى...

- أؤكد لك، يا ماري أنه لم يكن بيني وبين بلانشيت شيء...

- بلانشيت؟ أه! لا، فذلك شيء بالٍ قليلاً... لقد جئتُك بها، هذا المساء، «موريل» الصغيرة... كانت تشتهي ذلك كثيراً... تستطيع أن تعتمد على تواطئي... بما أن هذا كل ماتريده مني...

- «موريل» الصغيرة... لقد ذهل حقاً، فما بالهما كلتاهما... بلانشيت قبل هنيهة... وماري الآن!

لم يغيّر إنكاره شيئاً من الأمر. وقالت ماري دي بيرسيفال «كنتُ في منزلك، كنتُ في منزلك، ورأيتُ...»

بدأتْ له هذه الجملة هزليّة وعاد إلى التفكير فيها فجأة عندما جلسا، لكن الظروف كانت غير مناسبة للاستيضاح، وعزم ألا يدعو «بيرينيس»، وسمع «بول ديني» يحدثها عن التصوير.

فهز كتفيه. وكان باربنتان يُراقص سيدة من المكان.

ارتدتْ بلانشيت إلى «ديكور»:

- إذن... السيدة «ملرور» في بروكسل، دكتور؟ أَلَمْ تصحبها؟
بِمَ أجاب الدكتور؟ استأنف طريقته المتذلة والساخرة، وقال شيئاً عن تلك
الكائنات من النخبة التي لايجوز أن نحبسها... سيد ليرتيلوا!
كانت بيرينيس هي التي تخاطبه.
- هل رأيت «الباليه» هذا الموسم، سيد ليرتيلوا؟ افصل بيننا... فالسيد
«ديني» وأنا، لسنا من رأي واحد...

وإذن فقد دخل في الحديث وبلانشيت تنظر، كان الحديث بالنسبة إليه
غير هام، لكن بيرينيس كانت تُضرمه بحماستها غير العادية، وهي التي كان كلُّ
مافي باريس يتخذ، في نظرها، أثواناً جديدة ووهاجة، وعطر الشيء الاستثنائي،
وكان «بول ديني» يساعدها في ذلك، لأن كل مايمس الفن، والمسرح، وديكورات
بيكاسو و«ديران»، والموسيقا، كان يهزه هزاً خارقاً، مثل المقامر اذا تصدَّى
للعب، انخرط اوريليان في ذلك، ودهش من هذا الجنون، لم يشارك فيه، لكنه
أخذ يخضع لتأثيره، على نحو غير محسوس، تذكر أنه استبشع هذه المرأة
الشابة، وتذكر أيضاً كلمة من «ادمون» بصدها: الشيطان في جرن الماء
المقدس... كان فيها نارٌ مضطربة، بالتأكيد، كان شيءٌ ما، في هذا المساء،
ينفخ في هذه النار، يؤججها. ربما كان غرور «بول ديني»... كان هذا الصغير
يغازلها، دون مبالاة بالسيدة «ديي بيرسيغال»، وفكر اوريليان أنه ليس من
اللطف تجاه «ماري» أن يشارك في ذلك... وأراد أن يصلح هذه الخشونة، لكن
ماري كانت ترقص الآن مع بارينتات، وذلك يعني أن الوقت قد مرَّ سريعاً على
هذا الحديث السطحي الذي بدا كأنما افْتُعل ليغطي شيئاً ما، لكن ماذلك
الشيء... هذا ماكان «ليرتيلوا» يتساءل عنه، لقد قالت ماري إن السيدة موريل...
تلك أفكار خاطئة، في نهاية الأمر...

قال: أتريدن أن ترقصي؟

نظرت إليه «بيرينيس» وأجابت: بكل سرور... لكن لالرقصة «الجاوية»...
فأنا لأعرف...

عضّ شفّته، لقد عزم ألا يرقص معها، وهاهو ذا... لقد أفلت ذلك منه.
أكان مغروراً! لقد فكر لحظة أن السيدة «موريل» جاءت الى هذا المكان من أجله.
وكان «بول ديني» يتكلم عن الثلاثة، عن الجميع، لعبت الشمبانيا رأسه، دون
شك، وجعلته ثرثاراً، مرّت سيمون قرب الطاولة، رفع اوريليان بصره نحوها،
فقدفته بقولها: تهانيّ. قطّب حاجبيه، قالت بيرينيس، أهى صديقة لك؟ فاحتج.
وكانت السيدة موريل ملأى بالتسامح، وكانت ستحكم على ذلك بأنه طبيعي كلياً.
أخذ «بول ديني» يحس لجارته تفلّت منه، وقد كان يكره، على حدّ قوله، حانة
لولي، ومونمارتر، وعلى العموم، جميع بنات المرقص.

قالت السيدة موريل: حسناً، أنا، لا! أصيب اوريليان بشيء من الخيبة.
أرادت أن تثير غيرته؟ ممّن؟ دعنا، كل هذا، ماهو إلا من نسج الخيال، من غنج
المرأتين الأخريّين، ماذا أردت بلانشيت أن تقول بصدد «ادمون»؟...

غلا أقترع: الطبل... وعاد الراقصون، بعضهم الى الطاولات، وبعضهم الى
البهو، والينفطخ الآخر الى المشرب، كان قرع الطبل يطغى على الضوضاء،
ويُعلن بدء الغرض، وكان «لولي»، شائنه في كل مساء، واقفاً أمام الاوركستر،
يبدو، وعلى خفّو هزلي، بذراعيه الممدودتين، ويديه المتحركتين، كأنه يقود الى
أقصى حدّ القرع المؤذن للعرض، ثم يُعلن بنبرته التي تمتزج فيها شيكاغو
وفلورنسا، عن «تومي»، تومي الفذ، أفضل طبّال في العالم.

بينما كان «تومي» وهو زنجي أسود قصير، شاحب وضخم، ذو شعر
مملوط مائل الى البياض، وعينين مدهوشتين، وواقية صدر تصنع زاوية أثناء
تحياته، يستقر بطبله وأدواته في موضع تصالب الكتّافات، استولت على
الطاولات العتمة المواتية للأيدي التي تشابكت وللكتلمات المهموسة فوق كتف
النساء العاري، وتعرّف باربنتان في النهاية على أناس في الجهة الأخرى، وأوماً
إليهم، على ضوء شعاع نحيل، بحركة وديّة من يده، فتمتّت بلانشيت التي لم تر
من حيّاه، بشيء الى جانب اوريليان: «ماذا تقولين؟».

- لاشيء... -

وفجأة انتابه إحساسٌ بأن بيرينيس كانت ملتصقة به، فلم يجرؤ أن يُدير رأسه. لقد تضامَّ الحاضرون لكي يروا تومي على نحوٍ أفضل وهو يتلاعب بكل شعوداته، وعصيته، ومكانسه المعدنية الصغيرة، وصنوجه وجلاجله.. وعلى وجهه ضحكة عريضة خرساء، مع إيقاعٍ من السرعة المتزايدة التي كانت تَعْمُرُ الهواء كما تفعل الخمور بعد كميةٍ معينة..

نَفْثَةُ من بيرينيس بحذاء اوريليان، ثم سمع صوتها.

- كان ذلك من حسن حظي... لشدَّ ما انتظرتُ تلك الرقصة...

أحسَّ فجأة بحرارة عظيمة فيه، بنشوةٍ. لعلها من خمرة الطُّبَال. أَلَف شيءٍ اتَّخذ معناه. لم يفكّر، ووضع يده، دون أن يرى، على الطاولة، وتحت راحة يده وبين أصابعه حبسَ يداً صغيرة استشفَّ حضورها، يداً أرادت أن تنسحب لكنه استوقفها طويلاً، بينما كانت عينا الزنجي البيضاوان وعصيته تتراقص في الهواء، وصنوجه تدوي أثناء عبورها، مثله مثل الأعيب طفل يطلق مفرعاته، وبينما كانت الاوركستر تعزف عزفاً خافتاً شيئاً في موسيقا «الراجتايم» تعرّفها «بول ديني» وهو مسرورٌ من نفسه، فتنهّد صوبَ بيرينيس وقال.

- رائعة!

لقد خافت من غير شك، وأحسَّ اوريليان أنها خافت، فلم يُرخِ اليدَ الحبيسة، وسمع صوتاً مضطرباً، خافتاً جداً: لستَ معقولاً...

وأحسَّ بحمق سلوكه، وأراد أن يُرخي اليدَ فلم يستطع. وبدا له أنه لو أرخاها لتخلّى عن كل شيء في العالم، عن كل ما يمكن أن يكون فيه من أشياء ثمينة، عن كل ما يستحق أن نحيا من أجله. كان الطبل المقروع، والصنوج المهزوزة تدوي في مركز القاعة بإيقاع متسارع، وذراعا تومي وقدماه تطير حول الطبل وتداعب آلاته، بحركات رجّاجة مذنورة إذ أحدثت كل هذه الضجة، وعنقه تدور على نفسها في ثنايا الشحم القاتم الجريح من جراء ياقته الناصعة البياض.

أدرك أوريلييان في لحظة معينة أن اليد التي يمسك بها أخذت تدعن، لم تُسلم نفسها، لكنها أذعنت. فخجل من سلوكه. بيد أنه تعذّر تبديل شيء منه. ليكن، وبما أنه قد ذف بنفسه في هذه المغامرة، فكيف يتراجع؟ كان عليه أن يغازل جارته. وحاول أن يضع عبارة في ضغط يده على اليد الجائمة تحتها. أبدأ الكذب... لشدّ ما انتظرتُ تلك الرقصة... وكانت الضجة العجيبة، المُسكرة، المتعاطمة تلفّهما بعواطف شتّى. هي، بذلك الخوف، خوف المفاجأة الذي لا تفسير له، والخشية من حركة تجعل سكونها غير ممكن، وهو قد أضحى مستعداً ألا يتحمّل الخيبة، والرفض، والإهانة.

في هذه الأثناء قالت له بلانشيت التي كانت في الجهة الأخرى شيئاً ما. فحنى رأسه واستعاد ماقالته، بذلك التعبير من الألم الذي يبعثه الانتباه الذي انتزع من موضعه: «محفظتي، من فضلك... هناك، على الطاولة...». لعنها، والتقط المحفظة، وكاد يقلب كأسين، وناولها السيدة بارينتتان. ولم يَرخ يد بيرينيس.

وبواسطة قضيبين في اليد، وبحركة كحركة جناح الفراشه، أو على الأصح حركة الحلاق وهو يدور مقصه، مضى «تومي» بالقصف الرومانسي الذي أطلقه الى أقصاه. كان يلعب بكل جسمه، بقدميه، بأذنيه، بجلدة جبينه المتحركة، ويقفز بكرسيه ويعود من قفزته في نشوة سرت الى الجماعة. وعندما صمت اللحن، وأدرك الحضور أن السقف لن ينهار، وأن تومي الذي كان يحيي وهو سابح في العرق، نفخ مثل عجل البحر الجالس في سيارة طفل، انفجر التصفيق، وطلبات الإعادة، ووقف الجميع.

ظلاً وراء الآخرين، وحيدين، كوحدة الغابة، جالسين كليهما، ومرتجفين. قال بذلك الصوت العميق، صوت الرجال الذين اقتيدوا الى السر الأول لكيانهم: «سنرقص الرقصة الأولى؟ ارتعشت، رأى عينيها السوداوين، عينيها المطاردتين. وأومات برأسها وبكل جسمها أن لا. وأحس أنها توشك أن تبكي. فأكّد. «سنرقص الرقصة الأولى».

عاد النور فافتقرت يداهما .

حلت اوركستر جديدة. أرجنتينيون. وجابت القاعة حركةً غير منتظمة من الذهاب والإياب، كان بعض الناس ينصرفون وبعضهم يقفون، يتقدمهم «لولي» الذي كان يؤكد لكل واحد أن هذه أفضل طاولة، أفضل طاولة... وأعلن قائد الاوركستر، وهو عازفُ كمان، متحزماً بزئار أسود، مع بنطال من الحرير الأبيض متسع من الأسفل، وقميص بنفسجي، بدء «التانغو». وكان هذا التانغو مثل جميع التانغوات مبتذلاً، مبتذلاً الى أقصى حد، فأتت الى أقصى حد، بسحره الرخيص، ونغماته العاهرة.

قال ليرتيلوا وهو واقف «لقد وعدتني بهذه الرقصة». لكن بيرينيس المستلقية على كرسيها هزت رأسها. لا، لا. ألح، تنهدت وقالت. «راقص بلانشيت». فعاد الى الجلوس. هل عجل أكثر مما ينبغي؟ أكان يحلم؟ وما شأنه بذلك كله؟ بهذه الحمقاء الصغيرة... هذه الريفية... كان يعلم أنه يكذب على نفسه وأنه يحس بهذه الخيبة إحساساً رهيباً. فحقد على نفسه، حقد على نفسه. لكن الجو لم يعد كما كان. لم يكن المكان نفسه، ولا المرأة نفسها، ولا الحلم نفسه. فدخل عن ذلك، على كل حال، بكل بساطة.

١١

وحينئذٍ سمع بيرينيس تقول «لم أؤلك على الأقل»؟ لم يصدق أذنيه. هل قالت ذلك حقاً؟ نظر إليها فرأى عينيها السوداوين، المائلتين، المنتفختين، ما أعرب هاتين العينين... وهل هناك أحد وراء هاتين العينين؟ أراد أن يقول. لا، إنها لم تؤله، لكنه لم يستطع. لم يقع له مثل هذا قط، أن يخجل هذا الخجل أمام امرأة. بل هي لا تكاد تكون امرأة، هي طفلة. صمتا طويلاً. وكان الآخرون يرقصون. بعيداً، دون أن يعيا ذلك، وحدهما على الطاولة. ولاحظت ذلك فجأة، فافتكرت وهي متضايقه «لنرقص، أتريد؟» ابتسم، بشيء من الحزن، وبدرت من كتفيه حركةً تنم على الضيق.

رقصاً،

لم يكن هذا هو المتصور، إطلاقاً، إن مواضع الرقص، إن مواضع هذه الرقصة التي خافا منها لحظةً كلاهما، مواضع الرقصة كانت بينهما. إن تلك الألفة الحميمة الزائفة تعيد المسافات، لم يكونا يتكلمان، خوفاً من أن تفصلهما الكلمات أكثر مما تفصلهما حركات التانغو، ابتسما أثناء ذلك لماري وأدمون اللذين كان يرقصان معاً، وقد أخذ ضيقهما يتزايد. قالت السيدة «دي بيرسيفال»: «أيا عزيزي، ليتك ترقص مثل السيد ليرتيلوا، لم تكن التانغو قط ماتمتاز به أنت...» أخذ أدمون، وهو مغتاظ، يقوم بنقلاتٍ من قدميه كما تعلم قبل الحرب عند «ميتشين»، فهتفت ماري «مهلاً، مهلاً، ماهذا التفنن؟ تريد أن تُهرمني... تبدو السيدة موريل وكأنها قضت حياتها بين ذراعيه، ألا ترى رأيي؟»

في الحقيقة، لم يكن لبيرينيس التي ترقص من وزنٍ كانت تنثني لدى أقل ضغط، فكانها كانت الموسيقا، لفرط ماتالفت معها، وكان أوريليان يخشى ألا يُحسن مراقبتها، وصارحها بذلك، فأغمضت عينيها. حينئذٍ انحنى عليها فراها لأول مرة.. وخيمت على وجهها ابتسامة الرقاد، ابتسامة مبهمة، غير واقعية، متابعاً صورةً داخلية. وما كان ناشزاً ومتنافراً فيها ذاب وعاد الى الانسجام. وحين استخفها النغم واستسلمت لمراقصها، صار لها أخيراً وجهها الحقيقي، وفمها الصبباني، وهيئة، كيف أقول؟ هيئة الألم السعيد. وردد أوريليان على نفسه أنه لم يرقص هذه المرأة التي ظهرت لتوها. وأدرك أن ما كان قد حجبه عنها إنما هو عيناها، وعندما أغمضتهما لم يعد يحميها شيء، فتجلت هي نفسها، ثم انفتحت أشد سواداً من قبل، وأشد حيوانيةً مما يتذكر «أوريليان».

عندما قال لها «أشكر» بعد هذه الرقصة، وانحنى أمامها، وكأنه في حفلة راقصة عائلية، حملت بيرينيس يدها الى قلبها. كانت شديدة الشحوب. جلست على عجل، واستغرقت أمام امرأة صغيرة لتُصلح وجهها. ورأى بوضوح إن ذلك كان لتخفي اضطرابها. أراد أن يكلمها، قالت له بصوت خافت وبسرعه «دعني، اوه! دعني، أرجوك...» لم تكن مرتاحة. وذلك مفهوم، لقد ارتفع صدرها

بسرعة فائقة. أخفت وجهها. سألها اوريليان «مايك» فدفعته بمرفقها «هم يروننا»...

عند ذلك جاء بارينتتان بالرجل الذي أومأ إليه قبل قليل، من وراء الراقصين. كان «زامورا»، الرسام «زامورا»، كما تعلم... كان «بول ديني» يعرف «زامورا» فهما من رأي واحد، بالرغم من اختلاف السن، بلغ «زامورا» الخمسين، وكان قصيراً، غارقاً في بطنه، ذا وجه لطيف، أسمر سمرة الاسباني، وهو كذلك، وقد وخطت الفضة صدغيه، وكان حليقاً، وحركاً كما لو كان رهيئاً، أما قدماه فكانتا صغيرتين صفراً لا يُصدق. وكان يظن نفسه منافس «بيكاسو»، ورمى به ذلك في الادائية بغية تجاوزه. كان شريراً وظريفاً. كان يستفزع كل شيء، وكان يمكنه أن يوافق أبعد الناس عن الثقافة ليلقي نكتته؛ وكان يصنع لوحات ميتافيزيكية بأسلاك المشدات، ولم يكن يحب في أعماقه سوى النساء الجميلات، ولوحات «الغاندارا» والترف، والكلاب الصغيرة. كان في الجهة الأخرى من الصالة مع أميرتين وأمريكية. لم لا يذهبون جميعاً الى مكان آخر؟ كان يعرف حانة ليلية.

شرع اوريليان يفكر فيما قالته له بلانشيت: سوف تدمرها بكل بساطة... لم يكن يعلم في الحقيقة شيئاً عن «بيرينيس». ماذك الزوج في الريف؟ وأين هذا الريف، من جهة أخرى؟ صيدلاني، على ما أعتقد. وهي صيدلانية حاول أن يتمثلها بين القماقم، تقوم بالحسابات، كالسيدة «لولي» في الحانة. الى أية مضاعفات سيندفع، والى أي مجهول؟ وتلك الخفقانات التي تنتابها من أجل لاشيء. يا للعجب! كان يستشف على نحو غامض شركاً منصوباً. المرأة للرجل، مرأة أولاً، ثم إنها شرك... عالم من المضاعفات، عالم. كلا. وألف كلا. عليه أن يستدرك الخطأ قبل الوقوع في النوامة. ثم أية ثقافة، تلك المرأة كانت تسأل «بول ديني» عن «زامورا»... وكان بول مغتاضاً، أو خائفاً من أن يسمعا «زامورا»، يتكلف الوقار... وزاد الطين بلة أن ماري همست في أذن اوريليان «انتبه، يا عزيزي، فذلك يرى!»، وكان هذا كافياً.

عندما طلبوا ثيابهم ليقضوا بقية الليل مع «زامورا»، اعتذر اوريليان. سوف أبقى. إنني أنتظر شخصاً. فتحت بيرينيس فمها كأنها تريد أن تقول شيئاً، ثم توقفت. لا، لا، ياعزيزي الدكتور، اذهبوا، اذهبوا، فلست بحاجة إليكم. تحياتي، سيدتي العزيزة... لم يطلب إليها حتى أن يلقاها. انصرفت بيرينيس محمولة في حركة الآخرين، كما لو كانت وسط حلم مخيف.

عندما اختفوا بين الأبواب ذات الستائر البرتقالية، خامرت «ليرنيلوا» رغبةً مباغته في أن يرمي بنفسه في إثرهم. يالغبي! يالغبي! كيف تركها تمضي هكذا... بل إن ذلك غير إنساني... فذلك فظ، قبل كل شيء... طيب. يقول المرء ذلك لنفسه لكي يتيح لها الحماقات. وما الذي كان يخشاه، في نهاية المطاف؟ ماذا كان عليه أن يخشاه؟

في المشرب، لقي سيمون.. «قولي لي، يا صغيرتي، سألتني قبل قليل متى أرافقك إلى منزل... أتريدين هذا المساء؟ وطبطب مرفقها. ضحكت: «طلبك في غير وقته! فعندي واحد». وبعد أن ألقت نظرة دائرية، قالت بصوت خفيض، سرّي أحد البحارين الأمريكيين، أنت تعلم... لكن يجب ألا تقول ذلك.



هذه الريح! هذه الريح! لا يمكن لك، ياسيدي، أن تكون فكرة عنها! كم مرة عبرتُ السنين؟ مئة، ماذا أقول، ثلاث مئة، ألف مرة! لم أرقط مثل هذه الريح. الجسر... كانت بحيث ينبغي أن يعود المرء أدراجه. لا، لا يمكن لك ياسيدي أن تكون فكرة عنها... أه! لو لم تكن أنت، ياسيدي... يمكن أن تضحك ياسيدي، فكيف سيكون حالك دوني؟ كانت رحلة حقيقية... تيارات الهواء التي يجب عبورها... هذا مفهوم... السين... لم أشتغل قط إلا في الضفة اليسرى... لا بد أن يكون ذلك من أجلك، ياسيدي... ثم لو سكنت، ياسيدي، الضفة اليمنى، لأدري اذا... لا، لا أعتقد. لن أتبعك، ياسيدي، الى الضفة اليمنى لأقطع جسراً آخر، و«سين» آخر! لا، ياسيدي، لا. لو ذهبت، ياسيدي لتسكن أمريكا، فهل سأنذهب إليك كل صباح، من شارع الكاردينال «ليموان»، هكذا سيراً على قدمي، ومنديلي البائس على رأسي، لأقدم لك فطورك، في السرير؟ ومع أنني لأعلم ما الذي ستفعله دوني، ياسيدي... انظر الى هذه الفوضى... كيف ترمي بنطالك، ياسيدي... سأكويه هذه المرة... لأن أخذه في كل وقت الى الكي بالبخار... أه! هؤلاء يحسنون الريح! إنهم يذهبوننا دون مقاومة، ثم إنهم زادوا... لم يكن قديماً كي على البخار... كان كل شيء يكوى في البيت... أين دسست جوربك، ياسيدي؟ جئت بالثياب المرفوعة... لا تستطيع، ياسيدي، أن تكون فكرة عن هذه الريح!

رفعت يدها الى وجنتها، ورجحت رأسها، وعيناها في السقف، كانت «دوفيني» خادمة «اوريليان» في الأربعين، وهي السن القانونية التي تسمح لها بخدمة رجل في سريره، دون أن تتناولها الألسن بالثرثرة. كانت قصيرة، سمراء، مع خيوط فضية، وطائفة من الأمشاط في جميع الاتجاهات لتمسك الشعر المرفوع من حولها، وكانت حبال عنقها بارزة، ولعلها كانت متضخمة قليلاً، وكانت عيناها جاحظتين، تعبران تعبيراً يمر من الإسرار الى الرصانة

العصوى، الى الدرامية دون أية ظلال. وكان ذنبها منفصلاً عن وجهها، ولاندرى لماذا ولا كيف، وإحدى وجنتيها، اليسرى، أكبر كثيراً من الأخرى. وكانت تقول «لكن هذا موجود في الأسرة، فأختي، وأبي المسكين...»

ماكان يجب أن تُترك لتمضي في هذه الطريق، لأن لها عمّات، وبنات عم، ومن موضوع الى آخر، من الوجنة أولاً، ثم انتفاخ رئة العم، ومصاعب الجدّة، وزوج «جيرمين» الذي هرب بالصندوق، كل الأسرة سيمرّ ذكرها، والمرحوم السيد «يوفيني» الذي حدث له قصة غريبة...

- ياسيدة «يوفيني»، ألم يكن في أسرتك صيدلانيّ قط؟

- صيدلانيّ؟ يالها من فكرة! كلا، ياسيدي، كلا، كان في الأسرة شيء من كل شيء مساعد في الفرقة المسنعمرة، بقّالون، ائنة عم، لاينبغي أن أحدث عنها، الحاصل... شيء من كل شيء... أما الصيدلانيّ فلم يكن في الأسرة قط. يمكنني أن أقسم لك على ذلك!

سحبت من الخزانة حاملة ربطات العنق ورّبت مجموعة «اوريليان» المتعدّدة الألوان. وقاطعت نفسها.

- لكنك لم تتناول فطورك، ياسيدي! وهل يجوز أن أعبر النهر، وأن أتعرّض لهذه الريح، ثم لاتتناول فطورك ساخناً... البيض «برشت»... كما تحبّه، ياسيدي...

كانت الصبيّة على الطاولة المنخفضة قرب الأريكة، بخبزها المحمص، والقهوة، والحليب، والبيض، وإحداها مفتوحة، تنتظر بالفعل أن يخرج اوريليان من حلم يقظته الذي استسلم له، جلس «ليرتيلوا» بين الوسائد، وسحب الغطاء، وبظر حوله. صحيح أن في الغرفة فوضى غير معقولة... كم تكون الساعة؟ الحادية عشرة. لقد تسكع، هذه الليلة، وهو عائد، وقرأ قليلاً، وبحت عن ألف سبب لكيلا ينام، ثم أتاها النعاس فجأة، فترك كل شيء على حاله، وانتزع ملابسه انتزاعاً، ورماها حوله، على الأرض، على البساط المسمّر والذي بلون التبنّ... وفوق ذلك فهو لم يفتح النافذة... تناول الصبيّة.

هتفتُ السيدة «دوميني»

- آه! ماذا قلتُ لأدري أين كان رأسي، اغفر لي ياسيدي...

- مابك، سيدة «دوفيني»؟

- لكن الصيدلاني، ياسيدي، الصيدلاني! كيف لم أفكر فيه؟

- أي صيدلاني، سيدة «دوفيني»؟

- لكن الصيدلاني الذي سألتني عنه! أنت تعلم جيداً، ياسيدي... أنت

لاتعلم، ياسيدي؟ ما يزال نائماً دون شك، ياسيدي! سألتني، ياسيدي، إن كان

في أسرتي صيدلاني... وأنا الغبية القديمة، قلت لك إنه لم يكن في الأسرة

صيدلاني... فأين كان رأسي؟

- أكان في أسرتك صيدلاني، سيدة دوفيني؟

- نعم... الحاصل... يعني... لم يكن صيدلانياً تماماً... ابن العم

«كاميل»... وهو ليس صيدلانياً الآن... لكن منذ نحو عشر سنوات... لذلك

نسيتُهُ... ويجب أن أقول لك إن ابن العم كاميل لم يكن ابن عمي... كان زوج

ابنة عمي... نعم... كانت تتشبهني كثيراً ابنة عمي «لوسي»... حتى أن ابن العم

«كاميل»... لكنه كان شخصاً سيئاً.. الحاصل... نعم، لوسي، كنا نتشابه...

ظلتُ بلا زوجٍ حتى الأربعين... تصوّر... شوّش لها هذا فكرها... وذات يوم كنتُ

عندهم... فقالوا لها «لوسي» لم يبقَ عندنا زيتُ، انزلي وأحضري زيتاً...

ونَهضت لوسي... ثم هل تعتقد أنها ذهبت لتُحضر الزيت؟ أبداً لا! أخذت المرشّ

الذي كانت تسقي به زريعاتها على الشرفة، ووضعت فيه صمغ البطم وصبّته

على السلطة، ثم أحرقت ذلك كله بحجة أن ذلك من الهندباء... ولاتسأل عن

الحواف الذي استولى علينا... فحبسوها... وكان الطبيب يقول «يجب أن تُزوّج،

هذا وحده هو الذي يَشفيها... ويضاعف دماءها...»

هنا بدرت منها حركة قوية، شرسة من قبضتها وكأنها تُغلق باباً..

«الرهيب هو أن نعثر على زوج... ضع نفسك مكانها، ياسيدي... هناك

الخطر الذي قد تتعرض له... وإذا لم تتضاعف الدماء؟ وإنّ فينبغي ألا نَظهر

التصعّب... ثم إن لوسي بلغت الأربعين... الجدّة هي التي عثرت على ابن العم «كاميل»... ألزاسي... واسمه «شور»... شيء طريف، فهو يُلفظ «شوفير»^(١) لكنه يُكتب... يُكتب على نحو مختلف... ورضي «كاميل».

- و«لوسي»، هل تضاعفت دماؤها؟

- نعم، ياسيدي، لاشك في ذلك! تضاعفت دماؤها بكل معنى الكلمة. لم تعد مجنونةً على الإطلاق. ولو رأيت كيف كانت تدير منزلها... كنت ستأكل على الأرض... الأواني! لم أر مثلاً قط حتى في المخازن الكبرى! كان الدكتور محقاً... هكذا أصبح ابن العم «كاميل» ابن عمي...

- وكان صيدلانياً...

- صيدلانياً؟ تريد أن تضحك، ياسيدي! «كاميل»، صيدلاني؟ أه! باللعجب!

- لكك أنت نفسك قلت، ياسيدة «دوفيني»!

- ماذا قلت؟ أه! نعم، أنت محقّ، ياسيدي. لكن «كاميل» لم يكن صيدلانياً إذا شئنا الدقّة... لا. كان في الصيدلية، هذا كل شيء...

- إذن كان صيدلانياً...

- كان في الصيدلية، ولم يكن صيدلانياً... كان يسلم البضاعة في صيدلية كبيرة في جادة سيباستوبول... ومعه دراجة ثلاثية... أوه، ماكان يمكن الظهور بمظهر التصعّب... كان شيئاً جميلاً أنه رضي بالزواج من «لوسي»... التي تشعل السلطة... ومعه دراجة ثلاثية... وفي هذه الدار عندهم طلبات لكل باريس... وكان «كاميل» يجري طوال النهار... وكان هذا يتيح للوسي أن تُعنى بابنتها... أما أن يكون صيدلانياً حقيقياً، فلا، ياسيدي، ليس في الأسرة شيء كهذا!

كانت تزيل الغبار عن الأثاث، وهي تتكلّم، وتُنقل الأشياء الى المدفأة، وترتب الستائر. وتوقفت، حاملةً «ولا أقلّ صيدلاني»

(١) ملفوفة خضراء

تساءل اوريليان كيف كانت الأشياء تنتظم في رأس السيدة «دوفيني»..
أكانت ترى أن وجود صيدلاني في الأسرة أمرٌ مخجلٌ، أم ماذا؟ وكأنا كانت
تتابعه في هذه النقطة، أوضحت

- نحن ناسٌ بسطاء، من عامة الناس، كما يُقال... فكيف يتزوج صيدلاني
لوسي؟ الصيدلاني سيّدٌ له شأنه...
أه! الأمرُ كذلك الصيدلاني سيّدٌ له شأنه.

أتريد أن تستحم ياسيدي؟ أشعلتُ سخّانة الماء، لابد أن الماء سخن...
قالت السيدة «دوفيني» ذلك من الغرفة المجاورة وكان عليها شغلٌ شديدٌ
فيها، انتقل اوريليان الى الحمام.. أف، ما أحسن الماء الساخن! وفي ستائر
جهاز المرش كان الجسد الطويل العاري المتوثّب يتحرّك والصابون في
عينيه. أصبحتُ السيدة «دوفيني» في مطاوي النسيان، هي وقصصها، وعاد الى
اوريليان وسواسُ الليل، أول فكرة في الصباح، بيرينيس، لم يكن يعلم شيئاً عن
بيرينيس، عن حياتها، في مكان ما من الريف، زوج صيدلاني، قال عنها ادمون:
الشیطان في الجرن المقدس. هذه الجملة، لم يستطع الانفكاك منها، كانت
مناقضة على نحو عجيب لما رآه أول الأمر في السيدة موريل. قال في نفسه، انه
لم يتغيّر: التفصيل السخيف يحمله على التخبّط، علامات الاستفهام في رسالة
«ماري دي بيرسيفال» مثلاً. وكانت جملة «ادمون» هذه تلعب الدور نفسه مع
بيرينيس... رأى ثانية وجه بيرينيس، وعينيها المغمضتين، زوجة صيدلاني... كان
ذلك، في الحقيقة، شيئاً غريباً بالنسبة إليه كما كان بالنسبة الى السيدة
«دوفيني»، لم يكن في أسرتها صيدلاني، لقد احمر جسده من كَفّ الفرق
الخشنة.

قال، عندما عاد الى غرفته ملتقاً بمنزr الحمام الذي بلون الرمل
- وإذن، سيّدة «دوفيني» ماذا جرى على اثر ذلك لابنة عمك لوسي؟
ضدّت السيدة «دوفيني» يديها، فأفلتت المكينة منهما، والتقطتها على
عجل، ووضعتها جانباً بعناية، واستأنفت حركتها، فضمت يديها، ورفعت
مرفقيها أفقياً على مستوى صدرها، وأرسلت الى السماء نظرة شفقةٍ

- لوسي؟ أه، ماأشققانا! لوسي! ياسيدي! لوسي عادت مجنونة، مجنونة
استدعى جنونها أن توثق هذه المرة!
- كيف؟ ألم يتضاعف...

- بلى، تضاعفت دماؤها... بالتأكيد... لكن كانت المصيبة هنا! انفصمت
دماؤها، زوجها، تصوّر، الصيدلاني «كاميل» لفرط مادار بدراجته الثلاثية في
باريس، في تلك البيوت التي كان فيها دائماً نساء... زبونات... خادومات فتيات...
أسوأهن الخادومات... يجب أن أقول لك إن هذه الصيدليّة صيدليّة مستحصرات
خاصة... الحاصل... الأمراض السيئة... جادة سيّباستوبول، بالضرورة...
وإذن، أخذ «كاميل» يهمل منزله شيئاً فشيئاً... وعبثاً كانت لوسي تفرك الآبنة
ومشمّع الأرضية... لم ينفع شيء... حينئذٍ تركها الى حثالة الناس... كان مؤلماً
منظر لوسي... انفصمت الدماء... ظننت نفسها كلباً صغيراً... يركض وراء
الناس... ويعوي... نعم ياسيدي، يعوي! منظرٌ كئيب! ألبست قميصَ المجانين!
أه، ياالهي القدير على كل شيء!...

كان سبب هذه الصيحة الأخيرة أن «اوريليان» فتح النافذة فأعلقتة هبّة
هواء على أصابعه بصوت شديد. كان «ليرتيلوا» واقفاً، يهزّ يده، ويقفز من رجل
الى رجل، مثل صبي أذى نفسه، فلا بدّ أن قرصة النافذة كانت قاسية، بل إن
الدم سال من أصابعه، أمسكت السيدة «دوفيني» باليد المصابة، مسكين أنت،
ياسيدي! مسكين! هذه التخشيبية القذرة! ينبغي لك أن تسكن بيتاً حديداً،
ياسيدي... هذا لايقع إلا في المنازل القديمة... لحسن الحظ أنها تنزف... فهذا
يقلّل من الألم... لن تلبث أن تهدأ... اليد اليسرى ليست كاليمنى... يحب دهنها
بالارنيكا... بصبغة اليود على الأقل.

ولم يكن عنده لارنيكا ولا صبغة اليود. أنحت السيدة دوفيني باللائمه
على سيدها. تلك أفكار الشباب الخاطئة، أن يخلو المنزل من الارنيكا ومن صبغة
اليود...

قال اوريليان واصبعه في منديل «طيب». سألذهب الى الصيدلاني لأحضر
صبغة اليود.

مَنْ ذا الذي لم يشعر بهذا الشعور الغريب بأن يجد نفسه، في لقائه المرأة المحبوبة بشغفٍ، إزاء مجهولةٍ كان مشغولاً بها كلياً، لكنه لم يكن يعرفها إلا لثاماً؟ وكان يكفي التغير الطفيف في زينة الشعر، أو الفستان المختلف، أو تغير الجو في مكان عام ليجعل من تلك التي كنا نظنها قد ثبتت في الذاكرة الى الأبد امرأة يصعب التعرف عليها. الذي لم يُعانِ هذه الخيبة لا يعرف شيئاً من الحب الحقيقي.

شعر اوريليان بذلك لمجرد تصوّره «بيرينيس» دون حاجة الى رؤيتها، لكن بما انه لم يحب قط، فإنه لم يكن يعرف أن هذا الهياج أمام الصورة المُستذكرة، وعدم الرضا الذي تحمله إليه، كان شيئاً مختلفاً عن الملاحظة الشاردة. لم يكن يحلم أن هذا يمكن أن يكون الحب.

كان يؤنّب نفسه لأنه لا يُحسن أبداً استعادة هيئة الشخص، أيّاً كانت هيئته.. كانت عقيدة ثابتة مفاجئة أن هذا عيب فيه. وفكر: هذه هي الحقيقة، لست قادراً على تذكر هيئات الناس. والواقع أنه كان يذكر عدّة صور خاطفة لبيرينيس، لكنها كانت من التنوّع بحيث عجز عن التوفيق بينها. وكان يبدو له أنها ليست المرأة نفسها. كانت تلك الومضات التي يحملها عنها متنافرة، مثل قسماتها نفسها، في الحقيقة. لكن هذا ما كان يقبله حين يراها، لأن النظر لا يُناقش؛ وأنه كان يرمي به في ذكريّاته، لأن الذاكرة مشهورة بعدم أمانتها، وأن الجميع يعلمون أنها تجمّل أو أنها عاجزة عن نقل ما يصنع سحر وجه من الوجوه، هذا الشيء الطفيف الهارب...

حينئذ شرع في إعادة تركيب تلك القسمات التي اهتم بها اهتماماً لاتفسير له، من خلال التفاصيل، كان يعثر على الذقن والوجنتين، والجبين، وهالة الشعر، والشفة، والبسمة، وأحدى الحركات، لا يكاد ينقصه شيء منها، حتى إذا عثر على العينين، دمّرت العينان كلّ شيء. كانتا تستيقظان في هذا الوجه،

وتنيرانه بضياء أسود، وقد صارتا أكبر من طبيعتهما، وكأنهما فحمتان صقيلتان، بل أكثر لمعاناً من ذلك، هذا النور كان يُبِيد ماسواه، ويغدو هو الجوهري، إنه يُغَيِّب الجوهري...

كان يقول في نفسه إنه لم يرها حقاً إلا في تلك الدقيقة وهو يراقصها، عندما كانت مغمضة العينين، كانت المرأة المفتوحة العينين تأتي في كل لحظة لتعترض بينه وبين المرأة المغمضة العينين التي كانت تبدو له صورتها، لسبب غامض، معتدّة الى ماضيها الخاص، في الأحلام، في نزوات قلبه وحواسه. كان يحاول أن يحدّد موقعها في ذلك الماضي فلا يفلح، مَنْ تُشَبِّه؟ ومن أَيْة صديقة من صديقاته تقترب؟ وبأيّة رغبات قديمة امتزجت؟ وأيّة لذّة تحمل هي انعكاسها أو أثرها؟ لأحد مع ذلك، لأحد... لاخيال ولاظل... والإحساس بشيء يتراءى في أعماق المرأة... ضباب..

ولو أن رجلاً آخر كان أكثر انحيازاً وأقلّ ثقةً بنفسه لطرده على الفور، ذلك الوسواس، خوفاً من أن يبرز تحته، لكن أوريليان لم يكن يفكر حتى في ذلك، كان يجهل أن يكون ثمة خطراً في سراب امرأة، ولو قيل له ذلك لطلّ على مناديه...

في اللحظة الحاضرة لم يكن ذلك أشدّ خطراً من نَعْمٍ يلاحقك، نعم نحاول طرده بشتّى الحيل، فيبدو أنه الأقوى، وإذن فبما أنه لاجدوى من التغني بنغم آخر (سينحلّ فيه) أو رواية قصة (ستتوقّف فجأة) نقرّ نهائياً أن نستسلم لهذه الصورة المحاصرة، وندعها تحتلّ رأسنا. وإذا بنا نكفّ عن طردها من رأسنا، والأسوأ من ذلك، أننا لانجد منها سوى جملة وأننا نضع سحايانا بالقلوب، مكرّرين أبدأ تلك الجملة، انرى كيف يستمرّ ذلك.

«قد يلقاها في الشارع فلا يعرفها».

هذه الفكرة هجمت على «أوريليان» وحيرته، وأقلقته، ثم طمأنته. لقد شرع يطمئن، لم يكن يعلن ما للخطورة في بلوغه هذا الحد، لكن هاهو ذا منذ ساعات، وسط حركاته الطبيعية، في يوم فارغ كسائر الأيام، لا يفكر بغير

«بيرينيس» لن يعرفها. هل هذا مؤكد؟ هل هذا ممكن؟ لن يعرفها. ألن يعرفها حقاً.

لوقيتها في الشارع... الواقع أنه لم يرها قط في الشارع، أو في طقم، في طقم، في الشارع، ألن يعرفها؟

إذ ينبغي عليه، وهي في الشارع، وفي طقمها، أن يتصور لأوجهها فحسب، وهو وجه شوشته هاتان العينان الطويلتان، المائلتان، المحدثتان، بل وأيضاً هيئتها، هيئتها العامة، أي الجسم الذي لا يعرفه، وما الذي يعرفه من هذا الجسم؟ جسم الراقصة الشديد الخفة، الذي لا وزن له، ولا حقيقة، وهو مختلف جداً بكل تأكيد عندما يسير في الشارع... لا الجسم فقط، بل الجسم وهو في حركة، الهيئة، ذلك الشيء الذي لا يوزن، الهيئة في الشارع، في الطقم...

. ومرة أخرى، رأى أوريليان الوجه، والشفة السفلى التي يبدو عليها أنها تتألم وتبتسم، وانزلاق النور على الوجنتين، والشعر على الجبين، والعينين المغمضتين... لكن العينين تنفتحان فيضطرب كل شيء... في الشارع... ينظر الى النساء اللواتي لهن قامتها تقريباً... يمكن أن تكون هذه أو تلك... كلا، ليست بينهن، ليست بينهن واحدة تطرد تماماً شبحها... حتى الجميلات منهن. يمكن أن نقول عن «بيرينيس» إنها جميلة؟ وجدها بشعة في البدء، لم يحسن النظر إليها إذ ذاك. ليست المسألة في أن تكون جميلة، إنها شيء آخر. إنها شيء آخر. إن لها سحرها... هذه هي المسألة... إنه يعثر على قسماتها، لكنه لا يعثر على سرّ سحر تلك القسمات... مثل كلمة نسيناها... نعرف مم تتكوّن هذه الكلمة... تقريباً... إن كان فيها حرف الراء... وكم مقطعاً فيها... ونحن نجد ما يجانسها أو ما يعادلها... لكن الكلمة الحقيقية، الكلمة التي تغنى...

هذه هي المسألة: إنه لا يعثر على ما يغني فيها.

وهو على يقين، مع ذلك، من أن فيها شيئاً يغني. ماهو؟ أه، أجل فيها شيء يغني كاسمها، بيرينيس، تذكر أنه حلم بكل براءة حول هذا الاسم، أساء النظر إليها آنذاك. كان يحلم حول اسمها دون أن يفكر فيها حقاً. واسمها، من

جهة أخرى، يدفع الى الحلم. لكنها وراء اسمها. اسمها يدفع الى الحلم بها. لقد
مَحَتْ جميع «البيرينيسات» الممكنات، لم تبقَ سوى بيرينيس واحدة ممكنة، سوى
بيرينيس، بيرينيس واحدة، هي... ولم يعثر على ما يغني فيها، قلب أغنيتها.
بحث، بقلق متزايد، أين يكون قلبُ الأغنية. حاول أن يتذكر. ما الذي
ينبغي أن يتذكره منها، قبل كل شيء، على وجه الخصوص؟ أهى تلك العابرة
الخيالية، في طقمها؟ أو تلك الراقصة التي أخذها بين ذراعيه، تلك الراقصة
الخفيفة، وذراعه تتذكران وتتعدبان، في الوقت نفسه، من أنهما لا تتذكران...
ولأول مرة أحسّ بغيابها، أحسّ بغيابها بين ذراعيه.
لكن أهذه هي حقاً أغنية بيرينيس؟ وهل ينبغي، لكي يشعر بها، أن
يأخذها بين ذراعيه، كأية امرأة، أليس سحرها في أشياء أخرى، في مرحها،
في صمتها، في عينيها المغمضتين، في عينيها المفتوحتين؟ وفجأة أحسّ أوريليان
بانفعال تلك اليد في يده، تلك اليد الحبيسة، مثل عصفور يرتعش، وليس
العصفور هو الذي وقع في الشرك، بل الصياد.
فرك راحة يده، حرق، حضور، غياب، كلاهما في آن واحد.
أغنية.



كلا، كلا، كلا ثم كلا.. لستُ عاشقاً، كلّ هذه حكايات، لأكثرث لها، وبالطبع، اذا ما استسلم المرء... لفرط... لكني لأكثرث لذلك، ولم أعد أفكر فيه، ذلك مثل الخوف... فإذا ما أخذنا نقول، نحن خائفون... إن تنزّهي في الهواء الطلق ينفعني أعظم نفع... كان الهواء أقل برودة من الصباح، لأن المطر قد انهمر، وكان معطف ليرتيلوا دافئاً من الصوف الكثيف، غير زاوية قبّعته التي كانت تُثقل جيبنه قليلاً، ودسّ يديه في جيبي معطفه، كان قد تناول غداءه لدى آل «هونفري»، الذين يسكنون في «الباليه رويال» شقة مطلة على الحديقة، تزوج «هونفري» منذ ستة أشهر، فقطع ذلك الزواج علاقاتهما القديمة منذ المدرسة الثانوية، لم يكونا ينتميان الى عالم واحد، ودخل شارل معمل الحرير الذي لأبيه، «هونفري- ليفي- كازاناف» وشركاءهم، وكرس الزواج ذلك الانقطاع، فغدا الكلام على ذلك أمام السيدة «هونفري» الشابة مستحيلاً؛ فقد كان يتضمّن فظاظة الأشياء التي تُستترّجَع والتي كانت هي غريبة كلّ الغرابة عنها، أتذكر اليوم الذي... وماذا حلّ بذلك الصخم، كيف، تعلم جيداً كان يقول دائماً أرفعوا هذه، لقد ضوجعت^(١)... وعندما يتحوّل الحديث الى اعتبارات أقرب الى الحالة الراهنة، فإن أوريليان حينئذٍ هو الذي يشعر أنه غريب في بيتها.

لم يستقل سيارته، من جزيرة «سان لوبس» الى الباليه رويال! ثم إن المشي من حين الى حين نافع، ما أشدّ كآبة اللون الذي تتلوّن به أيام الشتاء! فمِنذ الساعة الثالثة، بعد الظهر، نحس بالليل، بالغَيْش^(١)، كان هناك غَيْشٌ في أفكار أوريليان، وقد ألقى به فجأة المطرُ اللاسع حينئذٍ الى ماتحت أقواس «الريفولي» حيث أخذ ينظر الى النساء فوجد أن وسواس بيرينيس أخذ يضعف، وحاول أن يتسلّى عنه مع بائعي الزينات الرخيصة، والطرائف، والجواهر الزائفة، الطرائف الصغيرة التي تمثل كلاباً مدربة أو مركيزات، وضباطاً من

(١) الغيش احتلاط الصوء بالعتمة.

ضباط نابليون، ورعاة أركاديا، واستعرض مجموعات ملاعق الفضة المذهبة والمرسومة بالميناء رسوماً تجمع بين هنري الرابع والسيدة «ريكاميه»، وبين واشنطن وجان دارك، وفكر: من ذا الذي يستطيع أن يشتري ذلك كله؟ أو على الأقل كان يُكره نفسه على التفكير، ذلك أنه كان، في الحقيقة، مسكوناً بهاجس، وما كان ينبغي أن يقوله للملاحق، إذا شاء أن يكون أميناً هو «هل سأرى «بيرينيس» ثانية؟» أو «من لي برؤية بيرينيس»؟

لم يقل ذلك لنفسه، لأنه لم يكن يكثر به، لأن ذلك كله لم يكن سوى حماقات، وأن ليس عليه إلا أن يفكر في شيء آخر، إلى آخره... وبغته أحس بيده اليسرى تذكره بنفسها. أه نعم، تلك البلاهة مع النافذة، ليتني أشتري صبغة اليود لأسر السيدة «دوفيني». أصبح المطر معقولاً أكثر من ذي قبل، انعطف «ليرتيلوا» عند أول شارع صادفه ودف إلى شارع «سانت اونوري» الغاص بالسيارات، بالدراجات الثلاثية، بشاحنات، وتسليم البضائع، التي كانت تثير ضوضاء مشوشة، وكان المشاة يبحثون عبثاً عن سيارات أجرة. وكلها غير حرة.

دخل اوريليان أول صيدلية اعترضته وهي حانوت مظلم، صامت، بعد جلبة الشارع، وفي وسط نجارتها الداكنة مع رفوفها المثقلة بالأوعية المحترمة من الخزف المزخرف بأسماء لاتينية، لم يتبين في البدء أحداً. ثم شاهد خلف البسطة ذات الأعمدة الصغيرة والتي تعلوها مصابيح بروزية ذات كرات كامدة، عليها نجوم منقوشة، بين الواجهات الملأى بالمستحضرات الطبية، رجالاً قصيراً في بلوزته البيضاء، وطاقيته السوداء، ونظارته ذات السلسلة، ولحية لم تصبح بيضاء بعد، بل وخطها الشيب، وفيها من كل الألوان. وعندما سأل الصيدلي عما يريد، أحس اوريليان فجأة أنه قد ضل سبيله، نسي ما جاء يفعله هنا، وكان مؤكداً أنه لم يدخل إلا بسبب بيرينيس. طلب كرات من الصمغ. ونظر إلى أعماق هذا المسرح الصغير وإلى خزانته، باحثاً عن امرأة غائبة. خاطبه الصيدلي بقسوة. أي نوع من كرات الصمغ؟ ثم ما الكمية؟ ثم خرج من

الصيدلية بسفط صغير في جيبه، وطبيعي أن زوجة الصيدلي لم تكن في الحانوت، هذا بديهي. لكنه شاهد على الباب زرّ الجرس مكتوباً عليه: جرس الليل، أه! يا للعجب! هذا هو الرابط، لابد أن الصيدلي وزوجته يسكنان هنا، فوق، وقرأ الاسم بأحرف مذهبة مبسوطة على الزجاج، «كوتر» صيدلي، وتحتها «ديفامبيز» فرع، لابد أن يكون السيد المسن هو «ديفامبيز»، تضاعف المطر، لجأ أوريليان الى باب البناية، وفجأة، اندفع اندفاعاً غريباً دفع باب الحارسة الزجاجي، ومرّ مائلاً بقبّعته الى حجرة الحارسة: «ألا يوجد أحد؟» أجابه صوت: من هذا؟ كاد يتراجع إذ وجد نفسه مُسرف الحرق، عندما ظهرت امرأة لاشيء يدلّ على سنّها، أنفها أحمر، عليها وشاح أسود ووزرة رمادية: «عمّ تسأل، ياسيدي؟»، تمت: «السيدة ديفامبيز...»، أجابه الأنف الأحمر بجفاف السيد ديفامبيز في الصيدلية، هذه الساعة...

- نعم، أعلم... لكن السيدة ديفامبيز...؟

فجأة حدث شيء خارق للعادة، اضطرب الأنف الأحمر، ودار الوشاح في جميع الاتجاهات، وارتفعت يدان كما يجري في المساة القديمة، وانطلق صوت حاد يقول: كيف؟ ألا تعلم؟ لكن مالك يامسكين!

أراد أوريليان فقط أن يتأكد من أن زوجة الصيدلي تسكن هذا المنزل. هذا كل شيء، وانزعج من الوجهة التي اتخذتها الأشياء.

- «وهكذا فأنت لاتعلم؟ أه! لأحب أن أخبر بهذه الأشياء! لست قريباً على الأقل؟ لا؟ إذن فالأمر ليس واحداً... هاقد مضى سنة أشهر على موت السيدة «ديفامبيز»... بعد مرض طويل جداً، كم تألمت! كنت أضع لها المحاجم، لم يعد السيد «ديفامبيز» كما كان، وأنا أسمعُه يمشي أحياناً في الليل...»

انسحب أوريليان بسرعة، لم يكن هذا ما يبحث عنه، وعندما مر في الشارع، من عند باب الصيدلية، رأى بغموض في الداخل شخص «ديفامبيز»، وإذا ببيت للامارتين يعود الى ذاكرة «ليرتيلوا»، «كائن واحد تشتاقه وكل ماسواه قفر».

كان «هونفري» هو الذي يستشهد بهذا البيت في كل مناسبة. غريب، لقد
فكّر من جديد في بيرينيس، لم يكفّ عن التفكير في بيرينيس، وتصور قدرها
على هذا النحو. عندما يرثى لحال زوجها الأرملة من قبل الحارسة، فهزّ كتفيه.
لم يفلح «ليرتيلوا» في بذل الجهد الضروري الذي يضعه في مستوى
واحد مع رفيقه القديم «هونفري» وزوجته، لأن حياتهما وتجارة الحرير بالجملة،
غريبتان عليه، وكان يريد أن يتصور حياة بيرينيس، لافي شارع «سانت
اونوريه» لا. بل في الريف، في مدينة لايعرفها، وأن يتصور الناس الذين يراهم،
وهذا الزوج الذي ليس له لحيّة السيد «ديفامبيز» ولانظارته ولا عمره. أخذ المطر
الآن يهطل بانتظام وعناد. التقت أصابع «اوريليان» علبه في جيبه، حبّات
الصمغ، ففكّت طيّات الكيس، وتناولت حبة، حبتين، فكّر «اوريليان» لكنني لست
مصاباً بركام! لم يمنعه هذا من مصّبهما. فانتفخ خدّه، كالسيدة «دوفيني».
أه، يا الله! كان يريد أن يشتري صبغة اليود! تذكر ذلك الآن. فليكن. وبعد
بضع خطوات فكّر: لماذا فليكن؟ كأننا لانستطيع شراء صبغة اليود إلا من عند
السيد «ديفامبيز»! وفي شارع جانبيّ، تطلّع على أمل، أمل يعتوره الغموض، أن
يشاهد صيدلية. ولقد كانت هناك صيدلية. ليست بنفس أسلوب الصيدلية
السابقة. كانت مدهونة بلون رمادي. دخلها. كانت ملأى بالناس، وبالرغم من
الصيدلة الثلاثة الذين كانوا يقومون بالخدمة، وأمين الصندوق الذي كان
واضحاً أنه لاطائل من إزعاجه، اضطرّ «اوريليان» إلى انتظار دوره. ومع أن
الوقت كان مايزال نهائياً، إلا أنهم أسمعوا الصوء، وأخذ ليرتيلوا ينظر إلى
المصابيح الكاسرة للأشعة التي تضيء من الخلف القماقم الحمراء والخضراء
في الواجهة، وكأنما كان يكتشف سرّاً من أسرار العلم، كانت الصيدلية واسعة،
عريضة، بخزائنها المفتوحة؛ وبشغل زاوية منها معروضات العطور والمساحيق
والمعجونات، وبرنيق الأظافر من كل صنف ولون، وكان ثمة إعلانات تنسرح عن
مستحضرات للحجرة، وللعادات الشهرية، ولآلام الرجلين. وفي الداخل كان
الناس من عامة الحي، مع حقيبة المؤن، وقد جاؤوا أثناء تبضعهم، وطفلة وأمّها،

سيّدة جافّة وساهية. وعامل مرصّص قريب، وسيّد من نمط المتقاعدين، بعضهم وقوف وبعضهم الآخر جلوس، ينتظرون اللحظة التي يطلبون فيها بصوت منخفضٍ مستحضرًا يردّد الصيادلة اسمه المُخجل بأعلى أصواتهم، لا امرأة في هذه الصيدلية كما لم يكن في تلك. تعلّقت عينا اوريليان بأحد الباعة. كان شاباً رقيقاً، وربما كان سيبدو طويلاً لغير اوريليان الذي كان يجد جميع الناس قصاراً. كان فتىً يمكنه أن يكون حلاقاً أيضاً، لولا ما في وجهه من لامبالاةٍ، ولولا عيناه الزائغتان. لاشك أنه طالب. كان أشقر، متموج الشعر، هزيل الوجه، لكنه في ريعان الشباب. كان ينقصه شيء طفيف ليغدو جميلاً. وهو في مجموعته، لا بد أن يعجب النساء، مع أن فيه نقصاً في البدانة وهو نقصٌ يحول بينه وبين أن يكون رجلاً في نظر «اوريليان». لم يكن ينظر الى الزن^(١)، وكانت له حركةٌ طفيفةٌ في فمه، كان يعضّ شغفه العليا. ماأشدّ ضجره، هذا المسكين! ودخلت فتاةٌ، لم تكن جميلةً لكنها كانت فساءً، ويمكن النظر إليها من أجل ذلك. استدار الصيدلي بوقاحة شديدة نظراً للشخص المسن الذي كان يخدمه، وقدم كرسيّاً للفتاة وهو يبتسم. هذه الابتسامة فتحت عالماً، في عيني «اوريليان». وفكّر أن في صيدليّة «موريل» صيدلياً شاباً مثل هذا يعنى بشعره ويحنقر الزبونات، لكنه يتألّق عندما تدخل بيرينيس الصيدلية لتقول كلمة لزوجها. ولعله يغارلها... وماذا لو كانت عشيقته؟ لأنها هي لا بد أن تضجر في دورها المنخفض فوق الأرضي. أقدر أنه دورٌ منخفض. ورأى عيني بيرينيس المغمضتين أثناء الرقص. لعل ذلك كله من أجل صبيّ مثل هذا. ومنّ يدري إن كانت تفكّر فيه حينئذ، في الحانة، بين ذراعيه؟ كرية ذلك. فليس هذا غيرةً، بل هو غرورٌ مغتاضٌ. لن أكثرث لهذه المرأة بتاتاً.

- «أعطني قممًا من صبغة اليود».

لم يغلط هذه المرة.

(١) جمع ربون زُبن.

انقطع المطر، وانعكست أولى أنوار المعروضات في الشارع المبلل. وكان الناس يسرون مسرعين بسبب البرد، وجد «أوريليان» نفسه في الشارع ومعهم حبات الصمغ في جيب وصبغة اليود في جيب آخر، واتجه الى البيت، دون أن يفكر، وكأنه حين يحمل نفسه حبوب الصمغ وصبغة اليود فلا يبقى عليه إلا أن يعود الى منزله. وما إن وصل الى ساحة «المسرح الفرنسي» حتى تبين ما هي سلوكه من غباء وآلية. وفاجأ نفسه وهو يضع بين أسنانه حبة صمغ، فاغتاظ. أحس بفراغه أكثر من المعناد وخشى من ردة هجومية لبيرينيس، قال في نفسه، هيّا بلهجة القرارات الكبرى.

هذه «هيّا» علامة يلقها على نفسه دائماً عندما يقرر أن يلعب اللعبة التي تؤنس وحدته. جميع الناس يعرفون هذه اللعبة ينسج الواحد أول امرأة معقولة صادفها مقبلة عليه، حتى تنعطف منلاً الى اليسار. وحينئذ يترك المرأة الأولى الى أول امرأة آتية من الجهة المعاكسة، دون أي تدبير معاكس، ويتبع الجديدة عائداً أدراجه. ويمكن لذلك أن يجري الى اليمين والى اليسار على حد سواء، وأن يتعقد بطائفة من القواعد يخلقها الرجل لنفسه، ويحافظ عليها شهرين أو ثلاثة أشهر، ثم يتركها الى قواعد جديدة. وكان أوريليان الذي ظلّ في ذلك كله كالتاليل الثاني بالنسبة الى أعوامه الثلاثين، قادراً أن يدور هكذا ساعات وساعات في باريس. كان في هذه اللحظة يلاحق فناً متوهة القامة سيئة اللبس، بادية العظام، نزقة على نحو جميل في حركاتها، ويريد أن يبرهن لنفسه أنه لا يفكر في بيرينيس.

لاستطيع أبداً أن نلّم بتفاصيل امرأة، كما نلّم بها ونحن نلاحق مجهولة. فما نكاد نرى وجهها حتى نحاول تصوّره عندما تدبر رأسها دوراناً طفيفاً، ثم إن القليل الذي نراه من الوجهة حينئذ لا يفسده شيء، وجميل بسهولة لدى المرأة مفصل العنق والأذن. وعندما نرى المرأة المجهولة من ظهرها فنحن

نملكها حقاً، إذ لا يحميها تعبير وجهها، ولا يبقى منها سوى الحيوان، الحيوان المعد للانحناء، وهي تخضع للانتباه يتركز على القذال، وأصول الشعر، والمشية تنم على المرأة، على خصوصيتها الحميمة. ثم هناك الردف والساقان، وكان يلذ لأوريليان الى أبعد الحدود أن يُعري النساء في رأسه، أن يتصور بواطنهن، دون أن يجمّل شيئاً، وبشيء من القسوة، هناك نساء مثلاً، نعلم على الفور أن ملابسهن الداخليه مثبتة بدبوس انكليزي.

هوباً كانت هذه الـ«هوب» تعني أنه انتقل الى المرأة التالية بين أولئك النساء، الخ... كانت التالية شقراء قصيرة، سقيمة، لكنها فتية، وعلى وجهها ابتسامة مدهوشة نهائية. وكانت ترتدي ببساطة فستاناً أطول قليلاً من الدرّجة، ولعله من السنة السابقة. كانت تحمل أسفاطاً، وتوشك أن تفقد مظلتها كلّ عتس خطوات. ولم تكن، من ظهرها، متناسقة جداً، إذ أن الكتف اليسرى كانت أكثر نمواً.

لم تكن هذه اللعبة هي لعبة «أوريليان» الوحيدة في الشارع. كان ينسلى أيضاً بتصنيف النساء اللواتي يصادفهن، وعدهنّ، أي غير النساء اللواتي هنّ غير معقولات البتّة، لكنه كان يقول في نفسه: «من هنا الى «الكوركورد» مثلاً... كم امرأة سألقي، على أن تكون النساء نساء حقاً!» وكان هناك عدة فئات يستوقفنه كنساء. وفي نظام تصاعدي، هناك أولاً المُثيرات، ثم المحبوبات، وأخيراً المدلّهات. وهذه المفردات الصغيرة السريّة لم تتجاوز قط تنفي أوريليان، وقد كوّن لها لنفسه وهو في نحو الخامسة عشرة، «المثيرات»، واضح قصده فيها. إنهن أقل من المحبوبات اللواتي انساق الى تسميتهن بصفة أكثر مباشرة، وينبغي فهم «محبوبات» بالمعنى الكامل، أما المدلّهات فهو يقصد بذلك النساء اللواتي نُقدم على الجنون من أجلهن، وهي فئة نادرة جداً. وكان شائعاً أن يعدّ النساء ليرى نسبة المثيرات ونسبة المحبوبات، لم تكن النسبة واحدة دائماً، وكانت تنقلب أحياناً. وكانت أياماً جميلة تلك التي تتغلّب فيها النساء المحبوبات،

ولقد كانت هناك، في الحياة أصبح^(١) غير عادية صادف فيها، مدلّيات، في أحياء ماكان يتوقع ذلك منها، الي حدّ لا يُصدّق، ربما كان بعديره سقصه الموضوعية. في حدودٍ كان اوريليان، واثقاً، على الأقل، من مراقبتها.

وكان يحبّ أن يقسم لقاءاته الى زمربن كبيرتين النساء اللوانى يعريهن، واللوانى يحسنُ به ألا يعريهن. وكان هذا معياراً ممتازاً يفتح المجال للخيال، إن الشاب لاينتابه الضجرُ في مدينة كبيرة مع مثل هذه التسلّيات. هوب!

كانت امرأة نصفاً، قد أسرفت في رش البودرة، سمراء، فى طقم حريري بالٍ قليلاً، وعلى عينها ضفيرة صغيرة، مبرومة قليلاً، تنظرُ من فوق كتفها إن كان هذا الشخصُ الطويلُ الذي دار نصف دوره حين النقاها مايرال يقتفي أثرها. قال اوريليان في نفسه أعرف زمرة هذه إنها تنزع تنورتها، وتطويها على مسند الكرسي، وتقول. إياك وجوريي...

وفجأة أصابه النعبُ من هذا العلم الحيواني النسائي، من رتابة تعير النساء اللانهائي، من تنوعهن الزائف، من إمكان ردهن دائماً الى زمرة مختصرة لنساء لقيهن. وتسعر أن ذلك يدور حول صورة مركزية هاربة وحاضرة في آن واحد، وأراد أن يدنس هذه الصورة لكي يبتل ذلك السحر عنه، أهي مثيرة؟ محبوبة؟ بل لقد بلغ به الأمر أن تساءل ألا تكون بيرينيس أكثر إمتاعاً وهي لابسة. لقد أسرف، وخجل من نفسه. وتذكّر كيف أمسك بسدها، إن يده التي علقت بالنافذة بدت له وكأنها عقابٌ له، المؤكّد أن من العبت تعقب السيدات، فلم تكن عجلته تتعقب غير بيرينيس. كيف يغير أفكاره، هوب!

كانت فتاة جميلة، هذه المرة. مغناجاً للغاية. أنيقة، تتعثر بالكعبس العالين. وعليها فروٌ من النوع الثمين، كانت تقفُ عند عروض الواجهات، وكان رجلها علقت بحديد التشبيك، حينئذ كان ينظر الى جانب وجهها وهو يتظاهر بأنه مستغرق في تأمل الحقائق اليدوية، والقمصان والدنتيلا. ولعله كان سيصنّفها، هي غير هذا اليوم، مع المدلّيات... ولاند أن يكون هناك من يرونها

(١) جمع صباح.

مدلّهة... جعلته يمرّ بمخازن «اللوfer»، وكان ذلك شيئاً رائعاً طريقته في لمس القماش، وقفزها من شيء الى آخر، وعودتها أدراجها للاشيء، ووئبها نحو أيّ شيء وكأنه الأرض الموعودة، لتتطلع، الى شيء آخر، ولتدفع الناس بعفوية عظيمة! وعند خروجها من جهة الأميرال «كولييني»، استقلّت سيارة أجرة في اللحظة التي لم يكن يتوقعها البتّة. قال اوريليان في نفسه. كفى، وسار نحو منزله وهو يمص حبّات الصمغ. وماكان مؤكّداً هو أنه لم يخطّط أدنى تخطيط، أدنى ظلّ لأدنى تخطيط كي يلقي بيرينيس. ودليل ذلك أنه لا يكتثّر لها، ومع ذلك تذكر أن ادمون قال له: «اتصل بي وتعال الى الغداء متى شئت»، بديهي، لكن لم يكن هو، اوريليان، هو الذي حتّ على ذلك، حتى إنه نسيه تماماً. وهكذا، فهل يهتف غداً؟ لا. أيّ هدّرك للكرامة! إن أردت امرأة فعليك أن تتثير رغبتها فيك. نعم، إن أردتها، وإذا كانت لاتثير مشاعرك؟ وبعد ذلك صه!

بلغ ساحة «الاوтил دي فيل»، وقد خيم الظلام. جسّ صبغة اليود في جيبه، أيعود الى البيت؟ ولماذا يعود؟ كان الباص ماراً بالساحة. خطرت له فكرة قديمة. أن يسبح! فلحق بالباص وقفز الى الموقف وهن سائر. لاشيء يعادل السباحة لطرد شبح «بيرينيس». هذا ناجع جداً. وقد مضى عليه زمن طويل لم يذهب فيه الى مسبح «اوبركامف». وكان قد فكّر كثيراً في زيارة العم «بليز» الذي لم يره منذ عهد بعيد، كلاً ليذهب الى السباحة، ولابأس بـ«اوبركامف». اشترى صحيفة مسائية من بائع صحف في الباص. وأقبل على قراءة الأخبار الرياضية، كان الباص يصعد نحو الجادات الخارجية، ومامن بيرينيس في ذلك كله.

مامن بيرينيس أبداً.



«أبوك وزيراً شيء مضحك! وقانا الله!»

دفعت السيدة فيليب بارينتان، زوجة عضو مجلس الشيوخ، صحنها برفق، وقد جعلت يدها الهزيلة سكّينَ الطوى يَصْدُمُ كأسها من ماء هيسي، وأدارت وجهها المعذّب عن ابنها «ادمون» نحو المدعو الذي كان قبالتها، وعبرت بصمت عن الصعوبة في متابعة مثل هذا الحديث أمام غريبٍ ثم إنها تابعت فكرتها، بعد أن فعلت ذلك، بعدم الاتساق وبالاتساق اللذين أكسبتها إياهما ثلاثون سنة من الحياة المنزلية ومن البغضاء، مخاطبة هذه المرة ابنتها على يمينها.

- الحمد لله، فليس للشيخ^(١) أدنى نصيب في دخول الحكومة! ما كان ينقص سوى هذا! لشد ما أساء في أسرته حتى يعفي البلاد من الإساءة!
قال ادمون، مع غمزة بعينه موجهة الى «ليرتيلوا»:
- أنت تبالغين، يا أمي، فأولاً إن أبي خفّف من غلوائه منذ الحرب، واقترب من «بوانكاريه»...

- نعم... وعندما نفكر في ذلك! في بداية العام صرفه «بريان» بخشونة...
والآن هو يعتمد على «بوانكاريه».. لكن تلك الأفكار أفكاره وحده. فليسوا بحاجة إليه في الوزارة! يجب أن يكون هناك انقلاب ليكون له نصيب، اذا جاز لي أن أسمى ذلك نصيباً. ومع المجلسين الكريمين اللذين عندنا يمكنه أن يضع أي اسم شاء!

كان «أوريليان» ينظر الى أم ادمون بضجر، فلم يتسلّ بنبرتها الجنوبية سوى لحظة. لم يبق شيء من جمال «ايستير بارينتان»، كانت القرابة بين الأم والابن واضحة، لكنها، منذ تلك العملية التي عملتها، جفّت جفافاً شديداً، وكانت تبدو في الستين، مع أنها لم تكن تتجاوز الخمسين، خوّة تتجعد. مع أنها كانت

(١) عضو مجلس الشيوخ

امرأة طويلةً عذيفة ذات شعر مايزال جدّ أسود، لكن الجيبين تحت العينين، والمحجرين المنقورين اللذين تختبئ في أعماقهما العينان الزرقاوان اللتان أورثتهما ابنها، وطائفة من التجاعيد، وبخاصة عباب المسحوق وأحمر الشفاه، وهذا اللباس الريفى، الحداد الدائم الذي كان يغمّها بسبب كثرة الأقرباء الذين يموون، كلّ ذلك كان يجعل منها امرأة طاعنةً في السن، حتى الصليب الذهبي الصغير في عنقها.

كان «ليرتبوا» يُرغى ويربّد في نفسه. ولم يكن مركز عضو مجلس الشيوخ «باربناس» لينير اهتمامه. لكن اوريليان قبل اقتراح «ادمون» دون تدقيق ودعا نفسه الى الغداء في آخر ساعة. ثم إن السيدة «موريل» التي خرجت هذا الصباح للتنزّه مع «بول ديني» الصغير، اتّصلت هاتفياً لتقول إنها لن تعود، وأن يبدووا عداهم دونها. لطيف! ماذا جاء يفعل هذا الشاب في هذه القضية؟ وأين ذهباً يتنزّهان؟ ولماذا أطالا هذه النزّهة. رائع! ماأشدّ سذاجتي! وفي هذه الأثناء، أراني ملزماً بالردّ على هذه العجوز المترمّنة، وعلى ادمون وبلانشيت. همست بلانشيت وهي تناوله الزيتون «لاحظْ لك، يا صديقي المسكين...» قالت ذلك وزمّت شعفتيها قليلاً. ماذا قصدت بذلك؟ خامرته الشكوك. فعزم أن ينسى هذا الحديث.

تابعت السيدة باربنتان كلامها حيث لادين فهناك الجحيم، الجحيم، لاأكثر ولا أقل! لقد كان فيليب سبباً في تعاسة نويه بطريقته في تربية ابنه، حين كان يسخر دائماً أمامهم من المقدّسات... هرّت بلانشيت رأسها.

- تعلمين، يا أمي، أن أحداً لا يستطيع شيئاً في وجه الحقيقة...

قالت الحماة يالك من «هوغونتية»^(١).

وتناولت كمية أخرى من السلطة.

كان حلم الدكتور فيليب باربنتان طوال حياته أن يتخلّص من هذا الظلّ الملازم، من هذا اللوم الحيّ، وقد تخيّل دائماً أن اليوم الذي يُرسله فيه النخبون

(١) روتستانية، المترجم

الى باريس، فإن «ايستير» زوجته ستظل في بيتهم في «البروفانس»، منصرفاً الى تقاها، بينما سيُعرف هو الحرية في العاصمة. لكن الحياة تتلاعب بالأحلام. إذ سرعان ما أحسّ، بعد أن أصبح خضراً نهر، مجلس الشيوخ، بضرورة أن تكون له شقة جميلة يستقبل فيها، إذا شاء أن يصبح على الأقل وكيل وزارة. ولابدّ من سيّدة ترعى المنزل في مقره في شارع «الابسرفاوار». ثم أليست «ايستير» من آل رينالدي، وابن عمها «شارل» الذي غدا رئيساً للجنة المالية في مجلس النواب، مناصرٌ كلياً للأكثرية. وعند اللزوم، إذا قرّر الرأي على ائتلاف من هذه الائتلافات الوزارية الخليطة التي تُنفذُ الجمهورية دورياً فإن القرابة بين باربنتان و«شارل رينالدي» يمكن أن تكون إشارة الى رئيس مجلس الوزراء الذي لديه حقيبة وزارية فائضة... وأخيراً أذعن عضو مجلس الشيوخ «لايستير»، واسنقدهما إليه، فأخذت تحرق السموع في كنيسة «سيدة الحقول» لإطالة عمر الوزارات، هذا كل ما في الأمر.

كان «اوريليان» يكظم غيظه، فهذه الطلعات مع «بول ديني»، أول عابر سبيل... أكان يجب... هذه المرة، شفي شفاء تاماً. ريفيّة صغيرة اشتهدت أن ترى باريس... هذا كلّ شيء... في الحقيقة، كاد يختلّ رأسه بسببها. ماجرى فقد جرى، الغريب أن ذلك لم يقع لي قط، وفكّر فجأة أن ذلك محض غيظ من جانبه، وأنه، في الحقيقة، يغار. أغار، أنا؟ هذه هي الطامة... حاول أن يكون رقيق الحاشية مع بلانشيت. ثم تذكر أنه لا ينبغي أن يُسرف في الرقة معها. ولم يخطر له إلا الانصراف، في الحقيقة، بيد أنه لا يجوز أن ينصرف عند تناول الحلوى.

تناولوا القهوة في المكتبة، بحجة تدخين السيجار، فمضى ادمون بليرتيلوا الى المصطبة، تطلّعا الى السطوح، وبرج «ايفل»، و«الانفاليد»، كان الجو بارداً جداً. السماء رمادية لافرجة فيها.

سألت «ايستير» «بلانشيت» ماهؤلاء الـ«ليرتيلوا»؟... قطعة واحدة من السكر، تعلمين... أصحاب الهندباء؟

- لا، أولئك أبناء عمومته، أغنى كثيراً، هؤلاء «ليرتيلوا ديبريه».. وهم في

النسيج.

- آه! حسنٌ... ظننتُهم أولئك... النسيج، الهندباء، هما من صناعتهم

دائماً في الشمال... سأقول لك شيئاً، يا صغيرتي بلانشيت... أنتِ تكثيرين،

النظر الى السيد ليرتيلوا... صه، صه، لا تحتجّي... أقولُ لك ما أقوله... لا أكثر...

- أؤكد لك، يا أمي، أن هذه الفكرة غريبة.

- لكني لأقول لك، يا بنتي العزيزة، سيئاً أكثر من ذلك... قد يقع لنا، دون

أن نُبطن الشر... وأنا على يقين من أن هذه هي حالتكِ... أن نطيل النظر الى

رجلٍ... أقول لك ذلك لكي تراقبي نفسك.

- وأخيراً، يا أمي!

- ماكنت لأقول لك شيئاً لو كان لك معرفٌ، لكن مصيبتكِ أنك من الديانة

المُصلحة...

- أوه! المصيبة، يا أمي المصيبة!

- نعم، المصيبة، يا بلانشيت... المعرفُ سندٌ لنا، نحن النساء

المستقيمات... رجلٌ نكّمه... وفي قلبه نتخلص من الأفكار التي ليست خطرة إلا

لأننا نحتفظ بها لأنفسنا... إنه من يقودنا، من يساعدنا على النظر بوضوح الى

بواطننا... أوه، ابتسمي يا صغيرتي، ابتسمي، لكن أتعلمين كم امرأة مدينة لذلك

بعمل واجبها.

- «ليس هذا واجباً عليّ».

ودهشت بلانشيت نفسها لما في جملتها من قلة إقناع، وأضافت

- لأنني أنا أحب ادمون.

- إذا كان للمرأة أولادٌ فليس ضرورياً أن تحب زوجها، ومع ذلك فلا بد

أنها سعادةٌ كبرى... وبمحبّة الله من هذه الجهة وتلك بالطبع... فأنا ألوم نفسي

في الغالب لأنني أعطيتكم ابناً لأنؤمن بشيء... لست أقيم وزناً كبيراً لقسسك،

لكن ينبغي لك، أنتِ نفسك، أن تكثري من الذهاب الى الكنيسة...

- تعلمين جيداً، يا أمي. أن ديني لأنه غيرُ برهاني... فلكل واحد طريقته في فهم هذه الأشياء... فبعضهم يحب أن يُبرزها الى الخارج... بالنسبة إليّ، بعضُ العواطف أفضلُ لها أن تظلّ داخلية حميمة...

- هذه وجهات نظر بروتستانتية. لكن أيجدر بنا أن نقرأ التوراة طوال الوقت، كما تفعلون أنتم، ثم لانعلم أن الربّ لا يُمجدُ حقاً إلا في الأماكن المقدسة!

وضعت السيدة بارينتان فنجانها، وتفحصت أثر كلماتها في زوجة ابنها. فرأت بلانشيت تنظر الى المصطبة، وتحرك حاجبيها. مع أن ادمون، على كل حال، كان على المصطبة.

كان ادمون يقول لاوريليان بالضبط:

- لاحظْ لك، يا صاحبي.

دهش «اوريليان»

مالكم جميعاً تقولون لي الشيء نفسه؟

- جميعاً؟

- نعم، أي امرأتك، لأدري عمّ تتحدثان.

- آه؟ بلانشيت... لاتتكلف البراعة. فنحن نعلم أنك جيئت من أجل

«بيرينيس»، وأنت ترى. بلانشيت...

- هذا سخيف! جيئت الى هنا من أجلكم، من أجلك... ماذا... جيئتُ في

مرات سالفة عندما لم أكن قد عرفت ابنة عمك...

- لاتدافع عن نفسك... لستُ أرى في ذلك ضيراً. أفضلُ أن تأتي من

أجلها على أن تأتي من أجل بلانشيت، مثلاً (ومزح) مع أن بلانشيت حرة على

كل حال.

- أنت غبيّ. دَعِ امرأتك وشأنها، وابنة عمك أيضاً.

- تضعهما على صعيد واحد. إن هذا لايطمئنني إلا نصف طمأنينة.

- ادمون، ماذا أصابك اليوم؟

- لأنك تعلم جيداً أن بلانشيت تميل إليك...
- أنت مجنون! إنها لا ترى سواك في الدنيا. ثم، لنتكلم عن أشياء أخرى.
إذا شئت!

- كلا، يا صاحبي، كلا! تبدو كأنك تدافع عن نفسك. أنت مخطيء. أنا مطمئنٌ تماماً. وأعلم أن بلانشيت لا تحبُّ غيري، لكنها تميل ميلاً قليلاً نحوك... ولم لا؟ ليس في هذا خبثٌ. لكن هذا لا يمنع من أنك لم تجيء إلى هنا لامن أجلها ولا من أجلي... اليوم... لكن من أجل بيرينيس... ثم إن بيرينيس ليست هنا! فلا حظ لك، ماذا نصنع؟

- أنت توقف لي شعر رأسي!
- اعترف بأنها تعجبك...
- امرأتك؟ كثيراً...
- كلا، يا غبي، بيرينيس...
- أعتذر، يا عزيزي، عن ذهابي هكذا، دون أن أنهي سيجاري... فهناك مَنْ ينتظرنِي... وسألوم نفسي على تأخري.
- حسناً، حسناً... يادون جوان... اذهب! هي، بيرينيس، التي ستكون جزيئة...
- لا تكن سخيلاً... السيدة موريل تكون قد قضت صبيحةً ممتازة مع «بول ديني».

- وتغار؟ «بول ديني»... أه! يا صغيري، إن لم يكن هناك غير «بول ديني» ليكدرك...

ودخلا المكتبة.
جاء بالآولاد إلى جدّتهم. وتجمّدت الصغيرتان اللتان كانتا تضحكان وتثرثران لدى مرأى «أوريليان».
- سلّما على السيّد...
استأذن «ليرتيلوا» على الفور.

فهتفت بلانشيت متعجبة: «منذ الآن؟» لكنها توقفت فجأة عندما التقت عيني حماتها.

قال ادمون:

- أنا نازل في نفس الوقت، ينبغي أن أمرّ على المكتب...
وعلى الدرج، ولهجة مختلفة كل الاختلاف تابع حديثه الذي قطعه
- اسمع، وبلا مزاح... بما أنها تعجبك... بيرينيس... فتستطيع... عند
الاقتضاء... الاعتماد على تواطئي...
التفت اوريليان الذي كان يتقدمه، وقال.

- أنت عجيب! في النهاية، لماذا تُصرّ على أن ترمي بابتة عمك بين
ذراعي؟

- لست حريصاً على ذلك أساساً... لكن بما أنها تُعجبك... لا تتكلف
التحفظ والوقاحة، فهمت! أنا أعرفك، يا صاحبي، كذلك كنت في الخنادق...
حسناً، إذا شئت... ذلك أني أحب بيرينيس ولا أحب زوجها... سوف أحدثك عن
ذاك... وأن لها الحق في قليل من المسرة... وأن الأمر معك ليس بالخطير...
- هذا ما يبدو لك.

- كيف؟ أه! أجل؟ لقد غظتُك؟ إنني أعرف جيداً كيف تتصرف مع
النساء... وأنا أقدر كثيراً ذلك عندك...

صمتاً أيضاً، ودارت الأشياء في رأس ادمون، فأضاف.

- مالم أكن مخطئاً في كل شيء...

افترقا وهما يفكران كلاهما، ادمون أمام مقود سيارته الفخمة، وأوريليان
في سيارة الأحصنة الخمسة.



جاءت الأنسة سوزان بحمالة الآلة الكاتبة، ورفعت عينيها وتنهّدت، لن تفلح أبداً في جذب انتباه السيد «آرنو»، وكانت الآلات الأخرى تطلق خلف المكتب... وكان السيد سيمونو في بزته الرمادية الفاتحة، وأنفه البوربوني، ولحيته المقرّنة وبطنه ورأسه الأصلع، قد حمل قبل قليل أوراقاً لضربها على الآلة الكاتبة للسيد بودوان، وفي القاعة كان ثلاثة أشخاص أو أربعة ينتظرون في الصالة، وكان لابد من إشعال الضوء، في ساعة مبكرة، في هذا النور الثلجي، فشارع «بيبي ويل» ضيقاً.

اتّجه «أدريان آرنو» بالسؤال الى سيمونو «هل المعلم هنا؟» ما كان ليسأل إحدى ضاربات الآلة الكاتبة هذا السؤال، ألم يكن سيمونو أمين سر المعلم، وتسيئاً آخر غير أمين السر، كان موضع ثقته الذي يوقع عنه... منذ خمسة وثلاثين عاماً في الدار. وعندما كانت شركة المغرب العقارية ماتزال قائمة، كان أيضاً أمين سر العجوز «كيسنيل»، إنه إرث.

نظر سيمونو الى السيد آرنو بكل ما يحتمل ذلك من جدّ. لو قال نعم، دون أن يعلم إن كان السيد بارينتان يريد أو لا يريد أن يستقبل السيد آرنو لكلفه ذلك، ربما لم يكلفه، مركزه، لكن له، في آخر المطاف، ثلاث بنات وامرأة. ثلاث بنات على الخصوص. ومع أن السيد آرنو ليس أحد رجال الدار فقط، بل هو صديق المعلم، إلا أن سيمونو قال «سوف أرى». فهزّ «أدريان» رأسه بشيء من نفاد الصبر، بينما كان السيد العجوز الرسمي يختفي خلف باب الإدارة.

لقد جلس هنا، أيضاً، أدريان، خلف المكتب عند بداياته، لقد عمل كل شيء في ثلاث سنوات، في شركة العقار والتاكسي، واستخدمه ادمون في جميع الأعمال. وماذا كان بوسعه أن يفعل بعد إفلاس مخازن ذويه، وبعد تسريحه على الرغم من غناه برتبة ملازم الاحتياط، بصفة مؤقتة، وبأوسمته الثلاثة.

ويجب الاعتراف أن ادمون أراد أن يعرف مكان العمل من فوق الى

تحت، لا مكان العمل فقط، لأنه عمل على التاكسي، وكان مراقب مرآب، وعمل في مشغل التصليحات، ثم في الشركة العقارية... إلى أن خطرت له تلك الفكرة. أشار إليه «سيمونو» بالدخول. نظرت الأنسة سوزان إلى «أرنو» وهو يختفي. أه! إنه لو سيم! كان ربعةً، ممشوقاً، قوامه قوام ضابط، بشعره الأسمر الجعد القصير على الجانبين، كان شكله متميزاً بذلك الأنف الطويل، وبهاتين العينين المتقاربتين، الصغيرتين والسوداوين. ولم يكن ييشعه ذلك القليل من تورد الوجنتين، وكان الناس يهزؤون من طريقته في مزعطفه وهو يمشي. أه! إنه ليس طويلاً جداً. مصارع. كانت الأنسة سوزان متحيرةً، فهذا ما كانت تحبه بالذات فيه. كان السيد سيمونو يمر بين الآلات الكاتبة «سيد سيمونو؟ مابك، أنسة سوزان؟ أما يزال السيد أرنو في عقارات الدائرة السابعة عشرة؟.. كلا، كلا، أنسة سوزان... إنه مشغول بقضية الوفود، تلك التي تعرفونها...» أه! كانت الأنسة سوزان تفكر في شاريه الضيق الدقيق الطرف الذي يجعلها تنظر دائماً إلى شفة السيد أرنو العليا. لاشك أنه يحسن التقبيل. «طيب. أنا مخطئة» وأخذت أوراق كريون أخرى.

لم يغير آدمون شيئاً من مكتب حميه. نفس الأكاجو بالنحاس، الخزانة بالتشبيك، جوخ الطاولة الأخضر، والمصاييح بنسورها. وقد حافظ أساساً على ذلك كله كدليل على اتصال الأعمال واتصال فعاليته الخاصة مع «سيمونو» الذي يفعل كل شيء وإن لم يبد عليه إلا أنه ينتمي إلى الأثاث. كان ذلك جزءاً من الأسطورة التي تقول إن «كيسنيل» وضع صهره هنا لمزاياه في الأعمال. واستطاعت شركة المغرب العقارية أن تتحول إلى شركة العقارات وسيارات الأجرة، بينما كانت تبرعم الفروع، مع كل صفقة تفتح أحياء باريس لاجتذاب هؤلاء السادة، وتزيل شيئاً من أرباح شركة السيارات القديمة، وتُشركهم في إسهامات جديدة، وتُصالب بين منافع شتى المشروعات حيث يعود إلى الظهور جهازاً من الموظفين مرتبط على نحو أو آخر مع «كيسنيل»، «ويسنر»، «باربنتان»، «بيلزر». وفي هذا التشابك المالي الضخم الذي كان له امتداد في سيارات

النقل في «اللانغيدوك» وفي البروفنس، وآخر في بترول رومانيا، والأراضي قرب «الانفاليد» وباب «كلينيانكور»، وفي «التروكاديرو» و«فنسين»، ويتصل بكأوتشوك «مالاكا» وإطارات المطاط الهولندية، كان «ادريان ارنو» يحاول أن يجد عشاً فيها، أن يحصل مركزاً للمستقبل، مركزاً كان المعلم، وهو صديق طفولته القديم، يتيح له أن يحرزه، تماماً كما كان الأمر قديماً في «سيريان لي فيو»، عندما كان يبيع له أن يثار، في لعبة الكرات، إذا أطلقت كرة الهدف...

كان المعلم يبدو، في الوقت الراهن، ناجحاً في أعماله، بوجهه المحروق، والمشدود حيث العينان الزرقاوان، الغائرتان تشعان بضياء يوهم بالفكر. حسد «ادريان» «بارينتات» على سترته. وفكر بسرور جمّ: لقد أخذ، مع ذلك، يفقد شعره، ذلك أن شعر ادمون السبط ترك حزواً عارية كانت تُشاهد منها جلدة الرأس واضحة، ذلك لايعني أنه كان أصلع.

كان بريدُ النهار يتكدّس على الطاولة، وكان واضحاً أن بارينتات لم يمدّ يده إليه، وماذا كان يفهم في ذلك؟ آه، لو لم يكن عنده «سيمونو»! شدّ على يد «ادريان». سيجارة؟ شكراً. أما هو فأخذ يدخن. تصدّى «ادريان» لموضوعه بلا مداورة، وكان ذهنه تبارداً. إنه لشيء كريه أن ترى الناس لا يصغون إليك.

- اصغ إليّ، ادمون، فالأمر خطير...

بدا ادمون كمن يطارد السحب.

- ماذا قلت... المعذرة... لم أتابعك جيداً..

- قد خفت... إذا لم تكلف نفسك أن تفهمي، فسوف يذهب عملنا

هباء... أنت تعلم أن «ويسنر» لن يمشي إذا لم تصرّ... واتحاد الشركات مستمر في أفكاره الصغيرة... وهناك جماعة «بالميد»...

- اوه! وماذا يستطيع «بالميد»؟

- نعم... أعمى كالآخرين. أنت تعلم أنه مكّن لصهره في كل مكان... في

«الشركة العقارية» في الدائرة التامنة عشرة، في «شركة النقلات البروفانسية»... ثم إن المسألة ليست هنا... إذا لم يقبل اتحاد الشركات اتزاحي، فستكون سنة عمل فاشلة... مالاً مرمياً. هذا متير للشفقة.

- أنت جديرٌ بالإعجاب... فالمال ليس مالك.

- المالُ مالٌ... والمقصود، على كل حال، هو المستقبل. لقد قُمنا بما هو ضروري لشركة السيارات، ووُضعتُ المضخَّاتُ، واشتُرِيَ البنزين. لكن إذا لم تقبل الشركاتُ الأخرى بالمبدأ... يجب أن نحصل منها على أن تُلزم السائقين، مرة أخرى، أن يشتروا البنزين في مرأبهم، كما نفعل نحن... وبدون هذا فلا سبيل إلى حسن سير الأمور عندنا... ولاحظ، وليتنا فُكِّرنا في ذلك فقط، ان مصلحتهم جليّة. كل هذا البنزين الذي يحترق في باريس، كلَّ يوم، في سياراتنا... لماذا يُشترى من عند أي أحدٍ، لامن عندنا؟ هذا ربح يمرّ تحت أنوفهم، وأنوفنا... وإذا وافق اتحادُ الشركات قدّمنا له البنزين... أتفهم؟ سنربح من كل الجوانب... الحقيقة أن هذا هو نفس النظام الذي لشركتنا مع «ويسنر»، حول تلف السيارات... فحين نعود إلى شراء سيارات الأجرة من عنده نربح على المشتريات التي نشتريها لأننا مساهمون في السيارات... وإذن فبالنسبة إلى البنزين...

- دوخنتي... وما علاقة «بالميد» بذلك كله؟

- هذا ما أقتل نفسي لأخبرك به. لقد علمتُ من رجلٍ ثقةٍ، من سمسارٍ مخلص لي، أن «بالميد» يشترى قرب أبواب باريس مراكز بنزين... شارع «مالاكوف»، شارع «أوريليان»، في الأسبوع الماضي... أنت نرى ذلك من هنا؟ وإذا، فهناك ما نخشاه...

لم يعد آدمون يُصغي إليه. كان يحلم. هذا العناء من ادريان. أية موهبة غريبة كانت لدى هذا الشاب. كان صبيّاً عندما نظم لصانع الشوكولاته «باريل» جمعية الرياضة لعماله. وقد اندفع في مشاريع فريدة لالشيء إلا ليله إلى أن

يأمر غيره... ولو أن والد «ارنو» لم يُعرض نفسه للسرقة وهو يغش الأسعار في بازاره في «سيريان لي فيو»، أثناء الحرب، لورث اديان مخازن ولاستتبت أموره، لكن بما أنه أفلس بسبب أبيه، وخرج من الحرب ومن الحياة العادية التي خلق لها، فقد بلغ الثلاثين وهو ما يزال جائعاً... ما أعظم الفرق بينه وبين ادمون! كان ادمون يحسّ بذلك، وهو الذي أحرز المال والقوة بالطريق الطبيعي لديه، بالنساء، وهو أسرع طريق، حتى إذا تملك الثروة، لم يبق لديه سوى أمنية واحدة، أن تدوم هذه الثروة مادام هو. لا لأن حاجاته كانت لامتناهية الواقع أن آل بارينتان كانوا يعيشون المسافة بين قصر حديقة «مونسو» حيث يعيش «كيسنيل» عيشة الملوك، وهذه القطعة من البناية في «باسي» حيث كانوا يسكنون! وأخيراً، لم يكن لديه خدم بالكسوة الرسمية... ستة خدام فقط. بالطبع، كان لديهم المملكتان... فالجناح قرب «ليس» لم يكن سوى جناح، لكنه مع الأراضي، والصيد... لا يُحسب له حساب... المملكات كانت البيت في «بيارتيز» والبيت الذي أمر ببنائه على قطعة من ملكيته في رأس «الانتيب»، وهو اليوم ملك «كارلوتا» وقد كلف أكثر مما يساوي... ليدّم هذا، وكفى... إن كان عليه أن يعمل أيضاً ليزيد ثروته! أه تبا! لم يكن المال سوى وسيلة لكي لا يكون عليه أن يفكر بالمال. وعندما نبلغ درجة من العلو، نجد أنفسنا في هواء أنقى.. ولا فائدة من الغوص مرة أخرى في الأعماق التي يُحرز فيها المال، بعمل الآخرين الفقير، أولئك الذين لم يستطيعوا أن يرتفعوا. وفي هذه الأعالي، حصل ادمون أخيراً على حقه في العواطف الإنسانية، في تعقّد العواطف الإنسانية، وهي أشد تشوشاً وغرابة من قضايا المال. كان يضيع ويتخبط ويثمل فيها. وبأية فظاعة كان يفكر في الماضي، في ماضيه وهو طالب، عندما كان يتساعل كيف يصل نظيفاً الى بيت الآخرين، حيث تنتظره امرأة، امرأةً بلائها... ولا فلس معه للتاكسي، وهاهو الآن المالك لجميع السيارات. وهو، على كل حال، لم

يكن يستقلّ سيارة. فلا وقت لدى صغار الناس ليعرفوا عواطفهم. حتى ولا رغبة لديهم. هم حبيسو حساباتهم الصغيرة، ووساوسهم الشحيحة. أما زال ادريان في هذه المرحلة؟ كان يكسب كسباً حسناً، بل لابد أنه جمع اليسير من المال... لا، ادريان ارنو سيظل دائماً هكذا، حتى لو وصل... ففيه طبعُ أبيه... يود أن يملك دائماً أكثر، دائماً أكثر... سوف يعيد اختراع المال بدلاً من أن يرميه من النافذة... جشعٌ غريبٌ الجشع... لابسٌ بشخصه... كان بوسعه أن يعقد زواجاَ رائعاً...

- لماذا لا تتزوج، ادريان؟

بدا الآخر في ذروة غيظه لكنه كبح جماح نفسه.

- اصغ، ادمون، اصغ... أنا أكلّمك عن «بالميد» وأنت...

ضحك ادمون برفق:

- إذن، ماذا عن «بالميد»؟

- سأشرح لك، للمرة الثالثة...

وبدا بالتفاصيل. قال ادمون في نفسه، الحقيقة أن أشخاصاً مثله هم الذين يقومون بالأعمال الكبيرة. وكنتُ محقاً حين ألحقتُ بي. المهم ألا يشغل لنفسه فقط، بل لي أيضاً.. الخيارات تتبدّد بين أيدي البعض، وتتكوّن بين أيدي آخرين... أنا من الذين يحوّلون كلّ شيء إلى سحبٍ. كان ادمون يحبّ أن يفكّر هذا التفكير. كان يجد فيه تبريراً لنفسه. إن وقاحة سنوات شبابه قد لانت في الثروة. كان بوّده أن يهتمّ بقصة مراكز البنزين هذه. لكن ذهنه كان في شيء آخر. كان يتذكّر العجوز «كيسنيل» عندما عرفه. كم بدا له غريباً، فمع أنه كان مشغولاً بثنائية أعماله وحياته الخاصة، إلا أنه كان يبدو أحياناً مستغرقاً في عالم ثالث. عالم الغنى الحقيقي. الغنى الروحي الخالص. وكان ادمون يتذكّر دائماً برعبٍ هذه الحكاية التي هي في مكانٍ ما من كتاب «شارل لويس فيليب»

فيما أعتقد: حكاية صبي من عائلة فقيرة أخذ الي السوق وكان يتحرق لركوب الحصان الخشبي، وكان الفيلسان اللذان أعطاهما إياه أبوه لهذا الغرض في يده، لكنه كان فقيراً في داخله بحيث لم يستطع أن يفعل ذلك... حكاية فظيعة. وكذلك الغنى: يمكننا أن نملك ماشئنا من المال، المهم أن نكون أغنياء في الداخل. وكان ادمون غنياً في الداخل، ويمكنه أن يترك نفسه على سجيته، وأن يخلق لنفسه من جديد مصائب أخرى. لقد تغلب على اللعنة الالهية: «ستأكل خبزك بعرق جبينك». ومن لم يستشعر هذه الكبرياء، الانتصار على الإله، حتى إن لم يؤمن بالله، فليس برجل كامل الرجولة.

- موافق، ادريان، اكتب لي مذكرة قصيرة حول هذه القضية، وأعطها سيمونو... وسأخبرك مايلزم اتحاد الشركات... ولاتدع «بالميد» يحول بيك وبين النوم!



بعد انصراف اديان، حاول ادمون ان يتصفح البريد، كان كل شيء يختلط ببعضه ببعض، فقد تناول ثلاث مرات رسالة التأمينات الاجتماعية التي كانت الشركة العقارية تناقش معها قضية أرض في وسط باريس، كانت حياته الخاصة تتراقص أمام عينيه، ولعل مرور رفيق طفولته بمكتبه، وكذلك الأفكار التي راودته أثناء الغداء، لعل ذلك كله كان يدفعه الى ضرب من الحزن لا يتفق مع الأعمال، ومن المحتمل أن بلوغه كل ما كان يتوق إليه، كل ما عرف أن نفسه يمكن أن تتوق إليه كان شيئاً مخيباً للأمل، شيئاً غير طبعي بالنسبة الى شاب ممتلك لجسده وقوته أحسن امتلاك، كان يتذكر ذلك الشعار فيه، قديماً، أمام غنى الآخرين، والترف، والنساء والحلي، أخذ يأسف على ذلك السعار، إذ ذاك كان عنف عواطفه يدهشه أحياناً، كان هذا العنف يستخف على نحو مفاجئ جداً، أخذ يتذكر، تذكر تلك المرأة في غرفته وهو طالب، ذات مساء، في الفندق، التي تهورت وجاعت بلالئها معها، ومن الدافع الذي أحس به، من المرارة التي صعدت إليه، من رغبته في خنق تلك المرأة، إلام يعود أننا نسقط في الجريمة؟

دق الجرس، فظهر «سيمونو» عند الباب، بعثونه الأبيض، وأنفه البريوني، ورأسه الأصلع، ويطن أمين السر

- قل لي، سيمونو، ماهذه القصة؟ ما الموضوع؟

حاول باربنتان، لحظة، أن يتابع تفسيرات سيمونو، لكن الأشياء اتخذت صفة أعم، فالعراقيل التي كانت توضع لهم بصدد الترخيص بالبناء، وحقوق الارتفاق التي احتجت بها «المدينة»، ومرافعة كاملة عن سوابق تخفي رشوات، ومعركة الجماعات، والمنافسة، كل ذلك ارتسم في حلم يقظة «ادمون» مثل الخيوط الخفية للكذب الذي هو في أعماق كل يقين، تظن نفسك أنك الغالب والمالك، والجميع من حولك مقتنعون أنك صاحب الأمر والنهي، ثم اذا بك تحسّ بعمق أن لاغلبة ولاملك، إن العدو، الخصم، الذي ليس فقط تلك الشخصية

المحددة، تلك الجمعية التي تملك مقراً في شارع، بل هو قوة فلسفية، يلجأ الى قلب هزيمته نفسه، إنه يُعيد تكوين نفسه فيما نَظَنَ أننا نُسيطر عليه، نملكه... ياللوهم! إن الخيرات تذوب بين أيدي من يحوزونها، ذلك سرّ الذهب، والأراضي، والنساء، فعندما نَظَنَ أننا نملك كل ذلك تماماً، عندئذ يُفقد كل ذلك منا...

- حسناً، سيمونو، هيء الجواب كما كنتَ تقول... يبدو لي جوابك بارعاً جداً وصحيحاً جداً... الحقيقة أنك كان يجب أن تكون رجل أعمال... أذن لكنت غنياً اليوم... وسأوقع...

دفع الرسائل، وظل سيمونو منحنياً قليلاً، متغاضياً عن الثناء، منتظراً الأوامر. وساد صمت، كان ادمون يفكر ببلانشيت في شيء من الغيظ، فمع مرور السنين أخذ يحسّ بنمو العدو فيها، من ذا الذي لا يضجك من هذه الفكرة؟ هذه المرأة العاشقة بوضوح لزوجها، والتي تغلبت على كل شيء لتكون له وله وحده... بلا شك، لكن العدو كان يكبر فيها. كان هناك الأولاد، وكانت هناك الحياة، بل والفضيلة، يمكننا أن نخطيء في هذه النقطة، خاصية الأزواج أنهم لا يرون شيئاً... أنا لست في ذلك زوجاً إلا في الأقل، سيمونو... - سيدي؟

- أتقبل أن تؤدي لي هذه الخدمة؟ اسأل لي في الهاتف... نعم، أرجوك... لا تقل إنني أنا... اسأل إن كانت السيدة باربنتان في بيتها... - لكن، إن سئلت، ياسيدي...

- أجب أنني خرجت منذ نصف ساعة وأنت تبحث عني... لم يحاول سيمونو أن يفهم. فذلك لا يعنيه. ثم إن السيدة باربنتان لم تكن في بيتها، لقد خرجت على الفور بعد السيد... فصرف سيمونو.

علام يدل ذلك؟ لم يكن يحاول، على كل حال، أن يدلّ على كل شيء، وفكر في نساءٍ أُخرى، في جميع النساء الأخريات، إن ساعات بعد الظهر ثقيلة. لو كان الفصل ربيعاً لتنزّه في الشوارع، وتصوّر بغموض بيوتاً عرفها، وجوّ الممرات الدافئة، والنساء اللواتي كنّ فيها.

وترك فكره يعوم قليلاً، يتردد من «تيرن» الى «مونمارتر»، ومن حيّ اللوريت الى الباليه رويال». والى جانب «المادلين» كان يعلم أنه مايزال محبوباً لذاته، والبرهان على ذلك أعظم يقيناً هنا منه في أي مكان آخر، وصاغ القضية لنفسه. «وأكثر أناقة»، حتى عندما لايدخل الحب في اللعبة فهو يولد وكأنما هي مفاجأة.. إن التكريم الوحيد المؤكّد الذي يمكن أن يتلقّاه رجل يأتي من بغي ترفض المال، ذلك واضح.

عندما بلغ سيارته، بعد تلك المناورة الصعبة ليخرج من شارع «بيليه ويت» الكريه، المزحوم أبداً، حار في أية جهة يسلك. كان الجو بارداً ومكفهرّاً، وأخذت المصابيح تشتعل.

اتّجه الى الاوبرا من شارع «لافاييت» كما لو كان يجري على منحدر كان يتبع منحدرات أفكاره التي تعلّقت أثناء مروره بواجهة لوحاتٍ حديثة نقلته الى «بول ديني»، ماحاجتها، بيرينيس الحمقاء تلك، الى أن تتسكع مع هذا الفتى؟ هذا يوافقّه، بلا شك، لكن هذه البوهيمية... إنهم يحبّون الفضيحة، وإذا استطاعوا أن يشوّهوا سمعة امرأة عدواً ذلك غنيمة. وطبعاً، إن لوسيان لايعرف شيئاً من ذلك، كان بعيداً جداً، لكن قد تحدث مصادفةً من تلك المصادفات... ومع هذا أن يخطر لأمثال «بول ديني» الاعتقاد بأنهم إزاء حبّ عظيم... الأغبياء، لقد قادته الزحمة على الخصوص كان يتفادها، وهو حائر في المكان الذي يقصده، ووجد نفسه في شارع «البيل فوي»، أوقف سيارته أمام منزل «ماري دي بيرسيفال» وهو مدهوش من لاشعوره، وتَمَّتْ بتهكم: «أنا بحاجة الى أن أعرض نفسي على التحليل النفسي!» تأكد من عدم الخطأ، وأن ذلك لم يكن عودةً لعواطفه القديمة، «حسباً، سأقول لها أن تتنبه الى شاعرها، إنها محبة خالصة من قبلي، لقد أسنّت، ماري الطيبة».



كان في منزل السيدة «دي برسيغال» ناسٌ، سمع ادمون منذ المدخل صوت البيان. كان «بول ديني» يعزف قطعة موسيقية «لانويل فالالا» مُنوعاً فيها، وألحان «في- في»، أُضيتُ المصاييح، لكن شيئاً في الجو كان يقول إن الناس كانوا هنا في وضخ النهار، وأنهم لم يقبلوا بالضوء الاصطناعي إلا في وقت متأخر. لقد دَخَنَ الحاضرون كثيراً. وكان على المائدة كؤوس، وضربُ من الجو الحميمي، أحسُّ معه بارنبتان بشدة، وعلى الفور، أنه متطفلٌ، لم يكن أحداً ينتظره. نزل عليهم وهم في أحاديث يريدون أن يتابعوها، في قصص بُدِءَ بها، ثم تُركت إلى استطراد، إلى قصة أخرى، وسيعودون إليها بسبب عدة ساعات من المشاركة، وإذا بغريب يشوّش عليهم فجأةً كل ذلك...

لم يكن ثمة كثيرٌ من الناس ثلاثة أشخاص ماعدا عازف البيان، ماري وبيرينيس والرسام زامورا، الفتوا جميعاً إلى ادمون عندما دخل، توقّف زامورا في وسط جملة، وتابع «بول ديني» عزفه وهو ينهض ليرى من الآتي، ونهضت بيرينيس واثبة لتعانق ابن عمها

- أه! ادمون، ادمون، ما أروع هذا اليوم الذي قضيته! تصوّر... هذا الصباح مع السيد «ديني» الذي اصطحبني إلى منزل «بيكاسو»... أجل، منزل بيكاسو... رأيت لوحاته، ومسكنه الغريب... ياله من رجل رائع! ثم عاد بي بول إلى الغداء عند السيدة «دي برسيغال»...

قالت ماري:

- هلاًّ قلتِ «ماري» .

- عند ماري العزيزة (هذا مع إيمائية رائعة من بيرينيس ويدها على كتف ابن عمها، وكانت تدور نصف دورة لتشير إلى الأشخاص الذين تتحدث عنهم وكأنها تعرف بهم)... وعند ماري التي قبلت بي، كان السيد «زامورا» الذي يروي قصصاً، ويرويها بروعة! لم أسمع أحداً قط يروي مثله قصصاً!

قال ادمون وهو يقبل يدَ ربّة المنزل
- حسناً، وأنا أرى أننا راضون بذلك. (وخاطب زامورا) كيف وجدت ابنةَ

عمي؟

- السيدة موريل وأنا صرنا صديقين، صرنا زوجي أصدقاء بثلاثة...
هذه الملاحظة كانت موجّهة الى السيدة دي بيرسيفال، ورافقتها لآلة
اسبانية شديدة في العينين السوداوين لهذا الرجل المُكرش. كانت حركات يديه
من قرنٍ آخر، وكانت له ضحكاتٌ قصيرة تهزأ منه نفسه، ومما قاله، ومن
محدثه، ضحكاتٌ تُلقي الشكَّ على كل شيء.

صاح «بول ديني» من المنضدة الجالس عليها.

- بأربعة^(١)

قالت ماري

- عجباً، أما تزال هنا، أنت؟ ظننتك في علامتك^(٢)...

- والغيرة، ماري، ماذا تفعلين بها؟

هتف زامورا.

- أهو يغار، وممن؟

وأسرت بيرينيس الى ابن عمها:

- أتعلم أن زامورا سيرسم صورتني.

- صورتك؟ لابسة بالمفحم؟ لو كنت مكانك لما اطماننت...

احتجّت ماري

- ادمون، أنت غبيّ، ربما لم تر رؤوس النساء التي يصورها زامورا...

- بلى، بلى، لكن البريتونيات^(٣) فقط، على ما اعتقد.

(١) أي زامورا وماري وبيرينيس وهو نفسه.

(٢) علامتك الموسيقية.

(٣) من مقاطعة بريتانىة الفرنسية. المترجم

قال زامورا

- لاتعتقد أنك أحسنت التعبير، ياسيدي العزيز، بين الجد والهزل. السيدة موريل لرأسها تركيب فريد، وهي بريتونيه عندي الى حدّ كاف. ثم إن عهدي البريتوني أخذ يطول... لي معرضٌ في هذه الأيام. أمل أن تحضر افتتاحه...
فُتنت «بيرينيس» بأن يرسم لها صورتها. وبالانتباه الذي منحها إياه الرسّام. ولم يكن بوسعها أن تعلم أنه أراد أن يرسم صورةً لامرأة كانت في هذا الصباح بالذات عند بيكاسو. ولم تكن تعلم أيضاً أنه لم يكن بارعاً في حديثه الى هذا الحد إلا لكي يُنسيها بيكاسو. ولم ينجح ذلك تماماً
- اوها ليتك ترى، ليتك ترى مالدیه، بيكاسو

قال زامورا:

نعم إنه «دوانيه روسو»^(١) جميلٌ جداً...
تابعت «بيرينيس» دون أن تُدرك سَهْمَ الغدر هذا.
- لوحات في كل زاوية... والزائر يقلّب نظره في مهرج، وقيثار... كلها رائعة، ولا يعلم أيها أروع... وهؤلاء النسوة البدينات... وهناك صورةٌ لم تتم، امرأته فيما أعتقد...

أوضح «زامورا»، بالنسبة الى الصورة أنه يجد السيدة موريل مثيرة للاهتمام لأن لها عينيّن مسروقتين، عينيّن تخصّان وجهاً آخر، ومن ثمّ فعندما يرسمها سيكون لديه نموذجان، النموذج الذي يرى والنموذج الذي لا يرى؛ وأنه سيرسمها بالعينين المفتوحتين وبالعينين المغمضتين في آن واحد لكي يرى الكائنات اللذان يتصارعان على وجهها، مثل رفيف الأجفان.
همس ادمون بصوت لا هو بالعالى ولا هو بالخافت:
- حسناً سيكون ذلك لطيفاً.

كان زامورا يسليّه لكنه لم يكن يحب تصويره.

(١) رسام فرنسي مات سنة ١٩١٠. المترجم

تعجب «بول ديني» من عزف «عطيل» «لفردي»، ليبرهن أنه الغيرة متجسدة، وأيضاً ليتوجه به الى زامورا الذي كان يعرفه معرفة حسنة. «حدثهم، يا صديقي العزيز، عن لقاءك «كوكتو». وتبادلا نظرة عجلية متواطئة. كان زامورا على علاقة ممتازة مع كوكتو، لامتثل «بول ديني»... لكن لم يكن أحداً يحسن تمزيقه مثله، تقليده... وكانت بيرينيس تضحك من كل قلبها. فالأطفال يحبون مسرح العرائس.

- هل تتناول شيئاً، سيد ادمون.

سحبته السيدة دي بيرسيفال نحو غرفة الطعام. تظاهر ادمون بأنه يسلم على الزنجي الخشبي الذي يحرس بابها، وبعد أن صبت له كأساً من الويسكي، قال وهو يشير الى مجموعة واقبات الصدر التي زين بها الجدار. كنت أريد أن أسألك دائماً، ياماري العزيزة... كيف تفعلين؟ عندما تتسخ قمصانك، فهل تنظفينها بلب الخبز؟

- غبي! إنها تنظف بكل بساطة، فأنا أرسلها الى الغسالة... عندي مجموعتان. غرفة الطعام تغير قمصانها مثلك... وأخذ ثلجاً.

- اسمعي، ماري... يجب أن تنتهي... بول ديني وابنة عمي بيرينيس... ماذا؟ أنت تفقد رشذك.

- شابان مثلها... يمضيان النهار معاً...

عند بيكاسو، يا عزيزي... وما أسرع ماجأني بها.. كانت تحرق شوقاً لمعرفة «زامورا» بعد أن حدثها الصغير عنه... - هذا مع نساءه البريتونيات... ولماذا البريتونيات... اذا كان اسبانياً فوق ذلك!

- ألا تتساءل لماذا رسم «غوغان» نساء من «تاھيتي»؟ وبريتونيات فضلاً عن ذلك.

- غوغان، غوغان... لو كنت مكانك لما اطمأنت.

- «بول ديني»، يا عزيزي، جدّ مسرور هكذا، وهو ليس عاشقاً لي، لكنني أمدحه. ثم هناك المنزل، فهو يأتي للغداء كل يوم تقريباً، وأنا أخذه الى المسرح... بشرط ألا أعاكسه عندما يقول إن «جان فريديك سيكر» يملك عبقرية... وليس مزاجه شيطانياً... مثلك... (تحية مختصرة من ادمون)، هي الواقع، ما الذي دعاك الى تشريفي بزيارتك؟

- ماري، أردت أن أكلّمك... لكن عندك تلك التداعيات في الأفكار

- أنا أعرفك، ياذا القناع الجميل! أما من شيء جدّي؟

- الحاصل... لاشيء، ثم...

- أنت غريب، في هذه الأيام... وأنا أقول لك أنني لا أفهم جيداً ما الذي دهاك مع ابنة عمك (إنها فاتنة حقاً)... أنت تبحث لها عن عشاق ثم تراقبها... ذلك أن مجيئك المبالغت... وملاحظاتك على «بول ديني»...

- ما أقول لك عنها، إنما أقوله من أجلك، ثم هل كنت أعلم ان بيرينيس

عندك؟

- تت، تت... رعايتك مؤثرة فيّ، يا عزيزي، لكنني لأصدقها... وما يضايقني معك، ادمون، هو أنني أتساءل أين ينصرف ذهنك، هذه الأيام...، صه، لاتقاطعني. أنا أعرفك، أنا أعرفك! هناك امرأة خلف الأكمة، تنزل مثل سمكة من بين يديك... ثم إننا نلتاق... وتختفي.. الحاصل ان لك علاقة، أنت شبيه برجل له علاقة... وعندما تكذب، فلأن هناك ما يستحق الكذب... بينما أنت منذ بعض الوقت؟..

- ماذا، منذ بعض الوقت؟

- أنت تكذب لأسباب غير مفهومة، بلى بلى، كما تتنفس. وليس ذلك لإنقاذ شرف سيّدة أو إخفاء طريقة استخدامك لوقتك... لانراك حيث لا ينبغي أن تكون... تبدو فجأة كأنك متزوج... أقول لك بصدق، يا عزيزي، إنك تقلقني...
- اضحكي كما تشائين، يا قارصة اللسان، أنا بالطبع رجل متزوج.

- ولا يخدع امرأته؟

- ولا يخدع امرأته.

- أعلني جئتَ تقصّ ذلك؟ منذ متى أنت أمينٌ لها؟ منذ ثمانية أيام...
خمسَ عشر يوماً... أكثر؟ غير ممكن! لكن ماذا دهاك؟ أنت عاشقٌ لامرأتك؟
باللأناقة!

- لا، ماري، لستُ عاشقاً لامرأتي... أنا أغار عليها... وذلك أسوأ
كثيراً...

الصاعقة ما كانت لتترك أثراً أشدَّ بين واقيات الصدر في غرفة الطعام.
نظرت السيدة دي بيرسيفال الى باربنتان بذهول:

- اصغ، يا صديقي، أنتَ مختلّ العقل! تفار علي بلانشيت! هذه القديسة!
هذه القديسة التي تموت بهدوءٍ حباً بك؟ أنتَ فاقدُ صوابك، اسكت. أعرفُ
ما أقول، لستُ أضمنك ولا أضمن نفسي. أما بلانشيت! احذراً!

- نعم، وأنا أيضاً أقول في نفسي إن هذا غير معقول، لكن الأمر كذلك،
أحسّ بها ثقُلَ مني، لأدري ما الذي يجزي فيها، تفهمين، فكأنني أهاجمُ في
قلْبٍ هدوئي، إن حياتنا قائمة على أشياء لا يمكن أن تُوضع موضعَ التساؤل،
فعلقاتي مع بلانشيت...

نظرت إليه ماري باندهال، ووضعت يدها على جبينه كأنها تريد أن ترى،
عن هزَلٍ، إن كان محموماً:

- آدمون، إن كنتَ في عقلك، فأنتَ تحاول أن تُخفي عني شيئاً من هذه
القصة المخترعة... طيب، ماذا أدخل السيدة موريل في هذه القصة؟ أنتَ توظّف
نفسك لمصلحة السيد «ليرتيلوا»... أصبحت شديد التعقيد بالنسبة إلي.

- بصدد السيد «ليرتيلوا»، أنت تلعبين معي لعبة مزدوجة، ياماري...
أطلب إليك أن تساعدني، فماذا تفعلين؟ ترتمين على رأس «اورليان»... لستُ
سيء النظر، أنا أيضاً...

- وإذا كان يُعجبني صاحبك أوريليان؟ اطمئن، على كل حال، انتهت
الأمور من جانبه...

- ماذا تَجِدُنْ، جميعكن، في نهاية الأمر، في هذا الشاب؟
قال ذلك بكثير من الفظاظة، وبكثير من الهياج بحيث اتّضحت الأمورُ
فجأةً للسيدة «دي بيرسيغال» فقالت:
- آه! فهمتُ. إنما تغار من اوريليان.
هزّ كتفيه.
- ما الذي دفعك الى قول مثل هذه الحماقة؟ تعرفين جيداً ما بنا نحن
الرجال، نحن لانستطيع أن نفهم ما الذي يصنع نجاح الآخر...
بدا «بول ديني» عند عتبة الباب مقطّب الحاجبين:
- مالكما كليكما، لقد أصبحت أحاديثكما الخافتة شائنة! أتتسى أن لك
ابنة عم، ياسيد «باربنتان»... وهي تود لو توصلها الى مسكنها...



أخذ التلجُ الذائب يتساقط على الرصيف الدهني والوسخ، أوقف «أوريليان» سيارته في أعلى شارع «أوبركامف»، في الجادات الخارجية تقريباً. هذا الجزء من باريس بتجارته الصغيرة التالفة، بتفاهة المعروضات، ببيوته المبقعة التي شوّهتها إعلانات بالغة القدم حتى إنها لم تعد تُرى، هذا الجزء انقباضُ صدرٍ للذين ألفوا الأحياء الغريبة، قلبَ العاصمة الأنيق. ليس فيه رومانسية «المارية»، ولاذكريات حيّ «سانت أونوري» التاريخية، ولاغنائية ساحة «الفكتوار»، ليس فيه ما يُنقذ حلم اليقظة، لأشيء هنا صرحٌ لأشيءٍ ما ومع ذلك، فلا بد أن أحداثاً جرت هنا، في انتفاضات المدينة والتاريخ، لكن بما أن الناس لا يتذكرون إلا ما يقع للأسر الكبيرة، فإن هذه الشوارع الشعبية لم تحتفظ بشيء للأسطورة، أو إن كانت تحمل سرّاً، فهو سرٌّ دفين، ضائعٌ جداً. والخلاصة أن هذا الجزء إنما ينقع قلوب أناسٍ آخرين إلى الخفقان.

كان المسيح البلدي ينفّث في صدر ممر ضيقٍ أسودٍ ما تزال تغفو فيه صناديق القمامة. وكان في باريس إذ ذاك القليل من المسابح، ولم تكن «التوريل» قد افتتحت بعد، وفيما عدا شارع «شازيل» و«الكلاريدج» لم يكن هناك سوى بعض المسابح في الأحياء الأهلة بالسكان. وكان أوريليان يفضلها. وإن كانت فسحتها ضيقة، على أحواض الناس الأنيقين التي كانت دائماً مشبوهة في نظره من حيث النظافة. كان هناك لائحة «اغتسل بالرشاشة قبل دخول الماء» وهي تنص على قانون لافكاك منه، قانون لا يمكن أن يفرض على ذلك الجمهور الذي يفترض أنه يملك حمامات. وكانت الشرفة الضيقة التي تحيط بها حجرات خشبية مدهونة بلون الصدأ تعج بالناس الذين إن جاؤوا إلى هنا فإنما يفعلون ذلك حباً بالسباحة والاستحمام، لا من أجل قضايا تتابع في المشرب، بالمنزل، مع نساءٍ متبرجات، رجال مشبوهين، وعقود من اللؤلؤ ولباس سباحة أمريكي، الجمهور هنا، باستثناء رجلين ضخمين استأجراً من الصندوق لباس سباحة مقلمين، كان يستحم بالسروال الداخلي الأبيض القصير أو بمجرد سائر العورة يعطى عند الدخول.

كان ممراً مائياً أخضر، جيد النظافة، حسن الإضاءة، يشكل في جانب منه زاويةً مع فرع جانبيّ للمسيح الصغير الذي يذهب إليه الصغار والناس الذين لا يعرفون السباحة. وكان الماء مدفاً قليلاً مما يحدث بخاراً في الجو. وكان معلّم السباحة الحليق الشعر، وهو شخص أصهب، عريض المنكبين، ذو عضلات طويلة بارزة، وشعر على الصدر، ووجه مفلطح، يجرّ صندله الخشبي، ويراقب الغطّاسين، الذين يملؤون الفضاء برشاش الماء. كان ثمة حوالي عشرة سباحين، ماعدا الذين يستريحون أمام الحجرات، بعضهم وقوف وبعضهم جلوس وركبهم بين أيديهم. كانت شبيبة الحيّ خارجةً من المشاغل والمعامل، فتیان أشداء، صخابون، مزّاحون، قصارٌ وضخامٌ وطوال، شعورهم مبتلةٌ تنسدل على عيونهم، وآخرون قد وضعوا مطّاطاً يثبتون تلك الشعور بها. والغطّاسون بالقلنسوة البيضاء، سمرٌ وشقرٌ، قد جعلهم الماء متشابهين بعضهم وبعض، ولا يبدأ تنوعهم بالظهور إلا اذا صعدوا السلم الحديدي. وجوه العافية، وجوه عامية على نحو سار، لم تطبعه الحياة بطابعها بعد. أسنانهم مع ذلك فاسدةٌ على الأغلب، وفي الأذرع دنوبٌ، وفي الأيدي، أصابع ناقصة أو فاقدة إحدى سلامياتها. كانت التفاصيل تلامس الشقاء أما النظرة الخاطفة الى المجموع فلا تُري سوى القوّة والخفّة.

كان اوريليان، في الحجرة الضيقة، بذراعيه الكبيرتين، وساقيه الطويلتين يخلع ثيابه بخرقٍ كعادته دائماً، لا يعرف أين يعلّقها، وقد تضايق من فكرة المحافظة بسبب التنبيه: المحلّ غيرُ مسؤول إلا عن الأغراض المودعة في الصندرق... وكأنّ عليه إثارة ملاحظة الناس بما يحمل... ثم إن هؤلاء الناس شرفاء... دائماً أكثر من... الغباء أن يكون في ربطة العنق لؤلؤة عندما يأتي الى هنا. غرّزها «اوريليان» في قفا سترته، وحشا جوربه في حذائه، كل جورب في فردته من الحذاء، لكي تكون جميعها بين يديه حين يرتدي ثيابه، دون أن يبحث عنها في كل مكان. وأحسّ اوريليان، في السروال القصير المنزلق الذي يتجعّد

عند البطن، أنه أكثر عرياً منه في عُرِيهِ. وعندما دفع الباب وسحب من حجرته جسده المعروق الذي كانت العضلات تتشكّل فيه حبلاً، ونظر بعينٍ مستنكرة الى شعر ساقيه، وفحص بنظرة قدميه اللتين أثرتَ فيهما الحذاء قليلاً، وشاهد في الجهة الأخرى من المسبح، إزاءه، أن الزين، على العموم لا يستحيون بمقدار استحيائه، فيتعرّون والباب مفتوح، ويثرثرون وهم بالقميص، ويجفّفون أقدامهم وأردافهم في الهواء... وأحسّ بالخجل من الأخلاق المناققة التي حملها معه من دنيا أخرى، ومن نقص العفوية فيه. وقارن نفسه بالآخرين، في شيء من الحياء. فيما عدا رجلين بدينين وأصلعين، كانا من أكبر الآخرين سنّاً. لم تكن هذه أول مرة يرتاد فيها هذا المكان. فقد جاءه أول من أمس أيضاً، لكنه كان يجد فيه دائماً هذه الغربة الخفية، هذه الغفلية الاجتماعية التي كانت تسره، والتي كانت تؤجّج فيه بعض المشاعر الغافية، المرتبطة بالحرب. لقد أحسّ، إذ ذاك أيضاً، في بعض الأحيان، بهذا السرور، بهذا الانشراح الذي استشعره في هذه الساعة: أن يدخل حيث لاحق له في الدخول، ألاّ يتميز عن هؤلاء الناس البعيدين، عادة، الغامضين، الممنوعين، دون أن يفطن أحدٌ الى ذلك... العري يُعيد معجزة وحدة الشكل. وكان يحس مانتصوّره عكس ذلك عما يستشعره ابنُ الشعب في مجتمع مختار، أنيق، غنيّ، باهر... والعجيب أنه فكّر في ذلك وهو في «فردان»! كان الأمر يتعلق بوحدة الشكل: هناك كانت الأرض وهنا الماء.

الماء، مرّاً تحت رشّاش الماء، قدماه على شبكة الحديد حيث تعوم قطعة من صابون، لا يعرف المرء كيف ينظّم هذه الأشياء من أول مرة، فإما أن يحرقه الماء وإما أن يجمّده. كان معلم السباحة يسترق النظرَ إليه بطرف عينه. فرك أوريليان نفسه بدقّة، الماء... كان يُصغي الى أغنية الماء تحت الماء المنسكب الذي غدت حرارته متساوية. كان يصغي الى أغنية الماء. لماذا كان لكل ما يتّصل بالماء هذا السحر الأخاذ بالنسبة إليه، هذا الشعر؟ الماء...

غَطَسَ، كان يحبُّ أن يفتح عينيه تحت الماء، فإذا طفا بعد غَطْسِهِ أن يَشْكُ^(١) في الماء كالدافين. لا يُصَدِّقُ هذا، في قلب باريس. مداعبة الماء وغمْرُه له. الماء، دخل في أذنيه. فرماه، معجزة الوحدة هاهنا، في مستنقع الضفادع هذا، ومع صرخات صبيّين يلاحق كل منهما الآخر ويقبض عليه من قدميه ورأسه، كان يحسّ حقاً، بأنّه وحيدٌ كلياً، أكثر منه في تلك الشقة عند رأس الجريرة، عندما يفتح نافذته على الأشجار والنهر، ووسواس الغرقى الذين يمرّون في السنين.

سَبَحَ على ظهره طويلاً، تقوّدُه حركةُ ساقيه وحدها، ليرتدّ حين يبلغ نهاية هذه الحديقة الخضراء من الوحدة. وكان يمنح نفسه، وهو يُغمض عينيه نصفَ إغماضة، ذلك الإحساس الوهمي بالرحابة.

في المرّة الماضية جاء الى هذا الماء الفاتر ليهرب فيه من صورة بيرينيس، لكنه عثر عليها في هذا الماء، جذّابةً، لاسيّبيل الى فقدانها. فاستسلم لها وهو مغلوبٌ على أمره. بيرينيس الممتزجة بمداعبة الماء، بمرونة العوَم، بهذه الحميمية الوحيدة مع جسمه العاري، بذلك الكسل المضموم الى الجهد، بأعجوبة حلم اليقظة والحركة. وهو يعود هذه المرة بفكرةٍ هي أن يلقاها، أن يلقى بيرينيس أكثر واقعيةً من تلك التي كانت تتنزّه مع «بول ديني»، بيرينيس التي له معها موعدٌ في هذا المكان. وسرعان ما أحسّ بحضوره، بحضوره الكامل في الحلم. فانقلب سابحاً، كما يفعل المرء وهو ينام مع امرأة، وفي هذا التعاشق بين جسد الرجل والصورة، تبعته، كما تفعل المرأة غير الواعية وهي تلتف مع انحناء النائم. إن تخيلَ بيرينيس، لوجهها وحده، وجهها بعينه المغمضتين اللتين يحبّهما حباً جماً، وجهها الذي هو أكثر واقعية من الوجه الآخر، بيرينيس كاملةً، يُثْمَله في قوته، ويحبّب إليه استهلاك طاقته العضلية، فسيح بعنف ورأسه في الماء، دون تحفّظ، وتحاشى بجهدٍ رفاقه في السباحة. وأي ضيّرٍ في أن يتخيّل

(١) شك بمعنى انقض ولم ترد في المعجم بهذا المعنى.

شابٌ يفكرُ في شابةٍ تلك الشابة كاملةٌ وعاريةٌ كما أنه هو نفسه عارٍ لا ضيرَ،
دون شك، ومع ذلك فإن أوريليان كان يلذعه ذلك التخيّل، وسرعة السباحة وحدها
كانت تتيح له ألا يلوم نفسه على ذلك.

ولكي يزيد سرعته، حاول أن يسبح على بطنه، كما أروّه في سالونيك...
ثم فترت همّته، في تعبٍ سعيد، واسترخى، وتشبّث، وهو مثل حطامٍ
عائم، بمطلع السلم الحديدي، وقد نفذ الماء إلى عينيه وإلى أنفه، فتنفّض.
قال صوتٌ من فوقه «ما هذه السباحة، يا صاحبي؟»

كان شخصاً في الثالثة والعشرين أو الأربعة والعشرين، واقفاً على
السلم، ويداه على خاصرتيه، جسوراً، ليس بالطويل لكنه متين القوى. ساقاه
كثيرتا الشعر وصدره أمرد، وذراعاها وكثفاه كأنما هي لرجل رأسه زائدٌ عن
اللزوم. يدها مخبطان، ووجهه قريبٌ من القلب، ضحوك، يعلوه شعراً أشقر
مدهونٌ بلمع الشعر، وأنفٌ قصيرٌ أفطس، وفمٌ منحرفٌ قليلاً، وفكٌ كفك البهلوان
مع عضلات بارزة ومخططة في الوجنتين. وفي اليد اليسرى، وشم أزرق ووردي
أمحى كثيراً، وردة الرياح...
استأنف كلامه.

- رأيتك تسبح... هذا شيء غير عادي، كم أسرع في حركة قدميك؟ لم
أفهم جيداً...

نفخ «أوريليان» قليلاً، وأوضح:

- هذه سباحة يونانية... تعلّمتها في سالونيك أثناء الحرب...

- آه... كنت في جيش الشرق؟ أنا من قرعة ١٨... وصلنا على نسق... ثم
السلام عليكم... انتهت المشاكل بعد ثلاثة أيام... وانسحبنا! أتريد أن تريني
هذه السباحة؟

- بكل سرور.

قام بعرضه، ولم يكن يعلم كثيراً هو نفسه ما الذي يخترعه بقدميه، وحاول تحليل الحركة الى أجزاء، وفجأة أحس أن الآخر كان على جوانبه، وأنه انضم إليه في الماء «هكذا...؟ لا...؟ تمرر الذراع فوق الرأس؟ ثم ماذا؟... أه! فهمت... لنسرع... وهما يرتبطان، ويسبحان معاً، قال اوريليان انتبه، لنفّسك - ماله نفّسي؟ - تضع نفّسك في غير موضعه... - لا ينشغل بالك على «ريكيه»... نفّسي... احكم علي بعد مئة متر... وتسابقا، «ريكيه»... اسمه هنري... وأنت... أجاب اوريليان الذي يعلم ان اسمه يثير تساؤلات... «روجيه»... و«روجيه» اسمه الثاني في الأحوال المدنية، ولا بأس به...

وإذن فإن «ريكيه» متدرّب، بالتأكيد، أكثر من روجيه.. لكن لم يكن له مدرّب حقيقي، ليس له أسلوبه، خسارة، يمكنه أن يصبح سباحاً حقيقياً، قال اوريليان: لست كذلك... لقد أهملت السباحة كثيراً، وأنا لا أصبح إلا قليلاً...

قال الآخر مازحاً نون خُبث: ثم إنك بدأت تكبر.

ريكيه خرّاط ومركب في معمل قرب «بوت شومون»

- وأنت؟ أنت في الحي؟

أجاب «روجيه» جواباً مراوفاً، وهو لا يستطيع أن يقول إنه لا يفعل شيئاً، وأن سيارته بالباب، وإلا نزلت اللعنة به، أقرّ فقط «لا، وأنا أسكن قرب «الاولتيل دي فيل»...

ومع ذلك فإن «ريكيه» لا يحسن وضع نفسه في موضعه.

- اسمع، عليك أن تفعل كما أقول لك... هيا، انظر... - عجباً! لم ننتظرك

لتعلّمنا السباحة...

وتوضيحاً لذلك بالمثل، قفز خارج الماء مثل عجل البحر: القفزة الخطيرة

على القفا:

- أتستطيع أن تفعل ذلك، بنفّسك، روجيه؟

قامت بينهما تلك الرفقة التي يُنشئها الجهد المتقاسم، التباري. جلسا لحظة على حافة الشرفة، وأرجلهما متدلّية. أخذ «ريكيه» يروي حياته، فهو من «الهافر». بدأ عمله في الثانية عشرة، في المرفأ. وهكذا بدأ يسبح، إنه يعبد هذا، في باريس، الأمر ليس مريحاً، ومع هذا، فنحن نخرج منهكين من العمل، ومع ذلك... فقد شارك في مباريات... اوه! لستُ بطلاً، الأبطال يلزمهم من يدفعهم... لكن لاحاجة للناس جميعاً أن يكونوا أبطالاً، أليس صحيحاً؟ في مباريات الكؤوس، ثمة الكثير من الأبطال الذين يشكلون جمهور... المتبارين، لا بد من ذلك، أليس صحيحاً؟ هذا هو ذوقي... أعرف جيداً أنني سأصل آخرأ، مع معظم المتبارين... لكن، لأهمية لذلك، ونحن نتدبر أمرنا... ثم لو لم يكن هنا... فستفتر همّة الأبطال، أليس صحيحاً؟

عندما يمزح يقطب أنفه، هذا الأنف المفرط القصر، وتغدو الوجنتان صلبتين مثل كرتين... وقال:

- في الربيع، عندنا «السين»... «بور الأنغلي»... ألم تذهب قط الى «بور الأنغلي»... وهو يقع قبل باريس، ويقال عنه إنه أنظف... تأخذ القطار... وفي النهاية حمل «ريكيه» رفيقه، وقد شغل باله، على سباحة مئة متر... «المسيح طوله اثنا عشر متراً»... إذن سبع مرات... ثماني مرات... هذه تساوي ستة وتسعين متراً، دون غلط... أي كالمئة... أربع مرات ذهاباً ورجيئاً. فهمت؟ غلبَ أوريليان بالرغم من أسلوبه، سعد «ريكيه» بذلك «ليس هذا كل شيء... امرأتي تنتظرني... هذا الصبي له امرأة. «لسنا متزوجين... أتفهم... لكنها امرأتي... هيا، ارتد ثيابك، سأقدم لك كأساً في الحانة المقابلة... «لاشوب دي كلير دي لون»...»

عقد أوريليان ربطة عنقه، في حجرته. وهو يعلم جيداً أن كل شيء مظهرٌ خادع. حياته، المسيح، «ريكيه»، الحرب، الحانة... ذلك الاسم الغريب... كل ذلك

عللُ يتعللُ بها، عوائقُ يخترعها لنفسه.. كلما ازداد انصرافاً عن بيرينيس ازداد رجوعاً إليها، حيةً، مظفرةً...

عندما رأى «ريكيه» صديقه الجديد في ثيابه، وهو في بنطاله العتيق المخطط، التالف وسترته الزرقاء وقبعته، أطلق صغيراً ينمّ على الخيبة «أنا الذي كنتُ أعرضُ عليك... كنتُ أعرضُ عليك كأساً» ذهل من غلطته. سيخاطبه الآن بضمير الجميع، وإن يرجع عن ذلك، ثمّة شيءٌ تحطّم. ثم بما أنه لم يعرف كيف يتخلّص من هذا المأزق، فقد جرّ نفسه الى تلك الحاة التي تسمّى بدقة مشرب جعة «الشوب دي كلير دي لون». وكان ضرباً من مقهى يكاد يكون مقفراً، كان عالياً فبدا فارغاً، في المشرب كركرة الماء.

كان «ريكيه» يختلس النظر الى ثياب رفيقه «أنتِ إذن رأسمالي؟... قيلت هذه الجملة هكذا فبدت أقلّ خطورةً، نعم، أليس كذلك؟ بلى كذلك؟...» وفيم تشتغل؟ هذا ما يصعب شرحه. لو قال له إنه لا يفعل شيئاً... إنه يشتمزّ من الكذب «أنا أعيش من دخلي...» سيكون لذلك أثرٌ غير متوقّع إطلاقاً، أثرٌ من الإضحاك العصبي الذي لا يتوقف. ستسيل دموعه من الضحك، «ريكيه». صاحبُ دخلٍ السيدُ صاحب دخلٍ، ثم يتذكّر أن صاحب الدخل هذا سيدفع هو ثمن كأسه، فيعتذر، ويغدو التهذيب بعينه. فيشرب كأسه شرباً من يقدره تكريماً له.. ويعود الى الكلام على السباحة. على تلك السباحة التركية... لاليونانية التي أراني إياها السيد... آه! «ريكيه»، إن دعوتني سيّداً لأنني متأنق... لم تعد، تخاطبني بضمير المفرد...

متأنق هي الكلمة الصالحة بوضوح لتكون في متناوله، «ريكيه». ويحسّ ريكيه بذلك. ويقول إنه لا يدعو «روجيه» سيّداً لأنه حسن الثياب ويشدّد على «حسن الثياب»... ويقع اسم «روجيه» وكأنه إمعان في اللطف... ينما يحمرّ «اوريليان» من ذلك قليلاً... لكنه إن قال لروجيه «ياسيد» فلأنه سيّد، هذا كلّ

ما في الأمر. لاحيلة لنا في ذلك. فإما أن يكون المرء سيّداً أو لا يكون... بيد أنه عاد الى اهتمامه فخاطبه بضمير المفرد قائلاً: إذن اشرح قليلاً... أنت لاتفعل شيئاً، لاتفعل شيئاً طوال النهار؟... حقاً؟ وفيم تقضي وقتك إذن؟ أنا لن أستطيع ذلك. كنت عاطلاً عن العمل... لا بدّ من الصحة ليظل المرء عاطلاً عن العمل طوال الحياة...»

عندما استقلّ أوريليان سيّارته بعد مصافحة «ريكيه»، أحسّ بضيق شديد، بالرغم من لذة الاستحمام واللذة التي تتلو الاستحمام والسباحة. انصرف في الليل ولم يلاحظ أنه لم يعد يفكر في بيرينيس. فيم كان يفكر، في الحقيقة؟ في حرجة من الذكريات والهواجس. لم يكن يفكر في شيء على نحو دقيق، لكن كل شيء، يخترقه ما يشبه الضياء الجارح، ما يشبه الندم. وبينما هو ينحدر نحو السين، أخذت الأحلام تتفوّق شيئاً فشيئاً، لتُغرق العالمَ، و«ريكيه»، وقصص الطفولة العتيقة، ويسمع صوت بيرينيس يقول: «عندما كنتُ صغيرةً، كنتُ أسكن داراً فسيحة مليئة بالأشباح...».



آه! هأنت ذا! أخيراً! انتظرتك ساعتين. عدتُ ثلاث مرات. وقد أشفقت عليّ الحارسة وأصعدتني.

عندما عاد «اوريليان» الى منزله، وجده مُضاءً وأخته جالسة تقرأ في مجلة «فوغ» كما تفعل لدى طبيب الأسنان. وكانت «ارماندين ديبريه» متهينّة لتوبيخ أخيها، وكأنه ما يزال صبيّاً يتأخر عن عشاءه.

قال بلهجة جافة، وهو يرمي على السرير قبّعته وقفّازه الأشقر «اعذريني»، وعاد الى الغرفة الأولى ليعانق أخته وهو ساهٍ «لم تخبريني بمجيئك»..

- طبعاً. أنا في باريس منذ الصباح، وهاتفك لا يجيب. جئتُ ولم تكن هنا، وعدتُ...

- قلتُ هذا قبل قليل. وفتحتُ لك الحارسة.

- في المرة الثانية لا، بل في الثالثة. وتساءلتُ ماذا أمكنك أن تفعل.

- كنتُ أسبح...

- في هذا البرد؟ أنت تستهزئ بي؟

- أقسم لك بكل مقدسٍ أنني لا أقدم على هذا الجنون! كنتُ أسبح فقط.

- كنتُ دائماً تمزح مزحاً لا يفهمه أحدٌ. أتظن أن هذا يجعلك مثيراً

للاهتمام.

- جئتُ ثلاث مرات تلاحقيني عمداً لتؤنّبيني؟

- يا الهي، اوريليان، ماهذه اللغة! لأدري إن كنتُ قد جئتُ بهذه الأساليب

من جيش الشرق.

دهش بصدقٍ وفجأة خطر على باله «جيش الشرق»، فقال: وماذا قلتُ؟.

وأضاف:

- لا يستطيع الناس جميعاً أن يكونوا في مكاتب وزارة «البلوكوس»...

كانت تلك غمرةً لزوج أخته القابع في المؤخرة.. هزت «ارماندين» كتفها، كتفها الفلامانديين الجميلين. الواقع أنها ضخمت قليلاً، وهي حقاً غير أنيقة الملبس.

«كان لابدّ من ناس في الوزارات، ربما...»

لم يتمم هذه القصة.. وكان حريّاً به أن يقول. «وكان لابدّ من آخرين لجيش الشرق». لكنه تناول حطباً من الصندوق، وجريدة قديمة، وشيئاً من نثارة الحشب ليوقد ناراً. لاحظت ارماندين ذلك أتوقد ناراً؟ مع أن في المنزل تدفئة مركزية. «أحاب دون أن يضطرب، وهو يشعل الثقاب. أحب الدفء حتى الموت... ولاسيما نار الحطب، فهي مبهجة...»

قالت «أنت لاتعفّ عن شيء».

كان ينبغي أن يردّ عليها أن لا، وليس صحيحاً أنه لايعفّ عن شيء. لكن الى أين سيوصله ذلك؟ كان يحتقر أخته احتقاراً شديداً يمنع من لعب هذه اللعبة. كان أفضل ردّ نتيش دقاق الحطب في النار.

زمت ارماندين شفّتها، شفّتين بلا حمرة، وعبرت بعينها تعبيراً ينمّ على الإذعان. كان في وجهها المدور والممتلئ ببطء يمنح أخاها عند المقارنة بينهما مظهراً من الحيويّة المذهلة.

قالت. ماكنتُ أريد أن أخلع ثيابي، لكن بما أنك أشعلت ناراً... فربما بردتُ بعد هذا عند خروجي..

ساعدتها على خلع معطفها وهو معطف من الجوخ الأسود، قبّته من الفرو، وله ردنان، وضبة عند الجيبين بالثنية نفسها، وظلت في طقم رمادي في غاية الدقة. مع قميص نسائي كأحسن قميص.

«ثمّ، لأبأس... سأرفع قبّعتي!» تناول «اوريليان» هذه الجرسية^(١) من اللباد الأسود التي كانت كالمطفاة على ذلك الشعر الأملس الأشقر الكاشف عن القذال، والذي لفّ في مؤخر الرأس في كعكة لفأ سيئاً وبسيطاً جداً، وقد أفلتت

(١) قنعة بشكل جرس المترجم

منها خصلةً أو خصلتان، وبينما كان يحمل معطفها وقبعتها الى غرفته، رفعت صوتها، ولعل تذكرها من الانتظار المستنفر قد تبدد.

- ومع ذلك فالجو لطيفٌ عندك... التهبت النارُ جيداً... يجب أن تضيف حطباً في الحال... حطبة غير ضخمة...

كان يعرف تقلبات مزاجها، هذه الهدآت التي تصعب متابعتها. كان لا بد له من ردّين أو ثلاثة زيادة عنها لكي تتخلّى عن لهجة الحدة التي أدخلتها أول الأمر

- لم تقولي لي ما الذي شرفني بزيارتك؟

- كنتُ في باريس... وإذن انتهزت فرصة ذهاب «جاك» الى «بروكسل»

لأعماله...

- في الواقع، كيف حالُ «جاك»؟

- ممتازة. أشكرك. مرهقٌ قليلاً. عطلة نويل ستكون حلوة... ماذا كنتُ أقول؟ نعم... أودّ أن أرى صانعة قبعاتي، فلا سبيل الى العثور على قبعات في «ليل»، أترى... ومع اقتراب عيد الميلاد ورأس السنة بالذات، علي أن أقوم ببعض المشتريات.. والهدايا... للأطفال...

- والأطفال بحالة جيدة، فيما أظن؟

- «بيير» و«ريمون» شيطانان حقيقيان، لكن «بيبيه» أصيب بزكام

خفيف...

- ولا شيء خطير؟

- أكننتُ سأتي الى هنا؟ درتُ على المخازن، فهلكتُ. صعوبة للغاية، الألعابُ، فقد عملتُ ألعاب جديدة كل الجدة، لم نرها نحنُ من قبل، ولأدري إن كان ذلك يفرحهم. وفوق ذلك، فإن جودة الألعاب أخذت تغيب؛ كلّها من الكرتون، وألوانها شنيعة، وكأنها صنعتُ للكبار... الحاصل أن الشكوك خامرتني فتجوّلت في معارض «تروا كارتييه»، في اللوفر، في «بون مارشييه»... في «النان بلو»، في «شارع ريفولي»... وينبغي أن أعود غداً الى «تروا كارتييه»...

- وسوف تبقي عدة أيام في باريس؟
أوه لا، سأعود غداً بعد الظهر... لكنني سأمرّ صباحاً على المقبرة...
وعسى أن أمرّ بالعم «بليز» مروراً عابراً... أخشى ألا يتسنى لي ذلك، كيف حاله؟

- حسنة، فيما أظن...
- فيما أظن؟ ألم تعدّ تراه؟
- بلى... وتعلمين أنني أحبه... لكن قد مضى نحو خمسة عشر يوماً...
ثلاثة أسابيع...
- أوه ليس حبّ العائلة الذي يقتلك مرة واحدة، مع ذلك، إذ ليست العائلة حقاً هي...

قالت ذلك بعدوانية حقيقية، فهرّكتفيه.
نظرت حولها، فتوقّف نظرها عند لوحة ملتبسة، على الجدار.
- عجباً، علقت هذه اللوحة؟ أفضل العم على تصويره. تبدو بقعة من اللون... هذا شيء سارّ عندك، في نهاية المطاف، مع أنه ينقصها، ينقصها شيء ما حي... أما تزال راضياً عن الفراشة، خادمك؟
- أنا سعيد بها...

- لا بأس... لكن الفراشة لا تنوب عن الزوجة!
- أراهن أنك جئت لتعلميني بإحدى مرشحاتك...
- ماهذه اللغة... أوريليان! ألن تقرّر أبداً؟ لا، ليس في جعبتي من أرشحها الآن، على سبيل المصادفة. لكنني على ثقة من أنه يكفي أن اقترح عليك فتاة حتى يكون أنفها طويلاً، وقدمها ملتويتين، ومظهرها غيباً.
- ولماذا تسيئين اختيارهن، أيضاً؟

- لا، يا صديقي المسكين، تعودت هذه الفكرة، أنت نفسك ستختار زوجتك.
وذلك حسن جداً على كل حال، يقول «جاك» دائماً «أوريليان فيه روح المعارضة، أعطه سكرّاً فسيضع ملحاً في قهوته».

- كم يعرفني «جاك»! وأين تعلّم، ياترى، دروس علم النفس هذه؟ في مكاتب الوزارة.

- دُعْ جاك وشأنه! تضايقني دائماً بجاك.

- أنت، مثلاً...

- كنتُ أتحدّث عن زواجك...

- أوه! منذ الآن؟

- لكنك أكملت الثلاثين..

- لم أكد أكملها...

- لاتناقش. أنت ستختار زوجتك بنفسك، لكن يجب ألا تنتظر طويلاً.. إذ يصبح المرء كهلاً عزباً، له عاداته الموهوس بها والتي لن يستطيع الخلاص منها.

- لعل الألوان قد فات...

- أنت مضحك، يا عزيزي، أنت مضحك. لماذا لاتريد أن تتزوج؟

- لست رجل امرأة واحدة...

- وماذا في ذلك؟ أظن أن المتزوجين لا يبيحون لأنفسهم نزوة عابرة، بين الحين، الحين.

- آه! غير ممكن! إذن «جاك»...

- دُعْ جاك وشأنه، جاك شيء آخر. لكن الزواج ليس واحداً عند الرجل وعند المرأة، وهناك تسويات والمرأة الذكية تغمض عينيها... وليس لذلك من عواقب..

- لعل صانعة القبعات في ليل سيئة، يا أختي الكبيرة، لكن الأخلاق تهاني. للأسف، لأحب أن أخدع، ماحيلتي، أفضل أن أكون حراً...

- حراً، حراً مامعنى ذلك؟ أعن فضيلة تأبى أن تتزوج.

- ربّما...

جلسا قرب النار. وبالرغم من لهجة «اوريليان» الساخرة، ألم يدعها أختها الكبرى، كما كان يدعوها قديماً؟

أمسكت بكلتا يديه:
- أنت تخبىء عنا شيئاً ما، يا أخي... لاتقل لا... أمن، الطبيعي أن رجلاً
مثلك، تسنى له أن يلهو وأن يجرب، يظل وحده هكذا؟ وأنا أراهن أنك ماترال
تأكل في ذلك المطعم الصغير الوسخ...
- في «المارينيه»؟ ليس الطعام سيئاً على الإطلاق فيه.
- هذا غير البيت... واعترف أن من المفارقة أن أكون أنا هنا هي التي
تدفعك الى أن تبدل نمط حياتك...
- تعبير جميل، كما لو قلت...
- يجب ألا نتعلق بالأفراط. عليك أن تقول لي شكراً لأنني لأسعى الى
بقائك عزيزاً...
ولم ذلك مثلاً؟

- كيف، ومصالحي؟ لدي أولاد... وسيأتي حتماً يوم، نتعود فيه، جاك
وأنا، على اعتبارك أنك لن تتزوج... حتماً، مع الزمن... وحينئذ إن خطر لك أن
تتزوج أنسة، فسوف ننظر الى ذلك نظرة استياء، يافتاي! لم أصل الى هنا بعد،
لكن الغلطة ستكون غلطتك... لاتدفعنا الى ذلك... قلدي أولاد...
ضحك اورييليان برفق.

- ليس في ذلك ما يضحك، يافتاي، ليس فيه ما يضحك. هكذا تدخل
النزاعات الأسر، ونحن آخر اثنين في أسرة «ليرتيلوا»، أنت الذي يحمل اسم
أبيننا...

- حول هذا الموضوع...
- لاتقاطعني! لاحظ، نحن نعلم جيداً، جاك وأنا، أنك تخليت عن المحاماة،
مكتب المعلم «بيرجيت»... ولم نملك قط على ذلك، ونحن ندعك سيّداً لحياتك... مع
أن ذلك يتسغل البال في نهاية الأمر، فالمال لا يحتفظ دائماً بقيمته... وهناك
الأمراض... والحروب... لاعماً قريب.. لكن من يعلم؟
- ولذن؟

- وإذن فمن الطبيعي أن نتمنى أن ينجح نوونا ... سلّم لي بذلك ... كان يمكنك أن تبني لنفسك مركزاً، أن تزيد ثروتك ... حتى لو لم تتزوج ... مراعاة لأبناء أختك ... لكننا لنسا، كما قلت لك، من هذه الأسر المعنية مباشرة، ما الذي تريده، من غير الطبيعي أن تعيش كما تعيش، إن رجلاً صلباً مثلك، تام الصحة ... وحيداً ... لا يفعل شيئاً سوى أن يتسكع ... جميع الناس يعملون ... لو كان صهرُك مثلك، جاك يقول إنه لا يفهمك ... وأنا أيضاً، ثم، فيم تقضي أيامك؟ يجب حتماً أن تعمل ...

إن أوريليان الذي عزم أن يدع أخته تتكلم نظر فجأة إليها بدهشة، وتمتم:

- غريب ... أنت تقولين الشيء نفسه الذي قاله «ريكيه».

- «ريكيه»؟

- نعم، صديق ...

- أرايت، أرايت، الناس يقولون لك ذلك! هم يفكرون مثلنا. جميع الناس يفكرون مثلنا. السيد «ريكيه» على حق، الصديق الحقيقي يجب أن يقول هذه الأشياء ...

طرد أوريليان بيده جميع أنواع الذباب الخيالية. كان كل شيء يتطلب كثيراً من الإيضاحات. إلا أنه قال:

- أن أعمل ... لعلك على حق، وكذلك السيد «ريكيه»، كما تقولين، على حق من غير شك ... لكن بماذا؟ لو كان عليّ أن أكسب عيشي، لو كنت لأملك شيئاً، على الإطلاق، لنظرتُ إلى المشكلة نظرةً مختلفة ... ولكن هناك أنواعٌ شتى من الأعمال التي أفكر فيها، دون فرحٍ ربّما ... لكن كواجبٍ، في النهاية ... واجب رجل ... وكنت سأربّي من أجل ذلك ... من أجل أعمالٍ جديرةٍ باسمها ... كنتُ سأفعل شيئاً، شيئاً لا يُقدّم عليه رجلٌ من عالمنا، من ثروتنا، لأنه ليس ممتعاً، إلا بسرور ... ومن جهةٍ أخرى، إني أرى من هنا سحتكما كليكما ... لكن ما الذي كان يفتح أمامي؟ الحقوق، القضاء ... لكن جديين، لم يكن ذلك سوى واجهة، مظهر من يفعل شيئاً ...

- كان يمكنك أن تبني لنفسك مركزاً... وبفضل علاقاتنا... سيكون لديك ماتشيت به نفسك...

- عجباً، بكلمتين، تمت لك الأمور، علاقاتنا، سيكون لديك ما... أنت لاتفهميني، لتكلم عن شيء آخر.

- إن كان القضاء لايعنيك، فقد كان بوسعك أن تلج ميدان الأعمال، مع جاك... في المعمل... أو شيئاً ما بجانب ذلك...

- الغريب أنك تسمين هذا عملاً! إنني أفضل أن أقطع يدي اليمنى...

- أنت تُغضبني، في النهاية، لست من طينة غير طينة الآخرين، ماهو صالح بالنسبة الى جاك...

- لندع جاك، أترضين... لقد خدمتُ ثمانى سنوات في الجيش، كمنا تعلمين... وعشتُ في عالم ليس لديكما لأنت ولا جاك أدنى فكرة عنه... الحرب...

- دعنا، طيب، ستتهم أيضاً زوجي بأنه عمل على البقاء في المؤخرة! سئمتُ هذا الكلام!

- أنا لاأتهمه، لكن، انظري، ياأرماندين، عندما أفكر في جميع أولئك الشباب، رفاقي، الذين عانيتُ الأهوال معهم، في الوحل، في القذارة... لا، ماذا تريدن... هناك أشياء ممكنة بالنسبة الى جاك ولا أستطيع عملها... لأقول هذا للهجوم على جاك، فلعلني مخطيء...

- آه! أترى! إن هذا لايمنعك على كل حال من أن تتزوج...

وفجأة غضب. طفح الكيل من إلحاح نقطة الماء، وأراد أن يتخلص من ذلك، وعج رأسه بالصور وبالأفكار التي أخذت ترتسم في فكره، فيض من الأشياء التي كان يريد أن يقولها، دون أن يستطيع بل ان يريد صياغتها.

كان ينبغي له أن يفتح الحياة مثلما يفتح صدرُ الدمية، وماذا ستفهم «ارماندين» من ذلك، كل تلك السنوات الأخيرة كانت تتوافد عليه دفعة واحدة، بشخصها، بجملها، بذكرى مداعباتها الزائفة، بمتاعبها، ببعض لحظات

السعادة السلبية. وبحث عن الكلمات التي لارجعة عنها والتي تنهي الى الأبد تلك المناقشات التي تُستأنف دورياً، فرمى بنفسه في الماء، قال - لن أتزوج لأنني عاشقٌ.

قال ذلك وأصغى الى سقوط الحجر في البئر، وهو يمضي مباشرة، بعيداً جداً، وماذا يهمه الآن من ارماندين ومن كلماتها التي أفلتت منها. «هكذا إذن!» كان وحيداً، وحيداً في الغرفة، وفي العالم، لم يكن يُصغي إلا الى تلك الهاوية فيه، لم يكن يُصغي إلا الى نفسه، الى الكلمة التي أفلتت منه، الكلمة المترامية الأرجاء، وفجأة... لقد اختار طريقه بغتةً. وكان ذلك نهائياً. لقد صمم عليه. الحب سيكون الحبّ طريقه. سيكون الحب. انقلاب كلي، اضطراب داخلي. الحب. كانت الجدة القريبة لهذه الكلمة تعتصر قلبه. أدار رأسه ونظر الى النار. النار، اللهب. التفاصيل الطفيفة في الجمرة التي تحيط بجانبها المحروق حاشيةً من الرماد الأبيض، أثارت اهتمامه على نحوٍ غير معقول. وبتؤدة بالغة عثر على الاسم، ثم على الوجه... «بيرينيس»..

في أثناء ذلك كانت ارماندين تتكلم بغزارة. وكانت قد استعرضت الوضع، وبحثت الإمكانيات. والإمكان الأول أن يتزوج «اوريليان» من المرأة التي أحبها. ولكن لما بدا أنه لايتصور ذلك، فقد كان جلياً أن تلك المرأة ممن لايصحّ الزواج بهنّ. هل كان اوريليان واثقاً من ذلك الآن؟ كان جاك وارماندين واسعي الفكر، وسوف يتفهّمان كثيراً من الأشياء، ويقبلان بها، ويتغاضيان عن كثير منها، إن كان في ذلك سعادة «اوريليان»: «لكن فُكر جيداً، يا صغيري... ألا تقول شيئاً؟ وإن فالأمر أسوأ ممّا تصورت! ياللبلية! مهلاً، مهلاً، يجب أن تفكّر!»

نهضت، وأمسكت صدغيها بيديها. وكانت تذهب وتجيء. وكان «اوريليان» يحرك الجمر. وفجأة، تذكرت «ارماندين» شيئاً لاحظته أثناء انتظارها الطويل، شيئاً طلع علم الحدار منذ زيارتها الأخيرة. رفعت وجهها ونظرت مرة أخرى الى قناع الـ هذه المرأة... لايمكن أن تكون غيرها... «إنها هذه، أليس

كذلك؟

لم يجب، كرّرت: «هذه المرأة... هي نفسها» لم يفهم عمّ تتكلم، أدار رأسه، وتابع نظرتها، ورأى القناع، وقال
- أه! حلوة دعابتك!

ثم فكّر في قطع كل هذا الحديث باعتراف مضحك:

- إنها هي... إذا شئت!

تمتعت الأخت بكرهٍ وغيرةٍ عميقين:

- هذا ماخطر ببالي... وإذن فهذه هي؟

وفكرت: «حتى إنها ليست جميلة»

تلاشت في اوريليان دعابة اللحظة الأولى. وتطلّع الى القناع الأبيض ليطلب منه صفح بيرينيس، وهو ممتلئ بتلك الأغنية السرية التي كان يراقبها في أعماقه، لا ينتظر سوى سفر هذه الأخت، هذه الغريبة، لكي يستسلم الى جدّة هذه العواطف، الى هذا الكشف المنتزع، الى هذا الهوى الذي لا يطيق اضطراباً، ليطلب صفح بيرينيس عن هذا الاعتراف الخاطيء المُجدّف في مثل هذه اللحظة. نظر الى القناع، وكأنه يراه لأول مرة، لأول مرة على الإطلاق، بقلق، بقلق متزايد. وشكّ فيما يفكر فيه. هذا الوجه... كانت تتملكه صورة بيرينيس الى حدّ كان يراها معه في كل مكان. كان الأمر بسيطاً. هاتان العينان المغمضتان... أجل، الأمر جليّ، جاء الالتباس من هنا، من تسلّط وجه بيرينيس المغمض العينين عليه، في ذلك المساء، في حانة «لولي»، لكن هناك شيئاً آخر أيضاً: بنية الجبين، الوجنتان...

ألا تريد أن تتعشّى معي؟ تأخّر الوقت...

انترعه صوت «ارماندين» من هذه الممائلة المذهلة، التي لم تُلاحظ قط، والتي لعلها غير واقعية. كان ينبغي أن يتعشّى معها، كانت وحيدة، في باريس، ومُتعبة، ولم يستطع أن يوضّ نفسه على هذا الواجب، وفي قلبه مافيه. فقال
«لا، اعذريني... فأنا على موعد...»

لم يشقّ عليها تصديقهُ، بعدما علمته. فارتدت ملابسها «إذن، سأمضي،
فقد تجاوزت الساعة الثامنة... سأمّر على «بولين»... ليتني أتصل بالهاتف؟
كانت بولين هناك. بالتأكيد، بالتأكيد. سيُضاف مدعوٌّ الى المائدة.
قالت «ارماندين» وهي على عتبة الباب وقد مدّت خدّها الشاحب لأخيها
- حسنٌ أن تكون لنا صديقتنا!
لم يعلّق على هذه الجملة. وما ان انصرفت، حتى قرّب كرسياً من
الجدار، وصعد عليها، وفكّ القناع، وأمسكه بكلتا يديه، وجلس قرب النار، في
ظلال اللهب المتراقصة، ونظر طويلاً الى هذا الوجه الجصّي بابتسامته المحفوفة
بالأسرار من وراء العذوبة... وقال:
«بيرينيس»... ومن جديد أقبل على طريق «قيصرية».



انتشله من حلم بقطته جرسُ الهاتف. كان باربنان، طلب من اوريليان أن يصحب هؤلاء النسوة الى كازينو باريس، حجزَ المقصورة، ثم كان عليه في آخر دقيقة أن يذهب الى مكان آخر، وإذا لم يكن «ليرتيلوا» حرّاً، فإن بيرينيس وبلانشيت لن تذهبا، لأن امرأتين وحدهما...

لكن اوريليان كان حرّاً، بلى، بلى، ويُسعدني ذلك، كم الساعة؟ أنا قادمٌ، ريثما ألبس.

قال ادمون أشكرك، يا صاحبي... كان سيُزعجني أن أفسد عليهم سهرتهم... آه! لا تأخذ برغوثك^(١).. سأترك لك سيارة «ويسنر» الكبيرة والسائق. عجلْ فلن يلبث العرضُ أن يبدأ.

ردّ اوريليان السّماعَة، في سرعة محمومة، واندفع الى الخزّانة، وسحب منها ثيابه، هل حلق ذقنه؟ أجل... لس لديه الوقت الكافي ليفعل أفضل من ذلك. ولا وقت لديه للعشاء أيضاً، ليكنْ، ليكنْ! وبينما كان يضع غلّ السهرة، -مرزجة تلك الياقات- ظل ينظر الى القناع الأبيض المبطوح على الأريكة، على غطاؤها الأسمر، كان يتكلم همساً مخاطباً ذاته. كان يستعجل نفسه، ويهذي قليلاً. في هذه الأثناء، وقعت مشادةٌ حادةٌ بين ادمون وبلانشيت. قال «كيف، ماذا أسمع؟ أتُسيّئنا؟

- ليست هذه هي الكلمة المناسبة... سيكون معك فارس...

- اوريليان، أليس كذلك؟ عند الظهر، كنا متّفقين. وقد تغدّى «اوريليان»

هنا... فلم نقل له شيئاً... لأسألك الى أين تذهب... لكن في النهاية!

- سألتني مع ذلك، هذا السؤال، أليس كذلك؟ كنتُ أظنّ أن بيننا اتفاقاً؟

أنا حرٌّ، وأنت حرّة... بالكلام، طبعاً بالفعل...

- لستُ أسألك عن شيء، ولا أُرغب في الذهاب الى المسرح دونك.

(١) أي سيارتك الصغيرة. المترجم

- مهلاً... حتى أشعر أنني جالداً ألا تخجلين؟ أنتسين بيريبس التي لن تبقى في باريس إلا بعض الوقت، والتي ابهجت بالذهاب الى الكازينو...
- رأسي يوجعني، ولا أحسّ أسي بحالة حسنة، فلتذهبْ دوني!
- دَعكِ، أنت تعلمين علم اليقين أنها لن تذهب... لأحب كثيراً أن نصاب بالتوكل على الطلب...

- أنت لا ترحم...
- لاعلاقة للرحمة بذلك... إن كان ذلك يمكنه أن يهدئ صداعك، فعليّ أن أعمل مع «ادريان»... في قضية البنزين، ومراكز التوزيع، وأن نعدّ ذلك قبل اجتماع اتحاد الشركات...
- لأصدقك...

- لأطلب إليك أن تصدّقيني... وإذا سرّك أن تحلي رأسك بالقلوب ففكّري أنني ذاهب لألقى عشيقتي المولّهة وكفّي عن الكلام على ذلك... لكن فيما يصل بيرينيس، أنت حرمينها من لذة...
- اوها بيرينيس، دائماً بيرينيس...

- ليس هذا مسيحياً جداً من جانبك، يا عزيزتي... لكنك إذا أصررت، مع أن ذلك غير لائق، فسوف أقنعها بأن تذهب وحدها مع اوريليان...
هتفت بلانشيت

- لا، لا، سأذهب، سأذهب... بما أنك تطلب ذلك!
نظر إليها باستغراب، وقال ببطء ملحّ
- إني أسألك أيننا نحن الاثنين يكذب الكذب الأسوأ...
- ماذا تقصد؟
- لاسي...

دخلت بيريبس، ورأت أنهما خاصما. كانت ترتدي فستان السهرة الذي أبتْ بلانشيت أن تدعها ثلبسه لتذهب الى منزل السيدة «دي بيرسيغال» غلالة سوداء على الفستان الحريري الضيق البيج، والذراعان عاريتان، لكنه لس

مقورراً البتة، كان مظهره ريفياً، لفتاة ريفية، وقد جهدت بيرينيس في اصلاحه بإضافة وردة ذهبية كبيرة على الكتف، وردة بشعة جداً، لكنها كانت تناسبه كثيراً، كانت ناجحةً نجاح مالميس معقولاً نجاحه. لم تجدها بلانشيت في مصلحتها، وخافت أن تبتهج بذلك فقالت ها إن «ادمون» يخل بالتزامه معنا...

- اوه! والمسرح؟

خرج ذلك من قلبها، وضمت يديها، فأخذ ادمون يضحك.

قالت بلانشيت:

- سيحضر السيد ليرتيلوا وسينوب عنه...

- السيد ليرتيلوا؟

مسكينة بيرينيس فما أقل ماتستطيع أن تكتم! لقد استنارت، وفجأة أزهر فيها شيء ما، وكان ذلك باهراً جداً حتى إن بلانشيت فكرت «بعد كل شيء، ليس هذا الفستان بشعاً الى ذلك الحد»... نظر ادمون الى المرأتين محاولاً استشفاف مايجري في نفسيهما، في هذه الدقيقة بالذات، وأوضح سأعود متأخراً... اذا طاب لكما فسيأخذكما «اوريليان» الى مكان ما عند الخروج من المسرح... فهذا يروق له... إن من يسير في اليوم مثله... لاينشغل بالكما علي...

شاهدت بيرينيس فجأة انفعال بلانشيت، أخذت يدها بلطف خلسة وقبلتها، كان فيها طفولة، سحر الطفولة الذي يغري. لكن بلانشيت سحبت يدها بجفاف شديد وخاطبت زوجها

- بما أنك تتصرف بنا هكذا، أنت الذي تحب حريتك كثيراً، فسوف نحاول أن نتسلّى... لكني لأظن أنني أستطيع أن أصمد زمناً أطول من زمن العرض المسرحي وبني هذا التوكل...

أبدت بيرينيس قلقها.

- ألسن بخير، ياسة عمي؟

قال ادمون.

- لبس هذا شيئاً ذا بال، سوف يزول ذلك، وأنا أترككما...

راففته «بلانشيت» وقالت له، وهو يأخذ قبّعتَه ومعطفه

- أريد، مع ذلك، أن أعلم، لماذا اخترتَ، يا صاحبي، اوريليان ليصحنا...

- حقاً؟ تودّين حقاً أن تعلمي ذلك؟

- لم نره قط من قبل بمثل هذه الكثرة... تأخذنا الى «لولي» لنراه، وبعد

يوم يتغدّى عندنا، وفي المساء نفسه...

- تعلمين جيداً أن بيرينيس تعجبه...

- بيرينيس لا تثير فيه شعوراً.

- لكن هو، ألا يثير في بيرينيس شعوراً؟ أين عيناك؟

- أنت الذي تخلق المناسبات التي ترمي بكل منهما نحو الآخر...

- بلانشيت، ما هذا الانفعال! لأدري كيف أفهمه... أكرهين ذلك إذن الى

هذا الحد؟ لأي سبب؟

- آه! أنت وحش!

- أنت حرّة، على كل حال. لا، لاتجيبني... لاتكذبي... الى اللقاء.

كان في القبلّة التي طبعها على جبينها من السخرية مالميس هي الكلمات،

ماذا أراد أن يقول؟ أحسّت بلاشيت بالضيق الشديد. ونظرت الى صورتها في

المرآة فرأت نفسها تبعث على الخوف، فتنهّدت «يا الهي! كيف أبدؤ؟»

دُقّ الجرس، لا بدّ أنه اوريليان، فانسلت بينما اتّجه الحاجب الى الباب.

كان لديها مايكفي من الوقت لتغيّر فستانها...



لم يُفلح «أوريليان»، وهو في أعماق المقصورة، خلف المرأتين، أن يتابع جدياً العرض على خشبة المسرح، فالموسيقا والأغاني والبرّات والريش الملون، والراقصات، والديكورات المتغيرة، كل ذلك كان يتربط ترابطاً سيئاً بسبب نقص الانتباه الضروري للمفاصل الاصطناعية في اللوحات، حتى إن «ليرتيلوا» كان كمن يعتقد باستمرار أنه يقلب صفحةً من روايةٍ قرأها. كانت الفوضى فيه على أشدها. فالستار، وأنوار المسرح، والعرشات، وضحك الصالة غير المفهوم، كل ما كان مسرحاً لم يكن يشكل بالنسبة إليه سوى منظر لمشهد مسرحي فيه امرأة هي أعذب لكونها لم تحسن السائق في ملابسها، بذراعيها العاريتين والفتانتين، وكنتها التي عضتها الزهرة الذهبية وكأن حشرة عضتها، والقذال الذي كان الشعر المقصوص يزيد من إحساسه بأن يفعل شيئاً ممنوعاً، والوجه الذي عشتّه لذة العَرَض، والذي كانت بعض الحركات المفاجئة تكشفه له قليلاً. وكان ظلّ بلانشيت الأسود، بشعرها الأشقر الذي علق به بعكس النور شيء من نور بعيد، لا يكاد يُعدّ حضوراً. وكان أوريليان المُبلبل بمجاورة بيرينيس، المُبلبل للغاية، والخجل مثل تلميذ مدرسة، يقول في نفسه «هذه هي...» وهذه «ال هذه هي» كانت تعني ألف شيء لا يُصدق، وأنها هي التي كان يفكر فيها قبل قليل، وهو يتأمل القناع، وأنها أيضاً هي التي طالما انتظرها، دون أن يعلم ذلك، والتي نحوها نشكّت وتقدّمت وتوجّهت جميع أفكاره قبل عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة. هي التي سيقول لها لأول مرة في حياته أحبك، هي التي أحبّها. كان يردّد هذه الكلمات التي تعني وتغطّي وتلخص كل شيء. هي التي أحبّها. كان يرتجف. وتساءل عما أصابه. رجلٌ مثله... شابٌ مثله. أحسّ بما كان يحب أن يفعله ليقف على هذا المنحدر، لينتهي من ذلك قبل أن يبدأ... الأمر بسيط جداً... سهل... كان يعلم أنه ما يزال يستطيع أن يحوّل مجرى أفكاره... ما يزال سيّد نفسه... وعمّا قريب لن يظل سيّد نفسه... كان يتابع النور على ذراعي بيرينيس. تغيّرت الإضاءة. غدت سيّالةً مثل نور القمر. وكانت نور القمر. كان بوسع

«اوريليان» أن يغير الإضاءة، كان ذلك بوسعه... ولم يرد ذلك. كان كل شيء يتسارع، وما أطول الدرب الذي قطعه منذ تلك اللحظة، قبل هنيهة، عندما باحت شفاته، وهو يحدث «أرماندين» بذلك الاعتراف دون أن يزنه! هذه المرأة الساكنة، العربية، القريبة جداً والبعيدة جداً، هذا الخيال الذي لم يَأْلُفه بعد، هذا الكائن الذي لا يكاد يكون حياً بالنسبة إليه، هذه المرأة لم يتعرفها، لم يتعرفها البتة. ليس به نحوها انجذاب كبير، كان النوار في مكان آخر. وإذا كان يشنهي مع ذلك أن يطوقها بذراعيه، أن يضمها إليه، أن يطبق بذراعيه عليها، فإن ذلك لم يكن كما هي الحال مع النساء الأخريات، الحاجة الى الأخذ، تلك الوحشية التي تدفع الى أن يعض، أن يخنق، لا. بل كان كالجوع، الجوع السلبي، كان نقصاً شرساً، كان يأساً. ولو أخذها بين ذراعيه -هكذا كان يفكر- على الأقل -فلربما هدأت تلك النيران، ولربما انتهت هذه اللواقعية، هذا الضيق، وردد على نفسه أنه ما يزال في الوقت متسع ليطمأن نفسه، وعلم في اللحظة نفسها أن الأمر غير ذلك، فخاف. وأحس بنفسه يسقط، وتلاقت في رأسه أفكار أولية حاول أن يميز فيها المبادئ الفيزيائية لسقوط الأجسام، ومعدل تسارع سقوط الأجسام، كما ينالقي الطحلب حول عيني الغريق، وقال في نفسه «العرقي أيضاً، لا أستطيع التخلص من العرقي الآن». وامتزجت بهواجسه الموسيقا العاطفية لأغنية السين، القناع الأبيض، ظلال المياه الخضراء على وجهه في غطسته وصوت القوارب الماضية على النهر، وأحس أنه قرب كرسيه من كرسي بيرينيس على نحو غير محسوس لاشعوري. وانحنى بين المرأتين ليرى العرض الذي لم يكن ينظر إليه. كان العرض يقدم الآن مجموعة، فيها نساء عاريات أو شبه عاريات، وهز هزة السيقان الطويلة الجميلة على هالات بيضاء من الريش، وثياب سوداء تنزلق... كانت ذراع اوريليان تحط على مسند كرسي بيرينيس، واليد تستند الى حاجز المقصورة واستم عطراً خفيفاً من الكلا المقطوع آتياً من الشعر المجاور. كان هذا الظل الذي يدعوه حبه على نحو غير محسوس يتحرك، كان له تنفسه وقلبه ونفسه، وقد انحبس نفس اوريليان، وخفق قلبه، واضطرب تنفسه... وفجأة شعر أنه لم ينصرف وحده عن متابعة العرض، وأدار رأسه فرأى بلانشيت ينظر إليه.

كانت بلانشيت تلاحظ اوريليان منذ لحظة ليست بالقصيرة. لقد علمت منذ كلمة «ادمون» الأولى أي عذاب كانت تذهب اليه وهي تقبل سهرة الثلاثة هذه، وعبثاً نظاهرت بأنها لم تصدّقه. كانت تتقاسمها عواطف مناقضة، ولم تحكّم عقلها للتملّص منها، وكانت شكوك زوجها قميئة بأن تفقدها رشدها. قالت في نفسها، بلمح البرق، ان كل رفض يحدّدها بوضوح. ففي كل مرة يكون الموضوع قضاء سهرة مع اوريليان، أو لقاءه، كانت مخاوفها التي لاتفسر لها واضحة بالنسبة لأدمون. وهي الآن تعترف بعلة هذا الخوف، على أنها ذنب، الخوف الذي يغطّي رغبتها غير المعلنة في قضاء بضع ساعات مع ليرتيلو ولو تألمت من ذلك، ولو منح انتباهه كله لغيرها، ولو تجاهل حضورها. وإذا كانت قد ظلت تتردد فإن تصوّرها أن اوريليان قد يبقى هو وبيرينيس منفردين قد حملها فجأة على الذهاب. وكانت تعلم جيداً أن اللياقة لادخل لها في ذلك. وكم حُمّت لتتجمل، وقد تمرّقت لعلمها أنها كانت في المكتبة دونها! وارتدت فستانها الأسود، نون حليّ تقريباً. وهكذا كانت واثقة من أن الناس الذين سيتطلّعون إليهم سيحسبون بيرينيس وصيفة برفقتها، ونزعت الحلق المدور من على أذنيها، وأبرزت قذالها، ولقّت ضفائرها حول رأسها التي كانت ترتبها أحبائاً فتجتذب النظرات لأن هذه الزينة كانت تتعذّر على معظم النساء. ولم ترها بيرينيس قط هكذا، وعندما دخلت بلانشيت المكتبة كانت بيرينيس لا اوريليان هي التي هتفت متعجبة «اوّه! لقد غيّرت زينة رأسها!» بالفرح الطفولي الذي ينفجر أمام فستان جديد، ومطعم لم يكن معروفاً، والأثاث الذي غيّر مكانه في الغرفة.

وأنى لها أن تفتدي، في المسرح، بتبدل الأنوار وحركات الأجسام وعزف الموسيقى الطائشة، وهي تُفارق من وحدتها ليس غير؟ وفي نور المقصورة الضعيف استردت بيرينيس المزية التي كان قد سلبها إياها فستانها السيء

الصنع. اوريليان.... ومن المستحيل ألا تكون قد رأته أنه كان أصمّ أعمّ عن كلّ ما ليس بيرينيس. لقد أرادت بلاستيت، حتى هذه اللحظة أن تزعم، معارضةً بذلك قلقها العميق، أن انجذاب «ليرتيلوا» نحو ابنة العم الصغيرة كان نزوة من نزوات ادمون، وقد توصلت الى هذا الزعم من أجل نفسها ومن أجل ادمون على حد سواء. لكنها كانت تعلم، أنها ستتألم، في هذا المساء، ولم تكن تعلم أنها ستتألم الى هذا الحد. وأخذت تحاول أن تصرّف هذا الألم بآلم آخر، ادمون، كان ينبغي لها أن تطرد تلك الرؤى الخارقة وأحلام اليقظة التي لاقوام لها، لم تكن يحب سوى ادمون، لم تحب قط سواه، يا الهي، يا الهي، عندما كان عليّ أن أبتزعه من «كارلوتا» قدّم لها الماضي ذكريات غيرتها ويأسها العظيمين جداً حتى أن التجربة التي ستمر بها هذا المساء لاتعدّ في الحقيقة شيئاً يجنبهما...، والتي ستخرج منها وقد شفيت من وهما... وعادت كلياً الى ادمون، الى ادمون هذا الشرير الذي يصعب الاحتفاظ به كما يصعب الفوز بقلبه، ادمون، أين كان يقضي سهره؟ لقد كذب، لم تصدق ولو للحظة واحدة حكاية عمله مع ادريان وكأنها عظمة تقضمها، لقد كذب، لماذا؟ لم تكن تسأله عن شيء، ولقد صرّح لها مراراً بالحقيقة، بالحقيقة الموجهة، دون أن تطلب ذلك منه، وبقسوة فظيعة كان يضيفها إليها، قسوة كانت تكرهها وتعبدتها منه... وإذن فلماذا يكذب في هذا المساء بالذات؟ لعل ذلك لكي يعذبها عذاباً أكبر بالشك... كان ينتقم، ما أعظم عطنته! أدرك ما لا يدرك، ما لم تجرؤ هي نفسها على الاعتراف به، وكان ينتقم... أين كان؟ وماذا كان يفعل؟ وهل ثمة شيء عظيم الخطر اضطره الى الكذب؟ وهل أفلت منها حقاً؟ وفكرت في أولادها، يا الهي، ليكون ذلك حلماً مزعجاً، فأستيقظ ولا يبقى شيء من الحلم، مضت اللعبة بعيداً، تجاوزت المصيبة، مصيبتها نفسها التي لعلها ضرورية من أجل سعادة ادمون، فهناك الأولاد، هناك الأولاد، وبينما كانت منصرفة عن «باليه» الأزهار هذا الذي غدت فيه الألوان والفرح ودوران الراقصين على أنفسهم، الذي غدا فيه كل ذلك غير مُحتمل، رأت التعبير على وجه اوريليان، فذهلت، اوه! هذا أسوأ ممّا عانتته قبلاً

إنه يحبها . إنه يحبها . ذاب الألمان أحدهما في الآخر ، واستمدَّ كلُّ منهما من الآخر شدةً لا تُحتمل . تستطيع المرأة المزدراة الآن بلا معصية أن تنظر الى «اوريليان» إذ أن ماتبكيه بغير دموع كان ادمون مثلما كان «اوريليان» .

عندما فاجأ اوريليان نظرة بلانشيت خشيت أن يقرأ فيها ماقرأه ادمون . ولحسن حظها كان الظل يُخفي تلهب أفكارها . لم تكن بالنسبة الى هذا الرجل سوى الشبح الأنيق لذلك العالم الراقى . لم تكن سوى شخص ثالث ، لم يكن لها قلب ولا جسد . كانت المستوى الأمامي لتلك اللوحة التي كانت بيرينيس صورتها المركزية ، ومهادها تلك الموسيقى وأولئك البهلوانيون الهزليون الذين كانت الموسيقى تصاحبهم . لوت «بلانشيت» عينيها العديمتي الجدوى اللتين صعدت إليهما لأول مرة العبرات الأولى . وتشوش كلُّ شيء .

علم «اوريليان» في الحال أن لاخوف عليه من هذا الشاهد ، وعلم أنها ستتظاهر بمتابعة العرض . وقد قُدِّر لها أن تفهم بغموض ما كانت بيرينيس تجهله حتى الآن . لكن أكانت تجهل ذلك؟ ما من كلمة بينهما ، حتى عندما كانا منفردين قبل قليل في المكتبة ، لم يلمح الى تلك الدقائق ، في تلك الليلة التي أمسك ، فيها يدها في يده ... وتأكّد من أن بلانشيت المهزومة لم تعد تنظر إليه ، فقرّب يده برفق من ذراع «بيرينيس» العارية . كان كلُّ شيء فيه مستيقظاً . كان يحسُّ بكل نقطة من كيانه . سيلمس تلك الذراع ، سيتجرأ على ذلك . هذه الجراءة يمكن أن تدمر كلُّ شيء . وفكّر في سحب يده . ولم يسحبها ، لأنه لايجوز أن يكون جبائلاً . في هذه المقصورة في باريس حيث كان يجري كل شيء ، على نحو مبتذل ، بين رجل وامرأة ، تعرّف ، في نهاية الأمر ، ذلك الشعور الذي جعل قلبه يخفق . رأى نفسه هكذا ، في الليل ، في مركز صغير في «أرغون» ، خلف الأشجار المكسرة ... تناولت راحة يده ذراع «بيرينيس» ، وشدت عليها برفق ، فأجابته رعشة . الدهشة . وعلم أن ضمته إن تراخت فقد ضاع كلُّ شيء ، وستتخلّص الذراع . وزأق يده كأنها تقصد المداعبة وجبست المرفق . انتظر . هدأت الرعشة . وظلت الذراع جامدة جموداً مذهلاً . كان شعمر بيرينيس يمسّ ، يلامس وجه

اوريليان، آه! في هذه الدقيقة كانت له، مثل عصفور مسحور، كان كل شيء يمكنه أن يُبطل المعجزة، واستمرت المعجزة.

حينئذٍ كان ينبغي أن يقول لها: أحبك، حينئذٍ، لكن «اوريليان» ما كان بوسعه أن يفعل ذلك، كان يخاف الكلمات المهموسة، ولاسيما تلك الكلمات البالغة الجدة والصعوبة، كانت خاتمة الجزء الأول باهرة على المسرح، عاد النجوم إلى ما بين الراقصات، والراقصون بسترهم القصيرة، والفساتين المبرقة... وكانت الاوركستر ترسل قبلات رنانة، وتجرّ على نحو متسارع الممثلين وهم يضطربون ويتبارون في تكرار حركاتهم المتناظرة، مصالين بين أذرعهم، صادمين ركبهم بعضها ببعض على نحو إيقاعي، أوتك النور أن يعود، أحبك... لقد فكّر فيها تفكيراً فقط.

حركت «بيرينيس» كتفها تلك الحركة التي غالباً ما كانت تبدو بها كأنها تحاول التقاط شالها الذي يريد أن يسقط، وأمسكت يدها خلسة بيد اوريليان برفق شديد ورفعتها عن مرفقها، كما لو كانت ترفع ورقة عالقة أثناء عبورها غانة.

كان المتشاهدون ينهضون، عند إسدال الستار، ويتجهون نحو مجمع المسرح، ومن وسط الاوركستر أخذ ناس يومئون.

قالت بيرينيس من هؤلاء، إنهم يومئون إلينا، على ما أعتقد... كانت بلانشيت تبتسم، تحيي، بالفعل، كان ذلك من العقيد والسيدة دافيد. جاء إلى جانب المقصورة، وخفّف حديثهم من وطأة هذه الاستراحة التي خاف منها «ليرتيلوا». وكان ينظر، وهو يتكلم بشروء، إلى الجهة الأخرى، إلى تدفق الناس الذين اجتذبهم «الحاز» في مجمع المسرح. وفي الردهة، لمح فجأة شخصاً مألوفاً، كاد يهتف، فتمالك نفسه، ولم تشهد رفيقته شيئاً، لم يخامر الشك، كان «باربنتان» بعينه، متستراً على كل حال، وناظراً إلى هذه الجهة، مامعني هذا؟ «باربنتان» الذي كان يجب أن يكون... لو كان قد تخلّص من عمله لوجب أن ينضم إليهم، ثم إنه كان هنا في الردهة، يترصدهم، أو يبدو عليه ذلك.

تظاهر «اوريليان» أنه يتابع الحديث. رأى العقيد العرض ممتازاً، لكن السيدة دافيد قالت إننا لانستطيع أن نسمي ذلك عرضاً، إنه معمول للأجانب، فليس فيه كلام، ولا مقطعٌ مسلٌ (أتذكرون «ريب» قبل الحرب)... هذا من عالم السحر... ولاشيء غير ذلك.

قال العقيد: وفي عالم السحر مايسراً

قالت السيدة «دافيد» مغتاضةً. «أوه! أنت، ياعزيزي!» وأوضحت للسيد «ليرتيلوا» «الكولونيل... ما ان توجد السيقان!».

كان اوريليان يبتسم. كان يفتش بعينه، خلسةً، عن باربنتان. لم يعثر عليه. وكانت الردهة شبه خالية، قال «اعذروني، سأشتري تبغاً... لا شكراً، سيدي العقيد، أفضل «الغولواز»... أنا انتهز أن هؤلاء النسوة لسن وحدهن».

لم يعثر على ادمون في أي مكان، لا في الردهة، ولا في المجمع، ولا في مدخل المسرح، بعد اجتياز الأبواب الزجاجية، ولابين المدخنين، ولا في ضوضاء المشاهدين، ولا بين الطاولات حيث كان يتناول المشروبات أمريكيو الجنوب، وانكليز، وسكندنافيون، ولا بين جمهور الأماكن الرخيصة الذي نزل، ولا بين النساء. وعاد الى المقصورة وهو يقول في نفسه إن باربنتان ربما قصدها. كلا. هل انصرف. محتمل. تردد، ونظر الى بلانشيت، الأفضل ألا يتكلم عن ذلك. وإذا كان مخطئاً؟ عاد العقيد والسيدة الى مكانيهما.

أمرت بلانشيت يدها على جبينها، وتنهدت، وتحركت قليلاً، وكانت لم تقرر أن تقول شيئاً ما، ثم قالت: «اعذرني اوريليان، لستُ معافاةً... لا، لا تصحبنى!»

هتفت بيرينيس: «تريدان أن تعودني، بلانشيت؟

- أرجوكما، يا صديقي، بيرينيس، لا أريد أن أفسد عليك سهرتك... لن

يغير ذلك من الأمر شيئاً... ماكان يجب أن آتي...

قال اوريليان:

- لكنني سأرافقك.

- لا، لا، أرجوك! لاتستطيع «بيرينيس» أن تبقى وحدها هنا. ومعني
السيارة والسائق. وسأرسلهما لكما... قلت لادمون انني لست معافاة...
لاأستطيع البقاء... يجب... لكني أؤكد لكما...
لم يكن له من حيلة. لقد أرادت أن تنصرف وحدها. وأجبرتهما على
البقاء، بقيا اذن. رافقها «اوريليان» بضع خطوات.
- يُزعجني أن أتركك تذهبين هكذا... كان بوسعنا أن...
- كن لطيفاً، «اوريليان»، وأكمل هذه السهرة... بي صدامٌ شديداً خذ
بيرينيس الى مكانٍ ما بعد العرض. سيسرّها ذلك... فسوف تتحدر الى ريفها...
هذه الجملة الأخيرة غطتُ غيرها بالنسبة الى «ليرتيلوا». بيرينيس على
وتشك الذهاب، العودة الى بيتها، ترك باريس...
عندما استلقتُ بلانشيت على مساند سيارة «الويسنير» أحسّت أنها
توشك أن تبكي. فأطفأت النور الذي أشعله السائق، وقالت «الى البيت!»
حملتها السيارة، وكانت تقدّم للسماء التضحية التي قبلت بها. فلقد عاقبت
نفسها لأنها لم تترك بيرينيس واوريليان وحدهما. وأجبرت نفسها على ذلك.
ياالهي، في مقابل هذا العذاب، هل تعيد إليّ ادمون؟ كانت تساوم الرب، لكنها
لم تعثر لا على سكينه القلب ولا على الأمل. كانت تعرف ادمون أعظم معرفة.
وارتجفت وكانت تعرف أيضاً ظلم السماء.



كان من أثر غياب «بلانشيت» أنه ولّد بين اوريليان وبيرينيس حرجاً غير منظر. لقد زاد حضورها من جرأة اوريليان، وطمأن «بيرينيس» لتحاظ على ذلك السكون الذي كان أشبه بالخضوع، لكنّ عندما وجدا نفسيهما وحيدين، وجنبا إلى جنب الآن، في الصف الأول من المقصورة، بدا لهما كلّ شيء خطيراً جداً، ومغرياً، بحيث ظلّا منفصلين زمناً طويلاً، وكلاهما حَصِرَ من الآخر، وفي الرأس أحلام غير متناسية.

لم تر «بيرينيس» قط «ميسستغيت» والمشاهد الواقعية، المزمار، المنديل الأحمر، جافا، السجّارة، سرقة البغي، المديّة تحت المصباح، وهي مشاهد اكتست في نظرها شاعرية قلما يصل إليها من ليس له نضارتها وجهلها العجيب. لم تشأ بأي حال أن ينصرف ذهنها عنها، وكانت تحسّ، على نحوٍ محموم، عمل التصميم البطيء الذي كان يترصدها في العتمة، قرب جوارها. همس بشيء، فالتفتت وأصبعها على فمها قائلةً صه! وتهاكت يداها على معصمي اوريليان، قبل أن يتحرك، وثبتتاها، مثل رباطين من الأزهار. وأدارت رأسها وهي تمسك بهما. في هذه الأصفاد المرتجفة، حاول السجين عبثاً أن يعبر عن الحنان الذي اجتاحه فجأة، فتباعدت عنه، الماكرة، وشعر أنها منصرفة بكليتها إلى العرض، إلى نزهة ذلك النجم على مقدمة المسرح.

قالت بيرينيس.

- إنها خارقة للعادة.

- من؟

- مستغيت...

أحسّ بالسخرية في التبديل بين مواضع الكلمات. أراد أن يقول لها. أحبك، وهامي تحدّثه عن مستغيت، وكما ثبتت معصميه بيديها الصغيرتين، فكذلك أوقفت كلمات اوريليان الطالعة بكلمات لا قوة فيها، لكن فيها سحر

صوتها، فكّر. ومع ذلك، فإن هذا المنع كان قبولاً لفعل، لتسروع بدأ منه إليها، دون كلام، بحركات المنتصر. وحار فيما يقول أو يفعل، فهو لم يشعر قط بأنه أعزل أمام المرأة كشعوره الآن أمام هذه المرأة التي هي الضعف كله... هل حبست بين يديها -ذلك شيء أكثر من الإمساك باليدين- يدي رجل آخر؟ وأي رجل؟ لم يكن يعرف شيئاً عنها، مجهولة، المجهولة، الى أي حد لم يكن يعرف شيئاً عنها، كانت محفوفة بالأسرار كالبراءة، لكن لعلها انصاعت للآخرين مرة، ولم تختزع هذه المقاومة إلا معه، أو أن ذلك كان المرحلة التقليدية التي تفرضها قبل أن تسمح بما هو أكثر قليلاً... لم يشأ أن يفكر في ذلك، ولو فكر في ذلك لانهزم... كان يتألم من ألف غيرة، وهو لا يستطيع مع ذلك أن يتخبط هنا، في مقصوده... كان حساساً لما يضحك الى ما لا نهاية.

كان الوقت يمرّ، يُفَلت منه، فات الأوان، وعندما يحرّر يديه الآن، ويستأنف هجومه الأخرق... لن يبقى في الوقت متّسع، يوشك العرض أن ينتهي، وعليه أن ينهض على الفور، ويرتدي ملابسه، ويخرج، وإذن فقد ظلّ بلا حراك، تحت رحمتها، في دائرة الأصابع الوانئة، كان يرى نهدي بيرينيس يرفعهما التنفّس، وحيوية العرض على وجنتيها، كان شبيهاً بعاشق ابن خمس عشرة سنة، لم يحس قط وهو قرب امرأة بنفسه بعيداً عن تصوّرات اللذات كما أحسّ بها الآن. ما كان ليعرف كيف يقبلها، وليتصوّرها ملاصقة له، الوردية على الفستان، الفستان... كلّ شيء كان يستوقف «أوريليان»، حياءً قلماً يُصدّق. ودائماً عطر الكلا المحصود، وهو عطر أت من «بيرينيس» وهو يلخصها، وهو ينفذ اليه من بيرينيس.

وهي، فيم كانت تفكّر، المجهولة؟ من كان يوسعه أن يعرف ذلك، أن يحزره؟ كان يمّنّي نفسه بأنها اضطربت. لقد أحسّ أنها ارتعشت ارتعاشاً خفيفاً، ارتعشت يدا بيرينيس ارتعاشاً خفيفاً فوق يديه هو. وتركها المقصورة، وهما في فوضى تامة فرضها عليهما الصمت، أو الجمل القصيرة على الأقل، والمفيدة لذلك، لكنها قصيرة دائماً. ومع انصراف الجمهور، عادت إليه قليلاً ثقته بنفسه، فسألها. أين تريدان أن تذهبي، في هذه الساعة، الى «لولي»...

قالت.

- اوها! لا، يجب أن أعود... بلانشيت...
- بلانشيت لا تحتاج إليك، قالت ذلك هي نفسها.
- نعم، لكن السائق... تصور... الوقت متأخر...
- هذه مهنته، وهو متعود... ثم اذا شئت، أستطيع أن أصرفه، وسأخذ
سيارة أجرة...

- لا، لا... ماذا سيظن؟ سأعود...
- أرجوك... امنحيني بعض اللحظات...
- لكنني أؤكد لك أن الأفضل أن...
- أتعلمين أنني لم أتعش، وأن بي جوعاً ضارياً؟ فاصحبيني ولا تتركيني
أتعشى وحدي..

ضعفت، لكنها لن تبقى حينئذ سوى مدة العشاء بالضبط، ثم ستعود.
وأيّن يدهبان؟ كان «أوريليان» يعرف مكاناً أبعد...
أفضلين المكان الصاخب أو المكان الهادئ؟... الهادئ، الهادئ، من
غير شك نعم، وإذن فلنذهب إلى المكان الذي ذكرته...

كانت تنتظرهم في الخارج مفاجأة: كانت الأرض بيضاء، والثلج
يتساقط، الشوارع الصاعدة إلى مونمارتر محصورة، والثلج يسبغ عليها
الصمت والضياء الكاذب، وفيها يغيب الخارجون من المسرح مثل حلم الجنّيات
المخيف، كانت السيارات الخاصة والعامة تجري، وأحاط جمهور بالسيارات
التي صعدت إليها كالمملكة «مستغيت»^(١) التي كانت تضحك بشدة والتي كان
يصحبها شاب أسمر.

لقيا شيئاً من العناء للعثور على السائق، أعطاه أوريليان «العنوان»، كان
المكان قريباً، لكن كان لابد من الدوران نحو أعلى شارع «بلانش»، ومن اتّباع
تدفّق السيارات للانحدار من ساحة «بيغال»، إلى تلك الواحة من النور، نصف

(١) ممثلة فرنسية ماتت سنة ١٩٥٦.

الخالية، والمؤلفة من غرفتين إحداهما تحت الأخرى، فلا هي بالمقهى، ولا هي بالصالنة، وإنما هي ضربٌ من ملجأ على هامش المراقص والصالنات، يؤمه المحترفون الذين يأتون ليتناولوا لقمةً في الاستراحة بين مشهدين من عرضٍ في غير هذا المكان، والعشاق الذين يتهايمسون وأيديهم متشابكة، بينما يعزف عازف بيانٍ إنكليزي أنغاماً مترابطة مثل ساعات الليل، وكان فيه مقاعد بالية من الجلد، وأوانٍ هزيلة للأزهار. فكأننا في لندن.

- هل تحبين أن تتناولى شيئاً معي؟

نظرت بيرينيس الى قائمة الطعام وهي مترددة. ورأت أن مابدا لها مذهلاً وغير معتاد ينبغي أن يكون عادة هذا العالم الذي يُحيط بها. ولم تجرؤ على طلب B.B.B^(١) و B.B.B. فالبيض المخفوق على الخبز المحمص يحتوي على خطرٍ. أقل. أما أوريليان فسيتناول شواء البقر مع الجعة الثقيلة. ولم تذق قط هي هذا النوع من الجعة. فغطت شفيتها في كأسه، في هذا الحبر الراغي. وبدا لها ذلك غريباً وكريهاً، لكنها طلبت شيئاً منه.

كان حقاً جائعاً ذلك الجوع الضاري. فاقبل على الطعام. لم تشأ بيرينيس أن تجلس بجانبه. وكانت تنتظر إليه من فوق الطاولة، وعلى وجهها تلك الابتسامة التي لم يرها قط، ابتسامة القناع، الشبيهة بنهاية قصة طويلة. طلب شيئاً من «الكاتشاب». إنها لم تسم قط مربى البنورة بهذا الاسم. كانا يتحاشيان معاً الكلمات المتوقعة، الكلمات غير المفيدة. وكانا يعلمان كلاهما ماكان يضطرب بينهما دون أن يحتاجا الى التعبير عنه. لم يقل شيئاً، وقيل كل شيء، قيل الوضع وتوطد.

كان يأكل، وينظر الى شوائه، ويقطعه. وإليها توجه بالكلام في نهاية الأمر: «عندما تذهبين فماذا سيحل بي؟»

فهمته فهماً تاماً. لكنها أغمضت عينيها، وحينئذٍ، ولأنها شحبت، بدا الشبه في ذروته. ماكان يمكن للصمت أن يدوم. الاضطراب، وانفتحت العينان مثل نافذتين على ليل أعمق، وهمس الصوت الأخاذ، الدافئ والمرتعّد، وهي تحاول أن تبش: «حسنًا... ستذهب بتعقل لتنام، على ما أظن؟»

(١) أول أحرف الطعام بالانكليزية. المترجم

قال:

- لا، عندما تذهبين حقاً... لا هذه الليلة... عندما تتركين باريس، عمّا

قريب، فيما يبدو...

أجابت:

- لا تكلمني في ذلك، فسوف يحزنني ذلك... وأنا جد سعيدة، هذا المساء

- أهو كذلك حقاً؟

أجابت «نعم» برأسها، وقد اتسعت عيناها. أراد أن يسألها إن كان له يد في هذه السعادة، فلم يستطع. كانت سعادته هشة للغاية، وكان مستعداً لأن يحميها بهذه الجملة الملتبسة:

- لكنني مع ذلك... بحاجة إلى أن أعلم... هل ستسافرين؟

- في مدى ثمانية أيام أو عشرة...

- شرب جرعة كبيرة من الجعة، ومسح شفتيه بالمنشفة الورقية.

- عشرة أيام... دقيقة... وتصوري ذلك الوقت الضائع... لم أضعنا كل

ذلك الوقت؟

- ترددت قبل أن تجيب. وأحسّت جيداً أن قبولها الجواب يعني قبول كل شيء، قبول ما لاسبيل إلى إصلاحه. رفعت إليه ماستيها السوداوين، وقالت: «لم نُضعه». وخطت يدها اليمنى على يد أوريليان اليسرى، فوق الطاولة. فارتعش، وصمتا. وتذوقا هذه اللحظة المبتذلة كالقليل من الأشياء في حياتهما. وأخيراً همس أوريليان أولاً:

- ماكنتُ أعلم، يا بيرينيس... أنفقتُ كثيراً من الوقت لأعلم...

كان ذلك اعتذاراً. ولم تسأل ما الذي أنفق الوقت ليعلمه. كانت تعلمه. وهاهي قد أعطته الحق لأن يدعوها «بيرينيس». واستأنف «لأول مرة في حياتي»...

كانت هذه الكلمات أقوى من أن تتحملها فارتجفت شفاتها وأبانت عن تلك الأخاديد المرهقة. وظن أنها ستسحب يدها التي كانت مثل ورقة. وقالت «لا

أصدقك». ولم يشعر بالحاجة الى أن يقول. «صدقيني، أرجوك» لأنه يعلم أن ذلك كان يعني «أصدقك». أدار معصمها، ودس يده الكبيرة تحت اليد الواهية وجوف راحتها لتتلقأها كنقطة الماء، وتجاوزت أصابعه الطويلة اليد، وصعدت الى تلك الحبال الناعمة التي ترفع من رهافة الأوردة. فشدد عليها. وأحس بالدم يخفق. وفكر في أنه يلامس موضع الانتحارات المقدس، أزرق كالسمااء، كالحرية. وقال أيضاً.

- لم أشأ أن أصدق ذلك، فقد كان شيئاً جديداً... لا بد أن يكون شيئاً رهيباً بالنسبة الى الأعمى أن يرى النور لأول مرة...

قال النادل.

- وماذا تريد، مع هذا؟

- شستر، وماء الحياة الفاخر، وأنت، بيرينيس؟

- أنا؟ اوه! لاشيء!

- أرجوك... أتحبين الشستر؟ نعم، إذن...

- لكن دون خمر!

- تشربين قليلاً من عندي.

ابتعد النادل.

- بيرينيس، يجب أن تعديني...

كان يسرف في استخدام هذا الحق الجديد، فيلفظ هذا الاسم العذب كلما استطاع. وكرر:

- بيرينيس، يجب أن تعديني بأن تمنحيني وقتك كله أثناء هذه الأيام

العشرة القليلة والعجيبة.

قالت

- يجب ألا ننظر الى أبعد من ذلك.

- أتعديني بذلك؟

ترددت. وفكرت. «هذا غير معقول...» وقالت:

- «أعدك بذلك، اوريليان...».

لم يجد اسمه قط بهذه العذوية، والنقاء، والعممة. وصححت غلطها وهي تتذكر: «لكنني وعدتُ «زامورا» بأن أدعه يرسم صورتي... وعلي أن أذهب غداً»...

- منذ الآن! تستدركين... تتنازعيني على هذه الدقائق، على حياتي...
- أوه! حياتك..

- حياتي!

- أرجوك، وعدته، يسرني أن يرسم صورتي... وستأتي لإحضاري.
- إحضارك؟ أسمحين لي بذلك؟

- أطلبُ إليك ذلك، خذ، معي عنوانه، في محفظتي. أعطني محفظتي.
فتنشت وأخرجت مفكرة صغيرة، هاموس. شارع سيزار فرانك...
- تذهبين الى منزله...

أضحكتها لهجة اللوم هذه.

- أنت غبي. رسّام...

- الرسّام رجل. أتأتين الى منزلي؟

- أنت لست رسّاماً... اختلف الأمر... ثمّ لم لا؟

- تأتين!

وفجأة شحبت من الانفعال، وكأنها تذكرت شيئاً نسيته كلياً منذ لحظة ليست وجيزة...

- لا، اوه، لا!

- لم لا؟

- لأنك أنت... سأذهب الى منزل أي أحد.. لا الى منزلك...

شرب مرارة نصره. هناك بقية العالم، وهناك هو لها، قال.
- ستأتين الى منزلي.

- ربما... نعم... ذات يوم...

- هذا المساء...

قالت «لا» برأسها. ورأى بوضوح أنه كاد يخرب كل شيء. فشدّ على اليد الصغيرة، وطلب صفحها،
وتابعت بيرينيس.
- أولاً ليس منزل «زامورا» الذي في شارع «سيزار فرانك»... بل منزل صديقتي...

- السيدة «غودمان»؟ أعرفها. امرأة جميلة جداً...

- ستأتي لإحضاري في الساعة الخامسة...

- في الساعة الخامسة فقط؟

- طيب، يمكنك أن تبكر قليلاً قبل الخامسة! إنه يريد أن يحاول ضمّ صورتني الى معرضه الذي أعلن عن افتتاحه... أتعلم... إنه افتتاح غير عادي... في منتصف الليل...
- إنني أكره هذا الرجل... ولا أحبّ تصويره... سوف يشوّهك... بأيّ حقّ...

- لا تبدأ بفعل مايفعله الناسُ جميعاً

«مايفعله الناسُ جميعاً»؟ هذه الكلمة تكفي لأن تُفحمه، ونظر بعمق الى هذه المرأة القصيرة أمامه، وبعينين مختلفتين. كيف «مايفعله الناسُ جميعاً»؟ على كل حال، لم تقل له إن هذه هي أول مرة في حياتها... لم تقل له شيئاً على الإطلاق... وهو نفسه، وقد عرف كثيراً من النساء، عالماً أيضاً. وإن «مايفعله الناسُ جميعاً»... لقد بنى لنفسه، دون أن يعلم، بيرينيس، لانتطابق مع هذه الكلمات الأربع الصغيرة التي نفذت إليه، وانتابته رشقة من الغيرة. قال
- أريدُ أن أقتل ماضيك.

- لمَ ذاك؟ لن يكون لديّ شيء أقصّه عليك... أضحيّ به لك...

أوه! كم كان سيدفع من أجل هذه الكلمات، كم كان سيتألم؟ أرخى يد بيرينيس، ورفع يديه الى وجهه، قبالة عينيه اللتين ضغط عليهما بأدنى راحتيه. مستحيلٌ تحمّل هذه الجملة والنور في آن واحد. سمع بيرينيس تقول:

- ستأتي، ستأتي لأخذي من شارع سيزار فرانك؟
أكانت تشك في ذلك؟ ضحك، فدهشت من ضحكه، سأل: «أردت أن
أسألك... قلت قبل قليل... أنك كنت سعيدة هذا المساء؟ فهل... هل يجوز لي أن
أفكر أن لي يداً في هذه السعادة... عفواً... هل تسمحين لي بالتفكير في ذلك؟»،
وهنا جاء نورها في الضحك، وحينئذ رفع عينيه، وبحث عن عينيها، وقال
«أحبك».

تلقت صدمة مزدوجة من الكلمات والنظرة. استندت الى كرسيها، وبدرت
منها تلك الحركة الراحشة في الكتفين، وهي حركة لاحظها مراراً. عبثت، دون أن
تقول شيئاً بحقيبتها المطرزة الزرقاء والذهبية، ذات الورود الكبيرة الوردية.
انضمت يداها على الطاولة، ومزقت الحركة التي أتنا بها قلب «أوريليان» رأى
أنها تدور في اصبعها خاتم الزواج... فقدّر أين ذهبت أفكارها... لم يعد يثق إلا
بتلك الكلمات الثلاث التي لم يلفظها من قبل، والتي تجاوزت شفتيه، وإلا بهذا
الاسم المصنوع من الأسرار والذي أحبه أول ما أحب فيها. فكرر:

- أحبك، يا بيرينيس...

تركت هذا الصدى يمتد، وأخفت يدها اليمنى يدها اليسرى. ونظر
أوريليان الى الحركة المتسارعة لهذا الصدر الفاتن، الصغير، المتير، وقطع
الصمت صوت متغير كلياً.

- يجب أن أذهب الآن... تأخر الوقت... يجب...

- بيرينيس!

- كن عاقلاً، أوريليان... الأفضل أن أذهب، صدّقني... الأفضل...

- لاتذهبي هكذا!

- ولم لا؟ وماذا سنقول الآن، يا صديقي، ماذا سنقول بعد ماقلته قبل

هنيهة؟ كل شيء سيكون ضعيفاً... أرجوك... أعفني...

- أنت لاتصدقيني؟ لم أقل ذلك لأحد،

- دعني أذهب... دعني... أنا بحاجة الى أن أكون وحدي... أن أفكر في

ذلك... أنا بحاجة الى أن أفكر في ذلك طويلاً... دعني أحمل ثروتي...

- بيرينيس'

- لا، لا تُضف شيئاً...

- لم تجيبي...

- لا مجال للجواب...

- أتحبييني؟

نهضت وقالت «سأخذ السيارة، لا، لا ترافقني. لا يمكننا أن نكون معاً في السيارة... الآن... كنْ عاقلاً... يجب ألا نُفسد سهرتنا... لن أنساها أبداً، أبداً... سامحني اذا أجبرتك أن تأخذ سيارة أجرة، في هذا الثلج... سامحني...

لم تشأ أن تنتظر لكي يدفع الحساب، خرج خلفها حاسر الرأس، نظر إليهم الناس وهم يجتازون الغرفة نحو الباب، وعندما أغلق الباب بعدهما، واستقبلا الثلج، وبينهما خادمٌ بمظلة حمراء والصمت والحب، علما لأول مرة أن هذا المشهد قد جرى على مهاد من الموسيقى، مثل نشوة خفيفة، تتبدد وتغدو حينئذ، واعية، على الغناء الكئيب لبيان يُلقي أغنيات كانا يجهلان كلماتها الأجنبية، وكانت تتابع مع ذلك ايقاعَ قلوبهما.

صعدت الى السيارة التي نام فيها السائق، وفي آخر لحظة مالت على «أوريليان» وهمست إليه «شكراً...».



الثلج والليل، الثلج والليل، صعد اوريليان شارع «بيغال» بصورة طبيعية، واسع الخطأ، بطيئاً، وقد رُفعت قبة معطفه، وحناه التفكير قليلاً، وغرقت يداه في جيبه، يسير في شارع بيغال وكأنه يريد أن يرى طلاعاته اللماعة السوداء غارقة في الثلج. كان الشارع خالياً ومظلماً، ولاتعود إليه الحياة إلا في جزئه الأعلى حيث تجرح العتمة لافتاته المضيئة.

لن يعود الى النوم إطلاقاً. لقد أدار ظهره لجزيرة «سان لويس»، واتجه نحو عادات الأمس، نحو آخر جمرات المدينة، حيث سيدفىء سره كما كان يدفىء قديماً وحدته. إنه لا يتصور شيئاً عن المستقبل. ماعدا ذلك الموعد في الساعة الخامسة، في شارع «سيزار فرانك». هذه الأمسية تمحو دفعةً واحدة الماضي بأسره. وماذا أحلت محل ذلك الماضي؟ لاشيء حتى الآن. وكثير منها أنها كانت. الذين لم يأسرهم الحب لن يفهموا اوريليان، بدايته الجديدة، ولعله، ليس في الدنيا شعورٌ أشدَّ حدةً - كالريح في الوجه - من ذلك الانبعاث الآتي من قولنا لامرأة: أحبك. وفي الوقت نفسه، عاد الى اوريليان احترامه لنفسه. لقد برّر حياته وهو شيء أكثر من عذر هذه الحياة. ووجد تسكعه وتردده تفسيراً لهما. كان ينتظر هذه الدقيقة. كان يلزمه علة لوجوده. ولا بد أنه علم في أعماقه أن بيرينيس ستأتي ذات يوم... وجاءت. لم يكن بوسعها حتى الآن أن يوجّه حياته دون مخاطر؛ كان سيرهن حياته دون بيرينيس.

إن عصر اوريليان، في الحقيقة، يمكن أن يُلخص بكلمتين. هناك الحرب، وهناك بيرينيس، وماقيمة هذه السنوات الانتقالية الثلاث! أما الآن فقد غدا رجلاً، له هدفه، أعلى هدف، الحب... أه! ما أغرب رنين هذه الكلمة الجديدة على الثلج! وقال بصوت عال: الحب...

ومن غرائب القدر أن اليوم نفسه صاغ أمام اوريليان التهمة التي حملت إليه دفاعه المظفر. كان بوسعها الآن أن يرد على وساوس نفسه وشكوكه، وعلى

التعبير عن المصادفة التي نسبها إليها «ريكيه» أو «آرماندين». الحب! وهل يُعطاه كلُّ إنسان؟ أليس معظم الناس كما كان «أوريليان» حتى هذا المساء؟ ومن يأتى الحبُّ، الحبُّ العظيمُ، الذي يمتلك ويدمر، فعليه أن يُخلي المكان من كل ما ليس هذا الإعصار، هذا الاستبداد، لقد صنتُ نفسي من أجل بيرينيس، صنتُ نفسي، على نحوٍ غامضٍ، من أجلها. في هذه الليلة يؤيد أوريليان ذاته. كلُّ شيء غدا عنده منطقياً، علامةٌ على حبه. حتى هذا الثلج الذي يعلق بأهدابه.

تردد في ترك الثلج، في التخلي عن بياضه، ومع ذلك، نقض نفسه عند حانة «لولي». سوف يستعيد هنا الليالي الضائعة... يجب أن يُعيد اختراع الأمكنة، أن يتعلّم من جديد... ألم يتراجع عن النوم، لأنه كان يخشى الآليات القديمة لأحلامه، لأنه لايعرف بعد كيف يوفّق بين الأحلام والحب؟ الجمهورُ هنا والنور والدخان وحرارة الرقص السميكة والخمر، كل شيء يُهاجمه كأنه الخيانة. لكن أليس هذا المكان هو الذي أمسك فيه لأول مرة بيد «بيرينيس»... وتستولي «بيرينيس» على حانة «لولي»، وتملؤها وتحول شكلها، ليس هاهنا غيرها، وهي التي يلقاها في هذا القرن، في هذا الجحيم...

من المرقص وافت عاصفة من الجنون. المزامير والشرائط الملونة، والأبواق الصغيرة، والاوركستر المنطلقة من عقالها في الدفوكس تروث المتحرّرة، والناس الذين يصفّقون تصفيقاً ايقاعياً حول رجل ضخم وامرأة قصيرة يقومان بحركات غريبة وسط الراقصين، بخطوات مخترعة، وأشكالٍ من الرقص مضحكة. و«لولي» بذاته، وهو يصرخ «أولي» أكثر من عادته، مرافقاً الإيقاع، منحنيّاً على نفسه، دافعاً خفيةً مديري الخدم. كل ذلك تخدّه الكشافات وسط تنفّس الرواد الحار، وضحك السيدات في ثياب السهرة، والروحات والحيثات الى الحمامات، وبائعي الأزهار، والشمبانيا المطلوبة بصوت عالٍ، ورائحة الشواء الخارجة من المطابخ وسط اصطفاق الأبواب.

قالت سيّدة حجرة الثياب المسرفة الهزال وهي تأخذ معطف «أوريليان»: «الأدري ماذا أصابهم، هم كذلك منذ الساعة الحادية عشرة... لايسمع أحدٌ

أحدا... ليس لدي دقيقة واحدة للقراءة! وعادت الى روايتها بعد أن تبسّمت لليرتيلوا... ذلك أن هذا الرجل الذي يتردد على الحانة يُعجبها، فهو، على الأقل، متميز...

لم يكن في الحانة مكانٌ حتى للارتفاق، فهذا الممرُّ الضيق ممتلئٌ بالواقفين، وبالضحكات والصيحات، والكَلْ يتكلمون الانكليزية. الجوُّ حارٌّ وهو يشبه قليلاً جوَّ «المترو»، مع صخبٍ أشدَّ. «متأسف»، قالها بالانكليزية أمريكي متين البنية، من أقصى الغرب الأمريكي، يداه محملتان بالخواتم والكؤوس، معتدراً لأنه صدم بمرفقه بطنَ أوريليان، وتسقط الخمرُ على فتاة الحانة فتصيح، ويدعوها الآخر فيتّمّ التصالح...

«روجيه!» وملتفت «أوريليان» فإذا بها «سيمون»، وهو يدعى عندها كما يدعى عند «ريكيه» ورجيه، «مازيت» فستانها جديد، لونه هو البدعةُ الشائعة... الأزرق، ولألها زائفة، لعلها من عند بحارٍ ذلك المساء. واستطاعت أن تجثم على منضدة، وحملت جاراها، وهو رجل أصلع على أذنيه شعرٌ، (فكر أوريليان، الشعر سيء التوزيع) أن يغيّر مكانه لتسمح لصديقها - على حدّ قولها - أن يأتي ليحدثها...

- ماذا تتناول؟ هذه المرة، أنا التي تقدّم لك، هذه المرة.

- أنت غنية، إذن؟ ما هذا الفستان، يا عزيزتي!

قال هذا وقد صَفَّر من الإعجاب، سرّت كثيراً لأنه لاحظ الفستان.

- فآخر؟ من أزياء البيوتات الكبيرة... لست أدري... وهو من شارع

كليشي، في ذلك الدكان الذي يحتوي أزياء على شواخص... واذن، فبما أن قامتي مناسبة... مارأيك بالآلىء معه! هذا الفصل، فصل الأناقة فصل الأناقة العظيمة... حتى النساء اللواتي عندهن لآلىء خفيفة استبدلن بها... لآلىء زائفة... أجل! قلّ لي «فريدي» هذا للفد؟ (قالت هذا للنادل) إذن ماذا تتناول؟ سيد كار، كالعادة؟ سيد كار، وكأس شمبانيا، أنا سأدفع...

مأسهل مايدخل أوريليان في هذا الرداء العتيق المهجور! هو وحده يعلم

أنه ليس الرجل ذاته. هو وحده الذي ينتشي من عدم التناسب بين هذا الجو وسرّه هو. وسيدع نفسه تهددها وتحملها، الى وقت متأخر من الليل، تلك الخمرة السوقية، ذلك الدوار البالي الآلي... فرحُ البغاء، فرحُ سيمون التي تروي ليلتها السابقة، الشخص لطيف، لطيف للغاية، وليس متطلباً... إنها تتحدث وهو يحب أن يتحدث، إنها الوحدة الحقيقية التي تتصاعد فيها الأغذية العاطفية العميقة، التي لم تُسمع قط، أغنية بيرينيس... وبجانبه سيدات من «ماساشوزيت» بنظاراتهن الأنفية، وفساتينهن المقورة حتى السرة، وهن يأكلن واقفات سواءً من لحم الخروف مع البطاطا المقلية... وكما أن تمثال كوندياك الذي لم يكن يملك بعد سوى حاسة الشم كان كله رائحة الزهر، فكذلك هو الذي لايشم رائحة البطاطا المقلية، كانت رائحته من الكأ المقطوع ولا شيء غير ذلك... لم يُصَبَّ قط بهلوسةٍ من هذا النوع... وفكر في سراب الصحاري... هنا، في الجمهور عطرُ كماء الوهم البارد... هاجسُ عطرٍ يجعل بيرينيس مهمته.

- «أترافقني هذا المساء؟»

نظر الى سيمون بدهشة. فشرحت حالها:

- «في ذلك المساء كان معي «بوب»، البحار الأمريكي، كما تعلم، ولم أكن مسرورة لأنني رفضت طلبك... نحن، في النهاية، صديقان قديمان... ولا يغتاظ أحدنا من الآخر... لكنني حرّة في هذا المساء، فبعد الحظ الذي كان بالأمس... يحق لي أن أعيش مرة على هواي... مع رفيق... أليس صحيحاً؟ وستدفع عني تمن صدر دجاجة... اوه! في غير هذا المكان! المكان غالٍ هنا، وليس أفضل من غيره... «فريدي» لم يسمعني، أمل ذلك؟... لا، قريباً من هنا، في دكان المعجنات، كما تعلم... إذن، نعم؟...»

تمطى «اوريليان» قليلاً، ونظر الى سيمون، كان منزعجاً لأن يبدو غير رقيق.

- «موافق على الدجاجة... لكن اعدريني... سأذهب لأنام»

- تنام وحدك؟ اوه! هذا غير لطيف!

قبّل يدها: «هذا لا يصح... سأقول لك...

- أَعِنْدَكَ أَحَدٌ؟

- لا... أنا عاشق...

استدارت نحوه وفتحت عينيها مثل صحنين:

- عجيبة! أنت تُدهشني! عاشق، أنت! متى؟

- لا أدري... الساعة الثامنة مساءً.

- آه، حسن، آه، حسن! تلك أخبار غريبة!

أصابها الذهول، واستثارها النبأ.

- العشق حديث إذن... لكن هل أنت واثق، على الأقل؟ نقول لأنفسنا

أحياناً... ثم في اليوم التالي...

أوماً بيده: «لا».

- وإذن فالأمر جدّي...؟ وستتزوج؟ لا؟ الأمر ليس كذلك؟ هي لا تريد؟ من

هذه؟... طيب، طيب، لست مُجبراً على الجواب... «روحيه» عاشق! ماكنتُ

لأصدق ذلك أبداً... لاحظ، أنت على حق... آه! ليعتني أعشق أيضاً... أنا،

انتهيت... كان ذلك من سنتين... من سنتين، لا من ثلاثة أيام... انتهيت الآن...

فكّر في بيرينيس. في أي شيء يُقحمها؟ إنه لا يُقحمها. إنه لا يستطيع أن

يتصرف على نحو آخر. وهو من جهة أخرى لا يَكُنْ أيّ احتقار لهذه المرأة

بجانبه، فهي كائن بشري. ولعلها تعرف حقاً ما الحب... هزّت رأسها

- عاشق «روحيه» عاشق... وعند ذلك ينام وحده... أنت تعلم أن ليس، في

الحقيقة، من علاقة... أنا، عندما كنتُ عاشقة... كنتُ أضاجع رفيقاً لي لأتحدّث

عن ذلك... هل يُحسبُ هذا؟ لكن... الرجال... ربما كانوا مختلفين... أنت سعيد

أم بائس؟

أرسل حركةً مبهمّة. قالت.

- صحيح. لا يمكننا أبداً أن نجيب عن ذلك... هيّا انظرْ خلفك...

استدار. كان «بارينتاتان» هنا، وعلى فمه ابتسامة.

- عفواً... عفواً، سيدتي... ماذا فعلتُ بالمرأتين، يا صاحبي؟ ظننتُ أنني

سألقاهما هنا، معك...

- زوجتك أحسّت أنها ليست على مايرام، فعادت الى البيت...
- آه حقاً! إن كنتَ ترغب فانضمّ إلينا... أنا مع «ديكور» و«روز»...
تفرّغتُ أبكر مما كنتُ أظنّ.. فكُرتُ في اصطحابهما عند الخروج من اوبرا
الشانزليزيه حيث كانت روز تمثل من أجل احتفال خيري... نحن نحتفل
بشركتنا... سأشرح لك ذلك! سيدتي...

- طيّب، سأتي بعد لحظة...
عندما ذهب ادمون، بدتُ سيمون كمن تفكر. ثم قالت:
- آه، حسن... هذا هو الزوج؟ إذن، الأفضل أن تذهب... يمكنه أن
يتوهم....

لأفائدة من ثنيها عن عزمها. وإذن انضمّ اوريليان الى باربنتان وضيقيه.
هتفت «روز» وهي تمدّ يدها ليقبلها، برأسها المردد إلى الخلف كعادتها،
وبالنظرة البعيدة من عينيها القصيرتي النظر، وذقنها الممدودة، وبأسنانها
المكشوفة جميعاً

- أوه! يا عزيزي! أنت مواظبٌ على موقعك؟ لكن من المؤسف أن السيدة
باربنتان قد تركتكما! كنت سأسُّر برؤيتها... بأن أقول لها كم استلطفنا ذلك،
وكم رأيناها أنيقاً... للسيد باربنتان.. لأدمون... أعني أنه لما كانت طاعتك واجبةً،
يا صديقي...

استرعى الدكتور انتباهها
- روز، «ليرتيلوا» غير مطلع على الأمر!
قال ادمون
- سوف نُطلعه. لكنّ ليشرّب أولاً
صُبّت «الايالا». سأل باربنتان وهو ملتفت الى السيدة «ملروز»:
- وكيف كانت «بروكسل»؟

- آه! صحيح، لم نرك منذ ذلك اليوم؟ قال لي «جيكي» كم كنت لطيفاً في
وحدته. أحب هذا... وعندما أتركه ينتابني الندم...

تناول «جيكي» أي الدكتور، من كأس امرأته الأداة التي تُرغي الشمبانيا
وحركه بعصبية.

قال ادمون:

- نعم، إنه عشاء عمل... روز ملروز وشركاؤها...

ضحكت ضحكاً عالياً، لكن بتميُّز بشع. كان اوريليان ينظر إليها ويقول
في نفسه: لقد أمكنه أن يراها، في ذلك المساء عند «ماري»، جميلة، مُشتهاة،
جذابة... من ناحية الجمال، هي جميلة... لكن تصوّر أنه كان من الممكن أن
يعشقها هي لا... في الحقيقة، لم يكن ذلك ليُسْتغْرَب، كانت أقرب كثيراً إلى
شخص الحبيبة المنشود منها إليه... كان يتحاشى أن يفكر في الاسم
المحبوب...

تنهّدت وقالت:

- اوه! «بلوز»^(١)...

سأل ادمون:

أتريدن أن ترقصي؟

مرّرت يدها، وهي تنهض، في شعر زوجها. فضحك ضحكةً باهتة، ونظر
إليهما وهما يبتعدان، وهو يمشط بمشط الجيب شعره.

سأل «ليرتيلوا»:

- ماقصة الشركة هذه؟

- فكرة من عند بارينتان... مستحضرات التجميل، المراهم، المساحيق،
المعاجين المانعة للتجاعيد... أنت تترك، يا عزيزي، أننا بوسائلنا المحدودة... كان
عملاً يصنعه صانعٌ منزلي... كنتُ أتعامل مع أميرة روسية وكيميائيٍّ أرمني...
كل ذلك كان يُصنع في صالون الأميرة... بين أواني القيصر الفضية وسجاد
الجدران الحقيقي والتقليدي... مع هاون البارود، وأبوات الاختبار على المدفأة،
وأيقونة في الزاوية...

(١) موسيقا الجاز الطيبة. المترجم

- ثم ماذا؟

- اقترح بارينتتان على روز أن تباشر المشروع... وهو يقدم الرساميل... سيكون لدينا مخبر... وعلب عليها صورة «روزملروز»، وإعلانات عليها صورة «روز ملروز»... هذا يغير كل شيء، أليس كذلك؟ سننتقل الى مستوى آخر...
آية رشاقة وأي جلال تملكهما السيدة «ملروز». عرفها بعض الناس وصفقوا لها برصانة. كان مراقصها يطوقها، وقد أرخت ذراعاً على فستانها الرمادي الطويل... ما من امرأة يلائمها اللون الرمادي مثلها، ووجدها الناس كما كانت في ذلك الفيلم الاسباني... حيث كانت تقوم بدور أمريكية.. كما تعلم... زوجان جميلان، من جهة أخرى. من هذا، الراقص، بسحنته المحروقة، وعينيه الجميلتين الصافيتين، ومظهر البطل الرياضي؟ لعله أصغر منها قليلاً، لكن مع ماتملك من موهبة وسحر...

«لم أشكرَكَ بما يكفي، ادمون... لا، لا تعترض! كان ذلك لطيفاً حقاً، وفيه أناقة، هكذا، فجأة! حتى إنك لم تنتظر عيد الميلاد!

- إن كنت سررتك فقد كافأتني ألف مرة عن ذلك، روز!

- طبعاً، سررتني! ولاسيما من أجل «جيكي»... ومن أجل «جيكي» إنما أنا سعيدة... إنه شديد الجفول، تصوّر أنه لايقبل شيئاً... ثم إنه يتعذّب نفسه... بفكرته وهي أنه لايستطيع أن يعطيني كل شيء... وفكرة الدونية أيضاً...
بجنبي... جنون في الحقيقة...

- من ذا الذي لا يحسّ بجنبك...

- لا تتفوّه بحماقات! لكنك ترقص كالآلهة! فهذه اللطافة من قبلك في أن

تكون قد فهمت الوضع هكذا، دفعة واحدة...

- ستكون له واجهته الاجتماعية... وهو يستحقّها من جهة أخرى...

المستحضرات ممتازة... اوها! استعلمت عن ذلك! لي صديقات بين النساء...

- هذا واضح، أيها الوحش الجميل!

- إن ما أصعبه إنما هو تجارة رابحة، أوكد لك ذلك... لا حاجة الى

شكري... أما! بگرت في الشكر! أنا حذوتُ حذوك...
- ينبغي أن أقول... الحمد لله! أنت إله لحمًا ودمًا... وأنت تضمّني بطنيء
من الشدة... والناس يُلاحظوننا...

عاد الى الطاولة، «انظر إليها، يا عزيزي، أليس في هذا ما يهلك؟» خرج
«ليرتيلوا» عند دعوة «ديكور» هذه من حلم يقظته، وانفصل عن بيرينيس للحظة.
وراعه ابتسامة «ادمون»، وتذكّر ظهور «باربنتان» قبل قليل في ردهة «الكازينو»...
ما أشدّ تعقّد الناس!

مالت «روز» عند عودتها على زوجها وقالت «ياسيدي المدير، أرايت كيف
يرقص شريكك؟ لقد تلقى دروساً عند ميتشين، كل شيء يسهل تفسيره... فردّ
باربنتان: «إذا لم نتكلّم عن الدرس الذي تلقّيته قبل قليل...

كان لابدّ من أن يراقص السيدة «ملروز»، لم يكن لها وزن، لم يكن لها
وزن، الى حدّ الإدهاش، بالنسبة الى امرأة كبيرة مثلها. كما كان يدهش فهمها
للجسد، وهو فهم يستبِقُ الراقص ويوهمه بسلطته عليها، ومع ذلك فهي التي
كانت تقود عندما كانت تبدو منقادة له. لابد أن شؤونها في الحياة كانت كذلك.
كانت تملك ذلك النبوغ، تلك الموهبة في أن تظل بعيدة عن الرجل وقريبة من
الراقص، وشبيهة من هذه الناحية بشراقة الهواء المُشعلة للنار، حياءُ الفتاة
وحشمتها، وأسوأ إثارة، تلك التي لا نصدّقها، والتي نتصوّر، أنها من اختراعنا،
والملامسة الخفيفة التي سرعان ما تكذبُ والتي تجعل الرجل يخاف أبدأ أن يكون
قد تجاوز جراته الواعية، وفجأة التقى أوريليان، وهو يدور بين الطاولات، عيني
سيمون، عليهما، فاحمرّ. لقد نسي بيرينيس للحظة.

- «لا أعرف راقصاً أكثر صمتاً منك»

- سامحيني...

- لماذا؟ إن لم تكن محدثاً... فلا شيء أبشع من الرجال الذين يجبرون

أنفسهم...

لم تستطع أن تعود الى الجلوس، فأمسك بها ادمون على الطائر، ورقصا

ثانية. وقال:

- فانت ليرتيلوا؟
- لابس...
- اوها! أكثر مما قلت! جميع النساء يتدلّهن به...
- لستُ منهن... لأدري عن أي نساءٍ تتحدث... أنا أجد قسماته مسرفة
الكبر، مسرفة... سوقية قليلاً، في نهاية الأمر...
- أنت صعبة...
- أنا صعبة... أنا أفضل الرجال، كيف أقول لك؟ أكثر اكتنازاً... أنت
تعلم أننا لا نستطيع أن نقرص أي موضع مادام قاسياً، عضلاً.
- هو متين، اوريليان... وأنيق...
- أجل، إنه يحسن ارتداء ملابسه... لكن ما يعجبني هو أن يكون الرجل
جميلاً بلا شيء... في الحقيقة أنا امرأة للقوادين...
- يالمصيبة الآخرين!
أحسّ فجأة إحساساً حاداً بحضورها. لقد فقدت «روز» بما لها من
موهبة الممثلة، وهي موهبة كانت تجبرها في كل لحظة على لعب دور، على
تجسيد شخصية، فقدت تميزها على نحوٍ لا إراديّ عادت بنتاً... همست.
- «أتحسب نفسك مثلاً ممن يدفع للبنات لقاء وصلهن؟»..



تذمّرت السيدة «دوفيني»: «آه! لو لم يكن ذلك للسيد ليرتيلوا! كان الطقسُ كريهاً؛ ذاب الجليدُ، ففي باريس لا يصمد الثلجُ. كانت تَخْطُ في ذلك الوحل المُنْتِن، وهي تلقى نظرةً عاجلى متطيرةً على معرض الجثث الذي كان ما يزال موجوداً إذ ذاك في مقدمة «المدينة»، وتفكر أن من الغريب أن تشعر بالبرد دائماً عندما ينوب الجليد أكثر مما تشعر به وهو يتشكّل. هذه الرطوبة الكريهة! أحكمت شالها الصوفيّ الأسود وأوسعت الخطأ. لقد تأخّرت قليلاً في المنزل الآخر الذي كانت تُعنى به في الضفة اليسرى، قبل أن تتّجه الى منزل السيد ليرتيلوا، في جزيرة «سان لويس». إن من أعظم مفاتن باريس تلك الأحياء التي آلت الى الانحطاط، وهي كثيرة العدد وقد سقطت من النباله الى التجارة، الى مساكن لعامة الشعب، محتفظةً بزخارف مداخلها، وأبوابها وأفنيتها وسلالها المنبئة بعظمتها الحزينة. لكن كل أثر من آثار تلك الروعة التي ابتذلت يستمد من اللافنة أو التشويه أو الإذلال معنىً وقيمة يعجز الجمال وحده أو العمر أن يسبغاهما عليها. وفي الجزيرة التي لم يُبنَ فيها إلا القليل من البيوت منذ أيام أبهتها، فإن عزلة النهر قد حمت الى حدّ كبير هذا المركب الحجري من الانحطاط. فلم تُصبه تجارة المدينة الكبرى، وقد انحصرت قرية الجزيرة، إن صحّ القول، والحوانيت الضرورية لحياتها، في شارعها المركزي، شارع «سان لوي أنليل»، وهو شارع ضيق مخفيّ، مظهره المخجل كمعيّ يجتاز جسداً نبيلاً. وهنا يقطن أصحاب الحوانيت، وأهل الحرف، والشعب. ومن الجهتين، تكاد الشوارع القصيرة التي تُفضي الى الأرصفة، والأرصفة نفسها، تتكوّن كلياً من دور قديمة ماتزال تسكنها أسرٌ سقطت لكنها كريمة، وبرجوازية لها سراب الارستقراطية الخفيّ، وفنانون، ورجال القانون، وأمريكيون ساقهم إليها سعرُ الدولار؛ ووسط هذه العمارات الموزعة بين مستأجرين مختلفي المشارب، وهي فرح المزخرف والفقر الذي ينتظر إرثاً، طلعت في القرن التاسع

عشر، أو أعدت بعض مباني الإيجار مثل المبنى الذي كان يسكنه اوريليان، والأمير... والشاعرة «ماري دي بروي»، والوزير القديم «تيلبودي لأكور»، وأشخاص عشرة آخرين معروفون.

تجولت السيدة «دوفيني» قبل أن تدخل المنزل، في شارع «سان لويس». كان اليوم يوم الأحد، وكانت الحوانيت مملوءة بالناس، اشترت بيضاً من عند اللبّان وانتهزت هذه الفرصة لتدفع ثمن الحليب، كان الجميع يتحدثون هنا عن قصة لم تثر اهتمامها إلا مرة عند بائع المنوعات التي عرّجت عليه لكي تشتري أداة تنظيف لأوانيها، إذ إن القديمة لم تعد صالحة. والقصة إن بحارة انتشلوا من الماء امرأة مسكينة في فستان الحفلة الراقصة، تصوّروا، ولعلها لم تكن في السنين منذ زمن طويل، وهنا تفاصيل تقنية تشوّهت من فم لفم، وقد قُطعت إصبعها لنزع خاتم محتمل منها، وإذن فهذه جريمة؟ ومع الأسف، لم يكن لدى السيدة دوفيني من الوقت لسماع ما هو أكثر من ذلك. كان الحارس يغسل تحت القبة: «صباح الخير ميشو»!.. كان ابن خمسين ويضع سنوات، مايزال نضراً، كثير الشعر جداً، متوسط القامة، أنفه مشقّق، وشاربه رمادي مُسبل، وعلى وجنته اليمنى وحة بنفسجية ضخمة مثل قطعة تقديّة من عشرين فلساً. ومنذ أن ترك الحافلة الكهربائية حيث كان جابياً، أخذ يساعد السيدة «ميشو»، كان بوده أن يعمل للسيد ليرتيلوا، لكن مستأجره كانت له فراشة. ولذلك كان السيد «ميشو» يكره السيدة «دوفيني». دمدم وهو يلمس قبعته، وتلك طريقته في التحبب إلى تلك المرأة ولم يمنعه هذا من أن يقول:

غريقة أخرى منتشلة من السنين، ياسيدة دوفيني!

- علمت ذلك عند بائع المنوعات...

كان للسيدة «دوفيني» كرامتها، صاح السيد «ميشو»:

- أطلعت الصحف! لم يكن من بريد!

حرص أن يقول إنه يقوم بخدمته.

كان مطبخ منزل العزب يطل على مطلع الدرج نفسه الذي يُطل عليه المدخل. لم يكن للمطبخ سلّم في هذا الطابق. وكانت السيدة دوفيني تصعد سلم الخدمة حتى مطلع الدرج السابق، حيث تدلف بباب نصف طابقي، الي السلم الصغير الذي يصعد عليه المستأجرون.

حملت الصحف عل المقبض النحاسي للتوازن مع الخبز والخبز الى جانب ممسحة الأرجل. ودخلت المطبخ مقطبةً حاجبها على عاداتها دائماً. لأنها كانت تتسائل في هذه الدقيقة عما ينتظرها على الطاولة.

كان تقليداً متفقاً عليه أن يضع اوريليان قُصاصَةً ورق مكتوبةً على الطاولة، عندما يرغب في شيء، ولاسيما ألا يُزعجه أحدٌ إماً لأنه يريد أن ينام وإما لأن عنده شخصاً ما. كان أحياناً يكتب: «سيدة «دوفيني»: «أعدّي غداءً لشخصين في الغرفة» والغرفة تعني اختصاراً ما ليس غرفة النوم. كانت السيدة «دوفيني»، في الأحوال العادية، تدخل المنزل، وتفتح الستائر، وتحمل إليه فطوره الى السرير. وكانت تخشى دائماً أن يكون عنده «أحد». لا لأن ذلك يصدّمها: فعندما تخدم عند شاب تعرف ما تتعرض له، ولاسيما في مثل سنّه. لكنها في هذه الإصباح أخذت تحسّ أنها مُهملّة، إذ لم يعد يحدثها... انزعجت مع ذلك وربما كان بها شيء من الغيرة. نظرت إذن الى الطاولة وهي داخلة. لم تجد شيئاً. تنهدت ونزعت شالها، وأشعلت قرنّ الغاز، ووضعت ماء للتسخين، وقطّعت الخبز الى شرائح رقيقة لتحمصه، وتناولت مطحنة القهوة... أنا محظوظة، ففيها من القهوة ما يكفي لهذا النهار... كيف نسيت أن أشتري! أين كان رأسي، تباً لي...

عندما فتحت الستائر، كان اوريليان مايزال نائماً؛ تلملم في فراشه، وأغرق أنفه في الوسادة، ثم أخرج يديه الطويلتين، ونظر الى النور الشاحب بدهشة. كانت الساعة الجلدية الصغيرة الحمراء تشير الى الحادية عشرة. «كم تأخر الوقت! صباح الخير، سيدة دوفيني!» وأمر أصابعه في شعره ليُمشطه.

- «صباح الخير، سيدي... كنت مستغرقاً في نومك، وأنا حاقدة على نفسي لأنني أيقظتك...»

- لابد من النهوض، سيدة «دوفيني»...

- بالتأكيد، حين يكون عندنا مانفعله... لكن ما الذي يجبرك، ياسيدي؟ وفي يوم الأحد أيضاً»

وضعت الصينية على الطاولة، بيضة «نمبرشت»، القهوة، الحليب... كان اوريليان ينظر الى جميع الأشياء المألوفة بنوع من البلادة. لقد أخرج من نومه قسراً، فوجد حياته مثل درج أسيء ترتيبه، وينبغي أن يرتب قبل كل شيء، لمعرفة ما الذي يمكن أن يتسع له. السيدة «دوفيني»، البيض... وفجأة تذكر اليوم السابق الذي غمره كالنور. أصغر تفاصيل ذلك اليوم، الشعور المبهم أيضاً بأهمية ذلك اليوم، بشيء ما أصاب حياته كلها، وأخذ يغيرها. سمع نفسه يقول لأخته أنا عاشق. عاشق... قالها، أذلك مؤكداً؟ أصدق ذلك؟ وإذن فلم يبق شيء في مكانه، لم يبق شيء كما كان من قبل. إنه سجين لما قاله، ولما فكر فيه. عاشق... إن صورة بيرينيس احتاجت الى شيء من الوقت لتتصعد الى أفكاره، وتتشكل فيها، وتبعد عنها العليق، وتشعبات الأضلام والليل، بيد أنها لم تكن غائبة عن الذكريات المبهمة والتي لارباط بينها، ذكريات اليوم السابق التي كانت أول ما واجهته. لكن التشديد لم يكن عليها. إن اسم بيرينيس وصورتها لا يلتقيان تماماً. كان هناك شيء مؤلم في هذا الضياء المتعاضم، في هذا البياض... بيرينيس... أنا أحبها حقاً؟ ما هذا الجنون؟ مازال في الوقت متسع لإيقاف ذلك كله. وفجأة أحس بحياته تستمر كما كانت في الماضي، دون بيرينيس، خلي القلب، مضيق الوقت. وتذكر كلمة السيدة «دوفيني» «حين يكون عندنا ما نفعله» وكأنها لوم له. وبدا له عدم حياته، وتساعل لماذا ينهض كل يوم. خفض بصره، ورأى من باب الغرفة القناع على الجدار. كيف أمكن أن يجد أدنى شبه بينه وبين «بيرينيس»؟ لم يعد يرى كل ذلك، لكن كل شيء، حتى عدم المتساوية، كان يردّه الى بيرينيس. كان يتشبّه بهذا الحب، كان يتشبّه بالحب مثل رجل يغرق. ماذا كانت تقول السيدة «دوفيني» إذن؟

في فستان الرقص، تصوّر ياسيدي... فستان مقوّر... لكم أصابها البرد! سيدة... لا كما تظنّ... سيدة... عليها حليّ... وهذا ماجعل إصبعها يُقطع». لم يسمع البداية. لم يطرح أسئلة حول هذه القصة الوحشية. وفجأة تذكر موعده في شارع «سيزار فرانك» اليوم، الساعة الخامسة. غير ذلك كل شيء. جلس على السرير. وطلب الصينية. - سيدة «دوفيني» انزلي اليوم واشتري لي لحماً مبرداً... أما يزال عندنا مربى؟ سوف أتفدّى هنا... - هذا كل ماتطلبه، ياسيدي؟ أستطيع أن أصنع لك هريسة البطاطا... سلطة؟

- إذا شئت، سيدة «دوفيني»... «المارينيه» اليوم الأحد مغلقة، ولا أريد أن أتسوّق في مثل هذا الوقت... وسأخرج فقط بعد الظهر... - أه! أنت على حق، ياسيدي! وهذا الوحل في الأرض! أتحبّ، ياسيدي، أن أبقى لخدمتك؟

لا، إنه يفضل أن تترك السيدة «دوفيني» كل شيء في المطبخ، وهو ينوي أن يستكمل زينته، وأن يأكل على هواه، في زاوية من الطاولة، في أية ساعة شاء، والوقت قد تأخر... لا، لا، دعني ذلك: سترتبين المنزل كله غداً... وسأرتّب سريرى... نعم، شكراً. لن تذهب؟ سمعها تنقّب في الغرفة، وتنظّم، وتجمّع صحفاً قديمة، وتُهيّء النار (لم يبق سوى إشعال عود الثقاب)... «إذن، سأنزل، ياسيدي... وسأضع كل شيء في المطبخ...

- أجل، لا تشغلي بالي بصعودك ثانية... لا حاجة بي الى ذلك... زمّت السيدة «دوفيني» شفتيها «ليس لك أن تخشى شيئاً. هيا، لقد أخذت تفتاظ الآن! وأخيراً عاد الصمت والوحدة. فيثب اوريليان من سريره، ويكاد يرمي بالصينية وباقي القهوة، وينظر الى نفسه في المراة الكبيرة، كان طويلاً، في منامته المقلّمة بخطوط رمادية لؤلؤية ورمادية حديدية، المدعوكّة، سمين الوجه من النوم، غير حليف، مشعث الشعر، وتطلع باستنكار الى أظافره التي لاتوحي بالنظافة. الماء، الماء، الماء

لم يكن نظامُ المغطس حديثاً جداً. وقد وجده أوريليان قائماً، وهذا بالذات ماضايقه دائماً. كان الحمام يحتاج إلى وقت كبير ليسيل، وكان الماء الساخن مع جهاز الغاز بطفراته المقلقة لايسمح للماء البارد بالسيلان دون مراقبة. وكان يجب أن يظل المرء قريباً منه. بينما كان الماء يسيل كان أوريليان، تبعاً لعادة قديمة يغسل أسنانه بشدةً بادئاً بأسنانه التي فوق. ثم يسوي معجون الأسنان فوق الفرشاة، ويمضي ليلقي نظرة سريعة على المغطس.

عثر على سرّ جنونه. لم يعد يرتاب في أنه يحب، وأنه يحب بيرينيس. بيرينيس هذه التي لايعرف عنها شيئاً البتّة. أخرج ثيابه الداخلية ونظر إليها بعناية المدقّق، هذا القميص لا، لعل هذا أصلح... هياً، سيسخن الحمام فوق المطلوب. ترك سراويله القصيرة على كرسيّ، وخلع منامته. لا أجد صابوناً. هذه السيدة «بوفيني» لاتفكر في شيء... اضطر إلى الجري عارياً في الغرفة، ليحضر من الخزانة صابونة من ذلك الصابون الضخم المدور الأسود الذي كان يحبه، والذي كان يأتيه من لندن. ووقف أيضاً أمام المرأة ونظر طويلاً، والصابونة في يده، وكأنه ينظر إلى غريب. هزّ رأسه وعاد، وهو يحلم، إلى المغطس. مَنْ يدري؟ النساء ينظرن إلينا نظرةً مختلفة. وبدأ ينظف جسمه الذي لم يخرّه، بعنفٍ مدقّق.

كان يستطيع حقاً أن يقضي ساعات في هذا التمرين، ولم يكن مسروراً من نفسه. كان العالم يضيق مثل المجال البصري. كلُّ شيء كان منوطاً بنظافة كل مربع من مربعات الجسم. ولم يكن كفّ الحمام كافياً إلا لتسهيل عملية التمسيد بالصابون وإعدادها -وهو تمسيد لم يكن يجد مسوّغاً لتوقفه-، الحجر الجلف على الجلود الميتة، الفرشاة التي تدخل المسام، تلك العناية المشغوفة التي يحيط بها نفسه مثل أرض الغرفة أو الحذاء، أحد تلك الأشياء التي يلمّعها المهووسون بزهر صبيان. ولم يكن ينتهي من جانب حتى يتساءل إن كان قد نظف تنظيفاً كافياً هذا الجانب أو ذاك مما مرّ عليه من قبل، وكان هذا العمل من موضع إلى موضع مع تعديلاته يمتدّ فوق المعقول، جاعلاً الجلد أحمر.

«سَيِّدِي!»

كانت هذه السيدة بوفيني تدق على الباب. مع أنه قال لها ألا تزعجه.

- ما بك؟

- هيأتُ كلَّ شيء في المطبخ. ماعليك إلا أن تُصَفِّي البطاطا... وهي تُطهى على النار... وأن تضع قطعة من الزبدة... كما عملت السلطة... وماعليك إلا أن تقلبها...

- طيب. فهمت. شكراً.

غطس رأسه في الماء، واصبعاه في أذنيه، ثم خرج من الماء وهو ينفخ. ما أشد إلحاحها. هذه السيدة «بوفيني»! كان بوده لو استبدل بها رجلاً، فذلك مريح لجملة أشياء، ثم إن الرجل أفضلُ لإدارة الأمور. وأيضاً فهي لم تحسّن مؤخراً ترتيب طية البنطال وهي تكويه! لكن أنى لك بالرجل إذا لم تؤوّه. هناك الحارس الذي عرّض نفسه، لكن أوريليان لم يكن يحب وجهه، وهذه البقعة على وجنته كقطعة نقدية من عشرين فلساً، ولم يكن نظيفاً جداً وهو لاشك من الشرطة... الحاصل كل شيء لكي...

«إن لبستُ هذا القميص فيجب أن أرتدي البذلة الزرقاء الرمادية، وآخر ربطة عنق من عند «بيل»... لا، ليس لديّ حذاء يتناسب معها... إذن لو ارتديتُ الداكنة من عند «هلنديش اندكي»... على كل حال، من أجل مَنْ سأرتدي ثيابي؟ من أجل نفسي أو من أجلها؟ ما الذي تحبه بيرينيس؟ لأدري شيئاً من ذلك. ولا أعلم شيئاً عنها، الجوربان الإيكوسيان سيبدوان لها غريبين... المخاطر أقل مع الألوان الخامدة، ربطة العنق الداكنة...

عندما خرج من الحمام نشف جسمه. وقال في نفسه: إنه لم يفكر إلا في نفسه، وكانت بيرينيس مجرد ذريعة تقوده دائماً الى مرآة الخيال التي لا يرى فيها سوى أوريليان. أوريليان ودائماً أوريليان. كان يكرّر في نفسه، ويقول بتهكم جملة السيدة «بوفيني»: «حين يكون عندنا مانفعله، نون شك!»

أه! اليوم عنده مايفعله. كان مشغولاً حتى أعماق قلبه. كان كل شيء يتخذ أهمية هائلة، ويدور حول موعد الساعة الخامسة. ولم يكن ثمة وقت كبير بين هذه الساعة وتلك، لم يكن ثمة وقت يضيعه. كان مشغولاً الى حد رهيب. أخذ يقص أطافر أصابع رجليه، وهو جالس على منشفة، وأسائه بين أسنانه، وانتباهه على أشده. كان في الجو بخار خفيف. حتى إذا ما انتهت من عمله هذا عاودته الشكوك بصدد القمصان، ونسي أنه غسل أسنانه، وعاد الى غسلها، وفتن الى ذلك وهو يغسلها، فهزىء من نفسه. ويمرر المسحة على المرأة التي عتمها البخار... ويباشر الحلاقة الآن...

بيرينيس... إنه يدور حولها، حول الذكرى التي يحملها عنها، بتلك الأناقة والحذر في مقاربتها، كئناقة الرجال وحذرهم مع المرأة، بل إنه كان يتحاشى تلك الذكرى خوفاً من أن يفسد شيئاً ما. وكان يرسم حولها دائرة كبيرة من الأفكار التي تبدو أنها لاتتعلق بها في شيء، والتي كانت تردّه إليها، وتهيئ لها. ماغرب حب الرجل. فهو شديد الشبه، شديد الشبه الى حد صبياني بحب العصافير والديبة، والحشرات والذئاب. حتى عندما يكون الموضوع شيئاً آخر، فإنهم لا يستطيعون أن يتصوروه إلا كالإعداد للفعل نفسه، وأفكارهم ربيع الغابة، إنهم يختارون ألوان ريشهم، ويستخدمون حناجرهم في موسيقا لاتستمد نغمها إلا من الغريزة، ويهيئون العش، أو السرير، أو الوجار الذي يجذبون إليه تلك التي يقسمون الإيمان المغلظة أنهم لم يدر في خلدهم أن يمسوها بأطراف أصابعهم. التناقض والرياء هما العنصران المكوّنان للحب الحقيقي، ولا يمكننا انتزاعهما وإلا قتلناه.

فتش «اوريليان» وهو نصف لابس، عن الحذاء الذي عزم على احتذائه. أين دسّته هذه الـ«دوفيني» ياترى؟ جميع الأحذية الأخرى هنا، وكأن ذلك جرى عن عمد... إنها تغير مواضع الأشياء، ذات يوم، بعد سنتين، وكأنها تنبأت بأنني سأحتاج إليه في هذا اليوم بالذات. أه، حسناً، وضعته في أسفل الخزانة. لم ذاك؟ طبعاً لتخفي أنها لم تلمعها! وعليّ الآن أن أرق نفسي بفرك هذا الحذاء، وتوسيع نفسي... أوه، لا، يجب أن أجد رجلاً مكانها في النهاية...

مر بالمطبخ، فرأى الغداء محضراً، فرق للسيدة دوفيني، وضعت
الصحون، وأزهراً في إناء صغير من الخزف، وبجانب ذلك السلطة والملح
والفلل وملح الكرفس، والفوطة مطوية على شكل هرمي، أخذ يضحك. ياللأم
«دوفيني» الطيبة! وأخذ يلمع حذاءه بحرارة.

بينما هو ينتهي من ارتداء ملابسه، في الغرفة، التقت عيناه القناع مرة
أخرى. كان القناع هذه المرة «بيرينيس». حقاً... لحظة من بيرينيس عندما يختفي
الدم من وجهها، بتأثير الانفعال. ما أروع جلدها! جلد شفاف، حي، بالغ الحياة
حتى إنه يدفع الى التفكير في الموت...

ما قصة تلك الغريقة التي روتها السيدة «دوفيني»؟ فستان حفلة راقصة،
خاتم وإصبع مقطوعة. وأعاد بناء هذا الحادث الذي لم يأت تاماً الى شعوره
ووقف قرب النافذة،

تأمل «السين» طويلاً وهو يجري، أصفر، عكراً، بارداً، ملتبساً. فستان
الحفلة الراقصة... لماذا؟ أية مأساة من الظلمة واللالأة في تيار الماء، أي سر
عامي وعميق؟ ما حاجة الغرقى الي القسأتين؟ ألسنا عراً ما إن يغمرنا النهر،
ألسنا في الموت كما في الحب؟ الأغطية باردة أيضاً حيث يدخل اثنان! وإذا به
يغضب على نفسه كيف صرف السيدة «دوفيني» قبل أن يرتب المنزل؟ وإذا
حدث ما لا يمكن... اوها ليس لهذا أدنى حظ، لكن، إذا حدث مع ذلك...
وضع أغطية نظيفة على السرير وكبس. انصرف بعينه عن القناع فوق،
الناصع البياض، البالغ النقاء، الشديد البعد.



كانت شقة السيدة «غودمان»، في شارع «سيزار فرانك» أبعد ما تكون، في ذهن السيدة «بيرينيس موريل» عن مشغل الرسام أو حتى عن الطراز الفني. كانت كالذي نجده في جميع البيوت الجديدة آنذاك، وكان يُفهم من «جديدة» تلك التي بُنيت منذ سنة ١٩٠٠، الشقة ذات الغرف الثلاث، مع قاعة الاستقبال وقاعة الطعام. غرف صغيرة، فاتحة اللون مع زخارف من طراز لويس السادس عشر، ومرايا على المدافئ. وما كان يُسمى قاعة الاستقبال والتي كان يعمل فيها «زامورا» كانت غرفةً ضيقةً جداً، مريكةً بحمالة عليها لوحة غير متناسبة مع المكان، من النوع الدادائي للفنان، لوحة بدت مبرنقة، تظهر آلة معقدة ذات دواليب عاجزة عن الدوران، بلون الفولاذ مع أجزاء سوداء. كانت هذه الشاشة الكامدة تقسم الغرفة أفضل من الحاجز، وأظهرت المقاعد المجدولة بالخيزران من طراز «تريانون» والكراسي الواسعة المغطاة بالحرير المخطط خطوطاً خضراء وبيضاء، والمنضدة المزخرفة من طراز العصر، وطاولة الرخام، أظهرت ذلك كله غريباً، صغيراً، مُسرف القدم.

ينبغي القول أن «زامورا» بلوحاته المكسّسة في زاوية على الأرض، وحاملته، وريشه، وكرتونه، وأقلامه، وأوعية التلوين، قد جاء ليستقرّ في داخل هذه الغرفة دون أن يغيّر شيئاً من الحياة الجارية. وكانت السيدة الجميلة «غودمان، بيتي» وهي شقراء طويلة، وجهها كوجه العذراء الذي ينتمي بكل ما فيه الى الفترة السابقة «لرافائيل»، وجه ممتنع كل الامتناع على الألم، أجفانه منتفخة للغاية، وكأنها امتدادٌ للجبهة لفرط ما ان الحاجبان شاحبان، قد قبلت بهذه الإقامة ككل أشياء الحياة وبدت كأنما تجد طبيعياً جداً لوحات «زامورا» و«زامورا» وتحول قاعة الاستقبال الى مشغل. وفي هذه القاعة كان يلعب مائة طفل السيدة «غودمان»، صبيّ وبنتٌ عمرهما خمس سنوات وسبع، وهما ملاكان صغيران أشقران لايقاومان، وتجلس أيضاً زنجيةً بدينةً على رأسها منديل

مربوط أخضر له نقاط حمراء لتخيط، ولتصلح بياض البيت وبياض سيديتها، كما كان يُفترض أن تحرس الطفلين، وفي القاعة كان يمرّ مروراً لا انتهاء له أصدقاء «زامورا»، ومعارفه المختلفو المشارب، من فرسانٍ محترفين مشهورين، ودوقات، ومهتمين بالأدب، ورجال أغنياء فارغين من العمل، ونساء جميلات من كل صنف، ولاعبي شطرنج، وأصدقاء أثناء السفر، على عابرات الأطلسي، وفي الفنادق، وكذلك أصدقاء أسرة زامورا التي كانت أسرة مستقرة في تجارة الحبوب الدولية، مع أبناء عمومة في كنيسة اسبانيا العليا.

عندما وصلت بيرينيس التي ذهب «بول ديني» لإحضارها من شارع «رينوار»، الى «كفر ناحوم» هذه التي كان يكملها رأس طفل «لهودون» على المدفأة، عندما وصلت مع الشاعر الصغير، وجدت هناك، بغض النظر عن الزنجية والطفلين، والسيدة غودمان وزامورا، الخياط «روسيل» شارل روسيل، وهو رجل ابن سنتين، ذو لحية كالعقد، وشعر أبيض أملس، طويل، ولم ينس أنه كان وسيم الطلعة، معنياً بنفسه، متأنقاً في ملبسه، يلامس رداءة الذوق لفرط التميز.

جاء وظاهره لا يوحى بالثقة، ليرى لوحات زامورا في وقت القهوة، بناء على رأي كاتب شاب نصحه بذلك من أجل مشترياته، وكان صديقاً لبول ديني. ولم يكن «شارل روسيل» يحمل مجد محله في شارع «لايه» فقط، بل وأيضاً مجد مجموعاته التي وعد بها متحف اللوفر، من الرسومات الحديثة والتماثيل الصينية القديمة.

كان يبدي اندهاله أمام زمرة من الرسوم المائية التجريدية، أو التجريدية على نحو من الأنحاء، يمزج فيها الرسم الهندسي والتصوير الملون الذي أبرز فيه لوناً أو لونان، بالنقوش الكتابية التي تتعلق بالشعر المثير في ذلك الزمن. وكان في ثنائه شيء من لعبة التخبئة النقدية. كان يريد ألا يظهر بمظهر من لا يفهم ولا بمظهر المغفل. وقد اصطنع، مع «زامورا» اللهجة المتحررة لرجل من العالم الراقي الذي يفهم جميع الأخلاق، وإن لم يمارسها؛ وكان يمزج تعليقاته

بملاطفة السيدة «غودمان» التي كان يجدها غير أنيقة الملبس وإن تكن فاتنة، كان يقول.

- غريب جداً... غريب جداً... في هذا سحر... بساطة... هذا يذكرني بأشياء رأيتها في إيطاليا، تصوّر... ولا سيما هذا مع تلك الحمرة... أنت تعلم، زامورا، أن في إيطاليا جدراناً لم يبق عليها شيء تقريباً... لون، منحني... وذلك يستأثر بك، فيتساءل المرء...

كان «زامورا» يمتطّ فمه ويدوّره فيُحسّ الناظر إليه أنه يمزح وأنه يقبل الثناد المعجل في الوقت نفسه.

«تش، تش، تش! هوا هوا هوا»

لفت الصوت النحيف للصبي اللابس بلوزة زرقاء، والذي كان يدور على الأرض بين أرجل الناس جميعاً، ومعه عربة لونها بلون علبه السردين، لفت نظراً بيرينيس إلى هذا الصبي السمين، الأشقر، المدوّر الوجه الذي له أهداب أمه، وكأنه لأنف له. أما الأخت المتشيطة التي بدت كالأم الصغيرة بصدأرتها الوردية، وهي تتلوى، فكانت نحيفة لكن عذبة الوجه، وقد انقضت على أخيها وحاولت أن تنتزع منه العربة وقالت بالانكليزية.

«او! واشنطن! واشنطن! لاتكن أحق، واشنطن!».

نظرت السيدة «غودمان» فرأت عيني بيرينيس الواسعتين: «لاتريد الصغيرة أن تُسمّي أخاها إلا هكذا... هذا هو اسمه على كل حال... أنا أقول له جورججي... جورججي، إياك»

كان السيد «روسيل» يقلب الصفحات الكبيرة في كرتون للرسم. قال:
- «هذا يذكرني برحلاتي سنة ١٨٩٠... أكان ذلك سنة ١٨٩٠؟ فصادفت أنا تول فرانس... بدا متضايقاً... كان ينظر منعي إلى لوحات دجيوتو... كان الناس يدعونه: سيد فرانس! سيد فرانس! وإذا بي أرى فجأة امرأة قبيحة، زرية! امرأة شرسة من... نظرت إلى أناتول، ونظر إليّ، وهزّ رأسه، وقال لي: يا صديقي العزيز، الأمر كذلك، ماحيلتي؟ كانت المرأة تحرك مظلّتها. كانت أم (كايافيه)»...

يقوده الى اللوحة، اللوحة الكبرى على الحمالة، ولوحات أخرى مكدسة إزاء الجدار. قطع لايمكن دفع فلسين لها بسبب حجمها.

قال صاحب المجموعات:

- أعتذر، وأستأذن بالذهاب... فعندي موعد... وتلك قصة طويلة،
تصوّروا!...

رأت بيرينيس عيني السيدة «غودمان» الحزینتين، ولم تستمر الى القصة لأنها كانت تتصفح بدورها الرسوم المائية...

وعند عتبة الباب، قال الخياط، مع ذلك، وكان يحسّ بالحاجة الى أن يكون أحد أبناء المجتمع الراقى:

- «إنّ، أرسل لي هذا الشيء الصغير... هي دراجة، أليس كذلك؟... مع الحمراء...

- تقصد «الحساب التقريبي».

أهو يُسمّى كذلك؟... الحاصل... الدراجة... وضُمّ اليها شيئين آخرين على ذوقك... أو على الأصح ذوق السيدة «غودمان» (وحياها بحركة من يده نحوها...) فالنساء يملكن دائماً حساً... يعرفنّ ما الذي يمكن أن يضعه المرء في بيته دون أن يثير قصصاً...

ألقي نظرة أخيرة على الآلة الضخمة التي تسدّ قاعة الاستقبال، فرافقه زامورا مودعاً.

تنهّدت السيدة غودمان

- أف! ليحفظني الله... سيكون المجموع خمسمئة فرنك إن أخذ الثلاث...

سأضع له «القوادة الخنثى» لأسلي السيدة روسيل!

«القوادة الخنثى» كانت عفيفة جداً عند النظر، فهي تشبه الساعة شبيهاً يوقع في الالتباس، ولها عقارب سوداء تشير الى الثانية عشرة وعشر دقائق بينما كانت غيرها، من الخضراوات تشير الى التاسعة إلا خمس وعشرين دقيقة.

عاد «زامورا» وكشفاه السمينتان تهزهما ضحكاتٌ صغيرة، وهو يؤشّر بيديه «تشيمابو... دوجيوتو... تشيمابو...»
أمسك بيرينيس بمعصميهما ونظر إليها، وقال
- «هيا، ليس هذا كل شيء... إلى العمل! اجلسي هناك...»
والتفت إلى السيدة غودمان: وجه مثير للاهتمام، أليس كذلك؟
مشّت السيدة غودمان مظلة عينيها.
- رائعة... تبدو كالسمكة الضخمة...
همهم زامورا والتفت إلى «بيرينيس»:
- «انظري... إنها هكذا، تبدين مثل سمكة ضخمة لها.
ضحكت بيرينيس وقد دهشت قليلاً. وأراد «بول ديني» أن يُصلح الأمور،
فقال:

- من السمك ما هو جميل جداً. المرجان...
قالت السيدة غودمان على نحو بات:
- لا، هي السمك - الهر...
أردف «بول ديني»:
- لا يعرف الإنسان كيف يبدو للآخرين. من الناس من...
- قد يصلح ذلك لأن يكون لعبة من اللعب الجماعية الصغيرة: كيف أبدو
لكم؟ ماذا تُشبه «بيتي» بالنسبة إلى «بول»؟ أما هو فأتانا أجده من جنس الدراجة
الثلاثية التي لم تدر...
انفجر ضاحكاً، وقطب «بول ديني» حاجبيه تقطيباً خفيفاً. واستقرّ
«زامورا» في مكانه ومعه دفتر كبير من ورق «واتمان» وأقلام، والحبر الصيني،
وفناجين، وقليل من الماء... قال:
- «تستطيع أن تسخر من بابا «روسيل». فهو غير معقول، بالطبع... لكن
ماذا سنفعل لولاه؟ أردت أن أقول: بيكاسو، ديران، أنا...

كان يضع نفسه في مستوى الشهرة. ولم يسلم قط بأن يظل هكذا، على الهامش قليلاً. كان يحسب نفسه أعظم ذكاءً من الرسّامين الآخرين، ولقد قرّر، من مرة، أن الموهبة قضية ذكاء. قال وهو يأخذ النسب - «أيّ عيّنين لها؟ سيقال لي أيضاً إن رسمهما سيء إذا صورتها كما هما... أو قد يُظنّ أن ذلك تشويه... هذه هي كلمتهم الضخمة الآن... هم يرون كل شيء مشوّهاً... اجتروا «مانيه»، أنت تفهم... وهو المعتزّ بالاوليبيا^(١)... إذا وضعت لسانى في داخل وجنتى هكذا، أليس هذا تشويهاً مع ذلك، إنها حركة... لكنك تعلم أننا عندما نرسم صورة إنسان فليس له الحق في أن يعطس... ذلك لايجوز...

وقف «بول ديني» خلف الرسّام، وقال
- ألا يضايقك هذا؟

- إطلاقاً. ليس بي حياءٍ. يبدو أن الفنّانين الحقيقيين يكرهون أن يراهم الناس يرسمون... لابدّ أنهم مرحون في الحبّ
أتمتّ السيدة «غودمان» فكرتها. «أرسل إليه «القوادة الخنثى»، يا صديقي، وتلك اللوحة الأخرى التي لأحبّها... كيف سميتها؟ تسع وستون... (قالت ذلك بالانكليزية).

- لا، ستمئة وستة! (وهمهم، ففكرت بيرينيس: «كان يبدو حقاً مثل دجاجة») وأردف: ما كنت أتمناه هو أن يخلّصنا من شيء كبير... من لوحة... مع أنني لم أعد أرسم على لوحة قماشية، فذلك مزعج... طبعاً، من البلاءة أن نتكلم عن جيوتو... بالنسبة الى هذه الرسوم المائية الصغيرة... أما بالنسبة الى الأشياء العظيمة... كانوا يرسمون آنذاك موضوعات دينية لأن ذلك كان جديداً... كما نرسم اليوم منارة، سيارة... الناس لا يفهمون لماذا أرسم آلات جميلة حديثة... إنهم يقبلون بالآلات... لكن الآلات التي تعمل... بلهبها ودخانها... من النمط الجبّار. أما أن تكون نظيفة، مطلية بالنيكل، فهم يستهزئون بها.

(١) «اوليبيا» لمانيه. المترجم

قال «بول ديني» وهو يشير الى اللوحة الكبيرة

- «أى شيء ترسم هذه؟ إنها تبدو مطلية بالبرنيق...»

- هذه؟ ببرنيق العربيات، مشكلة التصوير كلها في المالم... فعندما وجد

الزيت كف الرسامون عن الرسم على الجدران، كان الرسامون يطحنون

أصباغهم، وكان سرهم يكمن في ذلك، ثم إنهم أخذوا يحتقرون في أيامنا عمل

الألوان، وكان بيكاسو يفتخر بأنه يرسم بالألوان «فيليكس بوتان»... لكن سوف

رى... هذا لا يثبت... بينما بهذه يثبت طوال الحياة... بل القرون! نحن نلون منذ

اليوم لوحاتنا وسياراتنا ونساعنا بالطريقة نفسها

كانت بيرينيس تنظر الى رسم على الجدار، الى رأس من تلك الرؤوس

البريتوية المشهورة التي بها أظهر أسلوبه الأخير، من المستحيل تصوّر شيء

أكثر بعقلًا، صنعة رسامي «المصور» تقريباً، مجرد رسم بالحبر الصيني،

السديد السماكة وكأنه منقول بالكنز، الخط متصل، واللون كله للقبعة، من طراز

«بيغوديني»، وطبقة من اللون الوردي الشفاف في الوجنتين، والشفتان حمراوان

جداً، مع نسقين لونين للظل، وطبقة لونية شفافة لتخطيط الثياب تحت الرقبة،

وتسألت بيرينيس إن كان سيصوّرها هكذا، أو مثل «الخنثى»، فضحكت قليلاً،

توقّف «زامورا» ونظر إليها. سألت وهي مرتعبة

- ماكان يجب أن أضحك؟

- بلى... على العكس... لم أفكر في ذلك... أخذت الصورة فجأة تضحك،

أنت ترين ذلك من هنا...

أكان يمزح؟ أكان غاضباً؟ واستأنف حديثه متوجّهاً الى بول وإليها على

حدّ سواء

- «لايعرف الناس ماذا يريدون... لقد أعلنوا أن المهم ليس ما يُصوّر بل

المهم طريقة التصوير... وكان هذا قميئاً بأن يقودهم بعيداً، لكنه لم يقدمهم إلا

الى تصوير التفاح بلا انقطاع... وإذن فعندما أصور الآلات يقولون لي: افعل

مثل «سيران»...

«جورجي - واشنطن غودمان» استرعى الانتباه العام بصوته النحيف
الحاد عندما كرر الجملة الأخيرة مشوّهة، فهتفت الأم.

- هو، هو! هذا الصغير.

أوضح زامورا وهو يئنق أكثر من ذي قبل.

- يريد أن يُعطى تُفاحاً.

تعلق واشنطن، في حماسه، بفستان بيرينيس وهو يكرر الجملة
المشوّهة! فلما هدّته أخته التي تصنّعت الاحتشام، ضمّته بيرينيس إليها
وابتسمت له، وقالت: «سيُصبح رسّاماً»، والتفتت الى الصغيرة. «وأنت، ماذا
تريدين أن تكوني؟».

التفت وجه العذراء الطفلة نحو السيدة ولا يُتصوّر ما هو أكثر صفاء من
هذا الوجه. وقالت بلهجة الانتشاء الذي يتلو التفكير الطويل
- عندما أكبر، أنا، سأصبح بغياً...

غطى ضحك «بول ديني» الصاخب ضحك «زامورا»، وصرخات الأم
الجافلة زيفاً، بينما كانت الزنجية الهادئة تنقل في الجميع ابتسامة لطيفة تنمّ
على عدم الفهم.

قالت السيدة «غودمان»:

- ينبغي أن نعذرها، فهي تكرّر ما تسمع!

ضحك «بول ديني» حتى سالت دموعه.

- حقاً، ياسيديتي العزيزة؟

نبّه الرسّام: «بيتي، أنت تزيدين من خطورة حالتك...

احمرّت السيدة «غودمان» قليلاً والتفتت الى السيدة موريل التي كانت

تمرّ أصابعها في شعر الصبي.

- أحبّين الأطفال، ياسيديتي؟

- اوه، نعم! (وأحسّت أنها فتحت قلبها أكثر مما ينبغي، فاستدركت) لا

كل الأولاد... هذا منوطاً بالأولاد... فإذا كانوا لطفاء...

هتف «بول ديني» بقسوة شديدة

- تحيى الأطفال؟

وكان واضحاً أن بيرينيس قالت قبل هيهة، برأيه، شيئاً غير صحيح.

رفعت عينيها إليه، وقالت ببطء.

- أه! أرى، يا صغيري، أن ليس من العادة في وسطكم أن تحبوا الأطفال!

زم «بول» شفتيه، وأشرقت السيدة «غودمان»، بتعاطف مفاجيء نحو

السيدة موريل. حزرت... ذلك غير مقبول... يجب أن يتواري...

رد بول بجديّة محيرة:

- الناس أحرار في أن يحبوا الأطفال، والقمامات المنزلية، وما أشبهه...

أخذ الأمر بسوء فأوقفهم «زامورا» قائلاً.

- أنا أحب الأطفال عندما يكونون لي... وقبل كل شيء أحب أن أصنع

الأولاد...

هدّته السيدة غودمان بالانكليزية:

- حسن أفاظك!...

كانت بيرينيس تحلم من خلال أحاديث «بول ديني»، لقد تنبأت قليلاً بعالم

الفنانين الشباب والكتاب الشباب الذين يحبون الإفراط، حيث يعيش هو. كانت

تسود هذا العالم أفكار جاهزة، ليست كالأفكار في عالم آخر، لكنها جاهزة مع

ذلك ومستبدة. ذلك مؤسف بالنسبة الى «بول ديني»، فهو طيب، وله بعض الموهبة

الشعرية، لكن الخوف من رأي ثلاثة أشخاص ومدع بليد هذا ماجفقه، ماجعل

شعره يلمع ولا يؤثر في النفس، ولا يبلغ القلب. كانت ترثي له، كما كانت ترثي

لهذين الصبيين الكيين العالمين اللذين يُحدثان عن سيزان قبل أن يتعلما كيف

يمتخطان، وأخرجت مندليها وحففت أنف واشنطن.

كان نور الشتاء يضعف على الحديث. ثم إن الأمور بين «بول ديني»

و«زامورا» لم تكن على مايرام. وُضعت السينما على كرسي الاتهام. قال

الرسام: «ألم تروا آخر فيلم لهارولد لويد؟ اذهبي وتفرّجي عليه، ياسيديتي، إنه

أفضل كثيراً من «شارلو...» كان ذلك بدايةً لنزاع، لأن بول لا يرى شيئاً فوق «شارلو»، في السينما وغيرها. أما «زامورا» فكان يغيظه كلُّ مجدٍ موطن، وكان لا بدَّ له دائماً من أن يعارضه بآخر، وكان في جعبته، في الموسيقى والشعر والملاكمة والطب، أبطالٌ بدلاء لا يعرفهم أحدٌ غيره، وإذا ألقى اسمهم بنجاح قطع النقاش، وخلق أساطير. وكان هؤلاء الأبطال علي العموم أصدقاء له غامضون في نيويورك أو استبيلية أو مكسيكو أو الهافانا لا يخالجهم شكٌ في السمعة القوية التي يُحدثها لهم في باريس هذا الرجل الذي قد يدوسها بسهولة.

لكن، لا يمكن مع «زامورا»، الابتعاد طويلاً عن التصوير. فكانت اللوحة التي على الحَمَّالة موضوعَ الحديث. كان «زامورا» قد مزَّق ورقة أو ورقتين من دفتر «وانمان»، وهو الآن ينقلُ بالكزَّ رسماً أولياً معمولاً على ورقةٍ ثالثة، لينقله الى رابعة، وقد رأت بيرينيس أن فيه شيئاً ما... كان «بول ديني» يرسلُ اوه، اوه، وهو يهزُّ رأسه. وسألته بيرينيس بعينيها، فأجاب بحركات متهرّبة من الجواب، وباهتسامات وهو يقرض قليلاً أظافره. كان زامورا مايزال في اللوحة التي لم يشتريها منه «شارل روسيل»!

«عندما أفكّر في لوحة «ماتيس» التي يملكها! أكبر من هذه بمرتين... وعاءٌ زجاجي فيه أسماكٌ حمراء، صدّق! أسماك حمراء من خمسين سنتيمتراً. لأمعنى لهذا! لكن هذا يبدو غير صادق، بينما الآلة... هذه، أتعلم بم يعترضون عليها؟

- لا

- بأن عجالاتها المسننة واقفة ولا تستطيع أن تدور! وكأن العجلات المصورة إذا أطلقت دارت! شيءٌ مضحك... وكأنهم لا يشترون لوحةً إلا لينسخوها ويصنعوا منها محركاً، ومفحماً... وأنت ترى من ذلك أن هاوياً اشترى لوحةً لـ«رينوار» وأراد أن يدعو المستحمة الى... أو لـ«بوسان» كي ينقلها على حديقته...

وزاد «بول» عليه:

- وكان الذي يصنع جمال الآلة شيء غير عدم فائدتها...

- بالتأكيد... هذا هو الترف...

- الناس لا يستحقون الترف الذي يعيشون فيه!

وهنا خرجت الأمور عن مسارها بين المتحادثين. فالترف عند «بول ديني» فكرة متشابهة لما دعاه «اندريه جيد». «الفعل المجاني»، الفعل لذاته، بلا ربح ولا لذة، هو إنجاز لأخلاقية غريبة لاقت نجاحاً عظيماً بين الشبيبة. لكن «زامورا» كان عاجزاً عن الإحساس باندرية جيد، يريد أن يعفى من هذه «الأفعال المجانية»، وقال:

- في الحقيقة، أنا جد مسرور أن روسيل لم يشتتر مني هذه اللوحة... فهو يفيدني في معرفة الأغبياء... وما أن يدخل غبي هذا المكان... وينظر الى هذه اللوحة حتى يقول: «لكن العجلات لا يمكن أن تدور... هذا محتم».

انسلت بيرينيس برفق الى النقاش، وقالت

- لا حاجة الى الأفعال المجانية لتفسير ماتقولون... وهي فكرة قد عبر عنها في مكان آخر. «اللذة الجديدة والعذبة أبدأ لشغل غير نافع»...

نظر الجميع إليها وكأنها أقدمت على قلة لباقة، وفمها مفتوح، ففي نظام هذا العالم، ليس على النساء أن يعرفن شيئاً ذا قيمة، وأقل من ذلك أن يقتلنها. وفوق هذا كانت الاستشهادات، على العموم، غير مقبولة، سعلت بيرينيس قليلاً واعتذرت:

- «القائل هو «هنري دي رينيه».

ضحك بول ديني:

- رينيه؟ اتحفظينه عن ظهر قلب؟

- اوه! قليلاً وعن طريق المصادفة، بسبب الموسيقى...

- ... الموسيقى؟

- استشهد بها «موريس رافيل» في العبارة التوجيهية «لرقصات الفالس

النبيلة والعاطفية»...

- آه حسنٌ..

تابع زامورا، فقد بدا له، من جهة، أن ممّا لايسرّ أن يكون لأفكاره صدى لدى «هيري دي رينييه»، ومن جهة أخرى، احتفظ من كل ما قيل باسم «رافيل»، كان دائماً يفكر هكذا، بالمناوشة.

- «رافيل»؟ أتعلمون ماذا قال عنه «اريك ساتي»؟

قال «ديني».

- لا.

- رفض رافيل وسام جوقة الشرف، لكن موسيقاه كلها قبلته...

قالت السيدة غودمان بابتسامة مدهوشة

- اوها اوها!

وأضاف «بول ديني» مقدراً تلك الكلمة

- جميلة جداً، وحقيقية...

بدا «زامورا» كأنه واضع هذه الكلمة. وخاطب «ديني» بيرينيس.

- ألا تجدونها ظريفة؟

قالت.

- بلى، لكنني سأبدو لكم عبيّة منّ المحقّ، رافيل أم موسيقاه؟

- عجباً!

قالت أيضاً.

- ماكنّا نعرفه لولاها.

فقال زامورا.

- كل شيء منوط برأيها في وسام جوقة الشرف.

وهنا تبادل هو و«ديني» طرفة عين، وهذه أيضاً فكرٌ منقولة. ونحى زامورا

جانباً ليحكم على أثر رسمه، دقّ حرسُ الباب، فسارع الوالدان. أضاعت السيدة

غودمان الكهرباء، بدا كل شيء في الغرفة كأنما دبّت فيه الحياة.

كان القادم السيد «ليرتيلوا» الذي اعتذر عن مجيئه المباغت، لكن السيدة موريل قد أذنت له بذلك... ضوضاء:

كان «بول ديني» والسيدة «عودمان» و«بيرينيس» يتكلمون في وقت واحد. وكان الرسام يبذل أناقته كلها إرضاء للقادم الجديد.

نظر هذا القادم إلى اللوحة التي على الحماله، وهز رأسه، وتمتم بجملة مهذبة، ثم قال فجأة:

- لكن عفواً... هذه العجالات لا يمكن أن تدور...



- كيف وجدتَ صورتِي؟

كانا حالسين في حانة السلام، في ساحة الاوبرا، وكانت حينئذٍ أهدأ مكان في باريس، ولا سيما الأحد مساءً، نحو السادسة. كانت غرفة مزدوجةً مسطّنة، من العوارض الصفراء مع أفاريز من طراز لويس السادس عشر، بسُطّها، وعذوبة ماقلد الحرب، وبالطابع التقليدي في الحبّ الباريسي. والنُدُل كالظلال. ثلاثة أرواج أو أربعة متفرّقون يتكلمون بصوت خافت، وسيد عجوز يمسك بيدي فتاة، وطيّار وحيد، على منضدة من مناضد الحانة، ينظر الى ساعده.

لم تتشأ بيرينيس أن تذهب الى جزيرة «سان لويس». لا، غير هذا المساء. لبدعُ شيئاً للأيام التالية... أنتَ لاتعرفني بعد، اوريليان. ابتسم عند سماع اسمه. وبما أنهما لا يستطيعان أن يتجوّلا طويلاً تحت عطاء سيارة خمسة الأحصنة في هذا المطر المنهمر، فقد جاء بها الى هذه الحانة.

- يا الهي! أيّ صورك؟ لأن لك ثلاث صور... كلٌ منها لائبس بها... لكن بما أنه بضدّها جميعاً على الورق نفسه فقد نتج عن ذلك رُكامٌ من الخطوط.
- لستَ مُنصفاً، يا صاحبي... أراد «زامورا» أن يعبرَ عن حركة العينين والعم. قبل تلك الصور المحرّكة، كما تُعلم... غريب... أتساءل إن كانت الصورة مُسابهه...

كان اوريليان يقرش «الشبس»، فقال بجدّ
- أراد «زامورا» أن يسرق منك سرّك... السرّ الذي يجعلك جد مختلفة عندما تكون عيناك مفتوحتين وعندما تكونان مغمضتين... لكن اعلمي أن ذلك السرّ ليس له...
- ولن هو؟

- هذا ما أود معرفته.

لم تجب وأغمضت عينيها. كان ينظر إليها وهمس.

- «هوذا، هوذا... السرُّ يتم يا بيرينيس... جميع الناس في العالم يمكنهم أن يروك هكذا، ماعداك أنت، ماعداك أنت، أنت حينئذٍ بلا دفاع. تعترفين بشيء تبقيته مخفياً. هذه هي بيرينيس الخفية... لا، لا تفتحي عينيك الجميلتين السوداوين... ابقِ هكذا، مبنولة... قلت لي ونحن قادمان إنني لا أعرفك... أنا لا أعرف الأخرى... التي عيناها مفتوحتان... أما هذه، بيرينيس ذات العينين المغمضتين، فكم أعرفها! ومنذ زمن بعيد... لا تبسمي... بيرينيس الأخرى هي التي تبسم هكذا... لا «بيرينيس»... لأن ابتسامتها هي... أنت لا تصدقيني؟ ستأتين إلى منزلي وسأريك ابتسامتها.

قالت وقد فتحت عينيها وهي تعي أنها تفتحها *

- أنت تهذي قليلاً. كم امرأة حدثتها بمثل هذا الحديث؟

حيرته هذه الجملة البسيطة جداً، والمتوقعة جداً مع ذلك، إذ أن عبء الصلة الحميمة لا يمكن تجاوزها مع أية امرأة في العالم، دون سماع هذه الجملة، دون القسم...

وهذا مانبهته عليه وهي ترى اضطرابه، معذرة أيضاً من تلك الملاحظة المبتذلة. أما هو فلم يكن يرى في ذلك شيئاً من الابتذال. إذ لم يقل قط لامرأة الأشياء التي قالها. ولم يعشق امرأة قط بمثل هذا العشق. لم يكن هذا قريباً من الاحتمال. وهنا تكمن المصيبة.

- لا أستبشع أن تكرر كلمات استُخدمت من قبل إذا كانت تلك الكلمات جميلة، أوريليان...

كانت تكرر الفرص التي تقول فيها: «أوريليان»، مثله وهو يقول «بيرينيس».

- لكني لأحب أن تكذب علي في هذا القليل من الوقت المتاح لنا... إن الكذب يحتل مكاناً رهيباً بين شخصين... وبعد ذلك لانجد غيره...

فهتفَ

- ولم أكذب عليك؟

هزّت رأسها، وقالت:

- لم بالفعل؟ لم؟ لكنّ ماكدت تقول لي مساء أمس... ماكدت تقول لي...

ذلك الشيء...

عند هذه الذكرى، بدت كأنها تستشعر اضطراباً عظيماً، أخذ يدها،

فخلّصتها منه برفق، وردّد بصوت هامس، لكي تعلم أنه فهم: أحبك، بيرينيس...

أومات «نعم» برأسها وتابعت مع حركة من كتفيها المرتعشتين:

- ماكدت تقول لي ذلك... وكان عندي... لا يمكنك أن تعلم... حتى ذهبتُ

لتلقى صديقتك في حانة «لولي»...

- صديقتي؟ لاصديقة لي!

- لا تكذب! أوه، إن كنت ستكذب! الامون قال لي... وهي تدعى سيمون...

- لكن ادمون مجنون، بيرينيس!... أه، حسن... شكراً لك! سيمون بكل

بساطة بنتٌ من بنات الحانة أتحدّث معها... رفيقةٌ حانة قديمة..

- لستُ ألوّك على شيء، اوريليان... ولو كانت صديقتك! أنت لا تعرفني...

لم أطلب منك شيئاً... ولم تعدني بشيء...

- وعدتُ بكل شيء!

- صه... صه... دعني أتكلّم. أمس مساء فقط، كانت بيننا تلك الكلماتُ

الثلاث الصغار التي كانت الأنوار بعدها باهرةً لي... وددتُ كثيراً أن أصدقك،

ثم إذا بأدمون...

- فيم يحشر نفسه؟ ماكنت أستطيع العودة الى منزلي، والنوم، هذا كل

ما في الأمر... كنت بحاجة الى الضوضاء، الى الجمهور والأضواء والموسيقا...

فأين أذهب في تلك الساعة؟ وقد تعودتُ الذهابَ الى تلك الحانة، كنتُ خائفاً من

النوم، من فقدانك وأنا نائم... في الأحلام غريبات رهييات...

خيم صمتٌ عظيمٌ بينهما، تم قال اوريليان بكل ما أوتي شباؤه من عمق
«بيرينيس... لم أقل لامرأة قط في حياتي انني أحبها...»
نفدت إليها الكلمات قوية، حارة، مغردة، فتنهت، وقالت «كيف يمكن
هذا؟ وصدقته على الفور، وأردفت: «وأنا أيضاً لأعرف شيئاً عنك... سوى أنك
فتى طويل أسود الشعر، شعرتُ نحوه... لا ينبغي أن تُقال هذه الأشياء.. شعرتُ
نحوه بانجذابٍ من اليوم الأول... ولا سيما في ذلك المساء عند السيدة دي
بيرسيغال...»

كان يعلم أنها تقول الحق، وتذكر تلك الحركة التي مالت بها نحوه، قبل
أن تلقي روز أشعار «رامبو» بالذات... كانا قريبين أحدهما من الآخر، وحاول
أن يمسك بيدها.

- «اهدأ، اوريليان... لا تلمسني عندما أعترف لك بضعفي... ليس هذا من
الشهامة في شيء... اهدأ، وتعقل... لا أريد أن أحمل نفسي على حمايتها منك.
ألا يمكن أن أكون رفيقتك.. مثل سيمون؟

قال:

- لا، بشرفٍ لا.

غطت عينيها بيديها وهمست «يا للمصيبة!»

- ألم تفهميني؟ قلتُ لك إنني لم أقل لامرأة قط...

- أه! كرر ذلك.

- أحبك...

نحت يديها وأمسكت بصدغيها، تزايد انحناء عينيها بهذه الحركة، وعزلت
بخنصرها المضمومتين شعرها الأشقر عن وجهها كما لو كان ثمة عصاة.
كانت هذه «بيرينيس» قيصرية... في الشرق القفر...

- «أنت تتغيرين، بيرينيس، مثل مشهد تهبّ عليه الريح... لست امرأة

واحدة... أنت جمهور.. كل النساء...

أخاف أن تضيع في ذلك المشهد...

- لاسخري! قلتُ لكِ اني لم أقل قط...
- لم يقل قط؟
كانت تصدّقه. كانت تصدّقه. كانت تصدّقه. وقالت مع ذلك
- ذلك لا يكاد يُصدّق... كيف فعلتَ في هذه الحياة؟ حتى عن طريق
الخطأ... مرة واحدة...
- لم يحصل ذلك...
- أه! هذا مفرط العنوبة، هذا يُثملني... قل ذلك أيضاً...
- أحبك...
- الهي، الهي، إني أَسْأَلُ إن كان ذلك خطيراً بالنسبة إليك كما هو.
خطير بالنسبة إليّ.
أراد أن يقول شيئاً فأوقفته
- لعلك لم تقل ذلك... لكن ألم يكن هناك امرأة لها حسابها في حياتك،
طوال هذه السنين؟
هزّ رأسه وضحك
- لم تكن سوى مُعاشرةٍ واحدة رهيبة وطويلة...
- معاشرة؟
صدمتها هذه الكلمة. فتسرح.
- الحرب...
تبسّمت، ابتسامة القناع هذه المرة، فقال.
- هوذا... أوه، لقد تلاشت!
- عمّ تتكلّم؟
- لآتشيء... سرٌّ من أسرارِي! نعم، لم يكن في حياتي سوى الطفولة
والحرب، ثم بضع نساء لا امرأة واحدة...
- إني أخاف من «بضع» هذه، يا صديقي، فلعلي سأذكر بينهن ذات
يوم...

بادرها اوريليان بحركة نزقة، وأحسّت بقم الرجل على يدها، فمِ متّضع،
«شفوف» شاب، تركت يدها وعلمت في هذه اللحظة أنه لها، قالت
- «الحرب... يُرعدني التفكيرُ في أنك كنتَ في غمارها، رجلاً بين الرجال،
مع مخاطرها وفصولها وأمطارها... ستحدثني عن تلك الحرب، أليس كذلك، وإلا
لبقي الكثيرُ منك مجهولاً عندي...»

- قلّما أحبُّ أن أحكي عنها... فهي تتذرّع بكل وسيلة لتعود... يجب ألا
أعطيها فرصةً لتلاحقني، تلك العشيقة القديمة. إنها تُرعبني... أنا نفسي
أحياناً... عندما أنظر الى يديّ وأفكر فيما صنعتا... هاتان اليدان...
وأراها يديه مثل شاهدين مأساويين. باعتهما المرأة فارتعش
- وأنت، بيرينيس...؟

رأت نظرتة، فسحبت يديها، وقالت:

- هذا، لن نتكلم عنه بيننا...

- ومع ذلك...

- أرجوك.

فخفف رأسه.

نظرت إليه وهو كذلك. وعلمت أنه يمكن أن يكون بائساً، فقرّب ذلك منها.
رأته ثانية وهو يصل الى منزل السيدة غودمان، ليقع، وهو أعزل، في الفخ الذي
اخترعه زامورا، تحت وطأة ذلك الرأي العام المتعسف، الظالم. آه! نعم، كيف
يرانا الآخرون؟ باللفظاعة... لكنها قد انحازت الى اوريليان. وهي تعلم أنها
تستطيع الدفاع عنه. وأخذت تكره الرسام و«ديني» الصغير، وأهل الفن هؤلاء،
حبيسي أنواقهم وأساليبهم... ما أعظمه بجنبهم! كان عظيماً وضعيفاً...
واستيقظ كل ما فيها من أمومي. وولدت فيها فكرة الأمومة نفسها، وارتفعت،
وعجنتها، أغمضت عينيها، وصارعت الألم، وتبسّمت...

- «بيرينيس! هذه المرة...»

جفلت، ورأته، نصف منتصب إزاءها.

- هذه المرة، فيمَ كنتِ تفكرين؟ بسرعة...

ترددت ثم قالت

- ربما كان هذا سرِّي...

غضب، إنها تفعل مثلما تفعل سائرُ النساء، كانت تتملص وتحفظ
بمناطق مظلمة، بسرٍّ لاقيمة له، ومالبث أن لام نفسه لأنه فكر في ذلك، وأخذ
يتابع على وجهها النور الأصفر المائل الى لون الشاي والأتى من ازهار زجاجها
متخشن.

وفي غضون ذلك، كانت تنزلق من بين أصابعه مثل سلور، كانت الدقائق
تمر دون أن يعلم شيئاً عنها، هل أحسّت بهذا الاحتياج فيه؟ أكانت تعتقد أنها
تُحكّم بذلك سيطرتها عليه؟ عند النساء ميلٌ غير معقول للتحكّم في الرجل... لو
شاعت أن تظلّ شبحاً بالنسبة إليه لما فعلت غير ذلك، بيد أنها كانت إنسانية الى
حد بعيد... وفكر في نفسه. يجب أن نجابه الصعوبات.

- بيرينيس...

- يا صديقي؟

- قال لي ابنُ عمك... لماذا جئتِ الى باريس ولماذا لاتبقين مدةً أطول؟

- لأن...

واحمرّت حمرةً شديدة وتوقفت.

- كدتُ أكذب... لاتحاول أن تحملني على قول مايبعدني عنك، دون شك.

- أنا، أبتعد عنك!

- نعم الحقيقة ستُبعدك عني، ولاأريد، لأريد أن أضيعك... الآن!

هذه «الآن» جعلت قلب «اوريليان» يخفق، خاف أن يكون قد انخدع

بلهجتها، وطمع في اليقين البارد.

- ماذا عنيتِ بقولك «الآن»؟

هزّ هذا السؤال بيرينيس، شربت شيئاً من عصير البرتقال، من كأسه.

ومررت أصابعها إلى شفتيها، وارتجفت وجنتها.

- عَنيْتُ... عَنيْتُ... لا تكثُرُ من السؤال! انظر، لقد كدتُ أكذب عليك، وأنا مسهرونة... لا أود أن أضطرَّ الي الكذب عليك كما لا أود أن تكذب علي.. آه، اوريليان! ليكن في الحياة، على الأقل، شيءٌ عظيم، ونقيٌّ ونظيف...! أنا أثق بك، اوريليان...

غيّرت وجهة المسألة، لكنه خاف من التعبير الذي اتخذته. فقال في نفسه «إنها تتلاعب بي!» ولم يكن بوسعها أن يحمل نفسه على القبول بذلك لعله قد لامس بسؤاله مأساةً أو جرحاً؟ كانت تفعل كل شيء لكي يفكر في ذلك، دون أن تقول، هل تعلم أين يبدأ الكذب؟

- يجب أن تُعيدني الى شارع «رينوار»...

- كيف؟ منذ الآن؟ ألا نتعشى معاً؟

- في بيت أقربائي مدعوون... لا، لا أستطيع... كفى ذلك في يوم واحد... لا أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك... لقد أهديتني أعظم هدية... نعم، بقولك لي... يجب أن أكون وحدي لأفكر فيه... لا تغضب، يا صديقي! ولا تطلب مني شيئاً! فكر في أنني صرتُ أقبل كل ما تُعطيني إياه... لعله لا ينبغي لي... لكن ما العمل؟ وكيف أرفض؟ ثم إنني ربما كنتُ مخطئة، اوريليان... لقد كنتُ حلمت أن رجلاً سيضحني بكل شيء ذات يوم، وسيُعطيني كل ما في قلبه... هكذا، دون أن نعلم لماذا... دون أن أطلب شيئاً... دون أي شيء... أنت ترى أنني مجنونة، وأن الموضوع غير ذلك!

- بيرينيس!

- أحلامنا، أحلامنا لا بد أن تضحك مني، هذه الريفية الصغيرة، كما

تقول في نفسك...

- بيرينيس!

- كما في الكتب، أليس كذلك؟ لا! إن ذلك هو بالذات ما لا يوجد البتّة في الكتب... حلمتُ فيما مضى، ورأيتك... وقلت الكلمات التي لم أكن أنتظرها... الكلمات الرهيبة...

- بيرينيس، أحبك...

قال ذلك بضمير المفرد، تلقتُ هذا الخطابَ بضمير المفرد في صميم قلبها. وثبتتَ الحمتَ الطويلَ يدها المرفوعةً.
وفي الحانة، كان الطيار الذي أُخلفَ الموعدُ معه يدفع ثمن شرابه، وسوف يستقبل ضجرَ أمسيةٍ فارغة.
- أعدني الى شارع «رينوار».

- غير ممكن!
- كنْ معقولاً. غداً سأمنحك اليوم كله. خذني في الساعة العاشرة. سوف نتناول العداءَ معاً...

- وماذا سأفعل هذا المساء؟
كان ينظر الى الطيار وهو خارجٌ. وجاءت من الدفّاف هبةٌ رطبة سوداء.
- فكرُ فينا، اوريليان... اذهب الى «لولي إن شئتُ، وأنا أسمح لك أن نقضي لحظةً مع سيمون... أنت ترى لي ثقةً بك.
لاحظ حينئذٍ فقط أنها كانت ترتدي الفستان الذي كان عليها في أول لقاء. هذا الفستان الذي وجده بشعاً. كيف كانت عيناه حينئذٍ؟
بدا لهما الطريقُ من «الاوربا» الى «باسي» مع وسواس سوق السيارة، والجليد، والسيارات، طويلاً جداً وقصيراً جداً. كان «اوريليان» يحس كما كان يحسُ عندما كان طفلاً بعد العودة من المسرح. قلقٌ، وخوفٌ من تبديد كل شيء. وفي مكانٍ ما من جادة «التروكاديرو»، كان الجو مظلماً جداً، فارتدى عليها. دفعته عنها.

- لا، لا، لا أريد! لا أريد!
كانت تضربه بقبضتيها الواهنتين.
- كُفْ، وإلا فلن أراك غداً!
خجل من نفسه، وتلعثم، وعاد الى المقود، وجرى بسيارته.
- أتسامحيني؟
وفي العتمة، أسندتُ بصمتٍ خدّها الى كتف الرجل.

ومع ذلك فقد كذبت بيرينيس على «أوريليان»، أوه! في قضية ثانوية إذ لم يكن أحداً على العشاء في شارع «رينوار»، في مساء الأحد، والخدم مصروفون، تناولت المرأتان وحدهما وجبة باردة، لابد أن هناك مأساة، كانت عينا بلانشيت حمرالوين، وقالت لن يعود آدمون... وكان واضحاً، أنها، مع حزنها، أخذت تنظر الى بيرينيس خفيةً وتفترض الافتراضات.

كانت بيرينيس المستسلمة لنشيدھا الداخلي، تتظاهر بأنها تعبد المشاركة في عمل هذا العشاء الخفيف، مع أغلاط مفاجئة، وتلف كأس وصحن، فقالت بغفلة «أين كان رأسي» فأجابت بلانشيت بجفاف «إني أتساءل عن ذلك»، ورأت بيرينيس بضيق أنها كانت تتساءل عن ذلك حقاً.

- «قبلت الصغيرتين قبل قليل... ماكانتا نائمتين بعد... أبتأ أن تدعاني أنصرف...»

قالت الأم وشفتها مزمومتان.

- إنهما تعبدانك، الأمر بسيط جداً. تقول لي المربية إن «فكتوار» تطلب «نيسها»^(١) أولاً، ثم فطورها، ثم أمها...

- لن تغاري مني؟

- أغار منك؟ أه! عجباً!

لم يكن لضحك بلانشيت الزائف من تفسير. فأحست بذلك واضطربت، وقالت آخر مايجب أن يقال

- أه!... عنيت «فكتوار».

- ومن ظننت إذن...

صمتتا كلتاھما، وقطعتا الخبز، وتبادلتا «البورتو» وشرائح اللحم المبردة.

هتفت بيرينيس بعد وقت

(١) أي بيرينيس المترجم

- ولم أعن أدمون مع ذلك.

هزّت الأخرى كتفيها

- نحن نقول حماقات..

وجاء دور بيرينيس لتضحك ضحكتها الزائفة. ما الذي يمكن أن يكون بين بلانشيت و...؟ ولم تلفظ الاسم أمام نفسها.

كانت قاعة الطعام فارغة، بطاولتها الكبيرة، وشموعها الكهربائية ذات الشمع الاصطناعي في زاوية، وأية الطبقة^(١) والصحنين، والمرأتين، ونصف زجاجة «بيريه»... القاعة زاهية طويلاً، حمراء ومذهبة، مع أزهار بلا سوق في كؤوسها، وكراسي مبرنقة صينية من عند «مارتن»، وصنجة صغيرة قرب بلانشيت، لن تدفئها، إذ لا أحد في غرفة الخدمة.

ظنّت «بيرينيس» أنه يحسنُ بها أن تعتذر:

- أتعلمين أنني أحبّ ولديك كثيراً، وهما تحسان بذلك...

ظنّت بلانشيت أن في كلامها لوماً غير مباشر لحالها مع بتقيها. فقالت:

- هذا جدّ طبيعي... بعدما وقع لك...

ورأت برضاً أن جمعتها قرصت قلبَ قريبتها. ومالبثت أن حنقت على

نفسها من هذا الرضا.

- اعذريني... ماكان ينبغي أن أقول هذا...

- اوه! لا عليك... الحقّ معك... في ميلي للصغيرتين الكثير من خيبتني...

أما بالنسبة إليك فذلك بسيط جداً، عادي جداً... وأما أنا...

أرادت بلانشيت أن تعاقب نفسها عما فكرت فيه. فعادت الى ماكان

يؤلها..

- لا ينبغي أن تحزني لذلك... فأنت شابة، وأنت تُعجبين...

- أنتظنين؟

(١) منضدة توضع عليها أدوات الطعام. المترجم

قالت بيرينيس ذلك بسرعة فائقة، ابتسمت بلانشيت، وكان في ابتسامتها شبحٌ يطفو بينهما، ويتردد في أن يستقرّ على شفّتيّ هذه أو تلك. ماكان أشدّ طول الغرفة، وفراغها، وما أحسن مافيها من سلامة الذوق، وما أبهى مساء الأحد هذا. انطلق اللهبُ من على لسان بلانشيت

- إذن... رأيته اليوم... اوريليان؟

خفق قلبُ بيرينيس خفقاناً شديداً، كان ثمة شيء بين اوريليان وبلانشيت، وقد لقيت كثيراً من المشقة لتجد في حنجرنها اليسر والتجرّد المطلوب

- اوريليان... لاأذكر أنني قلتُ لك ذلك، هذا الصباح، نعم... رأيته... كيف

عرفت؟

لم يكن الأمر يستحق التصنّع، إذ لم يكن معهما أحد. كانت سكاكينُ الحلوى الصغيرة تلمع على طرف المائدة، وقفت بلانشيت واتّجهت الى الطبقية

- أترغبين في الإجاص، نيس؟

سمّتها بالاسم الذي اختارته بنتاها لصديقتها الكبيرة. لم تكن غيّري بل حزينة. استدارت دون أن تنتظر جواباً

- ليتنا نفتح زجاجة شمبانيا؟ مارأيك؟ هذه الغرفة كئيبة... ويمكن لكتينا

أن ترتكب حماقة...

لم تعرف بيرينيس كيف ترفض. فلا هذه ولا تلك كانتا تشتهيان الشمبانيا التي لم تكن باردة، صعدتا الى المكتبة ومعهما كأسا الشمبانيا والزجاجة. كانتا شبيهتين بصغيرتين تعصيان الأوامر، وتلهّتا كثيراً بهذه المهزلة وهما تضحكان ضحكاً خالياً من الصخب، وكأنهما تخشيان أن تُثيرا انتباه أهلها النائمين أو الذين يلعبون البريدج في غرفة أخرى. وكانت كلتاها تتسائل إن كانت الأخرى مخدوعة.

سألت بلانشيت.

- أترغبين في الذهاب الى السينما؟

- اوه لا، الطقس رديء، وقد كنتُ أخرج كل مساء.

- لأنك إن شئت أن تذهبي الى السينما...

- أيسرك هذا، أنت؟

- أنا، لا... قلتُ هذا من أجلك... لأنك إن شئت أن تذهبي الى السينما...

- بما أنك لاتحرصين على الذهاب... يبدو أن هناك فيلماً ممتازاً لهارولد

لويد...

- أرايت، أنت ترغبين...

- أنا؟ إطلاقاً... لكن إذا كنتِ أنت.. قلتُ لك هذا لأنه قد قيل لي قبل

قليل...

- قيل لك... إن كان اوريليان فهو لايقهم شيئاً في السينما،

- لماذا اوريليان؟ لا، ليس اوريليان... لكن سيان عندي.

- لأنك إن شئت أن تذهبي الى السينما...

كانت المكتبة متجهمة شأنها شأن قاعة الطعام. فمع نظرة كل هذه الكتب الى المرأتين، والسلم الطويل، سلم السنديان الطبيعي، حيث ترك بعد البحث عن كتاب، فوق، قرب مؤلفات «موياسان»... ردد صوت بلانشيت مثل ساعة معطلة:

- لأنك إن شئت أن تذهبي الى السينما...

كان فظيلاً ذلك الأثر الذي تركته بضع قطرات من الشمبانيا، ظهر على

بيرينيس شيء من فقدان الصبر:

- كلاً، ليست لي أية رغبة... فرأسي يوجعني أولاً.. وأنا استميتك العفو!

وسأذهب لأتمدد لحظة في غرفتي...

نظرت إليها بلانشيت وهي منصرفة، وهزت رأسها. ومالت كأسها من

جديد. وقالت بصوت عال، وهي وحدها الآن بين الكتب. «لأنك إذا شئت أن

تذهبي الى السينما، فبإمكانك أن تذهبي إليها وحدك، يا صغيرتي، فأنا أكره

السينما!

تشوشت الأشياء قليلاً. أهي الشمبانيا أم الدموع؟ كلاهما، لاشك. وهكذا فقد رأت بيرينيس اوريليان. لقد افترقا بعد منتصف الليل، ليلتقيا في النهار. العالم يجري على هذا المنوال. نفترق في الليل للتلقي في النهار. ما اللذة التي كانا يجدانها معاً؟ إذ لم يحصل شيء بعد بينهما... أمؤكد هذا؟ وإذا كان قد حصل بينهما شيء؟ كُفي، لاشيء حتى الآن.

إذن ادمون له عشيقته. هذا أوضح ما في القصة. والأمر جدّي هذه المرة، لأنه غدا خبيثاً، شيطانياً. ما الذي تصوّره؟ إنه يعلم مايفعل. إنه يعرف امرأته جيداً. فهي امرأته. ولا حول لها. فهي امرأته. وهو يعرفها جيداً... شيطاني. يعرفها جيداً.

أطفأت الأنوار، ماعدا مصباحاً صغيراً من البرونز. وجلست على الأريكة، والشمبانيا بجانبها. إنها تشرب قليلاً وتفكر. وهي حزينة، والشمبانيا لاتفعل شيئاً. كم يعرفها، هذا الشيطان، ادمون، وهو يعرف كيف يقودها. ويسبقها دائماً عندما يجب تسجيل السبق. وهي بلا حماية أمامه. وهو يقرأ في قلبها. كيف اكتشف اوريليان في قلبها. وهو الآن يعذبها. وله عليها هذه المزية. إنها تقول في نفسها. «أنا غبية لأنني انقاد». لكنها تنقاد. من هذه الجهة، إنها تنقاد.

وبينهما مابين الأولاد حين يلعبون. فمن يسبق الآخرين هو الأول وهو الأول دائماً. أين هو هذا المساء؟ مع تلك المرأة. من تلك المرأة، هذه المرة؟ إنها تتألم لأنها لاتعلم، وكانت تظن في المرات السابقة، أنها تتألم لأنها تعلم. لقد اخترع هذا، ألا يقول لها. ففي نهاية المطاف... وبعد أن قال لها دائماً مالم تكن تسأل عنه، بعد أن عذبها بأن يقول لها كل شيء. هذه المرة... ماذا يعني ألا يقول شيئاً؟ هكذا... ما الفرق بين هذه المرة والمرات الأخرى؟ أي خبث منه! كأنه يعاقبها عن اوريليان...

لكن اوريليان في النهاية... أولاً إن ادمون هو الذي دفعها نحو اوريليان... ثم لم يكن بينهما شيء... ومرّت بيديها على شفّتيها كأنها تريد أن تهرسهما.

لا شيء؟ تسمين هذا، لاشيء، يابنت؟ وسمعت نفسها تضحك ضحكاً
أبله، لقد قبلها ذات مساء... وبعد ذلك؟ كانت تغمض عينيها، أه، وكان ما يزال
يقبلها...

تذكرت وجود بيرينيس، وبكت، طويلاً، طويلاً، على الأريكة، وحدها، ومعها
كأس الشمبانيا، وصمت البيت الذي كان يدق فيه قلب الساعة الجدارية الذهبي
تيك، تيك، تيك، تاك.... وكان ادمون يملك الحق في تعذيبها بسبب هذه القيلة
الوحيدة ذات مساء... وأن يبرر خيانتته بخيانتها المتخيلة، بتلك النية الكاذبة...
بذلك الكذب الذي كان يصفعها به في وجهها... أه، كم كان يعرفها، الوحش
وتشككه، مرض التشكك، ذلك الحـ... 'خطيع بالخطيئة!...
قادتها فكرة الخطيئة فجأة الى الله. وفكرت في الله برهبة. كانت امرأة
ساقطة. فتناولت قليلاً من الشمبانيا.



بيرينيس تتمزقُ في غرفتها. كان ذلك الفرع مُفرطاً في شدته، وذلك الرجل مفرطاً في عظمته. ذلك غيرُ ممكن. وهل تقع مثلُ هذه الأشياء؟ وهل يمكننا أن نَصمد طويلاً لمثل هذه العذوبة؟ نترك الكائن الذي نحبه، ولو للحظة، ونعود إلى العالم، إلى هذا الطقس، إلى البرد، إلى تنوع الناس الذي لا تفسير له، وتنوع الأشياء وهذا المنزل الموحش، هذه الصورة عن مآل الحب، بلانشيت... كانت ثملةً، هذه المرأة.

تعلم بيرينيس جيداً أنها إن فكرت في تلك المرأة التي في ابنة عمها بهذا العنف وهذه المראה فليس ذلك لأنها ثملت، فوراعها ذلك الشبح. أحقُّ ذلك؟ خامرها الشكُّ الآن، كانت، قبل قليل، على يقينٍ من ذلك. كل شيء في موقف بلانشيت، أمس في المسرح، انصرفها الفجائي... أوريليان لم يحبها؟ ما الفرق إذن؟ كانت له في حياته نساءً، طبعاً. لكنها لاتعرفهن. بينما بلانشيت... إنها في وجه بلانشيت، وبلانشيت ماتزال تحبه... وأنا التي حكمت على آدمون... لايمكن أن نحكم على أحدٍ، بآنسة، بلانشيت...

وأيضاً فإن بيرينيس كذبتُ على أوريليان. كذبةٌ لا أهمية لها، لكنها كذبة. ما أفضح هذه الـ«لاأهمية»! وإذا كذبت هي، أفلا يمكنه أن يكذب هو، ألم يكن يكذب؟ لايمكننا التصديقُ كما لايمكننا الحكم. ننساق للسعادة، وأية حماقة هذه... لن تراه غداً، يجب أن توقف ذلك، قبل أن تعجز عن تدارك الأمر. لن تراه غداً، لكنه سيأتي ليأخذها من هنا... كيف العمل؟ أتكلّمه في الهاتف صباحاً. إن سمعت تلك صوتها فقد هلكت... وهي تعلم ذلك. أتكلّف من يعلمه بالهاتف... يالها من قسوة... يجب أن تراه أيضاً، مرةً واحدة، لتعلمه فقط، لكي يعيد الأمور إلى نصابها... سيكون من نقص الشجاعة أن تهرب منه لأكثر، دون وضع كلمات له الحق فيها. لأنه في نهاية الأمر، لم يُسئ في شيء. فيم أساء؟ وهي لا تريد أن تُسيء إليه.

سوف تنصرف. يجب أن تعرف كيف تنصرف. أن تعرف كيف تنصرف بنظافة. مهما يكن الأمر فيجب أن تنصرف، وسوف تنصرف. لكن هناك انصرافاً وانصرافاً. الانصراف الحقيقي. أي أن تحرق وراءها كل ما بقي منها. والأمر أسهل عندما يتعلّق برسائل قديمة، وبالتذكارات، فأين الفضل إذا كان الأمر سهلاً؟

«لأريد أن أكون فاضلة، أريد أن أكون سعيدة...»

قالت ذلك بصوت عالٍ في وحدة الغرفة، فأدهشها صوتها. كان صوتاً غريباً. لم تتعرّف صوتها، لم تتعرّف نفسها. لم تعد تعثر على الطريق التي شقّتها أفكارها. استولت عليها صورة، وجهه، وهيئته وجسده. وأينما أدارت عينيها نحو الظلمة، وجدته هو يحيط بها ويلاحقها. حسنٌ أن أقول: أنا منصرفه، لكن إذا انصرفت لأخذ معي ما انصرفت بسببه؟... أوريليان، أوريليان. أه ذلك لا يحتمل! كيف أنقطع عن رؤيته؟ كيف أتخلّى؟

لقد ذاقَت تلك الخمرة العميقة المظلمة، وهي تحتفظ بالسُكر منها، ولا يمكنها، ولم تكن تقدر أن توطّن نفسها على فكرة التخلّي عن ذلك الدوار، حتى لو لم يكن سوى دوار. كانت متمدّدة على سريرها. ولم يكن من نور سوى نور المصباح المنخفض قرب السرير. كانت العتمة كلها ملأى بأوريليان، كانت العتمة تضيق النطاق عليها. أوريليان... أوريليان... كان الذنب ذنب العتمة، وكان ينبغي طرد العتمة لكي يُطرَد أوريليان. تردّدت. أتطرده؟ أه، كانت حقاً خالية من الكرامة والشجاعة! نهضت، ومشّت نحو الزر النحاسي. كانت الأزوار ثلاثة، واحد، اثنان، ثلاثة. صف أنوار السقف في الإفريز، المصابيح الجدارية قرب المرأة، حجرة الزينة التي كان بابها مفتوحاً ينبعث منه بياض جارح. مشّت نحو طاولة الكتابة، وأشعلت أيضاً المصباح الذي سقطت أشعته على المصنّف المفتوح الذي كانت فيه رسالة للوسيان بدئت ولم تكمل.

النور كله... غاب الشبح ولم يبق سوى أوريليان. رأت بيرينيس على كرسيّ الفستان الذي خلّعه قبل حين ولم ترتبه، وقبعتها، وقفّازها على الطاولة. لم تمر المرأة الفراشة من هنا، منذ الصباح، أو على الأقل منذ الغداء، وثمة

مقاعد في غير مواضعها، وقميص غير مطوي، وجوب زهبت منه سرده، وخف كستنائي...

رتبت ذلك كله. إن حركات الترتيب الآلية تتسبب حركات السفر، والمتاع المعد للسفر، ذهبت الى الخزنة الكبيرة الكبرى، ولست إحدى حقائبها، وفكرت في أنها يجب أن تشتري عطراً قبل أن تسافر. ما يزال عندها قدر من العطر لكن بما أنها ستغادر باريس... من المضجر أن تسافر بمعطفها الجديد، فلو حملته على ذراعها؟ هذا لا يمنع من أن يلقي بينهما السفر ما لا سبيل الى إصلاحه... سيكتب إليها. كانت تعلم أنه سيكتب إليها. إن شاء أن يأتي... لا، هناك أشياء مستحيلة. ستهجر باريس... ومع باريس ذلك الانشياء، ذلك الدفء... لا مكان هناك لل....

ستترك باريس. وأمام فكرة مغادرة أوريليان لم تجد في نفسها سوى الهياج في أن تؤذي نفسها، أن تنتزع قلبها. لكنها ستترك باريس، وأحسّت بالدموع في عينيها.. ورأت مرة أخرى تلك الشوارع والأرصعة والحدائق... باريس... والضجر الرهيب في الريف. والناس الذين ستلقاهم ثانية. والأيام، الأيام التي لا نهاية لها. وما قاله هذا وما ستقوله تلك. نساء الأطباء، أصدقاء لوسيان وأماها. وعادت إليها «مونروج» و«باسي» و«البانتون»، والحي اللاتيني... انتهى. والتويليري مثل وجنة تداعب... وشيئاً فشيئاً، في أعماق باريس الممالقة، انبعثت صورة أوريليان. والتقت أوريليان في الأماكن التي كانت فيه وحدها، التي لم تره فيها، التي لم تكن تنتظر أن تكتشفه فيها. أمسكت بها باريس على نحو غادر فاختلطت اختلاطاً هادئاً بمن تهرب منه، مسحت دموعها، ورأت نفسها في المرأة، رأت شعرها المشعث، فتناولت المشط وامتشطت.

الى أي حد كان حب أوريليان فيها خالصاً من كل شائبة؟ أكان حقاً ذلك الشيء العنيف، المطلق، الذي لاعلاج له، كما اعتقدت؟ اتهمت نفسها بأنها لا تحبه وحده، وأنها لا تحب فيه سوى نفسها. ألم تكن باريس وأوامها وأصاؤها وحياتها المتغيرة، وهذه الكثرة الكثيرة من المغمورين والمشهورين، الرجال العظام وأبناء السبيل، الزينات والمعروضات والحفلات الموسيقية والمسرح

والأحياء الخالية التي لانصادف فيها سوى الريح؟ ألم يكن كل ذلك يسعى الى التعلق بشكل إنساني ما، الى الربط بين حنينها وبين نظرةٍ وصوتٍ وضغطٍ حيٍّ على يد؟ أليس الأسفُ على ذلك كله هو الذي أقنعها بأنها تحبُّ اوريليان؟ أهى تحب اوريليان؟ اربعت إذ فكّرت أنها تتساءل عن ذلك لأول مرة.

ومع ذلك، إذا كان ممكناً أنه لم يُحبّها كما اعتقدت، كما دفعتهَا سذاجتُها الى الاعتقاد، فإن ذلك كان يهزّها هزّاً، كان غير محتمل، غير محتمل.. ماكان بإمكانها تصوّر الحياة غداً، وبعد غد اذا كفّت عن الاعتقاد بذلك، إن كانت قد خدعتُ، إن كان قد خدعها.. إني عشتُ حتى الآن بدون ذلك، فما الذي تغيّر؟ تقول ذلك لنفسها بلهجةٍ هادئةٍ زائفة، تقول ذلك لنفسها لأنها تخاف. بيرينيس كانت تخاف نفسها أكثر ممّا تخاف اوريليان، خوف من جرح الخيبة الرهيب، كانت تعرف ما بئّر الخيبة، كانت تعلم مامعنى الخروج منها، وكانت على معرفة كافية لتتكهن كيف أن من الممكن ألا تخرج منها.

كانت ماتزال أمام المرأة، تمتشط ولا ينتهي امتشاطها. ومن الممكن أن يكون الساعة قد بلغت الحادية عشرة. كانت الريح تهبّ في الخارج، اوريليان، اوريليان، كانت الريحُ تقول اوريليان! كانت تمتشط أمام المرأة، بحركةٍ غير واعية ومتقنة، وغيّرت تصفيف شعرها، ثم فقدت صبرها، فحلّت ماكانت قد ضفرتة، وأعادت شعرها الى تجعيدته المعتادة، وامتشطت، وامتشطت، وتأتي لحظةٌ لايعلق فيها المشطُ في الشعر لفرط مامُشط... اوريليان...

غير أنه اذا لم يكن ذلك كله سوى وهم من أوهام الفراغ، فراغهما كليهما، وفراغ باريس الممتشطة جداً، النظيفة جداً، حيث لايعلق فراغ قلبيهما بشيء، فراغ قلبيهما الهائل؟ وإذا لم يكن كل ذلك سوى وهم ينضاف الى غيره من الأوهام في هذه الحياة التي تتتابع، وتمتدّ، والتي بادت فيها الطفولة، والتي يحترق فيها الشباب ببطءٍ، والتي لن تترك فيما بعد سوى آثار المرارة، وهي آثار تُصنع تجاعيد القلب والوجه، التجاعيد التي تخيلت أنها تولد ببطء في أعماق المرأة؟

اوريليان...

«هل أحببت هذا الأحد؟»

لم تُجب «روز»، كانت تنظر الى يومها ذاك.

كانت عائدةً، عند الظهر، الى «ريتز» من شارع «كامبون»، وفي الحانة كان ادمون ينتظرها. مرّاً بالقاعات والمطعم، إنه لمن الممتع أن نتعشى في الحديقة... في هذا الفصل... كان ادمون بالغ التألق في ملبسه. وكانت النساء ينظرن إليه بقدر ما ينظرن الى «روز»، على الأقل.

«أهذه «روز» ملروز»، ومن هذا الفتى الجميل معها؟»

كانت تبتسم. لم تجد طاولةً ترضى عنها. انحنى ادمون عليها

- «إذا كنت لاتخشين سوء الطقس، فقد تركتُ سيّارتي في ساحة

الفندوم... وأنا أعرف مطعماً ممتازاً...»

خرجوا من ساحة الفندوم. وكانت سيارة ادمون الطويلة، العالية الخضراء

المبطّنة باللون الأحمر تكسّف جميع الذين يصعدون إليها. وثبتت السيارةُ

واتخذت مسارها بسرعة مذهلة وناعمة حتى لا يُظنّ أنهما يمران بالمدينة.

تجمعت روز تحت غطاء «الزيبيلين».

- الى أين تقودني، «مونديني»؟ جوادك يبصق ناراً! بلا مزح، ها؟

سارا عبر «الغابة». أغمضت عينيها.

- «أنت تسوق كما ترقص، وحش «روزه»! وترقص كما...»

أغلقت فمها بقبلة. كان له في حياته يُسرُ الحيوانات المتوحشة. وإذا كان

وراء مقود سيارته لم يعلم جاره أنه بجانب قُطب من أقطاب السيارات أم

بجانب لص في عرض الطريق. كان يأخذها الى فرساي. مرةً أخرى...

كان الفندق يطل على الحديقة، ويكاد يكون في الحديقة. ملوك اليوم

يأتون أيضاً ليقضوا عطلة الأسبوع عند الملك- الشمس. فها هنا كلُّ الراحة

والترف والتكتم. الزائر معروف دون أن يكون معروفاً أكثر مما ينبغي. ثم أية

خدمة! شبتت السيارة في الفناء، وأوقفها ادمون بحركة من يده أمام مطلع

الدرج.

- «هل شقّتي جاهزة»؟

الحاجب، البوّاب، الخدم، الشقة رقم ١٥! الوصيف يحمل غطاء الفرو،
السيد والسيدة يعبران البهو، المصعد...

همست روز

- أنت اتّصلت بالهاتف. وتظاهرتِ بأنك...

فكّرتُ انه كان يُهيّئ مفاجأة. فُتِحَ لهما صفٌّ من ثلاث غرف. شاهدت من
أول نظرة فيضَ الورود البيضاء والشاحبة. أي أنه كان ب... حسبتُ الثمن.
خيالي. كل شيء يختفي تحت الورود. وعشية عيد الميلاد.

التفتت وقالت بأجمل صوته المسرحي

- يا صديقي، أنتَ حقاً غريب الأطوار!

إنحني رئيس الخدم الذي رافقهما «الوجبة جاهزة في قاعة الطعام...»
كما طلبتها ياسيدي... وإذا رغبت سيديتي...

- شكراً، مارسيل، سأستدعيك...

ماألطف هذه الحرارة، وما أحسن تساويها، وهذا العطر! أخذت «روز»
وروداً ونشرت أوراقها..

- يا الهي، ادمون، أنت غير معقول! هذه ثروة في حين يموت ناسٌ من
الجوع والبرد! هذه ثروة من الورود!

- جميع الورود لوردتي...

ساعدتها في خلع معطفها. ما أعظم شبابه وقوته وجماله. أه! الوحش، وما
أغناه..

- ما أحبه في مغامرتنا... أنها تنمُّ على رداءة الذوق تماماً!

ادمون يستمتع برفقة روز لأنها امرأة حقيقية لا تتوانى عن شيء، تحبّ
هذا وتعلم ماهو، ومنذ كارلوتا لم يجد قط عشيقة مثلاً يرتاح إليها. وإذا كانت
معجزة شبابه معجزة بكل وضوح فإن ذلك أيضاً سبب يدعو إلى التعلّق بهذه
المرأة التي أكثرت من الأسفار والتي فيها نقاط تشابه بالنسبة إلى الرجل. فهو
يعبد صنوف المدح التي تكيلها له. قالت:

- لم أر قط أحداً له ثيابٌ داخليةٌ متلك، لابد أنك تقضي حياتك في اختيار سراويلك، يابائس...

- وفي أي شيء تريد أن أقضيها؟

- وأنى لك الوقت، مع جميع أعمالك وخططك!

كان من الثابت بينهما أنه مرهقٌ بمشاغله، مع سياراته وبيوته، والبورصة والكاوتشوك والبتروول، وكل شيء. وقد لاحظت «روز» أنه لا يكره أن تعدّه هي نفسها شخصيةً مهمةً، رجل أعمال هائل، هذه هي الكلمة. وهي تذكره بذلك بين الحين والحين، لكن الواقع أنه يملك أجمل سراويل في العالمين، بغض النظر عن القمصان والجوارب. وإلى هذا فهو أنيق مثل فتاة قوي العضلات مثل سائق عجلة.

- «أنا أفسد في أية ساعة نهضت، «موندنيه»... فمع هذا العمل الذي على جسمك... وهذه الطريقة في إعداد نفسك لكي يُنظر إليك في كل دقائقك... أنت مثل ريلة عداء الدراجة من البداية إلى النهاية... الصبيحة لا تكفي... أه! الملتني، أيها الوحش!

لا خلاف في أن من السائع أن يكون القواد مليونيراً. ولا سيما إن كان شخصاً ذكياً مثل «موندنيه»، فلا حاجة معه لأن تظهر المرأة أصغر مما هي. هذا ما يحبه. وهي من النباهة بحيث تحسّ بذلك، وتتحدث عن عمرها، وتغضّ من نفسها، في شيء من الحزن، أليس كذلك؟ وهي لا تشعر هذا الرجل اللين الجانب أبداً أنها تستمسك به، أنه لها، إذا أنها تتظاهر، في كل مرة، بالاعتقاد أن هذه آخر نزوة، آخر نزوة غير مفهومة، بالنسبة إليها، وأنها لن تستبقيه على كل حال، وهذا ماتفهمه أعظم فهم.

تمت:

- «أيا متوحّشي، أيا مجرمي! لأنّ تُضاجع أمك، مالك! إنه لا يعرف ما يفعل، وهو جميل إلى أبعد الحدود... ألا تتعب من أن تكون جميلاً هكذا طوال الوقت!»

لا يبدو عليه التعبُ.

التهما كبداً دسمة وخرّباً الورود. «روز» تعبد الكبد الدسمة. وهي تنتظر من السرير الكبير ذي الأعطية الناعمة الى ادمون الذي يروح ويجيء، وهو عارٍ كلياً من الغرفة الى صالة الحمام. الماء يغرد؛ وهو يلهو باستكمال زينته أمامها... «يا لك من استعرائي رائع، يا عزيزي! تعال الى هنا، لتكون لي قليلاً... ساقاك، ياسيدي، ما سوّيتا إلا للنظر...»

إنه ينتصر. مع النساء الأخريات كانت له شكوكه. شكوك الرجل الذي يعلم حقّ العلم ما المال الذي يُكسبُ على السرير. أما مع هذه فهو يشعر أنه الرجل الذي كانت ستدفع له لو كان في متناولها الثمن. وهي «روز ملروز»، «روز» العظيمة... سيجعلها تصرخ أيضاً.

- «لا يُصدّقُ هذا.. أنت دائماً مسفوعٌ بشمس أب... في هذا الفصل من السنة! كيف تفعل؟ تبدو كأنك قد سوّيت لدى هرمس... وهذا الشعر الباعم... إن ذلك لخالٍ من الحشمة.. لم أر قط رجالاً بشعرٍ كهذا الشعر! أنا أبدو مثل اللفت بجنبك...»

هي تعلم جيداً أنها بيضاء رائعة البياض، وتعلم جيداً أن ليس هناك من حيث الجمال أجمل من نهديها اللذين يدوان صغيرين وهما ليس كذلك، واللذين لا ينفرجان بذلك المقدار إلا لتسهلاً مرور الرجل... همست

- «عندما أفكر أن لك امرأة رائعة، شابة... وأنت هنا بين ذراعي... أه! كذاب! كيف تريد أن أصدقك؟
- تعرفين جيداً أنني لم أحبّها قط...
- ومع ذلك تزوّجتها...»

- أحب النساء الأنقيات، ولم أكن أستطيع الاكتفاء بها!
إنها مشغوفةٌ بوقاحتها: «يانذلي!» وهي تحلم بضربةٍ لبلاشيت هذه التي تُسَخو عليها بالآفاظ، لكن وجهها طويلٌ قليلاً، ويدها غير جميلتين جداً...»

- قللي لي، أيها القاسي... وامرأتك...
- مالها امرأتي، روزيت؟
- كنت في البدء تتستّر عنها... لم تكن تريد حتى أن تعرف عزيزتنا
«ماري»... بسببها... ثم تغيّرت...
- الوضع هو الذي تغيّر...
- كيف؟

جلس في السرير، مطوّي الركبتين، وذراعاها حول ساقيه، وكثفاه
متقوستان تقوساً مخيفاً بدا منهما رأسه الصغير، بشعره المتفرّق، وعيبيه
العميقتين كأنما يرصدُ فريسته. والأسنان النّهاشة. قال
- «إليك ماجري».

كانت تُصغي إليه دون أن تصغي. كانت تتابع ماكان يقوله في خطوطه
الكبرى لأنه اصطنع تلك اللهجة التي كانت تعرفها جيداً عندما يلجأ الى علم
النفس، كان يُحبّ علم النفس، كان عيباً صغيراً يمكن أن نغترفه لرجل في
تكوينه. أما «روز» فكان علم النفس يُضجرها. وحينئذ كانت تتكفّف مظهراً من
الانتباه العميق، وهو مظهر حصّلته بعد عناء وهي تمثل «راسين»، إذ كان عليها
أن تُصغي الى مئة بيتٍ من الشعر دفعةً واحدة دون أن تدع الجمهور ينساها.
وقد فهمت بغموض موضوع كلامه. وعلى سبيل الإجمال. ففي السنوات الأولى
من زواجهما بلغ خضوعَ بلانشيت لأدمون حدّاً لم يكن معه الزوج يهتمّ البتّة
بعواقب أفعاله. وكانت بلانشيت التي كان عليها أن تُخلّص من كارلوتا تلك
الفريسة الحية جدّ سعيدة ولا سيّما أن زوجها لم يعد الى تلك المرأة التي كانت
مصدر رعبها الأكبر حتى بعد أن تزوّجها الأب «كيسنيل». كان ثمة شبه كبير
بين «كيسنيل» وابنته: ذلك أن «كيسنيل» حين علم أنه لا يستطيع الاحتفاظ
بكارلوتا له وحدها، قبل ذلك الكهل قديماً اقتسام عشيقته مع ذاك الذي سيُصبح
صهره. وقبلت بلانشيت بالمذلة نفسها ألا يكون زوجها لها وحدها وكان ذلك قدر
محتوم. وقد رسّخت الحرب مع ذلك الفراق المفروض، هذا الوضع بوضوح أكبر،

وهو وضع كانت صراحة «ادمون» تزيد في بروزه: كان صريحاً بحقوق وبهواية،
ففرّض عتسيقاته على امرأته لأنه كان يحب أن يُعذّبها، ولأنها لم تكن تستطيع
أن تلومه على ما لا يخبئه عنها.

لكنه، بعد مرور السنين، أخذ يحسّ فيها مقاومة صمّاء لم تعبّر عنها.
كانت تُقبل دائماً أن يحتفظ ادمون بحريته. وظلّت تتألم من ذلك ألماً المتّصل.
بيد أن بلانشيت كانت، في هذه العزلة المتطاولة، التي يلقاها فيها، تتغيّر. أوه
ببطء شديداً أخذت تتعوّد أن تكون لها أفكارها الخاصة بها.

استشف ادمون فجأة أنها ستُفقد منه، قبل أن تعرف هي ذلك. فقد ظنّت
هي عاشقة له. وكان فرط تديّنها يمنعها من خداعه. إن مغامرة صغيرة منها
كانت كفيلة أن تخفّف السوء. وقد فكّر في ذلك من أجلها. كان يكفي أن تنظر
الى عاشق باعتبار ذلك هو السبيل الوحيد الباقي. ماكان يريدُه هو ألا تتركه،
ألا تدعه بلا مأوى. وأين يجد مثل هذه الثروة كان هناك الأولاد، وهم الضمانة،
هذا مؤكّد فهو الأب إذ ذاك. لكن السنين والسنين تمرّ... وذلك يغيّر الرجل
والمرأة...

لم تعرفيني، «روزيت»، حين كنتُ ابنَ عشرين عاماً... كنتُ إذ ذاك
لأخشى أحداً... نعم، احتفظي بمجاملاتك. ابن الثلاثين إن أهمل نفسه... إنني
شديد العناية بنفسي، دون شك: كرة الملائكة صباحاً، قاعة المبارزة مرتين في
الأسبوع...

- هذا صحيح وأحسنّت فعلاً يجب ألا تَسْمَن...

- شكراً... على الفور! لم أصل الى هذا الحدّ بعد، لكن كل يوم يمر
يجعلني أقلّ ثقة بقدرتي على القيام بهذا الدور دائماً... بأن أكون دائماً حسنَ
المظهر... ستأتي لحظة يكون فيها الخوف من الشيخوخة عند بلانشيت دون أن
تكون محبوبة أقوى من سلطاني عليها...

كانت «روز» تتابع حركة شفّتي عشيقها وعيناها، عينا القصيرة النظر،
الجميلتان، مغمضتان نصف إغماضة. كان يشكو من امارات السقوط، ثم إن
الحرب، كما أكّد أتلعت له بطنه... أي مغناج هوا

- «إن كنتِ تظنّين أن الخادق والأنقاب وغير ذلك دافعٌ للجمال... شتاءان في الماء والوحل»

- ومن الناس مَنْ يدفع غالباً ثمنَ حمامات الوحل بالنسبة الى أمراضهم العصبية...

- أنا سبّب لي مرضاً عصبياً... انظري، هذا يرى في عرقوبي...

- لحسن الحظ أن كانت الحرب، ولولا ذلك لكنت جهنمياً

قالت ذلك وتنهّدت.

ماأقدره على الكلام على نفسه، هذا الشخص.

قال:

- «عمر بلانشيت ثمانية وعشرون عاماً... وهو يحرض فيها لاشعورياً

الشعور بعمر آخر... لم تعد الصبية التي كنتُ أسيطر عليها... ولكي أسيرها

أمامي لأبد أن أهتمّ بذلك... وفي رأسي شيء آخر، أليس كذلك، ياسيديتي؟

التضحية بحريتي والسهر على ثروتي، قليل جداً بالنسبة إلي... قلتُ لك إنني

فكرتُ أن أمغامرةً صغيرة...»

هكذا ألقى بها بين ذراعي اوريليان. كان يعرف اوريليان. ليس هذا

الرجل بالخطر. ولن يسعى أيضاً الى انتزاع امرأته. ليس هذا من طبعه، ثم إن

بينهما نكريات الجبهة...

- «هل ضاجعتُ امرأتك ليرتيلوا؟»

أخذت «روز» تهتم به، هذه المرة.

- «تريدين أن تضحكي. لقد تلاعبا قليلاً... اوه! اوه! أنا أعرف أين أقف!

عملتُ كل شيء من أجل ذلك. لم تعرف بلانشيت، ماذا تريدين؟ إنها ماتزال

مولعةً بي، ثم انها أم الى ذلك! بصرف النظر عن البروتستانتية التي لها يدُ في

ذلك...».

كفّت «روز» عن الاهتمام. فهؤلاء النسوة اللواتي لايضاجعن... ذلك شيء

قذر. من طبيعة قاصرة، ربما.

نعم، لكن ادمون لم يكن مغمض العينين. كان يعلم شيئاً آخر ذلك أن امرأته التي لا تضاجع اوريليان لم تعد تفكر إلا فيه، وأنها أولعت بهذا الرجل أكثر مما لو كان عشيقها. كانت تحبه. كانت تتألم من أنها تحبه، وتحقد على نفسها لأنها تحبه. هاهنا كان الخطر».

قالت روز.

- اوه، بما أنها لاتضاجع! أنتم معقدون أكثر مما ينبغي في جيلك، ياطفلي الجميل!.

وأخرجت نهديتها من الغطاء بشيء من المسايرة.

تابع ادمون

- «سيأتي يومٌ تتركه فيه بلانشيت، بكل بساطة، ربما في عشر سنوات، لكن... سأكون ظريفاً بعد مرور أربعين عاماً... في تلك اللحظة، ولكي لا أفقد عاداتي، وتكون عندي ربطات عنقي، وسيارتي، ينبغي لي البحث عن بلانشيت أخرى، وفي سن الأربعين سأضطر إلى اتخاذ سيدة عجوز...»

قاطعت «روز» وابهامها على حلمتي نهديتها:

- امرأة من جنسي، يا حبيبي.

- عندما أقول «عجوز» فأنا أعني العجوز... وفي هذه الأثناء لا ينبغي أن تتخذ قضية اوريليان وجهة سيئة...

كان ذهن «روز» شاردًا. انصرفت إلى المداعبة وجمعت نفسها على اوريليان. فقال.

- كُفّي، أنتِ نهمَةٌ فوق الحد... حينئذٍ خطرت لي فكرة توجيه اوريليان إلى ابنة عمي...

- بيرينيس الصغيرة. إنها بشعة، لكنها تعجبني.

- قلتُ لكِ دعيني... حينئذٍ هُزّت بلانشيت هزاً بحيث أنها لم تستطع أن تتستر علي... وحدثت بيننا في هذا الصباح مشاحنة... لقد اعترفت... وخرجت عن طورها... انتابها شعورٌ مخيف بالذنب... أما أنا فتكلفتُ الشهامة... ولم يبق بيننا شيءٌ أذكر أن الأمور هكذا... أنا ضد القسمة...

- نذل!

- لن تغتصبيني بالقوة، أنا مُنهك... ثم إن لي الحق، في هذه الظروف، أن يكون لي أحد، أليس كذلك؟ بلانشيت تعرفني، فمزاجٌ مثل مزاجي،

- متبجح! تتحدث عن المزاج...

- سأوسعك ضرباً إذا لم تهدئي،

- لا تتكلم إذن عن المزاج!

- عندي شيء أبشرك به... إذا قبلت أن تصغي إلى ما أقول...
- أنا مُصغية...

- حسناً، يابنتي، لن أخفي نفسي على الإطلاق... بمقدار ما يلائمك ذلك...
مع «جاك»، طبعاً...

- ألا تخشى أن بلانشيت...

- كلا، لأن ذلك عاقبة خطئها...

- أه! أنت تبالغ! خطؤها...

- قلتُ خطؤها، وإذا كنتُ أنفق عليك منذ اليوم...

- تنفق عليّ؟

أخذت تنظر إليه، جادة، هذه المرة.

- ألسنتُ تبالغ؟

- لا، أنت تظنين أنني سأبدد أموالي...

- أه! هو كذلك، مستحضرات ملروز..

- ليس هذا سوى بداية سيكون لك مسرحك...

قفزت عليه تُعضضه وتقبله على الوسائد.

- كفى، أيتها الجبانة الكبيرة! دعكّني! هذا ثمين، لا تنسي... وسوف

حتاجين إليه!

تنفّس قليلاً. قال.

- اسمعي، يجب أن أفكر في المستقبل... بالنسبة الى الأشياء المنظورة
نوعاً ما... والى الإسهام في مشروع المستحضرات مثلاً... والمسرح... يجب ألا
نترك آثاراً يمكن أن تُستخدم ذات يوم للطلاق...
- ما العمل؟

- حسناً، العثور قدر الإمكان على مشاركين يسهمون برأس مالهم... لكي
تتخذ الأمور مظهراً تجارياً... ومسخرون^(١) عند الضرورة... أطلب إليك جدياً أن
تفكري في ذلك...
- مشاركون؟ لكن المشاركين، يا صغيري «مونديني» لا يوجدون إلا في
السريير...

- لاتتحامقي، سيدتي، فنحن من طبيعة غيور!
صبريت جبهتها.
- جاعتني فكرة!
- لا؟ هاتي لنرى..
- ماري! هذه فكرة مبتكرة! ماري! السيدة دي بيرسيغال في مجلس
الإدارة! ثم إنها مدينة لي بذلك، بسبب العجز... أتظن أنها ترفض مساعدتنا؟
- ماري، أبدأ... إن أنا... إن أنت طلبت منها ذلك!
- أه! لا تتحامق! أنت أيضاً، يا صديقي! لأنني أنا أيضاً أغار!
كشفت عن مخالبتها، فقبض عليها من عنقها. وحشرجت تحته.
- أه... أه... لقد قلت لك إنك ستصل الى ذلك...
عندما سأل الدكتور «ديكور» امرأته وهو ينظر إليها بعينيه الحزينتين:
- هل أحببت هذا الأحد؟

لم تجب وإنما أخذت تنظر إليه ثانية. ومن حولهما مسكنهما المتواضع
والبوهيمي في الدور المنخفض، الذي تختلط فيه أغراض الطبيب، وفوضى
(١) المسخر الذي يضطلع بعمل بدلاً من صاحبه الحقيقي. المترجم

مقصورة مسرحية، في الضوء الخافت، وفي صمت الساعة الثاثير صباحاً.
أخذت تنظر الى أحدها. كانت تسمع بوضوح قلب «جاء» الخفاق، المسكين.
البالغ اللطف، كان يبذل وسعه. لم يكن يُربكها. وقد اضطر أن يظل طوال
السهرة خلف النافذة، مصغياً الى كل سيارة، الى دوران كل سيارة، ماحيلته
هي كما هي.

التفتت إليه وقالت:

- جيكي... أتحب أن يكون لي مسرحي؟



نهض اوريليان في الساعة الثامنة صباحاً، الفجر.

لم تصدق السيدة «دوفيني» عينيها عندما وجدت المنزل خالياً، وعلى الطاولة توصياتٌ لانهاية لها. كان يجب أن يُرتَّب المنزل، بأسرع من هذا الوقت، ولم تلح السيدة دوفيني في الأفق منذ الحادية عشرة، ومع ذلك ففي صوان السفرة طعامٌ معدٌ يؤخذ عند الحاجة. هزَّت رأسها، أزعج السيد نفسه، احتاج الى حلويات، ثم لم يلمسها.

قالت بيرينيس ما أجمل الطقس!

لقد جعلته ينتظر ربع ساعة في المكتبة: هذا المجنون الذي يصل الى منزل أقربائها قبل التاسعة! كانت ترتدي طقمًا كحلياً، وعلى رأسها، على شعرها الأشقر قبعةً من فرو الخلد مرفوعة من الجانب، وكأنها قبعة رجل. فكَّر اوريليان أنها سيئة الملبس الى حد غريب. ولعلها لم تنم إلا قليلاً، فتحت عينيها دائرتان خفيفتان سمراوان داكنتان.

- نعم... أليس كذلك؟ في هذه الليلة، الثلج... وهذا الصباح...

نظرا كلاهما الى السماء من النافذة، الشمس، زرقة باريس الشاحبة.

وضحكت:

- كدتُ أظن أن ذلك من أجَلنا... ثم تذكرتُ... ذلك من أجل العذراء...

- العذراء؟

- أنت تعلم أن هذه هي أيام الالسيون^(١)... عندما يستطيع طائر

الالسيون، مادام البحر هادئاً، أن يبنى عشه في تجاويف الأمواج... في الأيام

التي تسبق عيد الميلاد... لأن الرب لم يشأ أن تتألم والدته حينئذ في الشتاء...

هزَّ رأسه وقال: «هذه أيامنا الالسيونية.. لأن الحب...

- اسكت... هنا!

(١) الالسيون طائر بحري اسطوري، المترجم

وضعت أصابعها على فمه... استبقاها وقبلها طويلاً. فُتح الباب ودخلت بلاشيت. هل فاجأتهما؟

قالت بيرينيس

- اعذريني، فلن أعود الى الغداء...

- أنت حرة...

مدت يدها الى اوريليان. كان فستانها المنزلي من طراز قديم، بتخريجات... كانت رائعة الجمال... مرّاً بصالتي الاستقبال، بغرفة الانتظار حيث نظر اوريليان الى بيكاسو في فترته الزرقاء، «بهلوان بالكرة»، و«مهرج» وقد جاءت اللوحتان من عند «كيسنيل» العجوز.

سألت بيرينيس بنوع من القلق «أتحب هذا؟» كانت تودّ أن يكون حسن الذوق. أجاب. «نعم... كثيراً... أكثر من تكعيبتيته... اوه لا، لا تلبسي معطف الفرو... فالجو لطيف، وتعلمين...

ومع ذلك، أثرت أن تأخذ معطفها... ولا سيما في السيارة... كانت معه سيّارته؟ كانت سيارة الأحصنة الخمسة تنتظر على الرصيف. لم يكن اوريليان يعلم مايريد. سوف يأخذها الى بيته، بالتأكيد. لكنه كان يخشى أن يظهر عجلةً مُستثقلةً أن أخذها هكذا، على الفور. ثم إنه فوجيء بهذا الربيع في عيد الميلاد. فهل يذهب الى الريف؟ ذلك يشبه شبيهاً عظيماً ما اقترحه على «ماري دي بيرسيفال»... كانت بيرينيس تودّ لو تذهب الى اللوفر لترى لوحات «انغر» و«مانيه»... لكن المتاحف مغلقة، نهار الاثنين... ليكن، لقد اقترحا كثيراً من المشاريع حول هذه الصبيحة، منفصلين ومجتمعين، ولم يعلما كيف يقضيانها. أحسّا أنهما ضالّان، متضايقان، ضائعان على ضفاف سعادتهما. كان اوريليان، في الحقيقة، سيرتاح الى البقاء هنا، في السيارة، بحذاء الرصيف... ممسكاً بهذه الصغيرة.

كانت بيرينيس تنظر إليه. يا لهذا الجسم العظيم... ما أغربه! كانت تجد فيه أناقة غير معهودة دفعتها الى الاضطراب. وفكرت الرجال عادةً، خرق...

ما كانت لتجروا على عدم التعميم... لكي لا تشقّ على لوسيان... لكي لا تفكر في لوسيان...

قال اوريليان

- يجب أن نقرّر... تعالي الى بيتي.

لم يكذ يلفظ هذه الكلمات حتى احمرّ في أية ساعة أمكن للسيدة دوفيني أن تصل، وهي غير منتظمة؟ وإذا كان المنزل غير مرتّب... رأت الحمرة ففسّرتها تفسيراً مختلفاً:

- لا... وأنت تشعر أن: لا... لا ينبغي أن تكون الأمور كذلك...

لم يكن هذا ما أرادت أن تقوله، وجاء دورها في أن تخجل. واستدركت:

- لنذهب الى أي مكان... في باريس... الى حيث لا يمكن أن نصادف

أحداً... الى مقهى عادي جداً... أحبّ المقاهي...

اقترح «الغابة» أرمونوفيل، ستلقى العالم كله! لا، الجادات^(١). لاخطر

عند الصباح... وصل السيارة كان بحاجة الى زيت، عاما في باريس الخفيفة، في هذه الاستراحة من فصل الشتاء، في الجادات الكبرى، تردّد اوريليان، كان كل مقهى مرتبطاً بمواعيد، بلقاءات... كان يرغب في مقهى جديد لاتطالعه فيه أية ذكرى. لامقهى «بوسيه»، ولا مقهى ايطاليا، ولا مقهى انكلترا... وكانت ترغب في مقهى أكثر عامية، تكون فيه المواعيد غير محتملة حقاً... جنحا الى مقهى يطل على ممر، وكان بين المرايا والأبواب الزجاجية الكثير من البريق حتى ليظن المرء نفسه في مسرح. كان هذا أيضاً مقهى من النمط القديم، الألوان الذهبية فيه في كل مكان، وفيه أعمدة صغيرة سمراء تيجانها معقّدة، ومقاعد حمراء، ومشاجب للمعاطف من طراز عصر النهضة. وقد انتشرت على الطاولات مرافق حروفها فضية، ومجلّدات غير متجانسة من الحوليات التجارية.. وخلف المشرب الذي كان من خشب الأكاجو مع بعض التطبيقات النحاسية مصفاة، وأمينة الصندوق في تجعيدة شعرها وبودرة الرز، وثمة درج يصعد الى الطابق الأول

(١) الجادات جمع جادة BOULEVARDS، المترجم

نحو صالة البليار، وعند مطلع الدرج تمثال بشمعدان. وكان للرخام عروق مثل أيدي الشيوخ. وعلى الأرض الشيء الوحيد الحديث. مركبٌ من جميع الألوان في قصاصات ورقية غريبة. كل ذلك كان خالياً من الناس إلا من شاب تقريباً، في زاوية من الحانة يكتب رسائل ويمرّقها. ويعد بعض الوقت جاءت امرأتان ضخمتان سمرأوان تجاوزتا سنّ الشباب وجلستا في الطرف الآخر من الصالة طلبتا نبيذاً فاخراً ونظرتا في صور فوتوغرافية تبادلتاها.

كم كان سخيلاً أن يكونا هنا في هذا الجو غير المناسب مع العواطف... أوقفته بيرينيس

- أنا، أحبّ هذا... هذا المقهى... إعلانات المشروبات الفاتحة للشهية... المصنّات الزرقاء... كل مالم تعد تراه... أنا مرتاحة هنا... أصغي إليك بانتباه أكبر... وهذا الديكور كغيره...

قال:

- هذا مايباقيني... الديكور... لسنا على خشبة مسرح. ودتُ لو يقاسهما سرورها. الديكور. الديكور، كان، على العكس، يفتنّها، ومن وراء الزجاج، الجادة والمارة، وعلى الجانب معرض المخازن، وهذا الحويض السمكي الشاحب، وشمس كانون الأول... استغرب أوريليان قليلاً هذا التعبير المتأنق عندها. لقد أحسّ مرتين أو ثلاثاً وعلى نحو غامض هذا الحرج معها. ضرب من التكلف، ربما لم يكن سوى شيء من الحياء... ربّما... شيء من الإعجاب بما كان يشغل الأوساط الطليعية... تذكر طلعاتها مع «بول ديني». وحزن حزناً شديداً. أحبّ أن يحمل الى هذه المرأة بعض التصحيحات. بأيّ حقّ؟ فهو لم يخترها وإنما فرضت عليه، لم يكن يدري كيف، مع كل مالها من خصوصيات يجهلها... آه، يكفي أن يأخذها بين ذراعيه، ويضمّها... حتى تضمحلّ...

نزعت قبعتها وحطّتها على الرخام، وحركت شعرها الأشقر حيث ألقى النور الباهت ظلالاً خضراء في الخصل اليابسة.

وضع النادل كأسى القهوة أمامهما . أخذت تعبت بقطع السكر . ولم تلمس قهوتها . ودّ لو تشربها . ودّ بشدة لو تشربها . لكنه ماكان ليقول لها هذا على الإطلاق . لم يعد واثقاً من أنه يحبها . لم يعد واثقاً من شيء . وإذا كان ثمة سوء فهم؟ كان التفكير في ذلك قاسياً . كان يحبها . كان يحبها . بيد أنه لم يتعوّد بعد هذه الفكرة . لا . لم يكن يحبها . أكاذيب رواها لنفسه . وعليه الآن أن يتخلّص منها . كيف . أحس أنه وقع في الفخ الذي عمله . لم يعد يتعرّفها . وظنها أكثر هزلاً وأقل أنوثة . تحرك قليلاً على المقعد . كانا جالسين جنباً الى جنب . وفجأة صدم ساق بيرينيس تحت الطاولة . فانسحب كلاهما قليلاً . واضطربت أفكار أوريليان . كيف ... لأنه صدم ساقها ... هذا الاضطراب السوقيّ أي شيء خارق للعادة هذا الحضور ! كيف ساقها ؟ لم يرها قط بوضوح . نحيفتان . تبدوان لي جدّ نحيفتين ... وربما كانتا مسرقتي النحافة ...

كان يتكلّم . كان يتكلّم طوال الوقت لكي لا ترتاب فيما خامره . في خيبته . في حركاته الخفية . في هذه الحرارة المفاجئة . عمّ كان يتكلّم ؟ لم يكده يعلم ذلك . كان يلعب لعبة التخبيّة مع ما كان يفكر فيه . كان خائفاً من أن يحبها . كان خائفاً من ألا يحبها . كانا هنا . في المقهى . على نحو غير معقول . وكان لديهما القليل . القليل من الوقت لهما . علم فجأة أنه سيفقدها . لم يعد يشكّ في أنه يحبها . وكان قلبه يخفق . وهو يصغي الى الكلمات البلهاء من فمه هو . عمّ يجب أن يتكلّم إذن ؟ عن شيء آخر . عن شيء آخر . ما أجدر كلّ شيءٍ بالسخرية ... إنها لاتعرفه ... ولو عرفتّه فهل كانت تحبّه ؟ لانعرف ماذا يجب أن نفعل لكي نُحبّ بأنفسنا ألاّ نظهر كما نحن أم أن نكذب . نحن نتردّد بين الأمرين . ونفعل الاثنين من جهة أخرى . كما قد يتفق لنا . نقدّم أنفسنا كما نحب أن نكون . كما نظن أننا يجب أن نظهر ثم نقول لأنفسنا : « هذا ليس أنا ... » ونسعى الى الظهور ... بأسوأ ما فينا ... الى الإزعاج ... منْ يدري إن لم يكن هذا هو السبيل الى الإرضاء ؟ كان يشعر بحصّرٍ مخيف . لم يكن الوقت يمرّ . وكان يفرّ مع ذلك . ماذا كان يقول ؟ « لقد اندفع في الكلام على طفولته . وكانت تسأله أحياناً ...

أرادت أن تعرف كيف كانت أمه... قال إن أمه كانت جميلة جداً... حلمت بيرينيس... جميلة جداً... أه، أن تكون المرأة جميلة جداً... لم يعلّق على هذا الكلام... لم يكن بوسعها أن يقول لها إنها كانت جميلة جداً... مثل أمه... كانت أمه جميلة جداً... بيرينيس... كانت شيئاً آخر... شيئاً أشرّ خفاء وقوّة... قالت: إنني أتساءل: كيف تراني...

حدثها عنها. كان يكذب. كانت الكلمات التي فكّر فيها غير محتملة. كان يحدثها عن نفسها كما لو كان يحدث امرأة أخرى عنها. بكلمات ضخمة، فارغة. ولو قد قال لها الأشياء الفظة، الحقيقية التي جالت في فكره عن شعرها، عن ذراعيها، عن يديها، عن زاوية ذقنها، عن بعض التعابير الشاردة عندها، عن بعض طرائقها الغريبة من الحركات التشنجية المضحكة، فلربما بكت. بينما كان يكذب، ويقول أشياء مبتذلة، أشياء صالحة لكل شيء، كان يغتاط من نفسه، ومن تلك الاستحالة في أن يقول ما هو كائن، في أن يوصل إلى الآخر تذوقنا لنقص، لسمة لم تكتمل، لشيء ثقيل. كان يكذب ولم يكن يكذب: كان يُترجم. كان يُترجم إلى لغة الإطراء الرخيصة العنف الذي كان مسكوناً به، وفجاجة اللذة التي كان يجدها في النظر إليها، هذه القوة الناقدة التي لا ترحم والتي كانت شيئاً من الامتلاك العاشق. أجل، كان يُحبّها، كان يحب هذه المرأة الحيّة، لا التمثال ولا الصورة، بل هذا الجسد الحرك، هذا الجسم، هذا الوجه القادر على التكشير وعلى الابتسام، هذه القسّمات المصنوعة للآل... تصوّرها في اللذة مع الخبث والدقة الشديدين فكف عن الكلام وارتعش. قالت: - حسناً، ها أنت ثمل مرة أخرى...

تمتم:

- المعذرة... ماذا كنت أقول؟... جاعني فكرة فجأة...

أخذت تضحك. ليست هذه أول مرة يقع لها هذا:

- أنت رجل غريب الأطوار... أنت تتكلم وتتكلم... وأتابعك... وأظن أنك

تحرص على ماتقول... ثم إذا بك تغيب ولا أجداك وإذا بك تفكّر في شيء

آخر... من الناس من يُزعجهم ذلك...

كان يعلم أنها تقول الحقيقة، وتخبّط تخبّطاً شديداً، لكن ما كان يخترعه
كان يهرب كالرمل، كان عليه أن يقول شيئاً مقنعاً، وجد مشاكلة الحقيقة في
الكذب، قال

.. ذلك أنني أشتهيك...

خَفَتَ صَوْتُهُ ليقول ذلك قولاً معبراً، رَدَّتْ بيرينيس رأسها قليلاً، كانت
مقتنعة، لكن الكذب كفٌّ عن أن يكون كذباً، كان اوريليان ينظر إليها وكان
مشغولاً بها بقوة، مأخوذاً بها بعمق، محمّلاً على موجة لم يسمعها وهي آتية،
حتى لقد أخذ يرتجف بكل جسده، فأغمضت عينيها، ثم فتحتهما وقالت: «أنت
ترتجف، أنت ترتجف ارتجافاً شديداً».
كان يرتجف.



قالت. «لا... لا أريد مطعماً كبيراً... أريد أن أتغدى كما تفعل أنت في كل يوم... يبدو لي أنني سأزداد معرفة بك». ولذلك أخذها الى «المارينيه». وفي الوقت نفسه من «المارينيه» الى بيته، كان الانتقال طبيعياً، سهلاً. ولذلك ترك سيارته في المرآب ثم عاد الى الجزيرة سيراً على الأقدام. لم يكن الطقس جميلاً ولا معتدلاً كالصباح، كانت السماء رمادية وكان ثمة ريح. وكان الرصيف الشمالي من الجزيرة بارداً، وخالياً أيضاً، يضيق بالضيف أشد الضيق.

نظرت بيرينيس الى الأشجار العارية الطافية فوق الحواجز والتي بدت من الحافة الغارقة كأنها الشهود المتساويون على الكارثة. وخطرت ببالها مدينة «اس». كانت الجزيرة بأسرها تبدو كأنها آخر درجة من الطوفان. شددت وصالت معطف الفرو، فرو السنجاب، جنون لوسيان. كان لابد من صنعه مرة ثانية، لأن تفصيله كان سيئاً.

بأي فضول دخلت بيرينيس هذا المطعم الذي يبدو مثل حانوت، كان طبقة أرضية مدهونة قديماً باللون الأبيض، في الجدران السميكة من البيت القديم، والطاولات والصنوق، والباب في الصدر. لاشيء غير عادي فيه سوى تنافر ألوان الجمهور المكون من أناس يعملون في هذه الجهة، من رجال بقبعاتهم، من انكليز فنانين، من طراز اكسفورد، من أزواج مفرطي الأناقة بالنسبة الى المجموع، وعزّاب مرتاحين، ومستخدمين، كان الجو دافئاً ولطيفاً. استقبل اوريليان كأحد رواد المكان. كانت له فوطته، لكن اليوم كان الاثنين، فأعطي فوطته نظيفة. في هذا الوقت بالذات تركت سيده طاولتها قرب النافذة. أرت الخادمة اوريليان الطاوله. انتقلا، قال: «هناك، ماذا ستعطينا اليوم؟» وساعد بيرينيس على نزع كمّي معطفها. «لا، شكراً، سأحتفظ به». أدارت عينيها نحوه «ضعه على كتفي...» بدأت الخلطة الحميمة بينهما.

بينما كانا ينتظران المقبلات أخذت تتحدث عن نفسها أخيراً. جاء ذلك ببطء، كالثقة، بطرقٍ مجهولة. كان لابد لهما من هذه الصبيحة بأسرها. ما الذي تابعا؟ كانت تتحدث عن نفسها، وكان ذلك رداً على مارواه لها قبل حين ومالم يكن سوى فاتحة، سوى سؤال

- أحب، يا أوريليان، أن تعرف البيت الكبير... ففيه قضيت طفولتي... ولا يمكن أن تعرفني تماماً دون أن تعرف ذلك البيت الكبير... كنت وحيدة مع أبي، والخدم... والريح... بيت كبير أصفر وكثير ناء في الهضاب... مع الشمس والريح...

أمسك بيدها. حاول بكل قواه أن يرى هذا البيت البروفانسي، والابنة الوحيدة، والأب المهجور... لأن أم بيرينيس سافرت ذات يوم ولم تعد... وقالت أيضاً

- ولقد وعدت نفسي دائماً أن أعود إليه ذات يوم مع أحدهم... مع أحدهم...

ضغط على الأصابع السجينة حتى كاد يحطمها. أكانت تحبه إذن؟ لم يكن يقول في نفسه أنه سيقبلها، لا، بل إنه سيجعلها إلى هناك، إلى بيت أبيها، وكان هناك أيضاً ألف شيء لم يقله قط لأحد. وكان بوده أن يتناول أيضاً شيئاً من سمك المقبلات لكن السمك المقلّي حُلّ إليهما. ودخل ناسٌ، رجلاًن. قطّب أنفه، وقطع كلام بيرينيس: «أي إزعاج!»

- ماذا جرى؟

- اوها... ناسٌ أعرفهم... هناك، رأياني...

من الجهة الأخرى من الغرفة أظهر أحدُ القادمين الجديدين وهو يجلس دهشةً فرحةً، ورفع يده في الهواء، وحيّاً بكتفيه. كان رجلاً قصيراً أصهب، قصير العارضين، قُبَّته مرفوعة أكثر مما ينبغي، وعقدته فراشيةً، وسترته مبالغ فيها، وظهر الأكمام مفرط العرض. كان بوهيمياً وموسراً. أما الآخر فكان ضخماً جداً، وأطول، وقد جلس قبله؛ وكان سوقياً، قصير الشعر، له شارب

صغير خشن، وذقن ضخمة بارزة الى الامام، وأنف مرتفع، وقد حيا بشكل متكلف، متحفظ. كانت بيرينيس تلاحظ، وهي تتسلل، اوريليان يرد التحية، دون أن يُرخي شوكته، وعلى وجهه ابتسامة شاحبة، وأسنانه كازّة.
أوضح:

- رفيقان من الفوج... القصير «فوشن»، كان محرّر جريدة في الخنادق، وقد استمرّ فيها في الحياة المدنية... «الملجأ»، تعلمين...
- لوسيان يشتريها...

أحسّت بالضيق إذ قالت ذلك ونظرت الى فوشن الذي كان مايزال يحرك حاجبيه نحو «اوريليان»، مشيراً بإبهامه الى جاره، وقائلاً «نعم» برأسه. كان اوريليان يتعذّب، قالت:
- يُريد أن يكلمك، فيما أظن.

والواقع أنه نهض وجاء إليهما.
- نهارك سعيد، ليرتيلوا، اعذرني... سيديتي... هل ستأتي الى عشائنا، الخميس؟ إنني أتصرف كما يتصرّف الوغد... برّم كتفه، من جهة بيرينيس، قام اوريليان بالتعريف، على مضض: «صديقي فوشن»... الذي كنّا معه أنا وادمون في الفوج... السيدة موريل...
انحنى فوشن ثلاث مرات ولعّ عارضه: «ادمون؟ أتعرف السيدة الطبيب الصغير؟»

كان مسلياً أن تسمعه يدعو ابن عمها بهذه التسمية. لقد نسيّت أنه خاض الحرب باعتباره طبيباً، وابتسمت، وقالت:
- هو ابن عمي.

اوه! وحينئذٍ عدّ هذه القراية دعوة الى الجلوس، وجلس أمامهما وهو يعتذر بمثل النباح.

- تصوّر أنّي وجدت مطعماً صغيراً، وكان حقاً من تلك المطاعم الصغيرة! سوف تمدحني عليه... في «لافيت»... وحانة القبوا الكورتون^(١) في دوارق...

(١) نوع من النبيذ.

تصوّر... ليس هذا هو المكان الذي سنلتقي فيه يوم الخميس... بالنسبة الى الحميس، وُجّهت الدعوات متأخرة جداً لتدفع الجماعة الى هذه الحانة... الحفلات والمآدب على مقربة من «الساكريه كور» دائماً.. لأدعو السيدة كي تكون بين مدعوينا... فكلهم رجال... هناك أصدقاء يضايقهم هذا... لكننا سننظّم شيئاً في «لافييت»... وإذا مارغبتي في ذلك... اوه! سنحافظ على اللياقة... أمتدّر مرة أخرى. فقد قطعتهما عن حديثكما، وجلست... ذلك أن ليرتيلوا، ياسيديتي، عرفته، ماكان يتكبّر... كان الرصاص يصنفر عند أذاننا، وكنا نحن متخذهقين، قد سدّدنا الطريق على الرصاص، أتذكر أخدود «بكتانس»؟ كان العشاء يُكبّ فيه كل يوم... ومنذ ذلك الوقت أصبحنا نؤاقيّن للطعام... هذا المطعم أنا أضمنه لك... وليس فيه قدور! أه، أه! أو أن هناك نوعاً آخر من القدور!»

كان اوريليان يغلي. فهدأته بيرينيس بيدها وبرفق. لم تشأ أن يُثير فضيحة. ففهمها. وتبادلا نظرات بليغة. دارت بخلد اوريليان فكرة غير مألوفة وأسكنت فورته. لقد كانا كلاهما مثل اللذين بينهما معرفة حسنة واللذين يعيشان معاً منذ زمن طويل... ممّا يسمح بتحمّل الدخلاء.

قال «فوشز»:

- أتعرف من الذي معي؟ هل تعرّفته؟ «ليموتار! المساعد، نعم، ياسيديتي، إنه يُسمّى كذلك، ذلك الرجل الضخم! وقد لقيتّه بطريقة غريبة... بسبب «غونفالون... أتذكر... غونفالون... الملام... نمط الفارس الذي شارباه أبداً في منخريه؟ نعم، بعد تلك الأفراح ساعت حاله... عاهرة تبتزّ... تذكرت «ليموتار» وذهبنا معاً للبحث عنه في «بريفيكتانس»...

طرف بعينه، والتفت الى رفيقه الذي أدرك أنهم يتحدثون عنه، وحيّاً من مكانه، ثم قال بصورة سرية: «ليموتار، ياسيديتي، ولا أحب أن أخفي عنك شيئاً، في الشرطة الأخلاقية... إن لم يكن ذلك مضحكاً مع مثل هذا الاسم! وهو على

كل حال، عظيم الوداعة، هذا الوحش الضخم، بالنسبة الى مهنته، لو سمعته يقول: «ماذا تريدون، الساء لاأستطيع أن أحقد عليهن... أنا طيب القلب جداً... وأنا أصفح عنهن...» الخنزير!

كان يمزح، ويخاطب بيرينيس بكثير من طُرف العين:

«وهو متدين، فوق هذا! أثناء الحرب لزقَ بالمرشد... كان يعترف ولا يني يعترف، ويجري الى الكنائس، ويتناول ماوسعه التناول... لكنه كان يحب النساء حباً جماً حال بينه وبين النجاح في مهنته... كان يستسلم لهن، ماذا تريد منه... إذ ذاك ترك الشرطة الأخلاقية بعد الهدنة... وعندما ذهبنا الى «بريفيكتانس»، لم نجد أثراً لهذا الصبي! أه! وقصدنا حينئذ «الجيسي» لنسكر... وكان غونفالون ثملاً بشكل قذر... حسناً، ومن الذي جلس بجنبنا مع عاهرة من العاهرات، عاهرة حقاً ليموتار، ليموتار، المتقاعد، الذي يبيع الآن الشمبانيا... أَدعوه الى أن يأتي الى هنا؟ إنه يتحرق ليشد على يدك... ألا يخافك ذلك السيدة؟ على كل حال، لقد ترك الشرطة الأخلاقية...

كان قد وقف وصار في الجهة الأخرى،

همس اوريليان:

- اعذريني، سأتخلص منهما.

قالت.

- لا، لاتفعل شيئاً من ذلك... إنه يسليني، ثم إنني أعتقد أن المصادفة تخدمني. اكتشفت أشياء عنك، من الآخرين، لاتغش، اوريليان! لاتُخفِ عني هؤلاء الناس...

ندت عنه حركة عجز، وجاءه الرجلان.

قال فوشن.

- حسناً، هاهوذا ليموتار، سيديتي، أقدم لك ليموتار... السيدة هي قريبة

الطبيب المساعد «بارينتات»...

انحنى المساعدُ السابق، وجار بيديه الحماوين الضخمتين أين يضعهما.
ربما كان عمره أربعين عاماً، تشوّه جسمه بالأكل والشراب، وكان متيناً، بشعاً،
قصير الرقبة، وقد تركت القبة في شعره الحليق أثراً أحمر. وكان جبينه
منخفضاً، وأنفه مرتبكاً كالمصابين بورم في الغشاء المخاطي، ممّا جعل صوته
غريباً، وجمله على أن يتوقف كثيراً ليسترد أنفاسه، في غير وقتها، على العموم.
- السيدة... أه! السيدة قريية...؟ أه... سيدي الملازم... ساكون سعيداً
جداً لو التقيتُ سيدي الملازم!...

كان بطنه يمنعه من الانحناء للتحية
مزح «فوشن» الذي بدأ أولاً
- اجلس، يامفوض الحي! مادلين! هاتي صحنونا!
كانت حركة أوريليان كحركة حصان سيشب.
اكتفت بيرينيس بأن وضعت يدها على أصابعه. فردّ وجهه الى صحنه.
قال فوشن:

- ما هذا الطبق المقلي؟ أه! فروخ السمك؟ ستطلبونها مرةً أخرى؟ أعتقد
أن من الأفضل اقتصارنا على الشريحة والمحار... نبيذ أحمر طبعاً «ليموتار»؟
كانت بيرينيس تتسلّى بهيئة أوريليان المغتظة. كانت تحسّ نحوه بكثير
من الحنان لتعرف حدود صبره.
قالت:

- وهكذا، كنت أنت أيضاً في الحرب مع ابن عمي باربنتان؟... والسيد
ليرتيلوا طبعاً؟

تلوى على بطنه، وبدا مثل حشرة ضخمة من مُفدمات الأجنحة التي
نتظرها طوال الوقت لنراها تحلّ طيّات غمدها، وكان وجهه الوديع رخواً، وعلى
جسم قاتل، وكان يفتح فمه دائماً قبل أن يتكلم بقليل، فيندفع فكّه الأسفل الى
أمام أيضاً

- مع الملازم، نعم، ياسيدتي... والنقيب... الطبيب المساعد باربنتان...
نعم، ياسيدتي...

قال فوشن الذي نسوه.

- لو رأيتم «ليرتيلوا» في «ايبارج»^١

رفع ليرتيلوا سبابةً مغتابة. كان يكره هذا النوع من التملق الكاذب،
ذكريات الحرب التي يمدح بها الإنسان جاره، بشرط المعاملة بالمثل.
- طيب، طيب، تكلف التواضع! هذا لا يمنع من...

من حسن الحظ أن «ليموتار» انطلق في قصته، ونسي «فوشن» الذي
أمحى مثل مفرقة بسيطة. كان ليموتار يتمايل على كرسيه، فاتحاً فمه، مملساً
شاربه بعكس ميل الشعر، وعيناه زائفتان في نوع من الحلم.

سأذكر دائماً... كان ذلك في «شيمان دي دام»... لم أكن أعرف
الدكتور، وكان قد وصل الى الكتيبة قبل قليل... كنت عريفاً إذ ذاك... وكانت لي
فصيلة... الى الغرب قليلاً من سانسي... كنا نحافظ على خط السكة
الحديدية... وقد تقدمنا بعد قصف، أي قصف كل شيء أمامنا كان مقلوباً. لم
يبق من خنادق، ثقوب القنابل، الحفر... تقدمنا كما تيسر لنا... على السفح،
وحيثما وجدنا ما يشبه الأكمة... وتراجعنا هنا وهناك... وثئنا فلم نعد نعرف أين
نحن... هل أضجرتكم؟

قالت بيرينيس.

- كلا، على العكس...

- كان الألمان أمامنا، وعلى جانبنا، وخلفنا... وكانت المدفعية تقصف
قصفاً كثيفاً.. وكان يرى فيما بقي من الأسلاك الشائكة شخص لم يستطع أن
يخلص رجليه... لم يفكر أحد في إنقاذه، أقسم لكم... بل إن الكلبة كانت عاجزة
عن التعرف على صفارها... المكان حيث كانت فصيلتي احتفظ بالشكل
الإنساني... لأننا احتلنا أخبوداً جرى القتال فيه... وضعت له حواجز من
أكياس الرمل... بيد أنه كان هناك ألمانيا جريحان يتقدمان ونحن نكوم

الأكياس... حينئذ سقطا على وجهيهما، أرجلهما في أخدودهما والرأس عندنا. النفاً في الأكياس... شطائر حقيقية... ولاسييل الى إنقاذهما، أتفهمون كنا خائفين من هذا الجانب ومن ذاك على حدّ سواء... ثم هل نبدأ القتال من أجل رجلين... لكن المساء أقبل وأبينا أن يموتا... كانا مايزالان يصرخان... لا بد أن بهما جراحاً مؤلمة... الساق... ولم يكفّ عن الصراخ... في القطاع الذي لم يكن يحرك فيه أحداً... كان كلُّ إصبعه على الزناد، متخفياً تحت الأرض... وحينئذ، وعندما يستأنفان صراخهما، كان رماة الرشاشات يُرسلون رشقةً كما يتفق لهم... تاك تاك تاك تاك... فيزيلج الرمي... تاك، تاك... فلا ندرى أي نستقر... فيجيب الآخرون... لا الألمان ولا نحن كنا نعلم على من نرمي... ومع الليل أصبح الأمر لا يُحتمل... وفي هذه الأثناء، إذا بالملازم يصل... أتذكر ياسيدي الملازم؟ أرسل «أوريليان» حركةً مبهمّة.

- بلى، بلى، سيدي الملازم... مع الطبيب الجديد... قريبك سيّدتي... لم أكن أعرفه... وصل وكنا على نسق، وتعلمين أننا قلما نرى الأطباء في العادة، كان مايزال بكامل أناقته... كنا في الصيف... ولم يكن ثمة وجل... وكنت منهكاً... ساخطاً... ثلاث ليالٍ بون نوم... وهجوم الصباح... هذا اليوم... الخلاصة، اتجهت الى ملازمي وقلتُ له: «أتعرفني، سيدي الملازم! أنت تعلم أنك لن تجد أكثر وداعةً مني... هل رأيتني أؤدي نملّة؟... قال فوشنز: أه! يال هذه القصة!»

تضايق ليموتار، ونفخ كتفيه، واستدار نحو جاره ليعتذر. «لم تسمع السيدة بعد هذه القصة... نعم رويتها أمس للسيد «فوشنز» إذن... لأن الطبيب المساعد لم يكن يعرفني... فقد يظن أنني كذلك... قلتُ له: «وصل الدكتور في الوقت المناسب، ولا أستطيع أن أفعل غير ذلك، لو كنتُ أستطيع أن أفعل غير ذلك لفعلت... لكن ليس هناك شيء آخر أفعله...» وأخيراً خرجتُ عن طوري. قال لي الملازم. «مابك، أيها العريف؟ قلتُ له: «هلا أمرّ عليكما، تعالا إليّ أنتما

كلاكما، يلزمني شهوداً لما سأفعله...» وسوف تشهدان، أليس صحيحاً؟ تعلمان أنني وديع، بل مسرف الوداعة، سيدي الملازم، ولولا أنهما سيدبّحان الفصيلة...» قال لي الملازم

«اهداً، يا عريف، أجل، أنا أعرفك، أجل، أنت وديع جداً...» أتذكر، سيدي الملازم؟

الظاهر أن أوريليان تذكر. ولم يكن يحبّ هذه الذكرى.

- «وحينئذ جئت بالاثنتين إلى الأخدود، حشرنا أنفسنا، وكان يجب ألا يبرز الرأس. تاك، تاك، تاك، تاك...» كانا يصرخان في الأكياس وأحدهما يهذي. أنا سللت سكينتي وقلت لهما. سيدي الملازم، دكتور، انتظراني هنا، لأجد شيئاً أفعله غير هذا... سيقتلانا، هذا مؤكد... وعندما وصلتُ حينئذ قريباً منهما، فيما بقي من النهار، لكي يراني الأصدقاء... أه! ياويلي! قد أعيش منه عام فلا أنسى هذا... الذي فوق فهم في الحال... لا بد أن ذلك كان يُرى على وجهي... أنا تقدّمتُ... أخذُ يصرخ بلفته... لم أكن أفهمه، لكن لم تكن هناك من حاجة للفهم كي أفهمه... كان يقول: «لاتقتلني»... وكلمات أخرى تعرّفناها لأنه كان معي الزاسيون، كان ينادي أمه... أنا وديع مثل خروف لكني لو تركته يفعل لهلكنا جميعاً.. كان يصرخ... يالذلك الوجه! أراه كما لو كنتُ هناك... لم يكن يقدر على الحراك، كانت ذراعاه عالقتين... وحينئذ، قطعتُ له بسكينتي، وماكنت أظنني قادراً... قطعتُ له من الجهتين... كيف تُسمّي هذا الشريان...

قال فوشن:

- السباتي

- ليس لدينا فكرة كم تنزف هذه القذارات... وتطايرت عليّ... والصرخات... الصرخات... ماتزال في أذني، الخنزير الذي نذبحه ليس سوى خنزير... لكن الإنسان، الإنسان! الأسوأ كان التالي. لم يفهم في البداية، لكن عندما تناثر دم الآخر على وجهه... كان يهذي، لكنه عرف ماينتظره... كان هذا يُعرف شيئاً من الفرنسية... كان يزعم: الرحمة، الرحمة! لاتقتلني أنا! حينئذ

استبدَّ بي الهياجُ ضدَّ كلِّ شيءٍ، ضدَّ نفسي، ضدَّه، ضدَّ كلِّ هذه القذارة،
فركعتُ وطعنتُ، طعنتُ، حتى أنهكتُ؟ خفتُ أن أتركه دون أن يموت... أليس
كذلك، سيدي الملازم؟ وعندما عدتُ من هناك، كانت سحتتي غريبة... رجل وديعٌ
مثلي...

قال فوشنز.

- خذْ كلَّ محاربتك، سبع، ثمان، تسع، عشر، إحدى عشرة، لي الحق في
واحدة أيضاً.

- لم يعد أوريليان يصك أسنانه، كان يحلم، وهو متجهّم، كانت بيرينيس
تنظر إلى الرجال الثلاثة، أيُّ رابط خفيّ كان يُقيمه ذلك الماضي بين كائناتٍ
متباينة هذا التباين! لكن هل كان من رابطٍ حقاً بين أوريليان ليرتيلوا وشرطيّ
الأخلاق «ليموتار»؟ كان هذا يضع الصلصة بالكرّاث على المحار، ويشكو من
قسوة الزمان، الشمبانيا... يظن الناس أن الأمور ناجحة... وكم ينبغي أن يُباع
منها للحصول على قليلٍ من النبيذ الأحمر!

قال:

- أه! كنّا أبطالاً منذ ثلاث سنوات! حصّة المقاتل... لهم حقوقهم علينا...
روى فوشنز قصصاً عن متقدّميه، عن خادم النقيب «واتليه» مثلاً...
أميل، نعم... لقد مات في «سان ديني» بالسل... قال أوريليان:
«كيف بالسل؟» ذلك الوغد الذي كان يلاحق البنات حيثما وصلنا...
تماماً، السل، «مال دي بوت»، «منغل»، «شابلان»، «دوبوي»، «سيكان»،
«بالانت»... انخرط أوريليان الآن في الحديث، وهو فريسة لتلك الأشباح... لقد
كان قدرهم المشؤوم والمبتذل يُدركه، فأحسّ أنه أشدّ فقراً وغربةً من كل ماطرٍ
عليهم من بؤس وترح.. هذا امرأته... وذاك ابنه... كانت بيرينيس تتابع بدهشة
نموّ هذا الانفعال على وجهه.. فيزداد حبّها له، كانت تحسّ ما يخبئه حيائه في
الغالب، فتعاظم تصديقها لحبّه، لكونه بدا كمن نسيها، هي، وأنه وقع هكذا في

فخّ الذكريات، في هذا الحديث مع هذين الجالسين المتطفّلين على طاولتهما.
كانت تنظر الى أعماق حياته، حياة اوريليان،
- وهذا العريف... ما اسمه؟ هذا الشخص الطويل، الشجاع... هل تتذكّره
«فوشن»، «فاكوا»؟
- مَنْ؟ بلانشار؟ لأدري.
قال ليموتار:
- سأتأمّره، وقد لقيته في «اسنيير»، تورط في قضية «باربوس»...
أتعلم...
هزّ «ليرتيلوا» كتفيه، لم يكن هذا يثير اهتمامه.



كانت في منزله كما دبر لذلك، وقد حدث ذلك بانزلاق غير محسوس، كانا مايزالان مدووخين من هَرَج فوشز ورفيقه، وكان هناك ذلك النسيم الذي قَلَّمَا يجعل الشوارع والأرصفة مُغْريَةً، كان اوريليان ينتظر مقاومة، وقد هيأ كلمات، وغصصاً، وتحدياً، لا لزوم لذلك، قالت بيرينيس: «أه! هنا؟» وعبرت الباب، لم يخش أن يلتقيها أحد، ولم تكن تعرف الأمير... وذلك الدرج الذي لا ينتهي وخفقان القلب... وفجأة غدت تلك الريفية القصيرة، وقبعتها في يدها، ورأسها المتحرك، وخصلاتها الشقراء، ومعطفها على ذراعها، وطقمها السيء التفصيل، عدت عريضة عليه الى حدٍ عظيم، إذ رآها هكذا في بيته، في بيته، بلا تكلف، دون تلك الجمل المتوقعة، كان يخشى ألا تحب غرفتيه، وكأن جسمه هو المقصود بذلك، وإذا لم يكن كل شيء مرتباً... وهل نعلم مع السيِّدة «دوفيني»؟..

إن ذلك... أي إن ذلك الإحساس الغريب، ذلك الشعور الذي لا اسم له... بدأ منذ أن فتح الباب وانسلت بيرينيس الى المدخل الغريب، ولست أثناء مرورها معطفه الفاتح المعلق بالمشجب، وبلغت عتبة الغرفة، كانت في بيته، وقف اوريليان خلفها وحاول أن ينظر مثلها الى هذا المجال العائلي نظرة جديدة.

هل رأيت قط هراً يدخل شقّة لأول مرة؟ هل لاحظتم ذلك التردد، ثم تلك الاندفاعة السنورية، وذلك المدّ لقائمته التي تتملك الأثاث والسجاد والهواء في الستائر، وكأنه يتملك غابة أو دغلاً؟

هل رأيت عينيهِ الذهبيتين تحاولان ألا تبدوا سوى بريقٍ للنور، وفروهُ يختلط على الفور بما يشبهه، وهناك دائماً مايشبهه؟ لم تتقدّم بيرينيس نحو وسط الغرفة، ومع ذلك صارت في الجهة الأخرى منها، ورمت قبعتها، ومحفظتها ومعطفها على ثلاثة مقاعد. كانت تلهو مع الضياء الآتي من جميع الجهات، كانت

الغرفة صغيرة، لكن النور كان يأتي من جميع الجهات، من النوافذ الثلاث على ذراعي «السين» ومقدمة الجزيرة، وأيضاً من باب الغرفة المفتوح. وإنما بدت كالهرة تماماً عندما لمست الستائر الكبيرة الشفافة عند النافذة المطلّة على الضفة اليسرى، بل بدت كسنور أعظم نبلاً وقدرةً. ولقد اكتشف أوريليان في هذه المرأة، من حركة كتفها وظهرها قوة لم تخطر بباله بعد.

شدّ حبال الستائر وفتح النافذة، وأفضيا الى الشرفة. همست.

«هذا جميل»، كانت باريس تزرق. كانت مستندة إليه، بصورة جد طبيعية، ولم تتهرّب. أحاطها بذراعيه وكأنه خاف أن تُصاب بالدوار. كان هو المصاب بالدوار... ودامت الدقائق معدومةً، فارغة، صامتةً، وكان «السين» أصفر، معكراً، مُثْقَلًا بالثلوج والأحوال من مكان آخر، تحت السماء المشعّنة بخصلها البيضاء، مع هذه الزرقة الشاحبة، البالية، في الشتاء الباريسي، عبر التمزّقات. كان ثقل بيرينيس عليه، وثقل السماء عليهما. خاف كما خاف قديماً... خاف من أن يحرك، من أن يدمّر سحر هذه اللحظة... قديماً كان الموضوع شيئاً آخر، لكن لاشيء يشبه الموت كالحب. هذه الفكرة جعلته يرتعش، فهي غير متناسية، وهي مفخّمة.

قالت بيرينيس. «فيم كنت تفكّر؟ قل... فوراً... دون تفكير...»

أجاب: أفضل أن أقتل نفسي على أن أجيبك...

وهذا أيضاً جعله يرتعش لأنه خلا من التناسب ومن الحياء... كان يحس بنفسه فريسةً لسعادة مذهلة بحيث كان يخشى أن يضع حداً لها. يا الهي، أكان حسناً في أن أمسك بيرينيس هكذا؟ ألم يكن هذا هو سعادة الحضور البسيطة... هنا... كثير من النساء نظرن معه الى منحدرات البانتيون، والمرتفعات البعيدة والقريبة لهذا المشهد من قبل... لكن هذه السعادة... كان يخاف أن تفهمها بيرينيس، وخاف في الوقت نفسه ألا تشاركه الشعور بها. لم

يحد ما يقوله، كان يخاف الكلمات، وكأنها انحطاط لما كان يتملّكه من مُعجب رائع لا يوصف: السَّعَرُ المُهْمَلُ على كتف سترته، وهذه الحركة الخرقاء التي طَوَّقَ بها قامتها، ويدُ بيرينيس على يديه، وكانت قد حطَّت عليهما لتفكهما بلا شك، ثم بقيت عليهما ناسيةً ما أرادت أن تفعله... وعذوبة السماء... ذلك الخمود، الخدر الذي استولى عليهما... كان فيه من الحب ما يشبه ذلك الشعور الساكن في الأحلام، تخيل تفسيرات أسطورية لهذا المشهد: وهي أنه تمثالٌ من حجر استندت إليه بلا مبالاة امرأة...

كان يأمل ويتخوَّف حركةً منها، ملامسَةً مفاجئة، انحرافاً، دفعت يدها الأخرى ووضعتها على شعرها، بحركة طبيعية ورقيقة... رأى قذالها القريب، الشديد القرب، المضطرب، والمخمل الأشقر الحي... فبالغ في سكونه. أه! لاجابة الى الكثير من ذلك كما يُعتقد، حتى يُثمل التماثيل.

قالت: لندخل، بردت قليلاً.

لم يلحق بها على الفور. لم يكن يعلم ما الذي يمكن أن تنم عليه عيناها، كان مضطرباً. وقال في نفسه: مع أنني لم أعد ابن أربعة عشر عاماً.. وسأل نفسه إن لم يكن قد بالغ في ضمّها إليه لأنها أدركت ذلك وأرادت من غير شك، أن تكون بعيدة، بعيدة عن ذلك كله... فجعل قليلاً. وفي الوقت نفسه كانت المفاجأة قويّة جداً. وانقلب راجعاً برفق، وانسحبت باريس والسماء، وغاص في الغرفة حيث كانت بيرينيس تتلهّى باكتشاف أصغر الأشياء، علبة فارسية، منفضة سجاجير للدعاية سُرقت في «بيارتيز»، عصفور من الزجاج الأزرق علي المدفأة وهو ذكرى من لندن... وفكر في أنها قد اجتاحت منزله على نحو ما يفعل العطر، حاول أن يترجم لنفسه ما يجري بطريقة أبسط، وأشد فظاظاً، فلم يستطع. كان بحاجة الى تنكير الأشياء، الى تزيينها بالكلمات، والتشبيهات. كانت تلك طريقته في احترام بيرينيس، احترامها؟ هنّ كُتفيه، إنها له، شاعت أم أبت.

الآن؟ لا، غير الآن، لكن أليس الأمر واحداً؟

دخل غرفته وتركها وحدها للحظة بصورة جد طبيعية... ومن غرفة الزينة سمعها تضحك، كان يسبل شعره بالمشط المعدني، ضحكت إلام كانت تنتظر؟ لم يعتذر حين عاد.

«ما الذي كان يضحكك؟»

أشارت بإصبعها، وهي مرتبكة جداً، الى لوحة على الجدار، أحس بشيء من المضايقة، كان يخشى تأويلات بيرينيس، ففي بيوتنا أشياء ربما لا يصح الدفأع عنها دائماً، لكننا نتمسك بها، هذه الصورة... على كل حال لم تكن رديئة، فدافع عنها:

- «لم تحسني النظر إليها... ليست رديئة الى هذا الحد... أوه! ليست من عمل «رامبرانت» لكنها جد متقنة، جد مرضية»..

- لم أقل إنها رديئة، لمن هي؟

- لرجل أحبّه كثيراً، «امبيريو»... العم «امبيريو» كما كنا نقول، أنا، وأختي، مع أنه ليس من الأسرة...

- آه... لست أراها بوضوح... أتسمع؟

ليس له مثيل في إنزال اللوحات المعلقة، فعرضها للنور، وهو يسندها الى ركبتيه، ويدبرها لكي لا يبرق طلاؤها تحت النور، وأحس إحساساً كريهاً بأن حركته حركة تاجر.

لم تنتبه «بيرينيس الى ذلك»، كان تفك رموز اللوحة بفضول.

لا، لأن اللوحة كانت سرّاً خفياً على نمط مانجد لدى التكعيبين، لا، كانت صورة تقليدية، مع صنعة لم تكن تبعد كثيراً عن كل مانراه في «الفنانين الفرنسيين»، وربما مع دقة أكبر، دقة أكبر، وحرص على التفصيل من عصر آخر، مطابقة، الغريب كان التركيب، طائفة الأشياء التي تدخل في هذه اللوحة ذات الكبر المتوسط، لوحة طبيعية، كانت نافذة مفتوحة، لكن لا على طريقة

«ماتيس» أو «بيكاسو»، بل على الطريقة الهولندية؟ ومن الغرفة التي صورَ منها الرسّام لانكاد نرى سوى طبيعة ميّنة على منكأ النافذة، وقماقم، ومقصّات صغيرة، وأدوات تجميل متناثرة، وعلبة بودرة مفتوحة، كل ماينم على امرأة غير مرئية، وقماش أزرق. الشيء الجوهري كان في شيء آخر. كان ذلك المشهد المديني^(١) المبتذل المغمور بضياء الصباح، ربما من الطابق الثالث، وعلى الرصيف يرى رجلان يلتقيان، وطفلة صغيرة تحمل رغيفاً طويلاً، ومتسوّل أعمى، وبائع صحف على منصة وحوله صبية، وكشك جرائد وبائعتة؛ وفي قارعة الطريق، ورصيف المارة الذي ينتظر فيه الترام و«الباس» أناسٌ ماضون الى عملهم، وعمالٌ أكياسهم على ظهورهم، ونساء حاسرات، وموسيقيّ يحمل صندوقة القيثارة. والى اليمين كانت الأرصفة مقلوبة بسبب الأشغال، وكان يرى العمال المصلحون يعالجون مطرقة. والى اليسار مأساة؛ عربة التوزيع تقلب صبيّاً، والجياد تتسبّب، ولم ير بعد أحدٌ شيئاً. سوى آخر الجماعة التي تنتظر الترام والذين التفتوا وكأنهم يصرخون، وأحدهم يشد جاره من كمّته. كان على ذلك ضياء العصر الوسيط، ولا نعلم لماذا.

قالت بيرينيس

- ماأغرب هذا! لا أستطيع القول إن هذا يُعجبني... فهذا مختلفٌ جداً

عن التصوير...

- هذا يُعادل دائماً «زاموراك»...

- اوه! زاموراي! قلتَ «امبيريو»؟ غريبٌ أنه غير معروف أكثر... ماأعظم

عنايته بلوحته!

علق اوريليان اللوحة من جديد، وكرّر:

- هذا رجل أحبّه كثيراً... هو وامرأته، وهما صديقاى الوحيدان... بالرغم

من اختلاف السن... فهو في حوالي السبعين...

(١) نسبة الى المدينة على غير القياس. المترجم

قالت بيرينيس وكأنها تحدث نفسها فقط أودّ لو أتعرف به.
- إذا شئت... وسيترك لوحاته... فهو لم يفسد الزوار، تعلمين...
كان اوريليان سعيداً، كان سيكره أن يراها تُعدم بكلمة تصوير العم.
ولقد أخذ يبتهج منذ الآن لأنه سيقودها الى منزل العجوز «بليز»، كان ينبغي ألا
تنتظر من تلك الزيارة ذلك النوع من السرور الذي وفّرت لها زيارتها لبيكاسو،
مع «بول ديني»، بيد أنه سيثأر لنفسه من «بول ديني».
استأنفت بيرينيس تنقيبها.

أشارت الى المنفضة: «عندي واحدة أكبر منها! زرقاء وذهبية... عبد
الله... أحبّ هذه الأنواع؟ يبدو أنني ماكان ينبغي لي... أن أظهر كالمراة
المستهترة...»

مشى إليها فاتحاً ذراعيه، فقالت:
- اوها مهلاً، لاتجبرني على قول هذه الأشياء... جئتُ الى هنا من غير أن
أحلفك بأن تبقى عاقلاً، مع ذلك... إذن!

كانت تضحك ولا تضحك، أما هو فأرعى ذراعيه الطويلين، كان ينظر
إليها، وكانت تنتقل في المجال المتغير لنظرته. كان ينظر إليها وهي تهرب وتعود،
وتنصرف عنه لتلمس قماشاً، وتمثالاً صغيراً تافهاً في ركنٍ من المدفأة، سخافة
بقيت هنا عن طريق الإهمال، وكان يودّ دائماً أن يرميها في السلّة... تمثالاً من
البرونز الأسود، تصوّروا... لا يصلح إلا ثقالة للورق... ماذا ستقول عنه
بيرينيس، بذوقها الحديث؟ ليس له إلا أن يُعطيه السيدة «دوفيني»... كان ينظر
الى بيرينيس بمكرٍ وهي تعود وتعبث بالنار، واثقة من نفسها ومنه...
وحينئذٍ مدّ ذراعه الى الجدار وأنزل القناع.



ثمّة هوى مفترسٌ جداً لا يمكن وصفه. إنه يلتهم من يتأمله، وجميع الذين تصدّوا له علقوا به. لا يمكن أن يجربّه وأن نتدارك خطائنا، ونحن نرتعد حين نسميه إنه الكلفُ بالمطلق. قد يُقال: إن هذا الهوى نادرٌ، وحتى الهواة المهووسون بالعظمة الانسانية يضيفون. لسوء الحظ، يجب أن نُقلع عن هذا الخطأ، فذلك الهوى أكثر انتشاراً من الفزلة الوافدة، وإذا كنا نتعرّفه تعرّفاً أفضل عندما يُصيب القلوبَ الكريمة، فإن له أشكالاً كريهةً تفكك الناس العاديين والعقول الجافة والأمزجة الفقيرة، افتحوا الباب يدخلُ ويستقرّ. وقلّما يهتم بالمكان الذي يأتي إليه، ببساطته. إنه غيابُ التسليم، إذا شئنا فلنغتبط بما أمكن أن يُسديه للناس، بما أمكن أن يولدَ عدمُ الرضا من رفعةٍ، لكننا لانكون قد رأينا منه سوى الاستثناء، الزهرة الفضيعة، وحتى حينئذٍ انظروا في أعماق الذين يحملهم هذا الهوى الى ربوع العبقريّة ترواً هذا الذبول الحميم، وأثار الدمار وهي كل مايدلّ على مرور ذلك الهوى بأفرادٍ لم تؤتهم السماء ماآتت غيرهم.

من كلفَ بالمطلق أعرضَ من جراء ذلك عن كل سعادة. أية سعادة تقاوم هذا الدوار، هذه الحاجة المتجددة أبدأ؟ إن هذه الآلة الناقدة للعواطف، هذا اللولب الحافر للشك، يُغير على كل مايجعل الوجود مقبولاً، كل مايصنع مناخ القلب. يجب أن نضرب الأمثلة لإيضاح ذلك، واختيار تلك الأمثلة من أشكال هذا الهوى المتدنية، السوقية بالذات لكي نتمكن بطريق القياس أن نرتفع الى معرفة المصائب البطولية التي يحدثها.

من المعلوم أن الهزال المزمن لدى ذوي الذكاء يتحرّك بسرعة نحو المراكز العصبية العليا بينما هو يتطور لدى الحيوان والنبات ببطءٍ أكبر، ويؤثر أن يهاجم المراكز المحركة، هذا الهزال المعنوي الذي أتحدث عنه يتخصّص هو

أيضاً؛ إنه يتَّجه الى المهارة، الى الهوس، الى الكبرياء، لدى البائس الذي يُرهقه،
إنه يحطم صوتَ المغني، ويرمي بفارس السباق الى المشفى من الهُزال، ويُحرق
رثتي العداء أو ينهك قلبه، ويقود بطريق غريبة ربّة المنزل الى مصحح المجانين،
لفرط النظافة، والإصرار على التلميع والتنظيف اللذين تبدلتهما من أجل زجاج
الناهضة في مطبخها، دون أن تبلغ ماتريد، بينما يسيل الحليب، ويحترق المنزل،
ويغرق أبنائها، وهذا الهزال هو أيضاً آفة الذين لا يحبّون شيئاً وإن لم نتعرّفه-
والذين يعارضون كلَّ جمالٍ وكلَّ جنونٍ بـ«لا» للإنسانية تأتي هي أيضاً من
الكلف بالمطلق، كلُّ شيء منوطٌ بالموضع الذي نضع فيه ذلك المطلق، قد نضعه
في الحبِّ، في اللباس، في القوة، وحينئذٍ ستجد دون جوان، بيرون، نابليون،
لكثك ستجد أيضاً ذلك الرجل المغمض العينين الذي تصادفه في الشارع والذي
لا يكلم أحداً، وأيضاً تلك المتسوّلة الغريبة التي تُشاهدها مساءً على مقعد قرب
«المرصد» ترتّب خرقاً غريبة، وأيضاً ذلك المتشيع البسيط الذي يسمّم حياته
بالجفاف، وذاك الذي يموتُ من الرقة وذاك والذي يجعل الحياة غير ممكنة من
الغظاظَة. فهؤلاء هم الذين لاشيء عندهم يملك قيمةً.

الكلفُ بالمطلق... الأشكال السريرية لهذه الآفة لا تُحصى، أو هي من
الكثرة بحيث نزهد في إحصائها. ونودُّ أن نقصر على وصف حالةٍ واحدة، دون
أن تغيب عن نظرنا قرابتها مع ألف حالة، مع آفات هي متنوّعة في الظاهر الى
حدِّ نظن معه أن لاعلاقة لها بالحالة الموصوفة، لأنه ليس هناك مجهر لفحص
الجرثومة، ولأننا لانستطيع أن نَعزّل هذا «الفيروس» الذي نسمّيه الكلفُ بالمطلق،
لأننا لانجد تسميةً أفضل.

ومع ذلك، فمهما تكن متنوّعة تنكّرات هذه الآفة، إلا أنها يمكن اكتشافها
بعرَضٍ مشتركٍ بين جميع الأشكال، حتى بين أكثرها مناوبةً، وتلك الأعراض هي
العجزُ الكلّي لدى الشخص عن أن يكون سعيداً. مَنْ كلفَ بالمطلق يمكن، علمٌ
ذلك أم جهله، أن يحمله كلفه الى قيادة الشعوب، الى جبهات القتال، أو أن

يُتَسَلَّ في الحياة العاديّة ويؤول الى سلبية حارته، مَنْ كَلَفَ بالمطلق يمكنه أن يكون بريئاً، مجنوناً، طموحاً، متحذلقاً، لكنه لا يمكن أن يكون سعيداً. وهو يطلب دائماً المزيد ممّا يخلق سعادته. وهو يدمّر بهياج يرتدّ على ذاته ما يمكن أن يكون سروره. وهو محرومٌ من أدنى استعدادٍ للسعادة. وأضيف الى ذلك أنه يُسرُّ بما يُضنيه، وأنه يخلط بين زوال النعمة وبين فكرة غريبة عن الكرامة والعظمة والأخلاق، بحسب نمط عقله، وتربيته، وعادات وسطه، وبكلمة واحدة، إن الكلف بالمطلق يتماشى مع نُوار المطلق، وأنه يترافق مع ضربٍ من التحمّس الذي نعرفه به أولاً، والذي يفعل فعله دائماً في النقطة الحساسة، في مركز التدمير، ويوتك أن يوهم العيين غير المتنبّهين بأن الكلف بالمطلق كلفٌ بالتعاسة. وهما يتلاقيان. لكن الكلف بالتعاسة ليس سوى نتيجة، ليس سوى كلفٍ بنوعٍ من التعاسة، بينما المطلق يحتفظ، حتى في الأشياء الصغيرة، بطابعه، طابع المطلق. يستطيع الأطباء أن يقولوا عن جميع أمراض الجسد تقريباً كيف تبدأ، ومن أين يأتي ما يدخلها العضويّة، وكم يوماً تكمن، وكلّ العمل الخفيّ الذي يسبق تفتّحها. لكننا مانزال عند كيمياء العواطف، ذلك الجنون الذي لا يُعترف به، والذي يحمله الرجل العادي في ذاته. إن بذور الطمع البطيئة، كثيراً ما يعرض الروائيون تاريخها، دون أن يفسروها، فيعودون الى الطفولة، الى المحيط، ويحتجّون بالوراثة، بالمجتمع، وبمئة مدأ متنوّعة. لابد من القول أنها قلّما تكون مقبّعة، أو أنها لا تبلغ الإقناع إلا بفرضيات موفّقة، لاقيمة لها إلا بكونها موفّقة. نستطيع فقط أن نلاحظ أن هناك نساء غيّرى، وقتلّته، وبخلاء، وخجولين. ويجب أن نعدّهم مكوّنين عندما تقدّم لنا الغيرة والهياج القاتل، والخجل والبخل صوراً بيها فروقٌ، صوراً أخاذة.

من أين جاء بيرينيس ذلك الكلف بالمطلق، لست أدري. كانت بيرينيس كلفاً بالمطلق.

هذا، دون شك، ما أحسَّ به «ادمون بارينتان» بغموض عندما قال عن ابنة عمه إن الجحيم في بيته، ماذا كان يعرف عنها؟ لاشيء، حقاً. لكن قد يقع أن الرجال يحزرون النساء، بغريزة حيوانية، بتجربة الذكر التي تعدل ذلك الاكتناه الأنثوي الذي يردونه على مسامعنا. إن اوريليان الذي أيقظه أولاً ذلك التعبير المذهل الذي لا يتلاءم مع المرأة التي شاهدها أولاً، قد نسي ذلك التعبير عندما توصلت بينه وبين بيرينيس علاقة أهم من أحكام الآخرين. وهكذا اقترب من الهوة بعد أن استهوته الهوة، غير عالم بأنها هوة. وقد سيطر على قصتهما، قصة اوريليان وبيرينيس، ذلك التناقض الذي حمل علامته أول لقاء بينهما. التباين بين بيرينيس التي كان يراها وبيرينيس التي قد يراها الآخرون. التعارض بين تلك الطفولة العفوية، المرحّة، البريئة، والجحيم الذي كجمله في نفسها، التناظر بين بيرينيس وظلها. ربما كان هنا ما يفسر وجهها، ذلك الليل وذلك النهار، اللذين كانا يبدوان امرأتين مختلفتين. تلك البنت الصغيرة التي تتسلى بالشئ التافه، وتلك المرأة التي لاترضى عن شيء.

ذلك أن بيرينيس كانت كلفةً بالطلق.

كانت في لحظة من حياتها حيث ينبغي لها بكل قوة أن تتابع البحث عن ذلك المطلق في كائن من لحم ودم. وكانت خيبات شبابها المريرة التي ربما لم يكن لها من أصل سوى إرادة ذلك المطلق التي لاسبيل الى تحقيقها، تتطلبُ ثأراً مباشراً. وإذا كانت بيرينيس المستعدة دائماً لليأس والتي تشبه القناع تشك في اوريليان الذي وصل في الوقت المطلوب، فإن البنت الصغيرة التي لا تملك لعبة، كانت تريد أن تعثر، مهما كلف الأمر، على تجسيد لأحلامها، البرهان الحي على عظمة اللانهائي ونبله. اللانهائي في النهائي، كان يلزمها شيء كامل. إن جاذبية هذا الرجل عليها كانت تختلط بالضرورات التي كانت تضعها هكذا للعالم. وسوف يُساء فهمي إذا استنتج مما قيل عن الكلف بالطلق أنه يحتلط بالارتياحية. إنه يصطنع أحياناً لغة الارتياحية كما يصطنع لغة اليأس،

لكن ذلك لأنه يفترض على العكس إيماناً عميقاً، كلياً بالجمال، والطيبة، والعبقريّة مثلاً، ولابدّ من الكثير من الارتياحية للرضا عمّا هو كائن، إن عُشّاق المطلق لا يطرحون ما هو كائن إلا بناءً على عقيدة ولهى بما لعله ليس كائناً.

وإذا كانت بيرينيس، بالنسبة الى اوريليان، الفخ الذي لابد أن يعلّق به اوريليان حتماً، فقد كان هو، بالنسبة الى بيرينيس، الهاوية المفتوحة، وكانت تعلم ذلك وتحبّ تلك الهاوية حباً جديراً بأن يحملها على أن تُكبّ على تلك الهاوية. وعندما أكّد لها، بتلك اللهجة التي لاتخدع أبداً، أنه لم يقل قط في حياته لامرأة أنا أحبّك، أكان يعلم مايفعل؟ أكان يمكن أن يتصوّر أي غذاء للضياع، أية نار قد أعطاها لتحترق طوال حياتها؟ وإذا كان قد امتنع عن الكذب، فما كانت تريد، بكل ماأوتيت من قوة، وبكل ما فيها من ظلمات، أن يكذب، أو لم يكن ذلك، في النهاية، هو المطلق الذي يقدم نفسه، نصيبها الوحيد من المطلق الذي لقيته؟ كان يجب عليه أن يحبها، وكان ذلك ضرورياً أكثر من الهواء، ولزماً أكثر من الحياة. وأخيراً. ففي هذا الرجل الغامض والبسيط، في هذا العابر من باريس، ستتجاوز نفسها، وتبلغ فيما وراء ذاتها ذلك الوجود الذي نسبته الى الوجود كنسبة الشمس الى النور. كان يجب عليه أن يحبها، ألم يكن حبّ اوريليان مبرّ «بيرينيس»؟ ولا يمكن أن يُطلب إليها أن تتخلّى عن ذلك إلا اذا طلبنا أن تتخلّى عن التفكير والتنفس والحياة. بل إن من الأسهل عليها دون شك أن تموت بمشيئتها في الحياة من أن تموت في الحب.

لم تكن تتساعل إلام سيقودها حبُّها. لم تتساعل إن كان هذا الحب الذي لم تستطع أن تتركه يمرّ... ولعلها، بكلمة، بتحفظ، كانت ستجد اللحظة التي تستطيع أن تُبعد عنها ذلك الحبّ.. إن كان هذا الحب، تملك الحقّ في تشجيعه، والحقّ في قبوله، وأن تمنحه تلك الحياة الرهيبة. لأن الحب، كالإنسان، يموت بالبؤس، بموت في الضيق والتنهدات والعرق والتشنّجات، ومن ترك له القدرة على أن يتألم أسوأ من القاتل.

لم تكن تتساعل إلام سيقودها حبه لها، لأنها كانت كلفةً بالطلق، وأن حبّ اوريليان حمل، خطأ أم صواباً، سمات المطلق المظلمة والعجيبة في نظرها، ولأنه كان المطلق، حمل في ذاته غذاءه، وإذن فليس عليها أن تهتمّ بتهديته أكثر من إخماده، ولا بإرضائه أكثر من تهديته. لم يكن من المهم كثيراً أن يولد الألم العظيم من الحبّ المُعلن والمُعترف به. أليست غاية الحب في الحب؟ إن العقبات التي تقف في وجه الحب، تلك التي لاسبيل الى التغلب عليها، ألا تكون عظمة الحب؟ لم تكن بيرينيس بعيدة عن التفكير في أن الحب يضيع ويموت، عندما يكون سعيداً، ويرى بوضوح هنا الكلف بالطلق وتعارضه مع السعادة يبرزان مرة أخرى. على الأقل، لا السعادة ولا البؤس كانا مقياسي أفعال بيرينيس. كانت حقاً أسوأ من القاتل.

كان في مصير اوريليان اتصال فريد بهذه الاستعدادات اللإنسانية. يجب أن نستعيد كل ما نعرفه عنه لكي نفهمه. ولم تكن بيرينيس بحاجة الى ذلك، لأنها لم تكن لإنسانيةً فحسب بل كانت امرأة أيضاً، وعندما كانت تنظر الى اوريليان من خلال عينيها نصف المفتوحتين كانت تخاف من شهوته. كان لبيرينيس وجهان. هذا الليل وهذا النهار.



قالت:

- كذبت علي، تلك المرأة..

كان يضحك:

- هذه المرأة... ظننت أنني عاشقٌ لتلك المرأة؟ بيرينيس، أنتِ لم تخطئي! نهضتُ كالمجنونة، على وشك النحيب. قبضها من معصمها وأوجعها، فتهالكت وقد صرخت صرخةً قصيرة، وطلوحت بيدها الأخرى يدها الموجعة.
- لم تخطئي، بيرينيس... أنا أحبُّها... أختي، وهي شخصٌ فضوليٌّ، أختي تكهنت بذلك أيضاً... وهكذا عرفت...
ذهلت ذهولاً شديداً حتى إنها لم تبك، وحملت يديها الى وجنتيها، وأكبَّت برأسها، وأغمضت عينيها.

صاح.

- هكذا، وعند ذلك فتحت عينيها. هكذا، لقد كنت قبل هنيهة. أنت نفسك، بيرينيس، لم تري نفسك قط. وعيناك مغمضتان، طبعاً... وإلا لصرخت... وأنتِ تريْن هذه المرأة... انظري الى نفسك، بيرينيس، انظري الى نفسك، هذا أنت، ألا تريْن أن هذا هو أنت؟
هزّت رأسها. وهذه أيضاً قصة من قصص الرجل. كان يمسك القناع بيديه. ووضعه أمامها.

- هذا أنت، مالك... مالك... أنت التي أحبُّها...

- لم تكذب، اوريليان؟ هذا وجه امرأة أخرى. ونحن نتشابه. وماذا في ذلك؟ أنا، وهي نموذجك المفضل، يجب أن نعتقد...

صاح:

- مجنونة! هذا القناع نجده في كل مكان، لدى صانعي القوالب، بين «الولد نو الشوكة» و«بيت هوفن الميت» وهو وجه امرأة غرقت... وقد أخذ قالب وجهها في «معرض الموتى»... هي «مجهولة السين» كما تدعى... أقسم لك...

كلُّ ذلك أتر فيها ببطء. وعادت الألوانُ الغائرة، وأخذت تدور على نفسها،
وتنظر الى وجه الجبس، غيرَ مصدِّقة، نظرت الى اوريليان، لقد بلَّ شعره
وامتشط... لماذا؟ مجهولة السين... ربما... إن لم يكن امرأة عرفها، فهو قناع
أعجبه، أولاً... ثم رأى أنها، بيرينيس تشبه هذا الجبس المجسَّم في قالب...
نهشتها غيرُة جنونية، لقد غارت من ميتة، من غريقة لم يرها قط. أمسكت به،
انتزعت القناع من يدي اوريليان. أحسَّت في أصابعها الى أي حدَّ هو معرضٌ
للفناء. وسيطرت عليها رغبةٌ عاتيةٌ في تدميره. وماجدوى ذلك؟ يستطيع أن يخرج
ويشتري نسخةً أخرى. نظرت طويلاً الى هذه الصورة الشاحبة لنفسها التي لم
تُرها إياها امرأة قط. وأخذ يتكلم:

- كان في البداية... مجرد... وجه فيه سرٌّ. رأيته في حانوت، وقد روى لي
قصته الإيطالي الذي يصنع قوالبَ الجبس، في شارع راسين، كما تعرفين،
بينما كنتُ أنظر إليه... ليست قصة... إذ لم يُعرف شيء عنها... مجهولة... رمت
بنفسها في السين، امرأة شابة... أغمضت عينيها على سرِّها... لم فعلتُ ذلك؟
أهو الجوع، أم الحب... يمكننا أن نحلم بما نشاء... وما الذي دفعَ طالبَ الطبِّ
المناوب هناك الى جانب «معرض الجثث» أن يأخذ قالبَ هذه الغريقة، لا
غيرها... لعله وجدها جميلةً جداً... ويدا له غير ممكن أن يتركها تذهب هكذا،
على مدرجات كلية الطب، حيث سيشرِّحها شبابٌ عميُّ ليتعلَّموا التشريح... لقد
أراد... وحينئذٍ...

قالت، اعترفت.

- أنا غيِّرى الى حدِّ فظييع...

ارتعش، غيِّرى؟ هي تحبُّه، هي تحبُّه إذن!

- بيرينيس!

أمسكها بين ذراعيه. وحمله صوتُ الجبس الذي تحطم على أن يُرخي
ضمَّتته. نظرا كلاهما بذعرٍ الى قطع البياض على الأرض، والبودرة على

السجادة، والشظايا المنفصلة، وأسوأ من كل شيء أجزاء الأنف والفم... لقد ارتكبا ما يشبه جريمة القتل... قالت

- يمكنك أن تجد قالباً آخر في شارع راسين...
هز رأسه. قالت

- اوه! بلى! يجب أن أشتري قالباً آخر... وسأقدمه لك... بلى، بلى... سيكون الأمر سيئاً هكذا... هذه المرأة... قوتها في أنها ميتة... ارتعشت. تذكر أنها قالت: غيّرني إلى حدّ فظيع، فأخذ يديها، وهمس

- أنت حيّة، وقوتك في أنك حيّة...

نظرت إليه. أكان يُمثّل؟ لم تعود نفسها الشك فيه

- ماذا تقصد، أوريليان؟ قوتني في أنني حيّة. جميع النساء حيّات... لا قوة لهن إزاء ميتة... وإذا متّ من فوري... فحينئذ ستكون لأية امرأة، بالنسبة إليك تلك الميزة، تلك القوة؟

لم حطام الوجه المغمض العينين، خلصة نوعاً ما، ونظر إلى الآخر، إلى الوجه المفتوح العينين. وفكر كما فكرت قبل حين: أهي تُمثّل؟ لكن باهتياج أكبر، ويأس أقل. تناول من قرب المدفأة مكنسة الرماد الصغيرة التي كانت يدها سوداء وعليها حرائر زرقاء.

لا ينبغي أن يترك ذلك كله دون أن يكنسه فالمشي عليه سيترك بقعة بضاء على السجادة، وسيلتصق الجبس بها. وفكر. إنها لم تحبّ هذه الصورة. قال بشيء يسير من اللوم:

- أنت لم تحبّي هذه الصورة...

فدافعت بيرينيس عن نفسها:

- «لا، لا، لم أفعل ذلك متعمّداً لا يذهب بك الظن أنني فعلت ذلك متعمّداً

مصيبة... لا أعلم كم كنت سأعطي لكي لا يتحطم هذا القناع... لا أعلم... أنا غاضبة جداً... أستحقّ عليّ؟

هز رأسه. وُضع الحطام في جريدة قديمة. ووُضع الكلُّ في سلّة الأوراق.
حاول أن يمزح:

- سأُحقدُ عليك كثيراً...

توقّف. كان في عينيها ضبابٌ:

- اوه! يا عزيزتي!

هذه الكلمة التي أحرقت المراحل أذهلتها. وفي الصمت، مدّت نحوه
راحةً متوسّلةً، وأومأت أن «لا»، دون كلام. لأي شيء قالت «لا»، ياترى؟
كانت هذه الميته، هذا الشبح، بينهما. نزل الغيشُ الى الغرفة. أحسَّ
اوريليان بالبرودة في كتفيه. لم تُفلق النافذة جيداً. ولكي يغيّر كلّ شيء أشعل
الكهرباء، وأسدل الستائر. فلم يبق شيء كما كان. لم يعرف أحدهما الآخر.
ماذا كانا يفعلان في هذا الديكور؟ حَرَجُ لانهاية له. قال:
- سأشعل النار. وركعَ قرب المدفأة.

- إن كان من أجلي، فلا حاجة الى ذلك... سأنصرف.. اوه! أنا حمقاء...
إن كنت تحسّ بالبرد... وبعد انصرافي...
- لاتنصرفي، بيرينيس، مالك... وعدتني بيومك...
- أعلم... لكنّ الأفضل... لا أعلم...
- أتعلمين أم لاتعلمين؟ من أجلك أيضاً أشعل النار!
احترق الورقُ تحت الحطب. أغلق اوريليان باب المدفأة. قالت:
- أظن أنها ستشتعل!

قالت بيرينيس ذلك بصوت البنت الصغيرة.

في الحقيقة، إنها لم تستطع قط أن تترك أحداً يشعل النار أمامها.
وهاهي ذي على الأرض قرب اوريليان. لم يقلوا شيئاً سوى أشياء تافهة، كالنار،
عجيبه كالنار. كان سرُّ النار يقرب بينهما. وكان دخانٌ، وكان لا بدّ من فتح
النافذة أيضاً لجذب الهواء المساعد على الاشتعال، ثم من إغلاقها، ثم إضافة
حطبة مع شيء من نثار الحطب... جلسا على الأرض، على وسائد، والرأس على

حافة المقعد، وهبت النار فتطلّعا الى لهبها . وفي سحر اللهب الذي يمكن النظرُ إليه الى ما لانهاية، اللهب الذي يتلاشى ليهبّ من جديد، ويتراقص، ويُنحفر ويزرق وينفصل عن الحطب ويسقط عليه ويلعقه على نحو ألسنة النار في عيد العنصرة، في سحر اللهب، اهتديا الى الدروب العميقة لأفكارهما المنفصلة، الى المفترقات المحرقة لهذه الدروب، تهالك رأسُ بيرينيس على كتف الرجل.

«في البيت الكبير...»

كانت تحلم. واستأنفت حلمها. جميع أنواع الكلمات والحركات والحوادث تلاشت في ضوء النار. تابعت بيرينيس هذا الحديث الذي قطعه وصولُ «فوشن» و«ليموتار» الى المارينيه. وكل ماتبع ذلك كان لاغياً وكأنه لم يكن. ماعدا موت المجهولة الذي لم يتكلم عنه لا هو ولا هي .

- كان عمري ثمانية أعوام... وكان ثمة صراخٌ طوال الوقت في البيت الكبير... والدي... لم أكن أحبّ والدي... كان يصرخ على أُمي... كان لي كلبٌ وثلاث لعب... ولم أكن ألعب قط مع الأطفال الآخرين... توقفت وكأن شيئاً عضّها:

- اوريليان؟

- بيرينيس؟

- اوريليان، أقسم لي أنك تحبّني أنا فيها!

وأشارت بإصبعها الى تلك التي لا اسم لها، والتفت رأسها نحو الجدار الذي انتزع منه القناع، ونحو الأرض التي بقيت عليها بعضُ الآثار، وسلة الأوراق.

قال بأقصى مايمكن من الجِدِّ:

- أقسم لك.

لم تكن تلك قضية تافهة بالنسبة الى بيرينيس.

همست:

- «أود أن أصدقك... وإذا كنت أنت ستُفَلتُ مني...»

ثم خجلت في أن تكون قد بسطت نفسها هكذا، فارتدت الى قصتها
- وعندما وجدتني أمي في هذا اليوم، في أطراف الحديقة حيث توجد
ناعورة، ألعب بالوحل... كنت مشغولاً باللعب بالوحل... بالماء والقضيب... قالت
لي: «نيسيت»... كانت أمي تدعوني «نيسيت»... وكانت رصينة كمادتها... أتعلم
كيف كانت هيئة أمي؟ كان لها وجهي، لكن بعينين مختلفتين... جد زرقاوين...
إنني لا أتذكر ذلك جيداً، فقد كنت صغيرة جداً... ثمانية أعوام... كانت تشبه...
وأشارت بذقنها الى سلة الأوراق.

- «وإذن فكيف يطيب لي أن أحطم هذا القناع؟»
كانت تعلم جيداً أنها أرادت تحطيمه، كالبرق. خنقها الكذب قليلاً، بيد أن
الامر لم يكن كذباً تماماً.
أردفت:

- قالت لي: نيسيت، نيسيت... لا يمكن لذلك أن يدوم... أنت تريين جيداً...
أباك... وتسمعين في كل يوم صيحاته... كنت فتية جداً عندما زوجوني... لم
أكن أعلم... ثم إن الحياة كلها... الحياة كلها... الحياة كلها كذلك... ماذا
تشيرين علي أن أفعل، نيسيت؟... أنا لم أكن أفهم... خبأت يدي الوسختين...
اوريليان، أمك كانت جميلة، أليس كذلك؟ أكانت سعيدة؟
ارتعش. مأساة حياته كلها نفذت إليه، وقصة أمه وذلك الرجل الذي كان
يشبهه دون شك.

- حينئذ قالت لي أمي: إنها تنوي الذهاب... على الفور... ولا يمكنها أن
تأخذني معها... لكن فيما بعد سيفوت الأوان... كانت ماتزال شابة... كان هناك
رجل تحبه، ولا يصرخ، ولم تكن له عينا أبي الخبيثتان...
والتفتت نحو اوريليان:

- هاتان العينان اللتان تراهما!
وأومات إيماء متوحشة كأنها تريد أن تقلعهما.

تناول الأصابع المنفرجة كالمنذرة وانحنى ليقبّلها . لقد أغمضت عينيها
لتشبه أمّها .

- ولو قد قلتُ لها: لا تنصرفي، لبقيتُ، أنا واثقةٌ أنها كانت ستبقى...
لكني لم أشأ أن تكون بائسةً، أمي، في ذلك البيت الكبير، مع الصرخات وأعيننا
السود من حولها... قلتُ لها: انصرفي، ماما، انصرفي... كان عمري ثمانية
أعوام وكنت أَلعبُ بالطين قرب الناعورة... كاد أبي يموت... وبقينا وحدنا مع
الخدم...

كان اوريليان يفكّر في أمه التي لم تنصرف، في أمه الجميلة التي كانت
تبدو سعيدة، التي لم تكلمه قط، هو صغيرها، ولم تطلب قط... ثم تخيل القناع،
القناع الذي يشبه الهاربة، فمرّت به فكرةٌ خياليةٌ.

- وأملكُ، بيرينيس، أمك... هل هي ميتة؟ في أي تاريخ صنّع هذا القالب؟
يمكننا معرفة ذلك... السين تحتنا بكل أسرارهِ...

- يالها من فكرة! أمي ماتزال شابة، وهي حيّة. لكني لم أرها منذ ذلك
الزمان.

- أممكُن ذلك؟

- زوجها الجديد أخذها معه، بعيداً جداً... الى افريقيا... كتبنا في
البداية... لم يُرني أبي الرسائل قط... ثم مرّت السنون...

الحياة أكثر خيالية من الخيال. إن ما يُبسّط كل شيء تبسيطاً شديداً،
وتبسيطاً لاجدوى منه، هو أن تكون غريقةُ السين، المجهولة... وتوسّل إليها:

- أغمضي عينيك!

أطاعتهُ، وفي هذه الظلمة التي أجابت طلبه فيها، سألتُ:

- مَنْ تُفضّل، اوريليان؟ أنا... أم أمي؟

لم يكن أمامه جوابان ممكنان. لكنها تخبّطتُ تخبّطاً غير منتظر، مثل هر
وحشي، وتدحرجا أرضاً كلاهما، وكان هو مأخوذاً بهاجس شفقتها اللتين لم يكد

يمسّهما، ومجنوناً من الهياج لأنها كانت تُفكّت منه دائماً. وأفلتت منه. كانت عند قدميه، وكان هو على الأرض أيضاً. قالت:
- أنت ترى أن من الأفضل أن أنصرف...
- أأنت غاضبة؟
- لا، لا... الغلطُ مني... لكنني سأنصرف...
- أتوسّل إليك...
- أفضلُ كثيراً أن أنصرف... لستُ غاضبةً، أوّكد لك... اعطني معطفي...
شكراً..

وضعتُ قُبعتها أمام المرأة. وفَتّشت في محفظتها. أحمر الشفاه.
كان يقول ما يخطر له ليعتذر. لكي يستبقيها. ورأى جيداً أن لافائدة من ذلك. تلك القُبعة البشعة الكريهة التي لها، من المؤكّد... واحمر فمها من جديد. وابتسمت برفق شديد.
- اسمعْ، غدأ صباحاً أنا على موعد... بلى، وعدتُ «زامورا» بساعة لوضّع الصورة... لكن بعد ذلك...
- ومرة أخرى، زامورا!
- لا تغضبْ. هذا كل ما يلزمه. كان سيشغل دوني. إنه يتحقّق، وهذا كلّ شيء... أتعلم، ليت علاقتي كانت مع رسّام صور!
- أنتِ نفسك تقرّين بذلك!
- وليست لوحة زامورا سوى لوحة مائيةٍ حولي...
هزّ أوريليان كتفيه. لم يكن يعلم أيهما أكره عليه: زامورا أم تصويره.
- لا، لاتأتِ لإحضاري... لكنني سأكون، إذا شئتُ، في الساعة الواحدة، تحت، في «المارينيه»... كما كنّا قبل قليل، ولعل لك أصدقاء آخريّن...
كانت تضحك.
- لا، ليس هناك «فوشز» في كل يوم. شكراً. حسناً، اتفقنا، في «المارينيه».

ربما نوى أنه لن يدعها تنصرف هكذا . تلك أشياء تُقال في النفس . لقد تركها تنصرف هكذا . وعندما أغلق الباب ، عاد الى الغرفة ، ورمى بحطب في النار ، وصدم بالرغم منه سلة الأوراق بقدمه . فازت عش وكأئه لامس نعشاً . كان بحاجة الى الهواء ، فتح النافذة : كان الليل مظلماً ، والريح تهب . مشى على الشرفة ، ونظر الى أنوار باريس القريبة جداً والبعيدة جداً . ثم ارتدت عيناه ، دائرياً ، الى تلك الحفرة السوداء العظيمة تحته ، «السين» الذي يجرف الأوحال الجليدية والغرقى .



وفجأة استضأت غرفة من البيت الكبير. واكتسى أهمية الرسم على القماش، والورق الجداري. وانسلت الخادومات في ضوء الغرف الخافت. وكنّ يغسلن في مغسل الثياب، أو كنّ في الحديقة المحفوفة بالأسرار، ونباتات القبس والغار الوردي. وفي وسط ذلك كله بنتُ صغيرة تروي لنفسها قصصاً، وتحمّل وزر قصة لم تفهمها بكاملها، وهي ترويها لنفسها للمرة الألف. «كنتُ فتيةً جداً عندما زوّجوني...» وظلّ الرجل ذي العينين السوداوين، الرجل المهجور، كان يصرخ، كان ضد كل ما كانت تحبّه الصغيرة. كان ما ينبغي أن يُترك لتحقيق السعادة، لكنه كان بائساً.

لن يعلم أوريليان أبداً كيف مرّت هذه الأيام، بهذه السرعة وهي طويلة جداً. طويلة جداً وقصيرة جداً. وسوف يخلط بين ذكرياته وبريق هذه الدقائق، وفضلات الساعات. سوف يُفسد كل شيء، وسيضيع في ذاكرته، بسبب عيني الطفلة السوداوين، بسبب الوجه المنفتح والمنغلق، بسبب تلك الخطوط الصغيرة العمودية على شفة بيرينيس السفلى، تلك الأثلام المؤثرة، الموجعة، التي تجعل شفتي الرجل ترتجفان، لن يعلم جبدا ما يعود الى هذا اليوم وما يعود الى غيره. ومع ذلك هذه الأيام هي الأيام الجوهريّة، الأيام الحاسمة في حياته، وربما من أجل ذلك أيضاً، سيعيد فيما بعد تكوينها بصبرٍ واحداً واحداً، ويقارنها بعضها ببعض ويصحّحها، ويُنيرها. وسوف تكتسي أضواء لم تكن لها، وسوف يتغير شكلها. فكل ما كان ألياً، اتّفاقياً سيحمل معنىً ونيةً. لن يُترك للمصادفة شيءٌ فيها. سيكون ذلك مثل ثنائي الاوبرا، ثنائي عظيم، مدوّ، منظّم، جنوني، ومع ذلك، فقد كانا يتسكعان على الأرصفة، ويقومان بنزهة قصيرة بجانب «مو»، «سلي»... ويقضيان صبيحةً في اللوفر كما كانت تطلب بيرينيس، ويختصمان بصد «كورييه». كان هناك ساعات تجب العودة فيها، وساعات مواعيد، وثقوب هي الدنتيلا، ساعات فارعة، ساعات بلا بيرينيس.

كانت تتكلم عن أبيها . هل كرهته كل هذا الكره؟ كانت تعتقد أن لها
بجنبه مهمة إصلاحية لا يُدرى ماكنهها . كانت تخافه . وكان يصرخ صراخاً قوياً .
كان رجلاً عاصفاً . وقد مرّر أحياناً نساءً في البيت الكبير . ولم تدخل بيرينيس
المدرسة إلا في وقت متأخر .

كان طابع هذه الأيام ضرباً من الذهول ، من اللاشعور . الوقت يمضي
وكأنما نملك الأبدية ، وكأن مايصنع قيمته هو أن نُبدّده . ومع ذلك فقد كانت هذه
الأيام تحمل الدود في الثمر: اليقين الذي لا يغيب عن البال بأن لها نهاية ، هاجس
قصرها ، المعرفة المسبقة بذلك الفراق الذي له مذاق ما لا سبيل الى تعويضه .
ومن الغريب أنها تعيش في قلب الشتاء ، فهي أيام تناقض فصلها كالتّي لا
نجدّها إلا في حمارة القيظ ، عندما يكون الجو بارداً ، في الظلّ ، في الجبال ،
وننسى أننا هربنا إليها من شمس محرقة .

في كل مرة تركها اوريليان ، تساءل: ما الذي جرى له ، وكيف كان ممكناً
أن يتصرّف بمثل هذه السذاجة . وفي كل مرة كان يُهان في كبريائه ، كبرياء
الرجل الحمقاء ، لأنه لم يجعل من هذه المرأة تابعة له . كانت تهرب من بين
أصابعه وتحيره . ولم تُفدّه تجاربه السابقة شيئاً ، ولا الطلاقة التي تعلّمها ، ولا
الأفكار العامة التي تُتيح الانتقال من الحديث الى الأفعال العنيفة ، من التصنع
الى المعركة . هناك لحظات كان يظنها بين ذراعيه ، ويحسّ أنها قد غلبت على
أمرها ، وهناك أوقات لا يشك في أنها تحبّه ، وأن كل شيء يتجاوز الكلمات ، وهو
أسوأ من القبلات ، ومع ذلك ، فالذي كان ، فيما بعد ، هو أن هذه اللحظات
تلاشت ، بل إنه لم يعانق شبحاً ، وأنهما كلاهما حاضران ، على شفا هوة ،
أخرقان ، حائران ، وأن أشد الكلام ابتداءً يخبئ خيبة أمل ، وهياجاً ، وخوفاً .

ليس اوريليان من هؤلاء الرجال الذين يؤمنون باللاواقع في الحب . إن
رأسه ، وهو يُصغى الى بيرينيس ، وبينما هي تتحدث عن طفولتها ، مليء بالأفكار

المحددة، والصور التي تدور حول شباك الصياد، وكل مايقوله، وكل مايفعله كالسحر من أجل جذب المرأة الى فخّ اللذة التي هي غايته هو، الرجل. وهي بلا مقاومةٍ على نحوٍ عجيب. فكيف جرى أنها تُفقد دائماً، تلك الفريسة بعينيها السوداوين، هذه الـ«بيرينيس» الراعشة التي تحبه، تحبه، وهو يقسم على ذلك. كم مرة أحس أنها تحت رحمته، واكتشف في عينيها الخوف من تخاذل قواها؟ إن هذا الرجل الذي أحبته النساء لايجرؤ، لايجرؤ في كل مرة أن يستغل هذا الضعف، ماالذي يوقفه، يأتري؟ الخوف من أن يدمر كل شيء دفعةً واحدة. كلاً. لقد تاه في تخميناته، واختلط عليه الأمر فسب نفسه وهزىء منها.

بدأ يعلم أن مايوقفه كامنٌ فيها، إنها تحبه، لكنها لاتريد أن تكون له. أصبح ذلك يقيناً. دون أن تقول شيئاً عن ذلك. على كل حال، إن ماتقوله امرأة لاُحسبُ حسابه إلا قليلاً في مثل هذا الموضوع. الكلمات صالحة لتقنيع العواطف، لالتعبير عنها. إنها لاتريد أن تكون له. وهو يعلم أن لامحيد عنه. لماذا؟ إنه يعلمه، ولا يعلم لماذا. فهي لاتحدثه عن ذلك، وإنما تحدثه عن البيت الكبير، عن الحشرات التي تقفز مساءً الى غرفتها السوداء من النافذة المفتوحة، وعن فلاح هو أميرها الساحر عندما كانت في العاشرة، وعن قطاف الزيتون. وهو يصغي الى رجاءٍ لآخر له، خلف الكلمات، ويسمع، ويرصد قرار الاتفاق بين قلبيهما، لكنه يعلم مثلاً أنه لو ارتفع صوت حبهما لحطم الكريستال الذي يرنّ بوقاهما. مرة أو مرتين، ويقبولهما كليهما تقريباً. أفلتا من قدرهما بالهرب. وهو لايدرك كيف جرى ذلك، كيف سمح بأن يجري ذلك كله. أليس مملوكاً بها، بالشهوة المحددة تجاهها؟ الحب، الحب... أهذا هو الحب، هذا الرقص المتجدد؟ إن كان يحبها فما خوفه من حبه؟ أهو الحب إن كان لابد له أن يتلاشى لأنه يتجسد؟ ووراء كل شيء هذا الهاجس وهو أن بيرينيس ستسافر، ستتركه، ستلتحق بحياة لانصيب له فيها، حياة هي حياتها الخاصة بها، كما يبدو، حياتها الخاصة بها... ماذا يعلم عن هذه الحياة؟ لاشيء، ألف مرة، لاشيء.

زوج صيدلي. ذلك مضحك إن لم يكن قاسياً. مدينة صغيرة من مدن الريف. ثم ماذا، ماذا؟ فكرة الواجب، والدين؟ لا، وإذن؟ لاتريد أن تؤلم هذا الزوج، أو الخوف من القيل والقال؟ كل شيء مسكين الى أبعد الحدود بجانب هاتين العينين السوداوين، هذا الوجه البارز التقاطيع، هذا الشعر القشبي، وهذا التعبير، تعبير العذاب، وذلك العطش الذي لايفصح عنه، ذلك الجنون... أوه! لو كان حقاً لا يحبها، لو كذب عليها، على بيرينيس، فماذا كان سيحل بها؟ إنه يعلم أنها تتمسك بحبه كما يتمسك من يغرق بخشبة هزيلة، وهو يعلم علم اليقين أنها قد تموت إن لم تكن محبوبة...

كيف علم ذلك؟ وهي لم تقل له شيئاً. وإذا كان قد كذب، وإذا كان لاخيبها... وقد تعالى لحظة على هذا الحب، وقاومه، وتحداه. ثم بدأ ذلك يصرخ فيه، هذا لايحتمل، واستولى عليه اليأس. لاجاجة الى التصنع، لاجاجة الى الإنكار، حتى رأسه تحت العاصفة، وترك المطر ينفذ حتى العظام. لقد عضف به قدره.

إنها تتحدث عن أبيها. هذا الأب الغريب الذي لم يجد قط سبيلاً الى قلبها، هذا الأب المكروه بسبب تلك التي ذهبت، هذا الأب المخيف مثل مصيبة بيتية. إنها تتحدث عن أبيها الذي علمها، وهي صغيرة جداً، مامعنى أن يكون المرء بائساً، والذي كرهته من أجل ذلك. ولعلها أحبت من أجل ذلك، على طريقته المتوحشة، دون أن يعلم شيئاً من ذلك. ولو قد علم ماذا كان سيفعل؟ سيزداد غضباً، وسيزداد صراخاً. لم يخلق ليحب، ولم يكن محبوباً.

ذكرت اسم «لوسيان» ذات مرة. كيف ورد الاسم على شفيتها؟ لاينبغي أن يقال: إن ذلك قليل الأهمية، بل على العكس، إنه كثير الأهمية. لكنه ورد بطريقة من تلك الطرق الملتوية التي لانعثر عليها أبداً بعد ذلك، ورد اسم لوسيان على شفيتها، هذه هي الواقعة، كمن ينتظر لشيء آخر، لكالشيء ذاته. ومع ذلك فقد ارتعش اوريليان. آذاه هذا الاسم، ود لو لم تلفظه، وود أيضاً أن تلفظه لتطرد من بينهما هذا الشبح، هذا التهديد، ولاحقه هذا الاسم عندما توقفت عن الكلام، وعندما ظل وحده، وحاصره في اللحظات الخالية، كما حاصره في

عرض الأحاديث، وكما حاصره في أعماق أحلامه. استيقظ «أوريليان» وهو يتصبب عرقاً وهو يلفظه. كان يطفو من كابوس لم يُنسَ سوى نصفه، لكن عشر صور من صور الرجال الذين يعرفهم ساعدته بصورة عابرة لتكون مستنداً لهذا الاسم الذي كان يهرب من وجه الى وجه. لوسيان...

دخل أوريليان مدرسة الغيرة.

هذه الفكرة تشق طريقها فيه. بصدد تفكيره في بيرينيس، وهي أنها كانت مثل من يفرق، ومن يتشبث بحبه. لعلها لاتحبه هو، أوريليان، لكنها تحب الحب الذي يحمله لها. وهو لا يكاد يتصور شيئاً من هذا القليل حتى يغدو كل شيء واضحاً، أي أن كل شيء يصبح مظلماً. سماً ذعافاً. في البداية، يتعلق أوريليان بكل عناصر الاستعارة: فهناك الغريقة، ولوح الخشب، والبحر، والعاصفة... ماذا يعني كل ذلك؟ بهذه الطريق من الملحقات الإضافية، يبحث عن المعنى الخبيء لهذه الصورة، يبحث عن جوهر مأساة تكهن بها. إنه لا يعلم في الحقيقة شيئاً عن حياة بيرينيس. وهذا الأسلوب الذي تستخدمه لترده الى طفولتها، في ذلك البيت الكبير، ولا شك أنها إن كانت تتكلم بهذا القدر عن الماضي، فلكي تتحاشى الكلام على الحاضر. مامن شك في أنها تتحاشى الكلام على «لوسيان» الذي ذكرت اسمه سهواً، أو كالهو. من يدري؟ لعلها تريد أن تُعدَّ أوريليان لتعسه. لكن اليس هي التّعسه؟ الغريقة، دفة النجاة، البحر. أي عناء خبيء تحمله في أعماق هاتين العينين المليئتين بالظلال. أمن «لوسيان» جاءت الخيبة التي من شأنها أن يلزمه أن يكون اليوم محبوباً، محبوباً بصورة مؤسفة، لكي يظل يؤمن بشيء ما، بالحياة، بالطقس الجميل؟ مالي ولذلك، انني أفقد عقلي. وعلى العكس، كلما تحدثت، على نحو غير مباشر، عن هذا الزوج، أو عن الصيدلية والمدينة، فأني هدوء مفاجيء تُظهر. ذلك الريف، وفيه لوسيان، أُدْخِلُ في باب الضجر والرتابة منه في المأساة. وإذا كان ثمة مأساة، من قبل لوسيان، فيجب عليها إذن أن تحبه. الغريقة، دفة النجاة، البحر. لقد راعه فقط استمرار قصص الفرق من حوله، وارتعد من القناع المحطم، تلك الابتسامة على الأرض، وكأنه إزاء استشعار مسبق.

وحتى عندما يعتقد حقاً أنها تحبه فإنها لم تكن تحب سوى حبها؟
وحينئذ يسهل تفسير كل شيء، الرفض، الظل القائم بينهما، إخراج مضمّن،
وكسب الوقت، لتتركه هكذا عالقاً في هواه المتعطش، طبعاً، طبعاً. كلما فكرت
في ذلك، إنها تريد أن تحتفظ بهذا الحب، وهي تخشى عليه من نار اللذة، من
الإشباع، وهي لا تريد أن تعطي شيئاً، وتريد أن تأخذ كل شيء، أن يكون لها من
بعيد، ذلك الضياء الذي ترجع إليه بكبرياء عند كل حقارة من حقارات هذه
الحياة، مثل شمس في أعماق ضجر الريف، وعندما يفكر أوريليان في ذلك يجد
نفسه وقد استولى عليه هياج عاتٍ، ويخطط لضروب الانتقام والمكر والخبث الذي
لا يرحم. ويحاكم الأمور بقسوة الرجل الذي لا يفكر في غير استغلال النساء،
وبصفاء ذهنه، ويهزأ من حبه ذاك، من الذي قال إنه لو لم يتحدث الناس كل هذا
الحديث عن الحب لما اخترعه أحد؟ أجل، ولكننا نرى أنه كان لابد من اختراعه
قبل كل هذا الكلام عليه... وجميع القرارات تذوب كما يذوب الثلج في الشمس
عندما تتأخر بيرينيس قليلاً، وعندما تصل بفستان جديد، ردىء كالذي سبقه،
وبذلك الصوت العميق المتهدج قليلاً «لقد تأخرت عليك ..»

يود لو يطرح عليها أسئلة، فلا يجرؤ. يخاف أن يبطل السحر، أه! يالدون
جوان الجميل الذي لا قيمة له! وفي البدء يضحك من نفسه، ثم يتذكر بصرامة ما
انساق إلى التفكير فيه وبيرينيس غائبة، فيخجل من نفسه، لو علمت بيرينيس...
أنى لها أن تعلم؟ لم يحدث أحد... وها هنا يالذات ما يضمني وما لا يعترف به، إن
سعادتنا، إن بلغنا السعادة، تفقد ميزتها سلفاً من جراء ذلك، من الذي سيُعلم
بيرينيس؟ أوريليان نفسه... «بيرينيس»؟ فترفع نحوه الاستفهام الصريح من
عينها الليليتين، فلا يقول لها شيئاً من ذلك. هذا مستحيل. قالت:

- كان عمري خمسة عشر عاماً عندما أدركت كم أحبّ أبي زوجته...
ماما... وكم تألم... وعندما أدركت سبب هذا المزاج السوداوي الذي كان
يظهره... سبب جزعه... وغضبه... عندما أدركت كم كنا ظالمين له... ماما
وأنا... الآن لم يكن أوريليان يصغي إليها إلا نصف إصغاء، وهي تخوض في

قصص البيت الكبير. كان ذلك مثل مصاحبة موسيقية لأفكاره، سرو الحديقة، الناعورة، الزيتون، كان يتابع هذه الفكرة الرئيسية مع آلاف التنويعات الإيقاعية التي تتملكه، إنه يبحث عن التفسير لديه نفسه أكثر مما هو لدى بيرينيس، لم يقبل بقواعد لعبة لا يريد أن يلعبها؟ ولم لا يثور في نهاية الأمر؟ لقد قال الشيء الرئيسي: هل أستطيع الآن أن أعيش دونها؟ هذا مروع، ولا يجوز التفكير فيها «بيرينيس»...

ومن جديد رفعت اليه الاستفهام المزدوج الأسود.

«بيرينيس لن أستطيع العيش دونك»...

هزت رأسها ببطء، وأخذت يديه، أراد أن يخلصهما، رأى أن في عينيها دمة كبيرة، حار فكره، فلم يدر ما يفعل وما يقول، وهو الآن يعزيها، وإن تمضي دقيقتان حتى يعلن نفسه، أساذج، غبي، أنا؟ خدعتني أولاً وخدعتني ثانياً، نسب إليها أشد الأفكار دناءة، وأشد العواطف سوقية، إنه ينتقم هكذا من رضوخه، ومن سلطان بيرينيس عليه. وهو لا يعلم أننا لاننسب ابداً الى اللامبالين مثل هذه الدنائة، مثل هذه الحقارة، وهو لا يعلم أننا، عندما نحب فقط، ولأننا نحب، ننسب الى حبنا كل ما يشوه أي إنسان، ومامن شأنه منا أن يعذبك أنت نفسك، أه! كلما ازداد حبنا ازداد تجديفنا، أدرك أوريليان ذلك ببطء، كان في البيت الكبير هراً... يدعى «بيتوليه»...



كانت امرأة طويلة، مسترجلة قليلاً، تحمل بقوة عبء أعوامها الستين، ولا يبدو أن الغلطة غلطتها إذ لم تُزل الصفرة تماماً عن شعرها، فهي تشده بخبث، وتكومه في الهواء، وتشبكه بالدبابيس بعد أن تكبسه بحيث لا يظهر ذلك إلا قليلاً. إن قسماتها الكبرى التي ثخنت مع العمر، لا تُلطفها أية تطرية، لا الخضاب ولا المساحيق، لتخفي الدمار على هذا الجلد الأشقر. اللون كله ظل في العينين الزرقاوين الواسعتين تحت الأهداب البالية. ولا تتساهل السيدة «امبيريو» في وجهها إلا بشيء واحد وهو أن تشطب فمها بجرة خرقاء لقلم الحمرّة الذي يدع شيئاً من الشفة تتجاوزها، وهي، بقميصها المسرود الكستنائي الذي يتدلى من جميع الجهات والذي يكشف عن جورب من الخيوط رمادي اللون، وعن حذاء كاهن كما يقول زوجها، كيف تبدو حقاً؟ وفي أذنيها لؤلؤتان حقيقتان.

- لن تصدقي أبداً، يا صغيرتي، انني راقصة قديمة!

طرفت بعينها نحو بيرينيس، كان كبرياؤها المزدوج ألا يخامر أحداً شك بأنها راقصة قديمة، وأن يقول: إنها راقصة قديمة. لكن أي صوت مبحوح صوتها!

احتج أوريليان

- مهلاً، مهلاً، لا تمدحي نفسك، عمة مارتا فمئذ أن أخفت الناس

بشبابك العاصف!

كان صالون العمة مارتا، الصغير الذي كان «امبيريو» يدعوه «كفر ناحوم» عامراً، مسكوناً بأشياء مغربية حملتها برحلة زوجية في افريقيا الشمالية. مع سجاجيد اشترت من الحانوت المقابل في ساحة «كليشي» وستائر من الصوف الأحمر والأزرق، تبدو كأنها من «ديلاكروا» إذا صدقنا المعلم الذي باعها. وفي الداخل، على الأثاث الملبس بالصدف، مع أعمدة صغيرة وجرات ورفوف معقدة، طائفة من الأشياء الصينية كالوفد الزائر: مجزعات، تماثيل

صغيرة من الجياد، بوذا من البورسلين، تنين، وعاجيات، كان هذا هو إرث الحماة التي لم تعرفها العمة «مارت» والتي لم تقبل بها، لكنها عندما ماتت بعثت إليها باعذارات هذا العالم الآسيوي الصغير، بالآفها المستنكرين، وقد أضافت العمة مارت الى ذلك كله لتجعل منه مملكتها، وسائد من الحرير الأزرق السماوي الذي صورت عليه الطيور والأزهار، وعلى المدفأة مراوح بفراشات في أنية فضية مغربية، وأمام آلة خياطة تمشي بالرجل، وفي زاوية طاولة من خشب الأكاجو المنقوش، وعلى المدفأة أيضاً بعض الصور، في أطر مدهونة، جندي زواوي، «بليز» في العشرين من عمره، ومجموعة مصغرة تعود الى «المعرض»، وعلى الجدار لوحة وحيدة، ليست من عمل «بليز»: صورة بالألوان المائية لـ «ديغا» من زمرة التدريبات على العارضة.

استأنفت العمة «مارت»

- نعم يا صغيرتي! أنا التي ترينها هنا... صورة إجمالية أعطاني إياها... تماماً... رسم «ديغا» صورتني بتنانير الراقصة، والساق ممدودة على العارضة... أجل... ودُفع باللوحة عند بيعها ثلاثون ألفاً... يُقال إن ما يُدفع بي اليوم مئة ألف فرنك وكأنها لاشيء وكأنها فلس واحد!

قال العم امبيريو

- يُدفع بك!... يا ظنوب ساقى!

قالت العمة بصوتها المرتعش

- هذا الرجل رقيق كالزبدة، تصور أنني عرفتَه ولم يكن يستطيع التعبير

عن مشاعره! وعملتُ عملاً رائعاً،

هز «امبيريو» كتفيه، كان البياض يجالسه، وكان شاربه كثيفاً ومهدلاً، وقد صار أصهب من التبغ. وكان الرجل هزياً وأحمر، عالي الكتفين جداً، مقوس الظهر، طويلاً، يهزه ضغط سترابينه، وأوردته البارزة عقدها عند الصدغين، وطائفة من التجاعيد، والأنف مسرف القصر، لايتني بالجدية. النظرة جدّ باهتة في حاجبين كثيفي الشعر، ولايدرى إن كان ذلك ضعفاً أم طيبة.

سأل أوريليان:

- منذ متى تتخاصمان كلاكما. منذ أربعين عاماً؟

- هتفت العمة بلهجة الظفر

- وأكثر، يا صاحبي! منذ خمسة وستين عاماً... خمسة وسبعين وخمسة

وعشرين... وواحد وعشرين...

قال الرسام:

- لنقل ستة وأربعين ولنترك الكلام على ذلك! إن كنت تعتقدين أن ذلك

يهم السيدة موريل.

- طبعاً، لا يداخلني وهم... فلم تأتي لتريني.. بل لتتري الرسام

«دامبريو»... ما بك؟ تعترضين؟ من تظنينني، يا صغيرتي! ولذلك فإذا كان قد

لاطفني مرة في ستة وأربعين عاماً، فرسم صورتني...

قاطعها الزوج

- لن تُباع بمئة ألف فرنك!

- في البداية لا يُدرى شيء من ذلك... لأن «ديغا» - بيتنا - لو لم يصور

الراقصات...

- «مارت»، أنت حمقاء!

- «بليز»، أنا أدري ما أقول. حسناً، تعالي وتفرجي على لوحاته الكبيرة

وعلى... إن كنت تظنين أنني أرغب أن يأتي الناس إلى هنا من أجلي، فأنت

تخطئين! أنا فخورة به، برسامي، حتى وإن لم يدر ذلك علينا مالأ... وانظري

كيف تطور الدوائر. فعندما كان في العشرين من عمره كان يترامى علي... وكنت

أذيقه العذاب! أما الآن فهو الذي يخدعني إلى حد التلذذ بذلك!

- مارت!

- أليس معي حق، أوريليان؟ لم تقل لا؟ أترى أيها المتصابي، لم يقل

الفتى لا... سيدة موريل، من هنا... لن أرافقك... فعندما ينظر الناس إلى

لوحاته ينتابني غصص...

وعندما بدا على اوريليان أنه يتبع بيرينيس، هتفت السيدة العجوز:
- ياالشباب اليوم هؤلاء! إذن، قلن يهتم بي أحد، أنا؟ لن أتخلّى عنك،
اوريليان، اجلس هنا، وساعدني على حل الصوف...
إن النظرة الأسفة التي القاها اوريليان على بيرينيس وهي خارجة
أضحكت «امبيريو» الذي لكز الشاب. وغضبت العمة مارت، التي ظلت وحدها
معه، أنفها، وهزت كتفها، ونهضت، وطلبت بإصبعها على وجنة اوريليان،
وتناولت نظارتها التي كانت ملقاة بعلبتها على المدفأة، وفتشت الطاولة المصنوعة
من خشب الأكاجو والتي لها درج بشكل مفرغة الجيوب، وأخرجت ربطة خيوط
صوفية خضراء، قالت:
- هيا، لن تموت من تركها مع «بليز»... أعطني يدك، أيها الأحمق
الكبير... مالوجهك تبدل! لست حلواً هكذا.
- أؤكد لك، عمة «مارت»...
- تا، تا، تا... أنت لا تعرف الكذب... هات يدك... هيا، اجلس على
الوسادة... هذا الحب العظيم مستمر منذ ثمانية أيام؟
- لكن، عمة مارت...
- تجرأً وقل إنك لاتحبها؟ أترى، أنت لاتجرو... ياإلهي، اتبع حركتي،
الخيوط يعلق طوال الوقت... إنها لطيفة وإذا كانت تعجبك...
- أتعجبك أنت، عمة مارت؟
- عيناها غريبتان... لابس بهما... هل الأمر جدي؟
أوما «نعم» برأسه، بقناعة عظيمة كاد يُفقد الصوف معها.
- من بلاني بهذا الأخرق! اترك يدك منفرجتين... وإذن، فالأمر جدي
حقاً... أنت مغرم؟ مغرم حقاً؟ أحب أن يُغرم المرء...
- أنا أحبها، عمة مارت.
- الكلمات الفخمة مباشرة... قل لي، يافتاي، دعني انظر اليك... أقلت
هذا حقاً... هذا يذكرني بأشياء... وإذن فالأمر جدي تماماً...

حلمت قليلاً، وكببت الصوف على نحو أدق. ثم استأنفت:
 - ومع ذلك... فالمرة الأخيرة التي جئت فيها الى هنا... ثم أصبحت
 زيارتك نادرة... الحاصل أنه منذ خمسة عشر يوماً، ثلاثة أسابيع؟...
 - تقريباً..
 - أعن هذه الصغيرة أرهقت أسمعنا...
 - لا أذكر..
 - اوه! أنا أذكر! ذاكرتي قوية...
 - ومع ذلك فلا أحد...
 - أقلت هذا؟ الحاصل أن ذلك حديث العهد جداً، بينكما...
 - أنا أحبها، ياعمتي... لكن الأمر لا يقتصر علينا نحن الاثنين...
 - لا؟... ليكن، على كل حال لا أطلب منك أن تُفضي إليّ بأسراركَ، كنت
 أقول ذلك... أنا، عندما كنت في عمرها، وعندما كان يعجبني رجل...
 تنهد. يمكن «لذلك» أن تعني كل شيء. أنه غير واثق من أنه يعجبها، وأن
 هناك أشياء أخرى، وأنها متزوجة.
 - الحاصل أننا لانفهم أبداً قضايا الآخرين... فشخص مثلك شاب،
 متين... لا يخصني ذلك، بعد كل شيء... لكنني أحب أن أكلّمك عن شيء آخر..
 - وما هو، ياعمتي؟
 - عن زيارتك الأخيرة بالذات... عما قلته لنا، أتذكر... لا، أنت لا تتذكر...
 توقف عمل الصوف. حطت السيدة «امبيريو» الكبة على ركبتها، ونزعت
 نظارتها، ونظرت الى اوريليان، ويداها في الهواء. تغير صوتها وغدا عذباً.
 - يا صغيري، من المروّع أحياناً مانقله ونخلط فيه الخطأ بالصواب...
 دون دراية... اوه! لست أنحي عليك باللوم! لم يكن بوسعك أن...
 - وماذا قلت...؟
 - اصبر... أتذكر... كنت مُفعماً بموضوعك في ذلك اليوم... كنت في
 سهرة لدى أناس... وكان هناك امرأة ألفت أشعاراً...

- أه! كان ذلك في ذلك اليوم؟ وكانت بيرينيس في تلك السهرة..
 - بيرينيس! لم أتكلم عن بيرينيس، وأنت لم تقل شيئاً عن بيرينيسك في ذلك اليوم... لاشيء... لا... وطوال ساعة أضجرتنا، أضجرتنا حقاً... لا تَغْتَظ...
 أضجرتنا حقاً... بتلك السيدة، وفستانها، وعينيها، وأشعارها...
 - روز ملروز... نعم لقد أثرت في... ولكن كمن يلتقي ببطل كرة المضرب.
 - لاتدافع عن نفسك، فهي من جيل أمك...
 - أنت تبالغين...
 - على كل حال، لست وحدك في هذا الموضوع...
 وبدت كمن تفكر وتناولت الكبة مرة أخرى، كانت تلف الصوف كالمحمومة. وعندما فرغت يدا أوريليان أمسكت بهما:
 - اصغ، يا صغيري... سوف تُعَدُّني بهذا الشيء...
 - بكل تأكيد، عمة مارت، كل ماتشائين...
 - سوف تُعَدُّني أنك لن تذكر أبداً هذه السيدة ملروز أمام عمك... أبداً...
 اتسمعني جيداً، أبداً... أقسم على ذلك؟
 - أقسم، يا عمتي، لكن...
 - لاجاجة الى «لكن»... اوه، ثم لاتتخذ هذه الهيئة. يمكنني أن أشرح لك.
 - لأطلب منك شيئاً، إذا...
 - إنها قصة قديمة، يا صغيري. عمك الأحق... ما يزال يحبها، الغبي!
 - عمي! السيدة ملروز؟
 - نعم، تصورا! هذا يرجع الى زمن لأعرفه... عشرين عاماً... هذا لا يصغرها هي... كان عمر بليز أكثر من خمسة وأربعين عاماً... تخيل... وحتى تلك اللحظة كان هو، والنساء... كنت أكفيه، الحاصل... صحيح أنني كبرت...
 - عمتي!
 - أنت لم تَغَرَّ بعد؟ لا؟ لم يحن موعد الغيرة بعد. حسناً، الغيرة، ذلك كمثل أن نخر إصبعنا بإبرة حتى يسيل الدم... لكن بون توقف.. أوه! مرّ بي ذلك!

- أسف، يا عمتي، لو علمت ..

- قلت لك أن ذلك مرّ بي .. وهو الأحق .. فعندما تمثّل في مكان ما ...
يقول إنه ذاهب ليلعب لعبة شطرنج .. وأنا أظاهر بأنني ... لحسن الحظ أنها
قلما تُعطى، هذه الصبية، أدواراً هامة، وبالهيتة العجيبة في اليوم التالي!
- لو خامرني قليل من الشك حقاً ...

- لاتعتذر، أخطأت، ثم أخطأت، ماذا! أثرت أن أقول لك ذلك ... لكي
لاتعود اليه ... وأظن مع ذلك أنه قد عشقني في العشرين، بليز ... لكن في غضون
ذلك ... لم يكن يتوقى .. أتفهم، كنت سأتقاضى لو كانت فتاة طيبة معتبرة ... لكن
هذه الخبيثة كانت صغيرة جداً بالنسبة إليه ... ثم كان واضحاً ... الرجال ...
كانت تسحب شيئاً من كل واحد، ثم ... إن بليز صحح لها لهجتها ...
- لهجتها؟

آه! نعم، الآن بهذا الصوت المصنوع، وذلك الإلقاء كالآلة الكاتبة!، ثم
إن لهجتها كانت منحلة، لهجة الضواحي ... كانت تُدعى «أملي روزييه» فسمّاها
الأبله «ميلي» ... ومن هنا «روز ملروز» ...
- عجباً ..

- بلا مزح، لم أقل لك شيئاً؟ آه، لا يذهب بك التصور أنني غيرى الآن ...
لكي نغار، يجب أن يكون هناك مانغار منه ... قيل إنها ذكية .. قيل هذا عني
أيضاً عندما لم أكن مصابة بالدوالي ...

خاب ظن بيرينيس في تصوير «امبيريو». حسبت أنها ستكتشف رساماً
متفرداً، فإذا به رسام كسائر الرسامين. جد أكاديمي. كل ما أراها إياه كان
أقرب الى دراسات اللوحة، أو اثنتين، أو ثلاث لوحات منه الى اللوحات، عناصر
مرسومة رسماً حسناً، شخصيات، وأشياء، ثم هي نفسها مجمعة تجميعاً
مختلفاً ومن البديهي أن المشكلة التي تعلق بها «امبيريو» كانت، بعد عشر
محاولات، أن يدخل، في إطار اللوحة المحدود، عشرة مشاهد، وثلاثة ديكورات،
وتقريباً غريباً بين حوادث تافهة، وثماراً وأثاثاً وشوارع. كان رسام مدن. لكن

الغربة لاتبدأ إلا مع التكوين. كان للعناصر حكمة المدرسة. والمقاصد المحوة تعود الى الظهور في شرح العم «بليز» (أترون هذا الرجل؟ لقد خاف وهو يتصنع خلاف شعوره)، وكانت هذه الأحاديث أحاديث نحات أكثر منها أحاديث رسام، طموح الرسم الى أن يوحى بحركة اكتملت، أو ستبدأ. قال

- خذي هذه المحارة... هل عرفتِها؟

لم تتعرفها ونظرت الى «امبيريو» بدهشة.

- في اللوحة... التي عند أوريليان... هذه دراسة للمحارة التي على متكا النافذة.

لم تتذكر إن كان هناك محارة.

- بلى، قرب علبة البودرة... ألم يقل لك أوريليان؟ ومع ذلك فلا يمكن فهم شيء من هذه اللوحة، إن لم ندرك أهمية المحارة.
قالت:

- معذرة، فأوريليان...

- أنا غبي كبير... من المؤكد أن أوريليان يحدثك عن شيء آخر... لكني أعطيته اللوحة بسبب هذه المحارة... كانت لأمه... كانت أمه جميلة جداً.
- قال لي ذلك...

- وكانت لها هذه المحارة السمراء والوردية على طاولة زينتها... ملقاة بين مساحيق التجميل... وجدت ذلك فريداً دائماً... كانت تحب أن تسمع صوت البحر أمام مراتها....

ليت الرسامين يصورون دائماً كما يتكلمون... نظرت بيرينيس الى «بليز» بهضمبول، فشرح:

- أترين هذه اللوحة... التي أدعوها لوحة أوريليان: «نافذة بييريت»... لأضلل المشاهد، فهمت... لكن بييريت، أو مهما يكن اسمها، هي المرأة التي لا ترى لكنها حاضرة... وما أردت تصويره هو هذه العلاقة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه... داخل المنزل البرجوازي... المدينة الأهلة بالسكان... أحداث

المصادفة في مجالها البصري... ثم هذا الحنين الى البحر، المحارة... لعلها كانت امرأة سطحية قليلاً لكن بفجوات في الذاكرة... بعجز مفاجيء... كانت تنسى شخصيتها... وتحلم... وتأخذ المحارة.

توقف عما كان سيقوله، وأراها دراسات عارية...

- إنني أعد عملاً فنياً ذا أبعاد كبيرة، ورشة بناء... مع جميع العمال، والصقالات، وغير ذلك... والصبية الذين ينظرون... والناس الذين ينظرون الى الشيء نفسه على أنه مشهد، عمل... هذه الفسحة الهندسية التي ستصبح بيتاً، خصوصية ناس آخرين... أتحبين «دافيد»؟ هذا كان رساماً...

لم تكن بيرينيس تعلم لماذا، لكن بدا لها أن الكلمات الأخيرة كانت ارتجالاً مفاجئاً. وأخذ الرسام الآن يقول على نحو حالم:

- لم يستطع أحد قط أن يرسم شخصاً لايفعل، في الحقيقة، شيئاً... وفحّم تفخيماً شديداً قوله «في الحقيقة، كانت بيرينيس تبحث عن كلمات محببة، إنه لموقف مربك جداً أن ننظر الى لوحات الرسام بحضوره، عندما نجد تلك اللوحات لاغناء فيها. بيد أن بيرينيس تذكرت كيف قال اوريليان عن العم «بليز». «هو صديقي الوحيد تقريباً...» برغم السن، كانت تفهم ذلك، كانت ترى، دون أن تتمكن من صياغة ذلك، ما يقرب بين هذين الرجلين، ولم تتمالك نفسها من الشعور بالود الخالص لهذا الرجل المنحني الظهر، بوجهه المنهوك الذي كانت تتكهن بألف هوس فيه، وبطيئته الخجلة. وخُيل اليها أنها ستنفذ من خلاله الى سرّ اوريليان. كانت تمزج أحاديثها بأفكارها الحميمة، بحركة القلق، بتشكك أفكارها، بنهم قلبها. أمسكت بيد الفنان في عرض كلامه، بوحى من غريزتها، وهمست: «سامحني». توقف ونظر اليها. ونفخ قليلاً في شاربته:

- أتريدين أن تقولي لي شيئاً ما؟

أجابت نعم وهي تهز شعرها الأشقر، فقال:

- أنا هنا كالأبله مع رسومي.. ماكنت أرى.. (وتوقف عن تتمة

إنكاراته..) كنت تريدان أن تحدثيني عن اوريليان؟

- نعم... لكن...

هز كتفيه العجوزين. ماأبلدنا نحن لانرى أن الناس هنا، الى جانبنا يتفجرون من حاجتهم الى الكلام... كانت غارقة في قصتها، هذه الصغيرة... أبلغَ بهما العشق حداً عظيماً؟ أجلسها على منضدة صغيرة. لم يكن للغرفة من المشغل سوى هذا النور النازل من السقف. بل إنها أشبه بغرفة كبيرة للمهمات، خيل الى بيرينيس أن الرسام أجلسها لكي يسقط عليها الضياء بطريقة تصويرية. قالت: لا، وليس في هذا المكان... ولا في هذه اللحظة... ألا أستطيع أن أراك... دون... دون؟

تابع نظرتها نحو باب المصالون الصغير حيث «مارت». فتبسم. لمَ لا؟
«أمكنُ غداً؟»

تواعدا في «الباليه رويال». كان هناك مقهى كبير مزجج وكان الناس يلعبون الشطرنج فيه.



هذا الافتتاح في منتصف الليل، حدث كبير، وابتكار لم يُسمع بمثله، يجب أن يكون المرء «زامورا» ليتصور مثل هذه الأشياء، ولم يحدث هذا قط، تصور إمكان عرض اللوحات على الضوء، في منتصف الليل، بعد الخروج من المسرح، لكن الرسامين بلداء جداً بضوئهم عينه، فاللوحة يمكن أن تُرى بأية طريقة، على الوجه وعلى القفا، في الريح، في الصباح وفي المساء... ويجب رسم لوحات متألقة لليل المدلهم، الحاصل أن زامورا يملك الجواب عن كل شيء.

إنه يعلم مايفعل، وأن الناس لا يشتبهون اليوم بعد المسرح، وأن «مونمارتر» تبدأ متأخرة، وأن الناس لا يذهبون هي كل مساء الى «البوف»، ثم ان الافتتاح تسلية مجانية أي كل مايلزم لاحتذاب الزُبن الأعنياء، هذا العالم الراقى الذي يهزأ من تلك الافتتاحات العادية. ويُقال إن شاه الفرس الذي وصل حديثاً الى باريس سيحضر وسيبدو ذلك أناقة وفضيحة في الوقت نفسه. ويُقال أيضاً إن الدادائيين، هؤلاء المحانين الشباب، هائجون لأن الويسكي والسامبانيا سيقدما، وأنهم سيأتون ومعهم مدامهم ليمرقوا فساتين السيدات وهذا ينسيع تسبياً من الهلع، هم قادرون على كل شيء، هؤلاء السوقيون، لكك، ياعريري، لعلك لن تجبن أمامهم.

وصل اوريليان مبكراً جداً ولم يستطع أن يستقر في مكانه كانت بيرينيس من جهتها، ستصحب قريبيها، وكانت صالات معرض «ماركو بولو» الأربع، واحدة مدورة، وغرفتان في صف واحد، والى اليمين صالة مربعة أقيم فيها المقصف، كانت هذه الصالات ماتزال فارعة، وتبدو واسعة، مع أنها هي الحقيقة جد صغيرة، وأن ثمة تساؤلاً كيف سيتسع ذلك لكل أولئك الناس بعد قليل، لأن جمهوراً غفيراً سيأتي بكل تأكيد. وقد جعل مفوض الشرطة الشارع باتجاه واحد لهذه الأمسية، وسوف تقف السيارات في الشارع الجانبي باتجاه واحد لهذه الأمسية.

في كل ذلك نور ساطع، وقد غير «زامورا» جميع المصابيح، ليكون النور صارخاً، وهذه أولى محاولات الإضاءة غير المباشرة، إذ لم يتعوّدها الناس بعد، في نيويورك، على ما يبدو... على كل حال، ليس من لون باق على حاله، كل الألوان تفككت، الحمراء انقلبت الى برتقالية، البنفسجية الى لون الشوكولا، وزامورا لا يبالي بذلك: الألوان، خرافة، وهو هنا مع السيدة «غودمان» وأصدقاء لهما، وشخص من النوع المجدّب بأنف لا يحسن التنفس، وسترة قصيرة طريفة، وامراته جد مونبارناسية، عليها عصاية من الحرير الفيروزي، وفستان كبوشي ومعها كلب صغير لا يوصف، أصفر، بين ذراعيها الهزيلتين. ندم أوريليان لأنه ارتدى سترته الرسمية، كان زامورا بسترة بيضاء دقيقة الخيوط، يبدو من «بونيسارس» كما يقول، وكان المسؤول عن المعرض بادي الانهماك، أسمى سميناً تضغط عليه بذلته، وهو تاجر برتغالي يدعى «ماركوبولو» مثلك ومثلي، بيديه خواتم، وله شارب عريض قريب جداً من المنخرين، وكان يدور في وسط ذلك كله لأن الشطائر تأخرت، وفي الصالات يطوف زوجان أو ثلاثة أزواج، وهم يتحدثون بصوت خافت، كأنما أدخلوا الى منزل أناس لا يعرفونهم.

ما إن حيا أوريليان السيدة «غودمان» الزرقاء الساحبة، الكاشفة عن ظهرها الغني عن الوصف، حتى توجّب عليه أن يتظاهر بالنظر الى الرسومات، مع أنه لم يبق ما ينظر اليه فهو يعرف من قبل كل ذلك، هذه اللوحات - البيانات التي كانت لدى «المستقلين»، اللوحة الكبيرة التي تبدو مثل مقاطع معلقة بعلم الأنسجة والتي رُفضت بسبب الكلمة التي في وسطها، هذه الابتكارات المحنقة، والمحنقة الممزوجة برسوم صغيرة بالغة الادعاء، بخطوط عريضة مطموسة يمكن أن يعملها أي رسام، هذا على الأقل في صالة المقصف والرواق، الغرفتان المتصلتان عامرتان بصور الأشخاص وبرؤوس بريتونية فقط، وهو أدخل في صور المجالات الإجمالية، في مخططات المشاغل، في رسوم المعلم، رسوم مائية أو رسوم أبرزت بالحبر وبالألوان، في البريتونيات شيء من السحر، وهن يمارسن البغاء بإفراط، وعيونهن غير متساوية وفيها شيء من الحول، والأفواه

معدة لكثير من التمرينات، ولقد سرق زامورا من مرجع ما هذه الطريقة برسم الدنتيلا أو بالتلميح إليها، وفي ذلك رشاقة مثيرة لزمن غير طويل. تصور أن زامورا يضحك بملء شذقيه عندما يحدث عن رسوم رودان وهو في الحقيقة يشبه قليلاً لاعب الورقات الثلاث عندما يُذكر له مُحترف لعبة التبعية.

إن ما كان اوريليان يبحث عنه، مع رغبته في ألا يرى ذلك أحد، إذ أن الناس بدؤوا يصلون، موجود في الصلاة الأخيرة حيث النور يبهر الأبصار. رآها من بعيد وهو يحمل نفسه على عدم الذهاب إليها مباشرة، إنه يصرف بأسنانه قليلاً، وهو يعلم أنه سيكره ذلك وهو في الوقت نفسه يحمل فضولاً سيء النية لمعرفة حقيقتها. ولقد كور عنها فكرة مامن قبل من خلال المخطط الإجمالي الذي رآه عند الرسام. ويبدو أنها لم سغير كثيراً اقترب من صورة بيرينيس...

- «آه! عزيزي ليرتيلوا! أنت هنا قل لي، بحر في «تاريسون»؟ اوده.

واذن!»،

كان هذا العقيد «داميد» والسيدة، بطبيعة الحال. كان لابد من التحدث ببعض العموميات. كيف لا يعرف العقيد وزوجته زامورا؟ لاشك أن السيدة «دي بيرسيفال» هي التي دعتهما... خفض اوريليان صوته بصورة عريضة. فصياح الزوجين يضايقه. لم يتشأ أن تسمع السيدة «عودمان»... وكان ينظر بمؤخر عينه أيضاً نحو بيرينيس، وبحو البريتونيات... عرض عليه العقيد سيجارة. هي الحقيقة، يجب ألا يدخن أحد. فالجو شديد السخونة، والناس مايرالون يتوافدون. كيف سيكونون بعد قليل؟ والحقيقة أن اوريليان لم يلاحظ ذلك فقد التفت ورأى المعرض يمتلئ دفعة واحدة. وربما كانت بيرينيس هنا... سألت السيدة دافيد «وهل رأيت الفهرس؟ وهنا لن تعفيه من ذكر تفصيل. فثمة أشياء فحشها... إنها ترى جيداً أنه لا يُصغي إليها إلا بصف إصغاء، لكن هذا لا يوقفها. لقد تعودت ذلك، الناس كلهم هكذا معها، إهم يفكرون في أشياء أخرى وهي تحدثهم. وتنهت.

كان ليرتيلوا موزّع النفس بين الرغبة في أن يرى إن كانت بيرينيس قد وصلت، وأن يذهب ليرى صورة بيرينيس. ولولا الزوجان «دافيد» لما تحمل هذه الشروح. ولحسن الحظ أن شخصاً خلصه منهما، هو السيدة «شلزر» امرأة «جاك» لا، جاك لم يحضر بعد، سيأتي... ألا تعرف «فالموندوا»؟ غي... كان اوريليان يعلم على نحو عامض، أن لزوجته جاك علاقة بدوق. ولا بد أن يكون هذا هو الدوق. وهو رجل سمين جداً، غير طويل، مع كثير من الأردان، ووجه شارد، أشقر... وصل اوريليان، في الزحام، الى أمام صورة بيرينيس.

استولى عليه غضب عارم، صح توقعه. كان زامورا يحمل في رأسه هذه الفكرة، وكان لابد من أن ينفذها رسماً يتراكبان، صورتان كما قال، العينان المفتوحتان، والعينان المغمضتان، الفم الذي يضحك والفم الذي يبكي، في الصورة كثير من الشبه، وهي تبيح هذا الشبه، دون أن يكون الشبه تاماً. وهي تُثير أيضاً، إذا حددنا النظر إليها، احساساً بالتشنج في الفكين، ويغيب عن نظرنا ما يخص هذا الرسم وما يخص ذاك، ونكفّ عن قراءة هذين الوجهين قراءة يتميز فيها أحدهما عن الآخر، فينشأ مسخ، مسخان، ثلاثة، حسبما نجم بين هاتين العينين وهاتين الشفتين غير المتجانسة، هذا الجبين وهذا الأنف، هذه المساحات المفرطة، هذا الذقن الذي يغلو مَرَضِيّاً... تصاعد الغضب في اوريليان. بيد أن بيرينيس لاتخص زامورا، من أعطاه الحق؟ وفجأة تأثر بالنظرة، بشبه عميق. أيكون موهوباً، من قبيل المصادفة، هذا النصاب على التصوير؟ ومع ذلك فهذه بيرينيس، بيرينيس الى حد كبير، ويخاف اوريليان ويشتاق أن يسمع ماسيقوله الناس عنها. وبكلمة واحدة، إنه يفار. قال صوت من ورائه.

- «أنت تنظر الى صورة السيدة «موريل»، طريفة، أليس كذلك؟»
إنها تشبهها...

التفت فإذا بها «ماري دي بيرسيغال»، ماري من الساتان الوردى المغطى بالسحليات، وبرفتها «بولغديني»، والدكتور «ديكور»، وسيدة لايعرفها اوريليان، لها عينان جميلتان جداً مملوءتان بالضباب. قال بفتة:

- هذه السيدة موريل؟ لم أعرفها...

ثم أحس بقلة لباقته وقبّل يد ماري، التي قالت:

- أنت تعرف طبعاً «ايفون جورج»؟ لا؟

وهكذا فإن هذه المرأة الكبيرة العيّن هي تلك المغنية العائدة من أمريكا بنوع من الأسطورة الخصوصية. وفكر إنها جميلة جداً ومساوية... تماماً كما أرادت أن تكون رسوم «زامورا»، فلم تكنه. وتعلو الضوضاء ويزدحم الناس ويتراصون كما في علب السردين. وتناقصت قدرة الناس على النظر إلى اللوحات. بيد أن الناس لم يحضروا من أجل ذلك. عجباً، بول ديني لم يضع ربطة عنق، ويبدو أن هذا هو شعار الدادائيين، هذا المساء. بلا ربطة عنق. ذلك الضخم القصير، هناك، بعينه الجاحظتين. ويرى نحو ستة أشخاص يتجولون، ويتكلمون بصوت قوي، ويمكن تمييزهم بتلك العلامة الفارقة. شباب لم يتأنقوا في ملابسهم، ومعهم نساء مختلفات. ويبدو أن الجنرال «مانجان» هنا. ليتنا نتناول كأساً في المقصف... ويضيع المرء في الهجمة المعاكسة. قثمة ضوضاء صاخبة وضحكات وأصوات حادة. همس زامورا، وهو بالأبيض، برأسه الأسود، أثناء مروره، في أذن ماري.

- هل تسليت؟

أمسكت بذراع أوريليان:

- لم نعد نراك... أهو الهوى؟... طيب، تكتم، مخيف، كم عتقت،

يا عزيزي!

وأرخت يده لترتمي بين ذراعي «زوي اغاتوبولوس»، وهي أشد هزالاً من المعقول، وينبغي عليها كما يطوى المتر لكي لا يصطدم بها الناس وهي مع شخص عليه سترة رجالية^(١)، وكل ما فيها كلاسيكي وشعرها مثل شعر النادل، وتنورتها ضيقة تبدو مثل ساق ابنطال، والمضحك هو صدرها الواسع. كشرت «زوي» صوب أوريليان... من غير أن تنبس بكلمة. كانت بشعة في هذا النور،

(١) الكلمة عامية الصياغة. المترجم

وكانت تتولدن، وتتمايل بين رفيقتها والشاب، وكأنها تحاول اختطاف مربى أمها.
وفكر العجيب أنني لم أستطع قط أن أتفرسها، ووثب هارباً منها بحجة
اضطراب دوامة الحضور.

- ألم تر «روز ملروز»

الدكتور «ديكور» هو الذي سأل هذا السؤال بصوت خافت، وبنوع من
الشراسة في القلق الموجه. روز؟ أه، هذه... إنه يفكر من جديد بالأسرار التي
باحث بها إليه العمدة «مارت» ويلتفت الى الزوج المسكين، لا، لم يلقها هنا. لعلها
هنا، في الغرفة المجاورة... مع هؤلاء الناس جميعاً.... ويجفف الدكتور جبينه،
الحق أن الحو حار جداً. هكذا يحمل كل واحد في هذه الزحمة مأساته، وحبّه،
جرّ معه «ديكور». وبحجة البحث عن «روز» قد يجد بيرينيس.

قال الزوج

- أتعلم أن «روز» سيكون لها مسرحها... نعم، أما العطور فإنها اتخذت
وجهة جديدة... لقد قبلت السيدة «دي بيرسيغال»...

قاطعه أوريليان

- أما أفكر في ذلك، هل شاهدت وأنت داخل بارينتتان وزوجته؟

- لم تسألني عن ذلك؟

- لأن...

لم يشأ أن يقول اسم السيدة موريل، فأنهى كلامه بغباوة

- يعني هكذا... للاشيء...

بلغا الصالة الكبرى، المستديرة، حيث الباب المطل على الشارع، ثمة
خليط من الأحاديث المتنافرة. وأذرع في الهواء تنقل صحوناً، وشطائر، وكؤوساً
ثرثرى الفساتين من هنا ومن هناك، قال شخص بجانبهما: «ما أكثر السيارات!»
وقد وقعت حوادث عند الباب... ويهرع رب البيت بخواتمه، بخاصرتيه المغبوتتين،
وحذاقته البرتغالية، هوذا «يواريه»، هذا الملتحي الذي يدخل، لقد ضخم، وهو
ببذلة من «التويد» الفاتح، كئنه ذاهبٌ «للغواف»، مع منديل من الصوف الوردي

الفاتح في العنق، وبجنبه فتاة بها سمنة، وعيناها الكبيرتان صبغتا بخط ثلاثي أزرق وأسود، وعليها قبعة غريبة من القش عشية عيد الميلاد، وساقاها عاريتان. لم يستطع «ديكور» أن يتمالك نفسه فقال «إنني أتساءل ما الذي يمكن أن تفعله روز». ثم تبين إلى أي حد كان هذا الحديث في غير مكانه، فابتسم لاوريليان ابتسامة شاحبة «أترى هذه الحال، أنا معها مثل أم الفراح، فأتصور دائماً أن شيئاً ما حدث لها، وكأنها ليست امرأة كبيرة...».

في وسط ذلك كله، على منصة، في صدر الرواق، بيانٌ أضعف، وصدوق ضخم، ومشاهد تقدم. وفي هذه اللحظة، ومن أجل المصلحة العامة، كانت سيدة مرتجفة، روسية من غير شك، تغني شيئاً لا يُسمع. وبها ضربٌ من الأسى الذي يضحك أو يبكي إذا انتبهنا إليه، وهي تبرز من فستانها المفضض مثل زهرة مزدرة. وهي تلوي ذراعيها الجميلتين البضتين، وتنتفخ أوداجها، وفي هدأة من الجمهور، يكتشف باندهال أن ماتغنيه هو «الأغنية الحزينة لـ «دوبارك» التي تغنيها وفي حنجرتها كل دوستويفسكي.

تجاوز «ديكور» و«اوريليان» الآخرين ماعدا «بول ديني» الذي كان يدفع من جماعة إلى جماعة ليعود إليهم، وهو مهيج، يمزح. وفرحه مملوء بالشطائر، وهو يفيض قصصاً وحكايات خبيثة رويت له قبل حين. وهو على كل حال ينساها لأنه يخلط كل شيء، ويحدث من الضوضاء ما يحدثه عشرة، وهو يضيع في حكاية مشوشة، كعادته، يُهاجم فيها «كوكتو» الذي هو هناك، أتراه؟ بشعره الأشعث، بصدد أحد الموسيقين، وأميرة، واستقبال لن يتم.

قال الدكتور بلهجة المرة والمراثة: أنا معجب بك، يا صغيري «ديني» أنا معجب بمالك من يسر في ذلك كله... أه، أنتم سعداء هذا العالم! أية طلاقة وأية قابلية!

كان الضيق، للمرور إلى المقصف، رهيباً. إنه لشيء مروع ما يُرى من تهالك الجمهور على المشروبات والماكولات المجانية، من النساء والرجال. وكلهم يفوحون عطراً ويتصببون عرقاً. ذلك الشخص الطويل، الأنيق، بشعره الأبيض

على وجهه الداكن، والذي يحتفي به السيد «ماركوبولو»، هو «ويسنر»، «ويسنر» السارات. وذلك هو زامورا، المداري أكثر من ذي قبل، القادر على الحضور الكلي، الذي جذبه الى هذا المكان وصول رجل قصير ذي شعر أسود، ووجه نضينه عبقرية جليلة، مع خصلة شعر ساقطة على عينيه، وهو يبدو كمن يعلو مدرجة كرات من الزئبق. إنه بيكاسو الذي يحدثه رجل في ثيابه الرسمية، جد سمين، غارق في ربطة عنقه البيضاء، رجل الباليه الروسي «سيرج دي دياغيليه». هنا يفقد «بول ديني» ثقته بنفسه، فلا يستقر به مكان، وعليه أن يعلم مأيقال، وهو يدهس الناس، ويعتذر وهو في أحضان امرأة قصيرة خضراء، لكنه ينضم الى تلك الجماعة التي هي بالنسبة اليه النجمة القطبية. الرجل القصير الضخم ذو العينين بسويقتين، هو الذي نبهه على ذلك بكثير من السخرية، هن «بول» كتفيه.

قال الدكتور وهما بحذاء المقصف:

- أف، لابس بكأس، كأس ويسكي، ليرتيلوا؟

- لا، عصير البرتقال. تذكر ماقلت لي عن الكبد...

- باه، باه! سيدوم كبدك مادمت أنت، على كل حال...

في هذه اللحظة، وبينما يوشك اوريليان أن يتناول الكأس الممدودة، شاهد «ديان». لقد انقضت ستة أشهر كاملة لم يلق فيها السيدة «نيتنكور». إنها هنا، أجمل من ذي قبل، وهي تبتسم له بملء فمها. وعليها أجمل فستان في السهرة، كما هو شأنها دائماً. فلا يرى سواها. وهي في الخامسة والثلاثين أكثر امتلاء ونضجاً منها نفسها وهي امرأة في العشرين، إنها تبرزها. وهي ترتدي ثوباً أبيض بحلى حمراء كالدم النازف في معصمها، وعنقها، وقلبها، وفي ذراعيها حزمة كبيرة من الورود. ففي كل لحظة من لحظات هذا العالم، تقدم لها الورود. إنها أغلى وأوقح مافي باريس، حتى «ويسنر» نفسه أسف قبل قليل في الصحافة، على هذه المرأة التي كانت امرأته قبل ثلاث سنوات، سنة ١٩١٠، وعندما تمر هي ببطل التدافع، ولقد سارت نحو اوريليان وكأنهما وحدهما في

ممر في «غاب بولونيي»، تذكرت هذا الممر قرب مرج «كاتالان»... وهو نفسه، في الدقيقة نفسها... يا الهي، إذا وصلت بيرينيس الآن... وماذا في ذلك... يحق له أن يقول مساء الخير لصديقه القديمة السيدة «دي نيتنكور»... قالت: مساء الخير، أوريليان. لكنها مدت يدها إلى «ديكور» كي يقبلها. الدكتور يعرف الجميع.

- أليست «روز» هنا، دكتور؟

لم تصغ إلى ما قاله. وقد انحنت على كأس أوريليان، دون طلب، وشربت منها. يا لهذا العنق العجيب! ذلك نادر، امرأة كاملة. آه، يا الهي! ذلك الأخرق. كبّ الكأس على الغستان الأبيض، وأصاب الورود رشاش منها. وخفّ الناس. الأخرق هو «بول ديني»، على عادته، وهو يعتذر فتضحك «ديان». ويكاد يطير فرحاً، كان يتحرق شوقاً للتعرف إليها... ويحس أوريليان بتلك المرأة تتكىء عليه بلا تحفظ... مع من هي في هذا المساء؟ وهي لم تأت وحدها على كل حال... وفجأة ظهرت ابتسامة «جاك شيلزر» خلفها، تحت نظارة هذا الشاب الطويل الأشقر، ظهرت لأوريليان كأنها «الكشف». آه، معه جاءت إذن؟ ما أغرب باريس...

- «مرحباً، جاك».

كان الحديث صعباً شيئاً ما بحذاء المقصف. لكن بول ديني يلزق بها، فكونه وسخ فستانها يعطيه الحق البين على السيدة «دي نيتنكور». تلهت «ديان» بذلك:

- أين نسيت ربطة عنقك، ياسيدي العزيز؟

هي لاتعلم! فينتفخ ويشرح. دادا... كونت «ديان» عن الدادائية فكرة جد نسبية. لكنها تتسلى بأن تكسب هذا الفتى الصغير:

«خُد...» وأعطته منديلاً حريراً أحمر كانت تحمله ممرراً في سوارها. ليتدبره الآن وليصنع منه ربطة عنق! فيخرج «بول» عن طوره، وهو حائر بين الخوف مما سيقوله الآخرون بما أنهم قرروا ألا يضعوا ربطة عنق في هذه

السهرة، وبين زهوه بإبراز آية الحب التي وهبتها امرأة جميلة، مرر المندبل على طاقين من فوق زر القبة... وعندها، لم يعد أحد من الغرفة يرى سوى هذه الخرقة الخليفة بإثارة الثيران. ويمكنه أن يكون واثقاً من تعنيف ماري له. أو، ثم أن تلك أخذت تضايقه.

بادىء بدء، استحق «بول» انتباه «روسيل» الخياط، بينما التفتت «ديان» نحو «جاك شلزر» من إحدى الغرف مع ورودها. وكان «روسيل» قد قال إنه لن يحضر الافتتاح، لكن بما أن له مع ذلك، رسمين يخصانه وأعارهما «زامورا» من أجل معرضه... وأنت رأيتهما، ياديني الصغير، رسماً ل...، كُتِبَ عليهما. يخصان السيد «ش... ر...» الرسم شفاف، ألا ترى ذلك؟ شفاف فقط.

الحق أنه رأى المشهد مع السيدة «دي نيتنكور» وأنه يتحرق فضولاً. «خذ حذرك، ياديني الصغير، إنها شخص جميل... لكن يقال إن لها عيناً شريرة... فمنذ... منذ وقت... لنكن رقيقين... كان يغازلها ضابط شاب... ومات في بيتها بطريقة... الحاصل أنني نبهتكم...

. في هذه الأثناء استوقفه هذا الرجل العجوز بينما كانت «ديان» تبتعد. ولولا أمله بأنه سيبيعه مخطوطة لأقصاه عن نفسه، وبطريقة زرية، بدلاً من ذلك همهم بشيء واستدار ماراً بين سيد يشتمل بملحفة إغريقية، وعلى شعره الرمادي عصاة مشدودة، وقد حسبه في البداية سيده عجوزاً ولم يكن سوى «ريمون دانكان» وصديقه «تريستان تزارا» وهو رجل قصير غريب الأطوار، كثير المرح، على عيني «مونوكل» مثبت بشريط عريض أسود، وقد جعلته ربطاً «ديني» الحمراء يضحك قهقهة. قال «حمراء! لم حمراء؟» وهو يشدد على «الراء» ويضحك بملء شديقه. ينبغي أن يكون لذلك كله عنده معنى خاف. وضحكه مغد، شديد العدوى.. لكن «بول ديني» يمر في الرواق، ويوشك أن يصدم «جان كوكتو» وهو بالنسبة إليه حدث غير مستحب وكبير الأهمية، فيتحاشاه، وفي ضوضاء الجاز الصاخب المصغر على المنصة، يدرك «ديان دي نيتنكور» تكلم أوريليان..

«فارسك الخادم، سيدتي، جعلتني فارسك الخادم...»

وفجأة، وقعت عينا أوريليان على باربنتان داخلاً. كان ادمون بشياب كاملة، ومعه «روز ملروز» باللباس الأسود في دثارٍ من الفرو، وهي من الفخامة بحيث اتجهت إليها جميع الأبصار، وهي تبتسم وتتقدم يحيط بها عشرون شخصاً. ادمون مع روز؟ أوريليان لا يرى لا بلانشيت ولا بيرينيس... مامعنى هذا؟ وبينما هو يُدير رأسه، التقط تعبير وجه «ديكور»، كان شيئاً مرعباً إلى أبعد الحدود، مزيجاً من العبادة والغضب والخوف، ضرباً من تشنُّج التقاطيع. لا يمكن للإنسان أن يعيش إن كان يحب هكذا... قالت «ديان دي نيتنكور» بكرم عظيم: «وهي هذا المساء أيضاً، ستكون «روز» أجمل النساء!» لم يتحرك «ديكور»، إنه ينتظر. ستأتي إليه، هو يعلم أنها ستأتي إليه. هذا كل ما لاتزال تفعله له، وهي تفعله دائماً، بحيث يقول الناس: «أترن، هذا هو زوجها...» إنه ينتظر. لا يمكنها ألا تكون قد رأته، ويدها ترتجفان.

لا، لن تفعل، في هذا المساء، تلك الحركة المكرسة، ولن تُدير نحوه ذقنها المرتفعة... وهي لاتلتفت إلا إلى رفيقها، فتضحك، وتكئ عليه. اوه، كم يعرف هذه الضحكة، هذه الضحكة بالذات، هذه الضحكة! إنه لايتحرك. ويدعُ أوريليان يتقدم.

«أولئك النساء لا يرافقنك؟»

لم يكذ يقول: مساء الخير، أوريليان. لكل قلقه، لكل حبه. هزّ ادمون كتفيه. لا، لكن كيف يكون ذلك ممكناً؟ بيرينيس... نعم، أعلم، لكن في آخر دقيقة... اوه، تعلم، النساء لهن أعصابهن.

ليس هذا تفسيراً، فيكح أوريليان، قالت «روز»:

- قل لي، جننا لنرى التصوير، أليس كذلك ادمون؟

كان ذلك ادعاءً غير مشاكلٍ للواقع، ويتفوه ادمون بشيء لم يُسمع بسبب الجاز، ويُقبل وافدون جدد فيصنّونهم نحو صدر القاعة وحينئذٍ تلمح «روز» زوجها، فتومئ إليه بإيماءٍ تحييه فيها.

شرب تلك الإيماءة، وليس هناك من كلمة أخرى. لم تكن هذه الإيماءة هي الإشارة التي ينتظرها، لكن لا بد من فهم روز: «مع هذا الجمهور وذلك التدافع، الأمر كذلك دائماً، هو يحاول ألا يرى الناس حولها، يحاول أن يبلغها. سوف تشعر بالحرارة المفرطة مع هذا الفرو، ألا تريد أن تخلفي معطفك؟» سيحمله لها، ويكرر عليها السؤال، فلم تسمع. الفرو؟ لا، جيكي، أفضل أن أحفظ به. ويصر. لكن مابك، يا عزيزي؟ ادمون، اذهب واثنتي بشيء أشربه!

تبع أوريليان ادمون:

- أوضح لي أخيراً أيضاً أفضل...

- أوه! أنت تعلم، بلانشيت، في هذه الأيام أستطيع أن أخبرك بذلك، ثارت ثائرتها عندما قلتُ إنني سأمر لأخذ روز، وأنا، ليس من مزاجي أن أساق الى حيث لا أريد... وحينئذ حدث صراخ وسالت دموع... ولم تعد صالحة للظهور أمام الناس... ولم تشأ بيرينيس أن تتركها وحدها...

- ولم تقل لك شيئاً عني؟

- لا... لا اعتقد... لا، بالتأكيد لا...

أوشك قلب أوريليان أن يتوقف. لم يعد يشعر بالحر. وأظلم كل شيء. واتخذت هذه السهرة، هذا الاحتفال، طابعاً مشؤوماً. ماذا يعرفون؟ عزفهم يزعم الأذان. غدا أوريليان حساساً لما هو مضحك في الناس، لهذا «الكرنفال» الذي يحيط به. وما من كلمة إليه. مع أن ذلك كان سهلاً...

- اسمع ادمون، ليس ذلك ممكناً... لا بد أنها قالت لك...

- بما أنني قلت لك أن لا!

أخفى أوريليان خيبته بحجة اجتماعية فريدة «إن في هذا فظاظة تجاه «زامورا»... بعد قصة تلك الصورة!»

أضحك ذلك ادمون. ولم يفهم أوريليان لماذا. فأنصر على تكرار: إن ذلك فظ. وفجأة أمسكه ادمون بذراعه وهمس:
«انظر... من هناك...»

نظر اوريليان، وبالرغم ممّا كان يشغله في هذه اللحظة، إلا أن مارآه ترك فيه أثراً هائلاً. لقد سمع بذلك قبل حين... لكنه لم يصدّق كما لم يصدق مجيء شاه فارس الذي أعلن عنه... لم يكن القادم هو الشاه، كان أكثر إدهاشاً من الشاه، مع أن هؤلاء الطائشين من حوله لم يبدؤ عليهم أنهم فطنوا له. هذا الرجل ذو الوفرة السوداء المنقطة بالرمادي، والكتفين المرتفعتين، والقوام الغريب المائل، والجلد المصفر، والشارب الذي لم يحسن قصّه والشعر النازل الجامد، والذقن الذي يشي بالتسلط... لاشك أن هذا هو «مانجان» وإن كان باللباس المدني... كان الى جانب امرأة تعبت بمناذيل قاتمة، امرأة رُكبت، على نحو غريب، من المادة التي رُكب منها، قُدّت من الأديم الذي قُدّ منه، وعرف فيها اوريليان «الكونتيس دي نواي»، كان الجنرال يحاول أن يفتح لها ممراً. كان التعب بادياً عليها، وسمعه اوريليان يقول: «أوه! هذا الجازا». فنظر اوريليان الى «ادمون»، كان في رأسيهما الفكرة نفسها. هو، هنا... ياللعراة! كانا معاً في جيش «مانجان» لم يكن ذلك مركزاً مريحاً..

قال ادمون بصوتٍ منخفضٍ: «عندما تركتُنا.. في النهاية تماماً... رأيته ذات يوم... على طريق موبيج، في المساء الذي احتلّت فيه «لون»... في عربته... كان يصرخ على رجال الهندسة الذين لم يكونوا يردمون الحفر بسرعة كافية... كانت له هذه الهيئة نفسها... صلباً مثل وتدٍ... وقد ألقى رجالاً غاضبون الحجارة على عربته... فلم يتحرك...»

هزّ اوريليان رأسه. المكانُ غيرُ ملائمٍ لمثل هذه الذكريات. قال: مانجان... كانوا يكرمونه، لكنهم كانوا يقدّرونه، مانجان، في الحقيقة، هو نصرنا، أكثر من أي واحد غيره...»

ضحك ادمون: «نصرنا! أه! يا صديقي المسكين!»

خرج الجنرالُ والشاعرةُ.

لم يكن اوريليان ينتظر أحداً. لم يبق من مسوّغ لوجوده هنا. لن تأتي. كم كان الناس شنيعين! تنوّعهم ذاته. انجنونُ المشؤوم بهذه اللوحات، جلجل هذه

الرؤوس التي تدور في القاعة، المواضعة في هذه الأمسية البلهاء، العادات الاجتماعية التي هي دون عمق لهذه الدمى المتحركة. «آه، هذا رائع!» هكذا صاحت بلهاء قصيرة جعدة الشعر، تحاول أن تجذب انتباه «زامورا» الذي استغرقته الرغبة في إعجاب الأمير «ر...» جار أوريليان في جزيرة «سان لويس»، وهو بعينه الذي كانت ماري تخشى أن تلقاه على الدرج. كان الجاز في المقصف، لكن لم يكن التخلص ممكناً ببس. وكان «جان فريديريك سيكر» القصير، الكبير البطن، الضخم العينين، يعزف أعماله على البيان.

شق أوريليان دربه نحو المخرج. حياه «ماركو بولو» عند الباب وكأنه من العائلة... كان قد صفّ سيارته في الشارع الصغير، وترك فيها معطفه، كان الجو بارداً، والثلج يتساقط ذائِباً. تردّد في الشارع الذي يسلكه؛ أيصعد نحو جادة «سان جرمان»، أم ينزل نحو الرصيف؟ رفع قبّته ويمّم شطر «السين»، لأنه رأى غير بعيد وميض حانة ماتزال مضيئة. ودخلها مسرعاً كالريح.

كان على الزجاج بخار. وفي الإضاءة الباهتة، كان بعض الرواد يُنهون لعبة «بيلوت»، وزوجان في زاوية رأسهما متلاصقان. طلب الهاتف. دق الهاتف المطلوب طويلاً. لابد أن الناس نيام في شارع «رينوار»، أراد أن يضع سماعة الهاتف. أهذه الساعة ساعة الاتصال الهاتفي؟ وظل يصغي الى الرنين. لن يأتي أحد، ومع ذلك انتظر. وأخيراً رُفعت السماعة في الجهة الأخرى، الصوت... غير صوت بيرينيس، وراودته الرغبة في وضع السماعة.

قال الصوت: «ألو، مَنْ؟ ماذا؟» كانت بلانشيت، قال: «بلانشيت؟». كانت قد استيقظت في هذه اللحظة بالذات، فأخطأت وقالت: «هذا أنت، ادمون!...» كان في هذا الصوت من الفرح ومن الأمل حتى إن أوريليان لم يكن له قلب في متابعة الحديث... فوضع السماعة نون أن يعلم جيداً ماذا يفعل.

ظلّ هنا أمام الهاتف صامتاً، قائلاً في نفسه:

«فيم تفكر الآن؟ بيرينيس، كانت نائمة... حينئذ...»

دفع ثمن المكالمات، ومضى تحت المطر بحثاً عن سيارته.

تسكع في موممارتر حتى لم يعد يقوى على الوقوف. كانت تطفو في ذاكرته أشباح غير معقولة، مع جو «الولي» الخانق، وحانة «الغارون» المضامة بقوة حيث لقي سيمون مع أرجنتين، وزنوجاً في مكتب التبغ عند ملتقى الطرق «بيغال فونتين»، ومع الفجر الشطيرة بالدجاج في دكان الحلوى وبها بنات واقفات، وبائعة الورود التي كانت تنام على الطاولة، وفاتح بوابات القصر القوقازي الذي كان يسرق، سهواً، آخر البنفسجات الى سلتته...

ومع ذلك، فعندما استيقظ مذعوراً، مع ذلك العرق البارد، والأغطية المدعوكة، والشعور بالقلق وبالقوة، لم تتجاوز الساعة الثامنة والنصف. وكان سيقسم، بسبب كل هذه الأحلام، أنه قد اجتاز ليلة لانهاية لها. لم يكن يستطيع أن يتصل هاتفياً بشارع «رينوار» قبل بضع ساعات. فتح الستائر، ونظر الى الفوضى، الى الأحذية الملقاة، والأشياء المنزلية المحملة بمعانٍ جديدة، قناع الجبس الذي لمسته بيرينيس، لوحة العم «بليز»، ومنفضة «عبد الله». واندفع الى رشاشة الحمام. اوه، يالهذا المطر الساخن والبارد حسب المراد، هذا الربيع في ستائر الكاوتشوك... يال هذه الراحة بعد النوم! لقد عثر أخيراً على مافي جسده من يسر وشباب. ومدّ هذه اللذة. وكان يعلم أن أسئلة مُحنقة ستطرح في نهاية المطاف.

تحت الباب رسالة دُست. رسالة من ارماندين. مجلّد... ماذا تُريد منه، ياترى؟ لقد رآته منذ زمن غير بعيد، والرسالة تبدأ: «عزيزي ريليو...» وهو الاسم الذي كانت تدعوه به أمّه عندما كان صغيراً. ثمة شيء مشبوه في ذلك. وبعد ذلك ضروب من الاعتبارات حول الهموم التي تساور ارماندين إزاء أخيها بعد حديثهما الأخير، وأنها لا تستطيع أن تصدّق، وأنه حرّ إن كان في ذلك سعادته، فلا هي ولا زوجها... ومن يستطيع الافتخار بأنه يعرف أين الخير وأين الشر؟ لكن هل فكر أوريليان جيداً؟ امرأة متزوجة... كل ماقد يستتبعه ذلك... هناك

طبعاً الطلاق... لكن المسؤولية الرهيبة... الخ.. وأخيراً بدت ارمانيين داخله في لبّ الموضوع. «أأصارحك، يا أخي، أننا جاك وأنا، نداعب منذ زمن طويل حلمًا، وهما...»

هزّ أوريليان كتفيه. فهو يعرف جيداً هذه السمة في أسلوب أخته، في رسائلها، وهي أن تكسّ الأسماء لتقول شيئاً واحداً، عندما تكون متحرّجة: «ألا ينبغي أن تفكر في مستقبل الأولاد؟ أن تترك لهم فيما بعد موضعاً لهم، ملجأ عائلياً، يصون الروابط...»

قفز عدة أسطر. وكان يعلم كيف أننا نستطيع في نثر الأخت لأخيها أن نقفز براحة من فوق فقرة لنعثر على ماتقصده: «الصعب، يا أخي...»
أما اقترب قصدها بما أنها استعادت تصغير التودّد ذاك. «هو أن نُخرج من العمل المال الضروري للحصول على ملكية. يقول جاك مع ذلك إنه سيُعزّم على ذلك، حتى لو كان ذلك في الساعة الراهنة. ومع إعمار المناطق المخربة، يجب على العكس، استخدام الرساميل، وتطوير المشروع، وتشغيل المعمل بكل طاقته...»

بالاختصار، لقد فكّر الزوجان «ديبريه» في إرث أوريليان في «سان جينييه» التي يقبض مزارعتها، دون أن يصنع بها شيئاً، ودون أن يذهب إليها البتّة. هناك جناح يمكن إصلاحه وتوسيعه، ولاسيماً أنه تضرّر أثناء الحرب، وأنه إذا وجد من يسنده، فإن الإصلاحات... الحاصل أن الزوجين «ديبريه» كانا سيبنيان في «سان جينييه» لو كانت لهما، وماذا يضير أوريليان لو تخلّى عنها لهما؟ سيدفع صهره المبلغ نفسه الذي يدفعه المزارع، وحتى -وسوف يرى- دون تعهد، أليس كذلك؟ وأكثر قليلاً... ستكون له هذه المزية وهي ألا يفكر في المزارع، وفي سوء المواسم، وأخيراً في جميع احتمالات الملكية الزراعية، وهكذا يحصل آل «ديبريه»، دون أن يدفعوا رأس المال، على الأرض التي كانا سيشتريانها من مكان آخر، بطريقة أخرى... ماكانا يريان في هذه الطريقة سوى المزايا... ولاسيما أن أوريليان بلا مبالاته، ومستقبله الغامض، يمكنه -من يدري؟- أن يُجرّ إلى رهن «سان جينييه»، مرةً واثنين وثلاثاً، وإذا بها تغدو هذه التي انتقلت إليهما من أمهما، بين أيدي غريبة..

ثم تركت «ارماندين» هذا الموضوع وتحدثت عن أطفالها بإسهاب غير عادي، أرادت أن تُثير اهتمام الخال بولاد أخته. بكلماتهم، بذكائهم، بقلوبهم. في الحقيقة، كل شيء سيجري وكان اوريليان قد نُحي، ظلماً ربّما، عن العمل على يد الأب، وسيعود إليهم، دون أن يغيّر شيئاً من حياته، لأن جاك حاضراً هنا للعمل... سيصبح على الإجمال، أحد المساهمين... نوعاً ما... وستخرج العائلة من ذلك كله أكثر اتحاداً...

رمى اوريليان الرسالة على السرير بإعياء... وقد وصلت السيدة «دوفيني» قبل قليل، وسمعها تتحرك في المطبخ. الفطور... نظر الى الساعة الجدارية، ما يزال الوقت مبكراً جداً للاتصال الهاتفي.

امتدت ثرثرة السيدة دوفيني على طول الصبيحة. ولم يشأ اوريليان على الخصوص، أن يطرح على نفسه أسئلة: لمَ لم تأت بيرينيس... لم لاتتصل هاتفياً قبله... لا، لن يتساعل عن ذلك، بيد أنه كان يويد أن يترك لها هذه المبادرة، أن تتصل هاتفياً قبله، عشر مرات تراجع وهو ذاهب الى الهاتف، حتى وهو يرفع السماعة. كان يعذب نفسه، لكي لايقال... وأقسم على نفسه أن ينتظر الساعة الثانية عشرة بالضبط. لم يشأ أن ينظر الى الساعة الجدارية، وحيثئذ، أخذ يعدّ حتى الالف، حتى الالفين لكي يحسب الزمن الذي يمر... وكان ذلك يمثل الثواني، على سبيل الاصطلاح... وعند الثانية عشرة إلا الربع، لم يعد يستطيع المقاومة.

مشغول، مشغول، مشغول. الهاتف اختراع شيطاني. هذا الجرس فظيع، مشغول... أه! هذه المرة أجاب.

في الطرف الآخر من الخطّ خادمٌ. صوتٌ متردّدٌ، طلب إليه أن يكرّر اسمه. السيدة موريل؟ لأدري إن كانت السيدة موريل... لكن ليترك تنتظر لحظة، ياسيدي. فأحس إحساساً غريباً بالهلع، بالفوضى. كان في هذا الصوت فجوات، وأخيراً سمع صوت بيرينيس.

كم كانت تبدو غير واثقة من نفسها هي أيضاً؟ ما الذي كان يجري إذن؟

أجابت على نحوٍ متهرّبٍ، فاعتذرت بصدد الافتتاح، لم تستطع، لم تستطع على الإطلاق... أرادت أن تتصل هاتفياً هذا الصباح، لكنها ستشرح له. وهنا انصرفت عن الهاتف وخُيِّلَ إليه أنه مَيِّزُ صوتها وهي تتحدّث إلى شخصٍ وأنها تقول شيئاً مثل: أما مِنْ خطرٍ، دكتور؟

- ألو، ألو... بيرينيس...

- نعم... ساكون معك على الفور... عليّ أن أقول كلمتين لشخص...

صمت. ثم صوت بيرينيس: «كان عليّ أن أقول كلمتين لذاك الشخص...»

- يُخيّل إلي أنني سمعت... ماذا جرى؟ ألسنت مريضة؟

- لا، اوه، لا... ليس الأمرُ خطيراً... يَعْنِي أن...

- ألو! إنني لأسمعك جيداً... قلت: دكتور؟

- نعم، يَعْنِي... بلانشيت، فهمت... لأستطيع أن أشرح لك ذلك على

الهاتف.

- ماذا، بلانشيت...

- سوف تنجو... الدكتور قال لي ذلك قبل هنيهة...

- يا الهي، بيرينيس! بلانشيت؟ أتريدين أن آتي؟

- لا، لا، إياك!

- إذن، متى ستأتين؟

- لأدري... هذا صعب... لأستطيع تركها إلا بصعوبة... غداً...

- إذن، سأتي إلى شارع «رينوار»... لأستطيع البقاء...

- أرجوك، أوريليان، لاتأت... حسناً، اتفقنا... سأفعل... لا ينبغي لي...

لكنني أعدك... سأحاول... بعد ظهر اليوم...

- هذا مؤكّد، على الأقل؟

- نعم... في بيتك... نحو الساعة الخامسة... معذرة... هم ينادونني...

في البدء، أجهّد نفسه في محاولة تصوّر ما كان يجري. بلانشيت...

ستنجو... تذكر هذا الصوتَ الباهتَ، على الهاتف، في جوف الليل... لكنه تحوّل

شيئاً فشيئاً، وحلّت صورة محل أخرى... بيرينيس... كم كانت باردة... جافية، قبل قليل! ولم تأتِ عشية أمس... وعندما كان يفكر بكل هذا الزمن الضائع، ولعله الوحيد في حياتهما لأنها، ألن تسافر؟ وإذا ما تركها تقلت هكذا، دون... دون... آه، ألا يكون قد ضيّع فرصتهما، ضيّع بيرينيس نهائياً؟ لا ينبغي أن تمرّ الأمور هكذا.

نزل الى «المارينيه» ليتناول فطوره.

الزمن الذي يمتدّ من الظهر الى الساعة الخامسة طويلٌ مثل ليلة في القطار. ينبغي أن يشغله، أن يلهو عنه. استسلم اوريليان، عن وعي كامل، الى فكرة ثابتة. ان يدع بيرينيس تسافر هكذا.. يجب أن تكون له. لا على العموم، في هذا اليوم أو ذاك، بل اليوم بالذات. بعد قليل. عندما تأتي. في الساعة الخامسة. مضى حتى «سان ميشيل»، واشترى من عند بائع ورودٍ وروداً من ورد كازنون الأول لكنه لم يرضَ عنها عندما أفردت في أصيص من الصلصال الرملي المتموّج البقع الذي لم يكن يحبّه، فبدت هزيلة. وعاد الى بيته وأخذ يهيئّه لبيرينيس. كان يتعلّق بجزئيات سخيّة، ويغير مواضع الأشياء. ثم يقف بحذاء زجاج النوافذ، وجبهته على الزجاج. كان يسعى الى التفكير في بيرينيس على نحوٍ آخر، بدقة جديدة، بعمق الشهوة. عيناها... كان يتخيّلها مفتوحتين، ويهمس: «لاتغمضي عينيك...»

بلغت الساعة الخامسة والرّبع عندما دقت الجرس. ما كان أشقّ ربع الساعة ذاك! لم يشعل الأنوار إلا عند رنين الجرس، فوجد اوريليان كلّ شيء غارقاً في الفوضى، ورأى نفسه في المرآة مشعّثاً، الى حد أنه تردّد في فتح الباب. وأخيراً حضرت. وهامي ذي في طقم اليوم الأول الذي لم يحبّ قماشه، ولونه البيج، وقبّعة الفرو الأبدية... ومنذ أن صارت عند الباب، قالت:

- لن أطيل المكوث، وأنا خارجة على التوّ.

- اوه، مالك!

- لأستطيع بسبب «بلانشيت»...

نسي «بلانشيت». ما القصة إذن؟ وجرّ الزائرة، فنزع عنها قبعتها،
وتهاكت فجلست على وسادة، بين قدمي اوريليان. حينذاك فقط رأى هيئتها
المتعبة المنهمكة...

- ماذا جرى، بيرينيس؟

نظرت إليه كمن فقد عقله. صحيح، إنه لا يعلم...

- لم أكن أستطيع أن أخبرك بالهاتف... كان هناك الدكتور... ثم الخدم
الدين كانوا يدخلون طوال الوقت..

الحاصل أن بلانشيت أرادت أن تنتحر. في الليل بالفيرونال. في بادئ
الأمر، صباحاً، لم تفهم. لكن كان عليها قياس... فلما جاءت الخياطة... لإصلاح
طفيف... حينئذٍ حاولوا إيقاظها فشاهدوا الأنابيب الفارغة والكلمة التي
تركتها.. قال الطبيب إنها قد أخذت كمية زائدة عن الحد لحسن الحظ. الأمر،
في الغالب، هكذا مع «الفيرونال». ستمرض مرضاً شديداً، وهذا كل شيء.
الأمرُ الرهيب هو أنها يجب أن تظل مستيقظة، أن تُمنع من النوم... وقد
تقيأت... لحسن الحظ... هتف اوريليان وكلّ ذلك بسبب «روز» نعم... قال لي
ذلك ادمون مساء أمس

هرّت بيرينيس رأسها روزا يا إلهي، لا... لكن كان ينبغي أن يظلّ
«ادمون» على اعتقاده... لقد أقسمت لبلانشيت... وتستطيع أن تعتمد على
كتمان اوريليان، أليس كذلك؟

لم يكن ذاك سبب السيدة «ملروز»؟ وإنّ؟ يعني... عندما تفكّر في
الأولاد... بلانشيت الكثيرة التدين مع هذا

الحقيقة أن متباحنة بلانشيت لزوجها بذريعة هي أول ما خطرت ببال
ادمون، لم يكن هدفها سوى إخفاء مرّرات عدم ذهابها الى الافتتاح. وقبل
عودة ادمون، كان بينها وبين بيرينيس استفسارٌ عنيف، ماتزال بيرينيس ترتعد
منه، جيشان العيرة...

- غيّرى منك؟ بلانشيت...

أظهرت بيرينيس شيئاً من نفاذ الصبر، لم يكن اوريليان، يستطيع أن يتجاهل أن بلانشيت تحبه، هو، اوريليان... وإذن فإن لقاءاتهما المتكررة...
- أنا؟ بلانشيت؟ لكن ذلك غير معقول!

تجاهلت بيرينيس مقاطعته لها، إن المشادة التي جرت بينها وبين ابنة عمها كانت رهيبة، لقد اعتبرت بلانشيت هذا الافتتاح كأنه افتتاح لصوره بيرينيس، كأنه انتصار بيرينيس، ولن تذهب إليه، مهما كلف الأمر. وانفجرت باللوم الظالم، والأحاديث الطائشة، وبكت... كانت بيرينيس مُصممة... لم تكن تتصور أن الأمور ستصل إلى هذا الحد... أن تذهب مع ادمون إلى تلك الأمسية دون بلانشيت، لكن ادمون حوّل نظر امرأته بحجة «روز ملروز» وحينئذ تغير كل شيء، ولم يكن بوسع بيرينيس، احتشاماً منها، أن تصحب ادمون ومعه عشيقته، وأن تترك بلانشيت وحدها في المنزل، ولم يكن بوسعها أيضاً أن توضح موقفها أمام ابن عمها، دون أن تخون بلانشيت، أن تُفتسي سرّها...
لكن هذه القصة سخيفة!

سخيفة أم لا، لقد بقيتا معاً وحدهما، ساعات، وقد بلغ جنون بلانشيت وألمها أبعاداً لا تُصدق، حتى أن بيرينيس أشفقت عليها. كان هدف بلانشيت التقرييق بينها وبين اوريليان، تذلل، ونمرقت، وهددت، لم يبق شيء من الهيجان لم تستسلم له في هذه الساعات، وجاءت لحظة أربمت فيها على قدمي بيرينيس لتطلب إليها أن تهتم بالأولاد إن حدث لها شيء، ولم تحس بيرينيس التي لم تفهمها إلا بالاشمئزاز أمام ذلك، في مبتدأ الأمر، كانت تلوم نفسها على كلمات ربّما قالتها... لم تكن تتذكر جيداً... حينئذ توسّلت «بلانشيت» إلى بيرينيس أن تحافظ على سرّ حبها لاوريليان... ألا تجعل «ريمون» يستشف شيئاً، وأن تثبت «ريمون» على غلطه إذ يعتقد أنها نغار من «روز»...

قالت بيرينيس.

- اوه، أعتقد أنها كانت تكذب عليّ بهذا الصدد... وأنها لم تكن لامباليةً بذلك... لكن ائتلف فيها شيئان ائتلفاً غريباً يتعلّق بك وبأدمون... وقد اتّضح

ذلك فيما بعد، على كل حال... أخذت تنتظره فلم يعد... ثم جرت مكالمة هاتفية هي الليل تركت فيها أثراً رهيباً... طنت أنها من «ادمون» ثم بدا أنها خطأ، فوضعت السماعة... وحينئذٍ غدت محنونةً تماماً... لم أجرؤ على تركها... لم أعد حاقدةً عليها كانت بائسة، ثم بمددت على سريرها، وظننتها نائمة، فانسحبت. وإذا «الفيرونال»... في هذا الصباح!...

بدا «ادمون» منزعجاً جداً، لكنه كان عاضباً جداً. ما إن وتق، علم أنها لن تموت... لكن يجب أن أشرف عليها، أن أظلّ قريبها، أن أحرّكها... «لا، لا، لا أستطيع البقاء... ينبغي أن أعود الى قرب بلانشيت... اعذرني، اوريليان... لم يستطع استبقائها. واتخذ كل شيء وجهةً محيرة، وألحّ عليها. «متى نلتقي؟»

- عدأ... غدأ... سأتصل بك هاتفياً..

حاول أن يضمها بين ذراعيه، فتملّصت. شعر يتغير فيها. كم كانت متباعدة!

قالت أيضاً على عتبة الباب
- سأتصل بك...



كان مطعمًا صغيراً قرب «الهال»، في شارع مردحم، صيَّق، بيوته مشوّهة، وجدرانه مائلة. يصل الداخلُ عبر ركاب الدراجات الثلاثية والعربات اليدوية، الى هذه الحداث المدهوة مع أسفل البيت هربت أحمر بفسجي، حيث يتفتح الباب بين منصبتين عليهما سلّتا محار في خضرة الصوبر، وكوة بيضوية هجرها العذراء القديمة، وهناك نَقَعُ على ممرٍ ضيِّق يبدأ بمشرب حوله ناعو «الهال» بلباس أزرق، يتناولون شراب الفاكهة المسكر، ويفصي الممرُ الى الصالة في الأسفل، الملأى دائماً عند الظهر، المحمية قليلاً من ناع الخمر بحاجر خشبي قابل للطّي، مدهون، ممّا أخذ يظهر حديثاً في الصناعة.

لم تنشأ روز أن تنقّي فيه. كان هاهنا طائفة من الصحفيين، الناس الذين يعرفهم على نحوٍ ما، إن امرأة مثلها ليست بمأمن من الفضول، بينما ستكون أقل تعرضاً للنظر في الطابق الأول الذي يقود إليه سلّم حُرُوبي له واقية من القطيفة الصدئة المكشكشة في الحديد المطرّق، وكان الطابقُ عبارة عن ثلاث غرف صغيرة مستقلة، بعد المُعسل وحجرة الثاب، مع قليل من الطاولات الفارعة نصفياً في الصباح. وكانت تشعل الصغرى جماعة في مأدبة صاحبة ومراحة وكان في الكبرى زوحان رزينان، وعجوران في الطرف الآخر، وأيضاً رجلٌ أشبه بالسفّاح، وربما كان جزائرياً، مدله يتحصّر مفرط الأناقه حول كومة من المحار. بعد أن أُلقت «روز» نظرة خاطفةً تقديرية، احتارت الطاولة قرب النافذة التي لأحد حولها. وجلس «بلير» قبالتها، وبه قلق طالب المعهد.

كم خفّق قلبه عندما دعته هذا الصباح بالهاتف! مضى أكثر من سنة لم تبدر منها مثل هذه المبادرة. أرادت أن تتناول الغداء معه. وقد لفّق ذريعة ليشرح «لمارت» خروجه المفاحي، يا الهي، ما أعظم الشباب الذي يتبقّى في القلب العجوز!

«ماذا نختارُ إذن؟»

كانت روز تقرأ القائمة باهتمام فائق، لم يكن المكان حانةً رديئة، كانت ترتدي طقمًا رمادياً جميلاً وقبعةً غريبة، وقفازاً يعلو الكمين ولم تبسطه إلا الى المعصمين، معجزة الشباب في هذا الوجه المعجون على نحو رائع بالمساحيق والأدهنة، وهذا العطر الذي يؤكد اتصال «روز» عبر السنين، وبالهيتها المهمة، يالاهتمام الطفل بالطعام! كانت عيناها تتغضنان في تردد الاختيار...

«المقبلات هنا لابأس بها... لكن هل رأيت المحار؟ أظن أنني لن أستطيع صبراً عن عصيدة اليمحور بالكستناء...»

انحنى صاحبُ المطعم انحناءً عظيمة، وهو رجلٌ أسمر، متين البنية، له تحميدة حمراء في القidal، إنه أسف لأن اليمحور قد نفذ، وإذا سمحت السيِّدة الآن فهو ينصح...

- «أنتهي لحمٍ طريدة، ماذا أفعل؟ شهوة وحشية...»

- عندي تدرج لم يُسحَل في قائمة الطعام، إن كان ذلك يُسرُّ سيدتي...

- فليكن إذن التدرج! لابأس بالتدرج.

قالت روز

- اسمع، سأحرِّب بيتك هذا الصباح... فقبلَ التدرج، سأتناول شيئاً من

الكبد الدسمة...

كانت الكبد رائعة، متوردة، بجندها ورقة خس، طرية جداً، نظر الرسامُ

الى اليد النظيفة التي أمسكت بها. وكان هو يَقْرشُ فجلةً، تنهَّدت

- آه! يسرّني أن أكون هكذا معك... كما كنا في الزمن القديم... نبدو مثل

روجين قديمين...

نظر إليها، ألم تكن تلك التي لاتنال، والتي تتحدّى الإنسان والرسام معاً؟

«روز ملرور»، «روز» العظيمة. تذكر ذلك اليوم الذي مثلت فيه «فيدر» في

«الوديون»، هذا الفهم العميق للهوى... للأهواء، امرأة، هل النساء الأخريات

نساءً مثلها؟ كانت السعادة، ذلك الشيء الذي يمكن أن يملأنا دون أن نمتلكه،

قال

- لأدري، «ميلين»، لم أر أحداً يأكل بنهم مثلك... في كل مرة، يصيبني التعجب ذاته... وعندما أفكر كيف تقضم الطعام أولئك المتصنعات! ضحكت ضحكاً شديداً، مع حركة من الذقن المرتفعة التي كشفت عن ذلك العنق البديع. قالت.

- إنهن يحرصن على رشاقتهن، ماذا تريد، «بيبيه»؟ أما أنا فالشيء الغريب أن مايزيد في سني هو قلة الأكل... سمته باسمه المضحك، كما كانت تفعل قديماً، وهو في زعمها تصغير له «امبيريو». أمسك بيدها

- أنت، ستظلين أبداً شابةً رائعة... كئي جيداً، هيا... ما أعظم نعومة وجهك وأسألته، ميلي...

- أوه! بالتأكيد، وفي ذلك شيء من التدليك والعناية... لكن ليس بالقدر الذي نتصور! ان النساء اللواتي يردن أن يحافظن على أنفسهن يتصورن... أنا أحب أن أدلك... لكن هذا يضايق أحياناً...

- من أجل هذا يختار المدلكون من بين العمى...

- ماذا تقول، أتعلم، أن الأعمى إذا لامس نهدى فيمكنه أن يستغني عن العينين! وبعد التفكير، إن المضاجعة خير من جميع التدليكات... معظم النساء يشحن لأنهن لا يضاجعن الرجال بما يكفي... كان يمكنه أن يصغي إليها دون غيرة. كان يحب عافية هذا الجسد، وتدفق الدم القليل إلى الوجنتين. الدم الذي لايأتي من أعماق السحنة. وانسلت انسلالاً غير محسوس نحو هدفها، نحو ما حملها على دعوة «بليز» في هذا الصباح.

- نعم.. ولكي أتفادى القصص مع مدلكي... لانك تفهم، ضحكت مرتين أو ثلاثاً من هذه الوسيلة، ثم أصبح ذلك مضجراً.. كان هناك مدلك مغرم بي... ماذا كنت أقول؟ نعم.. حينئذ جئت بمدلك لا يحب النساء.. نعم، بل إنه يكرهنا، وذاك طريف جداً.. «سيركاسي» جميل جداً.. إنه يدلكني بقدميه.. بوحشية.. وهو يعلو صدري.. ويسبب لي ألماً عظيماً... ويصك أسنانه من الاحتقار.. إنه يدوسني بقدميه، إذا شئت الدقة!

انفجرت ضاحكةً. وحُملَ التدرجُ. فحوّلَ الحديث. كان بليز يمتاز باختيار
الخمور... يجب أن ننصفه في هذا المجال.

-ماذا كنت أقول لك «بيبي» عندما جيءَ بالتدرج؟

-كنتُ تتحدثين عن ذلك المداك «السيركاسي»..

- نعم... السيركاسي، فهمتُ، قرّرت أن أستخدمه.. لأن النساء الراقيات
كلهن مثلي... العمي... نعم على العموم عمي الحرب في هذه الأيام.. وهذا ملائم
لكنه ليس ظريفاً... بينما راقص الخناجر ذاك الذي يقبص على قذالك بأصابع
قدميه! كان في لندن ولم يُعرف في باريس... وسأعمل مفاجأة معه...

- مفاجأة؟ أنت تتكلمين كلاماً غير مفهوم، ميلي!

- الحق أني لم أشرح لك شيئاً لكنه لا يعلم شيئاً أين عقلي؟

- في التدرج، أراهن.

- أنت ظريف! اصغ جيداً..

- فتحت أذني!

أخذت «روز» وهي متحمسة تشرح «لبيليز» تدبير مستحضرات «ملروز».
كل شيء للجمال. مخترعات الدكتور وأيضاً جميع الأسرار الصغيرة. لقد خطر
لها أن تكمل المختبر بخدمات بيتية، مع صيغ «روز ملروز» للأظافر، ومطري
«روز ملروز» الصيني، وبالطبع مع المداك السيركاسي. ولايستعمل في ذلك كله
سوى مستحضرات ملروز... بل قد عرضت مسألة بيت للعطور.. نعم... العطور!
بالنسبة إلى العطور، ماقولك بالتسمية التي اخترتها: «بستان السعادة»
بسبب الورد، فهمت... ثم إننا فكرنا، أي إن أدمون فكر، لأنك تفهم أن كل
شيء يتوقف عليه، أننا نستطيع أن نضم إلينا مصلحة للعطور الرخيصة، على
الوزن، أنت تعلم كيف... وطبعاً ستتغير التسمية، فكرت في «ماري روز»، لنشرك
«ماري دي بيرسيغال» التي تقبل أن تسهم بمالها في المشروع لكنها تسعى
قليلاً إلى أن تتشاغل، أن تهتم.. لقد كرت، فهمت..

لم يصدق «بليز» ما سمع. ما هذا الدور الجديد؟ «ميلي» الآن امرأة الأعمال! لم تنس سوى شيء واحد تقوله له. مَنْ «ادمون» هذا..
- أه! أنا مجنونة لكن تعرف جيداً صديقي الجديد، بارينتان سيّارات الأجرة... ادمون بارينتان...

سمع بليز به. كان له صديقٌ شاب يعرفه استأنفت «روز» كلامها:
- الهم الوحيد امرأته... فهمت، لأن الثروة ثروتها... ثم إنها تغار...
البارحة بالذات تظاهرت بالانتحار! لوحة! كان الأمر سيكون حرجاً.. واضطرب «ادمون» المسكين... ممثلة، إذن! وليست رائعة الفيرونال، فهمت لقد حدثت هذه اللعبة مرتين أو ثلاثاً!

استشاط ادمون بسبب هذه القصة فخفاً الى منزل «روز» في اليوم نفسه ليقول لها أن تعجل بالاستعدادات وبتكوين الشركة، وبالانشاءات... إذ لا يعلم ما المكر الذي قد تمكره زوجته، بعد ذلك! وقد أقنع تقريباً أباه، عضو مجلس الشيوخ بأن يقبل رئاسة مجلس الإدارة، لأن ذلك يفسر حينئذ اهتمام ادمون بهذه القضية. ولد صالح مثله! ثم هناك رباط جوقة الشرق «بيبيه». وليس هذا بسهل المنال!

سأل «بليز» بأقصى جدية بعد أن مصّت روز خوختين أو ثلاثاً
- وما دخلني في ذلك كله؟

قال ذلك لأنه كان يعلم جيداً انها لم تستدعه إلا لغابة في نفسها، وأنها لايعوزها مَنْ يدعوها للغداء، وأنها إن تكلمت عن كريمها وعطرها، بهذا الإطناب فمعنى ذاك أن ههنا السرّ كله. قالت روز:

- اسمع بيبي.. سأطلب منك تضحية ضخمة.. عدني...
- تعلمين جيداً..

- لا تقل لا... أما زلت تحبني؟ طالما قلت لي، إنك تفهم الحب على أنه تضحية..

- أرجوك «ميلي»..

نظرت إليه بإمعان. خاف أن تطلب منه المستحيل، هذا كل شيء. ابتسمت وغضت من أهدابها.

- اوها ليس ما أطلبه تضحية ضخمة الى هذا الحد..

أود... أود... أن تضع شيئاً من المال في مشروعي..

- تعلمين جيداً أنني لست غنياً...

- لم تفهم... يكفي ان تضع في مستحضرات «ملروز» شيئاً تافهاً ثلاث

مرات... لنحصل على اسمك بالذات فيها... ثم عندما نؤسس، في المرحلة الثانية «بستان السعادة» حينذاك تبدو مرة أخرى، اذ يصبح اسمك مألوفاً، وتحمل كنزك المدفون لزيادة رأس المال...

- لكن كيف تريدین؟

- أنت غبي، مالك! أنت تُعير اسمك فقط... يجب أن يستطيع ادمون...

بأناس هو واثق منهم... وأنا أيضاً... فهمت؟ إذن بالنسبة لما لديك من وفرة طفيف في البداية، فهي تجارة رابحة! قل لي، أيمكنها أن تكون بين أيدي أجمل من هاتين؟

قبلهما طويلاً. فداعت شاربه. قال «وزوجك»؟

هزت كتفها:

- إنه رجل طيب، كما تعلم، وهو يتالم... اطلب الحساب، يجب أن أذهب

إلى منزل ماري مبكرة... أنا أقوم بزياراتي، فهمت... يجب أن يكون كل شيء جاهزاً في رأس السنة. ولا سيما أنني سأمثل «جيوكوندا» في «جنيف»... آه! يجب أن تتعرف على «ادريان آرنو»! هذا موضع ثقة «ادمون»... فستكون علاقتك به عند اللزوم.. ساعدني على ارتداء معطفي... كيف حال «مارت»؟ كدت ألا أسألك عنها... آه! يا صاحبي المسكين، الزواج شيء، والحب شيء آخر!

نهض «بليز» كان يفكر منذ لحظة بشيء ما. وسأل من خلف روز بحيث

لا ترى وجهه:

- وادمون... هل تحبينه؟

لم تجب على الفور، ولبست قعازها. تم التفتت وقالت بصوتها المُنبح، صوتها في «فيدر».

- نعم... هذه المرة... أعتقد حقاً... هذه المرة..

التقط «بليز امبيريو» لثامه الذي كان ساقطاً على النشارة فوق أرض المطعم.

عندما أنزل «روز» في شارع «بيل فوي» نزل هو نفسه مشياً على «قدميه الى باب «نوفين»، كان الجو رمادياً، مشبعاً، نسيمه لاسع، لم يبال بليز بذلك، وتابع ببطء سيره في جادة «غوفيون سان سير» بحذاء السكة الحديدية المحيطية. استولت عليه «روز». كان أكثر تعساً بقليل من ذي قبل، لكنه كان سعيداً في نفسه وفكر. يالي من هيك ملتهافت! كان يتسكع لكي لا يركب «المترو» ويعود رأساً الى «مونمارتر». أحس بتناقله بعد هذا الغداء. كان الهواء يُعشه. تسكع حتى أخذ الظلام يخيم. وقد أدركه في حديقة «مونسو» في هذا الإطار اليوناني الزائف الذي انتظر فيه «روز» قديماً خلال ساعات...

عندما دخل المنزل، كان مع «مارت» في الصالون الصغير امرأة، نهضت المراتان. كانت الثانية بيرينيس. مدهش:

- سيده موريل؟ ياللمناسبة السعيدة!

تقدمت نحوه برصانة:

- يجب أن أخبرك... أن ابنة عمي بارينتتان أرادت أن تنتحر...

أحب أن يقول: أعرف. لكنه كفّ عن ذلك، وقال:

- يا الهي!... لكن... اجلسي...

جلسوا ثلاثتهم. كانت مارت تنظر إليه.



- قلتُ إنه لا ينبغي أن يُزعجني أحدٌ مهما يكن العذر... ما الأمر؟
تردد «سيمونو» عند الباب، وألقى نظرةً على «ادريان ارنو» الغارق في
مقعد جلدي بلون التبغ، ثم أدار رأسه الأصلع، ولحيته الجميلة المشدّبه
كالاستقامة نفسها، فاعتذر من رئيسه.
- لكن هاهنا، ياسيدي، جماعة المطاط، ينتظرون منذ زمن طويل... ارتد
ادمون الى الخلف وضرب بباطن أصابعه المكتب.
- حسناً، فلينتظروا! قلتُ لك إني مشغول!
التقط ادريان رجّة نظرة سيمون الخارج وهو في طريقه، وهمهم برفق.
- أنت تثير حفيظته.. فهو لا يحسب الحديث مع رجل من نوعي شغلاً...
بجانب جماعة المطاط تلك.
هزّ ادمون كتفيه، ومحا بحركة مبهمّة من يده سيمونو والكاوتشوك
وماسوى ذلك. وقال:
- أخيراً، أتقبل، نعم أم لا، أن تؤدي لي هذه الخدمة؟
عبث «ادريان» بشاربه
- بالتأكيد... بالتأكيد... أنا مدينٌ لك بالكثير أولاً... لكن المسألة ليست
هنا..
- وأين... المسألة؟
- لا أدري إن كنتُ قادراً... إن كنتُ حقاً الرجل... فأننا لم أدرس الحقوق،
وكلُّ ذلك يثير مسائل جدّ شائكة... الهبات بين الأحياء... لا أدري... أنا أكرر
كلمات قيلت، وعلقتُ مصادفةً...
- رجال القانون لم يُوجَدوا للكلاب. استشره..
- نزيد المطلعين على الأمر شخصاً..
- هذا لا، ماعليك إلا أن تطرح الأسئلة بطريقة مجرّدة... على العموم...
دون إعطاء إيضاحات... يمكن أن تفعل ذلك لنفسك مثلاً..

وما علي إلا أن أكف عن الظهور....

- بديهي، بديهي...

رن جرس الهاتف، رفع السماعه.

- ألو... نعم.. هو ذاته.. أهـ هذا أنت بيرينيس.. حسناً... كيف حالها؟

أحسن... كنت واثقاً من ذلك، قلت لك إن ماجرى لن يكون شيئاً ذا بال...
طبعاً تعبىء رأسها ثم... لطيفٌ منك أنك اتّصلت بالهاتف.. سيعود الدكتور غداً
صباحاً؟ سأحاول أن أكون هناك... مفهوم... نعم... لا لن أتعشى في المنزل..
إذن هذا المساء... أو غداً صباحاً... نامي مبكرة، فلا بد أنك تعبتي... أو غداً
صباحاً، نعم...

كان سيقطع المخابرة، فساورته فكرة: «ألو، ألو...» فأت الأوان . لقد
أغلقت الخط في الجانب الآخر. ودلت حركته على اللامبالاة.

سأله ادريان:

- هل تحسّنت زوجتك؟ ماذا أصابها بالضبط؟

لم يجب ادمون في الحال. ورأى عينيّ ادريان الصغيرتين السوداوين،
المتقاربتين تحطّان عليه. لقد وثق به ثقة عظيمة حين أفضى إليه بأسرار
مستحضرات «ملروز» وهذا كافٍ. فلا حاجة به إلى أن يبوح أيضاً بالعناصر
البيسيكولوجية للقضية. قال:

- أولاً لم يصبها شيءٌ له خطره. مشكلة من مشاكل النساء... بطئها...

- وتابع بسرعة

- ماذا كنت تقول عن الهبات بين الأحياء؟

- قلت لك أن معارفي ناقصة... لكن الأشياء بلغت، على ما يبدو لي، أن
هناك من أخذ يدس أنفه في أعمالك..

- مَنْ؟ امرأتي؟

- امرأتك أو محاميها... يجب أن نحتاط... فمن السهل إثبات... من

المعلوم مثلاً أنني لا أملك مالاً... ذلك أن أبي أفلس...

- أولاً، في كل إفلاس إخفاءات.. وبما أن المبلغ المعنيّ ليس كبيراً فسوف

يجد الجميع طبيعياً جداً أن...
- طيب، ربما صحّ ذلك بالنسبة إلي... لكن أبوك؟ أرى أنك كنت متهوراً
بأن أدخلته..
- كلا، كلا، الأمر عكس ذلك، فبسببه اهتمت بالقضية...
- تقول هذا لي أنا... أقنع المتطّعين بذلك..
- ماذا تطلب.. عضواً في مجلس الشيوخ.. حاصلاً على رباط جوقة
الشرف....
- أعلم لكنه أبوك...
- مهلاً، المبلغ الذي قد أضعه في المشروع على رؤوس الأشهاد لا يمكن أن
يثير أية مسألة...
- لا، طبعاً..
- وعند الاقتضاء، أستطيع دون أن أعرقل المشروع، أن أردّ إلى زوجتي
أسهمي الاسمية... فما الفرق؟ حسنٌ نيتي يبهر الأبصار.
- أدمون... هل فهمك للأعمال التجارية سيدفعك؟ لكنك تعلم جيداً أن لا
أحد يهتم بما سيكون على اسمك... الآخرون هم... لسنا نجد ثلاثة ملايين عند
أيّ كان...
- إنسانٌ في وضعي...
- مهلاً، بما أنني أنا لا أنت، أنا «أرديان أرنو»، ما لم تكفلني عند مقامي
المال... وحينئذٍ
هز باربنتان كتفيه. بدا «أرنو» كمن يجد لذة خبيثة في إثارة المصاعب.
سوف تستقيم الأمور جيداً. فالعملية سليمة تماماً. هناك أولاً السيدة دي
بيرسيغال التي إن يناقش أحدٌ في مساهمتها، وكان واثقاً منها كانت سعيدة
سعادة مفرطة بأن تكيّد لبلانشيت، وبها هذا الميل القديم نحوه. ثم إن السيدة
«ملروز» جاءت بعاشق قديم لها، شخص مريح للغاية، لا يمكن أن يشكّ في أن له
علاقة بأدمون.

سأل «ادريان» ببطء: «ألك ثقةٌ في «روز»؟
كان ينتظر إيماءة الإنكار من صديق طفولته، كان يعرفه جيداً، وكان يعلم
أنه سيلقى منه هذه الضحكة القصيرة الباهتة..
وأردف:

- لا أقول اليوم، لكن في ظرف عشر سنوات، خمس سنوات، عندما تملأها
بساطة..

- في ظرف عشر سنوات، يا صغيري، ستُصبح «روز» عجوزاً... وإذا لم
أعد، حينئذٍ شاباً بالنسبة إلى بلانشيت، فعلى الأقل، بالنسبة إليها...
وانطلق في شروحات بسيكولوجية كانت تطمئنه هو نفسه، وبالاختصار
إن كان سيطلق ذات يوم فهو لا ينوي أن يكون تحت رحمة كرم زوجته، قائلاً:
وقر المال ثم انتظر ما يحدث.

لم يجد ولأعته، فمد إليه ادريان سيجارته.
- لاحظ أن بلانشيت إذا أصرّت أن تعلم من أين تأتي الأموال، فيجب
عليها أن تعلن عن الأشياء التي... لأن فحص ميزانية الشركة العقارية في
النهاية! إذا لم نجد الحل لإنشاء الفرع... فقد كان ينبغي أن تنقل الحصصُ
حصّةً بعد حصّة.. ومن شأن ذلك أن يكون لبلانشيت، قبل غيرها، مصلحة...
إن مستحضرات ملروز والعطور وما سوى ذلك تنصهر على الإجمال،
بالطريقة نفسها التي انصهرت بها شتى الفروع العقارية «النقلية»
البروفنسية»...

احتج ادريان:

- مع ذلك، فإن العطور لا يمكن أن تعتبر فرعاً من الشركة العقارية! ولستُ
أرى في قانون الجمعية ما يؤهلها لهذا النوع من العمليات!
قاطعها صفيّر قصير:

- ستُحسن صنعاً لو أعدت قراءة القانون، ادريان ستري فيه جملةً

صغيرةً بارعةً جداً، ومبهمةً جداً، جملةً تصلح لكل شيء...

الحاصل أن أدريان كان يُخطئ أدمون لأنه وضع أياه على رأس المجلس، وأن يكون هو نفسه فيه: الأمر مكشوفاً وهل هناك أحد من جانب الزوجة، لتثبت حسن نيتك، لا؟ وإذن! كان هذا صحيحاً. أخذ أدمون يفكر. كان يُصفي إلى محدثه بشرود. كل شيء يتوقف على الظروف التي سينفصل فيها عن بلانشيت، لو قدر لذلك أن يحدث. ليت ذلك يتم كلياً بالتراضي.. أه عجباً! وهل يُصنع شيء بالتراضي إن كان الأمر يدور على الملايين؟ من البديهي أن بلانشيت ستعطيه دائماً ما يعيش به، ما يتعيش به... لكن واحد وواحد اثنان... يجب ألا يسمح للطلاق بأن يتم هذه، مع بلانشيت جريحة في قلبها بصفتها أمّاً وزوجة، لا! ومن الطبيعي إذا تكلمنا قانونياً، أن يتحمل الأخطاء، دائماً... المسألة مسألة لباقة... لكنه يستطيع مثلاً أن يقبل بطلاق بلانشيت لها عشيقها... كل المزايا. وحينئذ لن تدقق كثيراً في الأمور.

قال أدريان:

- لست أدري، هلا وضعت في المشروع رجلاً مثل «جاك شلزر» الذي يمت في الوقت نفسه، بصلة القرابة إلى آل «كيسنيل» و...

- شلزر؟ شكراً. لكي يتدخل فيما لايعنيه!

وهنا فكر أدمون بعشيق امرأته فرق قلبه. طيب، طيب، وهذا؟ إن كان هذا سيصبح مغامراً، صاحب مصلحة، خبيراً بالشؤون التجارية! فسوف نقع في ورطة. في الحقيقة إن رجلاً مثل «ليرتيلوا» قد لا يصلح لذلك... غريبة تلك الغيرة التي يحسها إزاءه

- قل لي، عندي فكرة... مارأيك لو كان عشيق امرأتي في المجلس؟ نظر إليه أدريان «بذهول».

- عشيق امرأتك؟ بم تهذر؟

ضحك الآخر ضحكته القصيرة الباهتة.

- العشيق... أي سيكون لها عشيق، في ذات يوم، أمل ذلك! قصدت،

افرض أن شخصاً طيباً، غير مُحرجٍ، منتقى انتقاءً جيداً، قد دخل مجلس إدارة مستحضرات ملروز... وأن المصادفة تصنع العجائب... فمن الآن الى - لست أدري - خمس سنوات أو ست... هو وامراتي... أترى منذ الآن... وأشاهد ذلك فلا أكثر اللغط لكنني أنسحب... وأعطي بلانشيت حريتها... وستُصان مصالح أولادي طبعاً... أما أنا فلست أطلب شيئاً... وأتدبر أمري ممّا... أتفهم؟

ظل ادريان يعبث بشاربه، أصبح ذلك عنده عادة مستأصلة. فيمن فكر ادمون؟ شخص طيب؟ لم يكن هو المقصود بذلك... كان قادراً على ذلك، باربنتان، بعد قصة «كارلوتا»! أحس أدريان بحمرة الخجل، فكر في بلانشيت، كان يعني ذلك التصرف به على نحوٍ فريد. كان ينبغي له أيضاً أن يوافق على ذلك. ثروة. هائلة، طبعاً لكن ذلك حينئذ... سيغير الأشياء... قال ادمون:

- اصغ...أيمكنك أن تكون هنا غداً صباحاً؟ نعم؟... لأنني سأجمعك بشخص...

وطلب رقماً في الهاتف. لم يجد أحداً، ولم يجبه أحد. أردف ادمون:

- اصغ... سأصل به بعد قليل.. سأرسل إليه رسالة.. سأجمعك به غدا صباحاً.. وأنت تعرفه.. تغدّيت عندنا معه.. ليرتيلوا هذا فتى مستقيم جداً... ثم ماذا؟ كنا في الجبهة معاً؟

لم يجب ادريان، تساءل إن كان قد خاب أمله بهذا الشكل أو ذاك. سيتدبر أمره.

عاد سيمونو الى الظهور عند الباب. كانت له مع رئيسه تلك الأساليب التي لم تكن محمولة من آخر غيره، والتي تعود الى ذلك الزمن الذي لم يكن فيه هاتف للاستئذان، قطب ادمون حاجبيه:

- وماذا أيضاً، سيمونو؟

- ياسيدي، جماعة المطّاط هؤلاء يستفجلون.. وهنا أيضاً السيد ليرتيلوا الذي يسأل إذا..

- ليرتيلوا! وصل في أوانه.
التقت باربنتان الى ادريان .

- أتريد أن تتنحى جانباً، هذا هو بالذات الرجل الذي كنت أتحدث عنه،
لاتنصرف، سأستدعيك...

ياسيدي، جماعة المطاط هذه...

-اوه ايكفي، سيمونوا أدخل السيد ليرتيلوا وقل لهؤلاء السادة... لا،
لاتقل لهم . انظر أنت نفسك إلى ما يريدونه... قد أؤخرهم كثيراً، إذن أرجهم..
الحاصل قل أنت مايلزم!

- احنى سيمونو مستنكراً

- انتقل الى المكتب الصغير، لن يطول ذلك... وهكذا فلن آخذ منك صبيحة
العدا خذ، إذا شئت كتاباً لقضاء الوقت... هذا آخر ماصدر «بروست».

تناول ادريان الكتاب الضخم، وكأنه يتناول دليل الهاتف. لم يبد عليه ان
بروست يثير اعجابه. عند الحلاق يعطى الزبون «الحياة السياسية»..

ما ان خرج حتى أدخل سيمونو «اوريليان» وكان مشدود التقاطيع. عند
من يفصل ثيابه؟ كان يرتدي كعاداته قماشاً جميلاً. وكان أجمل له لو وضع
ربطات عنق أكثر بهجة. يجب أن أقول لبيرينيس.. ضحك ادمون في نفسه
للفكرة التي مرت بباله... أحسن أنه هو الكذاب في اللعبة... القوة... بدأ ليريتلوا
كلامه

- كنت أمر من هنا، فقلت في نفسي إنني أستطيع ان اصعد... - لكن
يالهذا الالهام السعيد! اجلس هناك.. لا، في المقعد... أتريد سيجارة؟... لا أدري
أين أمكنني أن أضع ولاعتي... أتصدقني أم لاتصدقني، لقد حاولت أن اتصل
بك هاتفياً... ثم إذا بك تظهر... فكاننا في مسرح!

صالب اوريليان بين ساقيه الطويلتين، ثم فكّ تصالبيهما، ثم صالبيهما من
الجهة الأخرى. وفكر في أن باربتان يبدو حسن المزاج جداً لأن بلانشيت نجت
من الموت. لا لأنه مفشوش بعواطف ادمون نحو امرأته، لكنه كان رجلاً حريصاً
على اللياقة. قال

- أرحو ان تكون بلانشيت قد تحسنت. لم أستطع أن اتصل بالسيدة
موريل على الهاتف، ويدا على الخدم أنهم لا يريدون ان يقولوا شيئاً... أهى

بمأمن من الخطر؟

- أوه، لم يكن الأمر شيئاً ذا بال... ولم يكن ثمة خطراً حقيقياً... أنت تعلم، النساء، بسهولة كبيرة... ببطونهن...
رأى الدهشة في عيني أوريليان، مع هذا الرجل لا حاجة الى التظاهر.
استأنف.

- أه ؟ أطلعتك بيرينيس؟ أنت تفهم النساء لا يصطبرن على السرّ طويلاً..
- قالت لي السيدة موريل كلمة... بسرعة شديدة... لم أكن أسألك إلا عن أخبارها...

ضحكة ادمون القصيرة في صورتها المتضايقة. اللهجة التي تصطنع
الألفه والإسرار والعفوية: «الأمر معك مختلف... بعد كل ماقضيناه معاً» حركة
اليد التي تستذكر فجأة الجبهة والخنادق والقنابل والملاجئ، وأشياء أخرى!
ساد صمت لم يقطعه أوريليان. وتابع ادمون

- نعم الأمر كذلك...، أحب أن يكون معي من أحدثه.. رفيقٌ وفيّ لأفكر
بصوت عالٍ... بقصة ليست مسلية، في نهاية المطاف! نحن نعيش كلّ بجانب
الأخر، ويرى كلُّ منا الآخر كلُّ يوم، ولا يعلم أحدنا عن الآخر شيئاً.. وذات
مساء... تصوّر مايجري. كنت تقول في نفسك إنها سعيدة، ماذا ينقصها؟ امرأة
ليست ميالة للبحر، عظيمة الطاقة... ثم هاهي ذي... أمّ الأولاد! إن تفخيم
الكلمات الأخيرة قطعته حركة دائرية من اليد التي كانت تبحث عن المنفضة
لتلقي فيها بعقب السيجارة. سحق ادمون سيجارته بعناية. ثم انقلب الى الوراء
قليلاً، محركاً يديه المتقابلتين: «وأنت تتسائل أمام ذلك ان كنت قد قمت، بعد كل
شيء، بكل مايجب عليك ان تقوم به نحوها... ولاندرى أين تقف «كل مايجب»..
وحينئذٍ نعني أنفسنا بالهموم، ونحمل رأسنا بالقلوب...»

فكر أوريليان في أن ادمون أحسن هيئة من انسانٍ يحمل رأسه
بالقلوب. لقد جاء الى هنا وهو يرجو أن يتكلم عن بيرينيس، لأنها لم تتصل
هاتفياً منذ يومين، وردت مرة واحدة من خمس، بكلمات متهرّبة، ولم تكن حرّه

قط بحجة بلاشيت. وهو الذي قال في نفسه بأثانية العاشقين إن هذا الانتحار
الفاشل سيجبر بيرينيس على البقاء زمناً أطول في باريس، على عدم الذهاب
من أجل عيد الميلاد... ثم بالنسبة الى ماكان ينتفع به من ذلك لقد فكر في أنه
هياً ذريعة لزيارتها وأنه لم يكن يستخدمها ..

- أردت أيضاً أن أسألك.. لكنك اتصلت بي من أجل ماذا؟

- سأخبرك... قل لي أولاً ما الذي تريد ان تسألني عنه.. ألك صديق أم

لا..

- مجرد استعلام..

سحب اوريليان من جيبه رسالة ومدها الى ادمون. «خذ، اقرأ هذا...
من ارماندين... أنت تعرف أختي قليلاً، وتعرف ماعلاقتنا. لقد مرت عليّ منذ...
كم؟ ثمانية أيام.. ولا كلمة مما تكتب... ثم... احكم على ذلك بنفسك... بدا لي
ذلك مدهشاً، دون أن أستطيع التحديد... لاحظ، لست رجل أعمال، أنت
تعرفني، لست خبيراً بذلك.. حينئذ فكرت في أن أسألك... لأن لدي إحساساً
مبهماً... لكنني؟ أتركك تقرأ...

تصفّح ادمون الرسالة وهو بادي الاهتمام. شيء ظريف أن يُعدّ رجل
أعمال! لكن لكل واحد، في النهاية، اسطوره.. وينبغي ان يحاول عدم تكذيبها...
كان ينظر الى اوريليان خلسةً. ماذا وجدت النساء فيه ياترى؟ هذه التقاطيع
الكبيرة الغيبة قليلاً... لنتنظر الى هذه الرسالة... قصص الأسرة... الأمر يبدو
واضحاً... مكارّة لاتخفي مقاصدها، ارماندين هذه.. مع قياقتها المضحكة
وضحك.

سأله ليرتيلوا.

- ماقولك؟

- قولي... إن الرسالة تشبه أختك... هذه الأساليب الرسمية للوران
حول الموضوع.. لكن على العموم يري صهرك «ديبريه» الطيب يدس أنفه.. أتعلم
أنني تعاقدت معه على الأنسجة المطاطية.. اوه بصدد جماعة المطاط الذين
ينتظرونني.. فلينتظروا.. إذا لم نستطع أن نتحدث مع أصدقائنا..

- إن كنتُ أزعجك..

- تزعجني؟ أنتُ مجنون.. . دُعني إنظر فقط في قصة الملكية.. إذا كان «ديبريه» يريد أن يشتريها منك، فمن المحتمل أن تكون ملكية..
توقف. هكذا إذن! لم يفكر في ذلك على الفور، لكن كل شيء سيتم على أحسن حال. رائع!

- قل لي، أتريد أن تبيع هذه الملكية؟

- أنا؟ لا. ما حلمتُ بذلك..

- لكن... قد كان ذلك موضعاً للبحث بينكما..

كلاً، لم يجر ذلك قط. تحدّثت الأشياء منذ موت أمي. وأنا أتلسم المزارعة. والمزارعون طيبون، ولاتعقيدات.

- أولم يبدُ لك ذلك مشبوهاً؟ لا أقصد أن أختك... لا! لكن «ديبريه» ليس غراً... ألا تلاحظ شيئاً؟

- قلت لك بدا لي بغموض أن..

- بغموض؟ ماذا تقول؟ بغموض؟ لكنهما يريدان أن ينهباك، الأمر بسيط، أن ينهباك! ستتنازل لهما عن الأرض، وهما عمّ سيتنازلان لك؟ لا شيء. سيقدّمان لك المزارعة.. لا أكثر... وهما لا يعرضان عليك حصّة في العمل... لا، بل ريعاً، وهذا كل شيء... أما أنت فستعطيهم رأس مالك، فهمت، سينينيان، وسيكون البناء ملك الأولاد، بينهما... ولن تستطيع بعد ذلك استرجاعه.. ولن يدفعاً فلساً واحداً. وإذا متّ قبلهما فلا حاجة إلى دفع حقوق الإرث، الحيازة سندُ التمليك... وفي العمل لن يكون لك سوى الأسهم التي إوصى بها أبوك وأمك... آه، من الأسر! من الأسر! هل رددت الجواب؟

- لا، أردت أن أعرف أولاً... أتظنّ أنهما يريدان أن يخدعاني؟

- أظن! وما زلت تسأل!

لم تكن دهشة أوريليان قليلة، لكن دريعته تحقّقت بوضوح، فأراد أن

يسأل إن كانت بيرينيس.. قال: «أشكرك، لم أكن واثقاً ثقةً كبيرة... لكن لننتكّم عن شيءٍ آخر.. هل ستبقى السيدة موريل أياماً أخرى هنا أيضاً، مع مرض بلانشيت؟

لم يكن يلائم آدمون أن يتكلم عن شيءٍ آخر. فقال بسرعة: ستمدّد بيرينيس إقامتها في باريس ولاسيما أن زوجها وصل العاصمة منذ فترة قريبة. نعم زوجها... لكن هذه الأرض... ما اسمها؟ سان جينييه... ماثمها؟ استصغر أوريليان شأن «سان جينييه» إزاء ما أخبره به «آدمون». «موريل» في باريس... صمّت بيرينيس... هربها... - سألتك ماثمن «سان جينييه»

- الأمر يتعلق بما إذا كنا سنحسب حساباً للتقديرات الضريبية الرسمية، أو إذا كنا سنحسب قيمة الأرض وفقاً للمزراعة. ومن البديهي أن قيمتها اليوم تصل الى...

هلّ آدمون

- هذا رائع، يا صاحبي! رائع! طبعاً هناك جانبٌ من العملية، فيما تكتبه «أرمانيين»، وهو جانبٌ جديرٌ بالاعتبار، لأن لك أسهماً في معملهما... وهو ماتقوله لك عن حاجات عملية «ديبريه» إن كان يلزمهما رساميل إضافية.. إذ يمكن أن يكون ذلك دافعاً لك إلى مساعدتهما... لكن ليس عليهما، في النهاية، إلا أن يمتنعا عن شراء الملكية في الوقت نفسه! أو... بل لا! لا يجب أن نعقد صفقات مع نوينا، فسوف يغشائك دائماً... تنهّد كمن يقول إنني أعرف شيئاً من ذلك...

- اسمع... صحيح أنك قد تجد صعوبات في هذا اليوم أو ذاك مع مزارعك... قد تصادف سنةً رديئةً المحصول، أزمة زراعية... الفلاحين... كل ما يهملك هو الريع، أليس كذلك؟ وأرمانيين، و«ديبريه»، ما يَبْغِيانه هو هذه الملكية أو تلك؟ وألا يُنقصا من موارد عملها ليشتريا تلك الملكية.. طيب... سأقترح عليك اقتراحاً..

. كان اوريليان يُصغي بكثير من الشرود. كان مدهوشاً بهذا القدوم غير المنتظر للصيدلي إلى باريس. من البديهي أن بيرينيس لم تستطع أن تعود من أجل عيد الميلاد، ولذلك فإن زوجها...

- فهمت؟ أنا أضع في عملية «ديبريه»... لنقل ضعف ماتساويه «سان جينييه»... وحينئذٍ لن يستطيعا أن يقولوا... أنت، تحكي لهما أنني قدمت لك ثمناً غير منتظر لن يدفعه أبداً... والمبلغ الذي أعطيك إياه توظفه في أحد أعمالي ليدرّ عليك ريعاً يختلف عن المزارعة. فهمت، هذا هو مربحي في هذه القضية... عمل من أعمالي، وماقولك؟ لن تستطيع أن تحصل على ضمان أفضل... قصدت عملاً أهتم به... آل «ديبريه» سيلزمون الصمت... وأنا كنتُ لأبحث عن ملكية صغيرة بالضبط... سوف أصبح الممتلك لـ «سان جينييه»... سأدفع لك ثمناً عالياً، ماتريده... وتظل مالك رأسمالك... بتشغيله عندي... أدركت الفرق؟ أما أبناء أختك وصهرك وارماندين... فسوف يربحون بما أن معلمهم بحاجة إلى المال..

لا، لم يفهم اوريليان جيداً لماذا يتحدث اوريليان عن ذلك كله بهذه الحماسة. إنها لفكرة غريبة أن يُعقد الأشياء... أليس أربح لإدمون أن يوظف ماله الخاص في ذلك العمل بدلاً من أن يضعه عند آل «ديبريه»، أن يخرج منه ليعطيه اوريليان، الخ...؟

- أتتسى أنني بحاجة إلى قطعة أرض..

- هذا صحيح، إلا أن...

- إلا أن ماذا؟ إن كان يسرني أن أجبرك على أن تكون في بحبوحة؟

أنحن صديقان أم لا؟

- اسمع، لا أود، لا أطلب أن...

- اعلم ذلك، يا الهي! لكنك قبلت.. هذا يسليّني.. لاتتظاهر بالغباء،

وافهم أن ذلك بالنسبة إليّ قضية تافهة... وسط قضايا أخرى كثيرة..

- أنا محتار... قلت لي إن السيد موريل في باريس؟

- نعم... وصل «لوسيان»... على كل حال، كل ذلك مترابط...

- كيف ذلك؟

- القضية موضوع البحث! المقصود بها مستحضرات جمالية،

عطور... الخ... مستحضرات «ملروز»...

- أه فهمت!

- أنت لم تفهم شيئاً على الإطلاق. أنا أملك قبل كل شيء، الإحساس

بالواقع. روز، طبعاً، روز، ليست سوى علامة، سوى إعلان. الجوهرى أن العملية

سليمة، وعيني عليها، لا من أجل «روز» بمقدار ما هو من أجل أبي.

- أبوك؟

أنه على رأس مجلس الإدارة... وحينئذٍ أعرف تركيب ذلك كله، أرايت...

وأنا أتدبر أمري لكي ينتفع أصدقائي بهذا الترويج، بتلك الدعاية التي ستقام..

أما لوسيان زوج بيرينيس، قريبي، فأنت تعلم أنه صيدلي، وتعلم مقدار قيمة

الصيدلي... مع عنوان في الريف.. أثرت اهتمامه بالقضية... أي إنني وضعته

على صلة.. أنا واثق من أنهم سيتدبرون الأمر.. لست مستاء من أن أدبر شؤون

بيرينيس المادية... وأن تعيش عيشة أفضل...

رأى اوريليان يَطُرف بعينه، فأعاد الكرة

- لأنها لم تُخلق لهذه الحياة الرديئة، ابنة عمي الصغيرة... بينما، هي

تعجبك، بيرينيس.. طيب، طيب، هذا شأنك... ألا تجد أن من اللباقة أن ترتبط

مصالحكما، أن تضع فلوسك في هذا العمل الذي يتيح لها أن تشتري

فساتينها، وأن تأتي بين الحين والحين الى باريس؟

لم يوافق اوريليان تماماً. فهذا النمط الأبوي، وهذه الطريقة الفجة

للاستعانة ببيرينيس... ومع ذلك فما الفائدة التي سيجنيها ادمون؟... تاه فكره

في ذلك. ليس له الحق في صرفه عن وضع المال في أعمال «ديبريه»... إذ يمكن

لهذا أن يُعطي دفعاً. عبثاً يحاول جاك وارماندين أن يخدعاه... أما ماسوى

ذلك... على أية حال، إن ادمون كان رفيقاً قديماً... انه يراه ثانية يحاول الا
يلطّخ سترّة القماش الانكليزي المصلّع في وحل «الشمبانيا».. وموريل الذي
جاءنا على حين غرّة... أجااء حقاً من أجل مستحضرات ملروز؟
قال ادمون:

- بما أنك هنا، فسوف أصلك بالرجل الذي يهتمّ بمستحضرات ملروز...
ثم تنظرُ فيما ستفعله.. أما أنا فليس هذا شغلي إذا شئنا الدقّة.. ما يخصّني هو
مشروع «ديبيريه» وملكيّتك... أنت تعرفه على كل حال، هو ذلك الرجل الذي
تناولت الغداء معه عندي... شابّ مقدام... كنا نلعب بالكرات معاً قبل الحرب في
«سريان».. أشتهي أن أقدم له مساعدة... كبس الجرسُ ظهر عند الباب الوجهُ
العاطفي لضاربة الآلة الكاتبة الأنسة «سوزان».

- أه... آنسه، هلاً تفضلتِ وقلتِ لسيد «ارنو» إنني أنتظره في مكّتي..
وعندما خرجت، قال:

- ستري، إنه رجل طيّب جداً، صريحٌ في أعماله... هو عقلُ تلك
القضية... وهو مع روز طفلاً مطيع.

قال ادريان ارنو:

- هل دعوتني؟

التفت ادرييان ونظر الى القادم الجديد. كان له شارب صغير غريب،
وعينان صغيرتان لم تعجباه كثيراً، لكن إن كان بينغي الحكم على الناس من
خلال ذلك... فكيف يبدو «لوسيان موريل»؟ إن فكرة بيرينيس اخترقت قلبه.



مرّت الأيام دون أن يُعرَف كيف، إن عيد الميلاد، هذا العيد البعيد كما هو الشأن في المدن.. هذا العيد الذي تسلّط على قلب اوريليان لافيمّا هو تقليدٌ مسيحي، بل فيما يهدّد من فراق يستتبعه، هذا العيد لن يكون الفجر، الفجر الممزّق ربما، الذي حلم به، الفجر الذي يكون فيه راصدو العصر الوسيط، المتوطنون، هم أنفسهم موضع سرّ العاشق الذي يرحل. لقد أقبل عيد الميلاد كغيره من الأيام.

رسالة صغيرة من بيرينيس: «أنت تعلم أنني لست وحدي...» رسالة آله مافيهما من حذرٍ فظيع أكثر ممّا فيها من جفاف، وهي ترجوه ألا يتصل هاتفيّاً بشارع «رينوار». «... مداراة لابنة عمي أكثر منها لأيّ شيء آخر...» هذا الجزء من الجملة قد ساقه الى ذرّف الدموع أكثر من أيّ شيء آخر في حياته. وأكّدت بيرينيس أنها ستتصل بالهاتف أو سترسل رسالة لتعطي اوريليان موعداً قبل سفرها. يا للكرم!

كان يتعذب. ألم يكن كلُّ شيء إذن سوى وهم؟ أو تمثيلية، تمثيلية قاسية؟ بيد أنها لم تتبطل في شيء وقد حملت «لترسّخ حبه لها، حملت هوى ونهماً لم يكونا يشيان إذن بشيء سوى غرورها بأن تكون محبوباً؟ مستحيل. لم يكن اوريليان يسلم بهذه الازواجية، بهذا النفاق. وبظاهرة شبيهة بظاهرة السراب الذي يحدث في أشد مناطق الصحراء صحراوية، لم تكن بيرينيس مرئية قط كما كانت في هذا الغياب. كان يستيقظ ليلاً فيحسبها داخل غرفته. وفي وضح النهار كان النور لايلمس سواها على وجوه الأثاث الكثيبة. كان يحمل في عينيه وميضاً صدفياً يحط على كل شيء. أكان ذلك الوميض من بيرينيس أم من عيد الميلاد، الذي ظنه من مدينة بعيدة؟ قيصرية.. ظلت زمناً طويلاً..

إن الزمن في بعض أيام حياتنا يكف أن يكون نسيجاً متصلاً، عن أن يكون نمط حياتنا اللاشعوري. فهو يأخذ في الظهور، في الشفافية فينا مثل

علامة مائية، ومثل طابع عميق، مثل هاجس مستحوذ بعد قليل، إنه يكفّ عن الهرب عندما يغدو محسوساً.

إن الذي يحاول أن يحوّل فكره عن الألم يجد الألم في ملازمة الزمن منفصلاً عن موضوعه الأولي، ويغدو الزمن هو المؤلم، الزمن ذاته، إنه يكفّ عن الجريان، ونحن لانفكر حتى في أن نشغله، إذ يبدو كل شغل سخيلاً، إن اليأس ينتابك إزاء فكرة هذا الامتداد أمامك. لا الحياة التي يتعذر تصورها، بل الزمن المباشر، الساعتان اللتان ستأتيان مثلاً، هذا الألم أشبه بوجع سنّي صاعق لانظنه سينتهي، منه بأي شيء آخر. نحن هنا نتقلب، ولاندرى مانفعل، ولاكيف نتصرّف بالجسد، بالهذيان، بالذاكرة العنيدة، التي نشعر عبثاً أننا فريسة لها جميعاً.

لم يكن بوسع أوريليان أن يطمئن إلى التفسيرات البسيطة جداً، المبتذلة جداً التي كان يقدمها له شاهدٌ ساخر: «إنها لاتحبك... إن ممّا يثير غرورها، ويسرها أن تكون محبوباً... أن لها زوجاً وحياة... فكيف تهجرها؟ بورجوازية صغيرة استجمت في العطلة والعطلة انتهت.. شريفة مع هذا: إنها لم تخدع زوجها! لقد كان يُسكت ذلك الصوت المتشكك، هذا العقل الحزين حتى الموت، كان يخترع قصصاً مضجرة، وتفسيرات خيالية يعلم أنها كاذبة، وأنه يتابعها تزجية للوقت، الوقت الذي لايرحم. ثم لايلبث أن يوقفها وهو هائج هياجاً قد يدفع إلى تكسير كل شيء. كان يتمشّى في غرف منزله الصغيرة، مثل دبّ في قفص. لأنه كفّ عن الخروج، كان ينتظر ذلك الهاتف البعيد الاحتمال، لا. لم يكن ينتظره، لكن ماجدوى الخروج وأين يذهب، ولم يخدع نفسه بنشاط جدير بالسخرية؟ ينبغي ألا يرى أحداً، ينبغي ألا يرى أحداً، على وجه الخصوص. وقد استكثر مجيء السيدة «دوفيني» فقال لها: «لا تأتي غداً». نظرت إليه، مأخوذة. وفي صباح اليوم التالي، لم يطاوعه قلبه في أن يقول لها... وحينئذٍ ظلت تأتي كل صباح كان ذلك عقاباً يعاقب به نفسه، هذه الحركة المستمرة، هذه الضوضاء المتصلة من الكلمات، وما أعظم انفراجه عندما تتصرف!

كان يجب تحملها مع ذلك. فإذا ماجأت بيرينيس على غفلة، وإذا كان الباب مفتوحاً... لابد أن يكون كل شيء نظيفاً، مهياً، لها. وهي لاتأتي. أكان واثقاً من أنه بحاجة الى السيدة دوفيني؟ كان يُنظف، طوال النهار، وعلى نحو مَرَضِيّ الغرفتين والمطبخ والحمام، وعندما يشرع في ذلك، عندما يبدأ المرء في النظر بعيني المتفرغ فإن كل سنتمتر مربع من الأرض والجدران والأثاث والقماش بحاجة الى تنظيف دقيق أخذ في الضيق مثل مجال الانتباه، وهو يولي هذا العمل العناية والانتباه اللذين نوليهما جسمنا في بعض الأيام، ويمكنه ان يفرك الى مالا نهاية، وأن يلمع ويمسح الى مالا نهاية الأرض الخشبية، ومنجور البيت، بالمرامح المنزلية. وقد يلامس ذلك الجنون. إذ لا يمكنه أن يؤمن بالنظافة، وهو يعلم بحدة أن كل نظافة نسبية، وهو يقسم الى مالا نهاية مجال هذه العناية التمريضية، وينتابه اليأس فجأة، حين يلاحظ أنه، في هوى التلميع هذا، لم يتصد إلا لجزء طفيف من الغرض المشكوك فيه، من السجادة المنظفة بالفرشاة مثل حيوان مريض، وأن قد بقي ميدان لا يُستنفد من الاتساع، أو من غياب النظافة، وذلك أسوأ. لأنه ينتهي بتفضيل الوسخ الذي لاجدال فيه على النظافة النسبية، هذا الوسخ الذي يُعطي بيسر إحساساً بالانتصار عليه، حين يستخدم خرقة مبلولة أو محكا أو.

بيد أن اوريليان، في صباح عيد الميلاد، اختطف نفسه فجأة من شقته، ومن هوس النظافة، فخرج دون ان ينتظر السيدة «دوفيني» وتفادى ثرثرتها، لأنه كان يعلم أن هذا الصباح مقدس عند العائلات، وأن هذه الزوجة الممتازة، السيدة موريل، ستظل بالتأكيد مع زوجها السيد موريل، ولن تتركه متراً واحداً، ولن تتصل به، هو اوريليان، فلم يحلق ذقنه وارتدى قميصاً وسخاً برضاً ساخط.

كان الجو مكفهرًا، لكنه كان جافاً. وكانت الريح شمالية باردة! فارتعش مثل رجل لم يترك منذ ثلاثة أيام جو التدفئة المركزية الدافئ. أحس بالبرد يصعد من عقبيه الى ركبتيه. ضم معطفه عليه، ورفع قبته وأدخل يديه في جيبيه،

وسار مع ضفة السين نحو منحدره، ناظراً الى تختسيبات بائعي الكنب وكائها نعوش، وعلى الرصيف، رنّت حذواتُ جواد أبيض بسخريةٍ في اهتزاز عربية توريع زرقاء ذات حزونٍ سوداء كُتِبَ عليها «ربيع» وكأنه تحدٍ، وكانت السيارات الصغيرة تمرّ مسرعةً. وبدت المدينة فارغةً مُنْقَضَةً ومع ذلك كان عند رأس «المدينة»، على الجسر وعلى الحافات جمهورٌ أسود، مُنْحَنٍ ينظر الى النهر في «جَلْبَةٍ»، ماذا جرى؟

دنا، ، وعَلَقَ في ذلك الزحام، في ذلك التدافع، وحُمِلَ الى الدرايزين: كان الناسُ في الأسفل يركضون ويضطربون، وكان هناك رجالٌ عُرَاءَ، بعضهم بقبعة من المطاط على الرأس، وأجسادٌ تتعرّض على نحوٍ غريب لهذا البرد، مع جمهورٍ من رُعاة صحّة الرياضيين، ومن الأصدقاء، وفي الأعلى المفترجون، والنساءُ والمجانين... وفجأة غطّست هذه الكائنات البيضاء في النهر مثل أسماك ضخمة شاحبة، ومثل عجل البحر الممتعة، وصرخ الجمهور، واضطرب، وبدأ مَنْ على الجسر كأنهم يلاحقونهم نحو الضفة اليمنى. كان اوريليان يرى هؤلاء السباحين يبتعدون ويتبارون في السرعة بينهم وبين البرد أكثر مما هو فيما بينهم. لعلم كانوا مئة، وكانوا كأنهم علموا من قبل ماكانوا يفعلونه. كان على الجسر السينما الدائرة، وعلى الضفة المتجلّدة المقابلة، كان ينتظرهم المصورون الفوتوغرافيون. وكان النهر يغمرهم بالحديد الأخضر المزرق، وكانت هذه الأجسام الرياضية المنطلقة تبدو تحت رعشة المياه مثل أشلاء في ملحمة، واتّضح جهدُ الأوائل من خلال انبهار أنفاس المتخلفين، وغدت واضحة روحُ المباراة في النهر، قبل أن يُدرك معنى هذه المباراة، واصطف السباحون، السباقون في المقدمة، بعض المتابعين الذين اندفع بينهم اثنان أو ثلاثة هم موضع الآمال ثم جمهور المتوسطين، وأخيراً المقصرون الذين اندفعوا مع الآخرين واغترّوا بأنفسهم اغتراراً غير عادي، دون معرفة بحقيقة قدراتهم، ولم يُصِبه البردُ فحسب وإنما أصابهم الخجل أيضاً.

أسف اوريليان لحظة لأنه لم يكن في الجهة المقابلة، نهاية السباق، لم

يكن يرى من موضعه بوضوح أفضل السباحين وأكثرهم إثارة للاهتمام، ولم يكن بوسعهم أن يقارن بين أنواع السباحة وأساليبها. تذكر أوريليان فجأة «ريكيه» ذلك الشاب الذي لقيه في مسبح «أوبركامف». ربما كان بين هؤلاء يرضي ميله إلى القوة أكثر مما يجرب حظه، غير شاعر بالخيبة لأنه لم يكن بين «الأبطال» كما كان يسميهم، مؤدياً دوره المغمور في تاريخ الرياضة. كان ذلك بالنسبة إلى معظم الناس الذي يجربون هنا كأس عيد الميلاد. كما هو الأمر في القرى إذ يتسلق الناس في العيد صاري الحلوى،^(١) حتى الذين يعلمون أنهم عاجزون عن الوصول إلى أعلى الصاري، وعندما يُرون عند تغيير البرنامج في «الجريدة المصورة» فلن يُعدوا من يرتعش ويقول.

«هؤلاء شجعان حقاً!

حيّاً الهتافُ وصول الفائز الأول. وأخذ اسمه ينتشر، بين جموع الناس التي كانت تخبّ نحو الضفة اليمنى. وكانت ثمة ضوضاء من المعلقين. وكان السباحون الأقل حظاً ما يزالون يُجهدون أنفسهم في «السين» دون أن يهتم بهم معظم الجمهور. تردد أوريليان فيما ينبغي أن يفعله، ثم انقلب راجعاً ومضى في الشوارع الضيقة التي تكون على الضفة اليسرى شبكة مليئة بذكريات القرون حيث ما يزال يتسكّع شعب من القرون الوسطى من الصنّاع والبناات. انتاب أوريليان شعوراً بأنه يهرب من الزمن الحاضر إذ يهرب من السين وسباحيه، من هذه الحياة، التي يلسعها البرد في وجهها، من المشاهدين المتلهفين، والرياضيين المتحمسين، كان يفكر في «ريكيه» كان يسعى إلى تذكر هيئة هذا الشاب المتين البنية، وسوقيته، وطاقته الحيوانية. لم يكن يفصل تفكيره عن ريكيه، لسبب ما غامض. وكما أن «ارماندين» برصانتها المضحكة قالت: «السيد ريكيه» هذا مُحقٌّ...» هن كتفيه. جميع أمثال «ريكيه» محقون ضده، طبعاً. كان يفكر في قوته الشخصية المهدورة، التي لم تُستخدم في الطاقة التي كان يبذلها، هو، لتلميع شقته كما يلّمع الحذاء. هن كتفيه، ونظر إلى اسم هذا الزقاق الحزين الذي أمعن

(١) صار يُعلق في أعلاه حلوى لانتال إلا يتسلق الصاري المترجم .

فيه، متذبذباً بين شوارع عمودية على متوازيات الأرصفة، ورأى على الصفيحة ان اسمه. شارع «كريستين». كم كان وحيداً لم يعد يفكر في بيرينيس. لم يعد يفكر في بيرينيس وعاد بتفكيره الى «ريكيه». الى السيد «ريكيه» الرامز. مع صديقته، وعمله في العمل، وميله الى انفاق جهده، وفُرط طاقته. فيم يقضي أحاده؟ ماشكل الغرفة التي يسكنها؟ لم يكن اوريليان يهتم بريكيه بقدر ما كان يهتم بما يفصله عنه. كان يمكن ان يكون واحداً مثله. كان يمكن أن يكون مثله قبل قليل في تلك المياه المتجلدة ساعياً بكل عنف عضلاته، وبكل ذكاء جسده الى أن يسجل لنفسه وحدها انجازاً لاسبيل الى فهمه. ماهو؟ أهو الشعور بالواجب؟ أهو الحاجة الى أن يُبرر مسلكه؟ أهو الرغبة في الكرامة؟ هو بالتأكيد شيء ينقص اوريليان في هذه الدقيقة نقصاً كريهاً.

بلغ حديقة اللوكسبرغ لينسى «ريكيه»، وليترك الصبيحة تهرب. نظر الى الأولاد الشاحبين يلعبون بين أقدام المربيّات والأمهات، وتُجولُ بحذاء الحوض الذي أفرغ من مياهه، وتفرس في الخرائب الحجرية، وعاد ببطء الى منزله، عبر جادة «سان ميشيل» المقفرة من الطلاب، والمقاهي بزجاجها المضرب كالنوارق. كان يحرك أصابع رجليه في حذائه. كانت السيّدة «دوفيني» ماتزال هنا.

.. عدت، ياسيدي؟ أه! يالأسف... قبل خمس دقائق جاءت السيّدة... وبدأ عليها أنها تأسف كثيراً... وتركت سقفاً... وقالت إنها ستتصل هاتفياً...

بيرينيس، بيرينيس جاءت الى بيته!

إن الحركات تسبق الأفكار أحياناً. فاجأ اوريليان يده مرفوعة على عجل الى وجنتيه، لتجسّ بظهرها الشعر غير المحلوق» حتى أن أول شيء تصوّر في ذهنه كان: «ماكان ينبغي لي أن أخرج هكذا». وقبل أن يقول «ماكان ينبغي ان أخرج» اختلطت لحيته بأفكاره المشوشة، بأسفه، وبأماله المبعثة. وماقيمة ذلك مادامت بيرينيس لم تجده في بيته؟ بلى، بلى، إنه لأمر سيء ألاّ يحلق ذقنه، أي ألاّ ينتظرها، أن ييأس منها، أن يخطيء معها بسبب مخاوفه الحمقاء، لن يترك يوماً بعد الآن يمرّ دون أن يحلق ذقنه، بسببها، سيحلق ذقنه من أجلها، احتراماً

لها ، لقد جاءت! ودخل الحمام، وعلق الجلد، وأخذ يسنّ موسى الحلاقة.

صاحت به السيدة «دوفيني» من بعيد:

.. ألا تنتظر ياسيدي، في السفت؟

صحيح، السفت! نسيه وهو مضطرب... سفت بيرينيس! أرخى الجلد، ووضع الموس المفتوحة على الرفّ الزجاجي، ووثب نحو الغرفة. وكانت السيدة «دوفيني» تهمّ بالذهاب، لكن فضولها استوقفها، فوضعت السفت بمكان بارز، وكان سفتاً مكعباً، كبيراً مثل علبة البسكوت، بل أكبر، ملفوفاً بكرتون مموج، مربوط بخيط أسود. ليس عليه كتابة، لا شيء... لولا كلمتان، مضافتان في آخر لحظة بقلمها ذي الحلقات المذهبة الذي رآه في حقيبة يدها. لأوريليان، بهذا الخط الكبير المتردد، والطفولي قليلاً، مع زخرفات طريفة عند الأحرف ذات الشكل الكبير. التي تعلّم أن يعرفها من تلك الرسالة الخبيثة التي لم تعد تفارقه. رأى نظرة السيدة «دوفيني» وتوقف. قال: صحيح أنني نسيت... وأخذ السفت وحمله الى غرفته. سألت السيدة «دوفيني» وهي خائبة الأمل بعد لهجته الصارخة: «ألم تعد بحاجة اليّ ياسيدي؟ أما من شيء خاص لصباح الغد؟

.. لا، لا، لم أعد بحاجة إليك، وما من شيء خاص... الى اللقاء سيدة «دوفيني».

احرق السفت يديه. وامتنع عن فتحه حتى يسمع اصطفاق باب المطبخ. لاشك ان السيدة «دوفيني» قد استشاطت غضباً آه، ثم دعكاً فك الخيط، ثم نزع الغلاف! المثبت بصحف مدعوك، وفتح العلبة أخيراً، في غمرة هذه الاحتياطات، وكانت تحمل كلمة: هشّ، وأخرج كتلة مغلّفة بالورق الحريري، وكانت شيئاً قاسياً... آه، لقد حزر. تعرّفت يداه تلك المساحة: إن «بيرينيس» أرسلت إليه «مجهولة السين» هديةً لعيد الميلاد. كانت هذه الهدية العلبة ولاشيء غير ذلك. نزع أوراق قالب الوجه، وهو موزّع النفس بين التحنن البسيط جداً والخيبة، وما الذي كان ينتظره إذن؟ لقد قالت بيرينيس... إنها تغار مع ذلك من هذا الوجه الذي لايعرف اسم صاحبه. وهاهي ذي تحمله اليه.

لم يفهم من أول نظرة، أمسك بالقناع مثل شيء معروف، دون أن يجلسه، على نحو ما، ثم انه شعر شعوراً غريباً بأن «المجهولة» تحركت، أي إنه شعر بمثل الصورة الخاطفة المتحركة من تلك المجهولة، كان هذا هو القالب الذي يعرفه جيداً ولم يكن إياه نفسه، وشعر شعوراً غامضاً بما يعنيه ذلك، قلب القناع الذي أمسكه بكلتا يديه، ونظر إليه بإمعان.

لا، لم تكن هذه هي المجهولة، لقد سَعَوْا، سعوا سعياً ظاهراً الى التذكير بزيئة رأسها، بتفصيل القناع، لكن القسمات كانت مختلفة، لاسيماً الفم... بيرينيس، كانت بيرينيس! لم يكن ليشتك في ذلك، مع أن هذه الصورة الجنائزية، هذه الصورة الجبسية بدت له مثل «بيرينيس» التي مرّت عبر أسرار التحول. انها تشبه بيرينيس شبهاً كبيراً وتختلف عنها اختلافاً كبيراً. رأى الآن كم هي مختلفة عن المجهولة، ولماذا لم يلحظ أولاً القرابة بين هذين الوجهين، ولماذا كان لابد أن يُريه إياها الآخرون؟ حينذاك كان يعرف المجهولة معرفةً مفرطة، ولم يكن يعرف بيرينيس معرفة كافية. أما الآخرون فلم يكن لديهم من الوجهين سوى إحساس عابر كافٍ لأن يندفعوا، إحساس مفرط السطحية لكي يحول بينهم وبين مشاهدة الفروق العميقة مثل هوى القلب. لايمكن لأوريليان أن يُخدع.

كان قلبه يخفق، تذكر ذلك المشهد الذي سقط فيه قناع المجهولة على الأرض، وتحطم. رأى ثانية الجبس على السجادة. وأحس بهشاشة هذا الشيء بين يديه. خاف أن يُقلته من يديه في غمرة الانفعال الذي جعله يرتجف. ووضع على السرير وجه بيرينيس، فترك فيه ذلك انطباعاً غريباً، لقد وضعه كما اتفق له تقريباً، فعاد وأخذه وحمله برفق كالمجرم، الى الوسادة الى الموضع الذي تنتفخ فيه الوسادة على الحرير الداكن. ونظر طويلاً الى بيرينيس، وهو واقف صامت بلا حراك.

بيرينيس المغمضة العينين.

لقد أسلمت نفسها الى هذا التمثيل المأساوي من أجله. ذهبَتْ الى

صانع القوالب وتمددت وهي مغمضة العينين.. وتحملت الجبس على عينيها، على الفم، على المخربين، عند مطلع الشعر، في الأذنين... الجبس في كل موضع مثل شحوب الموت. وتحت الجبس الرطب الذي كان يطبع قالب تقاطيعها، ظلت تتنفس، بأنفاس مكبوته، وكانت تفكر فيه، وتقبل من أجله هذا الإحساس الكريه الذي لابد ان يسببه هذا العمل المأتمى... إنها عهدت الى هذه المرأة الجوفاء الباردة بذلك الشكل الغالي منها هي بيرينيس، بهذه الرسالة، بذلك الاعتراف الى الجبس الذي كان يجف شفيتها. وشكلت شفاتها، لدى ملاسة الجبس، الاعتراف الذي لم تعبر عنه القبله التي لم تمنحها بشفتيها الحيتين، قالب تلك القبله. كان اوريليان ينظر باضطراب الى مطة الشفتين المتوجعة وفيهما مئة شق صغير ناعم، الى هذا النموذج الجسم لورقة تويجية الزهرة، الى ذلك التعبير عن اليأس، عن الشفتين اللتين تصرخان بالشهوة التي أهينت، بالظلم الذي لم يرتو. اوه كم هي أجمل من «المجهولة»، وأرهب، ومجهولة على نحو أرهب، بيرينيس الحية والميتة، الغائبة والحاضرة، الحقيقية في النهاية!

مد اوريليان يده بخشية خرافية وتوقف، ثم لمس القناع لمساً خفيفاً، خفيفاً، بأنامله.. وجاءته الكلمات، الكلمات الرقيقة التي تنفكت من أسنانه المنفتحة قليلا، من لسانه المتحرك كالشبح، كلمات سمعها قبل أن يفكر فيها، أنفاس... في ميدان الكلمات، ربما كان الكلام هكذا. ولانجد ذلك في أي ميدان آخر. كلمات تشبه تلك المواد التي تجنيها الريح من حب الأشجار، ذلك البذار الذي تحمله الى آلاف الكيلومترات نحو أشجار لم تلقح. لم يعد اوريليان يعرف نفسه، كان قلبه يجب وجيبا يكاد يقطعه. كان فريسة للوار لم يعانة قط. وداعت يده كلها جمود القناع، فسحبها فجأة، وهو مرعوب، ونظر على أصابعه الى آثار الجبس البيضاء كانت تحركه عواطف متناقضة. وخاف من أن يفكر في أي شيء محدد وأن يستخلص هذا الشيء أو ذاك من هذا الإهداء وتلك الصورة. لكن يقيناً كالمدا أخذ يتعاطم مع ذلك فيه، ويجتاحه وكأنه يأتي من بطنه ليصل الى جذعه، والى مفصل الذراعين، ويمتد الى أعضائه، ويلمس الى حنجرتة.

وكان جديراً بأن يحملهُ على الصراخ، إذ اختنق به، فاحمر بعنف، وبقي اليقِين يقيناً فحسب، وأمّحت التناقضات، وانتثرت ركبته على حافة السرير. وفيما هو ينحني على بيرينيس، قرأ في عينيها الميتتين أن بيرينيس تحبهُ.

— ٤٦ —

لم يعد أوريليان يجرؤ على الخروج من بيته، لم يستطع أن يغفر لنفسه أنه فوّت على نفسه رؤية بيرينيس، زيارتها. كان ينتظر بيرينيس. كان ينظر إلى الهاتف، إلى الباب، كان مثل كلب الصيد. كانت حياته كلّها في الحقيقة معلقة. كانت استراحة غير عادية للفكر، للانفعال ذاته، للألم. كان ينتظر، ولا عمل له سوى الانتظار، ولم يكن كثيراً عليه أن ينتظر من ذاته كلها.

لم يتناول غداءً ولا عشاءً ولم يبدُ له الزمن طويلاً. وأحسّ أوريليان بنفسه أن مزقاً من الجمل تخترقه، وأن لديه بدايات أفكار، لشيء يتخذ شكلاً، لشيء يكتمل. بدا له أنه يحبس أنفاسه مثل سباح يتدبر طريقه الطويل تحت الماء. بدا له أن لا شيء في العالم يوجد خارج هذا اليقين. بيرينيس تحبهُ. وشعر من جراء ذلك بخدر غريب، لا بالفرح الذي ظنّه، وكأنه بهذا اليقين، قد توصل إلى امتلاك العالم، إلى الاكتشاف الأخير الذي لا يوجد وراءه سوى العدم. لا بد أن الاسكندر قد فكر كذلك عندما سقى حصانه من المحيط الهندي، لأنه كان يجهل أن وراء هذا الماء الأسطوري أراضي أخرى. أن تكون بيرينيس قد أحبّته، مع علمه بذلك وعدم شكه فيه، لم يكن يفتح باب الأحلام، لم يكن يلزم أوريليان البتّة في أن يتصور تنمّة هذه المغامرة. حبّه لبيرينيس لم يكن مغامرة بل حالة. ومنذ أن حصل أوريليان على هذا اليقين ابتعد أكثر من أي وقت مضى عن تصور تطورات الحب المتبادل. لم يعد يتصور بيرينيس بين ذراعيه، ولم يعد يتصور المعركة من أجل بيرينيس، حب بيرينيس بالمعنى المليء والمحدود الذي يعطيه الجميع، وأولهم أوريليان، كلمة حب.

جاع حوالي الساعة العاشرة مساءً. فكر: جوع شاب، وكان يستمدّ من

مَفْصُ معدته الشعور بالبطالة المعترضة، بهذا اليوم الطويل المستنفد في لاشيء، وفي الوقت نفسه الذي كانت تنشأ فيه الخيبة من أن بيرينيس لم تعد تتصل هاتفياً، كان يقول في نفسه إن الأمل في ذلك غير معقول. ألم تتخلص بصعوبة، هذا الصباح، لتأتي إليه؟ مجيئها غير وارد حتى صباح اليوم التالي، حتى تُتاح لها الفرصة... لم يكن واثقاً جداً من أنه يُلْقَى لنفسه الذرائع حتى يخرج ويأكل لقمة، كان جائعاً حقاً، تأخر الوقت بالنسبة إلى المطاعم... ويمكنه أن يحصل على شطيرة.. وفكر في الليل وارتعش. نظر إلى الخارج: كان المطر ينهمر. عندما دخل هذا المقهى المضاء بشدة قرب «الشاتليه»، كانت قُبْعَتُهُ تتصبب ماءً، وكان مشمعه يبدو أسود. هنا يستطيع أن يجد حساء ببريشة، ومقانق، وقد دُخِنَ طوال النهار مثل مدفأة، بدت له الجعة السمراء رائعة، منسجمة انسجاماً غريباً مع جو أفكاره.

أين يمكن أن تكون بيرينيس؟ وماذا كانت تفعل مع هذا الزوج الذي هبط من السماء؟ لم يكن هذا الزوج كائناً حياً، بالنسبة إلى أوريليان، لكنه كان ضرباً من شعب، تجسيدا للحتمية التي تفرق بين المحبين. وتساعل بكثير من الجِدِّ إن كان يغار أو إن أمكن أن يغار من الزوج؟ لا، لم يكن يغار منه. لم يكن يتألم وهو يعلم أنها معه، ولم يكن يتصور خصوصيتهما الحميمة. وفي هذه اللحظة على الأقل، ارتعش حين خطر له أن ذلك يمكن أن يتغير. كان مصمماً بعزمٍ ألا يغدر تعساً. بيرينيس تحبه، بيرينيس تحبه. عاد متباطئاً ومعه قطعة من جبن وثمره. توقف المطر عن الهطل، وقلَّ البرد. انصرف ماشياً إلى «الهال» حيث بدأت التجارة، ودلف إلى الجادات المزخمة بالدكاكين الصغيرة لرأس السنة، بمصابيح الأسيتيلين، ونظر إلى الألعاب الميكانيكية في علب سردين، ومثبتات الجوارب معقدة تعقيداً مذهلاً، وتوقف في «دار الحاكي» في زاوية شارع الايطاليين، الخالي تقريباً في هذه الساعة، حيث استمع، كما كان يفعل قديماً مع رفاقه في المدرسة، إلى «شاليابين» في موت «بوريس»، وإلى «سحر الجمعة الحزينة» التي يقودها «نيكيش»، وبغير قصدٍ إلى «الأنسة المختارة» و«المتمرن

الساحر» و «سوق سوروشنسك» و «الديك الذهبي» ، وتريستان...
اشترى فيشاً وشغل ثلاث مرات متواليات الأسطوانة نفسها. ما من
موسيقا في العالم يمكن ان تلائمه أكثر من «تريستان»، مطلع الفصل الثالث...
لم يمكن بوسعه ان يتملص من جاذبية «مونتارتر»، كان الوقت مبكراً
بالنسبة الى حانة «لولي»، فذهب ليجلس في مقاهي ساحة «بلانش» -وهناك
اصطدم بـ «فوشن»، الذي أطلق صيحاته، وجاء فجلس على طاولته، وثبته ساعة.
والله أعلم عم كان يتكلم لم يُعره اوريليان انتباهاً. بدا له دائماً ان هذا الرجل
القصير الماكر يحمل أطناناً من الأسرار التي يُريد أن يعهد بها إليك، أسرار
تحرك عالماً مجهولاً، باريس كاملة من الناشرين، من متسلمي الرهان في سباق
الخيال، من النساء الصغيرات، من الرسامين، من موظفي المستعمرات. وكل
ذلك مختلط بقضايا صحيفته «الكوخ» التي تظل مذهلة كشأنها دائماً. ألم يكن
له حقاً ما يفعله ، فوشن هذا، بحيث أنه يتشبث بك هكذا في كل مرة يلقاك فيها
تخلص منه اوريليان في نحو الساعة الثانية عشرة والنصف.
استيقظ في اليوم التالي، في الساعة الثامنة، مع أنه نام عند الفجر
وعاد الى الانتظار الذي لم يكد يقطعه النوم. ان حرصه على أن يكون نظيفاً،
نقياً لاغبار عليه، وحاجته الى الصقل، لم تصرفاه طويلاً عن حميائه. لم يكن
كعشية أمس متخدرًا؛ استولت عليه العصبية وألقت به من غرفة الى اخرى. كان
يتناول الكتاب فلا يقرؤه، ويبدأ بكتابة رسالة الى ارماندين، وبعد ثلاثة أسطر
يمزقها. أراد أن يكف عن التدخين، فقد أسرف فيه عشية أمس، ولم يجد
أسنانه كما يريد لها أن تكون.. ومع ذلك دخن، دون أن ينهي سيجارته، تاركاً
أعقاب السجائر على أطراف الأثاث. وزادت السيدة «نوفيني» في فقدانه صبره،
بحضورها أولاً وبثرثرتها. كان ثمة جريمة في جريدة الصباح، ألم تقرأ
ياسيدي؟ لا، لم تقرأ. كل ماكان يريده أن يجد ماياكله في بيته، لا الكثير من
الأشياء التي تتطلب مهارة، بل تلك التي لا تحتاج الى صخبٍ مزعج. أشياء

جاهزة... لا الكبد الدسمة... لا أريدها دائماً كانت السيدة «دوفيني» تملكها الرغبة في أن تصنع له طعامه. أه أما هذا فلا طيب، طيب، كما تريد، ياسيدي. وأخيراً انصرفت. ما انصرفت إلا لتعود بالمؤن. علب من الجامبون وخبز فكانه يريد أن يعبر المحيط على قارب. حتى لقد حملت معها علبه بسكوت. فقد أوريليان صبره. تستطيع الآن أن تنصرف. فانصرفت. أصبح الانتظار غير محمول. ظلت المؤن مكدسة على طاولة المطبخ. ولم يمسنها. تعطلت شهيتته. هذه اللحوم الباردة في الصباح الباكر... دق الجرس، فأسرع. كان موزع المطبوعات ومعه تقويم، وابتسامة آخر العام. جاء قبل الآن لكنه لم يجد أحداً. وبعد الموزع جاء بواب العمارة. على الدرج تهريب ماء. ألم يسمع السيد ليرتيلوا ذلك الصوت الخفيف؟ أردت أن أعرف إن كان ذلك من عند السيد ليرتيلوا. لا لم يأت ذلك من عند السيد ليرتيلوا.

في النهاية، ابتلع أوريليان شريحة «جامبون» وقطعة خبز. ثم أحس بأنه وسخ جداً، فغسل أسنانه ويده، دون أن يطرد تلك الفكرة السخيفة، وخلع ثيابه، ووقف تحت رشاش الحمام. فكر فيما قد تقوله «ارماندين». «بعد الغداء، هكذا!» مع ذلك الخوف من سوء الهضم الذي كان وراثياً في عالمهم. لم يضحك. وغضب. وفكر بانفراج في أنه عندما يُصفي «سان جينييه» فسوف يقطع كل مايربطه حقاً بنويه. نعم. أفضل ألف مرة أن يوظف ماله لدى «ادمون» من أن يضعه في تلك العملية العائلية! انتهى، انتهى!

لم يعد ينتظر «بيرينيس». كانت كل دقيقة تمرّ تجعل مجيئها أو اتصالها هاتفياً أقل احتمالاً، كان ينظر إليها، كان ينظر الى القناع، الى الوجه الميت، وجه الحب، كان بوسعه ان ينظر الى القناع دون ان يملّ النظر، وأن يرى النور يتراقص عليه. وفتح ستائر النوافذ الى أقصى مداها. لكي ينساب كل النور الممكن على الجبس. لم يعد ينتظر بيرينيس، قال في نفسه إنه لم يعد ينتظرها. أوشك أن يبكي. كان يسمع الآن حركة الجيئة والذهاب في الممر. كان

المرصص الذي كان يصلح الأنبوب المثقوب. لو وصلت بيرينيس فجأة، لضاع وقع خطاها وسط هذه الأصوات المتنوعة: الملحام الذي صُدم، حقيبة الأدوات مرمية أرضاً، خطوة العامل... لن تأتي؛ وإذن! سعل أحدُهم وراء الباب. ثم خيم صمتٌ طويلٌ، أخذَ النور يتناقص، وتموجت سماءُ باريس البيضاء بالسواد. وهيمنَ الجبسُ المعلق في الجدار على هذا الانتظار غير المجدي، خُيِّلَ إلى أوريليان أنه ينتظر منذ قرون. لابد أنه طاعنٌ في السن. أخذ يُغيّر مواضع الأشياء فكبّ المنفضة برمادها، وأعقاب سجائرهما، وعيدان الكبريت المسودة. كان يلمّ كل هذه الأوساخ ويفكر في أنه ينبغي أن يفرك السجادة بالفرشاة، عندما دق جرسُ الباب.

لا، مستحيل. لم تكن هي. وأخفى هذه الأوساخ جهد الإمكان، ونظر إلى يديه. كان ينبغي أن يغسلهما. دقّة أخرى على الجرس. كان صبرُها ينفد. تجاوز الحد. بما أنها ليست هي... فتحت الباب، ودخل «بليزا مبيريو».



«النساء اللواتي نضاجعهن لسنّ بذى خطر. الصعوبة في اللواتي

لانضاجعهن...»

بعد هذا القول الماثور الذي طلع به الرسّام. عاد الصمتُ فخيمَ بثقله. كان الرجلان هنا بجانب النار، في العتمة الهابطة، منحنيين، وعيونهما في بريق اللهب. كانا يتكلمان منذ حوالي الساعة. وبدأ لهما أن السنة المنتهية تزيد من الإرهاق الذي كانا كلاهما ضحية له، حاول «بليز» أولاً أن يتعجرف، أن يراوغ، أن يزعم أنه سعد هكذا، مصادفةً، دون أن يكون لديه مايقوله، بسبب الفراغ. ولم يكن اوريليان الذي أحسّ بشيءٍ خلف هذه الزيارة يتوقعها؛ لأنه لم يكن يتصور أن بيرينيس تلقى الرسام. بمعزل عنه. لماذا، كيف؟ وهكذا فانه قد جاء مع ذلك. من قبلها. لقد رآها أولاً وثانياً، في هذه الأيام نفسها التي كان يتعذر لقاءها فيها بسبب «بلاتشيت» أو التي كانت تزعم فيها أن ذلك بسبب بلانشيت. أرادت أن ترى «بليز» وأعطته موعداً. وتحدثت إليه طويلاً. وقالت له هو «بليز» ما أخفّته عن اوريليان. وعادت الى منزله. واتخذته نجياً تبوح له بأسرارها. «بليز»، العم بليز. في حين كان اوريليان يعاني اليأس والملل...

- اسمع، يا صغيري... لا أحب أن تحمل ذلك على محمل سوء... ومن العجب أن ليس من عاداتي التدخل في شؤون الآخرين! وهل فعلتُ ذلك قط لك؟... لا، إذن، هي التي أرادت. لم أكن أعلم أن ثمة أموراً خطيرة. لا من جانبها ولا من جانبك. وعندما رأيت الى أين يؤدي ذلك، قلتُ لها، أنا أنسحب... أه، نعم!

لم يكن يدري من أين يبدأ حكايته، وشعر بالمرارة. فأخذ يعضّض شاربيه. ومن شروحاته المرتبكة، كانت النتيجة أن بيرينيس لا... لا، بل إن بيرينيس قد كلّفت العم أن يقول لاوريليان أنها لاتحبّه.

- ما أقل صبرك! ليس الأمر هكذا على الإطلاق.. هل ينبغي أن أكرّر عليك... إذا لم نعتبر كيف جاء ذلك فإننا نكون فكرة خاطئة..

ماجدوي تغليف الأشياء؟

- لطيف منك، ياعم، أن تزين لي الأشياء المرة... ان تجعل الصدمة أقل قسوة علي... لكن، ما الفائدة؟ لقد أصغيتُ إليك جيداً.. لم تقل لي شيئاً آخر...
والتفاصيل لاتغير شيئاً من الأمر...
- كل هذا! كل هذا! أولاً أنا لا أصدقها عندما تقول إنها لا تحبك..

- قالت ذلك، ألا يكفي ذلك؟

- أنت مخبول، يابني، أنت مخبول... قالت ذلك، علام يدل ذلك؟ قالت ذلك لأكرره عليك، لأنها لاتستطيع أن تُعزم على قوله بنفسها.. لو كانت لاتحبك فماذا يمنعها من أن تقول لك ذلك؟

- أنت لاتصدق ذلك؟ وتأتي لتقوله لي؟

- ياصغيري، ياصغيري... لا تصطنع هذه السحنة! أنت ستحقد علي!
«مارت» قالت لي..

- آه ! العمة قالت لك!

- لا تغضب! كنتُ مسموماً، فهمت... ليست هذه المهمات ممّا يجوز عمله، لكنها خلّفتني، بيرينيس... وفوق هذا، كنتُ أقول في نفسي إنني إذا لم أطلعك، مع وجود الزوج في باريس فقد ترتكب بعض الحماقات...
- علام خلّفتك؟

- تعلم جيداً... قلته لك... أيسرُك أن تتعذبّ بسماعه؟

- انها لا تحبني، أليس كذلك؟ أهذا ماخلّفتك على قوله؟ وماسوى ذلك فهو هراء. وليس لك أن تحلف عليه... لكنك لاتصدقها مع ذلك... لاتصدقها، عم بليزا وجئت لتقول لي الأمرين معاً. وأنا أيضاً لا أصدقها، لا، إنها تحبني، أقول لك إنها تحبني. أنا مجنون أم أنها تحبني؟

نهض، ومشى قليلاً، تناول حطبةً وألقاها في النار، وعاد الى الجلوس، وكأنه أمام عَرْضٍ، ليرى اللهب يلتهم هذه الفريسة الجديدة. امتد الصمت قليلاً، ثم قال «بليزا»:

- اصعب... أتريدُ أن أقول لك... ما الأثر الذي تركه ذلك فيّ أنا... حسناً...

عضّض شاربه، فحطّه اوريليان؛

- وماهو؟

- هاهو.. المرة الاولى التي تلاقينا فيها.. في المقهى.. كانت تقاوم... كانت

تبحث عن دفاع... كانت خائفة من ذاتها... كانت تتصوّر حيلةً تريد أن

تستخدمني فيها.. فهمت؟

- لم أفهم جيداً...

- بلى.. تابعني جيداً.. كانت على يقين عظيم من أنها تحبّك حتى إنها

وجدت من اللازم أن تقول لأحدهم إنها لا تحبّك... لا لك... لأنها خافت أن تُسيء

إليك...

- خافت! وأرسلتك!

- لم ترسلني في تلك المرة... وجدتُ من اللازم أن تحدّث أحدهم...

غيرك... وفي مكان إقامتها، ابنة عمها... مستحيل! حينئذ... في المرة الثانية

فقط بعد انتحار السيدة باربنتان...

- لكنها قالت لك في المرة الأولى إنها لا تحبني.

- بديهي... بديهي... لكن كيف أقول لك؟ لم أصدّق ماقلته...

- بينما أنت الآن تصدّقه؟

- كلا، كلا! قتلْتُ نفسي وأنا أقول لك إنني لا أصدّقه!

تشوش، فلم يساعده اوريليان. كان رأسه مشتعلًا وقدماه باردتين. كان

ينبش شعره بأصابعه، وبقضم أظافره.

وشيناً فشيناً، برزت بوضوح صورهُ اللقائين في المرة الأولى في المقهى،

كانت بيرينيس تتكلم برزانة، بالرغم من الخوف الذي ألمّ بها، والذي كان الخوف

الطبيعي لجميع النساء أمام الحبّ الحقيقي، قالت حقاً إنها لا تحب اوريليان، ولا

تعتقد أنها تحبه. لكن كلّ شيء في موقفها كان يُكذّب ذلك. ولولا ذلك، فمن أيّ

شيء تخاف؟ الشيء الجوهري أنها كانت تخشى الاستسلام، أن تعجز عن

الإفلات من هذا القدر، وأن شيئاً فيها كان ينادي، شيئاً لم تكن مسيطرةً عليه، لا لأنها كوّنت فكرةً هذيانيةً عن هبتها لنفسها، لو كان مافيهما نحو أوريليان مجرد ميل، أو نزوعاً جسدياً، فلعلّها.. ولم لا؟ لكن الأمر كان أكثر خطورةً، هذا ما كان، وكان ينبغي إيفاف تطوّر هذا الحب، لم تكن تستطيع، في آنٍ واحدٍ أن تعقد العزم على إيذاء أوريليان، ولا أن تعقد العزم على امتحان النار التي أخذت تحسّ بلذّعها، وفي الوقت نفسه كانت ثمةً بحبه لها، كان ذلك دفناً لا تستطيع التخلّي عنه، كانت متمسكةً بهذا الحب، كانت تؤمن به، كانت تؤمن به على نحوٍ يائسٍ، وكانت ترتعب من أن حبّ أوريليان يمكن أن يموت، لفقد مايتغذى به مثلاً، كانت تؤمن به، لكنها كانت تؤمن أيضاً أن في مقدورها هي أن تثبطه وأن تدمره، وهذا مالم تكن تفكر فيه حقاً دون رعبٍ، دون استغظاعٍ.. ذلك الشيء النادر جداً، الثمين جداً، العظيم جداً، كيف يمكنها أن ترفض من القدر هديةً يهديها مرةً واحدة، ولعله لن يهديها أبداً بعد الآن؟ كانت تتعذب حين يخطر لها أنها ستضيق ذلك الحب الذي أكدت أنها لا تبادله إياه، وأخيراً فقد جاءت إلى «بليز» لأن أوريليان قال لها إنه أفضل صديق له، وكانت تكلمه قليلاً لتكتشف أوريليان الآخر الذي تجهله، لتستعرض هذا الخطر، هذا النور.

- فهمت، يا صغيري، كانت تغير مصباحها -

لم تطلب من العم أن يقول شيئاً، أيّاً كان، على العكس، إنها طلبت منه أن يحفظ سرّ هذا اللقاء، ولعلها لم تلح كثيراً على كونها لن تكون له إلا لأنها كانت تفكر في الاستسلام له، هل يدري أحدٌ، النساء...

صاح أوريليان: والمرّة الثانية؟

هدأ «امبيريو» الشاب بيده، خمد اللهب قليلاً، لم الرسام العجوز، بالملقط، عناصر النار، الجمر تحت الحطب المحطّم.

- في المرة الثانية، كانت مضطربةً من جراء قصة بلانشيت... أعتقد أنك لم تتبين جيداً أثر هذه القصة فيها... لا، لا تقاطعني طوال الوقت أيها المدعي! ولست أعلم كثيراً! ماذا يمكن وماذا ينبغي أن أعتقد من ذلك كله، وما الطبخة

التي تدبرها... آه، كفى اقلتُ الطبخة التي تدبرها... فلا تُقابلني بهذه السحنة من العالم الآخر! هل أعلم أكانت بلانشيت عشيقتك أم لم تكن؟ ثم إني لا أسألك عن ذلك، إن نمطَ الرجل الغزل الذي هو نمطك مثير للغيط... أرحني منك! إذا كنتُ تُريد أن تعرف ماحدث، فلا تُثَقِّبْ في كلماتي: قلتُ الطبخة التي تدبرها... هزّ أوريليان كتفيه.

الحاصل أن السيدة أرادت أن تُنهي نفسها من أجل عينيك... ولاقيمة لغير ذلك!، وهذا ماهرٌ الصغيرة، هذا هو الأمر.. وبما أنهما قد تحدّثتا قتل... فإنها حشّنت رأسها بالافكار... أحسّست بإنها مسؤولة... اتهمت نفسها بأنها أسأت التصرف، ووعدت ابنة عمها، وهي على فراش الموت، بأنها لن تلقاك أبداً بعد ذلك، وغير ذلك من الهراء..

- مهلاً! لقد جاءت الى هنا أمس صباحاً!

- ماذا تريد أن أقول لك! لم يكن ذلك مقرباً... لقد أكدت أنها لن تحاول رؤيتك... وأن السيد موريل لسوء الحظ، قد وقع في ذلك كله ووقع كلب في لعبة الأوتاد... ولولا ذلك لسافرت... وباعدت المسافة ما بينك وبينها..

- المسافة! هناك طرق حديدية! كنت سأجري وراءها!

- آه لا، إنها ترجوك ألا تفعل شيئاً من هذا القبيل... وهذا أيضاً أقسمتُ أن أقوله لك.. وهانذا أقوله لكن...

- لكنها لم تسافر... وأمس جاءت الى هنا... وكنت إذ ذاك خارج البيت.. آه، ياربّي!

- أترك ربك في مكانه... لقد جاءت دون شك.. ربما لم تثق كثيراً بقدرتي على نقل رسالتها...

- لقد جاءت... ولم تجيء فقط، بل أنها حملت لي هذا! هذا! فهمت هذا! لا باقة بنفسيج تشتريها في طريقها، لا، هذا! قناع طلبتُ صنعه.. لا لزوجها ربما؟ كانت، في هذه الأيام، عند صانع القوالب... وتركت ابنة عمها التي كان

يمكنها ان تبتلع «الغبيرونال» أثناء هذا الوقت... أتظن أنها صنعتها من أجل زوجها الذي كان سيعود إلى باريس...؟ أتعرف الزوج؟ لا، وأنا أيضاً لا أعرفه، هو صيدلي، في الجنوب، أتظن أنه سيضع قناع زوجته المائمي في الصالون؟ كفى، كفى! نظر العم «بليز» الى هذا الأحقق بحنان، ليت الأمور تعود الى ماكانت عليه من غير أن يتألم كثيراً، هذا الصغير... لكن من المؤكد أنه ينظر الى الأمور باستياء، وهو، بليز لم يقبل الفصل بينهما إلا أنه يريد ألا يتجاوز ألم اوريليان الحدود، كان يفكر في أم هذا الشاب الجسور، كم كانت تعسة دون ان يظهر عليها ذلك! ، وهو أيضاً بليز العجوز، تباً له، بسببها... لقد قالت له ذات مساءً

«ياصاحبي، بليز، كزّ على أسنك... واستمع إلي... واخفظ ما سأقوله لك: إنني لا أحبك...» لكنها عندما قالت ذلك كانت صادقة، لم تكن تحبه كانت تحب الآخر، ذاك الذي يشبه اوريليان شبيهاً كبيراً، كان ذلك قبل «روز»، قبل «ميلي»... هو أيضاً قدّر له أن يتألم مرة أخرى.

صاح اوريليان فجأة:

- اهي تزعم أنها تحب زوجها؟

هزّ العجوز رأسه، لا، إنها تحبه حقاً، لم تشأ أن تحطم حياته، قلبه، وهل أدري؟ لكن أن نزعّم انطلاقاً من ذلك أنها تحبه لا، لا، تنفّس اوريليان بعمق:

- اذن، هي لاتحب أن تراني... وليس ذلك بسببه؟ وإنما بسبب

«بلانشيت»؟ شيء لا يُصدق!

- الحاصل، بسبب بلانشيت، وأيضاً بسبب زوجها وأكثر من ذلك كثيراً

بسببها نفسها...

قهقه اوريليان:

- آه! نعم...إنها تخاف مفاجأة! وهي تستبق الأمور... إنها لا تحبني...

ماذا الذي يجعلها واثقة هذه الثقة بأنها لاتحبني...

- قلتُ لك، أنا، إنها تحبك...
- نعم... كلا! لم تكذبُ هي؟ ثم إنني لا أصدقها! إنها تحبني، تحبني! لقد حملتُ إليّ هذا القناع... ورأيتُ في عيني القناع...
أخذ يبكي بهدوء
- وإذن فهي تمنعني، ياعم من أن أكتب إليها، وأن أتصل بها هاتفياً، وأن أذهب لرؤيتها؟ وهي تعلم أنني أحبها، وهي لا تريد حتى أن أكف عن حبي لها...
- هي لا تخاف شيئاً كما تخاف هذا... أن تكف عن حبها...
- وإذن، وإذن! ماذا تريد أن يحلّ بي؟ لكن بما أنها جاءت! عجباً، أنا أحمقٌ كبير... لقد قالت للسيدة، «دوفيني» إنها ستعود...
- حسناً، ربما هادت...
- ربّما؟ كيف تريد أن أتحمّل هذا التشكك؟
كان «بليز» ينظر بفضول وحنان الى اوريليان غير المنسجم، بصوته المرتفع فجأة، الى اوريليان الحاسبر الرأس، المختلف جداً عن اوريليان الذي يعرفه. ما أغرب الحب! وكرّر:
- يا صغيري، ليس لديّ نصيحة أنصحك بها... لكن اصنع إليّ جيداً...
النساء اللواتي نضاجعهن لسن بذوي خطر، الخطورة في اللواتي لا نضاجعهن...
نضاجعهن...

* * *

الانتظار رهيبٌ وعدم الانتظار أسوأ. لم يعد اوريليان يعلم إن كان عليه أن ينتظر بيرينيس أو أن ييأس منها. مستحيلٌ إن يعد مهمة العم بليز كأنها لم تكن، ومستحيلٌ ألا يفكر في أن في زيارة بيرينيس، والقناع تناقضان هذه المهمة بجدية. على كل حال، ما المصير؟ اختنق اوريليان. لم يعد يتحمل الوحدة، ولم يكن يستطيع أن يحلم برؤية الناس، غير المباليين... الذين يتحدثون عن أشياء أخرى... أناس هبطوا من القمر... أو على العكس... لاشيء أكثر تناقضاً مع اوريليان من أن ييوح بسرّه... هذا الدواء الأخير للحب البائس. ولن ييوح بسرّه لأصدقائه... وهل له أصدقاء؟ ولا يمكن اعتبار ادمون صديقاً، ولا سيما في هذه الظروف، ولا «شارل هونفري»، ولا جاك شلرز... وأحسّ بنفسه وحيداً جداً حتى إنه فكر لحظة في رئيسه القديم، المحامي «بيرجيت». بل قد خطر له أن يلاحق «فوشزن» ولا شيء لديه غير ذلك. هناك أيضاً النساء... «ديان» أو «ماري»... لم لا؟ الهاتف مغر أعظم إغراء. «ديان» ليست في بيتها. وهي الآن مع جاك... لم يتصل بماري. لم يكن واثقاً من تكتمها. وهي في الحقيقة تفضل عليه ادمون بوضوح...

لو كان الوقت ربيعاً لذهب الى الريف، أينما كان، ولشمى، وتسلق، وضاع. لكن الجو باردٌ ووسخٌ وأسود. فكيف يُقتل الوقت، وكيف يقضي هذه الأيام الآتية التي لا تُحتمل، والتي تأخرت في المجيء؟ المؤكد، أنه لم يعد يستطيع أن يتحمل هاتين الغرفتين، وكأبة منزله، والكتب التي لا تقرأ، والنار المبلدة، ورتابة الجو، والاستراحة اليومية للسيدة «دوفيني»، ولا سيما، وفوق كل شيء، القناع الأبيض الجنائزي، هذا التذكير المأتمى بالحب... ومع ذلك كان يخشى أن يخرج. فإذا ما حدث المستحيل...؟ ليكن، أي شيء، على أن يتخلص لأول مرة في حياته، شعر بحدة الشعور التي لانملكها إلا قبل الیقظة بقليل، في آخر مراحل النوم، شعر بفراغ حياته المطلق. ظلّ حتى الآن أنه يفعل شيئاً، أنه

يخدع الموت بدهاء وإن كان عاطلاً عن العمل في نظر الأغبياء، كما كان يفكر لكنه... كان يرى الناس، ويطيبُ له أن يستمع إليهم. أن يحكم على هذا العالم المخالف للصواب، وأن يختلط باضطراب سطحه، وأن يستشف مآسيه العميقة، وأن يُشارك في مسرّاته... وكانت له مغامرات شبيهة بالاكشافات... ومن وقت إلى آخر، وكان يُسافر ويستمد من رياح حرّيته نفساً، نشوة هذا الزمن اللاشعوري والثقيل الذي جاء بعد الحرب... تلك الحرب الأخرى الخفية السلم... كم كانت تبدو له اليوم هذه الهواية جوفاء، لاخير فيها! لم يكن يشتهي شيئاً حتى ولا الشمس ولا الدفء. فما الذي جرى؟ «كائن واحد يُعوزك وكل ماسواه قفر...» إن هذه الذكرى اللامارتيّنة، المرتبطة عنده بشارل هونفري عادت إليه كالغضب.. أوصَلَ إلى هذا الحدّ حقاً؟ يمكنه دائماً أن يدعو نفسه إلى تناول الغداء عند آل هونفري... وفكر في السيدة الشابة «هونفري»، في الحديث عن أسعار البورصة.. كان «شارل» يسأله لماذا لا يشتري أسهماً في «النسر المكيسكي» أو في أماكن أخرى لا أعرفها. الواقع أن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يحتمله كان الدكتور «ديكور»، بائس مثله، في الواقع «جيكي»، ثم فكرة تلك الانتحابة التي ستكون بينهما معاً، آه لا، لا ولا فكر في ديكور باشمنزان مفاجيء، بظلم عنيف، هذا الحب الرخو... أن يقبل بكل شيء، أن يتألم كان يتخبّط أمام هذا الماء الأسود ارتعش. أوصَلَ إلى هذا الحدّ حقاً؟

قررّ على حين غرة أن يرتدي ملابسه، وكأنه سوف يذهب إلى سهرة، وأقنع نفسه بأنه ينبغي أن يحلق ذقنه ويُطريّ وجنتيه. رأى عينيه في المرأة الثلاثية الأوجه، ما تلك السحنة التي هي من عالم آخر؟ شعيرات دقيقة حمراء في ملتحمة العين، والرموش البنفسجية، والصدغان المتصبيان عرقاً، فوضع شيئاً من البودرة، وهو مالم يكن يفعله قط.

عندما انتهى من زينته، نظر إلى نفسه! وهو في عدّة أبهته، أيضاً. هيّا، يجب أن أتصرف وكأن... وكأن ماذا؟ وتوصَلَ إلى تفادي ذكرى تلك المرأة (كان يفكر تلك المرأة)... مهما تكن قليلة المدّة التي لم ير فيها القناع. أنزل القناع

ليودعه الخزانة ظل برهة طويلة، والقناع بين يديه.

وضعه خلف أريطة العنق، بين المناديل... وبعد أن أغلق باب الخزانة، رفع عينيه نحو الجدار الفارغ. ألم يرتكب خيانة بهذه الفعلة؟ غير معقول. غير معقول. عليه أن يتجنب الالم، قبل كل شيء، أن يتجنب الالم.

تناول عشاءه في «مكسيم»، في القاعة الأولى، بينما كانت الاوركسترا تعزف في صدر المطعم، وكان الناس يرقصون. وحوله، كانت الطاولات مزخومة، ومن عليها يتكون جماعات. وفي المقصف نساء، ممن ألقن هذا المكان. لم جاء الى هذا المكان؟ لأنه كان يحب الستارة على الطراز القديم، المفخضة والمكشكشة، مع ما يبدو لها من بطانة، والزخرفة من الاسلوب الحديث بلازمته ورقة الكستناء. لأنه كان يشتهي الضجيج، والطابع الاصطلاحي في هذه الطنافس وتلك الأضواء، واحتفاء رؤساء الخدم. لأنه كان يشتهي ان يقول في نفسه. إنه ينتمي الى هذا المجتمع على الأقل، الى هذا الشيء الذي يعمل عبر الكوارث والانتصارات، الذي يلامس المسرح، و«نادي الفرسان» والشرطة والمال، والذي هو حياة باريس. كان بحاجة الى أن يحمله هذا النهر. ثم إن هناك نساء انيقات، غاليات، سينظرن إليه متسائلات إن كان سيدفع أو سيدفع عنه، نساء لا أهمية لهن، لونهن فاتح، واكتافهن براقعة، وأيديهن قد أحسن صيانتها... من يدري؟ لقد جاء مبكراً أكثر مما ينبغي. كان يتناول قهوته مع مشروب فاخر، عندما دخلت ديان مع «جاك شلزر» ورجلين دب الشيب إليهما، أنيقي اللباس.

- اوه، اورييلان!

مدت له «ديان» يدها ليقبلها.

صاح شلزر:

- لكن، مالك، أنتناول عشاءك كالدجاج! في المقهى، وفي مثل هذه

الساعة، انقل مشروبك الى طاولتنا...

اعتذر. فهناك من ينتظره، ولذلك تعشى في مثل هذا الوقت المبكر..

قالت ديان

– أه، لم يتغيرا وأراهن أن ثمة عيوناً جميلة

إن دخول هؤلاء الناس رمى به في الشارع وفجأة لم يستطع تحمل فكرة الانضمام الى هذه الجماعة وقد بدت له «ديان» الجميلة كاللهاة. أما «جاك» فلا حاجة الى الكلام عليه.

مضى الى السينما. سيما صغيرة من سينمات الجادات حيث كانت تنتظر الاوركسترا بالآتها الثلاث أن تعزف معزوفة بجلاجل لدخول المرك مرفأ شنعهاى.. قصة حب طبعأ. امرأة طويلة سمراء، عليها خمر لاتنفك تنزلق، وهي تصالب ساقيها في كل مناسبة، وشاب يدير عينيه... ثم انها ملهاة، مسرحية من تلك المسرحيات الهزلية المأساوية مثل تلك الشقق الصغيرة الكرتوية التي تجري فيها، العَمَات العجائز ذوات الإرث، والعشيقات في الخزانة... وغدت الاوركسترا أكثر مرحأ بحيث أخطأت العلامات لتمضي أسرع. ما العمل؟ لم تكن الساعة على الرصيف، قد بلغت العاشرة. تردد أوريليان. هل يعود؟ إنه يبدو أنيقأ بسترته الرسمية. فارتد الى السينما، في الجهة الأخرى من الجادات.

كانت السينما، هنا من نمط أفخم. ولم يكن ههنا كثير من الناس. أضاء مصباح المرشدة القادم. كان الظلام مخيمأ بحيث صدم الجالسين. لم يكن أوريليان يحب أن يكون مُسرف القرب من الناس. وقد أخذت القصة الامريكية التي بدأت على الشاشة بعض الوقت لتتضح في رأسه. تشابهت النسوة ولم يكن يُلح في التمييز بينهن. هذا الرجل الضخم زوج من؟ لم قتلت هذه الطفلة؟ لم تكن العناوين الفرعية الحمراء تشرح شيئاً ولا الموسيقى المسرفة القوة. وهي موسيقا عاطفية للغاية. تلاقى الشابان في حديقة المدينة، بين ناطحات السحاب. حديقة حسنة الترتيب، تناثر في أرجائها العاطلون عن العمل والعشاق، والحضباء والورود..

وصل قادم اضطرَّ أوريليان الى النهوض. امرأة تفوح عطرأ. جلست بجانبه. وفهم على الفور ما الأمر.

عندما خرج من السينما، وهو مستاءٌ جداً من نفسه، تملكه اليأسُ. وامتزج بذلك كله شعورٌ مبهم بالذنب. كل ذلك مفرط الغباء، عارٍ عن المعنى. كان يكره الحيوان في أعماقه. جال في حي مونمارتر، وهو شارد شروداً لا جدوى فيه، تدفعه البنات، وعلتُ نداءات الجرائد. لم يكن المطر يهطل، كان ذلك حسناً. واشتعلت المقاهي بالأضواء، لامجال للتردد. دخل هذا النور الكحولي، وجرعَ كؤوساً صغيرة على المشرب، فسكر كما لم يسكر من قبل، وما كان أكثر اشمئزازه من نفسه، ما كان أكثر اشمئزازه من نفسه!

* * *

بدا المعرض نهاراً، ودون جمهور الافتتاح، متغيراً كلياً لا يكاد يُصدّق أن يكون هذا المعرض هو معرض الافتتاح نفسه . نزع اوريليان قبعته وأحس، ورأسُ مظلته تحت إبطه ، وهو في معطفه المشدود، كما كانت تُصنع المعاطف حينئذٍ، أحس بعربته في هذا الصمت الذي كان يهمس فيه زوجان من المارة دخلاً مصادفةً، والذي كان يُسمع فيه صرير ريشة السيدة دات الشعر المسدل التي تحرس المخزن، اللوحات، الغريبة التي يبدو أن الناس تعودتها، إذ كانت تبدو لوحات كسائر اللوحات، كانت كثيرة العدد جداً بالنسبة الى المساحة الجدارية، ينقصها الفضاء، هذا كلّ ما في الأمر. في العرفة اليسرى المضاءة، كان النور الاصطناعي يحلّل الألوان، ويعطي بطيخة من الاسبيداج الورق المتروك أبيض من اللوحات المائية، هوامش الرسوم التي تحاول كسر العبقرية لفرط ماتحاكي فيها العرة والهوس والتصنّع.

هنا كان ما يبحث عنه اوريليان. اقترب من ذلك الرسم المشوش، من ذلك التبديل المزدوج للمامح الوجه الذي بدت تقاطيعه هذه المرة سميكة جداً، وخالية من الأناقة، اقترب وبه انقباض في القلب، وتكدر عميق. أكان الرسم يُشبهها كلّ هذا الشبه؟ لاحظ أن حذاءه المبلل يترك أثراً على البساط الرمادي، لقد جاء الى هذا المكان كما يجيء السارق. ما الذي كان يخشاه بالضبط؟ استدار وألقى نظرة خلفه، لا أحد كان يُغير اوريليان المرتبك انتباهه. وإذن فقد نظر، كان بإمكانه حينئذٍ أن ينظر، على هواه، الى بيرينيس التي ثبتها «رامورا» مرتين، ثبتها كما تُثبت فراشة بالدبوس. كانت مخيبة للآمال، ككلّ صورة... لم تكن فكرته هذه عن هذين الرسمين المتراكبين، بل وأيضاً عن ذلك القناع الحقيقي، في بيته، على الجدار. كان حقيقياً وزائفاً مثل صوتها هنا. والغريب ان «زامورا» بدا كمن ينتقد نفسه حين ترك هذين الرسمين يتواجدان معاً، وكلاهما

يوفي الآخر. إنه إقرارٌ بالعجز. لكنه عجزٌ لاتقع تبعته على الرسام وحده. بل وعلى بيرينيس التي تدقُّ عن الوصف...

حقد أوريليان على نفسه لانتباهه قدمدم. الرسم سيءٌ، قبل كل شيء، كان يتيه في تداخل الخطوط فيتلاشى التشابه. وفجأة، عاد التشبه من جديد، فكأن الصورة تننفس. ولأول مرة قرأ أوريليان في العينين المفتوحتين التعبير عن اليأس، كيف، ما هذا؟ أهو من اختراع «زامورا»، أهو الميل إلى إظهار الطابع المأساوي، أم هي الحقيقة؟ هل رأى هذا الرسام في عيني بيرينيس ما لم يره هو أوريليان؟ سمع ضحكاً في العرفة المجاورة. كانوا شباباً، طلاباً من الفنون الجميلة يلهون،

ابتعد عن بيرينيس، وتظاهر بأنه ينظر إلى شيء آخر. في الحقيقة إنه لم ير شيئاً في مساء الافتتاح. لا لأن ذلك كان يثير اهتمامه، من الجماهير.. اجتذبت مرة أخرى الصورة من بعيد، كالمغناطيس، لقد ضيَّع منذ هنيهة. إدراكه لتقاطيعها المتصالبة. فاقترب ليملاً عينيه بثنائية الوجه. هناك، عندما ينظر هكذا، يدرك من فوره ما يخص العينين المغمضتين، وما يخص.. كان السرُّ مُسرف البساطة، مثله مثل تلك الألعاب الصغيرة بحبات الفولاذ تحت الزجاج والتي يسغي أن توضع في ثقب على صورة، ويبدو ذلك صعباً جداً، ثم إذا تمرَّس اللاعب..

هتف وراءه صوتٌ صبيّ واضح. «انظر إلى هذه، من حيث الحول!» نظر أوريليان إلى هذا الشخص بربطة عنقه الرمادية ذات الخطوط الدقيقة الزرقاء، وعثنونه، عثنون طفل الجوقة، ومحفظته الخضراء تحت ذراعه، والغليون الذي لعله رسم به، بين الإبهام والسبابة، غير ممكن أن غراً مثل هذا يدخن الغليون! كانوا أربعة من طينة واحدة، وقد قال أحدهم وهو يشير إلى بيرينيس، بصوت أكثر تحديداً من ربطات أعناقهم، لأنه ما يزال يتغير قبل البلوغ. «يظن أنه يرسم مثل «انغر»، وهو سيءٌ مثل «لوك أوليفيه ميرسون»!

هز أوريليان كتفيه. كان بوده أن يجلد هؤلاء الصبية القذرين على قفاهم.

ضبط معطفه شاداً قبته، رافعاً مظلته الى مرفقه المطوي، وغادر الغرفة القاعة الكبرى. تردد قليلاً ثم دنا من المرأة ذات الشعر السابل التي ترتدي ثياباً على نمط «بورن جونز»، وليست سمراء ولا شقراء، لاشابة ولا عجوزاً، بأنفها الأفطس كعلامة مميزة وحيدة، وقد رفعت إليه من سجلها وجهاً أصفر قليلاً، وشفتين جدّ داكنتين. سألها أوريليان عفواً ياسيديتي... أودّ أن أعرف ثمن الرقم ٥٧.

ارتعش الأنف الأفطس، وانتصب، وابتسمت السيدة للزبون، كما تُحيا الموتى. ولعلها تذكرت أنها طالما أضاعت دبابيس شعرها، لأنها رفعت الى قذالها يداً باحثة. ثم نهضت نصفياً وقالت
- الرقم ٥٧... الرقم ٥٧... انتظر... يجب أن أسأل مدير المعرض...
السيد ماركو بولو! سيد ماركو بولو!

خرج السيد ماركو بولو من باب صغير مخفي تحت ستارة من نجر كاذب رُسم عليه مشهد صيدٍ مع تشجيرات. كان رجلاً ضخماً، مضمخاً بالطيب، وله ثنية تحت خصرته، ومفرق فيما بقي له من شعر، ووجه منذهل كَوْن فيه الشارب الحليق مايشبه الطائرة الصغيرة تحت الأنف. كان عادةً، يبيع الرسوم المحفورة من القرن الثامن عشر، وأنوات الرشم الملونة من النوع الانكليزي، والرسوم الحديثة من طراز النساء العاريات ومعهن أفاع. وقد أخرجه معرض زامورا عمّا اعتاده، لكن قلما كان النّاس يسألونه عن الأثمان!
- الرقم ٥٧... الرقم ٥٧... لعله «المبايض محلّ القلب»؟ الجميع يريدون أن يشتروا هذه اللوحة! لا؟ أه! ما أغباني! لا، لا، إنها «صورة السيدة م...»؟ نعم... صورة السيدة م... لا أدري إن كانت للبيع... هل السيد الذي سيمر ثانية...؟ سيدة «بيلي فونتين»!

انتفضت السيدة من كتابتها: فيم ترغب ياسيدي؟
- سيدة «بيلي فونتين»، هل السيد الذي سيمر ثانية من أجل صورة السيدة م... قد عاد؟

قالت السيدة «بيلي فونتين» بجفاف

- السيد؟ لا أدري ماذا تقصد.

وزمت شفيتها اللتين بلون العنب الأسود، تتهدّ ماركو بولو

- أترى، ياسيدي العزيز، لا أجد من يُعينني... ما أدراني الآن، إن كان

ذلك السيد قد جاء... وأناي لم أكن هنا... إنه لم يشتريها فعلاً... لا... لكن..

- لكن، ماثمن الصورة؟

- يجب أن أنظر في دفترتي.. أسمح؟

تردد كثيراً قبل أن يكشف في دفتره المذكور، وهو مفكرة طويلة سوداء.

الثنان المسجل رقماً وكتابة، والذي يساوي باللغة الواضحة... مهلاً، لم أخطئ...

وقدّر ماركو بولو معطف أوريليان، والمظلة والبطانة الحربية للقبعة التي في يده..

- خمسة آلاف فرنك بالضبط.. خمسة آلاف .. هذا هو الثمن!

كان الثمن باهظاً، بالنسبة الى زامورا والى أوريليان. ولقد فكر أن

اللوحة تساوي نحو ألف وخمسمئة. لا، الواقع أنه لم يفكر في شيء على

الإطلاق، ذلك مؤسف.. وأحس فجأة بالخجل. ماذا يفعل هنا؟ أيساوم على

بيرينيس؟ خجل وقال: أهذا آخر سعر؟

هتف السيد ماركو بولو أن هذا هو آخر سعر إن لم تكن اللوحة قد بيعت

من قبل، وإذا... ثم ماذا نُحصلُ بخمسة آلاف فرنك في أيامنا؟ ويتوقيع زامورا!

توقف فجأة، مجمداً. لقد أخرج الزبون دفتر شيكاته وقلم الحبر.

- أأكتب الشيك باسم ماركو بولو؟

- بالطبع، ستحمل اللوحة الى منزلك ياسيدي، فور إغلاق المعرض، في

مدى خمسة عشر يوماً، بل سبعة عشر...

- أسطر الشيك؟

- إذا شئت.. لا قيمة لذلك.. عنوانك، ياسيدي.. لم يصدق السيد ماركو

بولو مارأي، اضطرب، والشيك بين أصابعه، وعندما خرج الزبون صاح سيّده

بيلي فونتين! سيدة بيلي فونتين!
انتزعت السيدة بيلي فونتين نفسها من سجلها كما تنزع نفسها من
هجرة الصباح.
- سيدة بيلي فونتين، ضعي، على الفور بطاقة «مبيعة» على الرقم ٥٧..
على الفور.. الرقم ٥٧... «مبيعة... سيظهر ذلك بمظهر أكثر جدية»

* * *

كانت الرسالة تقول «أكتبُ إليك، لأنني لم أعد أستطيع تحمل هذا الصمت...»

وجد أوريليان هذه الرسالة في بريد المساء. رأى، للمرة الثانية، خطاً بيرينيس. مثل وجه جديد. كان غير منتظم، ويبدو كبيراً، متقيّداً بالسطر، مع فراغات بين الأسطر غير المستعملة من أجل علو الأحرف. لا شيء في هذا الخط من خطوط النساء المعتادة، الوحيدة الشكل، إذ انهن يحتفظن من المدرسة ومن الطفولة بضرب من الترف، من طابع التربية الأولى، من الفكرة التي نحملها عن خط المرأة اليوم. كان خطاً خالياً من التحسين خلواً غريباً، وفي داخله تيارات هوائية مثل خفقات قلب. هذا الخط المجهول كان يرقص في عيني أوريليان، وقد قرأه أولاً دون أن يفهمه لفرط تأثره. كان عليه أن ينظر الى مجمل الرسالة ويتأكد من أن بيرينيس بذاتها هي التي تتكلم هذا الكلام، بذلك الحبر الأزرق، المصطبغ بخضرة المياه. بيرينيس.. أيهما؟ بيرينيس المفتوحة العينين أم بيرينيس المغمضة العينين؟ بيرينيس دائماً.

«ظننتُ في البداية أن الامتناع عن رؤيتك كالنوم، فإذا نمنا جيداً كنا سعداء. لكن إذا بي أنام نوماً رديئاً أقرب الى السهاد. لا شيء يلهيني عنك، ولا شيء يملك أن يشغلني عنك، ولقد دخلتُ ذلك الصمت وهو يخنقني. وإذا لم أسمعك فكأنني لا أسمع شيئاً. لم أكن أحسبُ ذلك ممكناً. كنتُ قد أقسمت ألا ألقاك، لكن عندما تسلمتُ هذا القناع لم أستطع أن أفعل شيئاً سوى أن أحمله إليك بنفسي. فهو ينكسر ولم أجد من أعهد إليه به. وألف سبب... قلتُ في نفسي إنني سأحمله الي حاجب البناية. لكنه كان خارجاً ووجدت تلك اللاهثة الصغيرة التي تعلمها..»

صعدت فلم أجدك. قالت لي خادمك إنك خرجت قبل هنيهة. وهكذا وفيت بوعدي مع ذلك. ومنذئذ لم يعد إلي هدوئي. ولا ينبغي لي أن أكتب اليك. وأنا أقول في نفسي: إنني سأمزق هذه الرسالة وأنني لن أرسلها. وهذا مايمنحني

الشجاعة الحزينة في أن أبكي أمامك اوريليان، اوريليان، كل ذلك فوق طاقتي!
يصيبني أحياناً دوار لا يُحتمل. وذلك حين أفكر في المهمة التي عهدت بها
الى العم «بليز». كان ذلك في الفترة الأولى: كنتُ ما زال أملك جموح وعدي
المجنون واندفاعاته. إن بلانشيت بائسة الى حد مروع! وكنت مقتنعة بأنني لا
أحمل لك سوى الانجذاب الذي يكفي أن أقاومه. وانتابني أيضاً جنون
التضحية. واستطعت أن أقول بكل حسن النية للسيد «امبيريو» إنني لأحبك.
وقد صدق ذلك، أنا واثقة. ألم يعلمك؟ والآن أنا خائفة. خائفة من أن تكون
صدقته أيضاً. خائفة من أن تتألم بسبب ذلك، خائفة من أن أفقدك. أوه! لا، هذا
غير ممكن، يا حبيبي، يا حبيبي!

يريدني أن أكتب: «يا حبيبي، نعم، لقد كذبتُ، إنني أحبك. لن أُمزق هذه
الرسالة لأنني كتبتُ فيها: أنا أحبك، فإما أن احتفظ بها معي وأما أن أرسلها
إليك. أين الخير وأين الشر؟ يجب أن تعيش بلانشيت، فهناك الأولاد. يظن ابنُ
عمي أنها تغار منه، لكنها عندما أرادت أن تُعيد الكرة وحين استعادت قواها،
أحسستُ، بعد الحديث الذي جرى بيننا في تلك الليلة، بأنني قاتلةٌ، فنازعته،
وسيطرتُ عليها، وانتزعتُ أنبوب الحبوب السامة. كانت تقول: «دعيني أمتُ،
دعيني أمتُ! واغتصبْتُ منها وعداً بأنها لن تعود الى ذلك لكن أعطُتُ. وبدأ لي
ذلك، في لحظتها، طبيعياً وممكناً.

كنتُ جبانةً أمام موتها. كنتُ جبانةً أمام حياتنا. لعلك ستكرهني،
يا حبيبي. ولعلي فقدتك وأنتك تحتقرني، وأن هذا الكذب... والعودة عن الكذب،
كل ذلك من شأنه أن يحملك على الاشعثران مني، على الابتعاد عني. وأنا لا
أستطيع أيضاً أن أتحمّل هذه الفكرة. إن مايعنيه لي حبك، حبنا، وحتى ولو لم
ير أهدنا الآخر بعد الآن، وحتى لو لم تأخذ يدي في يدك بعد الآن، إن ذلك
لايستطيع أحد أن يتخيله. لم ألقَ ولن ألقى في حياتي شيئاً أتمسك به هذا
التمسك. عندما رأيتك أول مرة كنتُ يائسة كنتُ أظاهر بأنني أضحك وأنني

أهتمُّ بألف شيءٍ وشيءٍ، وأنني أحيا. صرت ميتة. كانت حياتي بلا هدفٍ بلا علةٍ لوجودها. ولم أعد أومنُ بشيءٍ. كان فيَّ همٌّ يُضنِّني، وهو اليقين بأنني وحيدةٌ الى الأبد. وكنت أتابع في حياتي اليومية الروتين، والالتزامات التي التزمها ليس غير. كنتُ أحيا لأنني قد ولدتُ. هذا كلُّ شيءٍ. وكل ما أملتُ وأنا صبيبةٌ وفَتاةٌ قد فسدتُ شيئاً شيناً، وفقدتُ ألوانه. ولم يكن ثمة أملٌ في أن تتغير الحياةُ ومن أين أنتظر ذلك التغير؟ وكان لابد لي من الإيمان بتلك التغيرات الطفيفة في مصير امرأة. ماسعادة النساء؟ أن يملكن فساتين جميلة، أن يدعُن العيشَ في الريف أو ماذا؟ لم أكن أومنُ بشيءٍ من ذلك كما لم أومنُ بغير ذلك. ظننتُ أنني أحب ثم لما اكتشفت أنني، أخذت على نفسي أن أظهار بالحب. أن أجعل الآخر سعيداً على الأقل، لأن سعادتي غير ممكنة، لأن الحب الذي حلمتُ به لا يوجد إلا في الكتب. ابتكار جميل. أنا عاجزة عنه.

إن جننتُ وأرسلت إليك هذه الرسالة فاعلم أن ذلك لأنني أثق أنك ستحرقها. ستلتفها، على الفور. وإذا كنت قادرة على أن أكتب إليك ذلك كله فذلك حقٌّ. ولم أجرؤ حتى الآن على التفكير فيه بوضوح، على الاعتراف به أمام نفسي. ولكن ليست بلانشيت وحدها هي المسؤولة، افهم ذلك، أوريليان، بلانشيت أيقظت فقط شعوراً كنتُ أنحيه. كنت قد فقدته لحظةً. وأنا إنما أقسمت بلانشيت، وهي التي انتزعت مني ذلك الالتزام الرهيب، لكنها، مع ذلك ليست هي المقصودة، ولحياتها، ولابتهاها. مع أنني عندما أفكر بالصغيرتين أتمزق. الأطفال جنوني الأقصى. هم لم يطلبوا أن يوجدوا ونحن...

(هنا فقرةٌ كاملة مشطوبة ومسودةٌ بعناية. ولم يستطع أوريليان أن يبين تلك الكلمات، التي ظهر منها هنا وهناك أحرفٌ شتى «خصل السر»).

أفضل ألا أتكلّم عن ذلك لكن هناك «لوسيان» وأنت لاتعرفه، ولا تعلم ماذا كان بالنسبة إليّ. الحرية أولاً، ثم نشوة الشباب، الوجود، وأن أكون إنسانة بذاتي. هو أول من كلّمني باعتباري كائناتاً بشرياً، وأول من أعطاني عن العالم

نظرةً مختلفة عن المنظور الذي كان لي من عند أبي. وكان أيضاً بيني وبين
لوسيان ذلك الظل، أبي، بؤس أبي. لا أعلم ما الذي حفظته من قصصي الطويلة
عن طفولتي وبيتي، وأمي الراحلة، من الصعب جداً أن يكون الإنسان منصفاً،
فمنذ أن أحببتك... كيف كتبتُ هذا! شيء غير عادي، كتبتُ «منذ أن أحببتك»
وكان ذلك الشيء الأكثر طبيعية في العالم، وكأني أقول منذ أن طلع لي سنُّ
العقل الأول... منذ أن أحببتك، اوريليان، أخذت أشك في بعض الأشياء، فطوال
شبابي، خطأت ذلك الأب العنيف، السكوت والبائس الذي نَقَصَ عليَّ حياتي.
تذكرتُ أنني قلتُ «انصرفي» لأمي، بكل ما لدى البنت الصغيرة المستعدة للحلم
من أوام. كنتُ أحبُّ الحب، وأصبوبُ الحبَّ على الجميع وعلى أبي قبل غيره.
ذلك الأب الممقوت.. لكنني لم أحب، لم أكن أعرف ما الألم. وفيما بعد، الآن،
تغيرت. فهمتُ. فذلك المزاج السوداوي لدى أبي الذي لم يتراجع عنه حتى موته،
تلك العاصفة فيه التي ثارت ولم تهدأ، كان ذلك هو الحب، الحب حقاً. لقد رحلت
أمي باسم الحب، لكن أكانت تحب؟ لستُ أدري. كنتُ أعلم أن أبي أحبها حباً لا
رجعة عنه. فهمتُ ذلك عندما لم أعد أراك، اوريليان، يا اوريليان العزيز.

أمن حقاً أن نفعل ذلك مع الآخرين؟ أمن حقاً أن أفعل ذلك معك؟ لكن
أتحبني ذلك الحب... من يستطيع أن يقول ذلك؟ لوسيان يحبني، يحبني على
طريقته. وهو لا يعلم، ولا يمكنه أن يعلم بم تختلف هذه الطريقة عن غيرها، عن
حبٍّ آخر، عن الحب، ولئن رحلتُ وتركته باسم الحب، فأنا أعلم أن لاشيء
سيمحو ذكري من حياته، وستنتهي حياته، أنا شبابه، أنا اللحظة التي قررتُ
كل شيء في حياته. ولقد تغير تغيراً هائلاً منذ ذلك الوقت. وعلى نحو مسرحي.
لا يمكنه أن يستعيد في حياته ما كان من قبل مرة ثانية. لقد استنفد معي دفعةً
واحدة قدرته على السعادة. فإذا مارحلتُ...، أنت لاتعرفه، يا اوريليان، ولا يمكنك
أن تفهمني. وإذن فأنا أفكر في ذلك الأب الذي كرهته بكل قواي الصبانية،
أفكر في ذلك الظلم الجاهل الذي كنتُ أكنه نحوه، ولستُ أريد أن يصبح

«لوسيان» ذات يوم مثله، وأن أسبب له بدوره ذلك الألم اليومي، ذلك الحزن الذي لا ينتهي. ثم إن أبي... لم يكن يحبني. كان يبدو كأنه لا يحبني. كنت عنده ذكرى مروعة لامراته التي سافرت مع آخر. لكن الحاصل أنني كنت عنده ليكرهني، وذلك أيضاً حبٌ وحياة لا أستطيع أن أفكر في لوسيان وحيداً، لوسيان المسكين... وليس لي ولدٌ أتركه له.

أأكون إذن أقوى عليك ممّا أنا عليه؟ اوريليان... أن ما يعطيني هذه الطاقة ضدنا أنا وأنت، هو أنني أجذك أقوى منه بكثير، وأجمل، وأحبّ إلى النفس. أنت تُحبّ، حتى لو لم تردّ ذلك الحبّ. ثم إنني أنا أحبك، وسوف تُحبّ. ولن تكون وحدك.

هذه الفكرة أسوأ من كل ماسواها. لن أرسل هذه الرسالة فنأنا أحبك حباً جمّاً. كان ينبغي لي أن أقول ذلك. ماكان بوسعي ان أتركك على تلك الكذبة... أحبك، احبك، اوريليان، سأحبك الى الأبد وداعاً يا حبيبي، وداعاً، ولاتحاول أن تراني. لن أنساك أبداً. سوف أفكر فيك طوال الوقت، وسط الناس، في الشوارع لن أحبّ غيرك. وداعاً. ربما كان في حبنا هذا العزاء وهو ان لا شيء سيحطّ منه. اوريليان، لأول مرة ولآخر مرة. أضمك بين ذراعي. إليّ، يا صغيري، يا صغيري، يا حبيبي!



ماذا كان ينتظر اوريليان من مثل هذه الخطوة؟ في الارتباك الذي ألقته فيه رسالة بيرينيس، وعد نفسه مرة مرة بأن يمتنع عن ذلك، وعاد عن قراره مرة مرة. كان لابد له من أن يستسلم في نهاية المطاف الى فقدان الصبر، الى الاحتياج، الى الحاجة الى لقاء بيرينيس. هاهو ذا إذن هنا، في شارع رينوار، على عتبة المنزل، أمام خادم بقفان قطني أبيض هو الذي فتح له. سأل اوريليان عن ادمون. السيد ادمون ليس هنا ولا السيدة ايضاً... والسيدة موريل؟ السيدة موريل خرجت مع السيدة، لكن إذا شاء السيد ليرتيلوا أن يرى السيد موريل.. لا، لا... كان على وشك الانسحاب عندما فُتح الباب الذي في الصدر على البهو وعندما ظهر رجل أقرب الى القصر، ضخماً، مضغوطاً في سترة رمادية فاتحة، جذاً بالنسبة الى الفصل، ومدّ يده اليسرى:

- سيد ليرتيلوا! هلا دخلت... أنا سعيد بمعرفتك.. طالما سمعتُ عنك...
أنا زوج السيدة موريل!

كان في هذا الدخول شيء مما يُضحك ومما هو ناشز في آنٍ واحد. ولم يعرف اوريليان كيف يتخلص من هذا المأزق. بدأ بأن غمغم «لا أود...» وخجل مما قال، وأحس أنه مثير للسخرية إزاء محدثه، فانصاع وتبعه الى الصالون. وبما أن موريل تنحى عند الباب ليتيح له أن يمر، شاهد اوريليان فقط جزيئة فيزيائية في هذه الشخصية التي لم يكد ينظر اليها: كان الكم الأيمن لسترة زوج بيرينيس رخواً وفارغاً.

- اجلس سيد ليرتيلوا، أرجوك...

- جئت لأرى ادمون أثناء مروري، لدقيقة واحدة... من أجل الأعمال...

- نعم. أعلم، لقد اطلّعت... ابن عمي ليس هنا... لكنني في الحقيقة

جد سعيد لهذه المصادفة التي...

لم يبق عليه إلا أن يجلس. وبينما كانا يتبادلان كلمات المجاملة، نظر

اوريليان الى لوسيان موريل يقلق في أعماق الدهشة. «طالما سمعتُ عنك»... هذا ما يقال دائماً لكنه تصوّر بضيق الأحاديث التي لعل اسمه ذُكر فيها بمحضر من الزوج. أين يبدأ الكذب وأين ينتهي؟...

يمكن أن يكون عمر لوسيان موريل ستة وعشرين عاماً. لكنه كان سيعطى بسهولة ثلاثين عاماً بهذه الجبهة التي تساقط شعرها، وهذا الشعر الكستنائي الداكن المتفرّق والمردود الى الخلف، وهذا الجسم القصير على ساقين، لولا الانطباع الذي يكاد يكون طفولياً من الوجه ذي الشفة السفلى المتقدمة، والعينين الضخمتين البارزتين، والأنف المعقوف، لم يكن بشعاً، لكن كان له مظهرٌ مفرط الطيبة. وكان جلده دهنيّاً جداً، لماعاً عند المنخرين والصدين، والحاجبان أسمران شديدا الكثافة. وكان خداه مايزالان يحتفظان بشيء من البودرة الناصعة البياض التي لعلها كانت همّ موريل. كان رجلاً بالغ النظافة. الثياب على كل حال. لكن أغرب ما في الأمر ان بيرينيس لم تفه بكلمة عن هذه الذراع المقطوعة...

- ابقى أنت بعض الوقت في باريس، ياسيدي العزيز؟

خاف اوريليان من أن تُشي به هذه الجملة المجاملة. ماتلك الفكرة السخيفة التي خطرت له وجاءت به الى شارع رينوار..

- سنسافر مباشرة بعد رأس السنة، وكانت بيرينيس تقول إنها حزينة

بالذات لأنها لم ترك...

- كنتُ مشغولاً جداً في هذه الأيام الأخيرة... لكنني حسبتُ..

- لاتعذّر! الأمر مفهومٌ جداً. بيرينيس تأسفت فقط... لأنك كنتَ لطيفاً

طوال إقامتها... وكانت بحاجة كبيرة الى أن تسرّي عن نفسها..

كان ذلك فوق طاقته. وفوق هذا، لم يستطع أن يُمنع نفسه من النظر الى

الكمّ الفارغ.. على العموم، لم يكن اوريليان يعرف كثيراً مايقوله للناس. وكان

لايمك إلا القليل من روح المحادثة. ماذا كان بوسعه أن يقول للوسيان موريل؟

اما لآخر فبدا مرتاحاً. أكان ذلك سذاجةً ام رياءً.. قال

- أنا سعيدٌ جداً لأننا سنصطحب معنا الصغيرتين... بيرينيس تعبد

الأطفال... قال اوريليان على سبيل المشاركة في الحديث:

- ستصطحبان الصغيرتين؟

- نعم، ادمون وبلانشيت سيذهبان الى رياضة الشتاء.. وسيعهدان إلينا حينئذٍ بالصغيرتين.. يسرّني ذلك من أجل بيرينيس... كانت تتمنى كثيراً أن يكون لها أولاد..

تنهّد ومرّب يديه على جبينه، ثم نظر الى ليرتيلوا نظرة تنم على تلك الطيبة العظمية، وهي نظرة مريكة جداً:

- وأنا أتساءل أحياناً إن لم يكن علينا أن نتبنّى طفلاً... بيرينيس هكذا، ليست سعيدة. لا، ليست سعيدة! (تنهّد أيضاً): وأنت تتساءل لم أقول لك هذا؟ وتقول في نفسك ماذا تريد، طالما حدثتُ عنك... أتصوّر أنني أعرفك قليلاً، ياسيد ليرتيلوا، بدقة... لكنني تحدثتُ عن شؤوني ولم أخبرك عن ابنة عمي! شفيت بلانشيت تماماً، تماماً.

- أه! قدّرتُ ذلك... بما أنها خرجت...

- اوها! إنها تخرج منذ بضعة أيام.. وهي في حالة حسنة، وإن كانت مشيتها لم تثبت جيداً بعد، وتوازنها لم يستقرّ تماماً.. لم يعد أحدٌ يتحدث عنها... وطبعاً إنها ماتزال حزينة، ماتزال حزينة... وسينفعها الجبل والهواء النقي والثلج.. أقول لها إنك جئت تسأل عن أخبارها؟ لكن... بالطبع...

- سأقول لها... بل ستقول لها بيرينيس ذلك... إنها ماتزال جدّ انفعالية! النساء أقدر.. ستكون بيرينيس مسرورة من مجيئك... أتعلم أن بيرينيس لاتعرف نفسها.. وكنتُ أظن أنها لاتحبّ بلانشيت كثيراً.. ثم إنها في هذه الظروف..

إن التكتّم الفظيع الذي حمله هذا الرجل الى احاديثه كان ينمّ على سوء الفهم، كل ماكان يعلمه موريل عن اوريليان يتعلّق ببلانشيت، وأصابته ازدواجية بيرينيس بشدة اوريليان في قلبه وكأنها النور، لقد تصوّر هذه المرأة الشابة في

حياتها اليومية، في ذلك المنزل المفرط الفخامة، مع هذا الزوج الذي حلّ باريس في أسوأ لحظة، وجنون بلانشيت، وسخرية ادمون، ولعبة الإخفاء المخيفة في كل لحظة. قال بشيء من الصعوبة.

- آسف أنني لم أجد ادمون في المنزل... يتعذّر الإمساك به في هذه الأوقات...

- أجل، أجل، يتعذّر الإمساك به! فلم اكد أراه بالرغم من كلّ شيء. لكنه حدثني عن مستحضرات «ملروز».. وأعلم أنك داخل في القضية أيضاً..
- يعني..

- أي إن رابطاً آخر سيقوم بيننا ياسيدي العزيز، لأنني أعلمك بأنني قبلتُ نعم، قبلتُ!

رفع سبابته بحركة مضحكة، وأضاف

- ها نحن أولاء على مركب واحد، ياسيد ليرتيلوا! ستكون الصفقة ممتازة... ثم مع ابن عمي! كنت في الجبهة معه، على ما أعتقد؟
كان لابد له من أن يقول: نعم، فاندفع الصيدلي^(١) في ذمّ الحرب، في صينغ سمعها اورييليان في مكان ما. قاطعه بأدب قائلاً: تلك أشياء يستطيع مَنْ كان مثلك أن يقولها..

توقّف موريل وقد ارتجّع عليه ثم نظر الى كمّه وهتفَ بمرح
- مَنْ كان مثلي؟ اوه! أنت تعلم أن هذا جرحٌ في الحرب، إن شئنا وفي الواقع كان ذلك من جراء حادثة... ألم تخبرك بيرينيس؟ حسناً، ذلك من جراء قنبلة في باريس، بينما كنتُ أمراً هكذا لأشتري الصحف من كشك، أمام محطة الشرق.. قطعتُ يدي مع ذلك.. وإن كان ذلك لا يدعو الى كثير من الافتخار!..
ثم زاد اهتماماً بذلك على حين غرة:

- قلّ لي.. ألم تقل لك بيرينيس شيئاً عن ذراعي؟ لا؟ كنتُ سأراهن على ذلك! ظريفة امرأتي! إنها لاتخبر الناس بذلك، وعندما يروني بعد ذلك، حينئذٍ تُقرأ في وجوههم دهشتهم!

(١) صيدلاني وصيدلي، كلاهما صحيح، المترجم.

نظر إليه اوريليان بدهشة مرتعبة. دهش هو نفسه من هول ما شعر به
إزاء الصيدلي. هناك المئات من هؤلاء الرجال مثله، وهم لا يلاحظون، ولهم المرأة
والولد، ونحن نجلس بجانبهم في الباصات... لكن العلاقة بينه وبين بيرينيس، ذلك
ماكان يُلقي على هذا الحيوان الشاب، الضيق النفس، بجلده اللامع، وأسنانه
غير النظيفة تماماً، ونَفَسه، ودهنه، حضوراً فظيماً بالنسبة الى اوريليان. إن له
رجلين وبطناً وفضلات، إنه يأكل، وهو يشعر بالحر، ولا بد أنه يضحك بسهولة. ثم
إن عيني ليرتيلوا توقفتا أيضاً دون أن يُنم فكرة اشمان من أن تخطر له. ألحَّ
الأخر:

- ستأسف بيرينيس.. وكذلك ابنا عمي، دون شك، لكن بيرينيس كانت
ستتمنى كثيراً.. وإذا مررت بمدينةنتا فلا يفوتك.. ليس المنزل كبيراً لكنه يسع
الصديق.. بلى. بلى.. اعتبر نفسك مدعواً... في الدرج، أخلد اوريليان الى
ضحكة عصبية.



«نحن نعمل عشرة أعمدة أو أحد عشر عموداً في اليوم.. بهذا عملٌ غير عادي.. ويُقال إننا لا نعمل في كل مرة لأبد من نقل المعدات... والمرفعة... وكل شيء.. طبعاً هناك فريق يجيء وراءنا لصبّ الإسمنت.. لكن هكذا! عملتُ «سانت ايتين» و«غرينوبل»..»

رَفَعَ النُدُلُ صُحُونِ الحساء، كان النورُ الذهبي يسقط على الطاولات حيث وجد الناسُ تلك الراحة التي يمنحها المقبَلُ والخمر البوجولي الافتتاحي، ورؤية قائمة الطعام. كانت المائدة تشغل صدر المطعم الذي كان كالمصطبة على باريس، والسطوح والليل، لكن لم يكن يُرى شيء خلف الستائر الخضراء ذات الحواشي. كان القسم العام مع الرُّبُنِ الاعتياديين والصندوق، والطاولات الصغيرة نصف فارغة، لكن كان يأتي منها صوتُ الأوامر، والصحون التي تمرُّ بها لتصل إلى مدعوي صحيفة «الكوخ». كان في الصدر بيان وطبقية. كم كان عددهم؟ خمسة وعشرين، ثلاثين؟ نهض «فوشن» الذي غدا قرمزيّاً في عارضيه الأصهبين، وقبته التي لامست ذقنه، وقال لجاره، متعهد الأشغال العامة، وهو رجل ضخم في وجنته دُمْلٌ لحمي، وله حاجبان أسودان كثَّان: التهمُ طعامك، «شابلان»، ستتثرثر فيما بعد.. يانادل، عجلُ «بالجورانسون»، الجورانسون! مع صوتٍ قوي من أصوات وصحون البورسيلين.

قال الأسمرُ القوي الطويل في طرف المائدة الطويلة بشعره اليابس الذي لا يثبت، والمفروق: «لم أكن أعرف هذه الخُمارة» وأدار نحو رفيقه الذي على يساره عينيهِ اللامعتين، غير المتماثلتين، ووجنتيه الملتهبتين، وشاربه الصغير. قال الآخر بصوتٍ وديع يتنافر مع تقاطيع هذا المصارع الأشقر، وهو يحني شعره المجعد، وعينيهِ البارزتين، ويلامس الشعر الذهبي الذي يشكل ما يُشبه المروحة فوق شفته: «اعذرني.. لم أسمع اسمك جيداً.. أنا لم أعرفك في الفوج...

قال الآخر:

- دوبيوي، ستيفان دوبيوي، لم أكن في فوجك... كنتُ في مدفعية الفرقة، لكن أعرف «فوشنز» في الحياة المدنية..

ردّ شعره الذي تهدّل على صدغيه بحركة مألوفة، رافعاً أحد حاجبيه قدره الآخر مدفعيّ صلب، رجلٌ مقاتل، بشفتيه المضمومتين على أسنان بيضا. وهذه الضحكة الصغيرة التي ترافقها حركة الكتفين، فأجاب وأنا أيضاً أُلحق بالإدارة إلا بعد مصادفة سعيدة، كنت خيلاً وضعت في السادس عشرة... مارسولو، الملازم مارسولو.. الكتيبة الثانية.. أولاً في فصيل «ميلو» رأيت هناك؟ الذي يرئس..

، النقيب «ميلو».. ثم ضابط استخبارات المقدم «بييرغيز»، أه! كما مختلفاً لأن «ميلو»، بيننا.. من المؤسف أن المقدم لم يستطع المجيء، هذا المساء... خلقت الأحاديث جلبةً فظيعةً، كانوا يضحكون بقوة، ويتنادون. وكان الكؤوس أمام المدعوين، خمسة لكل شخص- ترنّ، كان بعضهم يومئذ إلى بعض من طرف المائدة إلى طرفها الآخر. وكانوا يتبادلون الأنخاب الفردية، دو نظام تقريباً.

كاد يخنق بجانب «شابلان» رجلٌ طويل، هزيل، يُشوّر يديه، وفوطته فـ قبته، وشاربه مهذّل، طبطوا له على ظهره. وسقوه ماءً، لاحظ مارسولو الذي اكتشفه

- عجباً، بلانشار هنا؟ فكرة طريفة..

سأله دوبيوي.

- من هذا

- اوه! ضابط! لاقيمة له...

مسدّ شاربه وتكلم عن شيء آخر.

استأنف دوبيوي:

- لا، لم أكن أعرف هذه الخمارة، هكذا، على الدرج، في قلب «الساكر

كور». هذا العاهر «فوشنز» يدسّ أنفه في كل مكان

نخر مارسولو:

- هكذا كان في الجيش، ويبدو أن جريدته الرديئة تسير بسهولة... ومع ذلك فنحن فخورون بأن يكون قد ولد بيننا!

- اوها أنت تعلم أنه رجل أعمال. لانعلم حقاً كيف تُباع هذه الصحيفة، لكنها تُباع... كثير من المشتركين في المستعمرات... بين الإداريين الذين يموتون من الضجر... فكيف تسلط عليهم، لا أدري، لا أهمية لذلك، أليس صحيحاً؟ المهم انها تُباع!

صاح من فوق الطاولة «كوسي دي بالانت» الشخص الضخم الذي يبدو كبائع الخمر.

- أتظن ذلك؟ فلماذا لا يدفع فوشنز إذن أجرة الرسّامين؟ إن لي في ذمته آلافاً!

في الطرف الآخر من المائدة، أراد «ليموتار» شرطي الأخلاقية، الذي ثمل قليلاً، أن يطلع بأغنية مهما كلف الأمر، وبما أنه كان يميل الى الحزن واستعادة الماضي عند الشرب فقد بدأ أغنية على لحن: «تحت جسور باريس». على جسر مينوكور..

فأسكتوه، دعاه الى حفظ النظام، رجلٌ قصيرٌ، ماكرٌ، أسمر اللون، أصلع على نحو غريب، متورد، بلهجة الجنوب المغرقة، تتم ليموتار: «سيدي النقيب...» وعاد الى الجلوس.

سأل الدكتور أوريليان: مَنْ هذا؟ كان زوجٌ «روز ملروز». هنا، مصادفة، بصفته معاوناً في «الصحيفة. لقد أخذ منه «فوشنز» أوراقاً عن طرائف التاريخ الطبية على نمط الدكتور كابانيس، لأن هذا يسمح بجميع أنواع القذارات، لمشتركه في «الغابون»، و«مدغسقر»..

نظر أوريليان الى الذي دُعي نقيباً وابتسم. كيف يشرح للدكتور عن بومبار؟ كان الوحيد بين جميع هؤلاء الناس الذي يسوءه مرأه. ماكان يريد ان يأتي، وحرار في أمره، لكن «فوشنز» أصرّ، وياله من ملصاح! ولولا أنه حلف بالإيمان المغلظة أن ادمون وعد بالحضور... ثم لم يبد أثرٌ لأدمون. وأكد فوشنز

أنه سيأتي، على الأقل إلى المقهى! أحسّ أوريليان، مع ما هو فيه من بلبلة، ومع انسياقه بتيار هذه الأيام الأخيرة. أحسّ بلا معقولية هذه الوليمة التي تجمعها مع رفاق كتيبته القدامى، وبعض رفاق «فوشيز». والعجيب أن فوشيز قضى حياته في تنظيم أشياء من هذا النوع! هل له حياته الخاصة؟ لابد أنه يقبض نسبة مئوية من أصحاب المطعم. وهناك أيضاً الإعلانات في الصحيفة... تعلق أوريليان بالدكتور لأنه وجد لديه شيئاً من الغريق، من التائه في البحر. هناك قرابة بينهما، كلاهما يستطيع أن يتكلم عن أي شيء وهو يعلم أن الآخر يخبئ في نفسه شيئاً لن يتطرق إليه بكلمة.

قال أوريليان:

- النقيب «بومبار»... هو عندي دائماً وقبل كل شيء: الملازم الأول «بومبار». وهو لم يُعط رتبة نقيب إلا في النهاية، في ١٨، وكنت حينئذ في الشرق. وهو احتياطي، دون شك. وذلك يعني أنه قد تأخر الآن عن رفاقه. وكم يُحنق! إنني أتخيله سكران أبداً مثل أتان، في قبو ما لعله كان قصراً، في «السواسونيه». لم يبق القصر، وبقي القبو... واحتل الألمان القصر، لكنهم لم يجدوا الملازم «بومبار»... وعندما عدنا في الهجوم المضاد، في الصباح الباكر، رأيناه يخرج من الأرض ومعه رشيش وقد أتى على كل شيء قبل وصولنا. ثم سقط هامداً. ظننته جريحاً فأنسلتُ إليه. وانحنيتُ عليه: أيها الملازم! أيها الملازم! كان يشخر بعمق وهدوء...

نظر إلى الساعة في معصمه! لا لن يأتي ادمون. كان يمكن أن يسأل الدكتور، لكنه خاف أن يكون غير متحفظ، وأن يخطئ. ماذا كان يعرف الدكتور عن زوجته بالضبط. إن كان يعلم فهو رجل غريب.

- هل السيدة «ملروز» تمثل الآن دكتور ؟

- لا.. لكن ماذا قالت لي.. ليرتيلوا؟ هل أصبحت شريكاً مساهماً معنا؟ من المؤكد أن الجميع اعتبروا هذه القضية منتهية.

لم يقل أوريليان لا، لأنه فكر في لوسيان موريل، بكمه الفارغ، فساق

الحديث الى ذلك الرجل قبلتهما، والذي ذكرته ككتفاه المحدوبتان، وذراعه التي كذراع القرد. ويدها المشعرتان، بزمان آخر: «انظرُ إليه، «بومبار»، ياعزيزي، بفضولته الفارقة في صدرته، وعينيه الصغيرتين المتفحّضتين، وهذا المظهر الساذج... يبدو كمّن لايعلم.. لا أدري ما الذي لايعلمه.. لكنه يبدو كمّن لايعلم.. ثم أنه يعلم جيداً، إنه خبيث!

- وماذا يفعل في الحياة المدنية؟

- اوه اليوم! كان يقول إنه مارس جميع الحرف... اقتراه بفضولته، وصدرته؟ نعم... صدره مقلّمة بالأسود والأصفر.. لم يخلعها طوال الحرب من تحت سترته... وقد لبسها اليوم من أجلنا... ولعله يزعم أنه يلبسها في كل يوم.. كما يقول: «الصدره التي كنتُ ألبسها عندما كنتُ قرّاشاً في «نيس»... فهل كان قرّاشاً؟ ذلك غير أكيد، كان ذلك يُسخط الناس، ويضايق الضباط في مطعمهم. كانوا يتحمّلونه لأنه كان ذا شجاعة مُخيفة. كان يفخر بالعكس. قبل الحرب، كان يبيع الزيت، وليته كان زيتاً جيداً، كما يقول، لكنه كان زيتاً رديئاً.. كان يسكن مرسيليا... كان الناسُ يحبّونه، وكان مع ذلك خبيثاً كريهاً... كان يُمشّي خادمه بركله في قفاه. وبعد ذلك كانا يسكران معاً..

الكلامُ على ذلك كله كان يغمر أفكار اورييليان برائحة المقلي، وكان خائفاً من أفكاره، كان يهرب من بيرينيس، يهرب من كلّ ما سهّده طوال الليلة الماضية. كان يخنق زفرائه التي لم يكن مسيطراً عليها والتي أحسّ أنها تتصاعد في كل لحظة يترك نفسه فيها على سجيّتها.

صاح به من الجهة المقابلة فتى طويل، مشيق، سوقيّ تبني الشعر، متعجرف، ذو عينين غير واضحتين، وذقن مفرطة الضخامة أفسدت كلّ شيء: في صحتك، سيّدي الملازم.

رفع اورييليان كأس «الجورانسون» الأبيض. في صحتك. أيها العريف!

سأله الدكتور: مَنْ هذا؟

- «بيكمي»... من ضباط الحنف النادرين هنا، هذا المساء، مع

«ليموتار»، و«بلانشار»، و«فوشن» ذاته... باريصي... شاطرٌ قبل كل شيء... كان يحسن اختيار الملجأ.. لكنه ذو صوت جميل.. وكان يُدعى الى الدعوات العامة... وأنا أراهن انه سيفنّي الآن «ملك اس»

تشارك في الحديث جَارُ اوريليان على يساره: «أو «سيريناد لمانون»، ليرتيله، إحداهما على كل حال! يحق له أن يعترف بفضل هذه الأغاني، وهو مدين لها بدينٍ عظيم. كانوا يتنازعونه من مكتب الى مكتب.. وكان من المستحيل ان يلحق بفصيلةٍ من الفصائل..

نظر الدكتور من فوق اوريليان الى ذاك الذي كان يتكلم عينا هراً، وفكُّ حمارٍ، في ريعان الشباب، لكن مع ذلك الدهن البشع، دهن الشباب القاعد، الذي لم يُخلق لهذا، والشعر المحلوق، تذكرُ الدكتور أنه لاحظ مشيخته، عادة مهنية متأصلة لعلها ساق خشبية، قدّم، اوريليان كلاً منهما الى الآخر الدكتور ديكور. هوسون شاراس. كان الدكتور يعرف أقرباءه، في مصرف هوسون، وكان ذلك مدعاة لمحادثة بينهما استطاع اوريليان ان يتجرّد منها. قدّم المستوي. وظهر النوع الثالث من النبيذ وسط الصرخات. فلا بدّ من القول ان هذا الشيطان «فوتنز» يعرف كيف تكون الولائم الفاخرة خبيرٌ بها! سادتي،

سكّت الناسُ بعضهم بعضاً، صه، صه .. كان الذي له صدارةُ المائدة يرفع صوته، ويحرك يديه صه، يريد النقيبُ أن يقول شيئاً. سادتي...

سعل قليلاً، مع مزيج من السذاجة والتعاضم. كان النقيب «ميلو» يوصف بأنه رجلٌ وسيم، في تولوز، حيث كان مصوراً قبل الحرب. كان جميل القامة لكنه ترهّل قليلاً، وفقد شعره الآن تحت الخصلة السوداء المردودة الى الأمام. لم تعد له تلك الأناقة التي كان يُتيحه له راتنه العسكري وبرزته العسكرية! وكم أنفق على «الغاردين»، وعلى القماش الانكليزي المضلّع! مرّ بحركة مألوفة اصبعه بين أنفه وتشاربه كفرشاة الأسنان يشطب شفته، لقد غدا رخوا، دون جوان

ألف وتسعمئة وخمس عشرة، وشديد الشحوب. قال:

سأدتني!

لن أشرب نخب الفوج، بل نخب الكتيبة الثانية التي كان لي شرف إمرتها بالوكالة، ربما، لكنها إمرة، على كل حال! نحن جميعاً هنا أناس مررنا تقريباً بتلك الكتيبة التي كانت تُدعى «الكتيبة» دون زيادة، كتيبة الأشداء، حين يوجد الأشداء، ونحن نأسف لأن المقدم «بييرغيز» لم يتمكن من الانضمام إلينا هذا المساء.. لكن الحق يقال، أني لا أسف على ذلك لأن ذلك يتيح لي أن أحدثكم وأن أقول لكم..

هذه الخطبة المغرورة تمددت في العجينة الرخوة لهذا الوجه الذي قد أعجب النساء. كان فيها ورودٌ للجميع، وذكرى الموتى، والغائبين، والثناء على فوشن منظم المآذب، وخطط فرنسا بذلك، في جملة بارعة حول الوعود التي قُطعت للمقاتلين والتي لم يُوفَ بها. هنَّ الحاضرون أكتافهم، وقال الواحد للآخر: «أه! من هذه الناحية.. الحقُّ معه...

كان جورج هوسون شاراس غير مرتاح بساقه اليسرى تحت الطاولة، فتحرك ليحمي هذه الساق الاصطناعية من جاره.

تنهَّد «بيكمبي»: «أه، مصيبة! وهمس «مارسولو» من خلف يديه السمينتين، وأصابه الفتولة التي كان يباعد بينهما ليظهر تميّزه، وهو ينحني على «ستايغان دوبيوي»، هانئاً، وصافراً بين أسنانه البيضاء:

«هذا النقيب المسكين! انظر إليه... هذا التافه... إن أمثاله حظهم الوحيد هو الحرب.. الحرب طوّلت شبابه... لو رأيت مع البنات مسخرة! ثم انه يظن نفسه امراً لا يُقاوم.. وهكذا وقعت بيني وبينه متاعب.. ولولا المقدم «بييرغيز» الذي لم يكن يُطيقه..

أنهت الأيدي السمينة هذه القصة، واسترسل «مارسولو» في ذكرى السمان الصغير الذي أثاره للنقيب في الأكراس، ما اسمه ياترى؟

سأل «ستيفن دوبيوي» الذي تتأب من جراء هذه الخطبة التي لاتنتهي: «ن

أما يزال مصوراً في «تولوز»، أجاب «مارسولو» كما يجيب طالب الصف.
«كلا... فهو قد ذاق طعم الحياة الفخمة... أتظنه يقنع بتولوز لا بد له من
العاصمة... هذا الى أن امرأته هجرته! من حظه! واستقر في باريس، لا في
باريس بالذات، في «فوجيرار»... وواتته الفرصة. حانوت جاهزاً وهو يصور
الأطفال في منازلهم الأولى والأعراس، وأصحاب الحوانيت. ثم إن قلبه لم يعد
متيناً. خمس سنوات في مطعم الضباط. تصوراً لا بد له من تناول العقاقير
والمقويات وأشياء أخرى.. انظر إليه: إنه منتفخ، متورم العينين... أهل
«فوجيرار» وحدهم، في المقهى، يدعونه نقيباً... ليتك رأيت في «الसार» وهو
يقود الكتيبة! كان مفعماً بالكبرياء...

ارتفعت الضوضاء مرحبة بخطبة النقيب. أراد ليموتار، وقد لعبت الخمر
برأسه، أن يتكلم بدوره. أجلسه «بومبار» بقوله: «أخرس، يبييه»، وأثار بذلك
ضحكاً صاخباً عاماً. وأخذ متعهد الأشغال العامة يمسح عينيه من الضحك.
همس «بومبار» الى «هورو»: لماذا لم يحضر المقدم؟ كانت الخطبة ستكون
أنجح. تحرك الرأس الأصغر للملازم «هورو» ودارت عيناه خلف زجاجهما،
وقال صافراً: «لم نعد صالحين لتناول العشاء مع السيد «بييرغيز».

قال «هوسون شاراس»: الجوّ جدّ ساخن هنا، كأننا لسنا في عيد
القديس سلفستر. هل سيأرتك بالباب؟ لا؟ كنت أمل أن توصلني بسبب ساقى..
لابأس. سيذهب «فوشز» ليحضر سيارة أجرة..

نظر أوريليان الى نهاية المائدة: «هذا، «ستيفان دوبوي» كان في المدفعية،
على نحو ما، ويشارك في الصحيفة. وهو متشكك يحمل أفكاراً اجتماعية، وهو
عدو لدود للنساء، ولم يتزوج عشيقته التي تخطط بلوزات، وهو يلومها على أنها لم
تُرجع إليه المال الذي اقترضته. أبوه رئيس محكمة، وهو يسكن غرفة عزب لدى
أهله، في الطابق الأرضي.. وهو أصم في إحدى أذنيه: النار، فهمت..

قال هوسون شاراس: أثار معي شغباً، قبل الجلوس الى المائدة، حول

الاشتراكية، وروسيا، وأشياء أخرى. وهو يرى أن المخازن الكبرى لم تعد لازمة، وأن اللافتات المضيئة تؤذي عينيه! هو مصابٌ بعقله قليلاً، ألا تعتقد؟

انبرى الدكتور إلى محادثة أوريليان في الوقت نفسه. كان، في الظاهر، منصرفاً كلَّ الانصراف إلى مستحضرات «ملروز» وتظاهر بأنه يُعامل «ليرتيلوا» على أنه شريكٌ مساهم. هل أطلعه بارينتان على مشروع العطور بالوزن؟ ومع السيدة «دي بيرسيفال» ستسمى الدار «ماري روز»، بسبب ماري و«روز»، فهمت.. سيكون لروز مسرحها. لم تحظَ «روز» بالمكان اللائق بنبوغها، بعبريتها.

وعندما يُصبح لها مسرحها مثل «ريجان»، و«ساره» العظيمة... قُدِّمت السلطة.

سأل أوريليان «هوسون شاراس»: وأمرأتك، هي في حال حسنة؟ كان «هوسون شاراس» قد تزوج ابنة عمه. وماذا بوسعها أن يفعل غير ذلك الآن؟ كانت تبدو له كالممرضة لكنه لم يكن يستطيع أن يطرد المرأة بذلك المرح غير المبالي الذي عُرِفَ به، كما كان يفعل قديماً في «بلو» وفي المأوى العسكري. وكلبُ الصيد ذاك الذي عثر عليه كوصيف له! تذكر أوريليان الجنديَّ ميرور، الفلاح، الذي لا نظير له لتهيئة سرير الملائم. كان يصغي إلى الجمل الميتة والحزينة التي يقولها جاره على المائدة، وكان يتكلم عن امرأته، وبيته وعن العمل الذي حصل عليه في مصرف «هوسون». عيَّن في العمل هو وساقه. لابد أنه يكره امرأته. وقد سمن. كان يريد، قديماً، أن يكون محامياً. درس سنة حقوق قبل الخدمة.. ثم جاءت الحرب.. كان يحرك ساقه الاصطناعية، طوال الوقت تحت الطاولة، ولم يُفلح في أن يجلس جلسة مريحة. وكان ذلك يذكر أوريليان بلوسيان موريل. وسأل لكن متى أصبت بجرحك؟ بـ.. الحاصل..

قال الآخر: ساقِي؟ هذا هو نصيبي! في نهاية الحرب بالذات، تصوّر في تشرين ١٨، وعلى طريق «مويج»، بينما كنا نُسرّع في الانسحاب من الـ «ماليزون». أن أكون قد قضيت ثلاث سنوات في الجبهة، وكيف! دون أن..

حتى.. واعلم أنني لم أكن من أولئك الحمقى الذي يلقون بأنفسهم في ورطة..
يجب أن أقول الواقع، كنتُ خائفاً، واثقاً من أنني سأقتل، كنتُ أعدُّ يديَّ
ورجلي... فإذا اشتدَّ القتالُ تصبَّبتُ عرقاً. وكان يدور بخُلدي دائماً أن هذا
سيقع... كنتُ إذا اجتزتُ السترة الأمامية، مشيتُ الحالُ، لكن الصعوبة كانت
دائماً في تسلُّقها. لا أدري، أنتم تبدون وكأنكم لا... أما أنا، يا إلهي! عندما
أحسستُ أنني أصبتُ عدتُ إلى التحقق من أطرافي. الرأس واليدين والساقين..
كانت ساقاي مائزاً الآن موجودتين، لكن أحدهما كنتُ أحسُّ فيها سكيناً ذلك
غريباً- بالبرد..

لم يستطيعوا صبراً، لم يستطيعوا انتظار الحلوى وقف «بيكمبي» وعلى
شفتيه وذقنه آثار الزيت، ولونه التبنِّي أظهر من ذي قبل، ويده على قلبه، وأخذ
يغني بناءً على الطلب العام.

«ان لم تصل «روزين» على الفور

فوا أسفي وأسفي! سوف أموت..»

قال هوسون شاراس: الحقُّ معك! لكننا سنسمع بعد قليل السيريناد،

ستري...

قال أوريليان: لا، ماعلينا ألا أن ندفع «بالانت»، فلن يتوقف «بيكمبي»؟

- كوسي دي بالانت.. الرسام.. الضخمُ هناك... اوه، إنه فكهُ إذا لم

يتكلم عن الرسم..

هزَّ الدكتور «ديكور» رأسه..

- غريب، ليرتيلوا أنت تعرف الجميع ههنا.. ماكنتُ أظنُّك هكذا.. كنتُ

أعتبرك منعزلاً، ثم إنك تُقيم، في الواقع علاقاتٍ غير متوقَّعة، هذا كل شيء!

نظر إليه أوريليان وابتسم. أحسَّ بعزلته. لم يكن يستطيع أن يمتنع من

الالتفات. كان يدير ظهره لباب المطعم الذي ربما سيدخل منه ادمون، ادمون

الذي لم يكن يحب أن يبدو كمن يلاحقه. ادمون الذي سيحدثه عن بيرينيس.

وفجأة غدا حساساً لجميع تفاصيل الديكور التي لامعنى لها: المصابيح

لنحاسية بالشموع الكهربائية وكممها المغضنة الوردية. لوحة تمثل البحر لهايخ تقابل لوحة تمثل البحر الهادئ بصخور حمراء، وطبقية الى جانب لطاولة مغطاة بالزجاجات الغريبة، وبسطول الشمبانيا، وبأدوات المائدة النظيفة لتبديل، وقطيفة على البيان مبسوطة لها شُرَّابات، مع إناء من صنع «سيفر» تبعث منه وروداً اصطناعية، والى ما في عدم تناسب الغرفة من غرابة، والموائد لصغيرة هناك التي كان ينظر منها أناسٌ بعيون متضايقة وكأنها عيون جماعة فريقية وقعت مصادفة في غمرة احتفال شعبيّ فلا ماندي، والفرح الصاخب، بصيحات الاستحسان التي تخلّت بإيقاعها الأغاني والضحكات والصرخات، الرغبة المحسوسة لدى الكثيرين في أن ينهضوا ويرقصوا، وليموتار الذي ثمل كلياً وهو يحرك شوكة، وانتظار المشهد التالي، لكن بينما كانت تقدّم المتلجّات، لم ينهض «بالانت» بعد بيكمبي»، بل «بومبار» الملازم بومبار، بصدرته المقلّمة باللون الأصفر والأسود. قال أوريليان في نفسه: أه، سيكون الآن.. كما كان في (الايبارج).

نهض «بومبار» وحرك ذراعيه نزع، سترته وبقي بالقميص وتلك الصدرية الشهيرة شبيهاً بالقرد تماماً. ألقى أوريليان فيه هيئته في الجبهة، خوذته المردودة الى الخلف هي التي كانت تنقصه، وإلا.. كان يمشي الآن كما كان يمشي حينذاك، ذقنه المروسة الى الأمام، حانياً كتفيه المقوستين، حينذاك، كان يرى هكذا، قبل عشر دقائق من الهجوم في معطفه الوسخ، واقفاً على السترة الأمامية ليدهش الناس وهو ينظر الى الألمان بمنظاره. في هذه الساعة، أخذ يتحدث رفيقه: «مارسولوا! يامارسولوا أيها الخامل، تعال الى هنا وقم بمصارعة الثيران!» والتفت الى آخر. «هورو»، ياصاحب الصغير، هلا عزفت لنا موسيقاك الشرشورية. أخذوا يمزحون. وذكرهم ذلك بجملة من الأشياء. تدلّل «هورو» قليلاً، فجرّوه الى البيان، جرّاً. كان يزمجر، كان يزمجر دائماً، هذا الشاب بنظارته المقورة الزجاجيتين من الأعلى، وشاربه الذي كان يخلو من الشعر في مواضع فيه، وكتفيه العريضتين اللتين حالتا دون لفّ الأنظار إليه. وبينما كان

يجلس عند البيان الذي جعله الغبارُ يصراً، تواجه بومبار ومارسولو. كان الأمر طبيعياً بالنسبة الى مارسولو إذ تقوم فوطته مقام الدثار، وقد بدأ يتصنع ويقف على أصابع رجليه. وما إن وقف الخيال القديم حتى بدا رهيباً بهيئته، هيئة الزنجي الأشقر، ويبقع الحمرة في الجبين، وشعره القصير الجعد الأشعث، ويقوام كقوام أبولون، وخصر مدور، وذراعين ريلتين مفتولتين. نعم أن النساء لا ينسين هذا الرجل. أشاح الذي يتصدر المائدة بوجهه، وقد اغتاط قليلاً؛ إن الجمال العامي لرؤوسه القديم كان ثقيلاً عليه، على النقيب «ميلو» إنه يذكره بقصص قديمة.

هتف «هوسون شاراس»: «انظر إلى بومبار! لم يطل به الوقت حتى يجد

ما يلزمه!

والواقع أن بومبار قد اختطف الورد الاصطناعية التي حُشي بها الإناء المزخرف باللون الأزرق والذي كان يزين الطبقة، وربطها حول جبينه مثل قرنين هائلين، وأخذ يثب يميناً وشمالاً بوحشية مضحكة، بينما كان الملازم «هورو» على البيان يمهّد بمقدمة موسيقية من النمط الإسباني. ووقف ليموتار وهو يصفق بيديه ويصيح: «تورو، تورو!» وسط ابتهاج الآخرين. توقف الندل الذين يحملون الشمبانيا ليتفرّجوا على المشهد، ونهض زبُن المطعم وحاولوا أن يروا.

سارع «فوشزن» وأخذ يقوم بدور الحكم، بين الثور بومبار ومصارع الثيران مارسولو، وهو يتحرك بحركات المهرج. هذا لم يكن جزءاً من تقاليد الاحتفال القديمة في الكتيبة الثانية عندما كان يُلاحق الثور في ملجأ صغير، على خط الجبهة، أو في أي مطعم، أثناء الاستراحة. كان التجديد مسلياً، ولذلك أخذوا يطورونه. وقلّد «بيكمبي» و«بالانت» إيمائياً، وبعد اتفاقهما، الذين يعتنون بصحة المتصارعين، فهذا يمسّد قرنيه وذاك يزيل الغبار عن ذيله. وكان ذلك حافلاً بالابتكار، كل ما يحتاج إليه «بالانت» الذي كان يكره ألا يكون مركز الانتباه. وكان «فوشزن» يخال ويقود المتصارعين كلّ بدوره، ممسكاً بيده ليقدمه الى الجمهور كما تُقدّم العروس، ويقلّد إيمائياً، كما كان «ريغادان» يقلّد، قديماً

في السينما سيناريو المعركة الآتية. ثم ينسحب وهو يرسل القبلات. وعزف «هورو» كارمن: «أيها المصارع، خذ حذرك...» فردّد الجميع الكلمات معاً.
كان الدكتور «ريكور» يحرك رأسه، وينظر الى ليرتيلوا بدهشة وقد بدا عليه التأثّر، وتلك ثلثة الأثافي «يبدو عليك التأثّر، يا عزيزي...» التفت اوريليان: «أجل، في ذلك شيء من الغباء... لكن هذه الحماسة، كما ترى، هي الحرب، حربنا...»

كان مارسلوا يهاجم بفوطته، وكانت صلعة بومبار تلمع بين الورود الاصطناعية وهو ينقضّ عليه، ويعود، ويهدّد بالارتقاء على الجمهور، ويقف أمام حاجز وهمي، ويخبّ حذاءه. «توروا» «توروا» أكمل اوريليان كلامه:

آخر مرة رأيت فيها هذا، كان بومبار يقوم بدور الثور... كعادته دائماً. لكن المصارع كان «فوديريل» الصغير وهو مرشّح صبي من «ليل»، شديد الشفقة حتى ل يبدو كالفتاة، وفي «الايبارج» قتل المرشّح في اليوم التالي، أثناء الهجوم... أوه! أعلم أن تلك قصة ليست من سلامة الذوق في شيء! كان الجميع يصرخون من الفرح. كان «بومبار» مضحكاً. وقد أزهق رثتي «مارسلو» الذي كان أصغر منه بخسمة عشر عاماً. وكان البيان يوقّع لازمته، على نحو متصاعد. وكان ليموتار، في زاوية، خلف المائدة يرقص رقصة إسبانية، مصفّقاً بأصابعه مستخدماً فوطته وكأنها شال. ولم يبدُ على أحد أنه لاحظته.
همس الدكتور: غريبة حرككم، ليس لدينا فكرة عنها، نحن الذين في المؤخرة..

انتهى السباق بقتل الثور. تمرّغ بومبار على الأرض. وهلل الحاضرون للمصارع، وأومات الشفاه بالقبلات. على المائدة، صُبّت الشمبانيا من جديد. شرب عازف البيان الذي تعب رأسه وشكا: آه لا، فوشن! غير موفقة هذه الشمبانيا! إنها محلاة! احتجّ «فوشن»: كان البعض يحبّها مرّة... لكن الآخرين... ولم يدر مَنْ يُرضي. على كل حال، إنه هو لايهتم بالشمبانيا وقد قُدمت لأن هذا المساء مساء عيد «السان سلفيستر»، ولولا ذلك...

صاح النقيب «ميلو». صحيح! «هورو» الصغير هذا يتذمر أبداً، يالهذا الطبع السيء!

- لكن الشبمانيا... ياسيدي النقيب،

- ليس النقيب مانعاً إنه يطلب شبمانيا، فليعط الشبمانيا..

تجمع أربعة أو خمسة على هورو، فأخذ يتخبّط، لكنه أجبر على شرب الشبمانيا من الزجاجة، فسالت عليه تلك الشبمانيا المحلاة الفظيعة. لم يُملّ ليموتار وحده «بيكمبي» ثمل أيضاً. أراد أن يُغني، لكن «بالانت» الذي كان ينتظر لحظته أخذ يمثّل بحرارة. نقّ ستيفان دوبيوي. هيا، جيد، هوذا بالانت يمثّل دور ساعي البريد.

هذا هو المشهد الذي يُحسّنه. فما ان يضع الكأس في شفته حتى يقوم بدور ساعي البريد. كان يتجوّل ومعه حقيبة البريد، ويحيي المارّة بأدب ويصعد الدرج، ويدخل بيت سيّدة صغيرة فتحت له الباب وهي عارية، ومنزل كاهن... ومنزل البوّانة، وهو على دراجته النارية في الريف... لم يكن كلُّ شيء مفهوماً، لكن كان من اللياقة أن يضحكوا. كان يجري عبر المطعم ويثير اهتمام زبّن الطاولات الصغيرة بإيمائته، ويعود، الخ... وأخيراً غطّى الصوت الجميل الذي أثر فيه الشراب والذي كان يغني. مانون «هاهي ذي الشمس».

حدث نوعٌ من الهرج والمرج على المائدة. شكّل الحاضرون جماعات صغيرة، وأخذوا يصرخون بعضهم لبعض بأشياء ستّى. وُحملت القهوة، والشراب، ودُخّن السيجار. كانت المائدة جدّ وسخة. ثمة أشياء مكبوبة ورماد في بقايا الثلج الذائب، وقطع من البسكوت الذي هسّمته أصابع النقيب العصبيّة.. أخذ الآن «بالانت» الذي احتاج تماماً يغني لحنه العظيم: فتاة نونكان، وكان الجميع، دوبيوي، هورون، هوسون، بالانشار، مارسولو، يردّون اللازمة معاً. يافتاتي الآن... الآن... الآن... الانامية.. قال الدكتور لاوريليان. الواقع، أن حريككم حربٌ ضباط، حربٌ رتباء... ليس بين هؤلاء أي جندي...

هزّ اوريليان كتفيه: «أنت لاتفهم شيئاً من ذلك يا صاحبي. هناك جمعيات للمحاربين القدماء.. وهذا أحد اجتماعات رفاق السلاح.. كانوا رتباء بالمصادفة

الممكنة إننا لانُعِيد تكوين أنفسنا... فببتك الرتب على أكامانا كدنا نُقْتَلْ،
فهمت... وها نحن نتلاقى...

صاح هوسون شاراس من كرسيه، ورجله ممددة:

- وأنت، ليرتيلوا، ألا تغني معنا؟

نظر الدكتور الى اوريليان، شرع اوريليان يغني، عض «ديكور» شفتيه قليلاً. لا لأنه انتهى ان يضحك، أدرك الهوة التي في الناس، ما أبعدهم عن الصورة التي كونها عنهم او التي كونوها عن أنفسهم. فهذا الفتى المتميز، المتسكع الذي يرى في مونتمارتر، أو في منزل «ماري دي بيرسيغال» أو في منزل آل بارينتات... الأنيق في ملبسه، الملازم للصمت: هو نفسه الذي يغني الآن، وللمرة الأولى، وقد تصبب وجهه عرقاً، ولم يبدُ عليه أنه يراقب نفسه... أدرك الدكتور أن ليرتيلوا كان في وسطه الحقيقي. وفكر بمرارة عميقة أنه لم يصل الى هذا النوع من الاكتشاف لدى اوريليان وحده. ماذا بوسع أن يقول عن «روز»، روز العظيمة التي كانت تلقي «رامبو»، أه! أحس بمن يمسك ذراعه. كان «ستيفان دوبوي»، وقد احمر تماماً، ونزل شعره الى عينيه، وهو يعضض أطراف شاربه من اليمين والشمال، بعصبية لاعب كرة القدم.

- قل لي، دكتور، لقد قال لي كلمة عن القصة... فكرة أصيلة، مستحضرات ملروز... ستلاقي نجاحاً باهراً.. يريد «فوشن» أن أجري مقابلة.
- أه نعم؟ لا يمكن أن يتأخر «فوشن» هذا إذا اشتتم رائحة الحلوى. كان ديكور يعرف الصنفقة. سيمرّ مديراً الصحيفة بمنزل «بارينتات» كان ذلك سليماً. وعيناً موعداً للمقابلة، كان دوبوي متهيجاً لفكرة روز فتملق الزوج، لابد ان يكون رجلاً قوياً ديكور هذا، حاول ستيفان ان يمدح نفسه، فتحدث عن الكتاب الذي كان يكتبه، وهو رواية: الموضوع خيبة آمال مقاتل يجد الحياة فارغة فراغاً عظيماً، بعد تلك الخمر الخارقة، عادة القتل، الحرب أخيراً، هذا العالم التافه، بلا هواء...

سأله الدكتور بلهجته البريئة، الاجتماعية: «وهل قتلت كثيراً من الناس؟

«ضحك الآخر طويلاً، ضحك المتضايق، وحرك كتفيه وردّ شعره»

- آه! كنتُ، كما تعلم، مدفعياً.. لكنني عرفتُ آخرين، هؤلاء...

أشار الى المشاركين في المائدة الذين كوّنوا جماعات، بعضهم حول النقيب «ميلو» وآخرون مع «فوشز» و «ليموتار» اللذين كانا يتلاعبان بعيدان الكبريت، وكان «بيكمبي» وحده، يغني. «الطمُ يمرّ»: أترى هؤلاء، الفرسان والحرس...

قال ديكور « من الواضح أنك تعرف ماتريد أن تقوله، أما أنا الذي لم يفعل شيئاً في الحرب، سوى الاستعراض...

تغضّنت شفّته تغضّناً مثيراً حين قال هذا. صُدّم «دوبوي»، لكن «ديكور» فرض هيبتة عليه، وكان أتفه الأسباب سيدعوه الى التشديد على أنه هو، في الواقع، كمدفعي... لكنه توسع في شرح موضوع كتابه، الجانب الآخر، الجانب الثوري ثورة البطل، واشمئزازه من باريس هذه، باريس التجارة والسياسة والخدع.. ثم هناك الشعور طبعاً، والهرب الى الريف، والوحدة، النهاية الخائبة.. «فهمت، لا أستطيع أن أدع «بول» يذهب - بول اسم بطلي - الى تاهيتي كسائر الناس.. الى الحبشة... سيذهب في النهاية، الى الساحل البريتوني، فهي منطقة بلا سِيّاح، مع الجزر والصيد، وصيادي السمك.. وهو ينتهي كما يبدأ بطل «كنوت هامسون».. أحبّ «هامسون»؟^(١)

طبعاً، كان الدكتور يحبّ هامسون. ما الذي لم يكن يحبه الدكتور؟ قاطعهما «هورو» «ألا تريان أن هذه المائدة تنقصها النساء؟

لا يُصدّق أن ذلك كان يهّم هذا النحيف الصفراوي، بذلك الصوت المسرف العلوّ، غير المحتشم، وغير منتظر لدى هذا المستخدم المتوسط القامة، المتوسط الوجه، المتوسط القدمين. قال هوسون شاراس، وقد تدخل في الحديث بين الدكتور و«دوبوي» بعد أن أهمل إهمالاً شديداً هو وساقه. هو محاسب في

(١) روايتي نرويجي تعاون مع النازيين - المترجم.

دار كبيرة لبيع أدوات الموسيقى. أمن أجل ذلك يعزف على البيان أم العكس؟
قال الدكتور. أه! من قانون السببية هذا!
ثم إن هذا يعطيه أفكاراً عن الفن وكان يقول . إنه لم يتزوج لكي يذهب
الى الحفلة الموسيقية. قال هوسون مستوقفاً اوريليان. «أتذكر ليرتيلوا «هورو»
في «مورتوم»؟

- عندما أصيبت زجاجة شراب السعال!
مزحاً. أي مهووس «هورو» هذا! حتى في النقب كان هوسه بالانظام
يقارب الفضيحة. على خمسين سنتماً مربعاً كان ينظم نفسه تنظيماً عقلانياً.
طاسه، قصعته،، سكينه.

- واللاثام، هوسون، لاتنس اللثام!
- الجوهرى في احتياطاته ضد الموت، مع الشراب... وسحتته عندما
حطمت الرصاصة زجاجة شراب السعال..
- لم تكن رصاصة كانت شظية!
تجادلا في هذه النقطة من القصة «تصور أنه هو الذي يطالب
بالنساء، هذا النساء!

قال الدكتور:
- الواقع، أعترف لكم.. ليرتيلوا وأنا، أعرف لماذا جئنا وحدنا... أما
الآخرين... فماذا فعلوا بأولئك السيدات؟ وفي آخر يوم في العام. أيضاً!
قال دوبيوي:

أوه! معظم هؤلاء سيقضون سهرة عيد الميلاد مع أسرهم! الواقع أننا
لسنا مستائين من لحظة الحرية هذه!
- نعم؟ غريب...

- أشار الدكتور الى مارسولو:

- أليس متزوجاً؟

قال هوسون:

.. لا، له صديقته... تشتري له ربطات عنقه. وبومبار ترك السيّدة في مرسيليا وهو عابر سبيل. أتذكر، ليرتيلوا، صور السيّدة بومبار؟ كان يُريها طوال الوقت شعراً سايل، وصليب ذهبي بسلسلة، وعينان صغيرتان، بوجوازية طبيعياً حقاً.. لم يكن هذا يمنعه من الإصرار على مصاحبة بنات الفندق في المؤوى.. أتذكر؟ لابد أنه يُعيش تلك البرجوازية حياةً لا ضابط لها!.. ولـ «بيكمي» ثلاثاً أولاد، وقد قُتل أخوته، وعاد إلى إعالة أمه، وامراته لاتني تصرخ من الصبا.. إلى المساء. ولم يتعاف الأولاد! يجب أن تفهمه، فهنا يستعيد شبابه. إنه وكيل لبيع الألبسة النسجية، ومايمثل ذلك من حصر ممسوحة، وحبالٍ مشدودة وقبعات في اليد، مع تلك الأفواه التي يجب أن يطعمها! وبلا نشار الذي يبيع الإطارات المطاطية عند باب «مايو» مع خمس بنات وامراته التي هربت... هز الدكتور رأسه بصمت والتفت إلى ستيفان.

.. نعم، ياعزيزي، الحقّ معك، العالم سيء التكوين، ومن المؤسف ألا تظلم الحربُ قائمة!

دمدم «هوسون» وجسّ فخذه. نظر أوريليان إلى ديكور دون أن يفهم لكن «دوبوي» الذي فهم على الفور قال «نعم... ربما كانت تلك الأيام هي الأيام السعيدة..»



انتهى هذا الاحتفال الصغير نهايةً سيئة جداً. كيف ابتدأ الشجار؟ لا يستطيع أحد أن يقول: كيف. فمن المؤكد أنهم قد أسرفوا في تناول الكؤوس الصغيرة المسكرة، شربوا «الارمانياك» بعد شراب الفواكه البورغوني المسكر، و«الشنابس» الصاعق الذي طرح من جديد على بساط البحث الكثير من ضروب الحكايات الألفاسية التي لم يتفقوا عليها. ولعل «ليموتار» الذي سكر قد تحدّى بلانشار الذي لم يكن يحبّه. لكن ما الذي قاله بدقة بلانشار قبل ذلك؟ هذا المهرج الكبير الأسمر والهزيل. بشاربه المتهدّل. وجلده المدبوع، وحركاته التي تشبه حركات طواحين الهواء. ظلّ هادئاً، أثناء الوليمة كلها، لكن أفكاره كانت معروفة، وكانت دعوتُهُ مبادرةً كريهة من وحي فوشنز، وقد استطاع أن يثير غيظ «ليموتار» بحديث من أحاديثه. كان يصرخ أنه لا يتقبّل دوس الوطنية من أحد، وكان من المعلوم أنه يحمل وساماً حربياً رفيعاً، لكن ذلك ليس سبباً كافياً لأن يقول بعض الأشياء.

إن هذا العراك الذي لاسبيل إلى وصفه، ما أن يضرب أحدٌ أحداً، والذي من المستحيل أن يهتدي المرء فيه إلى سواء السبيل، قد أخرج أناساً عن طورهم، مثل «مارسولو» الذي لم يكن يُضمّر مودةً خاصة للمفتش السابق، والذي رأى ليموتار في حالته تلك يُضربُ ضرباً مبرحاً. والواقع أن «مارسولو» لم يستطع أن يهاجم هذا الهيكل العظمي بلانشار، كان ذلك عديم التناسب جداً، ووجد نفسه مقابل «بيكمي» الذي لم يخطر له، وهو المتحفّظ، أن يتعارك مع ملازمه القديم، الذي استشاط غضباً، في هذه الساعة.

حاولوا تفريقهما، وتعالّت الصرخات، مهلاً، مهلاً، ولاسيما أن مارسولو كان تفوّقه ساحقاً، وكان يستخدم لكماته، فلما تفجّر الدم من أنف خصمه، أثار ذلك الجميع. كان «هورو» لايني يصيح. وأمسك أوريلييان مارسولو من ذراعيه. وشدّه إلى الوراء. احتجّ الآخر، لكن ذلك أتاح للنقيب «ميلو» الذي تبعه «بومبار» وهما زعيما الجماعة، أن يتدخلّا. تظاهر النقيب بأنه يجهل بداية النزاع، فلام

مارسولو الذي لم يكن يطيقه، والذي كان عليه أن يتذكر رتبته قبل ان يضرب عريفاً، وأعاد عبارته المقدسة. «متحدون كما كنا في الجبهة...»، وأغرق ذلك بخطبة له.

كان هناك كؤوس كسرت، وخمرٌ على غطاء المائدة، وأوساخ في الأرض، والصحون الوسخة وسط ذلك كله...

قال هورو: «ما هذه المسخرة!» وتظاهر دوبيوي الذي يصرخ ولا يفعل شيئاً، بأن الوقت لم يتسع له ليتدخل، وصاح. ماذا جرى؟ وهو يحرك عضلاته. لابد أن المدفعي كان دائماً كذلك.

وأخيراً تفرق القوم. طلب هوسون شاراس من «فوشن» ان يأتيه بسيارة أجرة. وأخذ الجميع من حجرة الثياب ثيابهم، قال الدكتور لأوريليان. «هل ستسهر سهرة عيد الميلاد في مكان ما؟ هز أوريليان رأسه نافياً. سيكملان السهرة معاً. وكان «هوسون شاراس» يودّ لوركب معه سيّارته، لكن المطر كان قد توقف، ولم يكن مُزعجاً أن يمشي قليلاً، ليطرد آخر الأبخرة. وكان أن أوريليان وديكور هبطا درج «الساكريكور» مع «هورو» و«بومبار».

أمسك «بومبار» بذراع أوريليان كمنّ له دالة:

- «أنا سعيد برؤيتك، يا صغيري... لم أستطع محادثتك أثناء الطعام... كيف تدبر أمر هذه الحياة الكلبة؟ أنت متزوج؟ لا؟ الحق معك. لا تتزوج. لا تتزوج أبداً...

كانت الكنيسة فوقهم، وتحتهم المدينة غارقة في ضباب الأنوار. دفعهم البرد الى شدّ معاطفهم، ورفع قبّاتها. كان «هورو» يدمدم، على عادته.

- مارسولو. مارسولو، دون شك... دائماً يتلقّف الشجار... شخص سيء... عندما كان معاوناً للمقدّم، كان يقضي وقته في الوشاية بهذا وبذاك... قال بومبار:

- مهلاً، مهلاً، من البديهي أن المقدم لو كان هنا لما حدث شيء من ذلك... وميلو تنقصه القدرة على السيطرة..

- أنصحك بالدفاع عن مارسولو، أنت بومبار... أنت تعلم أنني كنتُ مع

المقدم قبل مارسولو، ثم ألحقني العقيدُ به... كان يقدّر مزايا النظام في سوحيندُر، عرفتُ جملة من الأشياء.... ما الذي حال بينك وبين الترفيه طوال سنتين، بومبار، ماقولك؟

جفل الآخر، وتوقف ويده على الدرايزين، وكانوا في منتصف الدرج، ربت على كتف هورو.

- أَلن تقول لي إنه، أحياناً؟... مارسولو... لا مشوا بصمت، كان يُسمع من تحت، في الليل، موسيقا، وتزمير السيارات، قال الدكتور شيئاً عن موناوتر، في السنة المنتهية. وكان اوريليان يفكر في بيرينيس.
انفجر بومبار فجأة:

- أَتظنّ ذلك، أنت، ليرتيلوا؟ مارسولو... يَغدرُ بي! هذا الشخصُ الذي كان يحتاج الى القليل من المال، يأخذه من هنا ومن هناك... دون ان يرجعه على كل حال... كان يتدلّل على حسابنا ثم... هذا المخبول!
قال «هورو» وهو يصرف أسنانه.

- لو أريتكَ بطاقتي... عندي بطاقة عن «مارسولو».. أتذكر، في الـ «ايبارج»..

- صدقت، يابني! أراد رجاله أن يسيئوا معاملته لأنه اختبأ أثناء الهجوم... انا أنقذته من وضعه! وتصوّر أن هذا القذر...
تنهّد الدكتور:

- الواقع أننا لم نكن نتصوّر، نحن الذين في المؤخرة، أن الأمور كانت تجري على هذا المنوال في خطّ القتال..

هدأ ذلك الموقف، لكن «هورو» كان مندفعاً. ساخطاً تراكت أحقادُه. كان هناك أشياء يتحرّق الى قولها.

- نعم... متحدون كما كنا في الجبهة... هل سمعته، هذا الغبي ميلو، كان

لايفارق مارسولو.. لكن مارسولو اختطف منه فتاته... فأصبح كل شيء منذئذٍ صالِحاً ضد مارسولو... ولندعُ الخلاف الشخصي... أما كان من حقي الحصول على وسام جوقة الشرف عشرين مرة بدل الواحدة؟ أتعلم من الذي نزعها مني؟^١ مُرشد الفرقة، بالطبع، هذا البقعة! العقيد يقدرني، لكن عندما تكلم اليسوعيون... وعندى قصصٌ فظيعة عنه، الأب «بيليار»! أه! متى يأتي اليوم الذي يمكن أن تُطبع فيه بطاقتي!

هبطوا شارع «ليبيك». كان الشارعُ غاصاً بالناس، مظهر عيد، وجميع الحانات الليلية مضاءة بالرغم من البرد. توقفوا في ساحة «بلانش»، في اشتعال أضواء المقاهي الكبيرة. كان «بومبار» يهمس، بطاقة مارسولو، مع ذلك! والعجب أنني كنت ألعب معه لعبة الثور مع المصارع! ودخلوا «ويبلر».

تسلّى الدكتور بحقق «هورو» وكان يسأل أسئلة مأكرة، ويشجّعه. وكان بومبار كلّه دهشه من العدو! لمكتشف. من أجل ذلك نال ترفيعه الثالث متأخراً جداً حتى إنه لم يُنبت. لقد أُخّر ترفيعه، وهو يجترّ هذه الإهانة منذ نحو ثلاث سنوات. كان يبيع دائماً الزيت الرديء. وكان مرأً عنده، فهو لم ينل في الحياة ما يستحقّه. كان يودّ أن يكون نقيباً حقاً. كان أوريليان يشارك في الحديث برخاوة. كان تائهاً هو أيضاً في شعوره بالظلم. كان يود أيضاً أن يلقي المسؤولية على اليسوعيين والماسونيين، وهو لا يستطيع. لقد كانت تحبه ولم يجد حبها شيئاً. كانت تحبه وستهرب منه. لن تكون له أبداً.

سأل ديكور:

— ماذا يفعل في الحياة المدنية بلانشار هذا؟ تاجر إطارات؟

ضحك هورو:

— آوه! تاجر، تاجر! بل هو بائع بالفرق.. في مكان ما بحذاء السكة الحديدية المحيطة.. هو مُعوّز.. وهو يُعيل أسرة وقد هجرته زوجته.. زوجٌ مخدوع مسكين!

قال الدكتور:

- مثلنا جميعاً

ضحك بومبار، وزم «هورو» شفتيه واحتج:

- تكلم عن نفسك... تكلم عن نفسك... واعلم أن من حقّه أن يفكر كما يشاء... حقوق الإنسان... لكن هذا ليس سبباً كافياً ليأتي ويثير الاضطراب بيننا... المصيبة أن أمثال مارسولو يتدخلون في هذه المشاكل! أنا أدعو الى السلام كأني إنسان، ولم يمنعني ذلك من... لكن مما يثير الاشمئزاز أن نرفع راية الدعوة الى السلام...

عمّ كان يدور الحديث؟ بدا على الدكتور أن الأمر واضح بالنسبة إليه. أما اوريليان فكان على مئة فرسخ من الحديث. كان يرى وجهاً ينمّ على الألم، مغمض العينين، ووجهاً منغلّقاً وصدفياً، وشعرا غير ممشوط، أشقر، ونوراً أعمى، وقمأ... أه! كان يرى طوال الوقت رسمَ هذا القم يتغيّر!

أهكذا كان فم بيرينيس؟ ورسمُ الشفتين هو الذي يتشكّل بحسب رغبتنا: كان اوريليان يخلط بين جميع الشعاه التي عرفها في تذكّره لبيرينيس، فلم تكن بيرينيس حبّ اليوم فحسب، بل كانت حبّه، الحب الذي خالجه أزاء النساء الأخريات، وهاجسه الذي حمله معه عن النساء في ليل الحرب المظلم، وأحلام يفاعته، وقلقه كرجل. وفجأة إذا به يعثر على نموذج الخدين المجسم، ووجنتي بيرينيس، وإذا بالعينين تنفتحان ببطء، العينين المعتمتين، عيني الذكرى المائلتين...

قال بومبار:

- امزح بمفردك، يا صغيري هورو... أتقسم لي أن مارسولو...

صاح المحاسبُ:

- أه، مابك! هل ينبغي أن تكون بليداً.. لا؟ ما أشد غباءه! لو رويت لك... لكنك كنت موجوداً.. أه لا، صحيح: لقد جُرحتَ قبل بضعة أيام... عندما وصلنا الى قناة «ايليت»، في قرية، هناك... نسيْتُ اسم القرية... الحاصل، لاشك أن

«ميغل» هو الذي استولى على الموقع... أتعرفه، ذلك الفلاح المتورّد الوجنتين. ذلك الفتى الطويل الجعد الشعر، بشاريه... بلى، عرفته... كان ملازماً ثانياً، وكان يُعد نفسه ليكون معلماً... بعناصر من الفصيلة الخامسة... كان ذلك بالضبط بعد ترك «روكيس» التي أخليت، ولم يكن حينئذٍ هناك مَنْ يحميها، ميغل... المقدم كان في الفوج، وكان العقيد قد تركنا آنذاك... كل شيء دُبر بين ميلو ومارسولو.. كان ميلو يقود الكتيبة.. وأخيراً أحرز مارسولو وساماً وهو لم يرَ على خط القتال.. وقُتل ميغل.. آه! لاحظ له، هذا الفتى المسكين، كان خطيباً لطالبة في منطقته، في «الشارانت»... وفي صباح الحادي عشر من تشرين الثاني... تصوّر في الحادي عشر من سنة ألف وتسعمئة وثمانية عشرة! وقنبلة فرنسية، فوق كل شيء قبل نهاية الحرب بالضبط... كانت الصناديق تفرّغ.. أحد عناصر المدفعية... قُتل «ميغل»، ولم يبق منه شيء... أنا لمحت أغراضه وقرأت رسائله... في الحادي عشر، نحو الساعة التاسعة والنصف، في «اللورين»... آه، آه! متحدون كما كنتم في الجبهة! حلوة هذه المزحة!

كان هورو قد أسرف في الشراب أيضاً. رأى الدكتور في عيني أوريليان تعبيراً عن نفاذ الصبر. وكان «بومبار» يجترّ اكتشافه.. كانت الصحون الصغيرة تتراكم امامه، وكانت الخمر تثير أشجانه، همس:

- أني أتساءل لم لم يأت المقدم... هو في باريس مع ذلك، في الوزارة...
قال أوريليان:

- إنه يتناول عشاءه مع أسرته.

ضحك «هورو» وهو يبتلع كأساً دفعة واحدة:

- وتصدّق ذلك! أتراني أتعشى مع أسرتي، أنا؟ والنقيب الصغير؟

أيتعشى مع أسرته؟ باربنتان؟ هؤلاء الناس لم يعوبوا يعرفوننا، هذا كلّ شيء... نحن رقيقو الحال جداً.. لسنا رفيعي المقام... في صدر الصالة، كان الناس يصلون الى المطعم، الى الطاولات المحجوزة لعشاء عيد احتفال عيد الميلاد.

أنحنى ديكور على ليرتيلوا: «لنذهب ونقضي آخر ليلة في السنة في مكان آخر...» ولم يلحظ الآخران أنه قد دفع الحساب، وتركاهما يذهبان دون أن يفهما، وكان «هورو» يردد: ليتني أستطيع نشر بطاقتي! وكانت تتبع رائحة الشواء والجعة وحرارة المطبخ الى حيث بدأت العزف اوركسترا أرجنتينية. انقاد اوريليان للدكتور، وفي الساحة، أمام «الطاحونة الحمراء» بشرائط أنوارها، تنفس بعمق، وسأل:

- وماذا سنفعل؟

قال ديكور الذي لاحظ طوال المساء خور ليرتيلوا، بلهجة أبوية: - ما قولك بـ «لولي» يا عزيزي؟ لكي نعود الى الحياة المدنية.. إن راق لك ذلك... يا الهي!

وإنما قال الكلمة الأخيرة، لأنه لو لم يتلقف اوريليان من ذراعه، لأطاحت به عند المنعطف سيارة «بوغاتي» صغيرة مجنونة فيها بنتان مكدستان قرب السائق الشاب.. وسُمت فرقتها في الليل.



هامي، ذي من جديد، الحانة الضيقة، المدخنة، بأنوارها الوردية، وهامو
الأكاجو، من جديد، والنحاس، والمناضد العالية، والزجاجات، والخلاطات،
والقش، واللويحات المتنافرة والمضحكة المصفوفة على الجدران مع أعلام «يال»
و«هارفارد»: هامي ذي الموسيقى، من جديد، آتية من المرقص المغربي،
وضوضاء الأصوات، والضحكات، وجنون الرجال السكارى والرصينين،
والأمريكيون والبنات، والسيّدات في فساتين واسعة التقوير، ومعهن مراقصون
سمر، وألفات الحانة، سوزي، جورجيت، ايفون.. ومن جديد ديكور السهاد
والكحول، وديمومة الليل التي تُثقلك ثقلاً شديداً بكل الخواطر التي يتحاشاها
المرء، بكل الأفكار الضائعة، ورقص الذين يخافون النوم، ويخافون الا يناموا..
والندل البيض وهم ينقلون الشراب بين الناس المتعبين، وابتسامتهم المهنية. وكان
«لولي» الضخم يجول يبطئه الفينييسي عبر الجماعات، ويضرب يداً بيد صارخاً:
«اولي! اولي!» وكان هناك امرأة عجوزٌ ضخمة جداً، بثياب وردية، وشعر
مصبوغ بلون الیود، وبذراعين عاريتين، وقبة كبيرة من الحرير تهدلت مثل ثدييها
قرب مكتب المحاسبة، وكانت تكلم السيدة لولي، عند الصندوق، بطلاقة لاتنضب،
وهي تحرك حقيبة لآلئها ولحمها المرتجف.

قال ليرتيلوا:

- لولا أنك شددتني بذراعي، في هذه الساعة...

- أتظنني أدع مساهماً مثلك يُفَلت؟

إن عفوية هذه المزحة أصاب أوريليان في الصميم، وكانت قصة الشركة
المساهمة كاللزمة التي تلاحقه على نحو غريب، أراد أن يوضّح رأيه من مرة،
فقال: اسمع، دكتور...

قاطعه الآخر:

- أعرف، أعرف... رأيت السيد موريل في هذا اليوم بالذات... هو رجل

، لاشك أنه يتضابق وهو يصنع أدويته، بذراعه... وهو ذكي... يعني من حيث سيدلي، سيكون مفيداً جداً لنا. وهو خالٍ من المصلحة؛ فما يفعله لا يفعله من هو نفسه، بل من أجل السيِّدة موريل. وماذا الذي لا يفعله من أجلها... يلُ أن نرى ذلك، فهذه العواطف نادرة، في أيامنا، لقد نسي الناس ما رة الصالحة. الزوج الذي يفكر في امرأته، يجب أن نذهب إلى الريف لنرى

..

كان صوته دائماً خالياً من الذبرة الشخصية، مرّاً، لم يكن هذا الدكتور شيئاً إلا تراعت فيه «روز»، ظلُّ روز، وحياتهما أهي مأساة أم ملهاة؟ كان ليان يتسائل أحياناً... أما في هذه اللحظة فقد تملكه همٌّ واحد:

- هل رأيت أيضاً السيِّدة موريل؟

- أوه لا! كانت خارجة، من أجل آخر مشترياتها، سوف يتركان باريس مساءً المرأة بحاجة دائماً إلى التنقيب في المخازن قبل أن تذهب لتدفن بها في الريف...
- غداً مساءً؟

- نعم... بعد قضاء عيد رأس السنة... في الأسرة.

تعلق أوديليان طويلاً بالأمل في أن آدمون سيحضر إلى المائدة. أثنائها مدها، لايهم، لدى تناول القهوة، أو الشراب... أن يعلم... فهو يستطيع أن ل آدمون. لقد خطرت له الآن فكرةً مجنونةً، خطرت له في الحقيقة منذ أن رح ديكور حانة «لولي» مع آدمون المتواطىء أو بيرينيس نفسها.. كان من بيعي أن يكون أوديليان هنا هذه الليلة، وأين يمكن أن يكون؟ سيأتون، نون هنا، على حين غرة، في الصالة الكبرى، حيث أمسك بيدها. ستلجأ إلى يلة: ألا تريد أن تُري «لوسيان» أين قضت تلك الأمسية اللطيفة.. ثم نمارتر» هل يعرف الصيدلي مونمارتر؟ مع «آدمون» أو دون «آدمون»، لعل مع «روز»! كان الدكتور يتكلم عن «روز»، عن رقة نفسها، تلك الرقة الفائقة

لدى روز.. الحقوق التي للكائنات العليا في الحياة.. لايحوز أن نحكم عليهم كما نحكم على الآخرين، حسب المعايير نفسها... كانت كلمة «معايير» هي التي تعجب الدكتور.

- أتقبل ان نلقي نظرة سريعة على المرقص، دكتور؟

- كلا، كلا، على العكس تماماً...

هذا الجو الشديد الكثافة، وجمهور الوافدين، والأبواب الزجاجية عند المدخل، واحتفاء الندل، وبائنات الورود، والصالة الكبرى، في نورها الأزرق من أجل رقصة «فالس»، والأضواء العالقة بجلد النساء، الى الشذرات البراقة في الفساتين، والرجال السود، وواقيات الصدور، وأغطية الطاولات بلون كشاف النور... النور يتغير مع الأسطوانة الدائرة هناك.. هاهو ذا النور الخبازي.. وعلى مربع أرض الصالة، بين الموائد وزجاجات الشمبانيا، يحرك جمهور الراقصين أقدامهم وينزلقون، ذابليين، بسحنات... الحمراء^(١) بلا نوافر ماء، مع كثير من الراقصات بحيث يثير ذلك شيئاً من الاشمئزاز. على طريقة الحلوى بالقشدة.. نظر اوريليان الى ساعته. الأنوار الدوارة، والأسطوانة المسرعة، برقشت بكل سرعتها، الصالة والشرفات والراقصين. بينما كانت الاوركسترا تتسارع في الختام. عادت جلبة الصحون والضحكات مع عودة الصمت، وصفتت للاوركسترا أيدي الراقصين.. انصاعت الاوركسترا واستأنفت «الفالس» وغدا كل شيء أزرق، أزرق، أزرق..

وتسبر عينا اوريليان أعماق الأضواء والظلال، توقفهما انحناء ذراع، وتنفاديان كتف امرأة تخفي وجهها، وتسوقه حركة الندل المستمرة الى تغيير موضعه ليرى.. أن تعبير ذاك الرجل قرب عمود ملون، بأنفه المسطح، تكشف عن الرغبات التي تغشيها الموسيقى. والضحكات المداعبة في ذاك الركن الذي يحترق فيه غطاء المائدة الورقي تترك رنيناً كرنين القطعة الفضية. لا.. لا أحد.

(١) قصر الحمراء المترجم.

ساعته في معصمه، الإبرتان تقتربان من منتصف الليل. سيأتون، سيأتون بالتأكيد. ومثل ذبابة سوداء هائلة، يشق «لولي» الضخم، وهو جاحظ العينين، الجمع، ولا يلبث الطريق المشقوق أن ينغلق وراءه من تمايل الراقصين، ويُنَادِي الأوركستر بشيء لا يُسمَع. لقد وصل قبل هنية جماعة من الرجال في ثياب السهرة ونساء بفساتين طويلة، فاتحة، هادئة، فخمة، مغسولة على نحو مدهش. فيخفُّ الندلُ. ويدفعُ زُبُنُ في الصدر لكي تُعدَّ مائدة. ويقف الموسيقيون ويعزفون النشيد الأمريكي.. ويحيي السادة وهم يمرّون الراقصين المدهوشين الذين جمدوا فجأة. همست امرأة صهباء وشاحبة في الضوء الخافت يجنب الدكتور وليرتيلوا: «هذا سفير الولايات المتحدة!». سارت إبرتا الساعة نحو منتصف الليل. وأخذت تخرج من المطبخ أطباق مدخنة. استؤنف الرقص، والفالس في الأشعة الملونة. الإبرتان... لم يكف أوريليان عن النظر الى معصمه.. دمه يخفق. سوف تأتي. وكيف لاتأتي؟ يأبى أن يُصدق... ماذا يقول «ديكور»؟ الشيطان وحده يعلم ما الذي يجتره! ويتشوش النظر، وتبدو خطوط العتمة، ويصفق الناس: تلك هي لعبة الحانة الكبرى، المجددة عن متحف «غريفان»، ثلج النور، ندف الثلج الباهتة التي تبدو كأنها تنهمر في صحن الصالة الكاذب بثلاث تتلاشي على الأرض، ساقطة من القناطر، وشعرُ منتصف الليل إلا دقيقتين، في شارع «بيغال»، بين تهليلات المتعشّين، ووسط «فالس» ايفرينغ برلين... جاءت امرأة الحانة الضخمة بطوقها الوردي، الى جنبهما لتتفرّج. قال الدكتور الذي لعله كان يفكر في غدد هذا الشبح: «إنها ضخمة»، وأضاف: مثل نساء بيكاسو في آخر طريقة له. همس أوريليان بشيء ما، لعل بيرينيس في هذه الدقيقة، في الخارج، في الشارع المبلّل تنزل من السيارة... وضربة صنج، وقرع الطبول وصرخات، في الليل. في الليل، شاهد أوريليان الاشعاع الباهت لأرقام ساعته، منتصف الليل.. ثمة نوعٌ من الفرح الأسود يلف الكائنات الضائعة المنفصلة لأنها لم تعد ترى، وتدافعُ يبحث عن ذاته، وصرخات

ومضحكات، والصوتُ الفينيسي، صوت لولي الضخم يقول بالانكليزية: «سنة جديدة سعيدة، سنة جديدة سعيدة!».

وفجأة أحسَّ أوريليان بذراعين حوله، ذراعين عاريتين، حول كتفيه، أصابع تبحث عن وجهه، خرقاء. وفي قرع الطبول الذي يُغطّي العتمة، وفي الجلبة التي كانت لهما كالصحراء، عزلة الحب، استدار وانحنى، وشدّها إليه. ولأول مرة، ضمها الى جسده، ولس وجهها، وعثر على فمها الولهان، المختلج، وقبلها، وعضّها، وفقد صوابه، وأبى أن يفكر في النور الذي سيعود، والزوج الذي ربما كان هنا، بجانبها هي، بيرينيس، بيرينيس، لم يبقَ سوى اسمها، سواها هي التي تبدأ بها السنة الجديدة، القرن الجديد، بيرينيس..

كان النور مثل بوق، وتجلّى سرُّ هذا الجنون لجميع العيون، وانفصل الناس بعضهم عن بعض، وأمرّت النساء أيديهن على شفاههنّ، ولسن شعورهن على نحو أليّ. ويكتشف أوريليان، بين ذراعيه اللتين أرخاهما بأسف، يكتشف سيمون. وبيرينيس، أين هي؟ وما من «بيرينيس»..



«زجاجة أخرى» كان سطلُ الشمبانيا يطير فوق الرؤوس، وكانت لباقة رئيس الخدم البالغة تُبرز سوقيةً الوجوه، وتهاك الأجسام على المقاعد. الساعة الثالثة صباحاً، مروا با «لغارون» حيث بلغ الاكتظاظ حداً لا يمكن معه تجاوز المشرب، ومنه إلى القصر القوقازي حيث اغتاط أوريليان قليلاً من رقصة الخناجر، ثم أقضوا إلى هذه الحانة الجديدة من النمط الفرنسي، وفيها ناسُ يرددون ألحان «موريس ايفان»، ويحركون لعباً اشتروها من فتاة طويلة زرقاء وشقراء. كانت تتشاب الآن في ركنٍ من الحانة، وتُنزع خلسةً فردة حذاءها التي تؤلها. كانت الشمبانيا تنساب مثل مصل اللبن، ولم يُبدِ الدكتور مقاومة، وبدأت سيمون المحبةُ الأموميةُ تمثل برفق. «أنت حزين، يا صاحبي، أرى بوضوح أنك حزين... خذْ اشرب جرعة... ألا تريد أن نرجع؟» لا يريد أن يرجع بعد... «ما هذا الشراب، أُنسمي هذه شمبانيا؟ ذوقكم فاسد...» هُرع المديرُ واعتذر، الشمبانيا، أولاً ساخنة، هل ينبغي أن أقول لكم مرة كي تضعوها في التبريد... سيعذرنني هذان السيّدان... وتراقص السطلُ الفضي فوق الرؤوس. همس الدكتور بهدوء. أنت تبذّر مالك. ندّت عن أوريليان حركةً مبهمه.

قالت سيمون: عندما يُساورني الهم، أنا...

ولم يُعرف ماذا تفعل إذا ساورها الهم. كانت تداعب قذال أوريليان، وتُعَبّث بغطاء المائدة، همست: «أحبُّ الملابس الأنيقة. أحبُّ الملابس الأنيقة، لأمجال للكلام، أحبُّ الملابس الأنيقة..»

كيف التقطوا هذا الشخص القصير الهزيلُ بقَبْته المسرفة الانخفاض، ورقبته التي لانهاية لها، والتي تصعد وتهبط فيها جوزة عنق غير متناسبة مع الرأس، والذراعين الجديرتين بالرتاء؟ كان من معارف «ديكور». أكان في القصر القوقازي؟ لقد طلع على الكرسي، هنا. ولعل سترته الرسمية كانت مفرطة الصغر، فكان هذا الشاب يسحب ساقي البنطال، ويصالب بين ساقيه، ويحلّ اتصالهما، قال له أوريليان:

«يجب أن تكون أكثر سكرًا من ذلك، أيها الشاب» وصبَّ له شراباً. زاد
تخربُّ السترة الرسمية على هذا الشخص، وما زالت جوزة العنق تصعد وتهبط،
وغاب الوجه الغبيُّ في الشمبانيا. وظنَّ من واجبه أن يكلم سيمون، وتساءلت
سيمون لماذا. كانت تنتظر بصبر أن يقبل ليرتلوا المجيء معها ليأوي إلى
سريره. ستأتي به إلى بيتها، وسينام. هذا كل شيء. لكن في الصباح، كانت
تشتهي أن تضاجعه، أن تلتهمه. وجاعتهم سيدة أخرى من سيدات الحانة
لا حاجة بهم إليها، بالأخضر الفستقي. وجلست إلى طاولتهم، فمن دعاها،
ديكور، الشاب ذو الجوزة، أو جاءت من نفسها؟ كانت تسترسل في الحديث
وتطلب الحلوى الألزاسية.

كان ديكور دكان الألبان قبيحاً: أصفر كنارياً مع يونانيين بثياب وردية
ونسائهم كاشفات صدورهن، أسلوب «في... في».

أصبحت جوزة الآخر هاجساً، فهذا العنق الشديد الضخامة، لدى هذا
الرجل النحيل. يحتوي على شيء من الفحش. انحنى أوريليان على المقعد
الباذنجانى اللون وصاح بالدكتور، وأصبغ مصوبه إلى غضاريف الزرافة تلك.
- اعرفت ما أقصده، دكتور؟

- لا، لم أعرفه بدقة...

ذلك يطول شرحه. ليته يستطيع أن يحطم أنف هذا المتأنق الذي يغيظ
بطريقته في شدّ ثنية البنطال ليرفعه ويُنزله. وبما أن الجوزة..
صاحت ذات اللون الفستقي «لديكور»: رأيت مَنْ دَخَلَ. بدا عليه كمن
رأى. وماذا يهمه مَنْ دخل؟ جماعة من الرجال البشعين، وليسوا شباباً،
أحاطت بهم النساء على الفور. ذبابٌ حقيقي. ومنتهى الحماسة تلك الكم
البرتقالية على مصابيح الطاولات. أما الخلفية فكانت موسيقا رقصه جاوا
بالبيان والاكورديون والناي «قل لي، دكتور...» لم يكن يعلم ما الذي يريد من
الدكتور أن يقوله له.. أجاب الدكتور ذات اللون الفستقي: «عجباً، هذا
صحيح...» ما الذي كان صحيحاً؟ حمقاء طريقتهم في الكلام.. أراد أن يقول..
بدا علي الطبيب وذات اللون الفستقي أنهما متفاهمان. قالت: «فولين...» لعل

هذا هو اسم ذاك الشخص ذي الشارب الأسود، الذي انحنى له الجميع، حلم ليرتيلوا بصوت عالٍ «ليتني أحطم أنفه». أسكته الآخرون، وأدارت سيمون رأسه الى جهة أخرى وكان يبدو عليها أنها مطلعة على الأمر مثلها... «تحطيم أنف فولين! إنه لا يدرى مايقول!»

ارتعشت خوفاً ذات اللون الفستقي. ووضعت شيئاً من البودرة: «أعرف واحداً خطف منه صديقة فلم يره أحد بعد ذلك...».

انحنى الدكتور من فوق الطاولة وشرح للشاب، لا لاوريليان. «أتعرفه؟ فولين! لا... إنه شخص مهم.. ذو سلطة ونفوذ.. أكبر تاجر مخدرات في الصين بطريق سيبيريا، في صناديق دهان الأحذية الأسود... وله اسطنبول خيل للسباق...»

عبرت الغرفة، بجانب الموسيقيين امرأة ترتدي سترة، مقبوضة الشعر كالفتيان، مشدودة في ثيابها، لكن لها عينين جميلتين وأنفاً غريباً عالي الأرنبة. نهض فولين لها مثل شاهدة القبر. كانت تضحك وكان يبدو عليها الفرع في الوقت نفسه. جلست وصالت ساقها. ارتفعت تنورتها الضيقة مباشرة الى الفخذين. نظر اوريليان الى الشخص المواجه. كان لايني يسحب بنطاله من تحت. أردفت ذات اللون الفستقي شارحةً «هذه «مانون كروز»... ستسمعها.. غناؤها حسن...» قال الدكتور: «عاهرة؟ هزت كتفيها، لم تكن تدخل في هذه التفاصيل. وكان عازف الاكورديون يعزف منفرداً من أجل «فولين». وكان وراءه نساء، مثل الصرافين خلف مدير القمار.

صاح اوريليان: «زجاجة أخرى!» تنهدت سيمون. ستسوء حالته. ودت لو يقدم لها ورداً. قالت لابعينيتها للبائعة. خافت من خيبة الأمل. كان الرجل ذو الجوزة يتحدث عن الأدب «هل قرأت الرواية الفائزة بجائزة «غونكور»؟ أن تعطى جائزة غونكور لزوجي! أنا، لا أعجبنى هذا الـ «باتوالا».. ذلك خطأ.. شائع، ثم إن ذلك جنون، فمن يحسبنا الأجنبي؟ اذا لم نستطع أن نضع رواياتنا بأنفسنا..

قال ديكور:

- وما الراوية التي كنت ستخصصها بالجائزة؟

- «قصيدة العرس» مثلاً بعد بروست، بسنتين، ينالها زنجي»

وتحدث الشاب أيضاً عن روبيردي مونتسكيو الذي مات منذ أمد قريب

تمتم اوريليان: «سأحطم أنفه».

نهضت المرأة ذات السترة، بدأ البيان عزفه، فغنت، بصوت شنيب
مبحوح، عميق، وكانت تمسك حنجرتها بيدٍ فوق القبة القاسية، يدٍ جميا
وطويلة، غير متوقّعة. كانت الأغنية «داميا» مقلّدة، أغنية عاطفية فيها انقطاعات
غرفة على المرفأ، وحبيب يضحك وهو يُسافر... وفجأة أحسّ ليرتيلوا بأنه يعو
الى البكاء. مرّت سيمون بأصابعها على وجهه، مروعة من أن تسحبها وهم
مبلّلة. أفرغ كأس شمبانيا دفعة واحدة. كان الناس يصفقون. ولما كانت المغنّي
ستبدأ الأغنية الثانية، دخل الصالة رجلٌ أقرب الى القصر، ضخم، قدو خد
الشيبُ لحيته وقد بدا كمن يتعاضم بحضوره، وتبعته سيّدة من حجرة الثياب
وأخذت تنزع عنه معطفه. كان يرتدي سترة ومنديلاً حريراً على عنقه، مع وساء
جوقة الشرف... التفتت المغنّية إليه، وحيّته. نهض رجلٌ من طاولة «فولين» ونداد
«سيّدي الشيخ! دار الرجل الضخم على نفسه وسارع. شدّ على يدي «فولين»
كانت تبدو عليه الملائقة الذليلة.

أسرت ذات اللون الفستقي الى الدكتور.

- «هذا صديق «مانون كروز»، وهو عضو في مجلس الشيوخ، شيخ مهم،

شرعت «مانون كروز» في أغنيّتها. من اللون الهندي الأحمر الآن، سرقة

البغيّ لزبون، الرقص على ألحان المزمار، وباقة الزهر الرخيصة... صفّق الشيخُ

ورفع كأسه على صحة «فولين». ابتسم الآخر بوجهه الأبيض الذي خدّده شعر

أسود ولم يشرب. ضحك الدكتور.

« قلّ لي... قلّ لي... كان يُضايقه ألاّ ينادي «ليرتيلوا» باسمه اوريليان

لأن سيمون كانت تتأديه: «روجيه»... «قلّ لي، ليرتيلوا...» كان اوريليان لا ياب

كثيراً للدكتور. لقد تذكرت قبل هنيهة ذلك الشيء الذي لا يريد أن يغيب. ذلك الشيء الطافي في الجو، والذي فقد الإحساس به منذ ساعتين... وأكمل الدكتور كلامه:

- ألم تعرفه... ضيف «فولين».. صديق «مانون كروز»... أمعن النظر، يا صاحبي... الشيخ... هذا شيخ....

- وحتى لو كان باباروما، ماذا في ذلك...

- أنت سكران، هلا تعرفته، يا صاحبي... الشيخ... الشيخ باربنتان، مابك.. والد ادمون رئيسك في مجلس الإدارة..

إن اسم باربنتان أصاب ليرتيلوا في صميم جرحه. فتأوه، وصحح جلسته، وتطلع. جلست «مانون كروز» قبل هنيهة، بجانب الوافد الجديد، وسط تصفيق الزُّين والبنات. لاشك في ذلك، فهذه السحنة سحنته. كان باربنتان بعينه، باربنتان المحترم، في الساعة الرابعة صباحاً، شارع «فروشو»! عجباً! وعندما أقول عجباً... رفع أوريليان يده إلى قلبه وحيّاً الرجل بذراعيه تحية عريضة، عبر الموائد، والنُدُل، والشاربين. كان الشيخ متلفتاً نحوهم، فغمز بعينه، وفتش في ذاكرته، وعرف «ديكور». تحرك في كرسيه. كانت «مانون كروز» تلامس فخذه، فردّها قليلاً وأجاب عن شيء قاله له «فولين» ثم لم يستطع صبراً، وشوهد وهو يتمايل مثل خذروف ضخم، ويتهاى للاندفاع، ويقع على قدميه، ويعود خطوة، ويعتذر من فولين، ويطلب طبعاً على خد المغنية، ويفصل عن الجماعة، وامتدت لحيته إذ ارتسمت فيها ابتسامة، سار نحو الدكتور وأصدقائه. وأظهر الدهشة، الدهشة السعيدة والمفتونة، واللفظ، وكان يهتف قبل ثلاثة أمتار اللهجة التي تجمع بين الجسارة والإسرار في الجملة الأولى: «دكتور... سيد ليرتيلوا... سيداتي...» هل سيتمنى لهم عاماً سعيداً؟ «لكن اجلس، سيدي الشيخ». كان أوريليان هو الذي دعاه إلى الجلوس. تناول كرسيّاً، وابتسم لذات اللون الفسقي، وحيّاً سيمون مرة أو مرتين وهو لم يُقدّم إليها. لم يكن يعرفها. هذه المرأة الصغيرة. نظر إلى ثدييها نظرة مأكرة. «السيد دي مالور... الشيخ باربنتان...» قطع الشيخ كلام الدكتور. لم يكن يتوقع أن يُقدّم إلى

هذا الشاب ذي الرقبة الهائلة، والى هذا الاسم غير المتناسب معها. «أرجوكم، ياسادتي، أنتم لم تروني هذه الليلة! أتفهموني؟ لم تروني هذه الليلة. أنا لست هنا، أنا في اللوكسمبرج!» وكان ممثلًا بضحكات قصيرة وبلهجة الجنوب التي أطلقت أنخاب الشمبانيا. ولم يرفض كأس شمبانيا سالت رغوتها على لحيته. قرص قليلا جارته التي لاشك أنه يعرفها لفرط مجيئه الى هنا من أجل «مانون كروز».

- نعم، ياسادتي، فهمتُ.. لم أتحرك من مجلس الشيوخ هذه الليلة.. كانت ليلة تاريخية لانظير لها! هذه هي المرة الرابعة منذ سنة ألف وثمانمئة وسبعين يُصوّت فيها على ميزانية الجمهورية في الوقت المقرر من غير الميزانيات الشهرية الموقّعة هكذا!... فبفضل حيلة قانونية تسمح بتمديد السنة بضع ساعات... في الحادية عشرة وخمسين دقيقة، أوقف الحاجب الساعة الجدارية في قاعة الجلسات، وتركّت زملاني في الساعات الثلاث والنصف يعيشون السنة الفائتة وهم ينجزون المواد الأخيرة.. لكن الكارثة ان ينتهوا في السادسة، السادسة والنصف... أتتابعونني. المرة الرابعة منذ ألف وثمانية وسبعين! ومن المفْضَل ألا تقولوا شيئاً لابني بسبب السيدة باربنتان... الكلام بين ذوي الشرف!... لكن اعدروني، فهم ينتظرونني...»

وأسرع الى مائدة «فولين»، قال ديكور:

- كائننا، ياعزيزي، في اجتماع مستحضرات «ملروز».. ولا ينقصنا سوى، المقطوع الذراع! آه لا، لا تطلب زجاجة أخرى! قال اوريليان وهو مغتاظ:

- وإن كان هذا يلائمني. المرة الرابعة منذ السبعين! يانادل!

تنهدت سيمون:

- يجب أن تأتي لتنام «روجيه».

نظر إليها، كان هنا، معها، وكانت تنتظر أن يَقْبَلَ... ضحك. بسيطة جداً الحياة، والشيخ والشمبانيا وسيمون... طيّب سيذهب لينام معها. ووضع على كتفيها العاريتين يداً، يد المالك:

- ينادل! أه، لكن، بعد أن أحطم أنف هذه الدمية!

وقبض على السيد «دي مالمور» من ربطة عنقه. تساقطت الكؤوس. وكان هناك صوت التكسير، وتدافعهما والدكتور بينهما، والشاب الذي تلعثم، والناس الذين التفتوا... رمى أوريليان على الطاولة بورقة ألف فرنك... كان الشاب يقول: «إنه ليس رابط الجأش!» وسيمون تقول. خذ مالك، «روجيه»، مهلاً، مالك... والتقطتها وتركت الحلوان.

- انا أسكن ذلك الزقاق الصغير، قرب الطاحونة الحمراء... هلاً أتيت، عندي غان، وسيدفا الجو.

وجد نفسه، دون أن يعرف كيف، في عربة جياد. كانت ترتج. لم يكن معه الدكتور. ولا الشخص ذو الجوزة، ولا المرأة ذات اللون الفستقي. لم يكن معه سوى سيمون، رقيقة، مداعبة، تقبله، بفم رخو رطب... وجرحته، على نحو ما، أنوار ساحة «بلانش»... «مهلاً مهلاً، استند علي، وبالدرج الضيق الأسود، بلغا الغرفة، الشيء الوحيد الذي كان يرى هو السرير، وصور في هذا الخليط الوردي بجانب النافذة، وستائر بأهداب.

أحس أوريليان أن حذاءه يُقْلَع. كان ينظر دون أن يفهم شيئاً إلى وليد عارٍ ممدد على وسادة صغيرة في ديكور من المحار، خلف حاجزٍ بزهور، وحوضٍ ومطبخ صغير، وموقد أخضر... كل ذلك كان حلاًماً مزعجاً وماذا جاء يفعل الشيخ وسط ذلك؟ وهذه العاهرة.

- يا «روجيه» الكبير، لن تصدقني... لكنني مغرمة بك منذ شهور... وأبيت أن تأتي معي...

هذه المرأة الراكعة أمامه... وتحت خاضريتها السرير الذي يغرق. هذا النور الخافت... فماذا يعني ذلك؟ قد كانت الحرب، هور، بومبار، سالونيك... كل ما كان حلاًماً ولم يتجسد... الأعوام التي تفلت... من هذه البنت، هناك؟ نزع غطاء رأسها في حركة وحشية. نظرت إليه بدهشة، وصرخة قصيرة. رماها على السرير. وهو ملبكُ بشيا به، نصف عارٍ على يدها. تألّوت: «روجيه، روجيه»، ومن ذلك؟ سيحطم له أنفه، كانت قبالة امرأة رأى فيها فجأة المشهد، الفوضى، وفظاظة حبهما، وحينئذٍ باشره بعنف.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة، عندما لاحظ أوريليان، حين وصل إلى بيته، سيارة ادمون على الرصيف. مامعنى هذا؟ أ جاء ليتمنى عاماً طيباً وسعيداً؟ أحسّ ليرتيلوا بضيق شديد، وبإحساس من الجفاف في الجلد كله صعد الدرج أربعاً فأربعاً.

على سطح الدرج، كان ينتظره مشهد غريب. كان هناك صيحات وباربنتان في معطف رياضي موشى رمادي، وقبعة مائلة قليلاً، يقف بالضبط كما يقف مفتش الشرطة الذي يسعى إلى اقتحام منزل، وقدمه موضوعة بحيث يحول دون صفق الباب في وجهه. وكانت السيدة «دوفيني» التي لم تُشاهد سوى يدها والقليل من شعرها تجيب بحدة من الباب المشقوق.

- مهلاً، مامعنى هذا؟ سيّدة «دوفيني»، أدخلي السيّد باربنتان! كانت تدفعه من كتفيه، فتراجعت وهي مضطربة اضطراباً شديداً، زامة شفيتها، لكنه كانت تشير إلى معلّمها رداً عليه.

- أ بي هذا السيّد أن يصدّقني أن السيّد ليرتيلوا ليس في المنزل! لم يلاحظ أوريليان أن زائر كان شديد الحمرة إلا في الغرفة، وقد بدد عليه الحيرة. لكن قبل كل شيء:

- اعملي لي شايّاً، ثقيلاً جداً، سيّدة دوفيني»، مع الليمون الحامض..
- شاي في الصباح! لعلك لم تفكر في ذلك، فعندنا قهوة...
- قلت لك أريد شايّاً.. مابك، ياترى؟ دعينا وحدنا..
عندما انفردا، انفجر ادمون:

- أين بيرينيس؟

- بيرينيس؟

- لا تتغاب. هي هنا...

كان ذلك مضحكاً جداً. لكن ادمون لم يبدُ عليه أنه يمزح. فقد أمسك أوريليان من كتفيه.

- أأنت مجنوناً؟ أنت كالزوج الغيور.. ولا تقل لي إنك لاتعرف أين هي؟

تراجع اوريليان الى الوراء:

- شرفاً... ولم جئت تبحث عنها هنا؟

- وأين تريد أن أبحث عنها؟ مادامت الأشياء ضمن بعض الحدود...

لكنك بالغت، في نهاية الأمر!

- لست أفهمك. على الإطلاق.

امتدّ ذلك خلال بعض الأجوبة. ثم خطرت لاوريليان فكرة هي أن بيرينيس قد اختفت حقاً، وأن قد أصابها شيء ما...

فقال

- اوضح لي... بيرينيس.. ماذا أصابها!

- هذه هي الكارثة! أنت تسألني؟

- أجب ماذا أصابها؟

- ماكنتُ أعرف فيك موهبة الممثل هذه..

جلس ادمون، وردّ قبعته الى قذاله، فازداد شبهاً بالشرطي:

- تركتُنا بيرينيس مساء أمس، قبل منتصف الليل بقليل، بعد بضعة

كلمات حادة من زوجها... ظننا أننا سنعثر عليها في البيت.. كنا في «البوف»...

لكننا لم نجد أحداً.. ومرّ الليل كله.. وفي الصباح لم نر بيرينيس. وحينئذٍ جئتُ،

كان يبدو عليه أنه يجدّ ذلك طبيعياً. لكن قلق اوريليان لم يكن متصنعاً.

وقد أخرجته عن طوره سخريّة ادمون الذي أضاف:

- لستُ، في نهاية الأمر. عشيق السيدة «موريل»! ذاك أسوأ..

- لا؟

كانت لهجة الهزء قاتلة:

- لو لم تكن في بيتي..

- اوه! أنت إذن مضحك!

لولا قليل لتضاريا. لكن إن كان ادمون محمراً فإن اوريليان كان شاحباً.

لم يكن يستطيع أن يمتنع عن التفكير في السين، تحته، في الغريقات اللواتي

يُنْتَشَلْنَ منه، وفي المجهولة، وفي الميتة المقطوعة الإصبع منذ أمدٍ قريب. قال:

- ليس هذا، في النهاية من شيمتها... ليست من نوع النساء اللواتي يهربن.

- حلوة هذه الكلمة «نوع»، تجربتك للنساء، بفئاتهن..

- أشتي أن أصفك....

فُتح بابُ المطبخ، كانت السيدة «دوفيني» تحمل الشاي، حطّته
فنجانين: «أتركه ينقع، ياسيدي».

كانت تبدو كمن يُريد أن يقول شيئاً، صرفها أوريليان الذي فقد صد
دعينا»، ثم سأل بارنبتان: «أتريد شايًا؟»

- لا، شكرًا... في الصباح لا... أنا من رأي خادمك...

لم يكن الشاي ثقيلًا بعد، توقّف أوريليان عن سكبهِ على شريحة الليم
تابع بارنبتان:

«هكذا فانت لم تر بيرينيس منذ مساء أمس الساعة الحادية عشر
والنصف؟»

هذا استجواب، لا بدّ من الإذعان.

- لا كنتُ في حانة «لولي» مع طائفة من الناس. وقد سكرتُ سكرًا بشد
فبتّ خارج المنزل... مع الصبيّة سيمون، إن شئت ان تعلم.. وليس في ذ
مايدعو الى الفخر... أسررتُ؟

قال ذلك كله دفعة واحدة، بهياج، والطريقة التي احاط بها غلاية الشد
وعبت بشريحة الليمون، بطرف الملعقة، كانت تدلّ بوضوح أنه ربما كان سكر
في هذه الليلة، هزّ آدمون رأسه:

- غريب، كنتُ سأقسم... إذن كيف أقدمتُ على ذلك هذه البغيّ الصغير
وفوق هذا فأنا احمل على كتفي هذا الغبيّ «لوسيان»، أنه ينتحب، هذا كل
استطاع ان يفعله، إنه ينتحب...

- وماذا تريد ان يفعل غير ذلك؟

- أن يأتي ويحطم أنفك؟

- شكرًا، لكن بما أن...

- اوه، ربّما لم تكن هنا، لكن سيّان...

- قلتُ لك إنّني لستُ عشيق السيدة موريل، مفهوم؟ نهائياً، مفهوم؟

كزّ أسنانه، واستشّاط غضباً، وأضاف ادمون:

- ثمّ يجب ان تعثر عليها الآن... فربما أصابتها مصيبةٌ.. من يدري؟

- أتريد أن أقوم بجولة على مستودع الموتى؟

- أنت غير معقول، سيّان عندك، مادامت ليست هنا، سيّان عندك..

أنت... أما أنا..

- أنت ماكنتُ أظن أنك عشيق السيدة موريل...

- أنا، أنا أحبّها، ياغبى، فهمت؟

كان ادمون يهزأ. لم يكن ينقصه سوى هذا العواطف العظيمة، بول وفرجينى، روميو وجوليت، في هذه الأثناء، أين تكون قد ذهبت بيرينيس، في هذه الليلة؟

» هل دعوتني، ياسيّدتي؟

قالت السيدة دوفيني ذلك وقد عادت الى الظهور عند عتبة الباب، ولا بدّ أنها خشيتُ اقتتال الرجلين، كانت تتسمّع عند الباب، دون شك.

- دعينا وحدنا، سيّدة «دوفيني»..

انسحبت مرة أخرى، وهي تهتمهم. وأخيراً انسحب ادمون:

- أخبرني إن عرفت شيئاً، بهاتف؟

أضحك تعبيراً أوريليان القلقُ بارينتتان:

- نعم، نعم، موافق... تحيات الاحترام لسيمون... لا تنسَ... تحياتي

العميقة..

ابتلع ليرتيلوا فنجان الشاي الثالث، وتناول شريحة الليمون بين أسنانه، وتذوّق حموضتها، اوه كل هذا في مقابل سكر هذه الليلة.. ومضى ليستحمّ.

كان في وسط الغرفة عندما رأى امامه بيرينيس واقفة.

* * *

كانت في فستان المساء الأبيض التي ارتدته في منزل «ماري» وقد برزت كتفاهما وذراعاها العاريتان من البياض الذي كان كأنه يرتعش، وكان في يديها قفاز طويل أسود مكفوف، وكانت تجرّ على الأرض المعطف الرمادي الباهت الذي تركته يسقط في هذه اللحظة بالذات، وكانت قسماؤها تعبر عن التعب، عن ضرب من الفزع من ضوء النهار، وكان شعرها الأشقر مشعثاً، كانت تنظر الى اوريليان وهو صامت، لم يكن عندهما مايقولانه، لقد قيل كل شيء، كان كل شيء واضحاً على نحو فطيع، وفكر في أنها كانت صورة الشقاء ذاتها، وكانت شفثها ترتجف أكثر من أي وقت مضى وكانت لئيفاتها أكثر ظهوراً وهي بلا حمرة وكانت بيرينيس تفكر: ليس ما فعلته في مصلحتي تنهد الرجل انتابه شعور بالانحطاط، فقال:

- هل سمعت؟

- كل كلمة...

لم يكن ذلك ليسهل الأمور. أراد ان يوضح لها أمر سيمون، وأن ذلك لايعني شيئاً على الإطلاق... سيطر عليها كرهها لابن عمها... قال كلاهما ما لاينبغي أن يقوله، قال هو: «أقسم لك أنني لا أحب غيرك...» وقالت هي: «كان بوسعك أن يستغني عن وصف «لوسيان» بالغباء!

في كلمات مثل هذه يمكن أن تفهم بغموض جملة من الأشياء العامة. إن كان ذهننا متجهاً الى علم النفس، مثلاً الى أي حد لا تكون محادثة بين كائنين، وكان من شأن ذلك ان كلا منهما سعى بإرادته الى متابعة فكرة الآخر ليصحح القدر، وعندما قالت بيرينيس: «كذبت علي»، سمعت جوابه. «أه؟ إنما كنت تفكرين فيه!»

كانت السيّد «لوفيني» في جانب تنبش في الغرفة دون هدف، صدرت عنه حركة تنم عن نفاد الصبر، وخطا خطوة نحو الباب، كانت الخادمة ترفع أدوات الشاي:

- سيدة «دوفيني»، دعي ذلك، دعينا...
حطت الصينيّة، المثقلة، وقد بدا عليها ما يُشبه الاحتجاج، وواضحة،
وهي تنظر الى الفنجانيين وقالت:
- حاولتُ أن أعلمك، ياسيدي، لكنك لم تدعني أتكلم..
- طيّب، سيدة دوفيني، طيّب...
- هذه السيّدة الشابة المسكينة... كانت هنا نائمة على المقعد لم يكن
بوسعي أن أدعها في الخارج...
نظر إليها وهي خارجة. وعندما عاد الى الغرفة، كانت بيرينيس جالسة
عند قائمة السرير. وكان معطفها على كتفها. كانت مُشيحةً بوجهها.
- أنمتُ هنا في الأريكة... على قرص الدرج.
أجابت «نعم» برأسها. كان الكلام شاقاً عليها، فأجبرت نفسها، وتغيّر
صوتُها وغدا مصطنعاً:
- وصلتُ، حوالي منتصف الليل.. لم تكن هنا. أردتُ أن انتظر... ومرّ
الوقت فَنمتُ، هنا على المقعد. ووجدتني الفراشة هنا..
لاحظ أن فستانها كان مدعوكاً... تذكرُ منتصف الليل، في حانة لولي،
والذراعين اللتين طوّقتاه... همس:
- وهكذا جئتُ حقاً..
أشاع ذلك صمتاً لاقرار له. وعلى حافته قاسا كلاهما مقدار الشقاء،
ملا سبيل إلى إصلاحه، ذلك الشيء الشرس، تلك الورطة. كانت في عيني
بيرينيس تلك الليلة الطويلة، الانتظار، الهول والضعف أخيراً. لم يعلما أن
أفكارهما تلاقت في لحظة من هذه الليلة، كما التقت في منتصف الليل.
كان يعلم أنها لن تغفر له تلك الخيانة، تلك الزلّة في نهاية العام...
سيمون... والحقيقة ان ذلك كان حمقاً شديداً «سوف أشرح لك...» دفنت وجهها
في يديها. كانت تبكي: «أتبكين؟ بيرينيس... بيرينيس...»
- لا، لا تَمسّسني، دَعني، دَعني..

تركها . كان قادراً على قتل نفسه من أجل ما فعل . لم يكن يستطيع أن
يقوله ، لقد فعله . كان هناك حياً ، وجاءت هي لتلقاه ... وأنا ...
- جئت لتلقيني ، وأنا ... وأنا ...
- وأنت !

ماذا كان يمكنه ان يقول أكثر من ذلك ؟ ألم يكن كل شيء واضحاً تمام
الوضوح ؟ كالشقاء . انتفض :

- لكنك تعلمين أنني أحبك ... ولا أحب سواك ... وأنت حياتي ..
الحاصل أنه استخدم جميع الألفاظ الضخمة المسكينة . تركتها تتساقط
كما يتساقط البلاط . مع طينيتها الجميل ! أخذ يتمشى طويلاً وعرضاً . أغرق يديه
في جيبه . هز كتفيه . تنهد . توقف عند ستائر النافذة . وداعبها بغباء . رأى يده
تفعل ذلك فردها الى جيبه بحركة نزقة . ثم ألقى بنفسه على المرأة التي كانت
تبكي بهدوء على المرأة . وفكر في تلك المرأة وصاح تقريباً : « أه ! تكلمي ... تكلمي !
في النهاية ! لا أستطيع أن أتحمل صمتك .. أهينيني .. ابصقي في وجهي ...
ماتشائين ، لكن لا تبقي هكذا ، هنا .. تبكين .. بصمت ... تكلمي !
هزت رأسها مرة أخرى ونظرت إليه ، الى الذي دمر كل شيء أكمل
تدمير وأشدّه . الحب والحياة . كليهما . لم تره قط ساخطاً هكذا . بعد ثلاث دقائق
او أربع سيكون هو الذي يهينها ، هي ... ستحمل وزر جميع الأخطاء . لم يعد
ممتعاً . لقد طلعت لحيته في الليل ، زرقاء . وكان في وجهه بقع كالرخام عملها
وهو يشد بأصابعه ، في حركات لاشعورية . كان سيخجل منها لو رآها في المرأة .
قالت :

- يا الهي ، ما الذي صنعتته بنا !
- لكن ، مهلاً ، ذلك ممكن إصلاحه ، نعم ، أعلم ، وأطلب صفحك . كل شيء
يرهقني ، في الواقع لم ..

رأى في عيني بيرينيس ملاحظة هازئة : هو مخطئ ، لكنه ليس مخطئاً
جداً كالآخرين .. كجميع الآخرين ... سمعها وكأنها قد صاغت فكرتها ، وتوقف ثم
استأنف بامتعاض عميق ويأس في صوته :

- أنا أبله... أنا مخطيء! لكن مع ذلك، ألا يمكننا أن نستأنف... تكلمي،
هيا تكلمي، صمتك يجنّني!
جهدتُ جهداً محموداً لتتغلب على نفسها، لتتغلب على القدر الذي
انتصر. حاولت أن تشرح:

- يا صديقي المسكين... كنتُ دائماً هكذا... الشيء الملتصق، المثلّم،
المهشوم.. وإن كان أجمل شيء في الدنيا... لا أستطيع أن أراه.. يجب أن
يُرمى... لا أستطيع أن أحمله.. تعرّف تلك الحركة، حركة الراعشة التي كثيراً
ماتصيها، ولم يكن بوسعها أن يقبل بهذا الحكم القطعي. لم يكن بوسعها فقال:
- أتريد أن ترمي بحبنا؟

تدثّرت بمعطفها أكثر، وأخذت يداها تمران بالتناوب الواحدة فوق
الأخرى، وكأنها تصقلهما، حلمت عند كلمة الحب. وتاه فكرها. كان قد لدغ
الصمت صعباً كما كان قبل قليل.

- بيرينيس، في هذه الليلة، سواء قصّدت أم لم تقصدي، أقدمت على
شيء خطير: لقد تركت زوجك من أجلي..
نظرت إليه، وحاولت أن بضك. كان ذلك قاسياً
- ولم أجذك... هذا كل شيء!

استولت عليه فجأة هذه الحقيقة: لم يبق فيها شيء من الفتاة الصغيرة
التي عرفها، التي أحبها كثيراً. كانت امرأة بانسة، متعبة، عيناها متهجّجتان،
حمران... رآها بقسوة مارسها أولاً على نفسه... ولم يكن يعلم كيف يكلم هذه
المرأة، هذه المجهولة.. المجهولة... ثم إن الأمر تافه! لقد نام مع سيمون...
مفهوم... وماذا في ذلك! هذه الزفات القصيرة من بيرينيس لا يُحتمل ذلك!
كانت ردّة فعله هي ردّة فعل الرجل، جميع الرجال: كلهم يعتقدون هكذا، أن في
أذرعهم سحراً. في تماسّهم، في قوتهم، وبون تمهيد، أخذ بيرينيس بين ذراعيه،
لم تتمنّع وضماها إليه، وطافت يداها عليها وكأنها شيء له، وردّ رأسها إلى الخلف،
وتحرّى شفيتها، وقبلها... قبل ميتة.. تركته يفعل بسلبية مرعبة، أسوأ من

التمرد، من الصراع... ومضى في عناده ومدّ ضمّته للفراغ، أبي أن يهزم...
قالت فقط. لقد ألتنتي.. فخجل وأرخاها.
عاد الصمت، الدوار، بيرينيس هي التي قطعت الصمت هذه المرة، وقد
خنقها الصمت الذي مدّه أوريليان بخبث.
«الواحدة بعد الأخرى.. لم تكذ تتركها بعد... ومازال عطرها يفوح
منك...»

تمتم بشيء. أممكّن ذلك؟ لاشك ان هذا العطر من اختراعها.. ثم ساوره
فرح غيبي. إنها تنار! وقال لها ذلك. «أتغارين؟ أه وهذا أيضاً ماكان ينبغي أن
يقوله فما الذي ينبغي ان يقوله، على كل حال؟ أمن الأفضل أن يتكلّم، أن يُطلب
أن يغرق بيرينيس بالجمال، أن يخدعها. أن يستولي عليها؟ وفوق هذا وجع
الرأس الشديد. كان يعلم أنه يقامر طوال حياته بأوراق خاسرة مع الرغبة في
أن يرميها وأن يطلب غيرها..
- وماذا ستفعلين الآن؟

أثارها بهذه الجملة. لم تجب.. تابع:
- تعودين، تعودين بتعقل... وربما طلبت الصفح.. وعلى كل حال، تسلمين
امرك لذوق زوجك ولباقتة..

- لا تتكلّم أرجوك لآعن زوجي ولا عن لباقتة..

قالت ذلك بجفاف. ارتمى على ركبتيها:

- بيرينيس، أنا وحش... لكنني أحبك... لكنك كنت تحبينني، أو كنت
ستحبينني، أو كنت سأتقد ذلك... لقد جئت الى هنا هذه الليلة.. هذه الليلة...
ماذا ينبغي أن أعتقد؟ لا أستطيع أن أتصور أن هذه الحماسة، هذا الخطأ...
سمي ذلك كما تشائين..

- لا أريد، يا صديقي... لا أريد.. ان تغير الكلمات من الأمر شيئاً.. هذا
الاسم أو ذاك... أظن ذلك يُرعبني أقل مما يرعبك؟ لقد انتظرتك هذه الليلة، على
المقعد.. ساعات.. ساعات.. وتسنى لي أن أفكر.. ذاك مُرعب. لكن لا بد من
ذلك... ولا شيء غير ذلك! إلا لأنني بطبيعة الحال، وفي نهاية الأمر سأعود ،

وستكون هناك ساعات، وربما أيام كريمة.. واستفسارات أو ما هو أسوأ: عدم الاستفسار... كرم الصمت الذي هو أسوأ من كل شيء... تلك الطريقة من المشي على رؤوس الأصابع في الحياة... وكأنها غرفة مريض لا نريد أن نوقظه.. بدرت منها حركة سخط وعجز، ثم تماكنت نفسها:

- لا... بل لأن هناك الحياة، أوريليان، الحياة الطويلة كلها، كل أيام الحياة.. أه لا أستطيع أن أفكر في ذلك.. صمتت وعضت شفيتها عضاً شديداً حتى غدا مُستغرباً ألا تَدْميا.

قال.

وإذن، وإذن..

قال هذا بذلك العناد الذكوري الذي يَنْزَع الى استخلاص النتائج المتفائلة دائماً، الى البرهنة بالخلف. الى اعتبار المأزق دليلاً مقنعاً على خطأ طريق السير. كان هنا مثل كلب كبير، مستعداً لداعبتها، ومرتبكاً. نظرت إليه، ورأت عدم فهمه الكلي، عدم فهم في الطبيعة بينهما، فالها ذلك أكثر من أي شيء آخر. صاحت:

- لكنك لاتفهم ما أقوله لك. الحياة كلها، الحياة كلها!

من المؤكد أنه لم يفهمها.

* * *

لو أمتعنا النظر في إنسان ما بحيث لا نرى فيه إلا ما يجعله مختلفاً عن الآخرين، إلا الخاص فيه، فإن من المثير أن نجد، وبقدر أكبر من القوة كلما نسينا، أن الجوهري فيه هو ما يشبه الآخرين. فأنهم من كل ما يكون أوريليان لدى بيرينيس، حتى بالنسبة الى الأفكار التي تسكنه، ان يكون مبنياً على النمط الذي نجده في المعاجم، مسلوخاً، مثني المرفق، واحدى قدميه على درجة السلم. لم يستطع أوريليان أن يحول تفكيره عن هذا اليقين وهو ان بيرينيس قد جاءت إليه ليلاً. تملكه هذا التفكير. عندما تأتي امرأة الى منزل رجل بمفرده في الليل، فنحن نعلم ماذا يعني ذلك. ولو كان قد فكر في ذلك. لوجده حمقاً لكنه كان بدهاء هكذا، دون تفكير. وأي أحد غيره كان سيستنتج الأشياء نفسها، لم تأت

دون أن تتصور... إن فظاظة هذه الفكرة لا تمنعُ صحتها. وهي مثل ترخيص مُعطى. وبدءاً من اللحظة التي تفكر فيها امرأة في رجلٍ على نحو ما، فإن لهذا الرجل عليها حقاً لا ينازعه عليه مُنازع. وماسوى ذلك، مجرد سوء فهم. وهل يُحسب له حساب؟ هاهي ذي هنا، في بيته، وما عليه إلا أن يُغلق مزلاج الباب. خالجه فجأة، وعلى نحو فظّ، إحساسٌ بعدم اللباقة. ماذا سيقولان؟ كانت الكلمات تتصالب في معركة، قيمةُ الكلمات فيها أقلّ من قيمة المقاصد الخفية فيها. كان يتصور الحركات التي ستتلو، ومقاومة بيرينيس، والفستان المخربّ، الفستان الأبيض... جاءت الى بيته ليلاً... وكان هناك أيضاً ماتركته من أجله، تلك الشجاعة، تلك الطريقة في الارتواء في الماء... هل كان آدمون مخطئاً؟ ولا الزوج الأقطع.. لقد رمت بحياتها من فوق الضفة. ولذلك فلم يكن يعتقد بهزيمته. لم تفعل ذلك كله لتسمح للمصادفة ان تُحبط مسعاها. وشعر بكبرياء عظيمة مما فعلته من أجله. إن الكبرياء هي خاصية الإنسان. وهو يُشبه الآخرين بهذه الكبرياء أكثر ممّا يشبههم بذراعيه وقدميه وشهوته. لقد تركتُ «لوسيان» والحياة المنظمة والبيت هناك وعاداتها. انتشى بشجاعة بيرينيس. إنها لم تفكر في العالم، في الناس. نعم، بل أفضل من ذلك، لقد فكرت في ذلك كله. وانتابه فجأة فيضٌ من الاعتراف بالجميل:

- لا، بيرينيس، لن تعودى الى البيت، لا لن ترجعى الى ذلك الرجل.. لن تعترفى بالهزيمة... لا يجب أن تطلبى الصفح... أو ان تتحملى ذلك الكرم القاسى.. ولم تفعلين ذلك؟ أنت تعلمين أنني أحبك، وأنت تحبينني، تحبينني! تجربني وقولي إنك لا تحبينني..

صمتت. وانتصر.

- أرايت، يجب ان نواجه الحياة مواجهة.

بش وهو يقول هذا! أوضح.

- تطلقين... وتصبحين زوجتي..

أخذت بيرينيس تضحك. هذه ثالثة الأثافي! مع مَنْ يظنّ علاقته؟ هؤلاء

الرجال عندما يحدثونك عن الزواج يظنون أنهم قالوا كل شيء. فلا هي بنت صغيرة، بنت خائفة، ولعلها ليست كسيمون.. إنها تعرف الزواج.. ما أقدر الرجل على وضع الأشياء فجأة على صعيدها التافه! كفت عن الضحك، فليس في ذلك ما يدعو الى الضحك. لقد أتيح لها قبل هنيهة أن تقيس دنياً، هوة. وهذه الدنيا تلك الهوة هي الدنيا التي يحملها اوريليان في ذاته.

الانسان ليس وحيداً. وما يفكر فيه، أفكاره هي ما يفكر فيه هذا العالم، هي أفكار الآخرين، جميع من حوله، الأسرة، الأصحاب، اللامبالين، السيدة «دوفيني».. كفت عن الضحك لأن اوريليان هو الذي فكر وأوريليان.. نعم، إنها تحب أوريليان. انهمرت الدموع من جديد، نشقت. كيف كانت تبدو، يا ألهي! وبحثت بعينيها عن المرأة.

كان بجنبها. أخذ يديها. سأل: «ألا تريد أن تصبحي زوجتي؟» لم يكن في هذا السؤال شيء من الخبث. قدم ماعنده. حاولت ان تتصور هذا الشيء: السيدة اوريليان ليرتيلوا.. سيقول الناس أن ذلك كان مفهوماً، رجل فائن، أما الآخر فهو صيدلي في مدينة صغيرة من مدن الريف.. إلام يؤول ذلك كله! كانت منتشية بقصة هذا الحب، اليوم، في هذه الغرفة بل في منزل العزب. في فستان المساء، في وضوح النهار مع هذا الفتى المديد القامة الخارج من عند عاهرة، والذي سيقدم لها مع ذلك السرير وغطاءه، وسيلمس نهديها.. ثم سيطلب صفحها، وسيربط من جديد ربطة عنقه، وسيكون الغداء في «المارينيه» أو في مكان آخر. الحاصل أنها ستكون السيدة اوريليان ليرتيلوا. أصابها الغثيان من جرأ ذلك، وفوق ذلك أنه كان مسترسلاً في الكلام، يعدها بكل الوعود كأن يعيشا في الريف، أو في أمريكا. أو في تاهيتي إن كانت تفضل تاهيتي. كان جديراً بالثناء. أهذا حقاً هو الذي جعلت منه إلهاً لها؟ وقديماً أيضاً أخطاء بصدد «لوسيان». قرصها ذلك في قلبها. لوسيان... أه، من هذه العبودية! مهما يجز يجب أن تحسب حساباً للوسيان، فهي لا تستطيع أن تتناسى ماسيقع للوسيان. ان ينام وان يأكل. كان كذلك في مثل هذه الحالة. ابتزاز حقير. لكنها لا تستطيع تحمل هذه الفكرة. كيف سيبدو بعد ثلاثة أيام أو أربعة، مع ذلك الكم

الفارع الكئيب...

عبثاً انفق اوريليان كنوز البلاغة، أغمضت عينا بيرينيس برفق، وقد حملقت عدة مرات وهي تجفل، قالت عفوك، يا صديقي إني أنام، فأنا ميتة من التعب..

أجلسها على السرير، وهو مرتبك، لقد دفعها بين ذراعيه وهي مطمئنة. تغير كل شيء، ودس وسادة تحت رأسها، كانت نائمة بسط عليها الشرشف الكبير، لم يكن يجرؤ على النظر إليها، عادت من جديد طفلاً.



المرّة التي احتاج فيها اوريليان الى السيدة «دوفيني» كانت قد انسلت من البيت، ولعلها كانت مغتاضة. وتركت كلمة على طاولة المطبخ ستعود في اليوم التالي، في الساعة المعتادة. كان في الخزانة زبدة وغسلت الأواني والصحون، لكنها لم ترتب البيت، وبدلاً من العنوان كتبت، سنة سعيدة، سيدي، وهذا أيضاً، لم يدع لها مجالاً لقوله.

لابأس، سيتدبر اوريليان أمره بنفسه، خرج يبحث عن الطعام، عن وجبة باردة، ليس الأمر متيسراً في أيام الأعياد في الجزيرة. كان عليه أن يقطع الى ضفة السين الأخرى حيث توجد ملحمة تباع لحم الخنزير. كان الجو رديئاً بثلجه الذائب، مع تلك النسمة الباردة التي تلتصق الأذن. كان السين يجري دائماً في مجراه، ماراً بالمنعطفات المعقدة نفسها. وعندما عاد وذراعه محمّلتان بالأسفاط، ولم يكن له مثيل في هذه الوجبات المرتجلة، وكان اليوم جائعاً جوعاً شديداً، خشي أن يكون قد ايقظ بيرينيس بسبب علبة السمك المحمر التي تدرجت.

تقدّم نحو باب الغرفة ونظر الى السرير بتحنن. لم يكن على السرير أحد، ولا في الغرفة، ولا في أي مكان، لكن بيرينيس لم تترك كلمة مثل السيدة «دوفيني».

ساد الذعر في شارع «رينوار». كانت «بلانشيت» مثل ذئبة تطوف من غرفة الى غرفة و«لوسيان» يتبعها بنظرة شاردة، ووجهه وجه الدمية مصطبغ بالحمرة في أحد جانبيه، وكأنه على وشك أن يُصاب بذات الجنب. ظهرا دمون عدة مرات. وكان يحس أنه أفحم في ذلك كله على نحو غير معقول، ثم انه ضاق ذرعاً ببيرينيس ولوسيان، جاءت لتقضي خمسة عشر يوماً وشيئاً فشيئاً.. وحدث أنها في اليوم الذي كان سيذهب فيه هو وزوجته الى رياضة الشتاء... الحاصل انه يريد ان يذهب الى رياضة الشتاء. العقبة الكأداء الآن هي البنتان اللتان كانتا سترسلان مع السيدة موريل وزوجها... اوه ثم ان المربية ستحرسهما في باريس. وفوق هذا كله فلست أدري ماذا فعلت الصغيرة «ماري فكتوار»، لكن أمها صفعتها. وكانت دموعٌ وصرخات. كفى. اتصل هاتفياً بأوريليان للمرة الثالثة. لاجديد دائماً؟ وضع يده على الجهاز «بلانشيت» وناداهما بحركة منه وأعطاهما اسماعاً. اوريليان يقول أن لا جديد... وهو الذي دهش الآن: «ألم تعد حقاً؟ كم الساعة؟ لست أفهم شيئاً من ذلك..

نعم، استغربت بلانشيت ماقاله اوريليان. لم فكر في أنها ينبغي ان تكون قد عادت؟

كان منظر «لوسيان» مؤلماً. لقد ضايقها بسبب أشياء تافهة، ولذلك فلتعد ولن يقول شيئاً... أبداً... انفجر ادمون: «هذا أسلوبك، وأنت ترى ماينتج! لا تقل شيئاً... دع الأمور تجري في مجاريها.. افعل ماتفعله النعامة!

سأل الصيدلي على نحو يثير الرثاء:

— ماذا كان علي أن افعل؟

هز ادمون كتفيه. أه، من لوسيان هذا! وفي هذه الأثناء، إنه يحمل عبء لوسيان وزوجته، وهو الذي ينوي ان يتناول الشاي مع روز.. وأخيراً وصل رسولٌ ومعه كلمة للوسيان. وثب ادمون، من أين جاء؟ مَنْ

اعطاه الكلمة التي حملها؟ كانت خادمة في مقهى، سيده.... لا، لقد رجعت...
أعطوها شيئاً من المال

كانت بيرينيس تقول للوسيان أن يذهب. ليعد إلى بيته، إلى حيث يدعوه عمله وأنها في حالة حسنة.. وليس هناك ما يدعوه إلى القلق، وهي وحدها وإن تقدم على حماقات، إنها بحاجة إلى أن تكون وحدها وسترى، فيما بعد، وستكتب، وستنبئه بعودتها. لكن على شرط أن يتركها الآن لتعود إلى شارع «رينوار» عندما يسافر. ويجب ألا يحاول الاحتيال عليها ليبقى وينتظر. ستستاء من ذلك، تريد أن تبقى وحدها. وبعد ذلك تستطيع أن تعود وكأن شيئاً لم يكن. وهي لا تريد أن تُشقيه، ولولقيته الآن فلن تكون مسؤولة عما لاسبيل إلى إصلاحه..

تأوه لوسيان:

- يا الهي، يا الهي! ماذا فعلتُ لها؟

كان العرق يتصبب منه بقطرات كبيرة. وقد جعلته البقع في وجهه يبدو كدمية المسرح. عرف ادمون على الفور ماذا ينبغي أن يفهم من تلك الكلمة. من الطبيعي أن تكون الصغيرة على حق، فليذهب لوسيان، كان الأمر على الدوام، كذلك.

- أظن أنني يجب أن أسافر؟

- اسمع. إما أن تكون قد ضقت ذرعاً بها، فلا تكن حينئذ كالدمية المتحركة. امض! وإما أن تدعن لما تريد هي، فافعل حينئذ ما تقوله لك: امض! على كل حال امض!

وفيما عدا ذلك فينبغي لابنة العم ألا تعتمد على أننا سنهتم بقصتها طويلاً. سيذهب إلى «ميجيف»، سيذهب إلى «ميجيف». كانت بلانشيت تفضل لو يبقى لوسيان. هل يعلم أحدٌ ماسيكون؟

لغيري أن يقول هذا! أنا خارج.

تركهما تراقبه ويراقبها، في المكتبة، ويدوران حول الهاتف. كان كلاهما

يوذ أن يتصل باوريليان هاتفياً لكن بغير حضور الآخر. رنّ جرسُ الهاتف. تناولت بلانشيت الجهاز. كان اوريليان. نظرت الى لوسيان ولم تُجب عن سؤاله «مَنْ هذا؟»: هذا أنت، بلانشيت؟.. ألم تعدّ بعد؟ لكن ماذا يعني ذلك في النهاية؟... تركته بلانشيت يتكلّم ويتألم هو أيضاً. كانت تتنشي بتلك المראה على كل حال، لم يكونا معاً. ولم تقل له إن بيرينيس أرسلت كلمةً.

لم تقل شيئاً يكشف للوسيان عن أنها تكلم اوريليان. وكم كان يحبها مع ذلك! لم يكلف نفسه التصنّع الآن. لم يرحم بلانشيت. لكن لماذا تدهش مادامت لم «تصل»؟ كانت كلمة «تصل» غريبة فهمت فجأة. لقد رآها، وتركته فظن أنها عادت الى شارع «رينوار». سألت: «هل قالت لك أنها ستعود الى هنا رأساً...» أجاب دون تفكير: «لا»، لقد وشى بنفسه لكنها وشت بنفسها أيضاً أمام لوسيان الواقف، والذي تقدّم ليأخذ الهاتف. أغلقت الخط.

- هذا السيد ليرتيلوا؟ لافائدة من الكذب عليّ، بلانشيت.. كان هو بعينه. سأهتف إليه. يجب أن أعلم، إن لي الحق في أن أعرف، في النهاية.. أنتما هذا، كلاكما، تتحركان بيني وبينهما..

- وبينهما؟

فطن لما قاله، لما اعترف به، لما أقرّ به. فعضّ شفتيه. تأوّه. بينهما، إنه يفكر في بيرينيس وفي شخص آخر، بينهما. كان بيده ألا يفعل ذلك. لم يكن هناك «بينهما». ماذا سيتصور؟ كان بوسعه ان يسأل بلانشيت ليرتيلوا يعيش بيرينيس، أليس كذلك؟ لكنه تذكر الأزمة التي مرّت بها، فلا يجوز له ان يؤذيها. فقد طالما ردّت ذلك عى نفسها... وذاك الانتحار الفاشل اتخذ الآن معنى.. أمن الجائز أني كنت أعمى!

لم تكن رقيقةً معه. نظرت إليه وقالت بلهجة البغضاء:

- «نعم... هما متحابّان... وماذا ينتج عن ذلك؟ ألم تكن تعلم؟ وماذا

بوسعك ان تفعل؟ ماذا بوسعنا أن نفعل إزاء هذه الأشياء؟ أذبحنا متحابّان.

- ماذا فعلت لك، بلانشيت؟

- أنت؟ اوه. هذا مضحك! أنت! لكنك لم تفعل شيئاً، أنت! لا أدري لماذا

يجب أن أكذب عليك، لست ولداً. أنت في السن الذي يجوز أن تتألم فيه، أيؤلك هذا؟ أيؤلك حقاً هذا؟

لعلها كانت تبتغي رفيقاً في شقائها، رنّ الهاتف، اوريليان مرة أخرى، طلبها مرة ثانية لأنه علم أن بلانشيت لم تقلّ له كل شيء، ولم تقول له كل شيء؟ ماذا، كل شيء، من جهة أخرى، أه أرادت أن تستغل أقصى ما في ذلك السرّ الهزيل، كانت تنتقم، بين هذين الرجلين الممزقين، لم تستطع هذه المرة أن تمنع لوسيان من أخذ الهاتف، تراجعت بضع خطوات، رأته يكلم الآخر، رأت شفّتيه المرتجفتين، ويده العصبية، وكفه الفارغ، وحركة قدمه، وذلك التشنّج الذي يدفعه الى تحريك الرقبة بحركة كأنه يريد أن يخلصها من القبة..

- نعم أنا لوسيان موريل... ياسيدي... لا، لم تعد زوجتي... وقد تلقّيت كلمة منها... (الصيحة في الطرف الآخر من الخط أرنت الصفيحة المعدنية) كلا... طبعي جداً.. فهمت... قالت لي... سوف... أؤكد لك صدقتك، ياسيدي... قالت لي...

كانت بلانشيت تتابع هذا الحديث الذي لا يصدق، كانت تكره لوسيان، هذا الرجل الرخو، إنه يخاطب عشيق امرأته، هكذا، دون أن يرفع صوته، ويبدو عليه أنه يشاركه قلقه، لعمري! أه! لو كانت هي! كان عليه أن يقتله، أن يقتل اوريليان... وفجأة استولت عليها هذه الفكرة، ونظرت الى الرجل الذي كان يهتف بشك؟ لعل هذا الهدوء كذب؟ حيلة؟ كان عليه أن يسافر كما طلبت بيرينيس، يا الهي، إنه يفكر في ذلك!

عندما ردّ السّماع قال: أتريد أن أساعدك على ترتيب حقيبتك؟

- حقيبتني؟

- لكك كنت قد صمّمت على السفر..

- كنت، كنت تقولين على العكس...

- أين ذهنت؟ بما أن بيرينيس طلبت منك ذلك وها أنت ترى أن كل شيء

تحطّم بينهما... وأنه لم يستمرّ ألا بسببك.. بسبب هفواتك... وكلماتك الرعناء.. مثل مساء امس... ولولاك لكانت قد سافرت دون أن تلقاه..

- أتعقدين ذلك؟

لم يكن يعلم ماذا يفعل، وماذا يعتقد. تجهّم وجهها، «بلانشيت» وزمّت شفيتها، مظهر التصميم الذي جاءها من أبيها، ولم يكده يعرفه لوسيان، أباه «كيسنيل»، لكنه في النهاية تذكر...

- إذن.. أترتب الحقيقة؟

سلم بذلك.



لم يسافر لوسيان في هذا المساء، مساء رأس السنة، لم يستطيع أن يعزم على ذلك. وتباطأ يومين في شارع رينوار، وفتفت بيرينيس ثلاث مرات أثناء هذين اليومين. أين كانت؟ أبت أن تقول. وقبلت أن تكلم لوسيان لتحته على السفر. وهذا ما أقنعه أخيراً بالسفر.

هذان اليومان الممتلئان بسوء مزاج ادمون، وبقلق بلانشيت، سحقاً اوربليان سحقاً لانهاية له. فالشعور بالذنب الذي انتابه إزاء بيرينيس، وزيف موقفه تجاه الزوجين باربنتان، ألقيا بأفكاره في فوضى جديدة اختلط الأمر فيها عليه. كال فراغ والانتظار وشيء لم يكن اليأس، بل غياب الأمل، كلّ أمل. لم يكن يتمنى شيئاً بل كان من غير المحتمل ألا يعرف أين بيرينيس، وماذا تفعل. تجول في اليوم الأول وهو يحمل هذه الفكرة المجنونة وهي أن المصادفة ستجعله بها في مكان ما. وفي اليوم الثاني لم يجرؤ على الابتعاد عن هاتفه. وقد صدّه ادمون لفرط ماخدش أذنيه بأسئلته التي كانت هي نفسها. يُضاف الى ذلك أن أباه هاجمه. بعد أن تسلّطت عليه الأقاويل شبه الرسمية، واستفزّه سقوط «بريان» الممكن وأن «بوانكاريه» وعده.. وفي هذه الحالة يحسن به ألا يكون جمعية «ملروز» على الفور لكيلا يتقول الناس عليه.. وهنا، انتفض ادمون كيف؟ أبوه رعديد، ولم يصل الى اكتشافه، لكنه يستطيع ولو مرة، أن يؤدي له تلك الخدمة! كل ذلك يسبب سراب الحقيقة الوزارية الدوري. أه، لا، عجباً! لقد قرّعك الشيخ. سنرى، ولم يتوان، فهتف الى «ادريان» وأمره بتنشيط تكوين الشركة ماذا كان يفعل هذا الرجل؟ لا، لن يُصفي الى ايضاحاته، واعتذاراته. كفاه

تضييعاً للوقت! ووضع السماعة.

كان الشيخ ينظر بدهشة الى غضب ابنه فقال : لست أفهمك. ادمون... يبدو لي ان منصبي... أبوك وزير، هذا مع ذلك... أو على الأقل نائب وزير»
كان مضحكاً. نظر ادمون الى نفسه في المرأة كان محمراً وقد شعّت شعره المدهون. فغدت أصابعه دسمةً، وفوق ذلك بيرينيس، ولوسيان وأشياء أخرى! كان يدمدم هذا بغض النظر عن بلانشيت التي تزايدت غرابةً.
هدأ كل شيء حوالي المساء مع سفر لوسيان.

في اليوم التالي جاءت بيرينيس تطلب أغراضها. كانت ترتدي فستاناً بسيطاً اشتريته من «الغاليري»، وبدأ المرض على وجهها. سألها ابن عمها: أين اختبأت، يابنتي؟ كانت مراوغةً. لدى الأصدقاء. الأصدقاء؟ لم تجب. اوه ثم انها بلغت السن التي تتيح لها أن تتصرف وحدها! كان اللقاء مع بلانشيت أقرب الى الحدة دون أن يقال فيه شيء خاص، اعتذرت بيرينيس بخصوص لوسيان والصغيرتين، وقد أسفت لأنها لم تصطحبهما.. كانت بلانشيت ترتجف. كانت تحرم على إشعارها بأن الغلبة فيها لشعور وحيد. وحيد. ولا حاجة الى تعريفه تعريفاً آخر. نوع من الاحتقار المرّ. لقد قطعت بيرينيس عهداً على نفسها وخانت العهد، أليس كذلك. هذا وحده المهم. كان الكلام يدور على السيد ليرتيلوا! لكن لم تذكر أي منهما ليرتيلوا. أه! بالمناسبة، لقد اتصل هاتفياً عدّة مرات. ساد صمتٌ. وتنوين العودة الى لوسيان... قريباً؟ لا أدري. سنرى فيما بعد. وستذهبان الى «ميجيف»؟

انفجر «ادمون» وكيف لا، سنذهب الى «ميجيف». وبحدة: شبعنا من باريس، ومن الناس، ومن الأسرة الثلج والزلاجات... إن سقطت الوزارة فلا أودّ أن أكون هنا، لأرى مرةً أخرى، أبي يجهد نفسه على نحو مضحك. ويكده الأمل في أروقة المرشحين لرئاسة الوزارة، الهواء النقي، الطبيعة! في الجبل ننسى المفاهات.

- «إني أتساءل من هؤلاء الأصدقاء الذين كانت عندهم... ألدك فكرة؟

بعد أن ذهبت بيرينيس مع حقيبتها، أخذت بلانشيت تقدر. قال ادمون:

- أنا؟ ولا أدنى فكرة! مالم يكن... من يُدري؟

- أتعقد ذلك؟

أسرعت في قولها: «أتعقد ذلك» إسراعاً احمرت خجلاً منه. ضحك

ادمون:

- وأنت... أتعقدين؟

- لكن عمّ تتحدّث؟ لا أفهم.

- دعك، ياعزيزتي، تعلمين ماذا أقصد...

كان بغيضاً، وفاجأ كلّ منهما الآخر وهما ينظران الى الهاتف. كان
الجهازُ هنا على الطاولة مثل إله حديث، أسود ومُهَدَّد. وبلغ من عدوانية ادمون
أنه داعبها.

- «قلّ لي»..

حملة صوت بلانشيت على رَفَع عينيه إليها. كان يَسْتَقْهم بنظرته.

- قلّ لي... في «ميجيف»... هل سنلتقي السيّد «ملروز»؟

كانت هذه أول مرة تتكلّم عنها مباشرة. كان ادمون رياضياً، وكانت
ردود فعله سليمة:

- لن نلتقيها هذه المرة، ياعزيزتي... فلديها التزام.

كان يحرك كتفيه وكأن سترته أصغر من منكبیه. هذا الرجل لا يؤخذ
أبداً على حين غرة، كل شيء صالحٌ عنده ليسجل انتصاراته على خصمه.
وكانت بلانشيت تُهزَم في كل مرّة. أضاف بشيء من التهاون:

- أتريدین أن أدعو أوريليان معنا؟ فلابأس به في التزلّج المتعرج.

- لم تقول لي ذلك؟ قبل لحظة، كنتَ تقول...

- اوه! كنتُ أمزح! وما دام ذلك لا يسرّك أبداً! ثم من جهة أخرى، سنيبدو

في هيئة حزينة، من جرّاء قصة بيرينيس...

لم تُجبْ كانت جالسة تقطع آلياً صفحات كتاب أوصتها به السيدة

«كروبي»، كانتتيفريل، الفائز بجائزة «فيمينيا» الحياة السعيدة.

منذ أن صار الزوجان باربنتان في «ميجيف» لم يبق لأوريليان من يتصل به، لم يبق أحد يُسعفه بأخبار بيرينيس، أين هي؟ وهل بقيت في باريس، وقد مرّت به لحظات تمنى فيها لو أنها عادت الى مدينتها مع زوجها، إن العذاب المبتكر لهذا الصمت، والسر الذي يكتنف بيرينيس، وذلك الاختفاء الكلي، كلّ هذا ظنه أوريليان لا يمكن ان يدوم، ظنه ان يدوم . والأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية كانت تحدياً للصبر. وما لا يُحتمل تحوّل الى ألم، وهذا عكس الأوجاع الجسدية. أه، لو أمكن أن يشكّ في نفسه لما شكّ في حبّه لبيرينيس! لا يشك الإنسان في جرح حيّ. الفظيعة والمعضل كان هذا السلوك...

كان أوريليان يعتقد أنه سيهدأ، وسيجعل كلّ شيء محتملاً، وهو يسعى الى الفهم، وهو يفهم. حينئذ أخذ يفتش في هذه الظلمات الحديثة العهد لهذه الأسابيع القليلة غير العادية، ما قد سمّاه سعادة، وكان... فالأمّ آل ذلك كلّهُ؟ كان ليرتيلوا يعذب ذاكرته، ويمزّق قلبه، وهو كان يُعيد، دقيقةً فدقيقة، بناء تلك الحقبة التي انتهت، تلك المغامرة التي كان يُفاجيء نفسه أبداً مذهولاً بقصرها. حجّ الى الأمكنة التي اجتمعا فيها. وفي مقهى «البوليفار» حيث أمسك ذات صباح يدها، شعر بغياب بيرينيس أكثر من أي مكان آخر.. وجعل من هذا المقهى محطة معتادة لأنهرته^(١). لكن، كيف يعود ليلاً الى حانة «لولي»؟ لا لأنه يخشى أن يرى سيمون: بل كان يبدو له أن ذلك سيءٌ بالنسبة الى بيرينيس وإن لم يمنعه شيء الآن من عودته الى منزله بعد منتصف الليل. أي حكم مسبقٍ غريب، أي طقس عجيب، بدا له أنه يمثل له، يمكنه ان يفسّر قطيعته لعاداته؟ فقدت حياته من جراء ذلك توازنها، واتخذ ذلك حقاً طابع العقاب الذي يفرضه على نفسه. كان يتألم من أن يكون في بيته، ومن أنه لا يطوف في الشوارع وأنه لا يلزم الموسيقى. ولا يصاحب النساء، ولا يعاقر الخمر، ولا يستضيء بالأنوار،

(١) جمع نهار.

أي ذلك الفردوس الاصطناعي الذي يصعب عليه ان ينام دونه. فكأنه مُدمن أفيون قُطع عنه فجأة مخدره. كان له بسبب ذلك تشنجاته وحالاته العصبية. كان يمشي في بيته مثل دب في قفص. ورأت فيه السيدة دوفيني إنساناً آخر. وانقلب نظام حياته، فكان يقع له أن يتهالك على سريره ظهراً، ورب ساعة كان في كامل لباسه والنعاسُ ينهكه فيها؛ ثم يلقي الليل والأنوار والذكريات وتعدُّرُ إغماض عينه.

وقع في الأسبوع حدثان.

كان الحدث الأول سقطة حُملَ إليه ذات صباح. صورة بيرينيس التي رسمها «زامورا» وقد أرسلت من قاعة العرض عند إغلاق المعرض. كانت السيدة «دوفيني» هنا، وما أكثر الأسئلة التي طرحتها، والصيحات، والشروحات! كان اوريليان قميئاً بأن يقتلها.

عندما عُلقت الصورة في الغرفة، مع قناع الجبس في مواجهتها، كان في ذلك ما يُجنُن. تلك المزحة القذرة. تلك التكبيرة الراقصة لرسمين توضع أحدهما فوق الآخر: أخذ اوريليان الذي قلماً أحب الفن الحديث يكرهها. وليس هناك ما يُثبت أن كرهه هذا لأن شخصية زامورا تلازمه. بل إن كل شيء قد جرى كما لو أن «الفن الحديث»، تلك الشخصية الماكرة قد استخدمت ضده أساليب الاحتيال. وعندما يستعير من بيرينيس ثنائية التعبير، وذلك في هذه اللحظة بالذات فإنما يلعب اللعبة الراححة ضده. وقد استفاد «زامورا» من ألف شيء ليست من الرسم. ولم يكن اوريليان يملك فلسفة التفكير في أن هذا هو دائماً شأن الأعمال الفنية. الحاصل أن هذه الصورة المشوشة المعلقة في الجدار، والانصراف عنها حوالي يومين مزج أكثر أفكار اوريليان سريةً والمأ بفوضى الاعتبار الغريبة عن السر والأكلم. وشيئاً فشيئاً فقدت الصورة من سلطانها، واستعاد القناع، قبالتها، سلطانه، وطابعه، طابع الهاجس الملزم.

الحدث الثاني كلمة من «ادريان ارنو» يطلب فيها من السيد ليرتيلوا المرور على مكتبه في شارع: «بيليه ويل».

مرّ عليه بقلب خفاقٍ من خبرٍ يُحَبَّرُ به ،أو دليلٍ يعثر عليه. لكن لم يكلمه أحدٌ عن بيرينيس، ومع ذلك فقد كانت هي مدار الأمر في نظره. لقد نظر دائماً الى تلك المقايضة الغريبة بين «سان جينييه» وسندات «ملروز» كأنها مرتبطة ببيرينيس. فلماذا لم يعد يعلم عن ذلك شيئاً إلا بغموض. حدثه «ادريان ارنو» عن القضية على أنها قضية مفروغٌ منها. وكان السيد باربنتان يعتبرها كذلك. ثم إن عرضه كان من نمطٍ غير منتظر . فعندما كان «ادريان» يتكلم، كان يبدو كمن يتلمّظ، معنوياً. لأن «أدريان» لا يُفَضِّلُه أحدٌ في الأعمال التجارية من حيث مراعاة الكرامة والجديّة.

وكيف يتهرب أوريليان من ذلك؟ ألم يرتكب بحق بيرينيس خطأ عليه أن يصلحه؟ ألم تُضَحَّ له بطمأنينتها البرجوازية؟ و«سان جينييه» هي الضحية الاسترضائية، وفي مناقشة الأمر شيءٌ من اللؤم. ثم إن القضية، مباشرة على الأقل، كانت قضية رابحة. اختلط كلُّ شيء في رأس أوريليان، التضحية والصفقة، وبيرينيس، وسان «جينييه». وأضفت العناصرُ الغريبة عن الاعتبارات المالية على هذه القصة كلها نوراً لا يخلو من الدوار. ربما كان يُقدم على حماقة. وسيحتقر نفسه إن لم يُقدم عليها. وآثم نفسه بشيء من الجشع. أفلم يكن يخدع ادمون؟ الواقع أنه لم يسع إليه. وأعطى موافقته.

رجاه ادريان أن يمرّ في اليوم التالي، وستكون المستندات جاهزة. وقد ترك السيد باربنتان تفويضات موقّعة على بياض. ولكفالة لم يكن يلزم سوى توقيع السيدة ملروز. آه نعم، هذه نسيها أوريليان.

عندما رجع في اليوم التالي الى شارع «بيليه ويل» كانت «روز» العظيمة في طقم من الحرير الأسود، رفيع الصنعة مع قرنفل أبيض، وباقة على الظهر، وساقياها... لم يكن يرى سوى ساقياها، وهي جالسة، ومصالبة بينهما، مع هذه الفساتين القصيرة التي ترتفع عند الحركة، ساقان بديعتان. لوى أوريليان عينيه عنهما. قال.

- لم أكن أظنك في باريس، ياسيديتي العزيزة.... لتزيني الجو. ماعدنا نرى الدكتور...

ضحكت «روز» بكل أسنانها الجميلة.

- «ديكور» مغمورٌ بالعمل الى ما فوق رأسه، ياعزيزي، بالعطور، والمختبر، والدعاية، والموضع الذي سيقام.. تصورُ أننا نباشر عملنا بين اثناثنا، جادة «شانزيلزيه»... الحاصل..

قاطعهما «ارنو»، توقيع هنا: وآخر هناك، وشرح آلية العملية، حاول اوريليان أن يتابعه. كان في رأسه شيءٌ من الضعف، أضاع السياق، فهو لم يكدر ينم في الليالي الثلاث الأخيرة، طرح بعض الأسئلة، حفاظاً على الشكل، يجب أن يبدو عليه الاهتمام.

كانت عيناه تنزلقان على نحوٍ قاهر، الى الساقين العظيمتين، الحريريّتين، الفتيتيّتين جداً، الحيويتين جداً، ساقان تبدوان كأنهما تعلمان أن الناظر ينظر إليهما، يا إلهي، ما أعظم عري ساقَي المرأة! حتى بالجورب، وكان النشّاف ينشّف التواقيع.

قالت روز: «أمعك سيّارتك». كانت معه سيارته.

- كن لطيفاً، وأنزلني عند «هيلسترن»، إنهم لا يُحتملون، هذه ثالث مرة يُعيدونني فيها وليس ما أضعه في قدمي من أجل مسرحية «كوكتو».. كيف، لاتعلم! سأمثل كوكتو... أجل..

تم الأمر، لم تعد «سان جينييه» ملكاً لال ليرتيلوا.. كم ستحكي «ارماندين»! أوه، وبعد ذلك..

عندما صعدا سيارة الأحصنة الخمسة، قالت «روز»: «ألا أضايك هكذا من أجل تغيير السرعة؟» وأحس بساقها تلامسه عندما انتقل الى السرعة الثالثة، خُيّل إليه أنها تشد على يده، أي وحشٍ بدا! اضطرب لروز الآن، قالت أيضاً: «في الواقع، أحسّ، يا سيد ليرتيلوا، أننا نحن الاثنين.. مهجوران قليلاً في هذه الأيام..»

ما أشدّ فراغ باريس!

ماكان ليُقال ذلك، مع هذه السيارات. تمتم بشيء. أضافت «روز»: لتتناول العشاء معاً... أوقف اوريليان سيارته في ساحة «الفندوم». أحسّ بدوار غريب، حرارة في الرأس وبرودة في الرجلين. لم ينم جيداً، أليس كذلك.. قال: «اعذريني، فلستُ في صحة حسنة..»

نظر إليها وهي تدخل محل بائع الأحذية. بالهذه المشية!

كان بائعو الصحف يصيحون على جرائد المساء. اشترى صحيفة «الانتران». سقطت الوزارة، بعد سنة من ممارسة السلطة. سنة كاملة بالتمام. المرة الماضية كان «ليغ» هو الذي فشل. والآن «بريان».. لماذا، كان ذلك، من جهة أخرى، غير واضح لمن لم يكن مطلعاً.

سنة... وزارة كبرى.. ستكون هذه المرة وزارة الرؤساء... وقد دعا الرئيسُ الرئيسَ السابق «بوانكاريه»، أخذ كل شيء يدور حول اوريليان. تشوُّش نظره. ليس سقوط الوزارة هو الذي ترك فيه هذا الأثر؟

والارتعاشات. ياإلهي، نوبة أخرى! وقد لقي أقسى المشقات قبل أن يوصل سيارته الى جزيرة «سان لويس». هناك أنواع شتّى للحالات البطولية. وجد في البيت كلمة من العم «بليز»، يطب إليه فيها أن يمرّ عليه في ساحة «كليشي». كان عاجزاً عن الذهاب. ارتمى على السرير بثيابه. والتفّ بالغطاء. كانت الحمى تخضّه خضاً.



كانت هذه أول مرة يُصبح فيها رئيسُ سابقٍ للجمهورية رئيساً لمجلس الوزراء. وكان «ستيفان دوبوي» بعقدته الرأشية، وشاربه الذي يمسه، وشعره الخشن، وبنطاله غير المألوف، ينتظر منذ ساعة، عند الدكتور عودة «روز» التي جاء ليجري مقابلة معها. قال: «بوانكاريه»، فلم لا يكون «ديشانيل»؟ ماداموا فيها! ليتّه يعلم الى أي أحد يهزأ الدكتور بذلك!

«خليطٌ عجيب... ماجينو وبارتو، ثم «سارو» في المستعمرات... فوشن يحضرُ عدداً عن التصوير..

— ما العلاقة؟

— كيف؟ لكن مادام سارو في المستعمرات! فوشن يريد اشتراكات.. والوزير أحد هواة الفن... أه، داهية، «فوشن» الصغير! كان يطيطب على فخذه: «فوق هذا كله، أن رئيسكم أنتم... الشيخ، فهمت؟ ها هوذا في البحرية التجارية! وذلك هو المطلوب لدى الطبيب! وسوف يُمشي ذلك عطور «ملروز»! — أه، هاهي ذي!

وصلت «روز» مُتعبة، فاتتة، لو لا تغصنُ قرب الشفة، كان عليها أن تبقي مع «ماري دي برسيغال»، لتشدّ من أزرها، كانتا كلتاها في حانة صغيرة. ولا بأس بقليل من الويسكي في مثل حالة ماري. سأل الدكتور الذي نحل حقاً بشكل مخيف: لكنه استرد عافيته في هذه الأيام، ذلك أن رياضة الشتاء — كما يقول — نفعته، سأل. «وما بها؟»

— سوف أشرح لك... اعذرني، ستيفان! سأرتدي منزلي!

مع الأسف، لا ينبغي أن نأخذ كلامها على ماري حرفياً. والحقيقة أن الجميع لم يكونوا يكثرثون لما يحدث لماري. فماري هي التي قادت روز أولاً لتناول كأسٍ من الويسكي. لكن في منزل «ليرتيلوا» لا، في البار. لاشيء يستحق أن يُخبأ في الحقيقة، لقد دعا ليرتيلوا المريض «ماري» إليه، وأخذت تعتنى به.

كان بحاجة الى أن يُسرّي عن نفسه. وكان ابتكارها أنها جاءت بروز ويطوي صغيرة، وأية سحنة كانت سحنة ليرتيلوا. كل ذلك من أجل تلك الحمقاء. هناك نساءً محبوبات ولا يُدرى لماذا. لاشيء يستحق أن يُخبأ، لكن روز كانت تحب أن تكذب، وعندما خلعت فستانها، في غرفتها، نظرت الى ثدييها. لبست مؤزراً بتشجيرات، من باباني، ورمت بحذاءها الصغير. البابوج الأحمر. وكان مؤزرها كأنما يريد أن ينفّث أبدأ. «وهذه المقابلة»؟

كان ستيفان ينظر إليها، «روز» العظيمة، مثل طالب حصل على عنوان: «أتريد أن أكلّمك عن العطور، أو عن المدلك السيركاسي؟ أو عن مسرحية كوكتو؟ لا تعتمد عليّ في اغتيال غابرييل فأنا لم أراه منذئذ.. وهذا الذي لا يردّ إليّ شبابي» كانت تبتسم، لقد حملت زهوراً فأخذت ترتبها في أوعيتها. - أه! لا تريد أن تعرف إن كانت العطور مسرورة من الوزارة الجديدة؟ اسمعُ اكتب تقريرك. ثم أرني إياه، إن كان حسناً فسوف أوقعه.. هل يلائمك هذا؟ أضفْ إليه هذا التمهيد:

« روز ملروز، جيوكوندا التي لا تُنسى، لم تشأ أن تحتفظ لنفسها وحدها بسرّ شبابها، الخ... هذه ههنتك بعد كل شيء!... ألم يطلبني أحد اليوم؟ خاطبت بهذه الجملة الأخيرة الدكتور. كشر. بلى من هو، ياترى؟ رسّامك... أخذت تضحك... لن تغار من «بيبي» بعد كل حساب؟ لا، إنه لا يغار من هذا العجوز الطيب. لكن...

- وإذن فقد انتظرت من أجل لاشيء؟

كان «دوبوي» يعضّض شاربه الى حدّ مثير للسخط.

- يعني... نعم ولا.. إنك قابلتني، يا صغيري! ثم إنك صحافي... إذن! اسمع، اذهب وتغشّيا معاً، أما أنا، فعليّ جملة من الأشياء التي يجب أن أعملها قبل المسرح... ولن أكل.. اوه. اصغ، لا! لا تقلب وجهك! اذهب وكلّ مع «سيتفان»، واتركني في نصف الساعة هذا... تريد أن تراني داخلّة خشبة المسرح، في ذلك الديكور الأزرق، بهذا الوجه! سأراكما في المسرح.

في الساحة الصغيرة، أمام مسرح «مونمارتر»، كان الجو بارداً، لكنه كان جافاً، ولم يكن حسن الأضواء. وعندما وصل الرجلان، كان هناك جماعات. وحركة زهاب ومجيء، شباب يصرخون، يلوحون بعصيهم. قلق الدكتور، على الفور. المتآمرون. أه، لعل ذلك ضد «روز»!

أوقف ستيفان أحد المتظاهرين. كان هؤلاء أصدقاء «بول ديني» الذين لا يطيقون «كوكتو». وقد علم أنهم سيُشَاغِبُونَ فَمُنِعُوا من دخول الصالة. ولذلك هاجوا في الخارج. وعندما شاهد «بول ديني» الذي كان مع شخصٍ «قصير» ضخماً «ديكور» انفصل عن ذلك الشخص واندفع نحوه:

- دكتور. هذا غير معقول! دفعنا ثمن أمانتنا! فأخرجونا! قلّ للسيدة ملروز... هزّ الدكتور كتفيه. كان يعلم جيداً أن نياتهم قد انكشفت. صاح بول ديني «ذلك لا يُتَصَوَّرُ! هذا عار! الشعراء يُطْرَدُونَ!» وقال بصوت أخفض أتعلم، لن نُشَاغِبَ ضد السيدة «ملروز».. يمكنك أن تقول لها ذلك..

- تاء، تاء، تاء، يا عزيزي ديني... ليس هذا من عملي.. ولن أرى روز قبل الاستراحة..

- اسمع، دكتور، دبر لي ذلك... وإلا فسوف انتظر الخروج لأحطم أنف «كوكتو»...

- اوه. اوه! ما أقل صبرك!

- سأضطرُّ الى ذلك... لا لأن ذلك يسرّتي... لن يفهم الآخرون أنني لا أفعل ذلك... ولا أحد.. حتى ولا فريديريك..

قال الدكتور:

- لا، لا، لأن ذلك يضايقني. لكن دبر الأمر مع «ماري».. فهي أقدر

مني..

كدر اسم ماري وجه الشاب:

- كيف، ألا تعلم؟ انتهت العلاقة بيني وبين ماري...

دهش من ذلك دهشته حين علم أن الدكتور يجهل أيضاً تأليف الوزارة

الجديدة.

- ولهذا بالذات.. لابد لي حتماً..
وألقى نظرة على ستيفان الذي غلط فسَمَّى نفسه:
ستيفان دوبوي.. لقد التقينا في الصحيفة. سلمٌ عليه بول بجفاف، ونحى
الدكتور جانبا

- يجب أن أشرح لك... يمكنك أن تؤدي لي خدمة عظيمة.. وقعت لي قصة
لا تُصدق... أنا عاشق...

- تهاني!

- شكراً، لامتزح. أنا عاشقٌ حقاً. عجبٌ ذلك. هجرتُ كل شيء: العجوز،
ودراستي، ومعهد علم المحيطات، والأسرة.. سنذهب معاً.. الى أي مكانٍ خارج
هذا العالم... لكن .. هناك الآخرون..

- كيف، الآخرون؟ بما أنك هجرتُ كل شيء!

- هجرتُ كل شيء، هجرتُ كل شيء.. إلا الشعر، وأصدقائي.. والحركة..

هذا كالحب، لا يجوز لنا أن نمزح معه..!

وهذه هي المسألة.. إنهم لا يفهمون.. لا يعتقدون أن ذلك جدّي.. ثم
أعرفهم، لا؟ مستبدّون، جاهزون أبداً للشكّ فيك، إن ظنوا أنك تتسلّ هارباً.
وكانت مسرحية «كوكتو» هذه... فضيحة! وعبثاً تريد السيدة ملروز.. أنت تعلم
من الذي يدفع، على ما أعتقد.. حسناً، وإذن فقد تقرّر أن نأتي الى هنا في
مساء الغد، ونوقف المسرحية، ولو ذهبنا الى السجن، ولو قُتلنا! وفي غضون
ذلك، وقعت في العشق. وسأسافر غداً. وكانت كارثة. في الساعة السابعة، في
المقهى. تحامل عليّ مينيستريل! ان أراك في حياتي ثانية. قمتُ بحمله ضدك .
سأقول كذا وكذا. لا لأنني أخشى ماقد يقوله، لكنني لا أريد في النهاية، أن
أغاضبهم... جميع أصدقائي... أفضل أصحابي «جان فريديك سيكر»،
الموسيقي... يعطي الحقّ لمينيستريل... وسوف يتبعونه، كما تعلم! لا تستطيع أن
تتصوّر سلطة مينيستريل على الآخرين! حينئذٍ قلتُ: «حسناً، في هذا المساء..
ليكن... سأجازف بكل شيء للحصول على كل شيء... وغداً سأذهب.. لكن على
الأقل، في هذا المساء . وأنت ترى أننا منعنا من الدخول!

وصلت السيارات الى الساحة. نزل الناس من سيارات الأجرة. تدافعت جماعة قليلاً أثناء المرور. اصطبع وجه «بول ديني» بما له من حركة فائقة، اصطبع فجأة، بتعبير غريب جداً حتى أن الدكتور التفت الى الوراء. - أه، دكتور! أنت مع هذا السيد الصغير؟ تعال إذن، «روز» تنتظرنا في مقصورتها!

كانت هذه ماري دي بيرسيغال في فرو الشنشيلة. فقد «بول ديني» ثقته بنفسه، وهمس: «ماري...» قالت: ماذا تريد. أنت شابٌ فظٌ. وليس عندي ما أقوله لك! «وجرت «ديكور».

ألقي مينيستريل، وهو شخصٌ طويل، لف نفسه بلبثام، ومعه عصا أمسك بها من وسطها وكأنه سينهاه بها على جميع الناس، وقد أحاط به ثلاثة من أصدقائه متبايني القامات والهيئات تبايناً عظيماً، ألقي بنفسه بين ماري وبول، دون أن يأبه لما كان يفعله بول، ولا للناس الذين قد يكلمهم وقال بلهجة ساخطة. «إذن ماذا نفعل نحن هنا؟ كوكتو هو الذي سيفرح! أنت تضحكين علينا. حقاً. تضحكين علينا! وخلفه كان الشخصُ القصيرُ الضخم الذي كان مع بول قبل قليل يخبُّ، فريدريك الصديق الأمين لبول، بعينه اللتين تبدوان دائماً كأنهما تسبقانه. رفع بول ذراعيه الى السماء وفوق كل هذا حرس المسرح، والنور الاصطناعي، وطائفة من الناس، المعروفين، ومن الصحفيين، كل باريس. وسمع صراخ أمام الباب. لم يفهم بدقة ماهو. لكن مينيستريل استأنف الصراخ. وكانت يده تحركان العصا بحركة رائحة آتية. وكان لثامه يتطاير في كل الجهات. وكان الآخرون يجارونه. ومعهم «ديني».

سأل الخياط شارل روسيل السيِّدة غودمان التي حيّاها: «ماذا يقولون؟» لم تكن تدري، يعيش بودليرا! «على ما أعتقد. ولماذا يعيش بودليرا؟ أه، أسرفت في السؤال عن ذلك! قال الخياط: إني أفسد ما دخل بودليرا في هذا الجحيم! الحاصل أن هذه الشبيبة هي..

وفجأةً علتُ الضوضاء. وأخذ الناس يركضون وحدث هيجان. تراجعت جماعة مينيستريل أمام دفع الشرطة. مَنْ دعاهم؟ لا أحد. أيُّ أحدٍ ورئي المراقب في لباسه الكامل عند مدخل المسرح. مرُّ «ديني» كالإعصار وكاد يقع على «روسيل»... أمسكه هذا من ذراعه، وقد انتابه الخوف. «مالك أيها الشاب.. أه، أهذا أنت؟ لقد تلقى لكمة شديدة في أنفه فسال دمه. فقاده الخياطُ بسرعة إلى المقهى المواجه.

كان الآخرون في الخارج يتضاربون بقوة. نظر روسيل إلى «ديني» الصغير بنوع من الإعجاب. كان يلهث. وقد نُزعتُ قُبْتهُ، وسال الدمُ على ربطة عنقه.

هذه الشبيبة هي... ألا تريد أن تكتب لي مذكرّة صغيرة لمكتبتي عن هذه الأمسية الغريبة؟ عندي مخطوطة المسرحية، وقد اشتريتها من كوكتو.. وسأجلّد مذكرتك معها.. وستكون فائدتها أن..

أصلح «بول ديني» مظهره. وطلب شراباً فاخراً. وفجأةً خطرت له خاطرة فالتفت نحو محدّثة، وقال:

- سيد روسيل...

- مابك، يا صاحبي؟

- سيد روسيل، أنا في لحظة فريدةٍ من حياتي... لم أبحثُ عنك... ولكن ها

أنت ذا... وإنّ...

- وإنّ؟

- أتستطيع أن تفعل شيئاً شديداً الأهمية لي... ها هوذا:

أنا عاشقٌ، يا سيد روسيل..

أظهر الخياطُ اهتماماً مفاجئاً:

- ألا تظنّ أنّنا نحسن صنعاً لو جلسنا؟ هنا، هيا.. أرولي قصتك..

في الخارج كان رجال الشرطة يمرّون، وهم يسوقون متظاهرين. كان أحدهما القصير الضخم بعينه الجاحظتين، جان فريدريك سيكر. الموسيقي، صديق بول.

قالت «ديان»: لكن هذا هائل!

كان هذا الفرو الفاتح يناسبها على نحورائع، المعطف المفتوح على فستان أسود بسيط جداً مع بنفسج بارم عند الزنار، وقُبعة صغيرة ظريفة فوق العين، كان «شلزر» فخوراً جداً بالسيدة دي نيتنكور. ولم تكن زيارة معهد «ملروز» لتستهويه، لكن إن كان ذلك يسرّ «ديان»...

كانت الأنسه «أغاتا بولوس» تستقبل حسب الأصول: وضعتها ماري هنا كمديرة، لقد رفضت «زوي» طلب أبيها العودة الى اليونان ففُطع عنها معاشها، وكان لابد لها من العمل، وإني لأسأل قيم تعمل؟ بدت مثل فهرس المستحضرات المعهد، أزرق الجفون، صبغة الحواجب، البودرة المغراء، صبغة الأظافر القرمزية، ولم يكن كل هذا ليغير لها ذلك الأنف البارز للعيان، ولا مفاصلها جميعاً، لكنها كانت في فستان المرصّة الوردية ذاك، ومع ذاك النقاب الملبس على جبينها والكل اسطواني وبرة البائعات اللواتي كن ينتظرن في الصالات، كانت تفعل بجلالة وبترف كل ماكان يُطلب منها.

كانت الشقة من تلك التي يبلغ ارتفاعها ضعف الارتفاع الطبيعي كالتي في الشانزيليزيه، حيث تُفلس المصارف بسرعة كبيرة منذ أن يغير الناس الذين يسكنونها كسوتها الداخلية. ومن الدرج الفخم الذي تحيط به مصاعد في إطارات الخزائن الجدارية الخشبية، يُدلف الى جناح دائري مقبب ذي زخارف بارزة رمادية، وبساط خبازي، ومقاعد خضراء، كل ذلك من «بول ايريب» الذي نزل في وجه الباب أعمالاً لـ «جوان غري» اشترت من عند «كاهنويلر» (كانت لوحات بيكاسو باهظة الثمن!). ومن هنا تتفرع فروع الى ثلاث صالات لها شرفة على الجادة، وقد تضاعف اتساعها بالغرف التي انتزعت حواجزها، بحذاء ممر فيه المكاتب والمحاسبة الخ... وفي نهايته، يُصعدُ بدرج داخلي صغير، الى ماسمته «زوي» «العيادة»، أي الشقة العلوية التي طليت فيها بالنيكل

والدهان غرفُ المعهد بحصر المعنى، للتدليك، والرياضة البدنية، وصلات الزينة، والتطرية، ومجموعة أصبغة الأظافر، والبخار، والدلائكات الاهتزازية، وأشياء أخرى. وفي الجهة الأخرى تحت، ترى غرف مستودع السلع... هذا وبالطبع، لم تُدفع نفقات الصالات، وظلت كما وُجدت، بورقها المخطّط، ودهانها الكستنائي، ووضع هنا على العكس، حواجز صفراء ملمّعة وأقيمت مكاتب صرافة، مقطعة بحواجز نصفية. وكانت هنا نساء من صنف آخر، في بلوزاتهن الرمادية، وشفاهن بلا حمرة، وعلى الثنيات دبابيس، وفي الأذن قلم، ومسلّم البضائع الى جانب الأسفاط، من الكرتون الأنيق المكّدس الذي يُرى فيه توقيعُ روز مكبراً عشر مرات.

قالت ديان. لكن ما أفضله، هو الصالون الصغير! وهو صالون الوسط. وكله مذهب. أثاث صيني، أسود وثلاث لوحات لـ «فوجيتا» الأولى بين النافذتين، والثانية فوق مدفأة من طراز لويس الخامس عشرة والثالثة على حاملة علّق عليها «بروكار» اسباني قديم بشيء من الإهمال. كانت العطور في واجهتين كواجهتي المجوهرات، في الصالون الأحمر والأبيض، مع لوحة كبيرة للسيدة «مارفال» نساء تحت أشجار التفاح. أما لوحات «ماري لورانس» في الصالون الثالث المنجّد باللونين الوردي والأزرق. فهي الأثيرة عند «زوي» وهي لم تُخفِ ذلك.

سألت ديان: هل ستمرّ السيدة «ملروز» اليوم؟
قالت الأنسة «اغاثوبولوس»: نادراً ما نراها... لكن: أن كنتِ ترغبين، فالدكتور هناك، في مكتبه.. وبين استشارتين..
- لا، أشكرك، يا آنسة. نحن مستعجلون..

صوتُ ضحكات وناس، في الجناح الدائري. تقدّمت بائعة من «زوي» وألقت نظرة سريعة. كانت روز بالذات مع سيّد ينقّض نفسه. وكان الجو ما يزال سيئاً. صاحت «ديان»:

- اوه. عجباً سيّد ليرتيلوا. قيل لي إنك كنت مريضاً.. اعذريني ياروز العزيزة. الفضول... بديع المكان عندك.. أتعرفين «شلرز»؟

كان الجميع متعارفين، بدت روز على شيء من الحزن تحت ضحكاتها، لاحظت ديان ذلك على الفور وتطلعت الى اوريليان، لم يكلف اوريليان نفسه إخفاء سوء مزاجه، لقد احتفظت ديان بالليل إليه، وهي تعرفه جيداً، وعند خروجها هي ورفيقها، كانا مستعجلين جداً، قالت له، أظنهما ينامان معاً؟ سخر «شلزر» كثيراً من ذلك، قال: «قريبى بارينتان ليس في باريس...» وقالت ديان: «أتعلم... بدأ عمرُ روز يتجلى...»

كان اوريليان جالساً حيث علقت لوحات «فوجيتا»، صعدت روز الى مكتب الدكتور، ثم إنها أرادت أن تأخذ موعداً من «السيركاسي» لمغنية برازيلية صادفتها في الوزارة.. قالت: في الوزارة، لأنه لايجوز أن يقال في وكالة الوزارة.. وقد أقيمت أمسية في «البحرية التجارية» ألفت فيها روز «الدعوة الى الرحيل»^(١)، كانت اللوحات بسعر متهاود، كان اوريليان يكره هذا التزيين الدعي، لكن كان لابد من هذا، على ما يبدو، لم يكن يحب لوحات فوجيتا، لكن النموذج الواحد، المرأة نفسها دائماً، كان يعجبه، فمنذ نوبة البرداء التي أصابته شعر شعوراً حاداً بفراغ الحياة، عجيب: لم يكن يلاحظ أنه لايعمل شيئاً، ثم إذا بذلك، ذات يوم، يغدو غير محتمل.. ولو لم تك هناك روز..

عادت بآخر اعداد «فوغ»، وجدته فوق: «ألست جائعاً؟ أنا أتصور جوعاً والساعة الواحدة، أتعلم! على كل حال، أنت بحاجة الى اللحم، يا صغيري... يجب أن تسترد عافيتك...» وداعبت خدّه.

كان حقاً أن عمرها بدأ يتجلى فجأة... لا، في هذا الكلام مبالغة.. لكن كان يُلاحظ أنها لم تعد غضة الشباب، لقد كان في وجه السيدة ملووز شيء من الأعياء، وأصبح التغضن قرب الشفة مألوفاً، وبدا أن مساحيق التجميل والتطرية تخفي بشرتها ولا تمتزج فيها بتلك الحياة المجاورة التي كانت ماتزال تُحس في وجنتيها قبل خمسة عشر يوماً، ولابد أنها تعبت في مسرحية «كركتو» التي كان دورها فيها مرهقاً، وكان في هذا الافتتان المفاجيء الذي أعلنته باوريليان ليرتيلوا شيء من الغرابة أيضاً، فكأنها كانت تركض وراءه، ولم يكن ذلك من شيمتها.

(١) لبودلير المترجم.

«قلت لي... كنت تريد أن تقول لي شيئاً ما؟»

كان أوريليان يستفهم منها في حانة شارع واشنطن حيث كانا جالسين أمام «السباغيتي»، مع قنينة مقشّشة من خمر «شيانتي»، وفوقهما صورٌ ممثلين في إطار المرأة، تنهّدت «روز»، وغضّنت عينيها إلى أقصى درجة. ووضعت شوكتها مع كدستها المتقنة من المعجنات: «غريب، يا عزيزي... إنني أتساءل عما أصابني... أعتقد أن ذلك خورٌ عارض... لكن...

.. مابك، يا عزيزتي؟

.. تسألني؟ أنت ترى أنني لست بالبشعة ولا أنا بالعجوز بعد... تصوّر أنني منذ خمسة عشر يوماً... نعم خمسة عشر يوماً على الأقل... وليس هذا! ليس هذا المقصود! لا، لكن هل تعتقد أن هذا قد أصابني من قبل، مرة، ولو مرة واحدة قبلك؟ لا... اسكت! أشتهي أن أتكلم، لقد بدأ الأمر يهمني. لو لم أكن أعرف ديان... وماري... لظننت أنك لست... في النهاية طبيعياً...

هزّ كتفيه، وهكذا فإن ماري روت لروز... النساء كلهن متشابهات، اتخذ مظهراً رقيقاً وقال: «لكن، أقسم لك أنه يتوقف عليك وحدك أن...

.. دعك من هذا، ولا تتغابأ فلست طالباً، وأنا لست صديقة لأمك! وليس من عاداتي اغتصاب الفتيان الصغار، لم أصل إلى ذلك بعد! إن قلبك في مكان آخر. إن قلبك في مكان آخر، هذا كلّ ما في الأمر. لكن هذه أول مرة ألقى مثل هذا: في الحقيقة إنني أجد ذلك حسناً جداً، لكن هذا يحيرني... وأنا أتساءل أيضاً..

أخلدت إلى الحلم، حُمِلَ «الشنيتزيل»، تركت النادل، وهو أسمر جميل، يعمل، كانت يداه اللتان لم يعتن بهما تصبّان المرق، استأنفت روز كلامها:

.. قل لي، أوريليان... دون تصنع... أعتقد أن من الممكن أن أحبّ بعد؟ لاتضحك... لعلّي قاسية، لكن هناك أياماً...
نظر إليها بدهشة كان يعرف ثلاثة رجال مشغوفين بها على الأقل،

الدكتور، وادمون والعم «بليز». قال لها ذلك. هزت كتفها. المسألة مختلفة تماماً
كان هناك أيضاً. شباباً رأوها في المسرح. وهل يُحسبُ لذلك حساب؟ لا،
شخص لا يعرفها. يراها في مكان ما، دون أن يعلم مَنْ، ولماذا! ولا كيف...
قالت: «قديماً، عندما كنت أنظر الى الرجل، كان ذلك يُدير له رأسه. كان سيهجر
كلُّ شيء..»

تناول مرة أخرى شيئاً من عصيدة البطاطا.
همس "وبعبارة أخرى"، إنني أسلك سلوك الأندال..
- لا تتبأله.. ليست المسألة مسألة أدب... خذ مثلاً، ذات يوم، في
فلورنسا..

لم يكن يُصغي الى الحكايات إلا بذهن شارد، كان يعلم أن عندها شيئاً
آخر تريد أن تقول له. قال لها ذلك. اعترفت: «نعم، وماذا تريد... أحبّ الكلام
على نفسي، أتعلم أن «بيبي».. يعني «بليز».. صادفته أمس... لا يجب أن أروي
لك ذلك! لقد حلفتني..»

غضن أوريليان أنفه. ما دخّل العم في ذلك؟ ومزح: كأنك تحافظين على
قسمك!«

لم تغضب، وأمسكت بيده: «من الطريف أن تعجبني الى هذا الحد..
الواقع أنك لست جميلة جداً ولا ذكياً جداً..»
- علام حلفت للعم بليز؟
- ألا أقول لك.. أه! صه! عنده أقامت السيدة موريل عندما هربت من عند
ادمون...

كف أوريليان عن المزح:
- كيف؟ عند العم؟ وكيف لم يُخطرنِي؟ أما تزال عنده؟
لم تبق عنده. سافرت. وقبل كل شيء وعد ألا يقول شيئاً. ثم إنه وضع
كلمة في منزل ليرتيلو بطلب إليه أن يمرّ على ساحة «كليشي».

- « لم أكن أعلم لماذا.. لقد مرضت.. تعلمين جيداً! »
دون شك. وفي هذه الاثناء. فتنت بيرينيس الصغيرة « امبيريو ». كانت
العبرات تنهمر من عينيه وهو يتكلم عنها، ولم يكن بعيداً عن اعتبار اوريليان
شخصاً خبيثاً. ما الذي لعلها قالت له؟ ومن المؤكد أنها لم تعد الى زوجها..
- يانادل، الحساب! اعذريني روز... أنت تفهميني، فيما أظن؟
كانت تفهمه، وطلبت مع ذلك قهوة، وكأساً صغيرة. انصرف اوريليان.
أخذت تحلم. عادت إليها أشياء كثيرة، وصعد الى حنجرتها، الى رأسها، هذا
« الارمانياك » الرديء. أية مكبة هي هذا العالم! هو كالمسرح: الأضواء، الرسوم
الخداعة، خشبة المسرح... ثم انظر الى الممثلين بعد ذلك في مقصوراتهم، أه!
سيكون من الواجب عليها التصرف بحذر. لن تقبل أن تكون طعمة للآخرين
كغيرها. وما يزال أمامها القليل من الوقت. يجب أن تكون النهاية حسنة.
أي ولدي، أي أختي،

هلا حلمت بحلاوة الرحيل..^(١)

أه، اللعنة! دعكت السيارة التي أشعلتها.
على المقعد المقابل، جلس شاب أنيق جداً أشقر مع شيء من النمش.
وأنف أفتس. شخص إليها بنظرته شخصاً عرفته جيداً من قبل. نظرت هي
إليه أيضاً بعينيها القصيرتي النظر، بوقاحتها. احمر، وشحب فجأة. حينئذٍ
تذكرت كيف نظرت الى « هيبوليت » وهي تمثل « فيدر ». وابتسمت له.



(١) البيتان من « دعوة الى الرحيل » لبودلير، المترجم.

عالم بأسره يمضي.. عصرٌ من..

كان السيد «روسيل» منفعلاً جداً، في سنّه، هو عالمه بعد كل شيء، عصره. تذكر الفساتين التي عملها «للمرأة العارية»، ثم إن «باتاي» كان جاراً له، جارٌ.. لكنه جار على كل حال. كان هناك شيءٌ من الشمس، واللوان فاتحة في الحقول، ونثار من العشب المصفر على المخمل المفلوح البيج والأبيض والأسمر والوردي، وظهرت الأزهار البيضاء الأولى في الأشجار المثمرة. كان المشهد يتكئ على الهضاب المجاورة، المجلّة بالادغال والتي تقطّعها مقالع الحجارة، مع خطّ حديدي بالرمل، ثم يأتي الطريق والحقول والركام الذي يخفي السنين. كل ذلك كان يمتد أفقياً على كيلومترات. وفي الجانب الآخر من الوادي، كان كل شيء مستوراً، تخمّن فيه هضابٌ وديارٌ تكملها.

توقفت سيارة الليموزين الكبيرة في الدرب النازل الى الطاحونة، مع السائق باللباس الكحلي وقبعته المسطحة وهيئته كمن ينتظر الخروج من الاوبرا. كان الخياط وبول ديني يذرعان الطريق الصغيرة في أسفل الحقول، قرب ملكية توجد فيها كل هذه الأزهار. قال روسيل: «تذكّرتُ، هناك .. «الإبيت»، أليس كذلك؟ مررتُ من هنا، منذ.. اوه! سنوات... لأرى «اوكتاف ميربو». كان هذا رجلاً من ..» ويطرف مظلّته الملفوفة، التي اتخذها كالعصا، نقفَ حصاة. تابع بول ديني الحصاة بعينه ونظر الى قدمي زائرهِ: بلفافتين مصغرتين على حذاء أسود.

- «ما الذي حفزك الى المجيء الى هنا، يا صاحبي ديني؟

- تعلم، ياسيدي، هنا.. أو في أي مكان آخر، كان لي صديقٌ أمريكي. كاتب شاب اعتزل هو وامراته ليكتب رسالة عن «ديدور».. حينئذٍ قلتُ في نفسي: يجب أن أعجل، أن أجد ركناً.. وقعت عليهما من غير توقّع.. فكراً على الفور في

الطاحونة.. قدّمني ارشيبالد لصاحبيها.. الزوجين اللذين رأيتهما.. واتفقنا.

- الطعام مقبول؟

- باه! يعني.. ليس هذا ما يهمننا، ما نريده بخاصة إنما هو ركن لا مشاكل فيه. ولا يعلم أحد أننا هنا سوى «ارشي» و«مولي». وتعلم أن الأمريكيين... أراهما متى شئت... مرة في الأسبوع.. إنها العزلة العظمى.

- أأنت سعيد؟

- نعم، أستطيع أن أقول: إنني سعيد جداً.

صمت. يكاد يتعذّر التعرّف إليه. دون سترة، «ويلوفر» رمادي، دون قبة، وقد لوّحته شمس حزينان، وفقد عصبّيته. وكان نظره يشرّد في أثناء مخاطبته. كان يفكر في شيء آخر. وكان في مشيته مرونة الذين يمشون كثيراً ويتسلقون الهضاب، وينسون الوقت في الغابات.

لاحظ الخياط: «ينبغي أن تقصّ شعرك، يا صغييري». هزّ بول رأسه: «سأذهب غداً الى «فيرتون»...» لا بدّ أنه يقول ذلك كلّ يوم منذئذٍ.. ومع ذلك فقد كان مديناً لروسيل بمعروف كبير: ألف فرنك في الشهر، وليس هذا بالشيء الزهيد. ثم، فجأة، هكذا، لمجرّد أنه قال له: «أنا عاشقٌ، ونريد أن نختبئ في مكان ما في الريف». الواقع أن هذا الرجل الكهل كان كريماً، مع كل عيوبه، وأساليبه في.. كان الناس يهزؤون منه: كم من الناس كان سيفعل ذلك؟ مقابل مراسلة أدبية لمكتبته. عشر صفحات أو خمس عشرة صفحة في الشهر. لا، من هذه الناحية كان كريماً جداً.

ومن الواضح أنه لم يستطع أن يقاوم، لقد حمّله الفضول، وكان لا بدّ له من أن يأتي ليرى كيف يعيش محمّي الشاب، ومن المحتمل أنه أراد أن يرى أيضاً تلك المرأة التي تحيط بها أسرار والتي لا يتكلم عنها إلا مجازاً. عندما وصلت السيارة الى «الطاحونة»، لمح «شارل روسيل» فستاناً فاتحاً تحت الأشجار، شخصاً أنسلّ هارباً.. وعلى الفور ظهر «بول ديني» وتقدّم، بينما كان الخياط يحدث ذلك الشاب في بنطال الغولف على دراجة نارية. مالك البيت المؤجّر، على ما يبدو. أما الهاربة فلم تكن طويلة، وكانت شقراء. ومن المؤكد أنها

لم تكن فائقة الجمال.

قاطع نفسه فيما كان يقوله عن موت «هنري باتاي» الذي هزّه مع ذلك، وسأل: «وأصدقائك؟ مينيستريل وشركاؤه؟» نَدَّتْ عن بول حركةً متهرّبةً في هذا المشهد الذي يكاد يكون ربيعياً، مع السنين هناك، حيث سيتمكّن الناسُ من السباحة فيه، عمّا قريب، فإن أواخر نقع الشتاء في الوحل الريفى، والبراعم، والكثير من الأشياء التي بدت له ضرورية من قبل، ولاغنى عنها لحياته..، فقدت أهميتها لدى هذا الشاب. لقد مشوا عشية أمس أربعين كليومتراً ذهاباً وإياباً.. لاحظ روسيل أن بول يتكلم دائماً بصيغة الجمع.

- الحاصل.. أنهم لم يسعوا الى لقائك؟ وهم يعلمون أين أنت؟ شرح بول: «واحدٌ منهم فقط يعرف عنوانه. وأذا شاؤوا أن يكتبوا إليه. فعليهم أن يسلموه الرسائل. لا، إن يقول شيئاً. لقد أقسم. من المؤكد أن «مينيستريل» غاضب لكن الحبّ له احترامه بين الجماعة. الحبُّ هو الذريعة الوحيدة التي يمكن أن تقدّم العذر..

- وهل يعرف السيّدة... أي صديقك، «مينيستريل»؟

- اوه، لا. ومن جهة أخرى، فلست بحاجة الى عدم موافقته عليها.

- إنه مستبدٌ في..

صرّف «ديني» أسنانه قليلاً، لم يكن يحب أن يقال عن مينيستريل إنه مستبد. أو ديكتاتور. وكلمة ديكتاتور هي التي كانت تخطر للناس على العموم. وعندما كان الناس يتكلمون عن الديكتاتورية بصدد مينيستريل، فلأنهم في حالة سيئة. مينيستريل على حق دائماً، تكلم بول عن شيء آخر وأوضح أمرَ هذه «الطاحونة».

- نعم.. زوجان شابان.. وهو ليس متين الرئتين.. استقرّ هنا، وعده من «فيرتون».. المربّاب في المدخل، كما ترى... وهي جدّ لطيفة.. هذه الشقراء

القصيرة التي هربت عند وصولك.. لأنها لم تكن مرتبة..»

آه.. لم تكن هذه إذن هي الشخص الذي نحن بصدده..

هذا المكان يشبه مكان «الابريت». من النوع الريفي، وبأي ثمن، النقوش الانكليزية في الداخل، والخزف في كل مكان. ثم إنهما غير حريصين على الأخلاق، أما الزُّبُن فهم الرسَّامون. الكثير من «مونبارناس». وأحياناً في عطلة نهاية الأسبوع تستأجر امرأتان الغرفة الكبرى تحت. عاهرتان. وأما أنا، فبسبب ما أجده..!

- وهل تصاحب الناس الذين يأتون الى هنا، هكذا؟

- بالضرورة... لكن المصاحبة... ليست هي الكلمة المناسبة. الناس ياكلون معاً. ويتحدثون حينئذ معاً. ثم هناك «الحاكي». وأحياناً، يرقصون في المساء. وفي ليلة مضت، عندما هبت تلك العاصفة الهوجاء.. انقطعت الكهرباء وخافت النساء... فأشعلت الشموع، ونزل الجميع، يجب أن أقول لك أن هاهنا بيان صغير رديء، وأنا لا أحب أن أمسه في العادة.. لكن، في هذا المساء.. وحتى الثانية صباحاً..

كان شارل روسيل قد اعد مفاجئته مسبقاً.

- ألا تقبل أن آخذك الى الغداء في «فرنون»؟ ففيها مطعم فاخر.. همس:
- لست وحدي.

- أعلم جيداً. أعلم جيداً، لكن إن شاعت السيدة.. اوه! المسألة أن... رجلاً كهلاً مثلي..

لامجال للرفض. لقد جاء روسيل ليراه، وهو في نهاية الأمر، مَنْ يُعِيشُهُ، هو «ديني». ومع ذلك، ساوره إحساسٌ قذرٌ فكأنه يفتح الباب واسعاً على سعادته. هذا الشيخ المنقَّب، بعد كل حساب. مراقبٌ لأفعال العاشقين. كم يتحرَّق شوقاً لمعرفة. لا بد من إقناعها. «افهمي لا أستطيع أن أرفض طلب السيد «روسيل»... نحن مدينان له بذلك...» كان بول يعرف الجواب سلفاً،

سخرية الصوت، أه يالها من كارثة!

لم يحدث شيء من ذلك. وسارت الأمور بكل سهولة. ربما، وبعد خمسة أسابيع من الريف، بدأ تحرُّقها الى الحياة الاجتماعية. أو أن رؤية روسيل سَلَّيها، أو أن تتناول غداءً أفضل قليلاً من غداء الطاحونة... وليت روسيل يخطر بآله فقط أن يطلب شمبانيا طبيعية: «قولي، أتحبينني؟» هزت رأسها وقالت: «لا أستطيع أن أكذب».. فقال: «أوه! أتعلمين ان هنري باتاي مات! - وماذا تريد أن نعل بي موته؟» نعم، ماذا يريد أن يفعل بها موته؟ لكن يُقال أن امرأته الاولى، برتي بادي» كانت تنزل الدرج، في الريف في الساعة نفسها، في اللحظة نفسها، ودون أن تعلم شيئاً، فتحطمت قلبها، وماتت. ألا تجددين ذلك غير طبيعي. يا حلوتي! قالت بيرينيس: لا، بل أجد ذلك طبيعياً جداً.



تركتُ نفسها للزمن يحملها حيث شاء. ولم تعد تقاوم مايقع لها، من فوضى الحوادث والأفكار. بدأ كلُّ شيء كالاختلاس... بدأ لبيرينيس في البدء أن كلُّ شيء لن يدوم. كان ذلك في اللحظة الأولى مثل تسكع أخذ يتناول. أند تعرف هذا الإحساس: علينا أن نكون في مكان آخر، في بيتنا، مثلاً لكن ليس ذلك بالضرورة. هناك شيء مثل وليمة تنتظرك، ولا تذهب إليها مع شعور متزايد بالذنب، بعد خمس دقائق، بعد دقيقتين، بعد دقيقة، ولا تذهب. هكذا الزمن المختلس. زمن ليس كبقية الأزمنة. زمن أفسد، بذر. عادة عميقة للواجب تمتزج بحس غريب للاقتصاد، اقتصاد الدقائق غير مفهوم. وكأننا لا نعيش ونحن نفعل شيئاً آخر غير المفروض أن نفعله، غيرما يجب أن نفعله. ليكن، لن أذهب. ونحن لا نفضل البقاء هنا لأننا نحرص على الخصوص أن نمكث هنا. نحن هنا، وكفى، بنشوة تأبى أن تنصاع، كانت بيرينيس تتذكر، وهي طفلة، عندما كانت تصنع عجينة وهي تنقل الرمل بسطلها الأزرق من كومة في الجهة الأخرى من الممر، مثلما كانت تمكر بنفسها حين تضيع الرمل، كل الرمل تقريباً في الطريق، مكرراً مُكرراً لاسبيل الى تفسيره. وكان عليها أن تُعيد الكرة. في الحقيقة كان المفروض أنها تلعب بصنع المعجنات. لكنها كانت تلعب بنقل الرمل دون أن تقول ذلك لنفسها. عاد كلُّ ذلك الى ذاكرتها اليوم، حاملاً مشابهات مبهمة، غير محققة، بهذه الحياة التي بدأت سنة ١٩٢٢.

بدأت ملامح الربيع في البلد كله. وهو لايرد الى الريف، في هذه التخوم النورماندية، كما هي حاله في «ر...» حيث يكون المباغنة نفسها. ولا كما هي الحال في «البروفانس» حيث يفوتها الربيع في الغالب، إذ تدخل الصيف دفعة واحدة. ولا كما هي الحال في باريس، إذ تستنير ذات يوم، حسب ذلك التقليد المسرحي الذي تشتعل فيه انوار مقدمة المسرح حين يدخل الممثل ومعه شمعة صغيرة، لا. كان الربيع يجتاح عالم أعماق الأرض، رطوبة الحقول. كان مثل

بُخارٍ يرتفع. كان له بطءُ الماء الفاتر وثقله. لم يكن الربيع بعد. كان قلق الربيع. يالغرابة! لقد وجدت فيه بيرينيس مذاق الوحدة. بشائر الربيع كانت تفصلها عن «بول» أكثر من أي شيء آخر.

لأن بول كان داخلاً في ذلك كله. وغرابة أخرى هي ذلك الشاب بفمه الغريب، وشعره الكستنائي الذي جعل الهواء لونه ينصل، وهذا الهزال، وتلك العصبية الصبغانية. بول... مجهولٌ دخلَ حياتها مصادفةً واستمرَّ فيها. واكتسب أهمية غير متناسبة. من هذه الجهة، نعم غير متناسبة.

كانت تحب الصباح، عندما يمضي لزينته، وينزل وهو لم يغسل وجهه ليأكل لقمةً بالزبدة في القهوة بالحليب، عندما يستلقي على بطنه في فراشه بين أوراقه وهو يكتب أشياء لا أول لها ولا آخر، ولا تكتسب معناها إلا فيما بعد. كانت تحب أن يتركها في الصباح «بول» فتستغل ذلك الكسل، أو أحلام اليقظة التي تريحها لكي تنزه وحدها في الحقول، الآن وقد أصبح ذلك ممكناً بجذء فاخر دون واقية الجذء وبالمعطف الكستنائي القصير الذي كان واقياً من المطر تقريباً، بيد أن المطر لم يكن يهطل أبداً، فقد كان هناك انقشاعات عن الشمس تكاد تطير الصواب، وتبعث الخدر.

كان هناك بول، لكن كان هناك غير بول أيضاً، ذاك الذي لم يتكلم عنه أحد. كان يكفي أن ينزل المرء من هناك، خلف ستار الأشجار، وأن يجتاز التلة المخضرة حيث تنصف الأرض بالزوجة والألوان المتغيرة ليفضي الى درب الأوراق الميتة، السوداء منذ الخريف، حيث يسهل المشي، بالرغم من الأغصان الكبيرة الشائكة التي ترتمي عليك بين الحين والآخر من الأدغال الواطئة، والتي تنشب فيك في الوجه أو الساقين. من هناك يمكن الصعود أو النزول، بحسب الأيام، لكن كان هناك دائماً ذلك الحضور الرقيق والصاحب، تلك المداعبة وذلك العداء، الماء الأصفر والأبيض، والأخضر أحياناً، المحوم عند جنور معروقة، الماء الطويل، الماء المملوء بالأفكار، الماء الذي يمكن أن ننظر إليه بلا نهاية، الذي يكلمك، الذي يهددك، والذي يغني لك.

كان هناك بول، لكن كان هناك «السين» أيضاً.

هذا «السين» نفسه، طريفٌ عند التفكير، هذا السين نفسه...

سيأتي يومٌ عما قريب، عندما يصبح الجوُّ أدفأ، يود فيه «بول» أن يستحم بالسين. كان يتكلم عنه كثيراً. بل لقد حمل معه لباس البحر، وكان يخرج، في بعض الأيام، من حقيبته، وينظر إليه وكأنه فستان سهرة راقصة. ياله من صبيٍّ لا يمكن أن تحقد عليه لكونه كما هو، وفيه جوانب مدهشة. ولطافة... إذا عزف على البيان، فهو رائع.. على شرط ألا يعزف موسيقا صديقة العزيز «جان فريدريك سيكر»... لأنه حينئذٍ.. لولا أن بول لا يظل شاردًا في بعض الأحيان.. حين لا ينبغي له أن يشرد..

ليس في «السين» شرود. وما أعظم تلاحم الأفكار لدى الجداول! إنه يجري هكذا، في الاتجاه نفسه، دون أن ينسى البتة، دون أن يُخطئ.. وعندما يصعد من حافته، فهناك مناطق من الخضرة، وأكام من الركام اكتسبت شيئاً فشيئاً، لدى بيرينيس، طابعها الخاص، كأنها أصدقاء، كأنها أناس تعرفهم... كانت الأشجار تحيئها لدى مرورها، بطريقتها الخاصة، الفردية، المتميزة.. وكان هناك نوع من شطٍ حيث يأتي قليل من الزبد ليموت على الحجارة، ثم الحقل الكبير الذي ينحدر انحداراً مستقيماً إلى النهر، وانعطاف في الضفة، وصفصافة.. وهكذا نصل على نحو غير محسوس إلى مُلتقى «الإبيت» والسين، حيث ينبغي أن نعود إلى عالية الجدول لنمر، إذا شئنا أن نتابع طريقنا إلى الأعلى، نحو هويس القناة، بعد تلك الملكية المهجورة، بمنزلها الخشبي ذي المصاريع المغلقة، وتلك الحديقة التي اجتاحتها الظلال وحنن الأعشاب، مكان للأحداث المختلفة، مع صوت التهويس، والموج العالي المزد بعد قليل، والشرفات الحديدية الصغيرة التي تجتاز الماء نحو الجناح، في الجانب الآخر، الصغير جداً والبعيد جداً، على الضفة اليسرى، حيث تمر الطريق الكبرى، وعرباتها في كلا الاتجاهين، وحركتها الدائبة الغامضة.

السين نفسه، وقواربه التي تنزلق بأعجوبة، وعلى ضعفته أنسانية غير مفهومة، ناسٌ يبدو عليهم أنهم يقضون حياتهم، هكذا، وقوفاً بلا حراك، محمولين، وأغصان ميتة مجروفة في المياه الدوارة، وأحياناً ضرباً من الحطام. السين نفسه، المنوم، الآتي من باريس والذاهب الى البحر، أبداً. ولا يكون غير ذلك أبداً، الآتي من باريس. والذاهب. الى البحر.

كانت بيرينيس هنا، وحيدة حقاً. إنه غير عادي أن ترى الى أي حد يكون الريف فارغاً، وإزاء فلاح في المدى البعيد، وشخصه منحني أحياناً كمن يكافح الدود في الأتلام، نحس إحساساً أكبر بالفضاء، بالصحراء العجيبة. ولا يخطر ببال أحد أن يسير على طول السين. ولم يفعل ذلك؟ ومن يفعل ذلك؟ الناس عقالاء. فلامعنى لأن يسير الإنسان على طول السين، إذا يجب ان يعود بعد ذلك. بعد أن يكون قد مضى بعيداً. كان بول يتكاسل، العزيز الصغير. كان لابد له من ساعة ليلبس جوربه.. وكانت بيرينيس خرة. كانت تحبه حقاً بول. دون شك. لكنهما لم يكونا دائماً معاً. كانا هو يتمنى ذلك! إلا إذا شغله اللهو. الواقع، أنه كان يود أن يكون معاً عندما يلائمه ذلك، ومثل هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة، لكن على الإجمال.. وقد اغتبطت بيرينيس لأنها لم تتنازل في مسألة الغرف. فقد أصرت على أن يأخذا غرفتين، في «الطاحونة». ولم يكن بول يريد غرفتين بل غرفة واحدة وسريراً مزدوجاً. وكانت له مبرراته الممتازة، السعر أولاً، ثم من يغشآن بذلك، هما الاثنان؟ وقد حددا سلوكهما ولم يكن من شأن الزوجين «فانهوت» صاحبي الطاحونة. أن يجدا في ذلك مايعيبانه، بحجة أنهما غير متزوجين. كانا لطيفين.. زوجين ظريفيين، ومتكتمين تماماً. ومع ذلك فإن بيرينيس أثبتت: كانت زوجة لوسيان دائماً، ولم يكن لها من داعٍ لأن تفعل ذلك بل كانت تفضل ان تلحق ببول في غرفته، مساءً، عندما تنام الخادمة. مع بعض الاحتياطات لكي لا تُرى داخله. وكان لذلك هذه المزية وهي أنها كانت تستطيع أن تنصرف إذا شاعت، ومع أنها لم تكن تكره أن تنام مع بول، كان يحسن النوم، ولم يكن بشعاً وهو نائم. إلا أنهما لو كانا في غرفة واحدة.. كان الأمر أفضل هكذا..

كان قرب الهويس معد. مقعد عتيق متعفن، لكن الخشب ليس بارداً
كالجر. جلست عليه بيرينيس، ونظرت الى الأبواب المتحركة التي تنظم جريان
الماء وهي تعمل. وقاطرة نهريّة نازلة في النهر لتأتي بقارب دون شك. وسوف
تجرّه بعكس التيار كما تُجرُّ بنتٌ من شعرها. وستلزمه هذا الطريق المنافي
للطبيعة. وستقوده بالقوة الى مكان ما. الى مقرّه، ربما. ولعلها ستمرّ - من
يدري - أمام جزيرة سان لويس.

كان على بيرينيس أن تذهب في اليوم التالي. على أبعد تقدير، الى
«فيرنون». وفي مركز البريد كانت تتسلّم رسائل لوسيان وتضع فيه رسائلها
إليه. وهكذا، تأمن المفاجأة الممكنة. كانت حذرة من لوسيان، وظهوره بمظهر من
يفهم كل شيء، وتلك العاطفيّة. لم تكن المسألة مسألة لوسيان. لكن كان عليها
أن تكتب إليه بانتظام مرة في الأسبوع، لمجرّد تفادي الكوارث، الابتزاز بالقلق.
هناك كائنات تضطهدك بوجودها فقط. يضع المرء بينه وبينها مئات
الكيلومترات، فلا يُجدي ذلك نفعا. طبعاً، هي لم تكتب إليه عما وصلت إليه مع
بول. أما هو فما إن غاب عنها اوريليان... ماجدوى أن تهبه غذاءً للآلَم، أن
تُساعد على تعذيب نفسه؟ كفاه عذاباً دون معرفة وجود الصغير بول... هذا مع
أنه كان قادراً على القبول به. لكن ذلك كان سيتجاوز الحد: فربما لم تغفر له
بيرينيس ذلك أبداً. فلماذا تضع بينها وبينه مالا سبيل الى إصلاحه؟ أو أنه كان
سيناقش أأنتِ واثقة من حبك له؟ أهو يحبك حقاً؟ أهو قادرٌ على إسعاد امرأة؟
«إن زوجاً من هذا النوع لأسوأ من أمّ.

في السين، هناك، جزيرة. هناك جزرٌ على طول السين. وهذه الجزيرة لا
يذهب إليها أحد، فهي لاتصلح لشيء. هي طويلة وضيقة مع بعض الأشجار التي
نرى النهر من خلالها، من الجهة الأخرى، الى حيث تمضي السفن. هذا المكان
يجعل كل شيء حميماً. تساءلت بيرينيس أأستطيع السباحة الى هناك إذا نزلت
الى النهر. بول سباحٌ ماهر، فيما يبدو وهي لاتتخيله جيداً وهو يسبح. إنها قلقةٌ
قليلاً عليه بينما هي ترى جيداً كيف يسبح اوريليان، وقد حدثها عن ذلك مطوّلاً.

بهذا على كل حال أحد الأشياء القليلة التي يحسن الكلام عليها . فهو ليس بالبالغ جداً . انها تراه في السين . يسبح . ما أحسن سباحته ! وليس الذهاب الى الجزيرة ممأ يضايقه . فلا بد أن يكون على ضفاف الجزيرة وحل . وإنا لنتراه ، من هنا ، وهو يَخُط في الوحل ، وهو خارجٌ من الماء . ذلك الجسم الطويل الأخرق . جلست هنا ، على المقعد ، لنتراه رؤية أفضل ، هناك ، في الجزيرة إنه رجل الجزر . وليس في ذلك ما يدهش .

قطعت القاطرةُ النهرية تجربة الحوض ، ومضت فخورة من الجهة الأخرى من الأشجار ، بصوتها العظيم الأَجش . كانت سوداء مع شريط كستنائي وأبيض في المدفأة .

أه ! يا الهي ، قد تأخر الوقتُ . الغداء ! وبول الذي سيحرد ، والذي أهملته !



- بالطبع... إذا كنتُ لم أضطجع مع ليرتيلوا فلانه لم يشأ ذلك!
غضب ادمون، ما أجمله حين يغضب! ضحكتُ روز، ضحكتها المسرحية،
جرى ذلك في المكتب الصغير، قرب الصالونات في المعهد. أولاً لقد رجع بلون
بديع، هذا الملعون باربنتان، خزفة خالصة، ملوح، أملس، بأسنانه البيضاء،
يالروعته، في هذا الطقم الرمادي الوردي الذي كان سيبدو انثوياً على غيره،
و«روز» في فستانها الأسود الضيق، مع قبعة مستديرة، وقفاز أسود طويل،
وحذاء أسود، وصدرية غريبة خضراء من القماش المنشئ. قالت باللهجة التي
تُصطنع مع الأطفال: «ومع ذلك فأياك أن تغار وتُحطم وجهك الصغير؟»
- كفى مزاحاً ياعزيزتي، ولم لأغار؟ هاأنذا أعود لأسمعك تقولين...

ياالعودة الطوة!

- أنفضّل أن أخفي عنك الأشياء. لقد عدتَ وحينئذٍ قلتُ لك ماجرى عندما
لم تكن هنا. متى تريد أن أفعل ذلك. لقد سافرت حضرتك لقضاء ثلاثة أسابيع،
في رياضات الشتاء كما قلت... ثم تبقى هناك شهراً، ولاتعود، وتمضي الى
الساحل، اللازوردي.. وتنتظر الكرنفال، وتقضي الكرنفال... كل ذلك مع
امراتك... ثم تسمح لنفسك بالغيرة!

- أنت تعلمين أن امرأتي، لا يحسب لها حساباً..

- هذا مايقال دائماً... لكني لم أضاجع ليرتيلوا بينما أنت...

إذا كنتَ لم تضاجع امرأتك فقد ضاجعت غيرها!

شرح ادمون انه ينبغي له أن يسري عن بلانشيت، إنه لا ينبغي أن يُطلق،
على الأقل حتى الآن..

قاطعتُ «روز».

- كلاً إياك والحقاقت، يا صاحبي! إذا طَلقت... فلن أتمكن من ضَبْطِكَ!

أنت وامراتك لتشفك.. ذلك يظل مقبولاً!

تنازل فضحك ضحكةً صفراء بسبب اوريليان. لمّ اوريليان؟ دائماً
اوريليان! مع امرأته... وعشيقتها..
أه، لا، إنه يبالغ، اوريليان!
قالت روز.

- أنصحك بالاعتراض. رأيت صورتك في «المدينة أوالريف».. مهرجان
على «الريفيرا الفرنسية».. مع الدوق «دي كونوت». والسيد والسيدة بارينتان،
وفي الجانب الآخر السيدة كيسنيل الجميلة.. وأنا أقبل امرأتك، فهمت.. أما
امرأة حميك فلا! لست مرتاحة لـ «كارلوتا»..
لاحظ ادمون.

- غريب، قالت لي بلانشيت. مع السيدة «ملروز»، لك ما تشاء... أما
كارلوتا فأني سأغضب!
صغرت روز:

- حسناً، أرجو ذلك! وهكذا فقد نلتُ مباركة زوجتك؟ بلانشيت تجدني
طاعنةً في السنّ بالنسبة إليك!
- حمقاء!
وقبل يدها.

- وما الزيّ الذي من المفروض أنك تزيّيت به؟
- لاشيء خاص. بزة منقولة عن «مازاكيو». كارلوتا لها صديق فنان...
إذن فهو لم يقبل بسبب بيرينيس، اوريليان الوسيم؟ وأنا أتساءل أين يمكن ان
تكون... هو في حداد؟

غيرت روز مجرى الحديث. هل يعجب ذلك الشريك كل شيء هنا؟
الصالونات، الزخارف، الورود، الآلات الكاتبة، المدالك، المزيّنات.. ما أسرع
ما فعلناه! سباق، أنت لا تتصور.. لكن إن فوت آخر كانون الثاني فسيكون فصلاً
ضائعاً. إذ سيأتي جمعٌ غفير!

- ألا يكفيك هذا، ياسيديتي، لتشغلي نفسك؟
- أه! مهلاً أنا، يا صاحبي، أمين لمن هم بيننا: الحياة قصيرة وأنا أحب
ذلك. ماذا ستعمل الآن؟

أجاب بفحش مُقذع خجلت منه روز نفسها. لكن هذا ذاب في التصنع.
تنهّدت:

- إذا شئت، وإن لم يكن هذا هو ما أفضله.. لكن إلى يوم آخر.. أما
اليوم فأنا أطلب إليك أن تخرجنا، أنا وامبيريو، أمك سيّارتك؟
- عجباً السيّدة ورسامها! إذا حسبت أنني عدت من أجل ذلك! لديّ
مدخّرات وعلي أن أستخدمها... وليس بي ميل إلى التترّها
- أبله، أبله. لم تُخطّرني.. ووعدت «بيبي»..
- حسناً، تكفين موعد هذا العزيز، وهذا كل شيء.
- مستحيل، فلدينا موعد.. كنت أرغب منذ زمن بعيد... أخذ «بيبي» لي
موعداً من «كلود مونييه»...

- كلود مونييه؟ أتظنين نفسك نيلوفرأ؟
- انته من حماقاتك، امبيريو صديق قديم لمونييه... وطالما وعدني... وموعد
مع مونييه لا يُلغى... وهو يسكن الريف..
- أسف. بلانشيت تستخدم السيّارة. والأخرى في المرآب، في طور
التصليح، وبإلّا من فكرة سخيفة!
- طيب، سأطلب من ليرتيلوا. وسنحشر أنفسنا في سيّارة الأحصنة
الخمسة، وكفى!

- قولي، أتريدين أن تُسعديني بـ...
- سأسعدك غداً... عندما...
وعبرت بحركة عسكرية. رفعت سماعة الهاتف بينما كان ادمون يستشيط
غضباً.

- ألو؟ هذا أنت؟ هلاً نزلت؟ هاهنا باربنتان وهو يريد أن يسلم عليك!
وقالت للأخر: «زوجي»

تمتم ادمون بأنه يستهين بهذا الزوج المخدوع. قالت:
- أوه! تلك الكلمة الخبيثة! وإذا كانت وبالأعلى عليك؟

« شيء لا يصدق! الطقسُ حارٌ تقريباً... »

في الغرفة المؤتثة تائثاً يسيراً، والتي تفتح نافذتها على سقف قرميد قديمٍ أسمر، كانت الشمسُ تدخل مع زنابير فتيةٍ مبكرةٍ.

إن ماء الصابون الأخضر في السطل الذي لم يُفرغ، وفوضى الثياب المرمية على عجلٍ والحقيبة المفتوحة، وربطات العنق التي سُحبت لاختيار بعضها، كل هذا الذي كانت بيرينيس الجالسة على السرير غير المرتب تنظر اليه بعينين ناقدتين، بدا كأنه يرقص الفالس حول بول الذي كان يرتدي ملابسه، قالت.

- الأفضل أن تحلق لحيتك.

- أتعقدين؟

وقف فجأة أمام مرآة الخزانة المصنوعة من صنوبر المناقع.

- مرّ بيده على خديّ وأردف.

- يقول. «فانهوت» أن الرجل إذا حلق لحيته صباحاً، فهناك شيء لا يسير

سيراً حسناً في المنزل...

- «فانهوت» يقول هذا؟ وهو لا يحلق ذقنه إلا كلّ يومين.. لن تكون جاهزاً

أبداً، بما أن أصدقاءك سيأتون.

- أظنّين؟ بالوقاحة! أنا لم أدعهم.

- كلاً لم تدعهم... الأفضل لك أخيراً أن تكون نظيفاً لاستقبالهم... ساد

صمت.

- أنا لم أسمح لفريدريك أن يعطي عنواني..

- لم تسمح له، لكن عنوانك معه... وإذن..

- كان لابد أن يكون مع أحدهم، أليس صحيحاً؟ لكي يُسير الرسائل..

ثم إذا ما حدث شيء ما..

- أه! نعم، إذا ماحدث شيء ما... ثم إن هذا لا أهمية له. لكن لاتدهش
إن عادوا. لابد أن يقع ذلك.
- أنت غاضبة، يا حلوتي!
- رمشت. كانت تكره أن يدعوها حلوة، لا، لم تغضب. كانت تتهرب من
الغداء. هذا كل ما في الأمر.
- حقاً، لاتريدين أن تريهم؟ ولا تريدين أن تري مينيستريل؟
- ما الحاجة الى ذلك؟
طالما كرز لها أنه لا يحرص على أن تعرفه، لا يريد أن يخاطر... الواقع
ما الذي لا يريد أن يخاطر به؟ مينيستريل أمامها، وهي أمام مينيستريل؟
ابتسمت ولم تفه بكلمة. كانت تعلم جيداً أنه يخاف حكم هذا الصديق المستبد.
لكن قد انتهت أخيراً! لصحراء والوحدة.
- كم سيكون عددهم؟
- خمسة عشر. البرقية تقول خمسة عشر أو ستة عشر. قلت «لفان هوت»
خمسة عشر. لأنه بعد... ثم إن الطعام الذي يكفي خمسة عشر يكفي ستة
عشر..
كانت البرقية هنا، على الطاولة.. تناولتها بيرينيس وقرأتها. أخذ بول
يخلق ذقنه. كان يبدأ دائماً من أدنى ذقنه. بموسى حلقة آلي. وبعد قليل
سيلتفت يميناً وشمالاً بحثاً عن طرف جريدة لمسح الصابون.
- العجيب أنني استطعت العيش دونك!
هذا الضرب من المكاشفة المفاجئة كان يفيظ بيرينيس دائماً، ماحيلتها
في ذلك؟ كان هكذا: «كانت ماري عندك»..
- أه! هذه...
- ماذا؟ كانت لطيفة جداً معك.
- نعم... لكنني لم أكن أحبها، تعلمين ذلك جيداً.

- ظننت نفسك تحبها على مدى خمسة عشر يوماً.. أنت نفسك قلت لي ذلك... ثم كانت هناك باريس، ودراساتك... وأثق أنت من أنك لا تأسف على معهد علم المحيطات، الزحافات البرمائية؟
- واثق، أؤكد لك أنني واثق! «اوه» جرح نفسه، فكشراً أيعاً تكشير بفمه الغريب، فلم تتمالك نفسها عن الضحك، ماذا جرى؟
أضحكتك، جرحت نفسي...
نظرت الى هذا القليل من الدم قرب الشفة،
قالت: دمك حلواً فاستدار وقد أرضى ذلك غروره، ولولا الصابون لقبّ لها حقاً.

- تقولين إنني لا أسف عليها، الزحافات البرمائية و«أسنيير» وماما، وإخوتي الصغار، والشقة الصغيرة التي نشئتم فيها رائحة ورق أرمينيا لتخفي رائحة الملفوف!
- نعم، لكن كان هناك مقهى ساحة «بيغال»، ومينيستريل والآخرين...
ألست غاضباً من رؤيتهم؟
لم يجب رأساً. ثم قال بلهجة متجردة:

- اوه! تعلمين، أنه يسرني، بالطبع أن أرى أين وصلوا... ففي مدى خمسة أسابيع لا بد أن يكون قد ابتكروا شيئاً ما... في مدى خمسة أسابيع سيكفون عن الكلام على القصائد الأوتوماتيكية.. يبدو أنهم أخذوا ذلك عن طالب اكليريكي ترك الرهبانية.. كتب فريدريك «تأنغو» لالات «الوكارينا»...
فكرت بيرينيس: عجباً، لاشك أنه تلقى رسالة لم يحدثني عنها، إنه يحبني، طبعاً، لكن على طريقته. سوف يستغرب لو قلت له رأيي في ذلك، سوف يُقدم على عمل جنوني، لكلي يُثبت لي أنه يحبني حقاً. علام يدل ذلك؟ مع هؤلاء الناس، الحب ينسجم مع اللوحة ومع ذلك فهو يحبني.
قال بول.

- فهمت، ماذا بوسعي أن أفعل إزاء ذلك؟ أبقوا لي. ووضعوني أمام الأمر الواقع. ولا أستطيع أن أمنعهم من المجيء، حينئذٍ... هذه هي طريقة مينيستريل! ولا بد من الخضوع لمطالبه.

كان بول يحسب حساباً لمينيستريل أكثر من العالم كله مجتمعاً. لكن كان عليه أن يظهر بمظهر المستقل، وكانت بيرينيس لا ترغب في أن ترى أصدقاء بول. هذا النزول الكامل لأفراد الجماعة، لن تحضره بيرينيس، وإن تكون هدفاً لفضول خمسة عشر زوجاً من العيون أو ستة عشر. شكراً جزيلاً. كانت تعلم أن مينيستريل يشناق الى بول. وهي لا تحرص أن يُنظر إليها على أنها الشخص الفظيع الذي يمنعه من الذهاب ليتناول شراب الكوروساو، في ساحة «بيغال»، وأن يكون الأثير لدى مينيستريل. والعجب أن هذا الفتى الهزيل، الذي عجز اسمراره عن إخفاء بياض سحنته القديم، هو الذي ذهب معه هكذا بقرار مفاجيء، ومرة بلحظات تساءلت فيها إن كان ذلك حقيقة. كانت ناقدة لكل شيء، عندما لقينته مصادفة، في ذلك اليوم من كانون الثاني، وهي تتسكع على الأرصفة، من جهة شارع بونابارت. كانت تنظر الى السين، السين دائماً.. كانت تفكر في المجهولة، وفي مستودع الموتى... لم تشأ أن تعود الى لوسيان، لتمثل دور التائبة.. والآخر، آه، لا فائدة من تعذيب النفس بالتفكير في الآخر في البدء تضايقت من لقاء هذا الشخص.. منذ ثمانية أيام نامت فيها لدى «امبيريو» ضاقت ذرعاً بالعظائم الأخلاقية التي كان يلقيها عليها العجوز «بليز».. السين... ثم كان لابد لها من أن تكلم أحداً.. كانت تصغي الى نفسها وهي تتكلم، فتدهش، ولا تتعرف نفسها... أخذ «بول ديني» يديها... لا، لا، يجب ألا تقتلي نفسك... أنت مجنونة؟ هل قالت إنها ستقتل نفسها؟ لم تعد تتذكر ذلك. على كل حال، بدأت الأمور هكذا...

كان جميلاً، حليقاً، راضياً عن نفسه قال وهو يرتمي عليها.

- عيدي لحيتي!

- بول. مهلاً!

- اوه! يا حلوتي!، سيطول فراقنا! سوف نفترق! بعد الظهر كله، تصوّري! لإول مرة... هذا فظيع!

- كلا، ستري.. سيمرّ الوقتُ بسرعة... سيكون هناك الطالب الاكبركي، ومينيستريل، وقصص كوكتو... وأخيراً سيأتي المساء دون ان تفكرّ فيه! أوما «لا» برأسه، نظر إليها بعينين لامعتين، لم يبدُ عليها الحزن على الإطلاق، مدّ إليها ذراعيه، قالت: اوه، لاتفعل ذلك طوال الوقت! تجهم لكن الغيمة مرّت سريعة.

- اسمعي «نيسيت»، بما أننا سنفترق... لنخرج معاً... أتريدين.. سنقوم بجولة... حتى منزل «مورفي»...

ابتسمت، كان بحاجة الى «مورفي» كهدف... ولم لا، في نهاية الأمر؟ والعجب أن الإصغاء إليه عندما وصلنا هذا المكان، كان كأنما هربا الى الحبشة.. لم يكن الزوجان «مورفي» كريهين، من جهة أخرى، هو برأسه الضخم وبالهينة التي يصطنعها كلاعب البسبول..

- انتظرني في الأسفل... يجب أن أمرّ على غرفتي..

كان عليها أن تنزل طابقاً، وأن تدور في الممرّ المظلم حيث توجد درجة، وكان لغرفة بيرينيس ستائر صغيرة ذات مربعات حمراء وبيضاء، متناثرة عليها، وأثاث من الطراز النورماندي. وكانت الحقائق التي من جلد الخنزير الخبازي تذكر في الداخل بما في هذا الديكور من طابع عارض، وضعت بيرينيس شيئاً من العطر على منديلها ونظرت الى نفسها في مرآة منصدة الزينة، كانت بحاجة الى البودرة، وكان بول يُزيلها عنها طوال الوقت،

غريبٌ ما في غرفة كهذه عندما يُرتّب كل شيء فيها، وعندما تكون في وضح النهار، من صلةٍ واهية بالغرفة نفسها في الأضواء، وفي فوضى المساء، وفوضى الحب أيضاً، بما أن هذا يدعى حباً أيضاً، تذكرت الأيام الأولى، بحثت أول الأمر عن لهوٍ يلهيها، كانت تريد أيضاً أن تُفسد شيئاً، أن تُدمّر، أن تضع بينها وبين الآخر.. ولذلك استسلمت لتوسّلات الصغير لأنه يعتقد اعتقاداً راسخاً

أنه عاشقٌ، ولعله كان عاشقاً... فمنذ المساء الأول الذي التقيا فيه عند ماري، لم يحلم بمغازلتها، ولا حتى أن ينظر إليها.. كانا يحبان ان يتحدثا في الموسيقى معاً.. ولم يرها بول قبل هذا اليوم عند درابزين رصيف «مالاكيه»... والرؤية هنا يجب ألا تؤخذ بالمعنى الحرفي... لم كان هذا التولُّه العاصف، إن كان هناك تولُّه عاصف، من النظرة الأولى؟ فقد يوجد مع شيءٍ من التأخير، كانت تقول في نفسها إنه ربما كان في ذلك اليوم مُتعباً من كل شيء، من حياته، من السيدة دي بيرسيغال، من اسنير، من الزحافات البرمائية، وحتى من مينيستريل... وكان قد تشاتم مع كل مَنْ في مقهى «بيغال» بصدد فكتور هوغو... أسقط عليها ملكاته الحماسية.. لم تصمَّ على النزول... لم تكن ترغب كثيراً أن ترى «ارشيبالد»، و«مولي» أيضاً، نظرت الى غرفتها، الى ماكانت غرفتها..

في اليوم الأول تركته يفعل مايشاء، بما أنها جاءت لذلك، كان يبدو سعيداً جداً. كان كالمجنون، كان يستنزف نفسه الى درجة غير معقولة، فلا يدعها تنام، ولم يكر لديه فكرة عن حدود إمكاناته، فكان يدهش فجأة من عجزه الذي كان طبيعياً جداً، ويبكي من ذلك كما يبكي الطفل، وكان عليها ان تعزيه، برفق، فينام فجأة. ويستغرق في النوم. وتظل هي وحيدةً بجانبه، وحيدة حقاً. حينئذٍ فضلت ان يجري ذلك في غرفته، لأنها تستطيع أن تدعه ينام وتعود الى غرفتها.

- ماذا تفعلين؟ مضت ساعة وأنا أنتظرك تحت، مع الصغيرة «فانهوت» التي لزمّنتي... روت لي طفولتها البائسة، تصوّري!
قالت: كنتُ أفكر فيك، بكل نية حسنة.
ذاب سروراً.

كان الجوّ صاحياً حقاً، حتى ليظن المرء نفسه في أيار، على الأقل. كان في طرف الحديقة ليلك، وفي الطريق الضيقة المتعرجة أريجٌ عذبٌ مدوّخٌ لم تستطع بيرينيس أن تجد اسماً للزهر الذي يبعث هذا الأريج، همس بول:
- هل تذكرين.. مساء العاصفة؟

ارتعشت، آه نعم، هو كذلك. كان هذا الأريج هو الذي يأتي مع الريح، قبل المطر بالذات، لعلها هبت من هنا، رقب بول: «مساء العاصفة..» دس ذراعه حول خصر بيرينيس. كانا يمشيان متلاصقين. وثبت لتتبع الخطوة، ولم يكن بول يتبع الخطوة، نعم لن تنسى في زمن قريب، ذلك المساء.. العاصفة..

كانا قد صعدا بعد العشاء، كان الجو خائفاً، ثم بدأت العاصفة، الأبواب التي تصطفق، الريح، الجلبة، البروق التي لم ير مثلها قط، القرقة التي هزت البيت، ذلك المطر العنيف، القساطل الرصاصية المتطايرة، الأصوات في الظلمة، وفي الأسفل، ذلك الغبي الذي يدندن على البيان، هل لعب هذا كله دوراً؟ ربّما.. لكن الذي شعرت به بين ذراعيه لا يشبه في شيء ما أمكنها أن تعرفه من قبل.. عنف.. كانت تجهل أن يكون فيها ذلك.. الإمكان. وأن يكون هذا الصبي «بول» الذي تحملته منذ أسابيع دون أن تكثر له اكتراثاً آخر، هذا الصبي بالذات هو الذي منحها تلك اللذة..

لايكاد يُصدق ذلك، وهي لم تصدقه على كل حال. لعلها العاصفة، وفكرت: سيكون لي ولد الآن.. وكانت تعلم جيداً أن ذلك مستحيل. كان يحب أن يحدثها عن مساء العاصفة ذاك. كانت جدّ مدهوشة مما وقع لها حتى لقد أنبأته بذلك.

وما أعظم الكبرياء التي استمدّها من ذلك! وهو لا يدع فرصة تفوته دون أن يتحدث عن ذلك المساء، عن أن يلمح إليه. لقد كانت مجنونة حقاً حتى همست إليه: «أحبك..» ما حيلتها في ذلك؟ أفلتت منها هذه الكلمة. وعيناً حاولت أن تكذب نفسها بعد فوات الأوان. وكان من الواضح أن بول لم يصدقها. هذه الـ «أحبك» نفذت إلى قلبه، ولم تكن فظة إلى الحد الذي تسحب معه كلماتها تماماً، لكنها شعرت الآن بضغينة أخرى على الحياة: إن أمكن لذلك أن يكون كذلك... فما الذي لا يكونه ذلك مع آخر.. إن أمكن أن تؤمن به..

لم يكن بول يتحدث بتاتاً عن أوريليان.

مرّاً أمام تلك الحديقة الجميلة - يالروعة هذه الأزهار! كان البستانيون يغيّرونها في الليل، لكيلا يرى المعلمُ أزهاراً ذابلة. كانت زرقاء منذ الفجر، البارحة، كانت الرياضُ برتقاليةً. تظاهر بول بأنه يرى ذلك شنوذاً، لكنه لم يكن يكره الشنوذ، والواقع أن ذلك كان يفرض هيبته عليه. كانت الطريق الضيقة المتعرجة تمرّ من الملكية. وكانت تستمرّ من الجانب الآخر حيث تتلوى ساقية، مع جسر خشبي مرتفع الوسط.

قالت بيرينيس:

- انتهيتُ من قراءة «مرتفعات ويزرنج». تساءلت كيف يمكن أن يُترجم هذا العنوانُ الى الفرنسية... كان يجب أن أعيد الكتاب الى «مورفي»، ثم نسيته...

- حسناً، وأنا؟ أنا لم أقرأه.

- كما أنك لن تقرأه.

- ولماذا لا أقرأه؟ تقولين إنه رائع. أهو قصة حب؟

- أجل قصة حب.

كان آل مورفي يسكنان في أطراف القرية. في منزل السيدة «فريز» البقالة، منزل قروي بجدران مرتفعة، وبلا حديقة:

فناء فيه دجاج، وزبل، في الطابق الأول درجٌ على طراز السلالم، وهو يفضي الى الغرفتين الكبيرتين المتصلتين، ومخازن عالية للغلال حولت الى مشاغل سكنها رسّامون، حيث يرى إطار سرير حديدي قائم، وأثاث بسيط، وحاجز لتأمين مطبخ له قسطل كبير أسود مكّوع يمرّ بالهواء ليخرج من السطح، وكانت كافية لإسعاد «ارشيبالد مورفي» و«مولي» امرأته، وهي امرأة فكهة، ذلقة الأنف، غير جميلة لكنها كثيرة الاهتمام.

كان أرشي يكره مينيستريل كرهاً قلبياً. لم يكن يستطيع أن يرى «الجماعة» في الرسم، باستثناء «بول ديني» الذي كان يسليه لأنه يرى فيه الفرنسي النموذج الذي لم يعد يشبه القائد روكامبول في الأفلام بشاربه ولحيته

المقرنة، وسترته الرسمية على قدمه، وبطاقات الزيارة التي يبرزها في وجه القادم في كل مناسبة. وكانت «مولي تطبخ شيئاً غريباً أكدت أنه نصف أرنب. وعلى المائدة زجاجة من الخمر الفاخرة، وقماش مشمّع، لأننا في فرنسا، ويكفي أن ليس عندنا ثريات معلقة كسائر الناس.

استبقيا بيرينيس للغداء وكانت تنوي أن تمضي حتى «لاروش غويون»، لكنها اقتنعت بالبقاء. برطم بول: «علي إذن أن اعود وحدي؟ كل هذا الطريق...» كن لطيفاً مع ذلك، الى اللقاء يا صغيري.

- نسيتُ أن أعيذ إليك «مرتفعات ويذرنج» أليس عندك ماتعيرني إياه، أرشي؟

إن ماكان يميز «ارشيبالد مورفي» هو ميله الى أن يكون بالقميص وحده، وأن يكون القميصُ خارجاً من البنطال، صالب ذراعيه المتينتين الخارجتين من قميص وأمسك ذقنه بيده ليفكر: «انتظري، هل قرأت «موبي ديك»؟». صادف أن بيرينيس لم تقرأه.

صاحت مولي بلهجتها الفرنسية المفرقة في فرنسيتها «الى المائدة، أيها الفرسان والأنسات! الأرنب يحييكم والفجل ينتظركم!» وكانت ترقص والطبق في يديها. وقالت بالانكليزية:

- غليونك! يا عزيزي! هلاً دخنت فيما بعد..

الفوضى هنا كانت مختلفة عن فوضى «بول ديني». كانت «مولي» تملك عبقرية التنافر. فحيثما مرّت تراوحت الأشياء ببشاعة، الطوايع البريدية في كؤوس البيض، وشوكات الطعام في الكتب، وماسوى ذلك على هذا المنوال. التفتت الى بيرينيس، وبحركة مفاجئة غير منتظرة، قرصتها في ذراعها.

- اجلسي! هذه وصفا السيدة فريز، أرنب فريز... أتريدين شراباً مشهيّاً؟

سُمعتُ صرخاتٌ من تحتُ.

- لا تعيريه انتباهك! هذه السيدة فريز تشاجر نفسها... هل يُقال هذا؟

حانوا جالسين تلاتتهم حول منضدة مفرطة الصغر، وكانت السيدة مورفي تنثر على الأرض من حولهم أشياء نافعة للويمة، الفلفل والخردل، والزبدة. والصحون منضدة حتى لاتعود الى النهوض.

سأل «أرشي» بصوت خافت

- ألا تعرفين مينيستريل، يا بيرينيس؟

ولفظ «بيرينيس» بلغته، لغة تترك في السامع انطباعاً طريفاً. وأخذ يتحدث عن مينيستريل. إنه لا يشبه الصورة التي أعطاها عنه بول. إنه شخصية متصنعة، متحذقة، وبين هؤلاء الناس دسائس لبلوغ رضا ذلك المتسلطن. ومن الطريف والكريه أن رجلاً واحداً يمكن أن يخلق عن نفسه صوراً شديدة الاختلاف. كان ارشيبالد يتكلم ببطء، مع وقفات، خافضاً نطقه. وكان له شعرة مجعد، غريب، أسمر مع ندبة صغيرة تحت العين اليسرى. وكان يصب النبيذ الأحمر في كؤوس هائلة الكبر.

فكرت بيرينيس:

- أنا هنا، أصغي الى ما يقوله عن مينيستريل، و«مولي» تنبهني بقدمها، تحت الطاولة. والسيدة «فريز» تنقّ تحت. وأزهار الحديقة التي كانت برتقالية غدت الآن زرقاء. كيف وصلت الى هنا؟

ماذا يعني ذلك كله؟ «بول» يظن أنه يحبني ويجري ليرى طالباً اكليزيكيا رمى بثوب الرهبانية. لوسيان يكتب اليّ بكثير من التعقّل رسائل تحفظ في شباك البريد. ويتأوه وهو يبيع حبوب الاسبرين. وأنا ، لا أفكر في شيء إلا في اورليان. لم يكذب المرء على نفسه؟ لا أفكر في شيء إلا في اورليان. ومع ذلك فقد انتهى ما بيني وبين اورليان. انتهى نون ان يبدأ، لأنه كان ينبغي ان يكون بالغ الرفعة والعظمة والمال لكي يكون، لمجرد أن يكون... كنت أستطيع.. وماكنت أستطيع... لا، ماكنت أستطيع.. مع اورليان.. «بول» شيء آخر... لا يحسب له حساب...

صمت «ارشيبالد مورفي». كان يأكل بنهم. كمن ترك لعبة البسبول ومازال في ذراعيه جوع. انتهزت مولى شرود بيرينيس لكي تُطعمها من أرنب «فريز». وكان أرنب «فريز» ظريفاً. كرتون ببصل صغير. كان «أرشي يصبّ النبيذ الأحمر. وفجأة قال:

- عفواً، بيرينيس... لم لاتحبين بول؟

أحدث ذلك صمتاً مُحرجاً، أصغت بيرينيس الى امتداد هذا السؤال فيها، وكان تأكيداً غير متوقع. التفتت نحو أرشي وقالت:

- هذا واضح إذن؟

لم يُجب. فأردفت:

- هو لا يظن ذلك، أتعلم...

انحنى أرشي حتى الأرض لكي يطول السلطة، الخس. وقلّبها برصانه.

ثم قال:

- يجب ألا تؤليه. فهو فتى لطيف...

لم تدهش بيرينيس. فهذا الحديث استكمالاً لأفكارها. أنا هنا، لاجب البسبول يقلّب الخس. «مولي» تقرض أظافرهما، نحن نتحدث عن «بول ديني» الشاعر الشاب، الممتلىء بالمستقبل، عشيقتي.. ارتعشت. لم تفكر قط أن لها عشيقاً.

كرّر «أرشي»

- يجب ألا تؤليه.. بول أفضل من جميع هؤلاء الناس في ساحة «بيغال». وهو لا يعلم بعد مَنْ هو. وهو يحمل كل شيء على محمل الجدّ بفطاعة. بإفراط أكبر ما يبدو عليه. وهو يظنّ الأمر معك جدياً.. وإذا فارقتك فسيكون ذلك طعنة رهيبة له..

كانت «مولي» ترفع الصحون وتقدّم الطعام. جعلتها الحلوى تبرّم قدميها في الهواء، وكانت المربيّات تحت الصوان، وتدحرج التفاح في كل الاتجاهات. انحنى بيرينيس لتلتقط واحدة. وقالت وهي تنظر الى الأرض:

- ماذا تقترح أن أفعل؟ لا يمكن أن يدوم هذا الى الأبد.. وأنا لم أعد..

بشيء.

- تعلمين جيداً، ياسيديتي، أن المسألة غير هذا..

فخَمَ كلمة «سيديتي» تفخيماً أمريكياً، ورافق ذلك انحناء من جسمه كله. وكانت له طريقته في تقشير التفاح حلزونيّاً بحيث لا تسقط ذرّة من القشرة التي تظلّ قطعة واحدة. وكان يخلط التفاح بالجبن الايطالي الأزرق. أفرغ كأسه.

قالت بيرينيس:

- بول له أصدقاء.. وهو لم يُخلَق ليعيش في الريف. وعليه أن يقرأ مجلّته، جميع المجلّات؛ وأن يسخط على الأسعار التي لا يحبّها وعلى الناس الذين لا يميزون تمييزه. وعليه أن يبتكر بدءاً وكتباً غير معروفة، وأبطلاً غير معقولين. وهو يحبّ البيان. وربطات العنق، والسينما. وهو حسّاسٌ للثناء. وهو يظنّ بسهولة أنه يُعجب النساء. وهو ينسى لماذا بكى لأنه يهتمّ بكل شيء ولن أكون سوى حلقة من حلقاته..

- لا تظنّي هذا!

تحركت الآن «مولي» لتعمل القهوة. كلّ ما كانت تشفع فيه يبدو مشهداً في مسرح المفعّات. ادارت المطحنة وكأنّها حصان أصيل. وكان الاحتفال بتصفية القهوة حافلاً بأنغام القدّاس. وفي نهاية المطاف كانت القهوة حساء القهوة، وأمرت

- ضعي كثيراً من السكر. فالقهوة رديئة!

وأضافت قطعتين من السكر الى فنجان بيرينيس. ستكون هذه القهوة شراباً محلى ساخناً.

قالت بيرينيس:

- أنت ترى بوضوح أنه قد تركني ليلقى «مينيستريل».. المهم في حياته الجماعة... لا النساء..

قال «ارشيبالد»:

- الجماعة!

وجدف تجديفاً فقط بكلمات شكسبيرية. وضحك هو نفسه من تجديقاته.
وشرحها لبيرينيس بلهجة مفخمة، مع ثنية كبيرة من الدهن كانت كالعقد حول
ذقنه، لفرط ماشد على جوزته. وتحدث عن المسرح الاليزابيتي. لم تقرأ بيرينيس
المأساة الأسبانية. وكان يترجم بهيئة أبوية، وبصوت شديد الخفوت «المأساة
الاسبانية...» كانت نبرته تُشرّح الكلمات ببطء اس...ما-ني...ية.. ماداً الحرف
الأخير... ولقد شرحوا له في بال» أن الفرنسية ليس فيها نبرة صوتية، وأن
المقاطع تُلَفَّظ فيها على مستوى متساوي: تا- تا - تا - تا -.

لم تلاحظ بيرينيس أنها عادت هي الى الحديث عن بول لا هو
- ومع ذلك إن كنت لا أحبه.. أحبه بالطبع.. لكن لا كما يريد..
- كما يظن.

- كما يظن. وأنا موجودة أيضاً، أرشي. ولي قلب.
- وهل في هذا القلب أحد؟

لم تجب، تركت مولى نفسها تنزلق الى الأرض ولت منها شيئاً ثقيلاً
وخفيفاً ظنّ وهو يسقط. كان آلة «البانجو» الموسيقية، وأخذت الآن تتبع بهوء
هذا الحديث الذي ظلت عربية عنه بصورة غريبة.
وإذا كان في قلبي أحد؟

قالت بيرينيس هذا وهي تشحب، همس «أرشي» كما تهمس الرعود
مسكين بول الصغير... «عزف البانجو» «أولد كنتوكي»... ابتلت عينا «أرشي».
الظاهر أن ذلك من أثر الموسيقى، ولعلها الخمرة الفاخرة أيضاً. فقد كان يشرب
شرب المقتدر.

- إن كان في قلبك أحد... بيرينيس، فلماذا سلّمت نفسك لبول، لا لأحدك؟

لماذا؟

لم تكن تعرف «أشيبالد مورفي» إلا لماماً. رأته خمس مرات أو ست
مرات. عشر دقائق، ساعة.. فكم يكون مجموعها؟ فمن أين استمد الحق في
استجوابها؟ أنها لم تتسائل عن ذلك. لم سلّمت نفسها لبول لا ل....

قالت بتحدٍ:

- أنت تعلم أنه من الأسهل كثيراً علينا أن نُضاجع مَنْ لانبه حقاً من أن نضاجع مَنْ نحب..

نظر إليها «مورفي» وهز رأسه. وقال مخاطباً نفسه أكثر من مخاطبته

لبيرينيس:

- أنتم ، الفرنسيين، شعبٌ غريب... ولذلك نجد مشقة كبيرة في فهم «راسين»... ونسائه... إنهن يجتذبننا ويخفننا مثلكن...

هنا توقف البانجو، وصاحت «مولي» التي لم يكن يُظن أنها تُصغي حقاً،

بالانكليزية:

- أرشي! أنت حيوان، كلب هرم!...

وطار شيءٌ لعله البابوج. ثم استؤنفت الموسيقى، عاطفيةً، فيها كل مافي أنهار الجنوب من ذبول. وماكانت تعزفه كان ينفذ الى صميم قلب مورفي، لأنه ماكاد يتفادى البابوج حتى أخذ يرافق الإيقاع برأسه، ويغني وهو يدير عينيه.. وظلّت بيرينيس وحدها، وكان بوسعها أن تتابع أفكارها، وتضيع فيها مع الموسيقى.. وأخيراً نهضت.

- أشكرك أرشي، أنك قلت لي ماقلته... هذا عملٌ صديق. وسأفكر فيه. اعذريني مولي، أشتهي أن أتنزه، أن أشم الهواء، وأفكر قليلاً..

صحبها الى الأسفل بحجة حمايتها من السيّدة «فريز». ومن البوّابة التي فتحها أرشيبالد لها، صاح بها: «لا تعودي بسرعة الى الطاحونة! وإلا ألكك «مينيستريل»! وضحك ضحكة صاخبة في ذقنه المنحنية. ابتسمت له. وتبيّن أن قميصه خارجٌ من بنطاله خروجاً قادحاً عند الزنار: خروجاً مبالغاً فيه هذه المرة،

قالت بيرينيس في نفسها: سأذهب الى «فيرنون» ربما وجدتُ رسالةً من لوسيان. وما علي إلا أن أقطع الطريق التحتاني. فلا أرى من الطاحونة. لعلهم الآن في الحديقة يلعبون تلك الألعاب الجماعية التي يملكون سرّها. انسلت بين

جدران القرية الساترة، كان الجو صحوً حتى يُنسي كل شيء آخر. دلفت الى الطريق الضيقة المتعرجة حيث ينعطف نحو «البيت»، وصعدت باتجاه الطاحونة. كانت أشعة الشمس تعلّق بالأغصان الجديدة الخضراء، وقد ظهر الغبار. مرّت بها عربة. نظر إليها الفلاح الشاب بإلحاح. وأبعد من ذلك بقليل سلّمت عليها بنتٌ صغيرة، وكانت تحوم في الفضاء فراشات صفراء.

عندما بلغت الحديقة الجميلة التي تقسم الطريق، وقفت ونظرت الى الجسر على يسارها، وإلى الماء والأشجار الخفيفة، ورقّة البراعم، والنباتات المائية. ثم انعطفت باتجاه منزل ذلك الشيخ الطويل الذي طالما رآته من بعيد، والذي كانت المنطقة كلها تتحدّث عنه. ذاك الذي لا يستطيع ان يرى الأزهار الذابلة. رأت أزهاراً زرقاء. وعند أسافلها الأرض المحرّكة حديثاً. الأزهار زرقاء في كل مكان. الممرّ الصغير نحو المنزل. العشب الفاتح. وأزهار أخرى زرقاء. اتكأت على شبكة الحديد وأخذت تفكر. ليتنا نستطيع، عندما تذبل الأزهار، فينا، أن نقتلعها على الفور. وأن نستبدل بها غيرها؟ أن نغيّر لون القلب أثناء الليل... أن نظل أبداً في لحظة الإزهار الكامل... أن ننسى... بل ألا ننسى... ألا يكون لدينا مانتسها...

كان النور جميلاً جداً على الأزهار... ماهذه الأزهار؟ يقولون إنه ليس هناك أزهار زرقاء حقيقية. ومع ذلك... مَنْ يدري! إن كان ذلك الشيخ الذي في الداخل، يراها زرقاء؟ ويقال إن عينيه مريضتان. وقد يُصبح أعمى. رهيب ذلك عند التفكير. رجلٌ كانت حياته كلّها في عينيه. كان عمره ثمانين عاماً. فإذا غدا أعمى... جاز لنا أن نتصوره يقضي بقلع الأزهار قبل ذبولها. تلك الأزهار التي لن يراها بعد، على كل حال... الأزهار الزرقاء تدع مكانها لأزهار وردية. ثم ستكون هناك أزهار بيضاء. في كل مرة لون، فكأنما كان البتسان يُصبغ من جديد. أي حدّ من الحنين قد بلغه حتى يأمر بذلك؟ مرّ في الحديقة بستانيون. بدا عليهم القلق والفراغ وكأنما كانوا يفتشون الأزهار. لو نُسيّت عرضاً إحدى الأقحوانات البرتقالية التي كانت هنا أمس؟ في ركنٍ ما... أفندري ماسيبقى في مكان ما في قلبه؟ أية رسائل منتثرة في أدراجنا؟

أسندت بيرينيس وجهها الى شبكة الحديد. كان البيت خلف الأدغال هادئاً وكالفارغ. لعل من فيه نيامٌ. مصاريع البيت خضراء وسقفه أحمر... كان البيت يبدو مثل بيت في المستعمرات. وكان انعكاس الأزهار الزرقاء ينسحب على حصا الممرات. لعل المكان خالٍ من كل أحدٍ إلا من ظل البستانيين، بأقدامهم الصامتة.. وبيرينيس، وأحلام بيرينيس. لاشيء الآن يكبح هذه الأحلام. لا أحد، ولا بول، ولا أرشي، ولا الابتسامة المتواطئة من «فانهوت»، ولا بانجو مولي. كانت بيرينيس تحلم، ناسيةً شكواها، تتملكها أغنية لم يُغنّها أحدٌ من قبل. بين الأزهار الزرقاء، والحصا المتثرف، وأمام المنزل الذي يشبه جميع المنازل في الأحلام. وفي هذا الحلم، رجلٌ، رجلٌ طويلٌ بطيءٌ ومترددٌ، مع حركة رفيقةٍ هزّازةٍ من الكتفين وشعرٍ أسود... رجل يخلع القلب، رجل قليل الكلام حسن الابتسام.. اوريليان... حبيبي... اوريليان...

«بيرينيس!»

ارتعشت، من ناداها؟ من الجانب الآخر من شبكة الحديد. مستحيل كان هناك، واقفاً، حاسر الرأس، يبتسم ويدير نحوها عينيه المبلّكتين... رجلٌ طويلٌ ومتردد... اوريليان.. مرّت بيدها على جبينها.

«بيرينيس!»

ردّد اسمها. لم يكن ذلك حلماً. كان اوريليان هنا، في حديقة «كلودموني»، ينظر إليها. دامع العينين. كانت الأزهار زرقاء، بلا جدال. والشمس تراقصت على جلده الأسمر. أحسّت بيرينيس بقلبها يخفق. خافت، وكان عليها أن تهرب. لم تتخلّ يداها عن شبكة الحديد. وفجأة رأته يتجه الى الباب.

حينئذٍ انطلقت ركضاً في الطريق الضيقة المتعرجة.



جرى وراءها، أكان قلبها يخفق خفقاناً شديداً، أم أنها أحسّت بلا جدوى هربها، أو أنها وعتْ ما في ردة فعلها من مخالفة للعقل والحسّ السليم؟ استدارت وهي تلهت واستندت الى تلة.

تقدّم أوريليان نحوها، ورأى صدرها يعلو، والعرق الرقيق في صدغيها، ووجهها مرفوعاً، ورأسها مُنقلباً الى الوراء بشعره الأشقر المنسدل في جانب منه! رموش راعشة، والدائرة التي تحيط بالعينين وتزيد من إثارتها، وهذا الفم المترجف الذي كانت أسنانه المضمومة سنّورية، ناصعة البياض... توقّف، كان أمامها، على مقربة منها، مُشرفاً عليها. لم يرها قطّ في ثياب الريف هذه، تنورة صغيرة بيّج، وقميصٌ أصفر، كان كلّ منهما يصفي الى أنفاس الآخر، دون أن يقول شيئاً.

كان لها، بذلك الحسّ الدفاعي الأنثوي، فضل الكلمة الأولى. قالت - وهكذا فانت تقفون أثري، وتتجسّس عليّ..

احتجّ:

- أقسم لك...

- لا أقسم..

- لكن المصادفة، يا بيريونيس، هي التي...

- المصادفة! دعني أضحك...

بعد زوال المفاجأة، قادت اللعبة. قلّبتْ المواقع. ولو جرت ثلاث خطوات

أكثر لأخذها بين ذراعيه، واندفع الى الإيضاحات:

- الأمر خارقٌ للعادة... أعترفُ لك بذلك... لأصدق، لكن المصادفة..

مصادفة عجيبة.. أوصلتُ روز والعم بليز، الى هنا، في سيارتي، الى منزل كلودمونييه... أرادت روز أن تراه ولم مرّة واحدة... أن تراه أخيراً... ووعدا العم منذ زمن بعيد.. وقد سمعت «روز» الممثلة «شارلوت لייيس» تتحدّث عنه... قالت إن هذه أعظم ممثلة عندنا... وهم في المنزل... لم أشأ أن أفرض نفسي...

لا دخل لي في هذه القصة سوى أنني كنتُ السائق... وكنتُ أطوف في الحديقة عندما... لماذا ظننتُ يكذب، في نهاية المطاف؟ لكن كان عليها ألا تفقد سيطرتها عليه. قاطعته قاتلة:

- لنسلمُ بذلك... لكن ماهذه الصلة الحميمة بالسيدة «ملروز»؟ أعتقد أنها

هي المقصودة؟

عضتُ شفتيها. كان وقع سؤالها يشي بالغيرة.

وأردفتُ

- أوه! على كل حال! السيدة ملروز! وسيمون!

لم تكن هذه الجملة بأبرع من تلك، حتى إن أوريليان أحسَّ بذلك فقال:

- بيرينيس... بيرينيس... لم تهربين مني؟ مازلتِ تحبينني...

نظرتُ إليه. علا وجهها تعبيرٌ بالغ عن الخوف أخطأ في فهمه أوريليان:

- إن أمسك بيرينيس... قولي لي فقط إنك مازلتِ تحبينني...

لم تكن تخافه هو بل كانت تخافُ نفسها. كانت كالوحش المطارد. كانت

تتخبطُ في حيلها، وتعلم علم اليقين أنها تحبُّ هذا الذي كان يهيمن على كل

شيء، في هذه اللحظة، كان هذا هو الخطر الوحيد في هذا العالم... من تحبُّه هو

الخصم اللدود، الرجل. لم تعد بيرينيس تتمالك نفسها، لم تعد سوى امرأةٍ سوى

غريزة المرأة، الغريزة الهاربة..

- لماذا جئتُ؟ هل دعوتُك؟ ألا تستطيع أن تدعني وشأنني؟

- أقسم لك، بيرينيس..

- هذا كل ماعندك لتقوله... ألا ترى، ألا تفهم أن بيننا شيئاً تغير،

تحطم... هذا مُستحيل... كل هذا بسبب أمسية، ليلة، مصيبة ليلة، تلك البنت،

السكر... كنتُ بأثماً جداً... أكونين قاسية إلى هذا الحد؟

- لا... ليس ذلك بسبب تلك البنت... لو لم يكن بيننا سوى تلك الليلة..

- أوه! أنتِ مازلتِ تحبينني! وتغفرين لي!

هزت رأسها. وجاء دوره هو ليخاف:

- ما السببُ إذن؟ ما الذي يمكن أن يفرق بيننا غير ذلك؟ لا أتصور...

قالت:

- ليست تلك الليلة.. بل الحياة كلها... الأيام كلها والليالي كلها من هذه السنة الجديدة... أيامي وليالي أنا...

- ماذا تقصدين؟ لامعنى لذلك، بيرينيس!

- أيامي وليالي أنا... نعم، لقد غفرتُ لك، أنا، ذلك الضعف، تلك الخيانة.. لكنني أنا... لو غفرتُ لي لما غيرُ ذلك شيئاً بالنسبة إلي.. أراد أن يمسك بمعصمها، أن يجذبها إليه، بعد أن أحسَّ على نحو غامض بتلك المداورات، وأن في ذلك شيئاً أكثر من كل واقع هو المناورة السوداء للمرأة، وتعرجات الخوف الأولى. في هذه اللحظة، حدث صوتٌ عظيم، وثار غبارٌ... صاحت: «احترس».

ألقى بنفسه جانباً. كان ذلك دراجة نارية، عليها شاب بقبعة من الطراز الانكليزي في الصور. حرك يده باتجاه بيرينيس وهو يصرخ بشيء أثناء مروره، بدا عليها الضيق الشديد، وابتسمت ابتسامة مُقتسرة. سألها ليرتيلوا: «أتعرفينه؟».

- نعم، هذا مزعجٌ.. ماذا سيخطرُ ببال الذين يروننا هكذا... وحيدين... وكأننا نتخاصم..

أحسَّ بأنه أرتج عليه. إن ذلك يفترض حياةً من العلاقات لبيرينيس في «جيفرني» وأنا سأتراهم... لم يتصور حياتها، تخيلها وحدها هنا، حيث لقيها... لم يكن بوسعها أن يعلم أن راكب الدراجة ذاك ليس سوى «قانهوت».. أثار راكب الدراجة هذا عالماً من الاستفهامات، قالت:

- أنت ترى جيداً أن هذا الحديث ستحمل..

حيلة جديدة، يتحمل معها سرها. لم يكن أوريليان يقوى على ذلك، لكن بعد اللحظات الأولى، تشوش، وأحس إحساساً قاسياً بالكلمات الأخيرة التي قالتها قبل مرور الدراجة:

- ماذا كنتِ تقولين... إن ذلك لا يغير شيئاً بالنسبة إليك؟

رمشت أهدابها:

- لا أدري ماذا كنتُ أقول..

وهكذا حوصرتُ في معقلها فحاولت ان تكسب الوقت. لم تكن لها خطة تسير عليها. فلم تدر ما تقوله له. لم تدر إن كانت تنوي أن تكذب. الآن استعداد تفوقه.

- أين تسكنين؟ هيئي متاعك وسأخذك الى مكان لايعرفك فيه أحد، حتى ولا راكبو الدراجات.. مكان تكون لك فيه حرية الاختيار.. وفيه نقرر حياتنا...
- لا، لن تأخذني.

قالت هذا بلهجة من الطمأنينة حيرته، فهمس:

- لماذا؟ ومن يمنعني؟ من؟

ترددت في الجواب. كانت ستقول:

- عشيقتي..

لكن التحدي مات على شفقتها. وخجلت أيضاً. بومع ذلك، أهي جريمة، أن يكون لها عشيق؟ وماذا في ذلك؟ قالت بكل بساطة:
- أنا.

صمتا. بوي الذباب. سُمع صوت قارب خلال الأشجار. فكرا كلاهما في السين، في تلك الحتمية طوال قصتهما.
أردف اوريليان:

- أنت تكذبين، تكذبين علي.. لم تكذبين علي، بيرينيس؟

ارتعشت. استبدت بها صورة الماء، والفرقى. في كل يوم كان بول يسأل «فانهوت»: «أتظن الماء أبرد من ان نسبح فيه؟» حتى غدا ذلك مزعجاً. رأت أمامها الهالات التي تتشكل حول السباح، أغمضت عينيها وقالت: «اوريليان، لست وحدي هنا...»

لم يفهمها في الأول الأمر. وما أهمية ذلك؟ هزت رأسها. كانت تهز رأسها طوال الوقت. لا؟ لوسيان؟ غير لوسيان؟ دام الصمت مثل قطعة من قماش تمزق، تطلع «ليرتيلوا» الى حصا الطريق. كان يرفض أن يفكر بوضوح فيما قالت له مع ذلك وفرض ذلك نفسه ببطء في هواء الربيع الثقيل، مثل

خفقانٍ في الصدغين. لم تعد السماء زرقاء، نون ان يُعلم متى هجرت زرققتها، وتشربت بخار العاصفة. انعطفت الشمس الى هناك، الى الجهة التي تمضي إليها الشمس.. كانت تُرى، عبر فتحة الفرجة الحقول والهضاب والغابات البعيدة. أراد اوريليان أن يسأل "وَمَنْ هُوَ؟" لكن السؤال اختنق في لَهَاتِهِ، لم يكن يؤمن إيماناً كافياً بهذه الشخصية، بشقائه، حتى يحاول حقاً أن يُسبِع عليها ملامح رجلٍ من الرجال. وألقى نفسه يسأل: «أوتحييته؟»

حينئذٍ رفعت بيرينيس عينها نحو السماء الباهتة. العالم برطوبته التي لأتُحتمل. اوه. لقد طُلب منها ما هو فوق طاقتها! ولا يمكنها أن تجيب. بـ «لا» عن سؤال اوريليان، ما الذي تسمح به هذه الـ «لا»؟ ليس لها الحق في أن تقول «لا» لاوريليان بالذات، وبول ما يزال يؤمن بها. وشرعت تلعب لعبة الوفاء غافلة عما في هذه اللعبة من عدم الوفاء. نحو نفسها قبل كل شيء، وكانت تخشى أيضاً احتقار اوريليان. إن أقرت بأنها لأتُحب ذلك الذي جاءت معه، وأسهل من قولها «لا»، قالت. نعم... هي تشيح بوجهها.

في هذه اللحظة سَمِعَ مَنْ ينادي: اوريليان، اوريليان، واضطربت أشباح في حديقة «كلود مونييه». فستانٌ فاتح، ورجلٌ... عاد «بليز» و«روز».

- أصدقائك ينادونك... لا أستطيع أن أراهم.. الوداع، اوريليان!

نظر إليها وهي تهرب. حنت كتفها... تظاهرت بأنها لا تُسرع... اقتلعت عشباً في طريقها.. كانت الطريق الضيقة والمتعرجة تتعطف... إنها تحب، قالت إنها تحب... مَنْ ذا الذي تحبه؟ ودّ لو يصرخ: مَنْ هُوَ جَمْدُه هذا الاعتراف الذي لأُصدق. كانت تكذب، دُعا لا لم تكن تكذب.

قالت روز: حسناً، ياعزيزي، ما الذي حوأك الى تمثالٍ من ملح؟ هل صادفت أحداً؟ بدا لي أنني شاهدتُ..

قال:

- أنتِ على خطأ، أنا تحت تصرفك. أُنعود الى باريس؟

عندما كان «ادريان ارنو» ينظر الى الوراء لم يكن يتمالك نفسه من الإحساس ببعض المرارة، لا لأنه لا يكسب عيشه كسباً حسناً، ولا لأنه لا يراوده أملٌ عظيم بالمستقبل. كان عمره ثمانية وعشرين عاماً، تسعة وعشرين تقريباً. وليس ذلك سناً متقدماً، كان بارينتان عوناً قاسياً على دربه، أخرجه من البؤس غداة الحرب بعد الإفلاس الأبوي. وكان ادريان يتقدم الى جانبه تقدماً بطيئاً وأكداً، لاهياً لهواً معقولا، عاششاً عند أقارب وقروا له الغرفة. وكانت «ايزابيل» زوجة مضيفه عاشقة مريحة، نظيفة، يسهل تركها دون فضيحة، في اليوم الذي يذهب فيه ادريان ليسكن في مكان آخر. ورث عن أبيه الذي لم يكن له مثله الجلد الأصفر، وبنيته المسكينة، وعقلية التوفير المتينة. كان يعرف كيف يكفي نفسه. بل كان يوفر ليشترى أسهماً في «رويال دوتش» وفي «مكسيكان ايفل» وكان يرى برضاً صعود أسعار أسهمهما.. كل ذلك لم يحل دون المرارة.

الوقت يمر وإن يكون غير مآكان، لن يملك غير ممالك.. مع الشعور بأنه يستحق أكثر. بيد أنه عندما كان يلعب بالكرات الخشبية، في «سيريان» وكان مايزال الوارث لـ «نور العرض الجديدة» المسيطرة على جماعة أنصار الوطن التي أسسها، وشبيبة المدينة، بدا عليه أنه ينطلق في هالة ذهبية. من أجل ماذا، وعلى أيّ درب، لم يكن بوسع أحد أن يعلم.. بالتأكيد لم يكن ذلك من أجل هذا المنصب، منصب الرجل الثقة لدى ابن بارينتان، رفيقه، وهو في الواقع أدنى تألقاً، وإن كان أكثر اجتهاداً، وسيكون دون شك، في رأي الناس، وارثاً صالحاً للدكتور، لا أكثر. فكيف دارت الأشياء! يجب أن يُنصفَ آدمون. لقد استطاع ان يتدبر أمره في الحياة ولم ينس أصحابه الصغار، وماذا كان يستطيع ادريان ان يفعل لولاه.

بيد أن ذلك لم يكن من العدل في شيء مع الحرب التي خاضها، وهي حربٌ ليست كحرب سائر الناس. الأوسمة التي كُؤسمته معدودة. مامن محارب

مثله. لقد شهد الحربَ في كل مكان كانت فيه على أشدها، في «مورثوم»، وفي «فوكوا» وفي «الايبارج»، وفي فردان... وكان يمكن أن يظل في الجيش، لكنه كان سيرى الطريق مسدودة بالذين تخرجوا من «سان سير». لا، كانت معاودة التدرّب على الحياة المدنية قاسيةً أسوأ قسوة. بولولا ادمون.. وحتى مع ادمون. لقد استسلم لكل شيء، أليس كذلك؟ لأهواء ادمون. وعندما يفكر في أنه أنشأ «التاكسي».. تماماً. الآن غذا كل شيء طبيعياً أكثر من ذي قبل، دون شك، ثم إنه قد نال ثقة المعلم. المعلم!

ذلك الشخص الذي كان يغلبه في لعبة الكرات قد أصبح المعلم. ما أعجب هذه الحياة.. في الأوقات الأولى، أحسّ بكثير من الإذلال.. أما الآن فلا، لقد تعوّد ذلك. ثم إنه يتأنق في ملبسه، وكانت ايزابيل تُعنى بثيابه الداخلية فكانه في مقاطعة «الشبمانتي»

لم يكن ادريان مغامراً. كان له طموحه، لكنه لم يكن مغامراً، ماكان يمكن له أن يندفع في قصة يقامر فيها بكل شيء. يكفيه أنه تحمل إفلاس والده. لقد ورث عن أبيه تلك الروح العملية التي جعلت ادمون يقول عبارة التقطها من «ماري دي بيرسيغال»: «ادريان واقعي، عملي.. لم يكن ادمون يعمل شيئاً؛ وحين نتظر إليه عن كُتب نصاب بالغم. وإذا ماقيس بالآخرين من رجال الأعمال تبين أنه لايفقه شيئاً لاشيء. لو لم يكن حوله أولئك الناس... إن تلك الغندرة الغبية التي يباهي بها. تلك الفلسفة التافهة، كل ذلك إنما يراد منه أن يخفي عجزه القدر. وشيئاً فشيئاً أخذ ادريان يحسّ بأنه لا غنى عنه. ولقد أدّى للمعلم خدمات جلى، والآخر يقرّ بذلك، على كل حال. أو أن ادريان اعتقد أنه يقرّ بذلك. يجب أن تراه في شارع «بييه ويل» في مكتبه، مسترسلاً في الكلام.. لكي يوجهك قلبك.

لاشك أن باربنتان لم يصل بعبقريّة ادارته للأعمال. لاشك أنه يعجب النساء. ويصدّد ذلك أيضاً، كان لأدريان أفكاره. لأنهما كانا معاً في الأغلب، في «بانييه -فلوري»، في «سيريان» وإذن، فما أعرفه في هذا الموضوع بالمعلم ! كان

متوسطاً جداً. وكان ادريان في ذلك الزمن المنصرم يحلم بماري ريبول، جفدة «باينيه» الصغيرة.. استعداد تلك الجلسات لا. لقد واثاه النجاح من هذا الجانب. لهنما سبب شائنه شأن نجاحه في الأعمال، قضية حظاً، وهذا كل ما في الأمر. والحظ لا يد من مساعدته قليلاً...

أفلا يُعجب النساء هو، ادريان؟ كفى فهو ليس أعمى. وهناك غير ايزابيل، الغريب فقط أن نجاحاته كانت محصورة في مستوى اجتماعي معين لا يتجاوزه. كان له سقفه. كان يُعجب على الخصوص، أنسات المخازن وضاريات الآلة الكاتبة. ولا تفسير لهذه الأشياء، وما حيلته في ذلك؟ الأمر كذلك. ويجب الاعتراف به. مثلاً تلك الصغيرة أمينة السر شارع «بييه ويل»، كان واضحاً أنه لا يحتاج الى أكثر من بادرة يبادرها.. لكنه لم يكن يفعل لا بسبب ايزابيل، ولا لأن الصبية لا تُعجب، لا بل إن ذلك كان يناسبه. «إني أدرك خفاياها: ولشد ما أعرف ذلك»، ثم إنها مع ذلك تبتسم له. تأخذ في الإسراع في الضرب على ألثها، وهي مرتبكة. انها جديرة بالثناء. أه، لقد ضاق ذرعاً بهذا النوع من الفتيات. ولا سيما أنه في بحثه عن الثأر، في الأيام التي اشتد فيها إحساسه بالظلم، قد انساق، أمام ذلك النداء الصامت لفتيات من هذا النوع، انساق للرغبة في إثبات أنه لا يُقهر... إن إشباعه لرغباته على نحو رخيص يفرق نفسه، ويؤكد لها مصيرها، المصير الذي لا يرضى عنه. الرجل بما يصنع نفسه، مع النساء ومع الحياة على حدٍ سواء. انظروا الى ادمون: هناك كارلوتا، ثم امرأته، ولاحظوا أن امرأته ليست فائقة الروعة.. كانت كارلوتا أبدع قواماً بكثير منها.. لكنه، في النهاية، كان يعلم ما يريد، الأخ.. وكان له ذلك... وفوق كل شيء جميع العاهرات والنساء المتزوجات... وكم مرّ بأدريان منهن! ذلك أن ادمون كان به هوسٌ شيطاني لأن يعرضهن أمامه أوه، لاليشركه في شيء. لكن ليدّله بالذات، على الأغلب. وتلك عادة قديمة تعودها في «باينيه فلوري».. الحالية، الممثلة، هذه، ليست على الإطلاق، من طراز ادريان. وكان يمكنه أن ينالها، «روز» هذه، وهي، في نهاية المطاف، ليست شرسة... لو تملّقها... بيد أن في ذلك مخاطرة جسيمة،

لأن ادمون لن يرضى عن ذلك بالتأكيد... ومن أجل هذه المرأة المتواضعة الجمال والمُسنة.. إنها تحافظ على أناقتها، لامرأة في ذلك. وهو يفهم ادمون، بالرغم من كل شيء، ولاشك أنها تملك المهارة أيضا. وهي ليست خاملة على الفراش. هذا واضح من أول نظرة..

كانت كل هذه الأفكار تُضني ادريان، ولا سيما أنه كان كل يوم، يزداد درايةً بأعمال المعلم. وكان يرى بوضوح كيف كان سيُدبرها لو كان وحده. كان عليه ان يصفي الى الآخر وهو يتخابث بويدعي الانهماك، ويظهر بمظهر الرجل الذي أنهكته مسؤولياته، مُسخرة، فمنذ إنشاء عطور ملوز، مع كل ما يستتبعه إنشاء هذه المؤسسة، بدأ يشهد تحت عجرفة بارينتتان قلقاً خفياً يستطيع المعلم أن يخفيه عن الآخرين لا عنه. ولاشك أن لعبة الكرات قد بدأت بداية سيئة. اوه! إنه يعرفه. من جهة المعرفة، إنه يعرفه!

ليس من الصعب رؤية موضع العيب في الدرع. إن ميكيا فيلية ادمون البرجوانية لا يمكن تفسيرها بطرق شتى. ولم يكن ادريان يهتم بها أول الأمر إلا لأنه قدّر أنه يثار ثاراً خفياً فيما يتعرض له المعلم من مضايقات، لكنه سرعان ما تبين أيضاً أن ذلك قد يكون له انعكاسات سيئة على أمنه هو. طبعاً كان يعاون جهده رفيق طفولته القديم. وكانت مصالحهما مترابطة. وإذا ما انهار ادمون فماذا سيحل به، ادريان؟

بيد أن هناك طرقاً عدة في النظر الى الأشياء ومن الغباء ان يقامر المرء بكل شيء على ورقته. قلت إن ادريان وإن كان طموحاً فإنه لم يكن مغامراً. وإن فقد أخذ شيئاً فشيئاً يحلم بما حدث لو أن وضع بارينتتان تدهور ذات يوم. لن يبدو ذلك غريباً لأحد. ولكن بما أن ذلك ممكن، فمن غير المجدي أن ندفن رؤوسنا في التراب كما تفعل النعامة. بل تجب مواجهة الأشياء. غداً ذلك هو الموضوع العادي لأحلام يقظته، في مطلع الأمر، تسأل ادريان كيف يتخلص بلباقة أمام مثل هذا الاحتمال. ثم شيئاً فشيئاً، كيف يقلب الأشياء لمصلحته، كيف يكون بجانب الأقوى، كيف يُخرج الخير من الشر.

كان هناك على الإجمال، خطران بالنسبة الى ادمون.
عمل جماعة «بالميد» في اتحاد الشركات الذي يبدو أن رئيسها قد أهمله
اهمالاً كلياً، ولعله على خطأ... ثم ما يبدو أنه يشغل باله. امرأته.. كون ثروة
الزوجين هي ثروة امرأته.. وأنه في هذا اليوم أو ذاك..

كل ما في لعبة «عطور ملروز» من حذق، وتلك التركيبة بينه وبينه اورييليان
ليرتيلوا، أنار ذهن «ادريان ارنو» حول القضية، ووجه أحلامه. لقد كان له صلات
حسنة، لامع «بالميد» بل مع صهر بالميد، وهو شخص واسع الحيلة، مشهور في
عالم السياسة. وكان ذلك اضطرارياً على نحو ما، ففي قصة مضخات الوقود،
كان لابد له من أن يراه وأن يناقشه. لأن ذلك يمكن أن يُستخدم في هذا اليوم
أو ذاك. ثم إنه كان يتصرف تصرفاً مختلفاً عن تصرف حميه. ولم يكن منغلغلاً
على العروض التصالحية..

وبارينتاتن قبل كل شيء لا يمكن ان يتعامل مباشرة معه: ولذلك فقد كان
طبيعياً أن يتوسّط ادريان بينهما..

لكن ما جعله يحلم، على الخصوص، كانت أعمال ادمون وزوجته. ولو
تبينت السيدة بارينتاتن ذات يوم... ومهما أحبّت زوجها فإن الثروة تظلّ. بعد كل
شيء، ثروتها، مال بنتيتها. وكان ادريان يجد في نفسه اللعبة التي لعبها ادمون
حقيرة. كان في صفّ بلانشيت، لا عن مودة لها بالذات، بل لأنه كان في صف
الأسرة والأولاد والمنزل. ثم إن إحساسه بأن كل شيء يحمله على الوقوف في
هذا الصف كان يرفعه في عينيه نفسه. وهو يستطيع ان يدين ادمون على هذا
الصعيد، كما يحلوه. فقد كانت الاستقامة والنظافة الى جانبه. وكان يرتاح
إليهما قليلاً.

أهذا ما جعله يهتم أكثر من المعقول ربما بأعمال ادمون؟ كانت «عطور
ملروز» ذريعة ملائمة. أما من جهة الشركة العقارية فقد كان مطلعاً اطلاقاً
مقبولاً، لكن هناك أشياء فاتته فهمها. وهو مدين كثيراً لأمانة السر الأنسة ماري
التي تركت له تكديس إضبارات «بييه ويل» أثناء الساعات التي لانهاية لها والتي
كان ينتظر فيها المعلم ليجيء أو لا يجيء. لابد من تزجية الوقت. وكان يُعدّ

الذراع اليمنى للمعلم الى حد بدأ معه هذا العمل طبيعياً جداً.
إن ما اكتشفه في تعقيد أعمال ادمون وتشابكها، استهواه بسرعة كبيرة. كانت مخالقات النظام عديدة. وكانت تدور بخاصة على خداع مصلحة الضرائب. اوه، ليس ذلك خاصاً بشارع «بييه ويل»! فذلك يُمارسُ في كل مكان. وأخيراً كانت هناك عدة تلاعبات عجيبة. وعندما اطلع عليها ادريان خطر له أنه يفعل ذلك بفضول ذهني أكثر من أي شيء آخر. وجد أسلحة في عملية مرتبطة بالتاكسي، ضد جماعة «بالميد». لم يتنبه أحدُ الى ذلك، وقد ينفع ذلك ادمون، ذات يوم... أو ادريان نفسه، عندما يناقش قضية المضخات مع الصهر... وكان كلما أمعن في ذلك كله ازداد احتراماً لآليات المجتمع الضخمة، وقل احترامه للهواة، وبالاختصار للطناطين من طراز ادمون الذين يشاركون في ذلك كله دون أن يفهموا شيئاً منه. تلك الآليات تسير بجانبهم ويؤمنون أو ينتظامرون بأنهم يؤمنون أنهم هم الذين يقودون. ذلك جدير بالثناء! إنهم طِفْلِيُونَ. الحقيقة أن السيدة باربنتان إذا أرادت الطلاق بين دقيقة وأخرى، فماذا يبقى من هذا الرجل المزيّف العظيمة من هذه الشخصية الباريسية التي أوهمت بأنها أحد قادة الصناعة؟ وفي نظر مَنْ، من جهة أخرى!

- «أنسة ماري، ناوليني هذه الإضبارة... قضية أراضى الدائرة الثامنة

عشرة... في ملف ودي، على ما أعتقد...»

نظرت إليه أمينة السر، كان عليه ان يكرّر. لم تكن بطّالة، هذه الفتاة الصغيرة. وبينما كانت منحنية تبحث عن الملف الوردي، لم يتمالك نفسه من مداعبة عنقها. ارتعشت. ولم تنسحب. ظلّت تبحث عن الملف الوردي. أطبق أصابعه المهيمنة ببطء على قذالها الواهي حيث تجعدت خصلات صغيرة شقراء. في هذا اليوم كانت الفلطة غلطة باربنتان. كان «ادريان» من كل بُد بحاجة الى أن يراه، من أجل توقيع، لكنه لم يأت. وحينئذ تربع «ارنو» على كرسي الإدارة، وأخذ يقرأ ويقرأ ويسجّل ملاحظاته. تَمَتَّت الانسة ماري: «لادري إن كان ينبغي لي أن...» عمّ تتحدّث؟ هل قصدت تلك الملاحظات قبل قليل، أم الإضبارات التي أخرجتها من قطعة من قطع الاثاث دون أن يطلبها؟

كانت هذه الفتاة ذكية، كانت تعلم ما يريد فسارعت الى تلبية رغباته، ابتسم لها:
- دعي ذلك، أنسه ماري، أنا أتحمل مسؤوليتها...

خرجت من المكتب وهي جد مرتبكة.

وبما أن ادمون لم يحضر مرة أخرى في الموعد المضروب، قرّر اديان ان يتبعه الى بيته. كان بحاجة الى شمّ الهواء، الى المشي، نزل في الجادات، والكونكورد، و«كورلارين».. مهما يكن من أمر فلن يكون بارينتان في بيته.. وأذن، لماذا أذهب؟ لم يتسائل اديان عن ذلك. كانت له عن ذلك فكرة مبهمّة تختلط بها صورة بلانشيت بارينتان. والعجيب أنه لم ينظر الى امرأة ادمون قط، ولم تكن له من وسيلة ليتخيّل بوضوح هيئتها ووجهها. لاهي بالجميلة ولا هي بالبشعة. ثقيلة قليلاً، لعلها لاتحسن تدبير أمورها، مع رجل قريبها يُحسن أن يقول لها.. ومع ذلك فقد يكون ادمون هنا، بارييس الربيعية هذه لها سحرها الخارق للعادة، لولا كل هذه السيارات، كانت حدائق «التروكاديرو» ماتزل ملأى بالأطفال في الساعة الخامسة. لم يكن ادمون يستعجل بحذاء الرصيف، فكلما وصل متأخراً كان حظه أكبر.. كان يحب هذا الحي الذي يقطنه الأثرياء وفي محطة «باسي» للمترو صعد بالدرج.

ومع ذلك، فلو كان يملك مالا كثيراً لما أحب أن يسكن هنا، ولبحث عن شيء أكثر ارسقراطية من شارع «رينوار». الضفة اليسرى. رفع أنفه ونفخ قليلاً وهو ينظر بعين حاسدة وناقدة الى المبنى الكبير الذي يسكنه آل بارينتان، هذه السجون الفخمة... ثم إن الشارع كان ضيقاً... وتكفيه سيارة شاحنة كهذه السيارة القادمة لتسده...

وفجأة أخذ يركض، قبل أن يفكر فيما يفعله، صرخ الناس، لقد أخذ بين ذراعيه هذا السقط الصغير من الثياب ومن الدنتيلا. وقفز جانباً أمام الوحش، وانزلقت قدمه، وتلقّى الصدمة... ترنّحت السماء، وسُمع صوت المكابح المشدودة، وصعدت رائحة الفبار وشحم الآلة...

أنهض، لا، الولد سليم. كانت الصغيرة «ماري فكتوار» تبكي، والمربية

تحرك ذراعيها، الأسودين، والسائق يبرر سلوكه أمام الشرطي... أخ!
الآلم فظيع في الساق.. وضعف.. سقط ثانية، ولم يستطع ادريان
المشي، سأل الرجل ذو الصدر الذي سنده، ضمّ شفتيه وابتسم، وقال
- «ليس هذا بذى بال، أظنّ رجلي كُسرت...»

كان ينظر الى بنتي ادمون ومربيتهما . لقد أنقذ ابنة المعلم. وأحسّ
بالضغف مرة أخرى، قال صوت رجل... «لا يستطيع أن يقف». وقال آخر: يجب
ان يُحمل الى صيدلية.. في هذه الأثناء صرخت امرأة هي المربية «لكن هذا هو
السيد أرنوا صديق المعلم! جثت بجانبه وحدقت، قال:
- ليس هذا بذى بال، ستصلح الأمور...
- لقد أنقذت الصغيرة...

من هذه الجهة، نعم، لقد أنقذ الصغيرة. وساوره نوع من النشوة. كان
يحب الأطفال. ثم... لقد كان أضعف كثيراً من أن يستخلص النتائج من هذه
الواقعة الجديدة، غير العادية، إلحاسمة...

ظلت المربية تصرخ، لا تأخذه الى المشفى، مهلاً! هذا صديق المعلم!
انقلوه الى منزلنا! لن تغفر لي السيدة ذلك! لقد أنقذ الصغيرة! ساعدوني، أنتم،
ياسادتي...

أخذه أحدهم من ذراعيه، وأراد آخر أن يمسك بقدميه فحرك الساق
المصابة، فصرخ ادريان.

وبالف احتياط. حمله ثلاثة رجال لم يرههم بوضوح الى المنزل المواجه،
هناك، وكانت الصعوبة شديدة في إدخاله المصعد. كانت المربية تصرخ:
«سأصعد ماشية لأهيمى السرير، وأهتف للدكتور!

كان ألم الساق فظيلاً،
المصادفة، المصادفة العجيبة..



لا ينبغي أن يعرف «آل فانهوت» ما كان يجري. تنفّس «بول ديني» بعمق... ومسح جبهته بمنديله. لقد ركض، ركض بلا حدود. لقد كان متضايقاً بهذا القميص الواسع المثقوب، وقد سقط زرُّ القبة. ابتلع تلك الشهوة للبكاء لن يبكي. والإقلاع عن البكاء سهولته غير متوقعة. ومع ذلك فالغداء مع جميع الناس... لم يكن بوسعهم أن يمكث طويلاً في الغرفة ذات الستائر الصغيرة بتربيعاتها الحمراء. ودّ لو يبقى فيها، أمام الخزّانة المفتوحة، والقمقم الفارغ المتروك على طاولة الزينة، والأوراق القليلة على الأرض، والسريّر الذي لم يُرتّب بعد. ماذا سيقول الناس لو حبس نفسه فيها؟ فنزل. ناولته السيدة «فانهوت» بريده: «لم تأخذُ بريدك، سيد «ديني»...» كانت تبدو كمن تُشفق عليه؛ آه لا، عجباً. كان بريده رسالتين ومجلة وجريدة. «المعذرة» سيدتي، إن أتناول الغداء اليوم... هل تأخرتُ في إعلامك؟

- لا، لا، لا أهمية لذلك، سيد ديني...

يا الشهر نيسان المبكر العذب! في هذا الصباح، استطاع «بول» أن يستحم لأول مرة في «السين»، لم يكن الماء دافئاً، بعد، لكن يالمتعة الماء والأعشاب وحتى الوحل في الضفة التي نفرق فيها القدمين الحافيتين، كانت الشمس محرقة. وكان رأس عنقه مذهباً نحو الصدر عند فتحة القميص. كان بوذه لو لصاحب بيرينيس إلى هذا الحقل المغلق بالأسيجة، قرب النهر، حيث يستطيعان أن يأخذا حماماً شمسياً، بلا فضائح. وكان سيخطف منها كتابها الانجليزي، بينما تشرع هي في قراءة مخطوطته: «نزهات سوداء» التي أنهارها والتي لاتعرف منها بيرينيس سوى فقرات. ومن أجل ردة الفعل جرى في وهج الشمس على الدرب، وانحدر إلى «الطاحونة».. وهناك وجد الغرفة خالية ووجد رسالة صغيرة: «أنا راحلة، يا صغيري، بول لا أود أن أولك. كان خطأ منا الاثنين.

والاستمرار في هذا الخطأ يُسيء إليّ أنا.. لا تسرف في البكاء وفكّر في شيءٍ آخر: ماتزال لك حياتك، وماتكتبه (تذكّر أنّني أحببتُ كثيراً ماكتبته)، ولك أصدقائك.. لاتبّق وحدك. اذهب والقهم. إنك غير متمسك بي بالقدر الذي تظنّ. ربما. ابتكر مينيستريل شيئاً شائناً، ففي ساحة بيغال جُدد.. لاتحاول رؤيتي. أليس من الأفضل أن نفترق هكذا، دفعة واحدة، دون صراخ، ولا مشاحنات بنظافة؟ قراري لا رجعة عنه. أنا راحلة إلى الأبد، افهم ذلك جيّداً، لقد قضينا معاً نحو ثلاثة أشهر، آخر الشتاء، ومطلع الربيع، قُضي الأمر الآن، وعاد الربيع. سنفترق، وسوف افكّر بركة عذبة في هذه الأشهر الثلاثة. وعلينا ألا نُفسدها، أترضى؟ لاتكثّر بفمك الصغير الظريف، دُعني وحياتي. شكراً لأنك أعطيتني حياتك طوال هذا الوقت، لأنك ساعدتني في لحظة صعبة، مرّت تلك اللحظة الآن. أنا قوية وسأرحل.

أقبلك بحنان.

بيرينيس

ماذا قالت لال «فانهوت» وهي ذاهبة؟ أمن المفروض أن يعرف بول سبب رحيلها؟ وماتفسير الزوجين لغياب بول عند انصرافها؟ وأنه لم يرافقها إلى «فيرنون»؟ ما أصعب تحمل شفقة الناس! وعليه أن يتصرّف وكأن كل شيء كان طبيعياً. مدبراً. أن يظهر بمظهر الرجل المطلع.. أيّ قطار استقلت؟ في الثانية عشرة والنصف، ربما. الساعة الآن تجاوزت الثانية عشرة والربع، ما أسوأ حظه! كان بوسعه أن يعود قبل عشر دقائق. يستطيع أن يدركها بالدراجة. لكنه... لو وثب على آلية «فانهوت» على دراجته النارية، فهي أسرع... لكن ربما سافرت في قطار الحادية عشرة والدقيقة السابعة والأربعين.. لا يستطيع أن يسأل عن ذلك، ثم إنها قالت له ألا يسعى إلى لقائها.. «خطأ الاثنين». كانت ماتزال تفكر في «ليرتيلوا» عادت لتلقى «ليرتيلوا». وماذا في ذلك؟ إن كان هذا هو نوبها! فلتذهب مع ليرتيلوا! وكرّر هذا الاسم الذي كان يؤذيه. مستحيل. مع ذلك، أيمن للمرء أن ينخدع هكذا؟ كانت تحبه، تحبه هو «بول الصغير»...

«أقبلك بحنان...» عرض شفتيه. كاد يبكي هنا في المكتب الصغير بمنقوشاته الانكليزية مع أنية من القصدير، ومسند للغلايين، والأثاث المغطى بغطاء وردي وأخضر. بدا على السيدة فانهوت أنها تنفض الأشياء، لكنها كانت تنظر إليه خلسة. تبين أنه لم يقرأ بريده. وأن رسالة بيرينيس كانت في يده المفتوحة. مزق مغلغلاً وخرج.

كانت رسالة من ناشرة يطلب فيها «نزهات سوداء» ويقول ان رسماً من بيكاسو يساعد على بيعها، ولاسيما إذا استطعنا أن نحصل فوق ذلك، من أجل الإصدار الفخم.. عبر عتبة الباب. صاح به فانهوت المقرصن تحت السقيفة التي يستخدمها مرأباً لدراجته النارية التي بجنبه:

«أتدري، ياسيد ديني أنني نَوَّزْتُ البيان سوف تصل الانسات بعد ظهر اليوم.. وهن يتوقعن أن تعزف لهن هذا المساء هؤلاء النساء هن العاهرتان. كان اليوم يوم السبت، ودمدم بول بشيء ما. على الأغلب.. ابتعد عبر حقل النفل. أراد ان يترك انطباعاً بأنه ذاهب للغداء عند «مورفي».

ماذا سيفعل الآن؟ أيبقى في جيفيرني؟ أيتحمل بلاءه؟ أيعزف على البيان من أجل هاتين البننتين، أيلعب الشطرنج مع «فانهوت»، أ يكتب الى بيكاسو يسأله الرسم الموعود، والى «روسيل» يسأله بعض ملاحظاته حول المجلات الجديدة.. أه اللعنة!

بلغ الطريق المتعرجة الضيقة. أحس بعبراته تتصاعد. كان ينظر الى الأرض، التخوم المتصالبة، الأعشاب في التلعات، الفراشات السمرء والزرقاء.. عند المنعطف شوش عاشقين: فتاة من البلدة تحشر قرب حاجز أخضر فتى متين البنية بستررة سوداء، يرد قبعته الى الخلف وعيناه ضاحكتان وشاربه أصهب. نظر الرجل الى بول نظرة تواطى، فأشاح بول بوجهه. ماذا سيفعل بولته.. بالحياة؟

وصل الى امام حديقة «مونيه» التي غمته، وفكر طويلاً وعلى نحو غامض بالشيخوخة والمجد. لابس بمونيه، بعد كل حساب، وبالانطباعية... ما مثلته هذه قديماً..

في فترة ما... كل القصص التي تُروى في المنطقة عن شباب هؤلاء الناس... الفوضويين ربّما.. لكن لا بأس بهم، في النهاية.. كل شيء ينتهي بملكية صغيرة، وبورود، يجب أن أذهب الى «الاورانجيرى» في باريس، لأرى لوحة «النيلوفر» العظيمة.. ويقال مع ذلك أنها عمل مجنون... سيكون مبهجاً لمؤديه لو أُجريت له عملية لإزالة الكثافة السادة في عدسة العين... وله ابن أخ يصنع الحرير الملّون، شيطان كبير صادفه بول عند آل «مورفي»...

أين ذهبت؟ الى باريس؟ لن تبقى في باريس عند باربنتان؟ عند امبيرو؟ لن تفعل ذلك، وفجأةً فكرت في اوريليان، تصوّر اوريليان، فقرصه ذلك في قلبه، كلا، كلا: انتهى كل شيء بينهما، كان يعلم أن بيرينيس لن تهرب منه لتقع ثانية في يدي اوريليان، لا، لقد عادت الى زوجها، وتلك هي البداية بعينها، محاولة تمرد، هروب.. لحظة معترضة في الوجود... ثلاثة أشهر بل أقل.. وعودة الى منزل الزوجية، ضحك.

برجوازية صغيرة كغيرها، دعك، يجب، ألا أفكر فيها، أيركض وراءها؟ أحياناً ماذا كانت تريد غير ذلك؟ كانت حياتها كثيفة جداً، وكان لابد لها من مغامرة، الآن ان تضيرها قصة فاجعة - لن يكون أحق الى هذا الحد كلا، وهي على كل حال قد أدركت ذلك حين قالت له: إن له أصدقاء، مينيستريل، ومايكتب.. كان لطفاً منها أنها ألحّت هكذا... «تذكر أنني أحببت كثيراً ما كتبت» هناك جانب لطيف في بيرينيس، اوه يا حلوتي، يا حلوتي!

اتخذ حلم يقظته مساراً دقيقاً مؤلمة، فيزيائية، وصل الى ضفة السين، الى حيث استحم قبل قليل، نظر الى الجزيرة الصغيرة قبالة، لكن ما رآه لم يكن الجزيرة، بدأ يخاف الليل المقبل، ربما كانت بيرينيس على حق: يجب ألا يبقى في «جيفيرني»، يجب أن يذهب الى باريس، الى ساحة بيغال، الى شراب الماندارين، الى الأصدقاء.. ويمكن أن يلجأ الى السينما إذا سمات الحال حقاً، وثمة أنوار عند المساء.. وحوالي منتصف الليل، أو الساعة الواحدة، ربما لقي ليرتيلوا في حانة «لولي»، وقد يتأكد على الأقل من أن ليرتيلوا ظلّ وحيداً وحزيناً.. من يدري؟ وقد يتناول كأساً مع ليرتيلوا...

لم يكن الماء نظيفاً تقريباً حيث سبج، كان الماء يحمل فتاتاً من الخشب، وراى ماء «الإيبت» يصل أكثر خضرة، وبارداً متحيراً في أن يذوب بغيره، وخلف أشجار الخليج الصغير حيث خلع ثيابه، صعد بول نحو الرافد، متردداً، أيمضي الى باريس أم لا؟ ترك الدرب الذي يفضي الى الجسر، عند مطلع القرية، الذي يقود الى هويس القناة، كما كانت تحب ان تفعل بيرينيس..، الراجعة الى لوسيان، أممكّن ذلك، يا الهي؟ تذكر بقسوة حديثاً لم يسمعه دون أن يرتعد، حديثاً لبيرينيس، ذات ليلة، ففي تلك العفوية التي تغدو بيرينيس معها كالظل ذاته دفناً ورقّة، ألصقت نفسها به، ولم يكذ ينتهي من متعته، وهمست بحماسة: «لايمكّنك أن تعلم مدى روعة الرجل الذي يملك ذراعيه!» كلمة فضليعة تذكرها اليوم، وما تزال تُرجفه، لقد عادت الى لوسيان.

قادته قدماء الى البيوت الخرساء عند الظهر، أدارت الشمس رأسه. وكأن هناك ذباباً ضخماً، وسمع حصان يرفس في اصطبله، سلك بول بصورة طبيعية الطريق الى منزل مورفي، تذكر أنه لم يفتح سوى رسالة من اثنتين، وأنه يحمل بريده في يده، الرسالة الثانية كانت قائمة طبيب الأسنان، خمسمئة وخمسة وستين فرنكاً، وكانت الجريدة تحوي مقالة عن «ديشانيل» الذي مات منذ فترة قريبة، بعنوان: «مفتري عليه»، أزال «بول» لفافة صحيفة الكوخ ونظر الى الرواسم، وصور الحرب، وذكريات الملكة «رانافالو» ومقالة عن أغاني «الهر الأسود».

بين العناوين الحمر، وفي زاوية، مقالة «لفوشن» ضد «مينيستريل»: مقالة سوء النية فيها والخبث لا يُصدّقان، صكّ بول أسنانه واستشاط، كم من السفاهات يبيعها لنفسه مثل فوشن هذا... مينستريل فوق ذلك، بالتأكيد، لكن مع ذلك! الكارثة أن هاهنا كلمة لطيفة له هو، بول ديني، هذه لعبة من لعب الصحفيين ليسود، ليشككوا الأصدقاء بعضهم ببعض، ماذا سيقول مينيستريل عن ذلك؟ أعاد بول في رأسه عبارات رسالة الى فوشن: «سيدي... هل ينبغي أن يدعو سيدي؟ لعل «سيدي القذر» أقرب الى الأسلوب المناسب، «سيدي العزيز

القدر» هي التي تصلح. ساكتب إذن: سيدي العزيز القدر، ما الذي أباح لك أن ترى في موهبة... لا، هذا ضعيف... «إني أتساءل من الذي يسمح لنفسه، في السجون حيث تطلب أن تكتب مقالاتك بسعر مخفّف، أن يمنحني شهادات...» وشيئاً من هذا القبيل.. ثم : «بين مينستريل وبينني لا مكان لفنطيسك اللئيمة..» وسوف يرتّب ذلك عند الكتابة. كانت هذا الرسائل فوزاً عظيماً لبول ديني، كانت تثير كوارث ومضاريات. كان يقول إنه يعبد هذا. والواقع أنه يكرهه. لكن كان لابدّ من المحافظة على سمعته. وفي هذه المرة كانت فكرة الاقتتال لاتسوءه فذلك يصرفه عمّا هو فيه. ثم إن نمط المحارب القديم في جريدة «الكوخ» كان يثير اشمئزازه. لكن ما الذي قبل لهذا النّحاس «فوشن» في «دي ماغو»؟ لقد سحب فوشن شيكات بلا أرصدة، ولقد توقّعات... وأحد ضحاياه هو الذي خلّصه من ورطته، وهو ممن يُسليهم النصابون دائماً على ما يبدو.. طبعاً إن أناساً من هذا النوع هم الذين يهاجمون «مينيستريل»! إذا ما فكرنا ما الذي قالت له بيرينيس عن فوشن، ذات يوم؟ ولأنّ تكون بيرينيس قد عرفت فوشن ضرباً من الجنون الذي لا يوجد الا في باريس.

أين سأجد مبلغ خمسمئة وخمسة وستين فرنكاً؟ أرسلت قائمة طبيب الأسنان الى «روسيل» فربما دفعها في نهاية الأمر، وسوف أهديه رسماً صغيراً «لكسلنج»، فعندي من ذلك كمية كبيرة.. لا لأن ذلك يثير اهتمامه... بل لأنه أقلّ إزعاجاً..

- هو، هو... اوه؟ أيمن أن أصعد؟

في الدرج الأسود الصغير لدى السيدة «فريز» تخرج حذاء أرشي الضخم الى منتصف الطابق، وانحنى مورفي صارخاً: «بول» مضخماً المقطع على الطريقة الامريكية التي كانت تجعل بول ديني الفرنسي يرتاب في أنه هو المدعو: هيا، بول، اصعد..

كانت مولى على الاركة، وعلى رأسها منشفة معقودة، تدخن الغليون، منبطحة على بطنها بين الوسائد، مع كأس صغيرة والقهوة بين الكتب قربها.

كانت تقرأ الإعلانات الصغيرة في صحيفة «المتشدد» وكانت بقايا الطعام تنذر على المنضدة وعلى الأرض. وكان في الجو دخانٌ، ورائحة السمك المشوي.

- هل تغديت حقاً... لأن ذلك سهل... اجلس..

- شكراً... تغديت...

- قهوة، إذن؟ وإن ترفض كأساً؟ أنا أعرفك!

كانت «مولي» بالاصبع المهددة، والها، ها من أعماق الحنجر والحركات الضخمة من امرأة اجتماعية، والرأس الذي تهزّه كمن تعرف شيء...

كانت في أوج احتفائها.. من البديهي أن عرضها لا يُرفض..

وكان ارشيبالد مورفي، جالساً بطقمه على الأرض، مع أوراق في أرب كوم أو خمس، وكتب قديمة فوقها، وكان يتحدث عن ديدرو. وقد عثر على قرابا، بين «جاك القدري» والنزهات السوداء.. وكان ينظر الى بول من فوق نظار خيالية: «لكن بينهما هذا الفرق.. هذا الفرق.. وهو ان «جاك القدري» ليس م عمل الشبّاب.. وعندما أنوي أن أقارن بينك وبين ديدرو فعلياً أن أتصور.. أ أتصور ديدور ابن اثنين وعشرين عاماً... او بول ديني ابن خمسة وأربع عاماً... كيف ستكون هينتك في الخامسة والأربعين، أنا أتساءل؟ سيكون لا كرش.. وشعر وخطه الشيب.. عندما تصير رجلاً تاماً... قصدت عندما لاتظ صبياً...

قال بول: ان أبلغ الخامسة والأربعين أبدأ..

سخّنت «مولي» القهوة. رفعت المنشفة التي كانت مشدودة على رأسها لكن شعرها لم يكن قد جفّ بعد، وبدت في هيئة محزنة، هيئة الكلب المبلل، كاند تحاول أن تنفخ شعرها دون جدوى سألت

- كيف صحة السيدة الرفيعة والقوية بيرينيس؟

لم يجب بول. وكانت «مولي» أمام امرأة صغيرة تخطّ حاجبيها. دهشت

من صمته والتفتت. وكان آرشي منهمكاً في لم أوراقه ووضعها في كوم منتظمة. وهو لم ير بول يتغير وجهه لكن مولى سارعت إلى القول بالانكليزية: ألا ترى أنه يبكي؟ بول، عزيزي بول... ماذا دهاك؟ أنت وحش بصاحبك ديدروا بول، اشرب القهوة وهي ساخنة... لا، لا، لا، تقل شيئاً.. عندي شرابٌ آخر تناولهُ سهلٌ... معي... اوه، «آرشي»! أنت لا ترى شيئاً بتاتاً! ديدروا أنا أسالك...

وقف وهو لا يدري ما يقول. سألهُ مورفي: هل رحلت؟

أجاب بول «نعم» برأسه. حينئذ ساد صمتٌ عظيم، طبطبت «مولي» على الوسائد ووضعت واحدة خلف رأس بول، وقبّلتَه في جبينه. كانت رائحة الكحول تفوح منها. تمتعت: أيها الولد المسكين، وأمسكت بيديه. في الخارج كان محركٌ يخشخش، ونبح كلبٌ. قالت مولى بفرنسيّتها المشوية:
- قل لنا الآن كل شيء بهذا الصدد..

* * *

لم يدم طويلاً سرُّ بول وبيرينيس، كان ذلك السرُّ مثل كومة من الهشيم أشعلت من كل جانب: فكيف يُعرفُ مُشعل النارا كان هناك شارل روسيل الخياط، لاشيء أَرهَب من تكتُّم هذا الخياط، وتظاهره بمعرفة كل شيء. كل ما حرص ألا يقوله هو اسم السيِّدة، لكنه قال إن بول ديني كان في «جيفيرني» مع شخص.. مع سيِّدة راقية.. متزوجة.. وهلمَّ جراً، وكان في ذلك دائماً مايثير فضول السيدة غودمان التي تناولت غداها عنده مع زامورا، ليحكم على أثر لوحة «القوادة الخنثى» بعد أن أطرها «ليفران» ووضعت كمصراع على مفصِّلة على جدار صالة الحمام بحيث تستطيع السيدة روسيل ان تخفضها وألا تراها أثناء اغتسالها. وقد سأل زامورا مينيستريل الذي كان في «جيفيرني» من تلك المرأة، لكنه لم يرها. بيد أن جان فريدريك سيكر الموسيقي والمؤتمن على أسرار «بول ديني» قد لمح بأن زامورا يعرفها وأنه لا يستطيع أن يصرِّح بأكثر من ذلك ولو قطعتة إرباً إرباً. وكانت عيناه الجاحظتان تنمَّان وهو يقول هذا، على معرفته بالسرِّ الخفي من الذي تجاسر ان يُحدِّث بذلك ماري دي بيرسيفال؟ لعلها «ديان دي نيتنبرغ» وما الطريق الذي اجتازه السرُّ إليها؟ ويبقى أن ماري حدِّثت روز بذلك.. وأن السيِّدة ملروز حلمت بذلك.. جيفيرني، الطريق المتعرجة والضيقة، ذلك الشبح وكذب ليرتيلوا، لايحتاج الأمر الى دهاء عظيم.. وكيف لم تحدِّث بذلك لا ادمون ولا ديكور؟ في المؤسسة حدِّث الدكتور «زوي آغاتوبولوس» التي بادرت الى إكمال معلومات صديقتها الكبيرة ماري، وعندما اطلَّعت بلانشيت على الخبر من ادمون، قهقهت قهقهة مرَّة، بالهذه الصغيرة بيرينيس! جميل للغاية حقاً... وروت في الحال الخبر لأدريان الذي سيُغيَّر جيسه في اليوم التالي. كسره سيء مع ذلك، على أن لا يؤدي الى قصر الرجل! يا الهي عندما تتذكر تلك العودة، في ذلك المساء والانفعال الذي ألمُّ بها.. صغيرتها ماري فكتوار.. الحق مع المربيَّة: كيف يجوز أن نترك منقذ ماري فكتوار يذهب الى

المشفى؟ ففي البيت متسع وفي نقلة ماقد يؤذيه. ثم ان ادريان أليس أقدم صديق لادمون؟ كسر مضاعف، وشریان خرقته شظية، ما أدراني وفضلاً عن أنها مدينة له بذلك فان ادريان قلماً كان يُزعج، أي إنه قلما كان سيُزعج لولا ابنة العم تلك.. امرأة طويلة سمراء، رخوة ذات عينين غارقتين، كانت ستستقر بسهولة عند رأس السيد أرنو لو ترك الأمر لها، ولو لم تفهم، اوه! بكثير من اللباقة! أنها لايمكن أن تأتي في كل مناسبة الى منزل ناس لا تعرفهم. وأن في المشفى بالطبع لافتة للزيارات من الساعة كذا الى الساعة كذا. الأمر اسهل هناك. لكن لابد أيضاً من النوق المرهف. لعل بينها وبين ابن عمها شيئاً ما، غير ممكن ولا سيماً من جانبيها هي: لأنه هو كان يبدو مرهقاً..

كان شيئاً ظريفاً ان يسمعهما المرء وهما يتكلمان معاً. ادمون وادريان. كانا يتناولان القهوة، على العموم. في غرفة الأصدقاء، عندما يكون ادمون هنا. وكان بينهما طفولتهما، والمدينة الجنوبية الصغيرة حيث نشأ، ولعبة الكرات على الأسور، وطيشهما قبل العشرين. كانت بلانشيت تصغي إليهما بدهشة. كانت تكتشف ادمون مختلفاً عن زوجها. شاباً أسفت لأنها لم تعرفه، ودوداً جداً، وكانت توحد بالضرورة بين ادريان وبين ادمون ذاك، بطل من جهة أخرى. ادريان... ادمون قال ذلك لهما. لقد سلك سلوكاً رائعاً في الحرب. وليس في ذلك ما يُدهش اذا قسناه بالطريقة التي رمى نفسه بها تحت الشاحنة لانقاذ الصغيرة!

في غضون ذلك كله، كانت بلانشيت تفكر في اوريليان بمرارة ولكن برضاً ايضاً. لأنه سقط من جراء مغامرة بيرينيس تلك. وأن بيرينيس قد أسلمت نفسها لآخر، لصبي... الشعور الذي كانت بلانشيت مسكونة به لايمكن تسميته. غيرة، كان عكس الغيرة، تنزلات عليها سكين عظيمة. وعندها لم يكن يسوءها ان تعلم أن ادمون حين تركها أنما ذهب للقاء ملروز. لم يكن يسوءها إطلاقاً. كانت تحس أنها خيرة، وشكرت الرب لأنها لم تصل عبثاً.

الصغيرتان تعلقتا بالسيد آرنو، وذلك مفهوم جداً. الكبرى بخاصة، التي كانت تحب أختها كثيراً امتلأت اعترافاً بالجميل لمنقذ أختها. كان ادريان صبوراً مع الصغيرتين الى حد لا يُصدق! إذ ان أباهما لم يعودهما ذلك. وعلى العموم كان ادريان ارنو يُظهر استواءً في طبيعه مدهشاً تماماً.. والواقع ان المرء يشي بنفسه في مثل هذه الظروف: لنتصور تلك الراحة الاضطرابية لشاب شديد النشاط، لم يبلغ الثلاثين، وجميع متاعب ذلك الجمود. ولا ألح على ذلك. اضافة الى ساقه. فظيعة أجهزة التمديد لكن كان لابد أن تجبر الكسرات دون ان تتراكم، ولا سيما ان الكسر عندما يكون بسيطاً فإن الألم ينقطع مع الجهاز. لكن مع الجرح، الضماد.. لم تكن بلانشيت لتقبل أن يُعنى به أحدٌ غيرها على الإطلاق. كانت ممرضة أثناء الحرب.. أليس كذلك؟

تغيرت حياة بلانشيت. لم يعد البيت فارغاً، لم يعد الأولاد كالذباب، ولا الساعات التي تنتظر فيها ادمون عذاباً. ولا سيما أن ظل الخطيئة كأنما فارقتها. لم تكن تفكر في ارويبيان إلا نادراً، وبصورة هادئة جداً. ومن البديهي أن لجرى الأشياء يداً عظمت في ذلك، ولزوال تلك الصورة الشاعرية عن ليرتيلوا بعد مغامرته الفاشلة مع بيرينيس. لكن يجب الإقرار بأن لحضور السيد آرنو أثراً أكبر ايضاً. فكأنما طردت الهاجس الذي حاصرهما. كان ادريان يحمي بلانشيت بحضوره وحده، ويهدئها. فإذا أحست انبعاث الهم القديم فيها، جاءت تعود ضيفها المجدد، بأية ذريعة كانت، فيستضيء وجهه في الحال. كان سعيداً أبداً برويتها. وكأنما لم يكن ينتظر سواها. وكان محدثاً مشوقاً. لقد رأى كثيراً وتجول كثيراً وإن لم يبد ذلك عليه. وكان الى ذلك. محافظاً على احترامه لها، مجانياً المزح أو الكلمة النابية. لكن عينيه كانتا بليغتين وهما تتبعان المرأة حتى الباب عندما تنصرف وتتركه.

في غضون ذلك كله، جاء الوزير ليعود ادريان. كان عضو مجلس الشيوخ باربنتان رجلاً طيباً. كان يعبد حفيدتيه، اللتين لم يتسن له ان يراهما. ولقد هزته قصة الاصطدام. والى هذا فإن ادريان... من هو... نعم، بالتأكيد..

فتى من «سيريان» تذكرت.. ابن صاحب «المعارض الجديدة»! كان أبوه خصماً سياسياً لي، بل لقد خدعني خدعة غريبة بصدد احلال سيارات نقل الركاب الكبيرة محل الحافلات الكهربائية.. كان ذلك في ١٩١٣.. او ١٩١٢.. لست أذكر... الخلاصة قبل الحرب. ياه، كل هذا غدا بعيداً جداً لقد ساءت اموره، وأفلس على ما أظن.. ليس الابنُ مسؤولاً بعد كل شيء.. ثم إننا مدينون له بصغيرتنا «ماري فكتوار»! كانت المقابلة من النوع الفخم. وبدا الوزير كمن يعلق وساماً على صدر ادريان: «أيها الشاب» إن أسرتك حاربت أسرتي قديماً لكن كل هذا غدا في طي النسيان... بين الطيبين... كلنا فرنسيون.. عندما تتعافى زُرني في الوزارة.. لعلي استطيع أن افعل شيئاً من أجلك.. وعد منك؟

كان ادريان حساساً شيئاً ما لما يُضحك. وقد أثرت فيه لهجة الشيخ الوزير أقل من غيرها كانت هذه لهجته، مع بروز أكبر، هذا كل ما في الأمر، لأن ادريان بذل وسعه منذ الحرب ليتخلص منها. لكن الذي أثر فيه أكثر من ذلك ان وكيل الوزارة قد كلف نفسه ليعوده. وعندما يُقال وزير ليكون الوقع أكبر فإن ادريان قد رأى ان وكيل الوزارة تسمية أكثر خفاء وأكثر واقعية. كان، يُضمر منذ البدء احتراماً عميقاً لكل ما هو رسمي، للسلطة، للدولة، للحكومة. لقد بارك ذلك الحادث الذي أتاح له هذه العطلة الغريبة، ساعات الحلم الطويلة هذه، هذه، المغامرة التي أخذ يتوقع نتيجتها.

كانت ايزابيل تُزعجه. كانت نوعاً ما، حياته الماضية التي تتشبث به، تفاهة تلك الحياة. ما حاجتها الى اللحاق به في هذا المكان؟ وعندما يقارن بين الغرفة التي كان فيها والغرفة التي كانت له عند أقاربه؟ ولاسيما أنها كانت تتحرق دائماً لتظل وحدها معه، وأنه كان يخاف من أن يُفاجئهما أحد. من باب يُفتح، من الخدم، من السيدة بارنيتان، لا يمكن القيام بذلك عند الناس. ايزابيل هذه، يالها من نهمة للذات! لا سبيل الى افهامها.

بإذن، فمن الأفضل أن يستبق الأشياء. فإذا لاحظت السيدة بارنيتان شيئاً... أسر إليها ادريان بسرّه.. ما كان ليجرؤ قط على ذلك.. ثم بسبب ابن

عمّها.. التكتّم الذي كان طبيعياً فيه... لكنك تفهمينني. في النهاية، ياسيدتي.. لا ينبغي أن تحكمي حكماً ظالماً عليّ.. سأصاب باليأس.. بيد أن ايزابيل لم تدرك ذلك. الغلطة إذن غلطتها. ثم إن ادريان يثق ببلانشيت ثقة مطلقة، غير خاضعة للعقل قالت:

- أنت لاتعرفني.

رفع إليها عينين بليغتين، اوه بلى، إنه يعرفها أكثر مما تظن! لقد قامت العلاقات بينهما على نحو غير تقليدي تقريباً، قالت:

- طيب، حدثني عن ابنة عمك... أتحبّها؟

كان سيئاً منه أن يقول له إنه لم يكن يحبّها. لاشك أنه يكنّ لازابيل مودةً عظيمة، ومع شيءٍ من الاغتيال. وهي مودةٌ مستمرةٌ منذ زمن بعيد. فلم يكن ادريان رجل الحبّ العابر، لكن الوفاء يستتفد إذا لم يكن الحبّ أساساً له، الحبّ الحقيقي. ولا بد من القول إن ذلك قد تم بفعل القدر. كانا يسكنان معاً. وكان ابن عمه غائباً في الغالب. كان يعمل لدار ضخمة من دور الحبوب، الاستيراد، وكان عليه ان يذهب الى مرسيليا، والى «سن نازير».. وإذن ففي بيت خال، الرجل والمرأة، الشايان...

قالت بلانشيت:

- اعذرني. فسوف ألقى بعض الأوامر..



«اوها... اوها... إذا قصدت الافتتاح فهو افتتاح رائع»

كان الناس يتزاحمون على المصطبة بين المصابيح النّوّارة. وكان خدمُ التشريفات في بزّاتهم المذهبة يشكّون سياجاً، وكان الآخرون ينسلّون خلف حوض الماء، وكان القادمون الجدد ينزلون في الرمل الخبّازي. كان المنظر كله بغايته الكبيرة المنفتحة على الأرض المعشبة المغطاة بغطاء ذهبي هائل الحجم، والأشجار المصبوغة كل ورقة منها مكسوّة بورق مذهب، كان لذلك طابعٌ غير واقعي، حيث جمالُ الاكتاف العارية، وقيافة الرجال المضحكة الذين تزويجاً بشتى ثياب التنكّر، جعل رأس بلانشيت يدور بسهولة، وقد جرّها ادمون الى هذا المكان لأسبابٍ خاصة به. ولَمّا كان يهتمّ بها، فقد تركها بين يدي انكليزي قُدّم له قبل قليل، من النوع الاكسفوردي، سمين وأصهب، كهل شبه عارٍ، مع رمح وترس وشباك ذهبي كبير. ما اسمه؟ رجل واسع الثراء على كل حال.

منذ ثلاثة أشهر لم يتحدث فيها الناس إلا عن هذه السهرة في باريس، من يخطر بباله أن يتغيّب عن حفلة الدوق دي فالونديوا؟ كان بيته، جنونه كما كان يقول، قريباً جداً من بيت «كوتي» في «لوفيسين». وقد لبّسه بلوحات مذهبة تنكرية، وصبغ أبا الهول على الدرج بمسحوق النحاس. وكان الداخل أكثر غرابة، وكانت الزحمة على أشدها عند منتصف الليل. فكم كان فيها من جواهر! ولذلك كانت الدار محاطة بأشباحٍ مخيفة، رجال الشرطة في كل مكان، وكان الناس الذين يريدون أن يذهبوا ليشربوا الشمبانيا بين الغياض المذهبة يجدون أنفسهم فجأة يُستجوبون على أيدي شخصيات انبعثت من خصائص الأدغال. ذلك أن الأهالي الذين ألهم الاحتفال قد تجمهروا عند مدخل الحديقة، وأخذوا يحومون حولها ويحاولون أن يشاهدوا شيئاً من خلال حباك القصب المحيط بها. كان يُقال إن هذا البذخ جعل الناس يتذمّرون، وخشيت مديرية الشرطة من

الاضطرابات. وقد شتمت نساء حاسرات الرؤوس بعض المدعوين وهم في طريقهم، وأضاف ذلك الى الأمسية شيئاً من الاضطراب الذي لا يخلو من السحر.

عندما صعدت الاثنتا عشرة امرأة اللباسات ثياب ربّات العناية درج الشرف وهنّ يغنينّ: «هيو-تو-هو - هيا - ها!» بحسب القواعد المتبعة، اندفع رجل تنكّر بزّي دوج ايطالي نحو بلانشيت وهو يحرك كميّه حركات ضخمة. كان هذا هو «كوسي دي بالانت» الذي كان معطفه يتطاير من جهاته كلها «سيدتي العزيزة، لكنّ ما أنت؟ اراهن أنّك «دانايي»! ألم تستطيعي أن تعثري على شيء أقلّ أناقة؟ وأنا الذي كان يعتمد على هذه المناسبة لأمتّع ناظري! نظر الى ذلك الرفيق الغريب الذي يرافق السيدة باريتتان. قدّم الآخر نفسه «هوغ والتر تريفيلان...» هل يعني ذلك شيئاً بالنسبة الى «كوسي» ألسنت التريفيلان، ياترى؟ بلى بالذات - وأنا الذي كان يعتقد أن كل شيء مزور هنا في هذا المساء! ألا ترى ان فكرة هذه الحفلة الراقصة المذهبة تجعل من هذا المكان مكاناً تجارياً الى اقصى حدّ بالنسبة الى «فالموندوا»..

تركهما كما طلع عليهما. كان يود أن يتنكّر بزّي ساعي البريد على عادته، لكن هذا لا يتناسب مع الديكور، ومع هذا المعطف الفينيسي. كان كلّ شيء غارقاً في «الجان» الذي كان يرى من النوافذ المفتوحة، كان الرقص جارياً في صالونات الطابق الأرضي. وفي الطوابق المضاعة كان على الشرفات أزواج يضحكون. مسرح. قال: تريفيلان: «فستانك رائع»، وهو الفتسان الوحيد الذي لا يبدو تنكّرياً...»

ابتسمت بلانشيت لهذه المبالغة. ومرّت بيدها على قطع الكرتون الملّون التي انهمرت حولها. وتأكدت ان حلاها، وعقدتها، والأساور، والإكليل، أن كل ذلك مثبتٌ جيداً. كل هذه الأحجار الملوّنة من ابتكار «شانيل». وكذلك الفستان، فهو من عند «شانيل». وقبل أن تخرج، مرّت على ادريان وأرثته نفسها. سرّها اندهاله. لقد وجدها ادريان جميلةً بصدق. لقد تعودّ مضيقتّه. لكن ظهور الثروة

ظهور «داناىي» هذه مغطاة بالذهب وبالأحجار الكريمة مسٌ شغاف قلبه، وقد تأثرت بلانشيت جداً بتعجباته. والحقيقة أنها كانت تودُّ لو بقيت معه، بدلاً من أن تأتي لتسكع هنا. بعد أن تكون قد أَلقت نظرة سريعة. لكن كان لابدٌ من انتظار مشيئة ادمون.

تناول تريفيلان عن طبقٍ بين يدي الخادم كؤوساً أثناء مروره. جلسا تحت نافذة في منْحى عن الناس تقريباً. أخذَا يتكلمان بالانكليزية دهشاً هو من إتقانها للغة.

- لكك امريكية.

ضحكت قليلاً:

- ظننْتُني تخلصْتُ من لهجتي... عشتُ في امريكا... وفجأة لم تعدُ تسمع ماكان يقوله. لقد مرَّ أمامهما زوجان. ديان دي نيتتكور، في زي ديان الالهة الصيد، مع نجوم في شعرها، ممسكة بكليين سلوقيين أحمرين، والرجل في ثياب ثمينة سوداء وعلى وجهه قناع مذهب، وعلى رأسه شعر مستعار. سلماً على بلانشيت . مدَّت إليه يداً باردة وتمتعت.

- هذا أنت. اوريليان...

من أجل هذا إذن كانت هنا. كان حتماً أن يلتقيا ذات يوم وجهاً لوجه. غريبٌ أن تراه متكرراً بقناع، بلا وجه، قال

- أنت تدركين أنني لا أستطيع أن أترك السيدة «دي نيتتكور» تأتي وحدها الى هنا... طلبتُ مني... سيحضر جاك مع امرأته..

مِمَّ كان يعتذر؟ تذكرتُ أنها قريبة بيرينيس. لقد رأت السيدة شلرز في أعلى الدرج تستقبل بوقاحة منقطعة النظير. والحق أن اوريليان لا حاجة به الى مصاحبة عشيقة جاك شلرز، بينما تعرّضُ امرأة هذا علاقتها بفالموندوا على الملأ، قالت.

- هذه عودةٌ الى الحياة، يا صديقي العزيز. فلم نرك هذه السنة في أي مكان من الأمكنة.

انحنى مستأذناً بالانصراف.

- لقد تغيّبت طويلاً...

نظرت إليه وهو يبتعد مع «ديان» وكلبيها.

سأل «تريفيليان»:

- مَنْ هذا الشاب الوسيم؟

أجابت إجابة متملّصة. كان هو نفسه موضوع الحديث.

- أنت لاتتصوّرين كم أجد باريس متغيرة.. الحقّ أنني لم أتعرف فرنسا..

لقد بقيتُ زمناً طويلاً خارج فرنسا.. نعم... تفهمين، في وقت الحرب، كنتُ في افريقيا.. أنا أكره الحرب، بقيتُ في افريقيا... هناك كلُّ شيء جدّ بسيط... لكِ خادمك، أو شيء آخر إذا شئت... أحبُّ أبناء المستعمرات.. هم ناس كرماء.. يشربون كثيراً، ولا يطرحون أسئلة.. أنا عائدٌ من «كينيا»... لستُ أتعرف فرنسا... الحقيقة ما أطول الطريق الذي قطعته منذ نهاية الحرب!

قالت، من أجل المشاركة في الحديث، إنه كان من غير شك صغير السنّ جداً قبل الحرب. فضحك ضحكاً قوياً لهذا الإطاراء. «عمري ثمانية وأربعون عاماً، ثمانية وأربعون! لا تصدّقين! لم تتعب الساقان كثيراً بالنسبة الى سني؟ الواقع أنه لا يُصدّق أن يكون ابن ثمانية وأربعين. كان عمره إذ ذاك خمسة وثلاثين عاماً ونيفاً. قالت:

- ما الذي غيّر فرنسا كلُّ هذا التغير، ياترى؟ نحن، لانعرف..

- نعم، أنتم منخرطون في التغير، وإذن فأنتم لاترون، لكن ليس لي، في النهاية. أن أكون الواعظ الأخلاقي. بيد أن هذا البلد أصبح منحلاً انحلالاً كبيراً. لم تعد الرذائل لذّة..

- انحلالاً كبيراً؟

- طيّب... هذه الأشياء في «غاب بولونيي»... مع غيره... لايمكن أن يذهب المرء الى السينما دون خطر.. تكونين عند اناس محترمين، فيقترحون عليك ان

تنهي السهرة لا أستطيع أن أقول أين... وقد اخترعتم كلمة غير عادية، الصبّ الجماعي.. في كينيا لا يخطر ذلك ببال.. قالت بلانشيت: عفواً، فسأقول كلمة لزوجي!

تظاهرت بأنها تتبع ادمون الذي مرّ وهو متعلق برجل عجوز لم تعرفه. صعدت الى سطح الدرج، وبلغت المنزل، بين انغام الجاز، وعبرت الصالونات حيث كان الناس يرقصون، وبرقشة البزات، والحرارة المفاجئة، والجو الذي لم تكن تتوقعه والذي هو امتداد لأحاديث تريفيلان. قال صوتٌ من خلفها:

- أنا هنا، بلانشيت.

كان يعلم أنها تبحث عنه. واعترف بأنه يعلم ذلك. ونزع قناعه بشعره النحاسي الغريب الذي بدا جلده تحته أشد دكنة. جلسا في كرسيين صغيرين متطاولين، وسط الضجيج وحركة الذهاب والإياب. كانت الغرفة عالية مفتوحة من جميع جهاتها، على الحديقة، والصالونات، مع كتيب صغير مركزي عليه أزهار، وتمثال «كوبزفوكس» في كوة. شرع يقول إنه إن كان هنا فلأن «ديان» رجته أن يأتي، وأن وضعها صعب.. سخرت بلانشيت من الصعوبة التي تلقاها مثل هذه المرأة الجميلة في العثور على مراقص غير أوريليان بسحنته الكئيبة: «كثيراً ما قيل إنك ماتغيبت إلا لأن حزناً عظيماً ألم بك...» أهمل الرد على هذه الجملة. لم يكن بحاجة الى مظهر بلانشيت الخادع. كانت تعلم ما الذي ينتظره منها، حقاً؟ لكنها لم تكن تعلم أكثر مما يعلم سائر الناس...

- وماذا يعلم سائر الناس؟

- أوه! لا تتظاهر بالسذاجة. فالناس قد تحدثوا عن ذلك كثيراً. صحيح، نسيت أنك لا ترى أحداً.. قالت لي ماري...

- لماذا تقولين ذلك؟ السيدة دي بيرسيغال من الأشخاص النادرين الذين رأيتهم هذا الشتاء...

- حقاً؟ إنما تتعزّيان معاً؟

نظر الى بلانشيت، هذه المتنكرة، العدوانية.. مرّ كل شيء على هذا الصعيد الاجتماعي، فالعواطف التي يحملانها قد تغطّت بقصاصات الورق المذهبة مثل أشجار الحديقة، تذكر فجأة أن هذه المرأة أرادت ان تنتحر، منذ زمن غير بعيد، ولم يرها منذ ذلك الوقت، أمسك بيدها.

- بلانشيت، ألا يمكننا ان نكون صديقين حميمين؟

سحبت يدها بجفاف:

- لا، هذا، لا، ياعزيزي، أبداً لا!

كان شيئاً غريباً، أبسبب هذا الشعر المستعار غير المعقول، أم بسبب المكان؟ لم تعد تُحسّ وهي تنظر إليه بذلك الاضطراب الذي اعترفت بأنها ركضت وراءه، حين تركت تريفيليان، كان بوسعها أن تنظر الى اوريليان دون أن ترتجف، ما الذي جرى فيها؟ لم يبق فيها تجاهه الا بعض الضغينة، بعض الخبث، وقبل لحظة لم تكن تعلم من ذلك شيئاً، وكان لذلك أثره غير المألوف.. ولعلها كانت تأسف عليه، فقد فكّرت هي ايضاً بأنها أرادت أن تقتل نفسها منذ زمن غير بعيد..

صاح بهما «كوسي دي بالانت في عبوره وهو يراقص ربّات العناية:

- كم يظهر بمظهر الفن حيّ «سان جيرمان»..

مرّ اوريليان كتفيه:

- أليس لديك أخبار، أي خبر؟

لم يلفظ الاسم، فاستثارت:

- أخبار عمّن؟

فتحامل على نفسه:

- عن بيرينيس..

وهنا، في هذا العالم غير المعقول، والمزور، قرصهما ذلك الاسم المحبوب والمكروه في قلوبهما كليهما لأسباب مختلفة:

- اخبار جديدة.. لا، علمت أنها كانت في مكان ما قرب «فيرنون»؟

علم ذلك نعم، وأقيها، مصادفة. دُهِشْتُ بلانشيت، أقيها؟ لم تكن تظن أن ذلك يحدث فيها أثراً. الغريب أن فكرة بيرينيس ماتزال تهزّها في حين غدت غير مبالية بحضور اوريليان. وروى لها كيف أنه كان في «جيفيرني» مع بعض الأصدقاء، لزيارة «كلود مونييه»، ولم يجرؤ أن يقول مع السيدة «ملروز»، لباقة منه.. كان بحاجة شديدة الى أن يروي ذلك لأحد الناس. وكان أن وقع ذلك على بلانشيت. أصغت إليه. لم تكن قد شفيت تماماً بعد. عندما كان هو عند «مونييه» لم يكن ينتظر هذا اللقاء، لكنها هي، العارفة بالأمر، كانت تنتظر هذا اللقاء في نهاية القصة التي تأنى في روايتها. كان يقول الحديقة... الأزهار الزرقاء، ذلك الشيخ بعينيهِ المغشّاتين، وفجأة عند شباك الحديد..

كان شيطان بيرينيس معهما. كان يتحدث عنها كما لم يتحدث عنها قط لأي إنسان. حتى ولا لنفسه. كانت حاضرة، بتنورتها القصيرة البيج وعينيها السوداوين، وشعرها الحرون. كانت نفحة الاحتفال الذهبية تمرّ عليهما دون أن تلهيها. كانا في الطريق الضيقة المتعرجة، قرب الجسر الصغير على المياه الراكدة، حيث فقد النيلوفر في عيون الناس جماله القديم. وعادت اليه الآن أشياء لم يلاحظها آنذاك، رسم من العساليج على الأرض، حاجز أخضر، وتلك الطريقة في دفع بيرينيس لكتفها، وفي عطف قذالها عندما رأته آتياً نحوها... وماكان أشدّ ارتجاف شفتها، تلك الشفة التي لم ينلها!

كان شيءٌ يدمم في بلانشيت. روح الغضب. لقد حرك فيها شيئاً شبيهاً بأية «من التوراة»، كانت تكره بيرينيس، تلك الفتاة المنافقة. أتقول لاوريليان أن ادمون تلقى رسالة هذا الصباح من لوسبيان تتهلّل سعادة، يُعلن فيها عودة زوجته الى «ر»؟ أه! ليس متصعباً زوّجها ذاك! وهي مع زوج كذلك الزوج، يلعب

دون أدنى جهدا كانت تصغي الى اوريليان، الأناني، اوريليان القاسي القلب.
الناس لا يسمعون الا صوت قلوبهم. ستقسم منذ الآن أنها لن تسمع غير صوت
قلبها. وفجأة وبصورة غامضة حزرت أن ليرتيلوا يجهل اسم عشيق بيرينيس.
كيف يكون ذلك ممكناً يا الهي؟ فقالت:

- ألم تقل لك ماري شيئاً؟ ألا تعلم أنه «ديني» الصغير؟ أه! معذرة، أن
الملك... أجل، هو هذا الفتى الصغير، التافه... لعلك، في الحقيقة، تفضل ذلك...
نظرت اليه وهو يتالم. ولم تكون له أفضليات في هذا المجال؟ بول ديني..
ألقت على المجهول اسماً وألقت عليه وجهاً.. سيشرع في تصوّر الأشياء التي
امتنع بعناد عن تصوّرها..

رأت بلانشيت فجأة ادمون أمامها. كانت عينه عليهما. تبسمت. ولأول
مرة، واجهت هذه النظرة دون أن تحس أنها مذنبه



كل ما كان يطلبه ادمون من الحياة هو ألا يضجر - وكان دائماً موشكاً على الضجر. كان يحرص على المال ولا يحرص عليه. كان يخشى أن يفقد بفقدانه جاهزية الغنى العجيبة، وفي الوقت نفسه كان يتسائل لأي شيء، ياترى، يجعله جاهزاً. كان شيء من ذلك في تلك اللعبة الرهيبة التي كان يلعبها مع نفسه حول بلانشيت، شيء من ذلك التناقض: بلانشيت، وأمنها. كان يحب ان يشعل النار، وأن يطفئها حالما يشعلها. كان يطيب له ذلك وكانت لذته في خداع امرأته ناقصة مالم يعلمها بذلك، وبدون انتصاره عليها بأن يراها تنصاع، وتقبل بهزيمتها. لكن ذلك كان أدنى أحلام يقظته قيمة، كان النصيب الأصغر من الإثارة الضرورية، التي استلذها وكأنها الكراكين: حتى إنه فقد ميله الى الملاحقة والإغراء، وهو ميل كان يشكل مهاد السنين الاولى من زواجهما. فما أن يكون له، خارج بلانشيت، امرأة حاذقة في قضايا الحب، حتى يفقد جاذبية الفرقة السهلة التي كانت له قديماً، ذلك التشتت غير المجدي، لقد بدأ الضجر يدب اليه. لا يمكن القول إنه تعب من روز ملروز. على العكس كان مسروراً منها، كما يسر من تحفة فخمة نشعر كل مرة إزاعها انها تخدم كبريانا المشروعة. كانت كاملة حقاً. وكاملة إذ هي غير شابة بالذات، مثل طقم ارتدي من قبل، أوحقيقية سافرت من قبل مع صاحبها، فهما اصبح نوقاً وأوكد لذة من طقم جاء لتوه من يدي الخياط، أوحقيقية خارجة من عند البائع. والناس الذين لديهم خزانة ثياب عامرة يحتقرون أبدأ أولئك الذين يرتدون الملابس الجديدة كلياً. وهل يمكن فهمي إذا قلت إن «روز». بكمالها ذاته، قد ردتته الى قرب بلانشيت أكثر من أية عشيقة أخرى؟ إن روز وحدها، مهما يكن فخوراً بها، ومهما يكن عظيماً نفوذ المسرح عليه، تلك الحياة التي ظلت تفلت منه قليلاً، إن روز وحدها كانت قمينة بأن تُضجره. ثم إنها كانت ترهقه قليلاً. ولم يكن يزعجة أن يضع في

العلاقة بينهما شيئاً من الفضاء متدرّجاً بـ «ميجيف». وهكذا فقد وجد الوقت الكافي لأن يلاحظ بلانشيت، ان يرصدها كذباً في شباكها، أن يبتكر أسراراً جديدة هي مركزها ممتزجة بمخاطر جديدة بالنسبة إليه. كانت تشغله، في الحقيقة، كان ذلك ضرباً من الحب، ذلك الضرب الذي ما يزال قادراً عليه، تلك القسوة التي يكنّ لها. كان يلهو بغيرتها، بأن يغذي ويجسد تلك الغيرة الظاهرة التناقض. بل إنه كان يقرّ بفضلها لذلك الطبع الجفول والمنغلق الذي لها، لذلك التحفظ المتشدد الذي يميّزها عن كثير من النساء. ولولاها أكان يمكن حقاً لروز أن تثير اهتمامه...؟ كانت بلانشيت تسبغ على كل شيء طعم الخطيئة، الخطيئة التي كان إحساسها بها قوياً جداً، كان إحساساً سائغاً لدى آدمون، لأنه بالتحديد لا يؤمن بشيء، فلا يستطيع ان يجد في ذاته مذاقه الغريب. لم يكن مأل بلانشيت وحده مفتاح ذلك العالم الراقى، مملكة الروح، التي يحرم منها الفقراء: ان بلانشيت نفسها التي مارس عليها روح الدقة، تلذّذ البسيكولوجي، كانت مصدراً للذات لا توفّر لها روز. ولولا قليل، لجعلته يدرك الله، والدين... لقد كانت رحلة الشتاء مليئة عنده بمسرات فريدة. في الحقيقة، لقد نظر نظرة حسنة الى محاولة بلانشيت الانتحار، وإن لم يعترف بذلك، إذا أنها أسبغت على علاقاتهما معنى وأريجاً. لقد بدأ يلعب لعبة احترام زوجية بعد هذا الحادث الرهيب، ويداري مراحل نقاشاتها العاطفية، وهكذا كان يضطهدا لقرط لباقتة وأي فنّ افنته ليرد الى وجدان بلانشيت ظلّ اوريليان، دون أن يلفظ اسمه. لقد انحنى فوق تلك النفس المضطربة وكأنه منحني على تمثال عرّض الملابس، وأي غذاء لطيف كان يُعده لأسماك العتمة كان يترصد خورّها، ولا يثيره. وكان لديه الوقت الكافي. كانت لكل كلمة يقولها براءة التورية، ولم يكن سعيداً قط إلا عندما تفتن زوجته لتلك التورية، مع شيء من التأخر. وكان يزيد تدريجياً مقادير تلميحاته، دون استعجال. كان يجر تلك التعة الى غابة معتمة تبدو لأول وهلة ذات خضرة ندية مهدئة... دون استعجال. بل لقد مدّد عطلة ولم ينتبه

الضجرُ فيها ثائية واحدة. حتى ولا في ذلك اللقاء مع كارلوتا على الساحل الذي أضاف الى الموضوع الرئيسي لانحرافه فتور الأسف العذب، وأناقة الذكرى... لا. ولا سيما أنه كان مستريحاً حقاً، لبضعة أسابيع، من كل لذة غير لذة الروح. وعند عودته الى باريس، وفضلاً عن لهوه بقاء روز، وبمؤسسة ملروز ومتفرعاتها المسلية، فقد هباً طويلاً ذلك اللقاء بين بلانشيت وأوريليان، كان كل شيء ينتظم انتظاماً رائعاً الى حد إلغاء بيرينيس التي لعبت دورها والتي صارت تشوش اللعبة. وكان ادمون قد التقى أوريليان لكنه تحاشى تسريع ذلك اللقاء المحتوم الذي انتظره. كان فيه شيء ربّاني؛ تلك الطريقة في التصرف بأقدار الآخرين. لقد حدد مسبقاً الحفلة الراقصة عند الدوق «دي فالموندا» وكأنها استحقاق محسوب. وأي ديكور يختار أكثر صنعة وأقدر على أن يروغ الخيال من ديكور جنون فالموندا، المزدان بألوان الذهب؟ وكان ادمون يحب سرّاً أن يرى في الذهب رمزاً تبرز فيه بلانشيت والثروة، والجرأة على أن يغامر معها بثروتها الخاصة.. الخ.. ونحن نجد في التنكر الذي اثاره للسيدة «باربنتان» ما يدل على تطورات لانهاية لها التذّب بها أسابيع طويلاً. ابتكر لها أن تتنكر في هيئة «دانايي» واعتنى عناية غير عادية بذلك الفتسان الذي حرص على أن توصي عليه لدى «شانيل»، والذي بصده حادث الخياطة الراقية طويلاً، وأشرف على تجريياته بهوى مدهش. كان يعرف بلانشيت معرفة رائعة ويعلم أكثر من أي شخص ما يناسبها وما لا يناسبها، وكان يستمتع استمتاعاً عظيماً بقدرته على أن يفعل، دون علم بلانشيت ولا الخياطة، ما من شأنه ان يجعل الفتسان المفضل من امرأته بسبب جزئية صغيرة، كائناً لاسحر فيه، أو الجمال الخالص تقريباً. وكان يُستشار بصدد ذلك قليلاً، فيرهمق بتعليماته الخياطة، ملقياً الاضطراب في قلب بلانشيت التي كانت تتسائل من أين ولماذا هذا الاهتمام المدقق. ويتظاهر في عيني نفسه بالتردد في معرفة إن كان بهذا الفتسان سيدمر نهائياً حظ بلانشيت مع أوريليان، أو سيساعده على العكس... وكانت بلانشيت تغو عصبية من جراء ذلك، وتفضل كثيراً كعادتها أن تعهد

بأمرها إلى «شانيل» نفسه، ولاسيما أن هذه السهرة المذهبة لاتكاد تكون عندها سوى هم اجتماعي، وأمسية كان يمكن أن تستغني عنها بكل طيب خاطر.

ومع ذلك فكأن كانت عزيمة مكافأتها عن أتعابها، وعلى نحو غير متوقع هذا المساء، عندما دخلت لثري أدريان ارنو نفسها، كما رجاها أن تفعل. لاشك أنها كانت تعلم أن ذلك لمصلحتها، وتقدر تقديراً صحيحاً من أين يمكن أن يأتي إصرار ادمون في أن يجعلها في هذا اللباس كذلك.

فهي لم تعهد فيه هذا التفاخر بما هو شائع في المجتمع الراقي. وهل لقي فجأة مايرضي غروره حين يُستقبلان في منزل «فالموندوا»؟ أكان يشتهي أن تظهر امرأته في مجلة «فوغ» وأن تُذكرَ زينتها؟ كان ذلك بعيداً عن ادمون.. لكن عندما تلقاها ادريان بذلك الانذهال، غير المتصنع، التلقائي... نسيت ادمون، والمخاوف التي غدتها في نفسها من لعبة شيطانية وراء هذا الاهتمام المفاجيء بفساتينها، أحست أنها توردت تحت المساحيق، من جراء ذلك. وفقدت رغبتها في الذهاب إلى أمسية «فالموندوا». وكان بודהا لو ظلت عند رأس ادريان، بفستانها الجميل، ونثارها الذهبي، وأجبارها المتعددة الألوان.

لن يعلم أحد أن بلانشيت في هذه اللحظة التي تمثل فيها «داناي»، هي، في آن واحد، لزوجها ولأدريان هذا الذي تنهشه مطامحه وإن كان قد علق في رغباته، وهي صورة النوار بعينها. انها في هذه الدقيقة تملك، في الحقيقة، كل ماتشتهيه امرأة من هذين الرجلين: الإعجاب الخالص. لن يدوم ذلك دون شك. لكنها في هذه الدقيقة محبوبة لذاتها. هذه هي ذروة حياتها كامرأة. إنها لاتعلم شيئاً عن ذلك، لا أحد يعلم شيئاً عنه. الغريب أنه كافي لابد لهذا الفتسان من أجل ذلك؛ هذا الفتسان الذي قدم لهذين الرجلين الجشعين صورة الغنى المادية التي ينتشيان بها، فجعل من المرأة التي ترتديه امرأة تثير اضطرابهما، جعلها بكلمة واحدة، امرأة لأول مرة، وربما لآخر مرة.

عندما ألها ادمون بمعطفها، راودته نفسه لحظة أن يقول لها. «لنبقَ وتباً للحفلة!...» وقد ارتعشت من الطريقة التي بها ضم ذراعيه. أخافها هذا المساء

ماذا وراء قناع هذا الاهتمام؟ لكن بارينتان كان يعلم حق العلم أن الامتناع عن المرأة عند اشتهاؤها الذي من امتلاكها وهي في متناول اليد، وإن يُفسد هذه الأمسية بأي شكل كان، لقد هيأ كل شيء. ألم يُقنع «ديان دي نوتنكور» أن المواضع الاجتماعية تقضي أن يتم دخولها لدى عشيق السيدة «شلزر» متأبطة ذراع الذي كان صديقه على الملأ؟ أولم ينصح أوريليان مفضلاً إياه على ويسنر، مثلاً.. نسيت أن أقول كيف تنكر آدمون بارينتان. كان يرتدي ثياباً فينيسية مع دثار مخصر خالٍ من الحشمة؛ لأنه لم يكن يفخر بساقيه وحدهما. والكل مذهب، طبعاً. لكن المثير في الأمر هو أنه صبغ وجهه ويديه باللون البرونزي حتى بدا كالزنجي، ووضع شعراً جعداً. كان «عطيل»، وهو ما لا يستطيع أحدٌ سواه أن يدرك مذاقه.

وهكذا ألقى نفسه يُفاجيء بلانشيت وأوريليان في غمرة الرقص، تحت كوة «كزينفوكس». وفي مدى لحظة ظهرا له جدٌ منهما مكن بنفسيهما حتى أنهما لم يرياه، حيث كان، وحيث لم يستطع في نومة رقص الراقصين، وجنون النساء وضحكهن، وجلبة «الجان»، أن يسمع ما كانا يقولانه. وودَّ لو يخد هذه اللحظة لكي لاتضيع أويئة صغيرة من لوينات عواطفه. عواطفه الشكسبيرية تماماً. لكن بلانشيت رفعت عينيها.

حينئذ حدث الشيء غير المتوقع والذي هزّه هزاً: بدلاً من أن تشحب ابتسمت. لقد فشل ذلك جميع خطط آدمون وحساباته. نظرت إلى زوجها بهدوء وابتسمت. لعله قد تجاوز الحد حين برقش نفسه بهذه الألوان، ولعل الزنجي هو الذي اضحك بلانشيت؟ لا، لا، لقد شعر شعوراً غامضاً أن عاملاً بسيكولوجياً لم يحسب حسابه قد دخل في الموضوع. وحينئذ خفق قلبه حقاً.

بيد أن وجه أوريليان، الغائب، الذي كان فريسة لفوضى الأفكار قد طمأنه. وتحرك قليلاً الشعور المستعار بنجارته قليلاً، كشعر أولئك القضاة الانكليز المائل جانيبا والكاشف عن الطبيعة تحت كرامة المنصب. لم يكن مظهر

ادمون مظهر الرجل المنتصر ولا مظهر الرجل الموفور الحظ. وقد تزود ادمون من ذلك، عند التفكير، موضوعاً جديداً للقلق. لقد نوى أن يتقدم نحو العاشقين المفترضين، على نحو مسرحي، وأن يمثل مشهداً، قدّر فيه الرود مسبقاً، بلهجة مرحة، متجردة، مع شيء يسير من الإثارة.. لكنه امتنع عن ذلك أمام ابتسامة بلانشيت.. ومن بعيد، رصدهما ونظر إليهما وقد بدا انفكاكهما احدهما عن الآخر. وحرار على أيهما يركز انتباهه. ورأى أن أوريليان يطفو على سطح هذا الاحتفال كالحطام، كرجل لا يدري ما يفعل. والظاهر أن بلانشيت قد فقدت اهتمامها به. هل في ذلك حيلة؟ استخدم ادمون كل مهارته ليتحاشى امرأته. لم يشأ أن يجابهها بعد هذه الابتسامة رأساً، وأخيراً بدا له أن بلانشيت تريد أن تصل إليه. وكان يعرفها ويعلم أنها شبعت من هذه الحفلة الراقصة، وأنها ستطلب منه العودة إلى البيت. فتهرب منها ودعا إلى الرقص «ديان دي ننتكور» في اللحظة ذاتها التي وصلت إلى قربه. وإذا لم يستطع أن يعذبها على نحو آخر، فليعذبها على الأقل بهذه الليلة الطويلة، بالانتظار، بالنهاس، بالضجر القاتل الذي يعلم أنه يصيبها. كان ينتقم دون أن يعلم من أي شيء ينتقم. استمر ذلك حتى الرابعة صباحاً. وراها تُعيبها الحيلة فتراقص «تريفيليان»، وتحادث «كوسي دي بالانت»، وجاك شلرز. أبلغ بها الملأ أن جاءت تحدث هذا! أشفق عليها، فأقبل عليها يُنقذها.

لن ترفض لي هذه الرقصة، يا صديقتي العزيزة؟

رفعت إليه عينين متوسلتين: «اوه، ادمون، أرجوك... لم أعد أستطيع

الوقوف!» لكنه أصر: «ولو مرة واحدة، حقاً، يا عزيزتي...»

قال ذلك بلهجة ملاطفة من زوج محب. لاحظ شلرز ذلك، وتراجع خطوة

بتحفظ كاذب. وضعت يدها على كتف ادمون وتركته يجرها. كانت الاوركستر

الجديدة تعزف موسيقا الجاز البطيئة. والعجب أنها كانت ستعطي كل ماتملك،

في أوقات أخرى، من أجل رقصة كهذه الرقصة، مع إصرار ادمون ورقته. لكنها

كانت تحسّ في هذه اللحظة بشيء مثير للشك ومخيف، وضمّها إليها وهو يمرّ في فتحة الباب. رفعت عينيها الى وجهه وارتعبت تماماً، ذلك الزنجي المسرحي الذي كان يشبه ادمون، انحنى عليها وهمس في أذنها: «أتريدان العودة حقاً؟»، بطريقة خافت معها أن تجيب: «أنا منهكة...»

قادها الى البيت، وفي الليلة التي حوّلها المصاييح الى نهار والتي كانت الأشجار المذهبة والرمال فيها لا تخلو من كابوس الأحلام، بدأت زحمة المدعوين تتجّاب، وهرع الخدم الى فتح أبواب السيارات التي نودي عليها، وتردّد الاسم بعيداً: بارينتان... بارينتان... مثل صدى اليوم الأخير. وجاءت سيارة «الوسنر» الكبيرة لتصفّ أمام مطلع الدرج، فدلّقا إليها، أوصى ادمون السائق بالإسراع عند الخروج من الحديقة. يقال إن ناساً قفزوا قبل قليل على مرقاة سيارة ومزّقوا فستان السيدة «رينو» البيروفية الثرية.

رأيا، لدى مرورهما، وجوهاً ملوّحة لجمهور لم يستطع ان يعزّم على الذهاب لينام لفرط ما كانت «الفولي» تتوهج بديكورها المذهب. وبلغا بون عائق الطريق المظلمة، الذاهة الى نانتير. همست بلانشيت: «أيوجدُ حقاً كلّ هذا الشقاء من حولنا؟»

قالت ذلك بخاصة لتقطع الصمت المشغوف الذي أقامه ادمون حولها، ولتبعد بعض الأفكار التي أحسّت بوطأتها، أجاب:

«لا أدري، كنت شهيةً هذا المساء...»

مرّر ذراعه حولها، فارتجفت من رأسها الى قدميها. وقد راودها النعاسُ أيضاً بشدة. لماذا خاطبها بضمير الجمع، هذه الليلة، مع أنه كان يخاطبها دائماً بضمير المفرد؟ بدا كأنه قد نسي وجهه المسودّ الذي قرّبه منها، إن هذا الدهان المضحك، والدقة المفرطة في حركاته، كلّ ذلك جعل تلك العودة بغیضة على بلانشيت: «ارجوك...»

سارع قليلا الى الانصياع، حتى لا تفهم أن الأمر لم يكن سوى امر مؤجل، وعندما بلغا شارع رينوار وعندما لحق بها ادمون خلصة الى صالة الحمام التي تفصل بين غرفتيهما، وجذبها ليضمها بين ذراعيه، أصيبت بذعر حقيقي. فمنذ زمن بعيد، لم يطلب منها شيئاً، وتخبّطت تخبطاً ضعيفاً، قال: «ألسْتُ زوجكِ؟»

بدا مطلعُ الصبح في النوافذ، وكان لهذا الرجل المصبوغ، وهو في مبالذله، شيء مضحك ومشؤوم. وعلى كرسيّ، كان فستان «دانايي» الواقع مع نثاره الذهبي يبدو كالميتة. وكانت حنفيةُ الماء الساخن تسيل برفق في حوض الحمام المرمرى الأسود. ماذا جرى فيه؟ كان ادمون يشتهي امرأته بضرب من الوحشية. وعندما سقط ضياءُ الفجر الشاحب على وجه بلانشيت وأظهرها محلوقة الثياب، وبشعة تقريباً، لم يغير ذلك من الأمر شيئاً. على العكس.



منذ أربعة أشهر وأوريليان يسير على غير هدى. كانت سفينة القديس لويس تبدو كأنها محمولة على تيار الديمومة، نون هدف، نون سبب خارجي، جانحة على جميع أرصفة الرمل لتنتقل من جديد بين زوابع الذاكرة، أيهما كان أشقّ على أوريليان، الغياب الفيزيائي أم الحضور الخيالي للذات كانا يختلطان؟ لم يكن يستطيع أن يقول أيهما، كما أن الغريق لا يملك الخيار بين الماء والطحالب. ومن لم يكن فريسة لها جس «مُحاصر» لن يفهم أوريليان، ولا مرض أوريليان. ولذلك فإن أوريليان لم يفهمه وإنما عاناه. وبدا له أنه عقاب عوقب به على خطيئة لم يدركها ولم تترك أثراً وكان يعذب نفسه باستخلاص العظة الأخلاقية مما لا يحتوي عظة. كان يود بأي ثمن أن تتم اللعبة على المستوى الأخلاقي ليتمكن من القول وهو مرتاح: حسن ذلك فعلاً!! وحينئذ سوف يستمد من ذلك، في زعمه، السكينة. فما أن اختفت بيرينيس حتى فتح ملف حياته كله. ومن أين جاءت هذه السلبية، هذا النقص في الجراءة، إن لم يكن من شعور غامض بأن ماعرضه على بيرينيس لم يكن جديراً بها؟ وكان عليه، إن لم يشأ أن يرهق نفسه، أن يبذل عضّة الظلم هذه التي يحسّها في قلبه، بأي ثمن. كان يحاول ألا يتألم. وكان مقتنعاً أن ذلك سيكون سهلاً. سيكون سهلاً أن يفكر في شيء آخر، سهلاً أن يرفض الألم. كما أنه كان سهلاً الامتناع عن الحب. هكذا كانت محاكمته ليعثر على ما لا يطاق في نهاية محاكمته.

لقد قبل هزيمته دفعة واحدة، وهذا مالم يصدّقه هو نفسه. كان موقناً أنه فقد بيرينيس إلى الأبد. والأمر بالنسبة إلى المرأة كالامر بالنسبة إلى الوطن: فقدانه اندهاش. والمرء الذي قاس أعماق القدر هذه قد يموت، لكن فلْيُعيش بعد ذلك. إنه لن يكون هو نفسه. نرى بعضهم فريسةً لضلالت غريبة، والبعض الآخر تصرعه العاصفة مثل حبة لن يُتاح لها النهوض. أولئك وهؤلاء ينتظرون شمساً لن تطلع. من أين جاء أوريليان ذلك الدفء الضروري، ذلك الإشعاع؟ لم يكن

يؤمنُ بالله، وكان منعزلاً عن الناس. ولم يكن يتماسك إلا على هذا الطوف الهش، والشقة، والدخل الضئيل، والبطالة. ولو وجب عليه أن يقاتل الحياةً فربما سلك طريق بيرينيس، أو، إن لم يفعل ذلك، فربما نسي بيرينيس. لكنه ظل في هذه الحياة التي لا عائق فيها، يصارع ظلاً ولا شيء سوى الظل. وكانت اللوحة، وقناع الجبس المرأتين اللدائمتين لذلك الدخان. وليس شيئاً تافهاً أن اله اليهود حرّم الصور المنحوتة. ففي نقل تقاطيع الكائن ذي الجسد عملية من عمليات السحر. على الأقل لمن لا يمسك الخيط الهادي. كان أوريليان ضحية سحر مزدوج.

الوطن الضائع... المهزوم عشية هزيمته يتسائل ماجدوى أي مجهود بعد الآن. لماذا ولمن يعمل، وما معنى التضحية بقوته، وهو يخشى ألا يكون سوى العوبة في يد الغالب، يخشى أن يرى نفسه وقد سلب قوته كما سلب أرضه. يرى نفسه وقد انحط إلى مستوى الدواب، لكن أوريليان... لم يعمل قط، ولم يطلب منه شيء فوق ذلك قطعاً لكل حساب عن فشله، ليس له سوى صحرائه أولاً وأخيراً. أبيض عن التعب غير المثمر، عن عرق الألعاب، عن النوم المريح الذي توفّره الرياضة؟ كان يفرق في الشعور بالجبن، كان فراغ حياته يبدو له في كل لحظة هائلاً. ماذا، هل ينبغي له أن يتميز عن سائر الناس بحظ بائس، حقير إلى هذا الحد، ويقبل به؟ ويعثر من جديد، وقد توارت بيرينيس، على الجراح الدفينة التي قنعتها. لقد غطى الحب، لبضعة أسابيع، بضعة أسابيع فقط، هذا الخجل المتصاعد فيه. وأراد أن يرى في هذا الخجل حالة من الإهمال والجاهزية للحب الذي سيكون والذي كان. لكنه اليوم، في وحشته، كان يتهم نفسه أبشع اتهام بأنه استخدم ذلك الخجل كعذر حقير لما لا عذر له. أليست دنائته في الحياة هي التي جعلته دنيئاً في الحب؟ لا أهمية لأن تكون بيرينيس قد عت أو لم تَع هذه الدنائة، وهي لم ترحل عنه ولم تئأس منه بسبب سيمون. فورا الأحداث التافهة، والكلمات المقولة، حكم أعظم خطراً. لقد مرّ أوريليان أمام محكمة غير مرئية. لقد حكم عليه، وغلب. وكيف لا يفهم أنه حتى لو حدث

المستحيل وأدرك بيرينيس وطيب خاطرهما، واستأنف حبهما وأعادته الى سابق عهده، فلن يكون ذلك بعد الآن سوى إصلاح رديء له؟ لقد قالت له بيرينيس إنها لا تطيق شيئاً مكسوراً أو مشعوراً أو مثلاً، وأن ذلك لا يحتمل عندها، مثل اللوم الذي لانهاية له. أه، هل يُرتق الحب؟ لقد رُفعا حبهما عالياً جداً، واقتخرا كلاهما بهذا الحب افتخاراً قوياً، بحيث أنهما لن يقبلا أن تستمر حياتهما بضروب التنازل والنسيان، بالاسترخاء. ذلك مثل رسم امرأة قادمة، الخط فيه واضح، ثم ينشئ فجأة، إذا ارتجفت اليد. ولا يبقى سوى تمزيق الرسم. وإذا ما صُحح فلن يكون هو نفسه، ولن يكون شيئاً. كان اوريليان يسمع في أعماقه، وهو يفكر في ذلك، صوتاً غامضاً يقول أنه يمكنه أن يتدبر الأمر بذلك الحطام الحي؛ ربما هو... أما هي بيرينيس فلشد ما قرأ في عينيها ذلك الدوار فيها الى المطلق. ولن تقبل أبداً أن تخفض من مطالبها من أجل سعادة مخجلة، على افتراض أنه هو ما يزال على ضعفه، وإنسانيته إزاءهما، فليس فيها ذرة من روح التنازل. وفي بعض الأحيان، كان اوريليان يثور. كان يريد أن يكون سعيداً، ولا يسلم بأن تكون ممتعة عليه. كان ينسى أنه مهزوم، ليبني خططاً غير معقولة، ومشاريع جسورة، ثم يتقلب عليه الشعور بهزيمته. وحينئذ يبدو له أن العقل كله يكمن في ان يقتنع بذلك، أن يتشربه. وأن يحاول التأقلم مع هذه الهزيمة، أن يمثل لها، وأن يؤول بحياته وأفكاره الى إطار هذا الواقع، ألا ينسأه لحظة واحدة. وعليه ان يقيس مطامحه ونشاطه، بمذلتة. أن يعيد تكوين حياته تبعاً لهذه المذلة ذاتها، ومن يدرى؟ فلعله إذا عرف حدودها استطاع ان يكون لنفسه، وفي نظر نفسه، كرامة، وأن يعيد بناء وجود مقبول. وعليه قل كل شيء، طرد صورة بيرينيس.. كان القول أسهل من الفعل، وعاد القناع واللوحة الى الجدار بعد يومين من إنزالهما. كان مثل شعب أراد أن يتنكر لأبطاله؛ إنهم ينبعثون في كل مناسبة، وتغنى التماثيل أشباحاً.

كان اوريليان يتردد بين عزم وعزم، ويغرق من هاوية الى هاوية. فكر في أن يفعل شيئاً ما، أي شيء، أن يلقي بنفسه في مهنة من المهن، وكانت أحلام

يقظته تدفعه الى إثارة أشد المهن شاعرية، مهنة في الهواء الطلق، مكسر أحجار، سائق شاحنة، بل لقد فكر في العمل في الأرض. ولم يكن ذلك كله، بعد كل حساب، سوى خيال مفتن. كان يقبض دخله، ويذهب الى المطعم والسينما، وينتظر بغموض أن يهدأ الله. ولم يكن أمامه أي انقلاب يؤمله في قدره، ولا أي منظور مستقبلي. كان كل شيء يعيده الى بيرينيس حتى أبعد قراءاته. فقد شُفَّ مثلاً لبعض الوقت بالتهام بلزак. «المعركة» فرضت عليه صورة مهلوسة لأنصاف المرتبات. وأخذ يفكر في أنه من ذوي أنصاف المرتبات في الحب. هذا التفكك الرهيب الجندي النابوليوني كان يبدو له إيذاناً بمصيره. كان كل شيء صالحاً لأن يجد فيه نفسه، لأن يفقد شجاعته. لكن لم يكن شيء أقوى من بيرينيس من أجل ذلك. تلك المرأة القصيرة، التافهة، بشعرها الأشقر الذي لاملحة فيه وجهها المقرن، وعينيها الزائغتين والسوداوين. كان يراها دائماً على طريق «جيفرني» في صورتها الأخيرة، بتنورتها البيج التي كان ينقصها في جانب منها، زرّ كبّاس، وببلورتها البيضاء بكميها اقصيرين اللذين ظهرا مثل منقارين في منتصف الذراع... وكيف كان ذهابها وهي تتظاهر بأنها لاتركض، مقتلعة أعشاباً من التلعة، وهي حانية قذالها، رافعة كتفيها. هذه اللحظة كانت هزيمته، قبول هزيمته. من أجل أن يكابد ذلك إنما تخلص من مخاطر الحرب في «فوكوا»، «فردان» سالونيك.. وفّر الموت كي يُعدّ لما هو أسوأ من شظية قنبلة. كي يُعدّ لاحتقاره لنفسه.

لم تُغيّر شيئاً المحولات التي أراد أن تلهيها عما هو فيه، لا القراءة ولا الكحول ولا الوحدة. وعندما طلبت منه «ديان» أن يرافقها الى حفلة «فالmondوا» ضحك ساخراً. كان في طلبها شيء غير معقول، ثم قال في نفسه: «إن ذلك يُمضي الوقت. سوف يثمل بما هو مضحك في الحفلات الاجتماعية الراقية. من سيليقي في «لوفيسيين»؟ وعليه أن يتنكر. الحقيقة أن التنكر هو الذي حذاه الى مرافقة «ديان» قصة قمرية. ناس أنهموا نموهم وصار لهم منذ بعض الوقت غدو يستخدمونها، وارتدوا فجأة ذات ليلة ماشاؤوا من اللباس، المذهب الحواشي ويا

للعجب! ينبغي ان يكون بين هؤلاء الناس ولو من أجل المראה وحدها، وعندما يحتقر المرء نفسه، يعثر على عظمته في أقصى دنايته. إن الحلقة الراقصة لدى «فالوندا» أتاحت لأوريليان الفرصة التي يحسّ فيها أنه فوق الآخرين بالشعور الذي يمكنه من لاشعورهم. أي إنسان يمكنه أن يتجرّد من هذا الارنياس، وبخاصة إذا كان غارقاً في الشك والخجل؟ ويمكنه أن يذهب الى دور الدمار بهذا الشعور ذاته. ولقد فكّر في ذلك على كل حال. فطلب ان يُعمل له شعراً مستعار بنجارة النحاس بناء على تعليمات ديان التي كان ذهنها مايزال ذهن تتأثير ماقبل الحرب، مع قليل من الميل الى الزخرفة.

لقد قيل من قبل إن أوريليان لايمكن أن بهرب من بيرينيس، وهي التي لقيها في بلانشيت، ومنذ هذه الدقيقة لم يبق من أهمية الليكور والضوضاء والاحتفال والناس! وبما أنه لا يُغذي أي أمل، فماذا كان يطلب وهو يُسائل السيدة باربنتان؟ لم يكن بوسعها أن يقول ماذا، لكن بالتأكيد لم يكن يبحث عما وجده. لأنه أفلح منذ «جيفيرني» في ان يستبعد من ذهنه باستمرار ظلّ الظلّ. المجهول الذي بلغ به الأمر عدم الإيمان به تقريباً. ولعل بيرينيس، بعد كل شيء قد اخترعت هذه الشخصية الخيالية لتخلق بينهما مالا سبيل الى إصلاحه، لتخلق الهوة. لقد كذبت وتأكّد من كذبها. على كل حال. ان ذلك الحبيب المجرّد، ذلك الكائن بلا وجه لم يضيف أية صورة جارحة لهرب بيرينيس، لاشيء لم يتلّخص في هذا الزوج المشاهد، لوسيان المقطوع الذراع. لم يكن له عمرٌ كما لم يكن له وجه. كان أوريليان ينكره عمداً.

وفجأة، وفي ايّاق موسيقا الجاز، تجسّد ذلك الشبحُ ورآه آخرون، ولم يعد كما كان من قبل حركة شفّتي بيرينيس المرتجفتين، صار له اسمٌ وهيئة، تعرّفه أوريليان ورآه ينبعث من ذاكرته «بول ديني» هذا الفتى الشاحب الهزيل.. رآه أوريليان بعين الخيال حين لقيه في بيت ماري، في ذلك المساء الذي ألقت فيه «روز» شعر رامبو، ويداه متشنجتان على كأسه، ووجهه ممتقع من الكره... ورأي بيرينيس قرب بول على البيان.. وتذكر غيرته يوم أن كانت بيرينيس وبول

عند بيكاسو معاً.. كم كان لهذه القصة من جذور بعيدة، كم سطعت ازدواجية بيرينيس... كان يتألم بشراسة من أن يكون هذا الصبي القذر هو الذي ظهر له في ضوء بيرينيس، على آثار بيرينيس. وكان أوريليان جديراً بأن يبذل كل ما يملك ليكون ذلك الشخص كائناً من كان ماعدا بول ديني. كل الناس بدوا له أفضل منه. زامورا، ديكور، بليز العجوز. وكان يستحضر أية هيئة بشرية فيجدها أكثر احتمالاً من هذا الصبي، وأسهل هضماً. كان جديراً بأن يقبل أن تكون بيرينيس فريسة لأي وحش، لأي نخاس، لأي شخص دموي عات، لأي رجل من مقاطعته، لأي مسافر لقيها في قطار، لأي عشيق بالمصادفة. أما بول ديني...

لقد امتحن بول ديني كبرياء أوريليان شرّ امتحان قُدِّر له أن يكابده. غير العالم لونه. كان الراقصون، بلانشيت ، ادمون، الناس في الاحتفال، كانوا الآن ظلالاً، وخلف هذه الظلال رؤية أشد قوة من واقعهم المزيف. بيرينيس المرتبطة الى الأبد بهذا الصبي الذي يضمها بين ذراعيه، هذا الصبي الذي عاد فمه السميك والغريب، الشديد الحركة، الى عيني أوريليان مرسوماً كرسوم الأشياء الذي لا يعتوره الخطأ والذي نعتقد اننا لم نره قط.. لم تكن بلانشيت هنا. كان الناس يكلمونه فيجيب بكلمات شاردة جعلهم يتفكرسونه بدھشة. وقد أنهى هذه الليلة مع «تريفيلان» الذي روى له قصصاً من كينيا. وحكايات عن أعوام اوسكار وايلد الأخيرة. لماذا ما يزال يجرّ نفسه حتى الفجر مع هذا المروّض الأنجلو سكسوني الذي كشف النور الطالع على صدره المنتفوخ لدغات حشرات صغيرة، او ندوب مقصات أظافره خيّل إليه أنه ينتظر ديان التي اختفت منذ زمن طويل مع جاك شلزر. ولم يكن حريصاً على ذلك. وقال في نفسه إن القضية قضية ملاطفة لها. وكان بعض الناس ينامون على أثاث الصالون الوردي، وكانت الشموع تدخن في شمعداناتها تحت ثريات الكريستال الكهربائية. وكان الخدم يمرّون بين المقاعد، يجمعون الأقداح والصحون. وفي الخارج سُمع صراخ القطار والديكة، وفرار آخر السيارات. اقترب «فالوندوا».

كرب منزل لأيدھشه شيء، من تريفيلان وأمسك بذقته بدالة غريبة:

- أترید مزيداً من الشمبانيا، ياعزيزي هوغ؟

كان اوريليان قد سمع الناس يتكلمون عن شباب الدوق، لكنه نسي ذلك،
سمع أنه كان يصيد الفيلة في مكان ما؛ بدت محسوسة عند الفجر الثمانية
والاربعون عاماً لتريفيلان، وكانت شبهة ذراعيه العاريتين تضفي على ذلك كله
بشاعة خاصة.

تملّص اوريليان، ووجد سيارته في أدنى الحديقة، طلع النهار تماماً،
وكانت الأوراق الذهبية تلمع على الأشجار لمعاناً كريهاً.

خرج من هذا العالم كما يخرج من متجر حلويات، كانت الشاحنات على
الطريق تمضي الى باريس، سُمعت صافرةً معملٍ، ووطء رجال بثياب العمل أبعد
قليلاً، استعاد كل شيء مكانه، وسرعته، وحنينه الى وضوح النهار، كان اوريليان
متهاكاً من التعب، وراء مقوده، يخلط بين مجموعات صور الذكريات وهذا
الدرب المغبر، كاد يدهس امرأة، لم يحافظ على يقظته الا بشق النفس،



امتلات باريس من جديد بالبحارة الأمريكيين، ففي هذه الأمسيات الجميلة من أواخر أيار التي دهش الناس من عنوبة الليل وشدته فيها، الليل الذي بدأ متأخراً، كانت البزات البيضاء تُشيع حمى رشيقة ومرحة. وبدأ أن هؤلاء الشبان يحلون في جميع طوابق المدينة، وكانت جماعاتهم تفترق وتتلاقى مثل مدرسة في العطلة، كما بدا عليهم أنهم يعرفون بعضهم بعضاً فيتلاقون وهم يضحكون ضحكات جنونية، كانوا يزورون لعبة عظيمة. وكان منهم من يرى وحيداً، سكران في معظم الأحيان، وضاعت بهم المقاهي في «مونبارناس» وفي «مونمارتر» حيث بلغ الأمر غايته بوجود الاحتفال، بأراجيحه الكبيرة البخارية، والخيول الخشبية، وأماكن الرمي. كانوا ينسلون على الطرق المرصوفة الباريسية. كما ينسلون على ظهر سفينة كبيرة نُظفت تنظيفاً رائعاً. بُخطاً مرنة، خرساء، مثنية. كانوا يغنون طوال الليل ويصرخون بكل قواهم في الشوارع السوداء، كم كان عددهم؟ لم يكونوا بهذه الكثرة. كان عددهم بحيث يحس الباريسيون أنهم ليسوا في بيوتهم.

« لم تكن هنا عندما جاؤوا في ٩١٨ صحيح، كنت في سالونيك... حسن، كانوا هكذا! »

كانت يد «كوسي دي بالانت» تشير لأوريليان على زمرة من البحارة البيض الذي اقتحموا لعبة الخيول الخشبية وهي في أقصى دورانها. «تصوروا! إنني ما أزال أراهم قرب «شاتو تييري».. كنا خارجين من البلدة، يكفي أن أقول لك ذلك... وطبعاً كنا في غاية الهدوء عند التبديل. كنا ننسحب على رؤوس أصابعنا.. وفي غضون ذلك سمعنا ضجة هائلة.. كانت غناء وصراخاً، وكان ثمة قدوراً تتحرك، وتجديفاً... ثم إذا بالغلايين! صرخنا بهم: غلايينكم! أه! لم يكونوا يعلمون عم نتحدث كانوا يمزحون ويقولون لنا: عاشت فرنسا! لم يدم ذلك. وما أعجب ذلك التبديل! بكم تحملنا! لم يبلغوا خط القتال حتى رأيناهم يعودون في السيارة، في ترتيب مضحك..

طافا في هذا الاحتفال. بالانت في طقم قصير مصّنع يملك وحده سرّة، والذي بدا كأنه يريد أن يتفتّق في مواضع ذرّته؛ وعلى أذنه قُبْعَةٌ من القش، الأعيادُ السوقيّة، هو عارف بها. كان في مركزها. طلب مشاهدة المصارعة الرومانية، وكوّن وحده جانب المصفّقين وجانب المتأمّرين في جمهور لم يلبث أن كسبه إليه. وكم لهوا بالرماية وفي الحلقات، ربح زجاجة، وفي السكاكين، ربح لعبتين من نوع «بيليلين». ومن أين حصل على هذه الورود الورقية التي يحملها حول عنقه، وغنائه بين ذراعيه؟ وكانت أحاديثه مع الفتيات عن الخنازير مذهلة. كان هو الرفيق الذي يحتاج إليه أوريليان في هذا المساء. كان القادر على دفعه بالقوة الى المتاهة أو الى سوق السلع القديمة. وبديهي أن ما يحبه بالانت هو مسرح الكلاب، مع العرس، والجنديّ الفارّ الذي يُرمى بالرصاص.

انتهيا الى حانةٍ قرب «أنفير» على المصطبة، وهي مصطبة غير حسنة الإضاءة، مع طاولات حديدية. وجمع غفير، وحاك يُصدر في الداخل ألقانا قديمة نوعاً ما. وكانت الجعة تسيل، وليتك ترى، لاتكاد الطاولات تجفّف حتى تسيل من الأنصاف التالية. كانت الصينية التي توضع تتراقص فوق الشاربين، ولم يبد على النذل أنهم راضون. كم مرة مسحوا بالمسحة؟ ثلاث خمسينات... والكراسي المتحرّكة، والجالسون مكان الذاهبين. وضع بالانت لعبتيه وزجاجته ووروده أمام أوريليان. وكان يفقد صداقة مع سيّدات من طاولته الى الطاولة المجاورة. كان كائناً لا يستريح. وقد ترك أوريليان نفسه يتساق بهذا التيار الألي. وفجأة سمع أطرافاً مما كان يقوله جيّرائه. أربعة رجال انيقو الثياب يدلّ مظهرهم على استقامتهم، وأنهم هنا من أجل تأمل الأشكال الجميلة. وفي وسطهم امرأةٌ مديدة القامة، جامدة، صامتة، مبتسمة، وعلى رأسها قُبْعَةٌ بيضاء.

حشرج أحدهم قائلاً: «ليبقوا في بلدهم، إن لم يُعجبهم هذا» وقال آخر: «إنهم مقرّون! هذه فرنسا، هنا، لاشيكاغوا» وضاعت كلمات في ضوضاء الأنصاف المسكوبة. أخذ أوريليان يفكر من جديد في حديقة «مونيّه»، في ضوء بعد الظهيرة ذاك على الأزهار... وصاح الرجل الطويل الذي أراح يده الريلة

المليئة بالخواتم على كتف المرأة. إنهم يضايعوننا، أبناء سام! السينيغاليون، هل هم زنوج أم ليسوا زنوجاً؟ وإذن! لقد قاتلوا من أجلنا. السينيغاليون^(١).

وإذا «بكوسي دي بالانت» يحرك ذراعيه في هذه الأثناء! ثم يضع يديه في فمه على شكل بوق، وينادي.. جماعة بأسرها من الأصدقاء.. وحينئذ، يلاحظ! كلما ازداد الجنون ازداد الضحك! لم يكن هذا رأي أوريليان تماماً. لا يا صاحبي، هيا استمر معهم إن كان ذلك يسليكم... لم يشأ «بالانت أن يدع صاحبه مغتماً، اقترب الناس من طاولتهم. وقف بالانت وأخذ يُعرف. خمسة أشخاص أو ستة، وامرأتان... همس الرسام في أذن أوريليان: « سأشرح لك فيما بعد... روى أحد الرجال ان عشية أمس في مكان لشرب الشمبانيا كان فيه امريكيون.. لا البحارة.. ناس راقون.. طردوا زنجياً كان يشرب.. كان هذا الحديث استمراراً غريباً للحديث المجاور.. حدثت حوادث في الشارع مع البحارة.. وبندين «كوسي دي بالانت»: الى المارتينيك... مارتينيك... مارتينيك...! «الزنجى بالنسبة إليه، هم العري، مع سروال داخلي على الاكثر.. والزوجة^(١)»، واللغة الفرنسية المشوهة، وكوخ الخيزران الخيزران.. تجمعوا مع ذلك حول أصدقاء دي بالانت» ونزلوا نحو «بيغال».

قالت إحدى السيدات، الطويلة الساقين، الجميلة اليدين، المرتدية فستاناً أحمر متوهجاً، والتي كانت تتأبط ذراع زوجها: «أنت تسكن في منزل الأمير «ر»، أليس كذلك؟ نحن جيرانك، ياسيد ليرتيلوا. أي اسنا جيراناً على التمام... على رصيف أنجو... وكثيراً ما أراك... أه! ما أغرب ذلك، وقد ذهل أوريليان بهذه المصادفة. ماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك، على كل حال؟ كان يتسائل بالضبط أين شاهد.. إننا نرى هكذا أمام أعيننا مشهداً مألوفاً.. ولانستطيع تحديده...

عند باب «سيرك الشتاء» كانت زحمة، وشرطة، وحركة ذهاب وإياب، وأضواء مُعمية.. سارعت هؤلاء النسوة؟ ماذا يجري؟ تصوير فيلم، في الضوء

(١) لفظ الجيم زايًا - المترجم.

المسلط كان المعتلون في ثياب التمثيل ينتظرون بصبر وكان رجال أعمال يُلقون أوامرهم، وقد أبعد الجمهور من أجل وصول تاكسي التغيير..

همست جارة اوريليان التي في رصيف «أنجو»: انظر الى ذاك ، ما أجمله! كان ذاك زنجياً رائعاً بقميص الغلانيل الرماذي في الصف الأول من المتسكعين. وأضافت: «ثم، يالهؤلاء الموسيقيين! أساء ليرتيلوا فهما: «أهو موسيقي؟» لم تجبه، كانت تدعى السيّد «فلوريس» كانت رائعة. باريس، تعج بالنساء التي لا يعرفهن. قال الزوج: «سيد ليرتيلوا، يجب أن تزورنا...» لكن، طبعاً، طبعاً، وزّع «كوسي دي بالانت» لعبتيه على النساء، أما القنينة فكان يلوح بها. ليتنا نذهب فنشربها. عند «ارنست»؟ كان ارنست أحد هؤلاء الرجال، وله مسكن عزب لطيف. لكنه كوخ سيء السمعة، وليس فيه ما يضيّق، يمكننا الخبط بأرجلنا، والغناء صراخاً، وتكسير الصحون.. كان ارنست يضحك، وهو رجل مائل الى الحمرة يُناهز الأربعين... اعتذر اوريليان. إذن هذا ليس لطيفاً! أنت تتركنا؟ وضع له قلادة الورد حول عنقه، ضحكت السيّدات قليلاً، استأذن اوريليان.

مضى وحده عبر ساحة بيغال، محتفظاً بهذا العقد المتعدد الألوان، وكان يضحك في داخله قليلاً ويزفر من ذلك.. كان يمضي على وجهه، دون أن يعلم ماذا سيحلّ به. لم يغيّر ذلك عن الساعات الأخرى في حياته، في حياته. ولو كان شخصاً عادياً، شخصاً كسائر الناس، لظلّ مع «بالانت» والآخرين، ولغازل السيّد «فلوريس» وهي امرأة تسكن بجواره، تصوّر، وما أعظم هذا الحظ! ولكن ضاجعها في هذا اليوم أو ذاك، لم يكن نهذاها بأرزين كما يجب أن يكونا، لكنها في النهاية... وحاول أن يتصوّر ردف السيّد «فلوريس»...

صاح صوتٌ حنق: «ألا يمكنك أن تنتبه!» أوه! ما كان له هم سوى الاعتذار. لقد دفع هذا المار الى حافة الرصيف، بسبب ارتداد الجمهور وكانت سيارة تجتاز الساحة، حيث كان الناس يتفرجون على مقياس القوى الذي كان يضربه بالمطرقة بحاراً أمريكي شمرّ كميّه عن ذراعيه المحروقتين... وفجأة تطلّع الذي صاح ياوريليان واوريليان أحدهما الى الآخر. وحدث بينهما شيء من

الذهول، وقد نزع اوريليان الورد التي علّقها بالانت وربما أَرْضاً. قال بول ديني: «
.. جئتُ في أنسب وقت، كنتُ أبحثُ عنك...»

— ٧٤ —

قالت بلانشيت: لا، لا أعتقد.. أنت تعلم أننا عندما تزوّجنا، اعترفتُ له في
العقد بمبلغ.. الخلاصة بمبلغ لا بأس به من المال... جلستك غيرُ مريحة؟ أتريد
أن أصحح لك جلستك؟ بوسادة؟

كان هذا أول مساء استطاع فيه ادريان، بجهاز المشي، أن يتناول
عشاءه في صالة الطعام مع بلانشيت. كان آدمون غائباً على عادته، شعر
ادريان في هذه الصالة الأنيقة بشعور غريب: أن يكون وحده مع بلانشيت لا،
في خلوة حميمة، بل رسمياً هكذا، أمام أعين الخدم، يخدمه ذلك الخادم بقفازه
الأبيض، وفي مواجهته بلانشيت، وفضيات «بوفورسا» وألف نعومة طبيعية
كالخمر التي جعلته يتلمّظ بتحفظ، وقد صُبت من بورق.. تأنّقت بلانشيت في
ملبسها تكريماً له.. ارتدت فستاناً بسيطاً، أسود. واللون الأسود يناسبها
تماماً، صاعداً من الأمام بقيةً تُحيط بعنقها، عاري الظهر تحت هذه القبة
السوداء، وكان ظهرها رائعاً. وكان ادريان قد تعودَ قسمات وجهها الكبيرة
قليلاً والخالية من الملاحظة. بل لقد اخذ يجد فيها سحراً، وكان يفكرُ ليتها تنفخ
شعرها قليلاً.. ساعلمها... ولديها لألئها.

بعد العشاء انتقلا الى المكتبة وكانت النافذة مفتوحة على المصطبة،
وبيكاسو العظيم الأزرق في الظل، والأضواء الخافتة. كانت تهيمن عنوبةً تخفق
فيها باريس على نحو غامض. كانا وحدهما، لكن المدينة العظيمة في الخارج
جعلت هذه الوحدة مهيبة وعكراً في آن واحد..

قال ادريان وهو حالم، ينفذ رماد سيجاره بلطف في المنفضة الزرقاء:
.. آدمون سيّد نفسه.. خلاصة القول..

تنهّدت بلانشيت، لأبد أنها كانت تفكرُ في شيء آخر همست:
.. تقريباً..

لأبد أنها رأت خلف هذه الكلمات الرمادية ابتسامة السيدة «ملرون»

المتصنعة، وقسوة زوجها. في جميع الأمسيات الشبيهة بهذه الأمسية التي تتناول عشاعها وخيدة. البنات اللتان لاتعانقان أباهما. في هذه الغرفة الرائعة التي دخلها ادريان قبل قليل. كررت: «تقريباً...»

لأبد أنها كانت تتأسف بمرارة على استقلال ادمون ذاك الذي أنشأته بنفسها وكأنما تنبأت بفكرة ادريان قالت.

- يظن المرء انه يسعى الى ما هو أفضل... فإذا به يصنع شقاء نفسه..
حرك رموشه الطويلة، وأغمض عينيه نصف إغماضة. وكان يراقبها هكذا مراقبة أفضل.

- أعتقد أن ذلك كان يمكن ان يغير من الأمر شيئاً...
لم تسأل ما «ذلك» ولا ما «الأمر». استغفنت المحادثة عن تركيب الجملة. وأجابت:

- أخشى ان يكون ذلك من أوله الى آخره سوء تفاهم مأساوياً...
- أولادك ليسوا سوء تفاهم...
- آه! نعم... هناك الأولاد... ولولا البنات... وعندما أفكر أن صغيرتي «ماري فيكتور» لولاك..

يد ادريان في الفضاء بدت كما لو أنها تقول: لننتحدث عن شيء آخر،
أنقلبين، وأسقط شيئاً من الرماد على الأرض وتظاهر بالانحناء. قالت برفقة:
- دع ذلك. لا أهمية لذلك... هذه الأمسية عذبة...
- عذبة..

نظرت إليه. ما أعجب أهدابه! كاهداب المرأة. لقد فقد قليلاً ألوانه الحية حين ترك الخروج والحركة. ولم تعد تجد فيه ذلك الجندي الصغير المبرقش الذي لم يعجبها قديماً في ادريان. لمس بلطف شاربه فتساءلت كيف تكون هيئة ادمون لو كان له شارب.. قادها ذلك الى المهر الذي قدّمته له. وشرحت:
- لي ميزانيتي للبيت والأولاد وفساتيني.. لكن الثروة بالمعنى الحقيقي،
الثروة إنما يديرها ادمون.. في «العقارية» أولاً ثم في مجمّع الشركات....

- أعلم ذلك...

- اوه! نحن لانعيش في الحقيقة على مستوى ثروتنا، يجب ان نفكر في المستقبل.. والأولاد..

لابد أن ذلك مما يقوله لها ادمون، ثم إن في هذا التواضع النسبي عن نسق حياتها شيئاً يُرضي فيها تشددّها الديني، وفكر ادريان في الإضبارة التي سلّمته إياها الأنسة ماري، شعر بالضيق.

- في نهاية الأمر.. عفواً أودّ أن استند الى وسادة..

- اوه! لكن كان يجب أن تقول ذلك..

سارعت الى ذلك وبينما كانت تُنهضه، دسّت الوسادة الخضراء وراءه، فلامست وجنتها شارب الرجل. أحسّت أنه أوقف نفسه دفعةً طويلةً، وتباطأت في التراجع. نظر الى قذالها المنحني والى خط الظهر الذي كان ينادي نداء حاراً يده. لن يفعل ذلك هذه المرة، ويجب الأسراع في الكلام على أي شيء بعيد عن هذا الظهر، عن هذا الاضطراب.

- لا أفهم ادمون.. غدا لايشبع..

- لا يشبع؟ ماذا تقصد، ادريان؟ أنت تعلم أنه لا يطلب مني شيئاً البتّة..

ماعدنا السنة الماضية «البكاك»..

قال ارنو في نفسه:

أنت تتحدثين عن قطعة صغيرة، وقولها ماعدا السنة الماضية» يدل على مقياس الخريطة. انقلب قليلاً الى الخلف ولس بيده الجبس .

- هل تتألم؟

- أنا؟ اوه، لا... كنت أفكر..

فيمَ كان يفكر، في الواقع؟ رأى أنها تتسائل عن ذلك، كان في صوته، بالرغم منه اضطرابٌ يطلُّ برأسه. اضطراب لم يُحسن تحليله. نوار امرأة، بعد تلك العفة الطويلة.. أو نوار الثروة.. حلم الثروة.. كان فيه شيء من ذلك كله، لاشك، وكان، بالطبع، يحاول أن يخفي اضطرابه. وفي الوقت نفسه، كان يشعر

شعوراً غامضاً بأنه لاينزعج لو تركه يتراعى، يبرز.. وكانت بلانشيت تبالغ في الهدوء..

- غريب، ادريان، لست على عادتك، هذا المساء..
أكان سؤالها متهوراً؟ حرك أهدابه أيضاً، وأخذ يبحث بعيداً في نفسه
عن صوته وعن كلمات مقصودة الابتذال:
- لعل ذلك لأن الجو جميل جداً هذا المساء.. جميل جداً حتى إننا.. توقّف
سألت بشيء من الجفاف، جفاف غير مقتنعة به
- جميل جداً حتى إننا «ماذا»
- ... جميل جداً حتى إننا نؤمن بالله..
ثم هذا الجواب على نوق رديء، حائد جداً، غريب وسط هذا الحديث عن
موارد منزل بارينتتان. كان ذلك صدمةً لبلانشيت.
- ألسنت مؤمناً؟

- بلى.. بالتأكيد... لقد تربيت.. لكننا أحياناً.. ثم إن هناك أمسية..
طالما تأملت هي من جحود ادمون الساخر. فقالت برصانة
- أنت كاثوليكي.

أجاب «نعم» برأسه. وهذه صعوبة أخرى بينهما. لكنها من نوع آخر
وتوقّعت بلانشيت أحاديث طويلة جادة، تمسّ جوانب منها لم تُظهر عليها أحداً.
ولا ادمون بالتأكيد. هناك سرٌّ لدى الكاثوليك. ذلك الميل الى الكنائس، الى
زجاجياتها المزخرفة، الى الارغانات، الى العذراء.. عبادة العذراء بخاصة كانت
تضايق بلانشيت.. كان يمكن ان تقبل عند الضرورة بالحضور الواقعي.. خافت
من هذه الهوة، وعادت الى ادمون «من أي عمر عرفت بارينتتان؟» قالت بارينتتان
ولم تقل ادمون لتجعل الأشياء أكثر بعداً بينهما. أما هو فقد فهمها فهماً
مختلفاً.

- او! لم أعد أذكر، منذ ان كنتُ صغيراً..
- من الغريب مع ذلك، أنه لم يؤمن قط بشيء، لم يؤمن قط..

- تعرفين أباه... لقد تأملت السيدة باربنتان كثيراً منه..

ضمت شفتيها على فكرة حماتها. هذه أول مرة في حياتها تفكر في «استير» على أنها كائن بشري.. أياً كان الأمر، إن المغامرة نفسها تنتقل من جيل إلى جيل آخر، وكريه أن يلاحظ ذلك. لكن أمن المؤكد حقاً أن الغلطة بين ادمون وبلانشيت هي بالتحديد ذات طابع ديني. على كل حال إن التفكير في أن الأمور تسير على هذا المنوال يسوي كل شيء.. في هذه الأثناء، ماذا كان يقول اديان؟ كان يتكلم عن «سيريان»، عن لعب الكرات الخشبية، عن جماعة أنصار الوطن التي أسسها. لمساعدة قريب شلزر الذي كان يصنع الشوكولا.. نعم، لقيت بلانشيت آل «باريل».. جاكين التي حدثت معها تلك القصة..

- في الحقيقة، اديان، أنت تعرف جيداً أعمال ادمون.. بيننا، قل لي.. هل تستطيع أن تقول لي، مامشاركتك بالضبط في «عطور ملروز»؟

- يا الهي، أنت تضعيني في وضع محرج.. قلت لك، بلانشيت، إنني أفضل عدم الكلام على ذلك..

- أنت مضحك.. وما أهمية ذلك؟ أتظني أغار حقاً؟ وبالنسبة إلى المال، لا يمكن أن يكون المقصود، على كل حال، سوى المال الذي يخص ادمون.. فهو المالك له.. قلت لك إنني اعترفت له بمبلغ وافر..

- اسمعي، لنتكلم عن شيء آخر، إنني أكره الحديث عن ذلك...

- لست أفهمك، ذلك مضحك حتماً... لا بد أن الفكرة التي كوَّنتها عني فكرة حقيرة..

- بلانشيت!

- ثم ماذا تريد أن أتصور أمام ارتباكك؟ أنت تحملني على التفكير...

- أرجوك...

- أؤكد لك أنك أنت، بطريقتك في الدفاع عن باربنتان وإن لم يهاجمه أحد، ترحي إلي بأفكار..

- أؤكد لك.. لا تفهمين أن وضعي إزاء ادمون دقيق من وجهين؟

- من وجهين؟

- أنا في الواقع موضع ثقته..

- من وجهين؟

لم يجب، أحسّت بقلبها يخفق، واختلطت المشاعرُ فيها. أن يكون ادمون قد دبر شيئاً ضدها، قذارةً ماليةً ما، أخذت تتأكد شيئاً فشيئاً من ذلك، في كل حديث، بالرغم من استقامة ادريان الكبيرة، ووفائه حين رفض ان يقول شيئاً، وفي الوقت نفسه الذي أخذت تتفكك فيه الثقة التي وضعتها في والد أبنائها، جئتُ فيها مشاعرُ أخرى، لعلها هي التي لم تعد وفيةً جداً. أدهشه صوتُها الذي تبدّل عندما سألته:

- ألم تتعب كثيراً، على الأقل؟

- لا، اصغي..

إن صوت الحنين في الليل الهابط كان الميترو الذي يجتاز المسين. كان حساساً إذن للشعر ادريان هذا، الذي بدا مثل ضابط باللباس المدني. وتذكّرت ماقاله لها ادمون عن ارنو في الحرب. كان بطلاً.

تنهدت:

- تصوّر أنني كنت أستطيع أن أعرفك قديماً... قبل غيرك..

- بلانشيت!

صاح تقريباً، نسي ساقه واندفع نحوها.

- اوه! لانتحرك! هل توجّعت! ادريان.. ادريان.. أيها المجنون الكبير.. أُلقت بذراعيها حوله لتمنعه من السقوط وضمّته لاشعورياً إليها. أما هو فأخذت يداها، يداه الدافئتان، تركضان على طول الظهر العاري وتنزلقان الى تقويرة الفستان... الشارب.. ورائحة السيجار.. لم يعانقها أحد قط مثل ذلك.. وأخيراً أراحت خدّها على كتف الرجل وأنت.. ادريان.. في نهاية النهايات، وجدت من يحبّها..

قالت

- يا صديقي، رجلك المصابة..

ساعدته على بلوغ مقعده، كان مثل طفل كبير يهمس بكلمات قليلة رقيقة، وبالاعتذارات، وبالوعود، وعندما انتصبت داعبت حلاها وجه ادريان.



- قبل كل شيء، ما الحب؟

- ليست القضية قضية أسئلة، إما أن نحب أو لا نحب..

- ومع ذلك، إذا أخطأ المرء.. وإذا لم يكن هناك حب..

كان هذا الحديث حديث رجلين ثملين... يبدأنهما لم يكونا سكرانين إلا بأقوالهما، بالأمسية الدافئة، بالساعة المتقدمة، بهذا البغض بينهما أولاً الذي سكن مثل ريح عاصفة.

- لو كنت تحب بيرينيس لما تساطت عن ذلك.

ونظر الى الآخر في عينيه، متحدياً وشاحباً، في ضرب من الخبث المتعمد الذي لم يملك الاستمرار، والذي كان ينحسر هارباً. والحقيقة أنه لم يكن يستطيع ان يكره ليرتيلوا. فالمرأة نفسها سببت لهما الألم نفسه. كان بوسعه ان ينهال عليه ضرباً على الفور، لكن ما ان بدأ، الكلام... في هذا المقهى في ساحة «سان جورج» بمراياه في كل جانب وقضبانه النحاسية، وحجره الصغيرة مثل المقاصير في قطار غريب الشكل، وطائفة من النور... وهو شبه خال... والتادل الذي يتتأعب، وهو يقرأ جريدة المساء..

قال اوريليان:

- أظن، أظن، يا صغير. أنني لا أحبها؟

سأله هذا السؤال ببطء، غير واثق من نفسه، بادئاً مخاطبته الخشنة بضمير المفرد. لأنه في النهاية لم يكن سوى صبي هذا المخاطب، صبي مرتعش وهزيل، وكأن سحنته من العالم الآخر، وزاد النور في تحويها، لكنه صبي على كل حال..

دمدم بول

- أمتنعك من تسميتي صغيراً!

هز أوريليان كتفيه، العجيب أنه كان يمكن ان يقتله في اللحظة الأولى، هذا الصبي، والغريب ان يفكر فيه على اعتباره عشيق بيرينيس، ذلك غريب ومثير. كالطلبة الذين يقبض عليهم وهم يدخنون سراً، كيف جاز لها أن تفضل

عليه هذا، أن تفضل.. أخيراً غضب على نفسه لامجال لمناقشة الوقائع.
- ربما وجبَ تصديقك، أيها الصغير...
كان يلح على كلمة «صغير» المتنوعة، لكن بدا أن بول ديني نسي منعه.
- لعلي لا أحبها... وأن الحب غير هذا... لكن ما الحب إذن؟ أتظن أنني
كنتُ أروي لنفسي قصصاً؟
ساد الصمت، ثم قطعه أوريليان.
- أظنها جميلة، أنت؟
التفتَ رأس الصغير بهياج، كان له ما سمّته بيرينيس فمه الغريب،
فكانما يريد أن يجهش بالبكاء.
وأكمل أوريليان كلامه
- أنا، لا أجدها جميلةً
ضرب «ديني» بقبضته الرخام، فأطار الملاعق الصغيرة، رفع النادل نظره
عن جريدته، وأدرك أن ثمة خطأ، صفر بول:
- أنت لاتحبها، ولم تحبها قط....
- لعلك على حق.. وهذا يبسط كل شيء..
أغمض عينيه. كان يتوجع. رأى مرة أخرى وجه الجبس المعلق على
الجدار، في منزله، والمرأة بلحمها ودمها، والنور على وجنتيها، وقد ارتدّ رأسها
الى الخلف. وكما كان يعاني من جهدٍ ليتمثلها كاملةً، بجسدها، لا بجزئيات
الجسد، بل هي كلها، في الشارع، على مسافة منه. لم يستطع ان يتخيلها إلا
في «جيفيرني» وهي تنأى، مع تلك الحركة في كتفها... كان بول ديني يتكلم
ويتكلم.. وقد مضى ساعتان على وجودهما معاً
- ثم وقبل كل شيء هل الأمران سيان؟ انها لم تكن لك، لك...
(وضرب صدره): لك.. من يزعم أن المقارنة ممكنة؟ أه، نعم، الحب دون
الامتلاك، الحب الذي في الرأس، وغير ذلك من الهراء! لا، لكن انظر الى نفسك
في المرأة، شخص مثلك، هل يثبت هذا للمقارنة؟ لقد كانت لي، أنفهم، ثم

فقدتها! هذا شيءٌ جديرٌ بالاهتمام... عندما أستيظ وأجد نفسي وحيداً...
وعندما أفكر أنها في مكان آخر، في أي مكان... أما أنت، فماذا يضيرك من ذلك؟

كان يصغي إليه وهو يتكلم، ذلك الصبي، في الحقيقة كان يحترم هذا الألم، لعل ذلك لا يثبت لسكرة يسكرها، لكن بول ديني كان يتألم، هذا مؤكد.
همس اوريليان.

- لا تنر، لم نقل كل شيء بعد...

نظر أحدهما الى الآخر مثل متصارعين بين جولتين. تناوله ليرتيلوا بفكرة مقرعة:

- بيد أنها تركتك...

حديث قدر، ضربة غادرة، خفض بول رأسه وتحملها ثم ردّ عليها

- كان هناك الزوج..

عجباً، هذا صحيح! هذا الذي لم نكن نفكر فيه. وكان وقوعه بينهما مدهشاً لبول الذي ذكره، بمقدار ما كان مدهشاً لاوريليان. الزوج قال اوريليان:

- لابد أنه حلّ بالسروال الداخلي.

قهقهها. أصدر بول المكفهر، المشتمز حركة كحركة الأكتع بمرفقه الأيسر، شعرا كلاهما بالحاجة الى هذه السخرية. كان رأسهما يعملان. وكان عليهما ان يتخيلا العلاقة الحميمة بين الزوجين، بيرينيس وزوجها الأقطع.. وكان بوسعهما أن ينحدرا بعيداً في هذا المضمار، وأن يغدوا كلاهما ماجنين..

روى بول ديني عن بيرينيس أحاديث على نحو معيب، قالتها في عفوية نسيانها لنفسها، وبدا عليه أنه يستسيغ خيانتها. وربما كان يحاول ايضاً أن يُصيب هذا الرجل أمامه، بذلك الصدى غير المباشر لعلاقة حميمة تشق عليه. بل لقد تجاوز الحد وكان بينهما تضايقٌ شديداً..

استأنف اوريليان:

- ومع ذلك فربما كانت تحبه، على كل حال؟
الخبيث، لم يكن يعتقد شيئاً من ذلك. قال ذلك ليعذب بول. انتقم بول.
«لابد أنك تغار بصورة قدرة لتقول هذا...» نعم، كان اوريليان يغار. يغار غيراً
جنونية. لقد صعدت الغيرة الى رأسه دفعة واحدة، كال موجة. بيرينيس مع هذا
الصبي أه، العاهرة، العاهرة!
لاحظ الآخر:

- نحن هنا، ونحن نتكلم عنها معاً... هذا فظيع... فظيع بكل صراحة!
التدليروا بهذا الحديث، كما تُنزع قشرة الجرح. كان يعلم أن كل
كلمة، كل فكرة، كل نظرة ستجعل التئمة أشد وطأة، التئمة المحتومة خارج هذا
المقهى، عندما يعود الى وحدته في الظلام، الأيام الآتية. مالم يتوقف ذلك فجأة
فيقرر ألا يعود الى التفكير فيه؟ ولم يكن «ديني» هو الذي يسهل عليه ذلك، قال:
- ألا تفهم إذن؟ لم أحسب حساباً لأية امرأة أخرى... أية امرأة... عندما
أفكر في النساء الآخر أشتهي أن أضحك.. كنت أقضي لحظتي مع الأخريات..
وهذا كل ما في الأمر.. كنت أحتقرهن... سحناتهن، وطرائقهن.. وخصوصاً
أنني لم أكن أحب محادثتهن... إن لهن دائماً دوافعهن في أن يستسلمن لك..
كان ذلك لشيء آخر... يناسبهن... وكان عليّ ألا أكون مغفلاً...

- أما هذه المرة فقد أصبت وسلبت، أليس كذلك؟
- قلت لك أن ذلك غير وارد هنا. أنا أحبها. أفهمت؟
غريب الحب. لم يكن أحداً منهما يعلم ما الحب. حاول اوريليان أن يفكر:
أنا لا أحبها، لكن تفكيره ذهب هباءً. لا يمكنه ان يتخلص من مأزقه بالتجديف.
- «أنت تحبها، أنا أحبها، نحن نحبها... الزوج يحبها أيضاً، على
طريقته... لكن هي... مارأيها؟ قل... ماذا يمكن أن يكون رأيها. ياترى؟
أستطيع أن أقسم بأنها كانت تحبني... وقد ضاعفتك..
- أستطيع أن أقسم أنها كانت تحبني..
- ولذت بالفرار.
- أيسرك أن تجرحني؟

- ربما،

- حسناً، لا أسمع لك أن تعتقد أنك قادرٌ على ذلك! هي التي جرحتني،

أتفهم؟ هي، وأنت منهمكٌ هنا في النَّبَش...

- أنت غبي! إني لا أنبش سوى نفسي...

أصبح وجود بيرينيس بينهما لا يُطاق، انصرف كلُّ منهما عن الآخر. في الخارج كانت أبواقُ السيارات تُزَمّر. لابد أن ذلك كان ساعة الخروج من المسارح. كان بول ديني يتابع حُلماً أسود وعيناه زائفتان، وارتجفت شفته الغريبة وقال وهو شاخصٌ أمامه، غير متوجّه الى ليرتيلوا إطلاقاً.
- سوف أهلك نفسي.

اهتزَّ أوريليان بغباء من جرّاء ذلك. هذا الصبي! آه لا، هذه المرأة لا تستحق هذا الغباء.

- اسكت، يا صغيري، أنت مجنون؟ يقتل المرء نفسه من أجل مَنْ هو جديرٌ بذلك... أما هذه التي تنتقل من واحد الى آخر..

- أولاً منعك من أن تدعوني صغيراً.. ثم بَمَ تهذُر؟ من واحد الى آخر؟ ماذا يضيرني إن كان في حياتها من قبلُ غيري! إن كان هناك أحد...

- هذه المرة، لم أشأ أن أجرحك، بول صدّقني: لكني أقسم لك...

- أقسم ماشاء لك القسم! أنت تضحكني في النهاية، بأفكارك... أنت إذن شخصٌ من ذلك النوع، ماذا، وهل تبلى النساءُ وهنَّ ينتقلن من يد الى يد، بحسب رأيك، وأنت، أحياناً؟

- ليس الأمر سيان. وأنت تعلم ذلك جيداً.

- لستُ أعلم شيئاً على الإطلاق. آه اسمع، إن أخلاقك كرجلٍ تحملني

على الغثيان!

- أنت لست في حالتك الطبيعية.

قال ليرتيلوا ذلك بجفاف شديد. لقد اصطدم بما لا يحبه كثيراً. بعالم بجميع أفكار هؤلاء الناس الذين يظنون أنفسهم ماكربين، بهذه الفوضى، بهذا النمط المتقدم، وكان الرجال والنساء شيء واحد، همس بول ديني: «ربما لم أكن

في حالتي الطبيعية»

زاد اوريليان على الفور

- يظن المرء انه يحب... ويود لو يحب كثيراً... ويحتاج الى الحب، يا صغيري، وبكل بساطة، يقع على هذه المرأة أو تلك... فهل يختار؟ أقول لك إنني لم أجد لها جميلة. ومع ذلك أحببتها. وأنت أيضاً، المهم ليس المرأة، بل الحب. كان يقول ذلك كله ليُقنع نفسه. كان يُصغي الى نفسه وهو يتكلم. لم يكن يعلم أنه قد فكّر في ذلك كله. كان ذلك يأتيه ابتكاراً على شفته. وكان يتسائل عمّ سيقوله. عمّ سيفكّر فيه بعد ذلك... أراد بول ان يشرع بإنكار مُبهم. فقطع عليه اوريليان كلامه

- إننا نكون فكرةٍ عن المرأة... ونجمل هذه الفكرة في نفوسينا... ثم نلقى بيرينيس... يجب أن تتطابق مع تلك الفكرة... بأي ثمن... وتطابق بينهما... ولا أقول لك إن ماكنّا نبحث عنه هو امرأة جديدة بالضرورة... امرأة لم يقربها رجل. لا! لكن ما الذي تعرفه عنها، قل لي؟ أتظن أنك تجربتها الأولى؟ ففي المقاطعة، وفي مدينة صغيرة، تتضايق... اسكت!

- اوه! أسهل على المرء أن يسدّ أذنيه! لم يدم الأمر طويلاً... مني إليك... وتريد أن تنتحر من أجلها؟ يالللشقاء!

- لا، أنت لم تحبها قط. أنا أفهم ذلك، أنا أفهم ذلك.

- لأنني أراها كما هي؟ لاتتخدع: فالرؤية تختلف، فتحسن أو تسوء بحسب الأمسية. ثم... ربما كان الأمر كذلك، على العكس، عندما نحب... وأخيراً فالصورة التي كوّناها عنها، قبلها، أكانت هذه، ماقولك؟ كن صريحاً؟ لا، أليس كذلك؟ الحب! اعذرني إن كانت نظرتي نظرة رجل... هذا يثير اشمئزازك... لكنني لا أستطيع أن أتصرف على نحو آخر... كانت بيرينيس بالنسبة إلي فتاةً تقريباً... رأيت كيف يمكن أن يكون المرء غيباً!

ضحك ضحكاً زائفاً. رفع الآخر رأسه وتطلع. كان وجه اوريليان

مختلفاً عما قدره بول. كان يتصبب عرقاً، لعله حلق ذقنه ولم يُنعم. ولم ير بول من قبل هاتين الوجنتين البارزتين، والمسافة الطويلة بين الوجنتين والفكين.. فتاة تقريباً... ما أغباه حين ينظر الى بيرينيس على أنها فتاة؟ ثم الميل الى الفتيات. ميل هؤلاء الناس، فئة من الناس...

سأل بول:

- إذن، لو كانت... فتاة، كما تقول لأحببتها حقاً؟ لا، تصنعاً؟ ولأنها ضاجعتني فهي لم تعد صالحة! إلا لأن تُرمى للكلاب؟
كان يريد أن يقول أشياء جمّة، فاختلط كلُّ شيء في رأسه. فهمه اوريليان، مع ذلك، عرضاً، فهم لهجة الغضب التي نمّ عليها مافي أفكاره من فوضى.

- قبل كل شيء من الذي حدثك عن الفتاة (نسي أنه هو) والحب غير المضاجعة.

- لا، لكن ماتسميه مضاجعة لايدنس الحب. لستُ مثلك روحاً خالصة ياسيدي.

هزّ اوريليان كتفيه. لم يكن الصبي يغيظه. تابع الآخر
- أني أعلم جيداً، أنك أنت وأمثالك، تمنحون أيضاً النساء الزانيات حق الحب بشرط ألا يفعلن ذلك سوى مرة واحدة. أما الزوج فلا حساب له. المرأة المتزوجة عذراء. يمكننا ان نغفر لامرأة تخون زوجها مع عشيق واحد. مقابل بعض الدموع. طبعاً... وحياة طويلة من الذكريات، بعد ذلك.. أه عجباً!
العجيبُ أن يجد «بول ديني» ذلك مثيراً جداً، ولم يفكر اوريليان في ذلك قط، أجل، هكذا، في الواقع، هو رأيه في الزواج والزنى.. أفكار غير جديدة جداً، غير أصيلة جداً، لكن هل المقصود هنا أن يكون المرء أصيلاً؟ إن المرأة يمكنها أن تسقط إذا ألقت بنفسها على فتى صغير، على أي «بول ديني»، تماماً. ولو أن بيرينيس عادت رأساً الى لوسيان، دون أن تمرّ «بجيفيرني» لاحتفظ عنها بذكرى مختلفة، نقيّة، بها جسّر إن يفارقه طوال حياته، ولظلتُ

حينذاك حبه. لكن هذه الـ «بيرينيس» المدنسة.. ومع ذلك ما الفرق الذي يُنشئه هذا المثقف الشاب؟ في أزمنة أخرى، المرأة التي لها عشيق امرأة ساقطة. فهل تقدّمنا اليوم بأننا لم نسمح لها باثنين؟ عمّ كان يتكلم إن ديني الصغير؟ لم يكن اوريليان يصغي إليه. كان يفكر في أمه. لم يكن في حياة أمه سوى رجل واحد. سوى رجل واحد خارج زوجها. كان يفكر في ذلك. لكن مامقدار علمه؟ على كل حال لم يكن يحكم على النساء وفقاً لأمه. كانت له أفكاره عن النساء، عن الحب، يعني... أفكاره الخاصة به. ولاشك أن عدداً لا بأس به من الناس يشاركونه فيها. لكن من الذي يملك أفكاراً خاصة به وحده؟ مثلاً رجل يفكرون في أن واحد الشمس طالعة. الشمس تطلع ببساطة.

- قال. لو غيرنا المكان. طال جولسنا على هذه المقاعد...

لقد أنهى غلبة سجنائه.

ألفيا الليلة فاترة وحاضرة، كانت من ليالي باريس التي لا يشتهي فيها المرء أن ينام، حيث تحمل الشوارع ثقل الأسرار. وحيث أصوات المارة مطالع لآلاف القصص، وحيث تبدو كل امرأة مدهوشة فيما تعجز العتمة عن اخفائه. شارع «سيّدة لوريت» شارع «فونتين».. و«الطاحونة الحمراء» ترى، في الأعماق، فوق، وهي تلمع. صيدلية الليل عند مفترق الطرق دفغته الى الكلام من جديد على الزوج. تجاوزا حانة ليلية، ونساءً معهن ورود، ورجالاً أنيقين وكانت ساحة «بلاتش» تتوهج من كل جانب. وبالرغم من الساعة المتأخرة كان الناس في كل مكان، على المصاطب. وفي الجادات، كانت السوق المطفأة تمتدّ مثل تجمهر الأشباح. وقرب الطاحونة، في ذلك الضرب من النفّس الناري، عند مدخل المرقص، كانت هناك باقة من البحارة الأمريكيين. قال اوريليان:

- لا أدري، هؤلاء الناس يغيظونني. واستُ الوحيد.

أكد بول.

- إن لي أصدقاء امريكيين ممتازين.

- وما العلاقة؟

ما العلاقة بالفعل؟ ومن جهة أخرى، ما أن يتكلم عن الزواج، اوريليان، حتى يرى بول ينحاز الى هؤلاء الزواج، ويعنف، وهذا يثير أسئلة شتى، الجان، العروق الدنيا، وكان ليرتيلوا يرى أن ثمة زواجاً قد يكونون تطوّروا، كالذي نال جائزة «غونكور... لكن في النهاية من هنا الى... الواقع انه لم يكن لامع الزواج ولا مع الامريكيين.

- وبيرينيس، يا صغيري، ماذا تظن رأيها في هذه المسألة؟
سأل هذا السؤال بصوته الساخر. أما في هذه اللحظة، فما كان يروعه، على الخصوص، هو أن يكون هنا ليتسكع مع «بول ديني» لهذا السبب. ليس غير، وهو أن هذا الصبي قد ضاجع بيرينيس. ولولا ذلك لما كان بينهما موضوع للحديث:

وفي دكان بيع التبغ حيث أراد اوريليان ان يشتري علبة «لوكي سترايك»، كان المشرب مزحوماً بالبجارة البيض والزرق، باللحم الأشقر والأصهب المقهقة، وكلهم سكارى، مع صوت أنفي من الحاكي، في الأضواء المحرقة، وبعض الفتيات المتعلقات بأكتاف هؤلاء العمالقة. فكّر اوريليان تفكيراً غامضاً بسيمون. لا بد أن يكون هذا الأسبوع مجزياً. وكان جمهر من الفرنسيين، من الرعيّة المحليّة يتفرّجون. وكانت السيدة التي تمسك الصندوق، سمراء جميلة، أعياها العمل، فأخذت تعتذر وهي تردّ على الخمسين فرنكاً. وكان لها سنّ ذهبية جانبية.

حدثت ضوضاء في الخارج، وصرخات. كان ذلك كالمشفاط، ففرغ الدكان، ونهض الناس. دُفع «بول» عبر برقشة هؤلاء الأشخاص. لم يدرك اوريليان جيداً ما كان يجري وقد ضايقته العملة التي رُدّت إليه. كان بحار سكران يرفع بكل مافي ذراعه من قوة منضدة رخام في المصطبة. صرخت نساءً، وشوهد زنجي كبير، هزيل وطويل، في بزة من الفلانيل الرمادية. وقد ثنى ذراعيه ليتقي المنضدة التي تهوي... وقد أصيب في وجهه وفار الدم، وارتفعت المنضدة أيضاً. وكان تدافع فظيع من البجارة الآخرين الذين أحاطوا بالمعتدي،

الزئوج الذين بوغثوا قليلا في جميع الأرجاء، ومن الأصدقاء الصغار بمصانهم الخضراء والوردية، الذين هزوا أكتافهم، بحنق صاخب لإقصاء البحارة الزرق حيث كانت تتكئ أيدٍ هائلة، حمراء، في نور مصابيح القوس الكهربائية، وجد اوريليان نفسه في الخارج، بدت ساحة بلانش كأنما تلتفتها شرقة هواء. فمن كل الأرجاء، كان ينسل رجال، مثل زوبعة، رملية، نحو دكان التبغ، وخلفهم كانت تتكون جيوب فارغة، غريبة مثل الطريق المكتم، حيث كانت تطفو سيارتا تاكسي أو ثلاث وقد بدا عليها الذعر، وعلى الرصيف المقابل، هناك في زاوية الشوارع التي تنحدر الى المدينة، شريط من النساء يصرخن دون ان يعلمن شيئاً، ومن حولهن هدير منساب بين التخشيبيات المطفأة، كان نور القتل سائداً.

كانت الأصوات الامريكية تطغى على الجلبة. وانعقد طوق حول السكران من البنات البيضاء، وقد سقطت المنضدة بين أذرع البحارة، وبدا ذلك مثل الالتحام في لعبة الركبي. وكوّن الآخرون بالغريزة شريطاً حول الذين كانوا يكبحون جماح ذلك الهائج الذي يزعق: «زنجي دموي، زنجي دموي» واهتزت الساحة بالتمرد الأسود وبسخط البنات ورجالهن، يخوف الزئوج وهياجهم، وإلى الخلف من هؤلاء المدافعين غير المتوقعين عن قضيتهم، شوهد منهم من يخرج سكيناً.

- قال النادل بجانب اوريليان.

- مامن شرطي، كعادتهم دائماً!

أطبق الجمهور على البحارة، وكان يتقدم ويضغط عليهم بغضب صامت، حاول البحارة تهريب المجرم. وكان الجريج أمام الطاحونة الحمراء يري وجهه المدمى رجالاً آخرين أشد سواداً منه.. ومن رؤيته وهو ينزف تبين أنه كان زنجياً شديداً الشحوب، نادى أحدهم سيارة تاكسي، ورفع أربعة أو خمسة من البحارة زميلهم غير الواعي الذي كان يردد «زنجي دموي»، سد الجمهور طريق العجلات، أخذ السائق يشير بحركات عريضة، كان من المستحيل ان ينطلق وكان هناك صرخات: الموت له! فخاف الرجل، وفاوض، لم يشأ ان ينقل

البّحارة، والجمهور في ظهره.

ومن التاكسي. أراد بحاراً امريكي أن يخاطب الناس فتفجّرت الشتائم، وطارت أشياء. حمى جيئه بذراعه. وكان الطابع البريء للبزات الكتانية يزيد في غرابة جو «سان بارتيليمي» هذا. وفجأة، ومن الجانب الآخر للرصيف الذي يشكل زاوية شارع «بلانش» و«فونتين». شوهد أحد هؤلاء الأشداء الذين يتسكعون في هذه النواحي، وهو شخص فوق الربعة، ممتلىء الجسم، بسترة «بيج»... وهو يمضي بكل سرعته ويصل فوراً الى مرقاة التاكسي.

بيد أن سرعته لم تكن لتحول دن انقباض نفوس مئات المشاهدين الذين أيقنوا انهم سيشهدون جريمة، قبل ان يروا ذراعاً ترتفع وسلاحاً يلمع. لم يجري أحد على الاندفاع والمشاركة في الأمر، لاتقاء الضربة. فظاعة حلم لاصوت له ليصرخ.

لا أحد؟ بلى. فتى هزيل، ولدٌ بجنب هؤلاء العمالقة بشبابهم الكتّانية، وهذا القاتل بسرته الفاتحة. شوهد ينطلق من دكان التبغ، أمام «سيرانو» وقبل أن يدرك أحد ماذا كان يجري. ألقى ذلك الفتى بنفسه على التاكسي، بين الرجل المسلّح والبّحارة. وعندما أهوت الذراع بالطعنه. صعدت صرخة رهيبية ثم خيم الصمت.

ولم يوقف أحد الرجل الذي طعن عندما انسلّ خلف الجمهور الى العتمة، في شارع «ليببيك» ليلاً. لكن اوريبيان رأى، وسط البحارة البيض، جسد «بول ديني» المتلوي، يسقط خرقة حقيرة. الله أعلم كيف ركع قرب التاكسي، ورأس الصبي عليه وهو يئن: «لا أهمية لذلك.. دعني... لا أهميه لذلك...» وقد امتلأت يداه بالدم، وحاول أحدهم أن يحل ربطة عنقه، وقال بحار: «لم يمت أليس كذلك؟ والجرح الخفيف في العنق، والدم، الدم، وهذا الجسد الذي أخذ يرتخي عليه. عندما وصل رجال الشرطة أخيراً.

صاحت امرأة ترتدي فستاناً أزرق فاتحاً وقفازاً أسود الى المرفقين، وقد استشاطت غيظاً وبصقت في وجه السائق

- هذه غلطتك!

* * *

كان ذلك كله فظيماً. نُقل الصغيرُ في التاكسي الى بوجون، في هذا المبنى العتيق الذي له مظهر السجن مثلما أن له مظهر المشفى. وقد تأرجح اوريليان الذي جاء مع التاكسي بين مكتب الدخول، والطبيب المناوب، وتحقيق الشرطة، والهاتف. وإذا لم يكن يدري ما الأولى به أن يفعله فقد قرر أن يتصل هاتفياً بماري، التي لم تفهم على الهاتف إذ أُوقظت على غير توقع نعم، إنها تعرف عنوان أهله، وسوف تتصل بهم، كان هناك الهاتف.. وكان الطبيب الداخلي المساعد صديقاً لصديق اوريليان هذا، أخي الكاتب، الذي خلق شاربه إرضاءً لامرأة. أجلس ليرتيلوا في صالة المناوبة، وهي غرفة صغيرة، واطئة، مدخنة، الى اليمين في الفناء، مع رسوم فاسقة بلون عصير التبغ. وعاد بعد لحظة، وكان الصغير يُعطى مصلاً، لكن، لكن كان أول القادمين مينستريل وزوجته: وكانت ماري قد أبلغتهما. وكانت زوجته فتاة جميلة، نحيفةً وشقراء لقد هزّ النبأ السيدة مينستريل فألقت طائفة من الأسئلة، لكن كيف حدث هذا؟ كيف خطر له أن يتدخل في هذه المشكلة؟ وكان مينستريل يذرع الغرفة طولاً وعرضاً، وهو يشدّ على عصاه بكلتا يديه. قال ماكان لمجيئنا من فائدة. ولن نُسوي شيئاً. وكان على الطبيب المناوب الطالب قراءة، فغيّر مجيء مينستريل بالنسبة إليه، مظهر الأشياء، وفي غضون ذلك، دخلت ممرضة تبحث عنه.

كان اوريليان قد تملكته فكرة أن بول قال:

«سأقتل نفسي» قبل المأساة بالذات. وحاول أن يروي ذلك، هتفت السيدة مينستريل. «هذا انتحار، إذن»، وقال زوجها: «مهلاً، مهلاً، فهناك كلمات لأتقال جزافاً هكذا.. ثم إن ماري جاءت تسأل عن الأخبار... أصبحت صالة الحراسة صالوناً... وكانت ماري تثير الشفقة، هكذا، في الليل، كان عمرها مئة عام. وقد وضعت على رأسها أول قبعة صادفتها. وكانت تقول: «هذا الغبي الصغير... هذا الغبي الصغير...».

نزل الطبيب المعاون الطالب بوجه ملانم للظرف، الجريح... أليس من عائلته أحد؟ وأخيراً مات بول ديني. وقد نزل كثيراً في الطريق... ثم... التدقيقات التشريحية... في هذه اللحظة دخلت الأم، وهي امرأة في الخمسين لادم تحت جلدها، رمادية الشعر، هزيلة. بطقم عاتم. اعتذرت، «أسنير» ليست قريبة. السيدة هي التي اتصلت؟ خاطبت السيدة مينستريل، لا... تقدّمت ماري، وأمست بيدنها. وشهد فجأة رجل كبير يدخل خلفها، شاربه اشقر متهدّل، وعمره لاسبيل الى تحديده، وقد ارتدى مشمعاً طويلاً ولفّ على كفه شارة الحداد، ووضع على رأسه قبعة سوداء وهو مصاب في وجنتيه بعدة وردية. قدّمته السيدة «ديني» للجماعة. أخي جان بيير بيداريد...»

اوه، من هذه المشاحنة التافهة، لم تفهم الأم. هذه البرجوازية الصغيرة من «اسنير»، امرأة الموظف، التي ألقى بها بين هؤلاء الناس، كانت على ثقة من أن هذا الابن الوغد قد ارتكب حماقة من حماقاته، وكانت مستعدة لتشكو منه، لتوبّخه. وفجأة لم تجد من توبّخه. كان الأمر يتجاوز حيل الصبي القذرة، كانت القصة شبيهة بما في الصحف، معركة في الشارع، وهو جريح. لم يجرؤ أحد أن يقول لها الحقيقة. انفجرت، وقالت لأخيها «أعتقد ان ذلك من صنع «مينيستريل» أيضاً! زاد ذلك في الضيق. لاشك أن مينيستريل كان في نظرها، القدوة السيئة لابنها، وفجأة أخذت ماري تنتحب. وفي هذه الليلة، أفلح الطبيب الداخلي وأوريليان في أن يقولاً للخال همساً ان الصغير قد مات.. رفع السيد «بيداريد» وهو يرتجف، قبعته ليخفي وجهه وتتهدد: «جانيت!» نظرت إليه أخته وفهمت، كانت شفتها كشفت ابنها، الشفة الغريبة، اقتيد الخال الى الأعلى، الى جانب الجثمان، ولعل الأفضل ألا تراه أمه... أو ألا تراه على الفور.. أرادت ان تذهب إليه.

ظلّ أوريليان وماري، ومينيستريل وزوجته وحدهم. قال مينيستريل. «الأفضل ان ننصرف، فنحن هنا زائدون عن اللزوم». جنّ من اتهام الأم الأحمق. أصرّت امرأته على البقاء لمعرفة التفاصيل من الطبيب الداخلي. وكانت

تبكي برفق، ليتهم يستطيعون أن يخبروا «فريدريك».. فهو يحب أن يرى صديقه، بالتأكيد.. قال مينيستريل إن الأمور هكذا حسنة، ولا جدوى من ذلك... تهالكت ماري على كرسي. وكان أوريليان ينظر الى العتمة، وجبينه على الزجاج. عاد الخال مع الطبيب الداخلي. وقد اصطنع لهجة المحقق. أراد أن يستوضح. آه، هذا السيد كان مع بول؟ وأصاب ليرتيلوا شك الأسرة. أجب ليرتيلوا بغموض. ماجدوى تأجيج الهذيان الذي يوشك أن يولد. لم تسو عودة الأم شيئاً. وهي تود لو تنقل ابنها، وألا تتركه في هذا المشفى الفظيع، الحزين جداً. الحزين جداً. أن تأخذه الى البيت، مع الورود والشموع والأصدقاء الذين سيأتون ليمروا أمام جثمانه، والدموع الحارة التي تنهمر بين أربعة جدران في بيتها. رفض طلبها هذا. فالشرطة لاتسمح، ويجب الانتظار الى اليوم التالي، من أجل الشكليات، لأن هاهنا جريمة قتل. كيف جريمة قتل. وإذن فالأمر ليس حادثاً عرضياً. التفتت الى الحاضرين على نحو مأساوي، وتقرست فيهم من كان القاتل فيهم؟

حاولت السيدة مينيستريل، وهي ترتجف بشدة، وعيناها ملتفعتان، وقد أمسكت بيديها، أن تشرح لها في ضرب من الاندفاع - ابنك بطل، ياسيديتي.. لقد أراد أن يدافع عن الزنوج... يدافع عن الزنوج. جئت السيدة «ديني».

طردوا برفق، لكن بعزم. على الرصيف، تفرقت الجماعة، بشكل يدعو الى الرثاء، وفي بلبلة من العواطف. عادت الأم لتتنظر الى جدران المشفى، وقبة المدخل الهائلة الضيقة والعالية، والنافذة التي خلفها، في مكان ما. يرقد جسد ابنها المهجور... وكان صوتها المتهدج بالنعيب يعلو في الليل، بينما كان الرجل ذو المشمع يجرها الى تاكسي أحمر توقف على إيماءة منه، وكان نازلاً من الضاحية. وشهدا وهما ذاهبان من شارع «فريدلاند».. هز مينيستريل كتفيه. «عندما أفكر فيما كان «ديني» يقوله عن أسرته! وصلوا الى المحطة. أوريليان عزم على مرافقة ماري، وصعد مينيستريل وزوجته الى مونا رتر.

سألت السيدة مينستريل زوجها: «أتظن أن فريدريك يعرف عنوان هذه المرأة...؟ ينبغي أن تخبرها.»
هزّ مينستريل كتفيه.

اضطّر ليرتيلوا في اليوم التالي إلى الإدلاء بشهادته في مفوضية الشرطة. كانت القصة بسيطة. ومَرّت بشكلها الصحيح. لكن صحف المساء وضعت يدها على القضية. بدلاً من ثلاثة أسطر في صحف الصباح تمّ إخراج حادث «ساحة بلانش»، وحصلت تلك الصحف على صور «بول ديني». وتحدثت عن جماعة «مينستريل». أوه! هذا مما لا جدال فيه. وفي اليوم التالي، بالغت صحيفة «الباريسي الصغير» في أهمية الحدث، ثم استمرّ ذلك إلى المساء، في أدنى الصفحة في صحيفة «المتشدد» بعد ذلك، صار الحدث من التاريخ القديم. وجري الكلام عن حوادث بين البحارة الأمريكيين والسود في هونمارتر، لكن دون كبير إلحاح. بسبب السفارة.

الدفن. لن ينسى أوريليان في زمن قصير هذا الدفن... وجد نفسه مضطراً إلى المشاركة فيه. اسنير.. الحرّ... هستيريا النساء في خمرهن يُحطن. بالأم... رجال الأسرة... ونحو أربعين شخصاً، عالم «ديني»... في وسط ذلك أحسّ أوريليان بنفسه كالعاري. إحساس غريب. هذا القطيع الصاخب، الثرثار، المتباكي. بحث عبثاً عن «مينستريل»، جميع مَنْ في الجماعة امتنعوا عن المجيء، التزاماً بمبدأ. فهم ضدّ الدفن. حتى فريدريك، لم يكونوا على خطأ. وبعد القاء التراب على النعش، وعندما حيا أوريليان آل ديني وشركاءهم المصطفين عند باب المقبرة، تقدّم السيد «ديباريد» نصف خطوة منه، وانكسر مثل قطعة من الخشب اليابس، وهمس عبر شاربته: «أشكرك على مجيئك، سيّد ليرتيلوا... وستكون أختي المسكينة حساسة لهذا التكرم...»

خلف أوريليان، كان زوجان من الأمريكيين لا يعرفهما أحداً. الرجل بلا قبعة، بوجهه الضخم الحزين، وامرأة صغيرة مقرّنة، مرّاً أمام الأسرة دون مصافحة. كان الزوجان «مورفي» موزعين بغرابه بين الحزن الذي انتابهما والدهشة التي واجهتهما بها التقاليد المأتمية للبرجوازية الصغيرة الفرنسية.

ذهب ادمون رأساً الى ماري يتحرى الأخبار، المسكينة، عبثاً هجرها بول.. لقد كانت في حالة عصبية مرعبة جداً، أهملت كل شيء، وكسرت كأساً كبيرة ثمينة كانت تحرص عليها أشد الحرص: «ساقول لروز أن تأتي لتراك...» أه! هذا، لا! أحب روز كثيراً لكن.. هناك مناسبات.. روز رقيقة القلب، لكنها مضايقة. طبعاً أنت... المسرح، لايشدني، في هذه اللحظة!

كم كانت ظالمة! روز التي تتصف بكثير من اللباقة، تحدثنا عن روز، لكنها لم تكن هي المقصودة. ولم يكن ليخطر لإدمون إطلاقاً أن يسمي ابنة عمه، بيد أن ماري انفجرت. لقد قتلته، ادمون، لقد قتلته! وكانت السيدة دي بيرسيغال تكره بيرينيس، أه، قصة الزنوج غير واردة! لقد تحدثت مع ليرتيلوا، فقال لها كانت آخر كلمة من بول. «سأقتل نفسي» وإذن! انتحار. بسبب هذه المرأة، والغيرة غير واردة. لقد قتلته، وهذا كل ما في الأمر.

أراد ادمون ان يقف على جلية الأمر، فذهب يستنطق اوريليان، تعب حتى لقيه. هاتفه لم يجب، كان مشغولاً، مشغولاً، لعله رفع السماعة. وعندما أدركه وهو يثب من سريره، في ثاني يوم، كان الآخر سيء المزاج، ولم يستخلص منه شيئاً. كان ذلك حادثاً، منعكساً من هذا الصبي غير المعقول... لا، لاشيء يريد أن يبلغ السيدة موريل به من جانظه، لاشيء. وفكر ستكون مسرورة أن يقتل وول من أجلها، هذه المرة، حصلت على المطلق (في الحب) يا للحقارة!

أقبل وفد من أصدقاء الميت الى جزيرة «سن لويس»، جان فريدريك سيكر، مينستريل، وآخران، أرادوا أن يكونوا فكرة عن الحدث، وأن يحدوا من الروايات المختلفة.. بدا فريدريك متأثراً متأثراً جداً، وأسبغت عليه عيناه هيئة سمكة مطاردة.. وكان في نيتهم البحث أيضاً في «جيفيرني»، في الطاحونة، وفي منزل مورفي، كما أنهم سيذهبون ليسألوا السيدة «دي بيرسيغال»، وقد وجد اوريليان في لهجتهم التفتيشية براءة قد تغنوكريها. بقوا هنا أكثر من ساعتين وقد ملؤوا البيت بالدخان وبأعقاب السجائر، ثم جاء دور «فوشز» عند اوريليان، أراد ان يعترف له اوريليان، وكان لديه مخطوطة صغيرة غير مطبوعة

لبول ديني، ولا بأس بها في عدد «الكوخ» القادم، لكن لا بد لها من تمهيد أنت الذي كنت أحد أصدقائه.. كان هذا مطلباً فوق الطاقة، ولم أكد أعرفه، لكن قصة الزوج أخيراً، ماذا تُبطن؟ طرده اوريليان.

تسرّع فوشن حين أعلم بذلك كله «ستيفان دوبوي». كان يشارك مشاركة غير منتظمة في مجلة اسبوعية مسرحية وأدبية كانت دائماً في عجز مالي، وفُتن مدير هذه المجلة بأنه سبق فوشن الى القضية، وقد نشر جنباً الى جنب مقالة لرينيه ماران حول المسألة الزنجية، وورقة دوبوي، المزوجة بجميع صنوف الاعتبارات حول جماعة ساحة «بيغال»، مينستريل، والتشاؤم والدادائية والأصول «الميونخية» لذلك كله، والأشربة المقبلة التي كان يتناولها الميت. شراب المائدارين الخالص. وكان فخوراً مع ذلك بأن يريك بأن ذلك كان يقرض رخام الطاولات، بصرف النظر عن التحليل النفسي، «فرويد»، شاركو، والزئوج، الشكل الجديد أيضاً لعقدة اوديب .

جرى اجتماعٌ مستعجل في منزل «مينيستريل». ثار جميع أصدقاء بول، ولاسيماً فريدريك، ما أردوا هذا المقال و«دوبوي» قذارة حقيقية.. وجرى الحديث عن تحطيم أنفه، لن يُسوّى ذلك شيئاً وقد يكون له استطلاعات غير مرغوب فيها. ثم إننا عندما ندافع عن بعض الافكار فلا يجوز لنا أن نتوسّع، وأعدّ مينيستريل جواباً توجه به الى مدير المجلة، يردّ فيه على المثال نقطة فنقطة، قرأه، جيد جداً، ممتاز، لكن ذلك لا يكفي، لابد أن بول ديني قد مات من أجل شيء ما، الانتحار، المصادفة، كل هذا جميل جداً، لكن عمله كان تلقائياً، هنا يكمن الشيء الأساسي، «الفعل التلقائي» آخر جواد في المعركة التي تخوضها الجماعة، وفي النهاية، تقرّر ألا يُترك المجال للناس، لأحد، كي يستغل هذا الموت، كان الموت يخصّهم، ومن حقّهم أن يهبوا هذا الموت معنى، سيُصدرون بياناً، يجتمع أربعة او خمسة ويحرّرون بياناً.

في هذه الأمسية، كان هناك واحدٌ تصرّف تصرفاً غريباً. هو زامورا، لقد تبدّل بشكل مُقرف، لقد قطع الحديث ليروي حكاية ويتكلم عن ساقى راقصة

الحاصل أنه لم يُجار الجوَّ على الإطلاق. والسيدة «غودمان» التي لم تقل شيئاً. والتي خرجت عن صمتها في نهاية الأمسية لتتحدّث عن «روز ملروز» و«شارل روسيل». وبالمناسبة فإن هذا الخياط قد جاء ليرى «مينيستريل»: كان مستعداً لأن يشتري كل ما لعله مرّ بيد «بول ديني». المخطوطات والقصائد والرسائل.. وحتى الموسيقى المنسوخة... احتجّوا، لكن أحدهم استرعى أنظارهم الى أن الأفضل لذكرى بول أن يُجمع كلُّ شيء. وسيوصي «روسيل» بمجموعاته لمدينة باريس. وهنا انتاب زامورا ضحكٌ جنوني في غير محله. فخاشنه مينيستريل. وكان الرسام شديد الخبث، فاتخذَ الحديثُ مساراً ساماً، ورمى أحدهم الآخر بأحقاده القديمة. بأشياء كانت تُظنُّ منسيّة، بل كانت تُظنُّ خافية على النظر. السنة الماضية في «الباليهات الروسية»: وعندئذ لم يجد «مينيستريل» مايقوله وهو الذي.. كان الفراق بينهما أقرب الى البرودة.

نتجّ عن ذلك ان عدد المجلّة التالي نشر ردّ مينيستريل بخط صغير مع حذف لبعض المقاطع، في زاوية من المجلة، في حين أن الصفحة الأولى نشرت مقابلة مع «زامورا» مزينة بصورته. وبلوحات له، ويرسم يزعم أنه بول ديني، وصورة خاطفة التقطتها «زايس» السيدة «غودمان» في السنة الفائتة، وفيها يرى «بول ديني» في «توكيه»، وزامورا وفتاة اسبانية، في منزل السيدة «دي بيرسيغال». وكانت المقالة مسرفة السخرية، تهزأ من «الفعل التلقائي»، وأعلن زامورا أنه كان يعرف التحليل النفسي قبل «فرويد»، وروى قصةً عن كلب الأوكار. كان ذلك قطيعة مع مينيستريل وأصدقائه الذين اختلط بهم، كما يقول لأن العفونة صحيّة، ولاسيّما عندما نستحمّ بعدها جيداً. وصرّح: «على العموم، إنني أبذل أصدقائي كما أبذل جورابي، لأن ذلك أنظف».

ثم تطرّق الى موت «بول ديني»، واستنكر الصخب الدعائي الذي أراد أصحابه الصغار أن يثيروه. والواقع أن القضية لم تكن إطلاقاً الدفاع عن الزنوج، ولا تلك الرومانسية المغشوشة، القديمة قدم القاطرات. لقد انتحر بول ديني من أجل امرأة، كل الناس يعرفون ذلك لكنهم، لايقولونه، لأنهم يجدون هذا

الانتحار قد عفا عليه الزمن. ولا شك أنه قد عفا عليه الزمن كالبطاقات البريدية، وسوق الأشياء العتيقة، الخ، وإن كان سائداً لدى الرجال المزيّفي الحداثة، هؤلاء المدّعي الفن الرمزيين المتخلفين، لكن «ديني» كان ضحية، ضعيفاً عانى جوّ ساحة «بيغال». ولم نعد بحاجة إلى هذا، ولا إلى الفن الذي يعكس تلك العادة المدبّرة، عادة قرص الأظافر. وكانت مناسبة ملائمة له ليصفّي حسابه مع الطليعة كلّها التي كانت ترعبه، وفي الوقت نفسه مع «بيكاسو» عدوه اللدود. وقد مزج «كوكتو» بذلك كله لكي لا يتعرّف على الأمر أحد.

وهنا سألت المقابلة. «وتلك المرأة الخفية؟... إن لم يكن في ذلك شيء من الفضول!» تصنّع زامورا اللباقة، لكنه شرح في طريقه أنه يعرفها جيداً. وأنها امرأة مثيرة، كان قد رسم صورتها. وأنها عاشت مع المرحوم في «جيفرني». وأتاح له ذلك التعرّض «لمونيه» بالنميمة. ومن الواضح، أن هؤلاء الشباب مازالوا مفتونين بالنيلوفر. ولاسيما بتصوير «برنهيم».

وفي رأي زامورا أن «الجميع كانوا يعلمون» أن «برنهيم» ذاته (وكان يمارس الرسم الذي لايزيد رداءة عن غيره باسم جورج فيلييه) هو الذي كان يبتكر جميع اللوحات ويبيعها ويوقع عليها باسم «مونيه» ديغا، سورا، ماتيس، روسيل... بحسب مزاجه اليومي. وكان زامورا، شخصياً، لا يجد أي مانع في ذلك، وكان، على الأغلب يكلف السيد غودمان أن يعمل له لوحاته إذا ما أراد برنهيم أن يعمل لوحات باسمه... على كل حال، كان لابد من فن جديد، إذا ما أريد الخروج من ذلك كله، كفن زامورا يكون فيه كل شيء جديداً، مطلبياً بالنيكل، كيميائياً -كهربائياً، مع أولاد جميلين بطحين «نسله»، دون أي ظل من التكعيبية والانطباعية، والوحشية على وجه الخصوص.

صدر بيان «مينيستريل» في هذه الأثناء. لكنه تأخراً كبيراً عن أن يحسب حساباً لهذه المقالة الرعناء التي أثارت أشد الغيظ.

هاج فرديريك سيكر. أن يُستخدَم بول هذا الاستخدام! «ولاحظوا أن أسوأ ما في الأمر، محاولة الإغراء إزاء «برنهيم»! أن ذلك القدر يأمل أن يثير

اهتمام بائع اللوحات بتصويره، وهو الذي استعصى عليه إرضاءه! جاء «جان بيير بيداريد» الى جزيرة «سان لويس» ومعه عتادُه: الصحف والمجلات والبيان... وصاحبُ بدا عليه أنه يُجلّه، وهو رجلٌ في الأربعين يرتدي بنطالاً مقلماً، وسترة رمادية حديدية، وقبّعة قش، رجلٌ حليق، مقرن الوجه، دبّ الشيب الى رأسه، وبدا عليه كأنه ممثّل من الضفة اليسرى، وفي يديه خواتم، وهما تتحركان بجملة من الحركات العريضة. كان هذا بكل بساطة، «ارنالد دي بفيستر»، الروائي «دي بفيستر». البسيكولوجي الكبير. ذلك أن هذه الحالة تتطلّب بسيكولوجياً.

قال السيد «بيداريد»، وهو يخلع مشمّعه:

- أنت تدرك لماذا جئتُ بـ «ارنالد دي بفيستر». يجب أن نقف على جليّة

الأمر، ولي أعظم الثقة بكاتب «الوحش ذو مئة الوجه». تحية سريعة.

أجاب السيد «دي بفيستر» ببعض إيماءات بخواتمه، تتم على التواضع.

«لا تقلّ لا، يا عزيزي، أنت تعلم أنني أثق بك!

كان المنكودُ الحظ اوريليان بين هاتين الدميتين، في شقّته التي اجتاحت،

وقد أُلقيت تلك الأوراق على الطاولة. وردّ السيد «دي بفيستر» شعره الطويل الى

الخلف، وهو يمسّده بيديه. كان الروائي يكره «مينيسستريل» وأصحابه وكانت

قضية «ديني فرصة لامثيل لها، وكذلك تعدّد الآراء بصددّها. وقد هاجم هجوماً

لاذعماً جداً ربّ البيت الذي لم يسعه إلا أن يكون أحد أولئك الطليعيين

المضحكين، ككلّ أصدقاء الميت. وخلق ذلك سوء تفاهم لانهاية له. وعندما ردّه

اوريليان عن خطئه ردّاً لا يخلو من مشقّة، تضجّر ذلك البيسكولوجي، لكنه غير

لهجته. وكان على اوريليان أن يكابد خطبةً عن اللاشعور والشعور وماتحت

الشعور. والنزعة الجنسية الشاملة، نعم، ياسيدي، النزعة الجنسية الشافطة!

ما حاجتنا الى ذلك في فرنسا؟ هذا يصلح للانجلوسكسون المصابين بالإمساك

أو الجرمان السكندنافيين المتجمّدين! كان السيد بيداريد يهزّ رأسه، ووجد أن

هؤلاء الشباب قد ضلّوا الطريق قليلاً. ومايودّ أن يعرفه هو لماذا ضحّى بول

بنفسه كما يقال، ان كان عاشقاً لامرأة راقية. من أجل الزنوج. وهو في الواقع

قد أنقذ امريكياً! بوجاء الناس يقولون ذلك لأمه المسكينة..

قاطعته «ارنالد دي فييستر» كان من أنصار اتلاف.. لا أقول أعمال جميع هؤلاء المستوحين. انظر الى مايقوله «زامورا» وهو ليس بأفضل منهم، لكنه، في النهاية خبيرٌ بهم، وهو رجل بالغ الذكاء ورجل رياضة، واحد، اثنان! وأضيف الحمامات! وفجأة تجمد، وشخص بعينيته، وفغر فاه، وبدت عليه الرهافة، مع تنوع الانفعالات على الوجه، كما نتصور افلاطون داخلاً عالم المثل. قال:

« هذه، هذه» وأشار الى صورة بيرينيس

- أه! لايمكن الآن للسيد ليريتلو ان يحاول التخلص وأن يزعم انه لاعلاقة له مع اولئك المنحطين! أترى، ياعزيزي بيداريد، الطابع العُصابي في هذا الرسم؟ من نوع النُوم، التجسيد، المخدرات، دار المجانين؟ بدأ اوريليان يغضب، أوشك أن يطردهما بلطف عندما أُلّت بعالم النفس إشراقة. لكن تلك السيدة المحاطة بالأسرار! لقد رسم زامورا صورتها! لاشك في ذلك! وإن... الصورة عند شاهد جريمة القتل... لأن ماجرى هو، في النهاية، جريمة قتل...

تنهد السيد «بيرايد»:

- إنه عجيب! هو شرلوك هولمز بلحمه ودمه!

كانت هذه القصة كريهة، ماكان يجب أن تُحشر بيرينيس في ذلك كله. ولو أنه طرد هذين الدخيلين بناء على هذه الملاحظة لهداهما الى الطريق. ولذلك اضطر أن يتحمل أكثر من ساعة، هذه المسخرة، سيلان أفكار الرجل، وهوسه البسيكولوجي، وكرهه، وهزلياته.

في المساء ذاته، استشار دليل الخطوط الحديدية، وجهاز حقائبه، وتأكد من أن جواز سفره لم تمض مدته. قرّر أن يسافر الى «التيرول» حيث يستطيع، مع سقوط العرش، ان يبيع لنفسه جميع أنواع الانحرافات. وسيتخلص قبل كل شيء، من رؤية عصابة المجانين هذه، ولن يسمع شيئاً من ذلك بعد الآن، ثم سوف يعيش في شيء من البحبوحة ليستعيد قواه، لينسى. هناك فوق

«انسبروك». طرقُ على الذرى يستطيع المرءُ ان يمشي فيها ساعاتٍ وساعات
ولاشيء معه سوى الشمس والرياح... سوى الشمس والرياح... سوى الشمس
والرياح... وفي القطار الذي أقلّه، كان يردّد ذلك مثل اسطوانه ممحّوة:
لاشيء سوى الشمس... لكنه كان يعرف هذه العبارة فيماذا تذكره؟ من
المستحيل ان يجد ذلك في دماغه... لاشيء سوى الشمس والرياح...



«انظر قليلاً: بيرينيس الصغيرة التافهة هذه، يتقاتل الزوج من أجلها!»،
هزّ آدمون كتفيه، كانت روز تبالغ برفق، كان يفضل، أخيراً أن تتخلى عن
لازماتها: لقد أصبحت في الأوقات الأخيرة، مزعجة بمسرحها الذي ليس من
السهل تدبيره، كان لابدّ لها من المسرح أولاً، ثم المال، ثم أن يدرّ المال دخلاً وأن
يكون ثمة تغطية، وشخص يضطلع بهذه المهام. قالت بأسف:
- لم يعد الناس يقتلون أنفسهم أو يتقاتلون من أجلي... هل امرأتك في
حالة حسنة!

هزىء، قالت:

- لأنني أشك أنك تخدعني معها، أوه لاتقلّ لا! أنت منحرف، ناوّلني
قميصي الداخلي.

كانت تجهّز حقيبتها، مرة أخرى، لقد عادت قبل قليل من «داكس» من
استشفائها السنوي مع «جيكي» الذي عُيّن في المؤسسة. وقد تركته هناك، كان
هذا هو الموسم الميث بالنسبة الى مؤسسة ملروز، ثلاثة أسابيع في «داكس»
التضحية التي قدّمت «لديكور» كافيةً هكذا، وبعد بضعة أيام في باريس، ولقاء
آدمون فسوف تسافر من جديد، وستأخذه معها الى السويد، وهذه أول مرة
يسافر فيها آدمون هكذا في رحلة.

ستمثّل «روز» جيوكوندا في ستوكهولم، قال: «داننزيو» هذا لا أطيقه!

- أوه! إنه يغار، أنا أعبدك! لكن لاتنسّ مسرحي..

- سيهتّم أدريان بذلك أثنا سفري..

- وهل عوفي تماماً، سافه؟

- أوه! إنه ما يزال بحاجة الى عكاز، لكن في النهاية...

- أنت مدين له، لاسبب الصغيرة فقط، الحبيبة الصغيرة! لكن تصوّر

الأنغام التي كنت ستسمعها من امرأتك لو دهست الصغيرة! أوه ويا للضجر!
أحبّ ألا أفكر في ذلك...

غيّرت علاقاتها طابعها، وربما كان ذلك لتعويض فراق الشتاء: غدت أكثر

ألفة وحميمية. كان ادمون ينفصل كلياً عن بلانشيت التي هدأت الآن وأقلعت عن أسئلتها. كان يملّ معها. كان شهر اب بديعاً في ستوكهولم. لقيت فيها روز فتى جماله صاعقاً، وعلى شيء من الرخاوة، وقد أغرم بها. وفوق ذلك فقد كان يملك كل ثقب البلاد. وقد عرض عليها ان يشتري لها مسرح «الشانزليزيه». كان هذا المسرح محط أنظار الناس في ستوكهولم بسبب الباليهات السويدية لجان بورلان. ويمكن ان يتم ترتيب مع «رولف دي ماري» الذي قد يستخدم الاوبرا، الصالة الكبرى. قال ادمون:

- اصغي، يا صغيرتي إن أعجبك فضايجيه، لست أبالي؛ لكن إن أخذت ماله فسوف ينتهي الأمر بيننا. وإلا فكيف سأبدو؟
قبلته: «أنت مضحك جداً أنت تعجبني، ثم إن المرأة لاتخدع رجلاً له مالك من متاع جميل.

وأي متاع جميل لبارينتاتان! لكنه أبرق أخيراً لأدريان ليقوم بما هو ضروري من أجل المعهد الرياضي إن لم يأخذه «برنستين». فليكن، المعهد خير من مسرح «الشانزليزيه».

على كل حال لم يكن تاجر الثقب شيئاً ذا بال في الفراش... ثم النرويج... ممثلة مثل روز ملروز، ولا تعرف النرويج! بلد «ابسن» تفهمين. وإن فقد ذهباً الى النرويج. وكتب «ادريان» أن الأمر لا تسير سيراً حسناً في مجمع الشركات مع جماعة «بالميد»: معارضة مطلقة في قضية بيع الوقود في باريس. ياه، ماعلى أدريان إلا أن يهتم بهذا المجمع الذي لم يكن بهم ادمون إلا بمقدار ما يضمن حريته. فإذا حدّ من حريته فليذهب الى الشيطان! فلسنا من الأخساء. وفي غضون ذلك، لم يذكر أدريان المعهد. وإذا لم نستطع ان نحصل على المعهد فمن الأفضل ألا نحترق مسرح «الشانزليزيه».

- لكن بما أن «ايغار» ليس شيئاً ذا بال على الفراش، يا عزيزتي؟

- ليس شيئاً ذا بال. ليس شيئاً ذا بال؛ لست مهتمة الى هذا الحد كله!

وصلتهما كلمة من ماري وهما في «نرويك»، وفيها تمزج بين قصص عن

العطور وبين حزنها على موت بول. وتحدثت كثيراً عن هذا الموسيقي الشاب، صديق المرحوم، جان فريديريك ماشنشيويث، ولاشك أنها ضاعته. لكن الدكتور كتب الى زوجته رسائل تفتت الأكباد... أرادت روز أن تعود، سيطلعون على حقيقة أمور المعهد، وهي مدينة ببعض الأيام «لجيكي». خنزير ادمون، أي متاع متاعه،

- اسمعي، لاهدوء للمرء معك، أنت لاتفكرين بغير مسرحك...
- وبزوجي، فأنا مهمومة له، ثم ماذا تفعل بي، إن لي حرفتي.
- ومؤسسة ملروز؟ لعلها ليست شيئاً وسوف يشغلها جيكي.
- لم أقلُ ليست شيئاً، لكني لم أخلق لكي لا أكون سوى ماركة العطور... عند عودتهما، في ايلول، لم تكن بلانشيت في شارع رينوار. لقد قادت الصغيرتين الى دارتهم في «بيارتيز»، وجرّت روز «ديكور» وراءها. وكان يتكلم بالأرقام طوال الوقت. المؤسسة تسير سيراً حسناً بل مفرط الحسن. ولا يبدو أن العطلة وموسم «داكس» قد خففت من ذلك السباق الجهنمي. ولا بد من طلب أموال جديدة للتداول، إذ أن الطلبات قد تجاوزت الحد توتر لقد فقد الناس إحساسهم وتعقدت قضية المعهد، وكان الأجدر أن يكون المشروع أصغر، لكن روز هنا، تنهياً للمشاحنة، فباريس في الصيف تؤثر الأعصاب. ولا سيما أنه قد تشكل في شركة السيارات تجمع من المساهمين الصغار يطلبون الحسابات، وينوون ان يدسوا أنوفهم في كل مكان. ويصيحون ضد مختلف الشركات العقارية، ويتحدثون عن الرسمة.

قال ادمون لإدريان:

- سأصبح عززاً إن بقيت هنا. اهتّم أنت بكل شيء. وسأفكك، بالمناسبة؟
قلّما كان يظهر بها.. يممّ باربنتان شطر «بيارتيز»، كبرت الصغيرتان، كانت أهمها متحفظة، وبدت متخدرة، كأنها في حلم. في الكازينو كان اللاعبون موسرين، كان ادمون محظوظاً، وكانت «ديان دي نيتتبرج» رائعة «تختال بين الطاولات، ولم يكن «شلزر» بعيداً جداً. كانت ترى كثيراً مع مصارع ثيران، مما

دفع الناس الى التقوّل، فاجأت «روز» ادمون، لقد أخذت غرفة في «سان جان دي لوز»، وعندما رأته يقامر غضبت، «ترفض مسرحاً لي وترمي بمالك من النافذة، إن لك حظّ الزوج المخدوع، لكن لا كما تفكّر أنت! قضى معها ثمانية أيام في «سان جان»، لم تعد بلانشيت تبالي بشيء، لكن هذه الزحمة! يُسحق المرء هنا، ثم إن اسبانيا قريبة جداً، وهي مُغرية، كانت روز تبدو وطنية متطرفة عندما يحلو لها ذلك، بلاد الباسك جميلة جداً، لكن، لكن... ألا تعني «طليطلة»، تسيئاً لك؟ الى طليطلة، هاجمته بصدد الملعب، انظر الى ما يُكْتَبُ إليّ، لا، انظر! جملة من المزعجات.. «بالميد»، تحقيق عن شركة السيارات، ما أدراني؟ قالت: «لست امرأة أعمال، واست أفهم شيئاً فيها...» حينئذ قصدا الاندلس.

في الأيام الأولى من تشرين الأول، عندما نزلا في قرطبة، كانت اللافتات مازال ممدودة فوق الشوارع الضيقة، كانت الحرارة رائعة، وعند المساء بعنوبته المكسيكية، كان يفوح أريج أشجار البرتقال، وكان كل شيء رومانسياً تلك الحقائق غير المنظورة، وبالرجال المتشبهين بشباك النوافذ التي نتصوّر خلفها حبيباتهم ومربياتهن قريهن، قالت روز:

- أعتقد حقاً أنني سأصبح سعيدة لو علمت فقط أن أمر المعهد سيُسوى، وفجأة إذا ببرقية تستدعي ادمون الى باريس: كانت بلانشيت تطلب الطلاق: «ماذا دهاها؟ سوف أتدبّر الأمر... ابقِ هنا إذا شئت، أما أنا فساذهب.

- اوه! ما أحزن ذلك! لكن كم كنت أود أن أذهب الى اشبيلية، لقد قلت لك من قبل أن امرأتك ليست سوى برجوازية... سنقع في ورطة إذا تخلت عنا!

- قلت لك سأُسوي كل شيء.

- لاتنس المعهد!

لقد كان المعهد هو الموضوع حقاً، بل بدا أنه القطرة التي طفح بها الكيل، وكيف علمت بلانشيت بذلك؟ وهي في النهاية، لاتطلب الطلاق فقط لكنها طلبت أن يتم البحث في أعمال ادمون، بحجة الصغيرتين، ثم إنها مأكرة فعندما كانت تبدو في «بيارتيز» غير مبالية، أرسلت المخبرين على آثاره، في «سان جان

لوز»، دفع حساب السيدة ملروز. وكان يسكن قريبا، وهناك شهادات من الخدم. ثم ألم يعد من السويد؟ كما شوهدا في اسبانيا، القذرة! بلانشيت هذه التي كانت تتظاهر بأنها تكتشف... نعم، إنها تركض وراء فلوسها. قال المحامي له: «نعم، لقد كنت غير حذر».

هُرِعَ بارينتان الى أبيه هل يدرك الوزير ماذا ستفعل الصحافة بهذا الطلاق إذا أعلن؟ والسيارات، ومصلحة الضرائب التي بدأت قصصها بسبب بلاهة صغار المالكين، سألته الشيخ
«وبالميد... ما دخل «بالميد» في ذلك كله...» أه! لايجوز أن نُفاجأ هكذا. لقد شَرَحْتُ لك مئة مرة..

«بالميد، يا صغيري» هو الحزب... وفي آخر مؤتمر صوّتنا معاً، لعله لايجوز أن يضع الراديكاليون العقبات بعضهم لبعض! لن تردّه عمّا هو فيه، وما غاظ صاحب السعادة، على الخصوص، ان الشرطة سيئة التكوين الى حد أن زوجة ابنه أمكنها أن تطلب الطلاق دون أن يُخَطَّر بذلك على الفور. «سوف أشكو ذلك في «الداخلية»، وكيف حال السيدة ملروز؟ «يا الهي! لقد أهمل ادمون التفكير في المؤسسة! ولو أثّرت هذه القصة أيضاً...» وأنت رئيس مجلس الإدارة، لاتنس! هزّ الأب كتفيه، سيحدث «بوانكاريه» عن ذلك كله

ومما زاد الطين بلة أن ادريان لم يكن في باريس. كان شارع «بييه ويل» كئيباً في الخريف... ولم يكن «سيمونو» في المستوى المطلوب. كان مستخدماً ممتازاً، وموضعاً للثقة، لكن بالنسبة الى المبادرات في حالات خارجة عن المألوف! وقد ساد المكاتب زعرٌ ثقيل الظلّ. كانت عينا الأنسة ماري حراوين، وتاه ادمون في ركام الأوراق. سيمونو، على الأقل، كان واثقاً من أن عملية السنة الماضية يتعزّب تعقّب أثرها. لم يكن سيمونو واثقاً من شيء. لايجب أن ينسى مؤسسة ملروز.. كان ينبغي ان يرى ماري، ليرتلوا، وما شنشويت رسّام روز..

كانت ماري تبادل «فريدريك» المودة، وقد لحقت به الى لندن حيث كان يقدم عزفاً منفرداً. وكان العم «امبيريو» متعذراً الوجود لهذا السبب البسيط وهو أنه أراد هو أيضاً مثل اوريليان، ان يستغل الفرصة، ليجدد العهد مع أصدقائه القدامى في ميونيخ. ولقد فصل عنهم طويلاً بتلك المكثبة... ولم يأسف ادمون على غيابهم لأسباب اجتماعية. كان ينبغي له أن يدبر أموره دونهم.. ليس هناك أجر للمؤسسة؟ سيمونوا سيدي؟ «أرسل برقية إلى «آرنو» في «سيريان».. أقال إنه سيذهب الى سيريان؟ وكتب الى «روز» كي تعود. ليس هذا الوقت وقت تبذير المال، أه نعم، يجب ألا أنسى مؤسسة التجميل. الأنسة «أغاتويولوس» في وجنتها دملٌ، هذا يصلح طبعاً كإعلان لمؤسسة التجميل!

أوضح المحاسب لادمون أنه بحاجة الى مئة ألف فرنك لاستحقاق منتصف الشهر. والناس لم يكونوا يدفعون. لنإذا أما «ديكور» فكان يسكر سكرًا شديدًا. وبعد مرور موسم «داكس» لابد من سنة لتتفرغ روز حقاً له سأل ادمون ما الذي فعله بامرأته، سؤالاً فيه شيء من الكبرياء ومن النذال القطيع. كانت جميلة، باريس. لكن ليت اوريليان هنا. إذن لكانت الأمسيات محمولة. إنه شخص مريح جداً ويمكن التفكير معه بصوت عال. لكن ذلك غير ممكن، الآن، إن ليرتلوا مسافر في ألمانيا. فبعد ان انتشى بالجبال، انحدر من «التيرول» الى «سالزكاميرغوت»، ومنها الى «فيينا». ومن فيينا الى برلين. ومادم «المارك» يسير هذه المسيرة فلن يعود قريباً. كان يرسل بطاقات بريدية ملونة وقد وجد ادمون ثلاثاً منها أو أربعاً في شارع رينوار! إنه لمازق حرج! استقل القطار الى بياريتز، فلم يجد بلانشيت فيها. لقد مضت الى «أنتيب». ذهبت لتضع نفسها في حماية حمايتها. وذلك يُميت من الضحك. بلانشيت عند كارلوتا. ليست عند كارلوتا، بل بجنتها. في الجناح الذي بنياه لهما. مع كارلوتا، حسنٌ ستكون كارلوتا شريكة متواطئة معه. في هذا المكان الطريق من بياريتز الى أنتيب جهنمية حقاً مع هذه التغيرات، وقطارات الجنوب الغربي، لا يحتمل ذلك ولانهاية

له!

لبيت سيارته معه على الأقل. كان ادمون طوال الطريق يقدر النفقات،
وكلما فكّر فيها ازداد اغتباطاً بالحصول على دعم كارلوتا. بيد أن كارلوتا كانت
في مصر تغيّر الجوّ. فلم تكذ ترى كنّتها تستقر مع بنتيها في الجناح حتى
انصرفت. هيّا، يجب عليه أن يكابد المشاحنة الكبرى مع بلانشيت.
أخذ غرفة في «جوان ليبان»، وذهب الى الحلاق، فقصّ له أظافره،
ودلّك. كانت «جوان ليبان» في تشرين الأول. تزعزعها ريحٌ عاتية،. خسر عشرة
آلاف فرنك في «الكازينو». هل يتراجع أمام العقبة؟ لقد منح نفسه أربعاً
وعشرين ساعة قبل أن يقرب بلانشيت، ليجعل الجمعة تمرّ... لم يعد واثقاً من
نفسه.



كان الفندق بجدرانه السمكية، المبني للثلج، بارداً في قلب الصيف، وكان أوريليان يضيع فيه بين الممرات المظلمة والجدران المطلية بالكلس، وكان فيه شيئاً من الدير وشيئاً من فندق ملتقى الأجانب لقد عسكر جند نابليون في المنطقة، وأقام مارشال هنا. يقع هذا الفندق في الضيعة بالذات، في قاع الشارع المتسلق من الجانبين. وهو يغص بجمع غفير كُله من الأجانب. لم يكن ليريتلوا يحدث أحداً. كانت تغيظه قلة لباقة الناس. كان لهم طرائقهم في إخراج الأوراق النقدية وفي عرضهم لعشرة آلاف كورون أمام الخدم، والحقيقة أن الخدم كانوا يهزؤون من ذلك، لم يكن ينقص شيء على الإجمال. الحليب موجودٌ والبيض والفواكه وما لا بأس به من اللحم، ذلك فظيعٌ، في المدن على ما يبدو. أما في الريف فالمرء يخلص نفسه دائماً في الريف. ياله من بلد رائع! تلك الوديان المنخفضة مع الشلالات في أعماقها، والسفوح الخضراء، والكنايس المبعثرة هنا وهناك، والقليلة الشبه بالتي في بلادنا، البيضضاء بسطوحها الخضراء، والقبة الشرقية، الغريب الريفى في كل مكان... والبيوت الخشبية، المنخفضة، كلها سقوفٌ. الناس نظيفون، وديعون، مهذبون. وكان أوريليان يحب أن يرد على تحيتهم على الطرقات. أعداء الحقيقة أن ذلك لا يصدق.

فوق «ستيناخ»، كانت الجولات التقليدية التي تحتاج الى بضعة أيام، وكان ليريتلوا يقضي أيامه في الجبال الوعرة والموحشة حيث الدروب غير واضحة المعالم أو قليلة الوضوح، بلا دليل، وكما يتيسر له، بالرغم من نصائح صاحب الفندق المتخوفة. وكان يبلغ المرتفع مباشرة عبر الغابة، وهو مرتفع مستعص على التوقل، ومنه تعلم أن يصل الى خواصر الجبل الجرداء في بلد من القمم. كان يمضي صباحاً قبل الفجر، بحيث يكون في ساعة مبكرة، في حقل «اديلويس» بعد ثلاثة ساعات من التسلق، ومن هناك يلتفت خلفه فيرى تصالب

الأدوية، حتى «انسبروك» في الشمال، وهناك في الجنوب نحو «الدولوميت»، كان هذا حقاً سقف أوروبا، حيث نتشوف سويسرا وإيطاليا، هنا تبدأ الوحشة العظيمة للمرتفعات.

من هنا كان أوريليان يحاول بضراوة ألا يقطع صلته، بالسما، غير مبال بمخاطر التسلق. ومعه عصا علّق بها قميصه، وهو عاري الجذع، بلا قبعة، وقد أحرقته الشمس، مع بقايا ممتعة من ضربات الشمس في الأيام الأولى. كان يسلك هذه الذروة أو تلك أو غيرها دون اعتبار للبركان. أو نصائح صاحب الفندق المضادة. وهذه الذرى جليّة في هذه الانحاء مثل حدّ السيف، وهي تكوّن هنا وهناك أسواراً يعبرها المرء عبر مداخن حيث تنفصل الأحجار الضخمة عند أقلّ نائمة. وقد تخبّئ زواياها المباغته مفاجآت. فيكتشف المرء فجأةً سفحاً آخر، ووادياً مثل ساقية الجبال، وهوة تتلوى فيها أفعى من المعدن تتفتح محارثها عن شلال بحذاء غابة في الأسفل. وبعد ذلك جحيم من الصخور، جيب ضخم من الوحشة، ويعود إلى الذروة، إلى خطّ الفصل بين عالمين، ألف متر هنا، ثماني مئة هناك، عالم من الأغوار تحت قدميه. والشمس الهائلة فوق ذلك كله، تلقي ظلال قمم الجبال وهي تدور في تلك المنخفضات الجبّارة. ولا يلاحظ المرء من ذاته لفحّ نار السماء لفرط ما ينعش الهواء الجلد، وفرط ما يبدو الظل غير جدير بهذه المرتفعات، وأنه إنما صنّع لتلك المناطق المنخفضة، ويؤخذ المرء بنشوة المشي والجهد والصعوبة المقهورة. وهو يكبر بعلو الجبال. أية قوة لا يجدها في العزلة! قوّته في ألا يفكر في شيء، إلى الحدّ الذي يتشبع فيه بالمشهد، إلى الحدّ الذي يغدو فيه عبء عينيه، وعبد هذا العالم النقي وغير المتناسب، بحيث يصبح المشهد فكرنا، وجنوننا، وبحيث يبدو أنه يملّي خطوات الانسان ودقات قلبه، وحركة أفكاره. وعليه أن يراعي، لدى كلّ خطوة يخطوها، يقظة مستمرة لجميع العضلات، ويزعم الأدلاء أنه إذا شاء المرء عبور منطقة الجبال هذه إلى المنطقة هناك، التي يوصل إليها، على العموم، بدورة طويلة، لا عبر الذرى، فلا بد أن يكون قد ولد في هذا المكان. يالها من نكته ساذجة! يريدون أن يظهروا بمظهر من لا يستغنى عنهم، دون شك.

كانت الملاجىء نادرة في هذه الجهة. وكان ينبغي الرجوع الى «التاليه» وهو الملاذ الوحيد، حيث يستطيع المرء أن يستعيد قواه بعد أربع ساعات أو خمس من المشي، وفيه يلقي سياحاً، وفلاحين يتمتعون قبل أن يترنموا ترنماً يملأ الانكليزيات بأعظم الفرح. وكهنة مع جمعيات الرياضيين، أو شباباً في نوع من الرفقة، موزعين في جماعات صغيرة، ونصف عراة، شقراً وبرونزيين، وفي أعناقهم مداليات. أصدقاء الطبيعة، وآخرون مع نساء ريفيات، ألمان على نمط مايرى في الصور؛ القرن التاسع عشر في كتب غالية الثمن. وكان هناك أيضاً معلمون يرتدون القمصان فقط، ويتميزون بطريقتهم إذ يمتنعون عن التحية الفلاحية في طريقهم كسائر الناس. ويبدو أن هؤلاء في منظمات اشتراكية. وكان اوريليان لاينحدر الى «ستيناخ»، على الأغلب، إلا عند حلول الظلام؛ وكان يتعشى في الصالة الكبرى التي تكون فارغة تقريباً. إذ أن اواخر السياح يكونون عند تناول الحلوى، وكان يُسمع في الغرفة المجاورة الشباب وهم يديرون الحاكي.

بيد أنه رأى، ذات مساء، بينما كان يصل الى مدخل القرية في نحو الساعة السادسة، لأنه أحسّ بنذر العاصفة، رأى زوجين ينحدران من الرابية، في مواجهته؛ زوجان مضحكان جللتهما الشمس الغاربة بذهب الاوبريت. كان الرجل متنكراً في هيئة «تيرولي»، عاري الركبتين، بجوب أخضر، وسروال قصير عريض الحمالتين، وصدرة مفتوحة على قميص مطرّز، وقبعة تقليدية عليها ريشة، وهو يبدو كانه فرنسي من زمن غابر، في الأربعين، شارب نحيف، أحمر الوجنتين، يبلغ طوله متراً وسبعين، ومعه كلب «سكاي» يقوده، أسود، شعره طويل وخشن، دودي الشكل، وأذناه مستديقتان. وكان جهاز التسلق في يده الأخرى يكمل صورة هذه الشخصية. وكانت المرأة بفستانها الأسود الموشى بالأزهار، وقبعة القش التي اشترتها مع الفستان من «انسبروك» بعيدة عن أن تكون فائحة بعد الرجل عن أن يكون جبلياً، وقد صبغت عينيها. وخضبت

أظافرها، لكنها كانت فتاة جميلة طويلة، لدنةً يتلوّى عقباها بين الحجارة، تساءل ليرتيلوا: «أين رأيت هذين؟ لا شك أنهما لم يبتعدا عن القرية أكثر من ثلاثمائة متر. وفجأة صدرت عنهما حركات عريضة. وإشارات وصرخات. كانا يناديان اوريليان. لا مجال للشك! كانا الزوجين «فلوريس»، جاريه في رصيف «أنجو»، اللذين لقيهما في سوق مونمارتر مع «كوسي دي بالانت». لقد تعجّرت وحدته. لقي كثيراً من المشقة كي يتفاداهما. لقد استأجرا بيتاً فلاحياً، رُتب على نمط لباسهما. وكان لديهما خادمان من المنطقة. وكان الكلب يأكل معهما على المائدة، وقد قتلها الملل. لم يكونا يعرفان الألمانية، وكانت السيدة فلوريس تُكلم خادميها بالإشارات. قال الزوج بأسلوبه البرقي تقريباً.

- ليرتيلوا، لولا سعر الأشياء الباهظ حقاً من الغباء تفويت مثل هذه الفرصة.. يعيش المرء بعينه... ذكرى للزمن الآتي... لحظة مثل هذه الحياة كان يملك محلاً لبيع القرطاسية في وسط باريس. ومع ذلك كان ينزعج. تبين اوريليان ماسوف يجري، ما يهدده.. فبذل بشرف وسعه لكي يهرب منهم. لقد ضاع بالطبع، ريجين فلوريس. لا سبيل الى غير ذلك. كانت مضاجعةً يفكّ بها نفسه. ولقد كره دائماً هذا النوع السريع منها. ومن حسن الحظ أن الهواء الطلق يعقب ذلك... وجمال جولات استمرت يومين أو ثلاثة، وبلغ رُكام الثلوج في أعلى الوادي، وصعد حتى الحدود الإيطالية حتى «برنير». وتحدث مع حراس مركز الحدود. أه! هنا يُحسّ المرء أن الحرب قد وقعت... لم يعد يفكر في بيرينيس بتاتاً.

ومع ذلك فقد كان يحس بالقلق ينمو فيه شيئاً فشيئاً. ويبدو أن ذلك قد بدأ منذ أن تعرّض لهجمة الزوجين «فلوريس». كان يتعب كثيراً، يا الهي! لكن كانت هناك أمسيات «ستيناخ»، الطويلة، المتباطئة، سحر الليالي الدافئ. وحينئذ يعود الى تسلق المرتفعات، منذ الفجر. كان يستمتع بالتسلق، لكن الغريب أن شيئاً قد انكسر، ولم يعد المشهد كافياً ليملا رأسه. كان يقع له أن

يحلم بمدينة فرنسية صغيرة، مركز ناحية في الجنوب الغربي، مبتذلة ومليئة بالغبار، مع صيدلية في الشارع الرئيسي، وكان يتخيل أواخر النهار، عندما يترك الناس أعمالهم، ويغص ذلك الشارع بالجمع الغفير من الناس لمدة عشر دقائق، وتمرّ بيرينيس، فتحييها جماعة بأسرها من الرجال... «سيّدة موريل» تحيّاتي، سيّدة موريل!« وفجأة يتلقّت حوله فلا يرى غير السماء والصخور، وغير دير صغير، في قاع هذا التيه القاحل الممزّق، الشبيه بكومة من الحمص، هناك حيث تربطه الأسطورة بذكرى «شارل كنت» لأمر لا يعلمه أحد.

هيا، عليّ أن أقول «لريجين» انني أكره ذلك بسبب «فلوريس» سوف تضحك كثيراً، ولقد ضحكت كثيراً.

- كفى حماقة، اوريليان! قلّ لي مارأيك بأخر مقتنياتتي؟
كانت لوحة كنسيّة داكنة برّاقة من القرن السابع عشر «حديقة زيتون»... أضيفت إلى مشتريات الزوجين التي لا تحصى. رسومات فلّاحية بدائية، صور مقدّسة على الزجاج، أصنوفة، أقراط، الخ. قال «غونتران فلوريس»: «إنني أتساءل إن كنا سنواجه متاعب مع الجمر؟ يبدو أن النمساويين قد اتخذوا تدابير تعسّفية لكي لا يتمكن أحد من إخراج شيء من البلد... هتفت ريجين فلوريس» وهي هائجة.

- لا ينقصنا إلا هذا! هل دفعنا ثمنها أم لم ندفع؟ وإنّ! فما هولنا...
ظلت محاولات «غونتران» الخجلة لإفهام زوجته ان فكرة الملكية نسبيّة متعلّقة بالأحداث، دون جدوى. «ثم هل نحن، في النهاية، المنتصرون، نعم أم لا؟» كانت هذه أول مرة يسمع فيها اوريليان هذه العبارة من فم امرأة. وتركت فيه أثراً غريباً. على كل حال لم يكن يحب طرائق الارتزاق هذه بين مواطنيه. لم يكن كثير الفخر بهم، وعندما وجد نفسه وحيداً، ذات صباح، على طريق الذرى الذي كان يحب ان يسلكه، في الشمال الشرقي من سيتناخ، وقد تاه قليلاً عن الدرب، معرّضاً جذعه للريح، وصرّة أغراضه على كتفه، وفي داخلها شطيرتان، وقبالتة

نحو اثني عشر ألمانياً. من الألمان الحقيقيين، كلهم يرتدي اللون ذاته البيج والرمادي الأخضر، ومعهم عدة نساء اكتشفن الأجنبي في هذا السائح الأسمر، فهززن قبضاتهن وصرخن بأن هؤلاء الأجانب سيُطردون جميعاً، وعما قريب، وبينما كان الرجال يُهدّثوهم، ويهمسون إليهن، وكان أوريليان مضطراً أن يمرّ أمام الجماعة على الدرب الضيق بين هوتين، وبه إحساس أن دفعةً من كتف أحدهم كفيلة بأن تلقى به من علو كيلومتر، فلم يشعر حقاً بأنه جدّ منتصر، وشعر بالخجل ولاسيماً بسبب هذا الإحساس فيه، وهو أنه لو كان مكانهم لتسر في نهاية الأمر، شعورهم وأن شببهات «فلوريس» لن يجعلنه يفكر تفكيراً مختلفاً، على العكس. وأخيراً فإن هذا النوع من الحوادث كان نادراً جداً. فقد كان أهل هذا البلد اللطف بعينه.

لقي صعوبات مالية؛ تأخر التحويل الشهري، حماقة المصرف وسقوط «الكورون» في الوقت نفسه... أوه! يمكنه التخلّص من هذا المأزق، لكنه قبل دعوة «فلوريس»، وحل في غرفة الأصدقاء في الدارة. كان هذا البيت فسيحاً. ولم يكلفهما ذلك سوى غسل الأغذية. ثم إن «ريجين» كانت ستحمل رفضه على محمل سيء.

لم يمنعه ذلك من أن يشعر شعور «ليفنغستون» عندما أطلّت من الأفق قافلة «ستانلي»، وذلك حين تلقى رسالة من العم «بليز» الذي قصد «ميونيخ» وانعطف انعطافاً صغيرة عبر «انسبرك» ليرى أوريليان، لكنه كان يطلب منه أن يوافيه إلى هناك، لأن ستينباخ كانت بعيدة جداً عن الطريق... وما أعظم سروره للقائهما في المحطة، العمّ والعمة «مارت»، لم يتغيّرا، كانا شبهين بذاتهما... أه. ان أوريليان يعرف ذلك الطقم العتيق من الحرير الهندي الطبيعي الذي كان «بليز» يخرج كل عام في مواسم الحرارة والعمة في طقمها الرمادي، بحقيبتها الكبيرة وشغلها في داخلها، وعلى رأسها قبعة القش السوداء.

- أنت لاتتغيرين، حمة مارت! أنت الآن مثلك يوم كنت صغيراً، ويوم كنت

أذهب لإحضارك مع أمي والجواد الصغير..

قالت بصوتها الأجش:

- تبدو كالمَّلُون، يا صغيري، لكن هذا البلد ليس لنا!

كانت العمَّة مرتعبةً جداً لأنه قد جرى عشيَّة أمس نوعٌ من المظاهرة عند صِرْحٍ وطنيٍّ «تيروليٍّ» أطلق النار قديماً على جند نابليون. وقد أغلق كثيرٌ من التجَّار حوانيتهم احتجاجاً على الأجانب.

تنهَّد اورييليان

- كأنهم لا يحبُّوننا هنا..

فردَّت «مارت».

- وأنا أتساءل علام يلوموننا!

هزَّ كتفيه، لكن العمَّ أوضح:

- يبدو أنهم يجوعون في المدينة..

الشيء نفسه دائماً، لا لأن لدى العاس أفكاراً، لا لكن عندما ينضمُّ البطنُ إلى الخصومة! يقول اورييليان إن فرنسا وألمانيا سيَّان: الناسُ فيهما ماديُّون على نحوٍ دنيءٍ. وفي هذه الأثناء، من المفرح أن يلتقوا فيما بينهم، لمساءً لاثنين؟ اوه! لاثنين، ياعم، وإن أترككما حتى ما بعد الغدا».



- أؤكد لك، يابني، أنك مخطيء..

كان «بليز» يمضغ التبغ فوق الدرايزين. وقلما كانت تشارك العمة مارت في الحديث، إذ كانت منصرفة الى سماطها الصغير بتطريزه الانكليزي على نسيج خام زائد عن الطوق الأصفر الذي شدَّ عليه، ومن تحت القماش المتسمّع الأخضر والأسود المنقّط بثقوب الإبرة.

- قلت لك إنك غير عادل... مينيتسريل موهوب... ثم لا أهمية للموهبة... فلديه ما هو أفضل منها. ففي كل الأجيال نماذج من هذا النوع. ومن المؤكد أنهم محاطون دائماً بأشخاص غريبين.. وأنا أتذكر، أنني أعجبتُ وأنا شاب، أوه! في زمن الرمزيين، بأشخاص غريبين الأطوار! ونحن نضحك. فيما بعد، عندما نفكر في ذلك... هذا لا يمنع، يا صغيري، من أن مينيستريل، مينيستريل... سوف ترى فيما بعد.

كيف انتهوا الى «مينيستريل» أمام هذا المشهد الهائل، وهذا الضياء الباهر؟ لقد استقلّوا القطار السلكي، وبلغوا هذه المصطبة المترامية الأرجاء التي يشرفون منها لا على «انسبروك وحدها، بل على وادي «الإين» بأسره، والتي يُزعم أنها تُطلّ من بعيد على الدانوب. قدّمت البيرة للعمة ولأوريليان، أما بليز فقد طلب كأساً من الحليب.

- قالت العمة مارت:

- أنا لا أفهم شيئاً ممّا يكتبه هؤلاء الناس.. لكن إذا كان عمك يستحسن ذلك، فلا بد أن كتاباتهم تخفي شيئاً ما. لأنني لاحظتُ: أننا عندما نستهيّن برسّام أو بكاتب، وأنه هو يهزّ رأسه هكذا (هياً، انظر إليه) فبعد عشر سنوات يحدث العكس... والذين لم يكونوا يفهمونه يولعون به، وبليز يذمّمهم ذمّاً شديداً. الحقيقة أن ليرتيلوا لا يابه لمينيستريل! وكان بول ديني هو موضوع الكلام دون أن يسمّياه. وقد ظل «بول ديني» جرحاً مضاعفاً بالنسبة إليه. حتى في

الذاكرة. ربما كان ذلك شعوراً حقيراً، لكن ما حيلته؟ كان هذا الشعور فيه، وكان يقع له ألا يفكر في بيرينيس، لكن موت «ديني» ذاك ظل يحزّ في نفسه، كان شيئاً في غاية السخف، ترك مرارة، تعاودك.

- ليتك ترى، ياعم، عندما جاء «بيداريد» مع «بفيستر»! أسئلة مُمرضة... والواقع أن أصحاب مينيستريل الصغير لم يكونوا مختلفين، بتقصيهم... شيء مثير للغثيان... وعندما أفكر أن سيكر دي فريدرك قد لُزق بالآرمل «بيرسفال»! مسخرة... لكن قل لي...

بدا عليه الضيق، شجعه بليز ماذا، أقول لك...

- حسناً... لقد فكّرتُ... فيك... ألم تكتبُ إليك قط، بيرينيس؟

- بلى، كتبت مرتين أو ثلاثاً، لأشياء بارز، رسائل شكرٍ مع بعض أخبارها، ولا كلمة عن أوريليان. تحدّثتُ مرّةً عن زوجها: «كان أوسيان ممتازاً... لا أكثر.

أه! أخذ أوريليان إلى الحلم طويلاً، كان في قلبه شيء، شيء تعب من حمّله وحده، عاد إليه ألف مرّة، ويجب أن يكلم أحداً عنه ذات يوم... كالعَم... نظرَ إلى العمة، كان حضورها مبعثاً لشيءٍ من الضيق، مع أن ذلك لم يكن، على كل حال، مباشراً جداً... شيء حميم... ثم صه! قال:

- اسمع، وتوقّف طويلاً... اسمع. في المساء الذي مات فيه الصبيّ ديني، روى لي الشيء التالي... أوه! كان الأجدر به أن يصون لسانه! هذا يُظهر مدى ما كان قادراً عليه، ثم... تصوّر أنها باحت بسرّها إلى صبيّ مثله! النساءُ مجنونات.

نقّت العمة مارت.

- لا تحك على النساء!

لاحظ «بليز» بصرامة عليها.

- أنت تقاطعينه.

- ماذا كنت تقول، يا بني؟ يُخيلُ إليّ أنك تدور حول الموضوع.
- أنا؟ لا... ذلك لأن... يعني أن هذا ا لحديث مثيرٌ جداً... وربما كان
الصبيُّ كاذباً، على كل حال...
- طال انتظارنا عبثاً لهذا الحديث..

- عفواً، أجل، في المساء الذي مات فيه، لا أدري كيف ورد ذلك، الحاصل
أن بيرينيس قد قالت له، على حدّ زعمه... وكانا في السرير، على ما أفترض...
عفواً، يا عمتي!
صاحت:

- ما هذا! أنت تتصنّع معي! إذن كانا متضاجعين، كما قلت؟
احمرّ اوريليان تحت سمرته، واستأنف ببطء: «فقالَت له بيرينيس فجأة..
وأعتقد ان هذه هي كلماتها نفسها، وعلى أي حال إنها كلماته هو نفسه.
«لايمكنك أن تعلم كم هو رائع الرجل الذي له ذراعه...»
صمت، ثم همس ايضاً: «لايمكنك ان تعلم...» كان مغتماً. كان امبيريو
يهزّ رأسه، لقد صُدم. ومن حقّه ان يُصدم. بدا الصمتُ منكراً، كان منظر
الجبال العريض يلمع مثل دكة من جلود العظايات.
أصدر العم بشفتيه صوتاً قريباً من: باه! باه!... ثم حك أنفه وكان
مُجعداً، ومع بقع من الشمس ممتزجة بتضاريس الجلد، ودمدم: «إنه لمن سوء
الذوق ان يحدثك «ديني» بذلك!»،

وضعت العمّة طوقها وشغلها على ركبتيها وصاحت:
- آه! من الرجال! لا، لكن انظر الى هذين! يا لهما من منافقين! أما أنا
فأجد ذلك جدّ طبيعي، من هذه الصغيرة... لاتحملكما فيّ هكذا.. إنه لمن المُفرزع
ان تثورا عندما يقع لامرأة ان تقول شيئاً مباشراً.. حسناً، مارأيكما لو قلت
لكما الشيء الرائع الذي كنتُ أجده في الرجل؟ لاتقلب سحنك هذه، بليز! لقد
نسيْتُ تماماً ماالشيء الرائع الذي استطعت أن أجده لديكم، أنتم الرجال!
غير العمّ الحديث، كانت قادرةً على أن تقول كلّ شيء، واوريليان...

اوريليان في الحقيقة تربى تربية مختلفة.

- قل لي، تلقيت رسالة من ذلك السيد «ارنو»... أليس اسمه ارنو؟
من أجل مؤسسة التجميل...

لم يقل مؤسسة ملروز، وألقى نظرة على «مارت» التي كان تعالج إبرتها،
وتهمهم أنها لو كانت هي بيرينيس الصغيرة تلك.. قرب العم كرسيه من كرسي
«ليرتيلوا»

- لا أدري ما الذي يريده مني... لكن لدي انطباع.. انطباع فقط.. أن
هناك خللاً ما...

الخلل بالنسبة الى ليرتيلوا هو أنه طلب تحويل مخصصه الشهري عن
طريق المصرف.. إذ لم تكن الحوالات تُحوّل الى النمسا... وأن ذلك قد امتد
طويلاً، وبما أن الدفع لم يكن يجري بالفرنك بل بالكورون وأن الصرّف.. يكون
بتاريخ الإرسال وأن الوقت الذي تسلم فيه المال كان الكورون قد انهار فيه.
انهار... لقد سرقت وكأنتي في غابة.

قال النادل الذي دفع الكؤوس بفرنسيّة صحيحة جداً: «هؤلاء السادة ألا
يريدون أن يجددوا مشروبهم» ابتسموا، كان واضحاً أنه أجنبي.

وبعد ذلك فقط، تجرّ العجوز امبيريو، بينما هم عائدون الى «انسبروك»
ان يطرح سؤالاً كان يردده في فمه منذ زمن بعيد: «قل لي، يا صغيري، هل
تألّمت كثيراً؟ وهل انتهى ذلك على الأقل..»

- نعم، أظنّ، في الحقيقة... إني لا أفكر في ذلك بتاتاً، أو على الأقل إني
لا أفكر في ذلك إلا نادراً، بل إن من المضحك أن يتخلّص المرء من ذلك بتلك
السهولة.. عكس ما كنا نتصوره.. لم أعد أفكر في ذلك، هذا كل ما في الأمر...

صمت اوريليان صمتاً لالحالم، ثم

- بيد أن الكلام على ذلك يعود معه.. مثل شظايا قنبلة، شظايا صغيرة
يتركها الجراح. ننتزعه وهي معنا، ثم قد يتفق لنا أن نضع إصبعنا عليها...
سعل العم سعالاً خفيفاً، قال.

- عفواً... ماكان ينبغي لي أن..

- لابد من وقت الى آخر أن نعلم أين بلغنا، في بعض الأحيان يبلغ بي الأمر حد الصراخ.. حداً لا أريد معه أن أعلم شيئاً عنها...

- لماذا لاتكتب إليها؟

- وإذا لم تجب؟ لا أريد أن أعرض نفسي لهذا، أن آتي به وييديّ الاثنين.. ثم إن ذلك يعني إثارة القضية فيّ، تحريك كل شيء في داخلي... لم أعد أعرف ما الذي ابتغيه، الحقيقة أن الصبي «ديني» قد فرق بيننا.
- ألن تغفر لها أنها اتخذت لها عشيقاً؟

- طبعاً، لن أغفر لها.. الحاصل اني مكوّن كسائر الناس، كنت سأغفر لها لو ظلّ حياً.. لكن هذا الموت.. العقبة هي بول ديني ميتاً.. ميتاً من أجلها.. يبدو لي أنني لا أملك الحق..

- أنت تتفوه بحماقات! وأنت لاثقمن بها، على العكس، فيما أنه ميت..

أيستطيع أوريليان أن يعبر عن تلك التناقضات التي كان يجرّها معه عبّر الجبال؟ لن يفهم العم شيئاً من ذلك، رعدة الزمن الذي يمرّ دون ألم مثلاً، وعندما يحدّد فكره فيه، يغدو الألم... نعم، اننا نخرج من الحب كما ندخله، بناء على قرار يتخذ؛ وعندما استوثق ليرتيلوا من ذلك، أصيب بخيبة عميقة، لقد خرج من هذا الحب صفراً اليدين، وخلت حياته من المعنى أكثر من ذي قبل، تذكر أن الدكتور «ديكور» قال: «حبي أنا هو حربي...» خرج من حبه كما خرج من الحرب.. بذلك الأسف المبهم نفسه، بالذهول نفسه، إنه يشك اليوم كما شك إذا ذاك بالدوار الذي خالجه، كانت تعاوده ضروب الغثيان وهو يفكر بأيام تشرين الأول في نهاية الحرب، عندما شارك الآخرين في تمجيد النصر.. النصر كان جميلاً النصر! وما عليه إلا أن يتطلّع حوله، هنا، في «التيروول».. نصر «فلوريس».. كان كل شيء صالحاً للانزلاق عن فكرة بيرينيس الى شيء آخر، كيف سيكون المستقبل؟ عالماً لاشرف فيه، عالماً لاحب فيه يسوغه وبعد «ريجين» ستكون هناك «ريجين» أخرى، الشتاء في باريس، الباليهات الروسية. أيمكنه أن

يدفع نفقات رياضية الشتاء في «ميجيف»، والغواف في باريس وعودة الربيع. وتُسمى هذه حياة. كل مانقله ونحن نظن أننا نُحسن صنعاً.. سيُقدَّر بالمال ذات يوم. كانت «الايبارج» لتشتري «فلوريس» تلك الآثار التي ستُصادر في الجمر، ويموت الصغير «ديني» من أجل أن تكون بيرينيس... ما ان عاد اوريليان الى «ستيناخ» حتى وقع رأساً على «فلوريس» عند الخروج من المحطة. فلما رآه الآخر لَوَّحَ بذراعيه:

- آه، يا عزيزي! كيف نعتذر لك؟ اتسَ نهائياً ماجرى... مرَّ ساعي البريد، والبريد على الطاولة، حسابات أيضاً! ونحن نروح ونجيه لأن ذلك الفلاح قرَّر أن يبيعنا صندوقاً رائعاً من القرن السادس عشر.. بثمن زهيدا بسبب الصرْف طبعا.. بدا لي ان هناك شيئا لك... كان مستحيلاً أن نضع يدنا عليه... سألتُ ريجين: لم تر شيئا..

يا الهي! لعلها رسالة من بيرينيس؟ كيف كانت الكتابة؟ لم يتطَّلَع غونتران الى الطابع البريدي، كل ما يستطيع ان يقوله أن الرسالة من فرنسا. وعندما سئلت ريجين أجابت بأنها لم تر شيئا، وسألته بحدة إن كان ينتظر رسالة من امرأة؟ لعلها اختلستها وقرأتها. من المؤكد أنها رسالة من بيرينيس... يستحيل عليه أن يكتب، أن يسأل بيرينيس... لكن، أما تزال تحب؟ وأي حب غريب، مذعور، غير معترف به. إذن، سيحمل أبداً، في ذاته، ذلك القلق الكامن الذي بعثه حادث الرسالة؟ لقد كانت هذه الرسالة الضائعة كافية لترميه مرةً أخرى في تلك الحياة المنسية. يجب أن يكون صريحاً مع نفسه، إن المشهد الذي يحيط به قد ألهاه زمناً طويلاً عن بيرينيس، وفجأة بُعثت بيرينيس حياً، او لم يكن ذلك أيضاً عندما بلغ هذا المشهد حنود الاشمنزان... تذكر ذلك المساء مع ارماندين عندما قرَّر، عندما قرَّر بالضبط أنه كان يحب بيرينيس: كان ذلك بعد تلك الأيام مع «ريكيه» ثم ارماندين.. كل ما كانت ارماندين تمثله من فظاظة عائلية، وطفولة... الوسط الذي لا يُفلت منه الإنسان.. لقد قرر ان يحب بيرينيس، أنسَته بيرينيس الناسَ والحياة، حياته. وعندما أراد ان ينسى بيرينيس استعان عليها، في المقابل، بالعالم، عالم الاعالي، «تيرول» الشمس الساطعة، المقفر والحر، لكنه

لم يكن مقفراً الى الحد الذي منعه من أن تكون له وديانه مع آل فلوريس، وحتى على دروب الذرى مع سياحه وأهوائه. وشيئاً فشيئاً أعاد هذا التيرول الذي ألهاه عن بيرينيس طرَح أسئلة «ريكيه» وأسئلة «ارماندين» بشكل آخر. وشيئاً فشيئاً، غدا هواء القمم ذاته غير صالح للتنفّس. حينئذ تشكّلت من جديد صورة بيرينيس، ومكّنته مرة أخرى من نسيان ماحوله، والقرارات التي ينبغي أن يتّخذها.. يجب ان يكون صريحاً مع نفسه لم يكن الأمر سوى ذلك.

ضاق ذرعاً بريجين. لم يغفر لها اختلاس الرسالة. كان مزعجاً له أن يسكن معهما. صاربوسعه أن يعود الى الفندق، وقد وصل مُخصّص الشهر التالي بشكل سريع.. لكن كان مزعجاً أيضاً أن يبدو عليه ذلك.. كان يكره أن تصعد «ريجين» الى غرفته، في كل مناسبة. أقبل الخريف، والفصل الرديء. أعلن أنه سيسافر. لقد كتب له زوج أخته... لم يكتب له زوج أخته شيئاً وبدلاً من أن يمضي الى باريس، انحدر الى «سالز كامرجوت». ومنها الى «فيينا»، ومن فيينا الى برلين، أوه ما أبدع التخفّف من آل فلوريس!

إن زوبعة البلاد والمدن، وهذا الترف وهذا البؤس، بوجاهزيّة اوريليان، لاشيء تقريباً يُضطرُّ الى الامتناع عنه في هذه الأيام التي أبعد فيها المال الفاقد قيمته حدّ الذات المعتاد، كلُّ ذلك جاء مرة أخرى ليشوِّش صورة بيرينيس وليعتّمها، وليمحوها...

ان البريق الطفيف الذي كان في قلبه والذي حرّضه العم بليز لحظة من الزمن، قد كفّ مرة أخرى عن الحركة.

في تشرين الثاني، كان في مقهى «نولندورف بلاتز»، عندما هاجمت الشرطُ الجمهور، أمامه بالذات. لم يرق منذ الحرب شيئاً بهذا العنف، وأخذ الفتيان على المصطبة المغطاة ينظرون الى الخارج وهم شاحبون ومرتجفون، في الداخل، كانت الاريكستر تعزف «بويشن»... كانت القهوة صالحة للشرب. كانت هذه المانيا. وكانت هناك إعلانات كبيرة بأحرف غوطية، وصور تكعيبيّة على نحو ما، فكّر اوريليان «على كل حال، ما الذي حلّ بي حتى أقلب رأسي؟ النصر كذلك دائماً، ونحن المنتصرون، هذه المرة...»



إن فُتِحَ التحقيق القضائي في شركة السيارات بناءً على طلب جماعة من المساهمين أثار العاصفة. ذلك أن وضع آدمون بارينتان الصعب ازداد حرجاً لأنه ترك مكانه لممثل مصالح زوجته، وهو محامي أعمال كان يعمل ضده. وإذا كان ما يزال يجلس في الشركة أو في مجمع الشركات فذلك باسم السيدة «كيسنيل». إذ أن كارلوتا لم تسحب منه ثقتها، ومنذ أن أُعلن الطلاق أخذ الناس يتوافدون. لارصيد. حتى ليرتيلوا الذي كتب له من برلين... أه من هذا سيكون لآدمون لبعض الوقت المال الضروري ليدفع له. وبعد ذلك لن يبقى عليه إلا أن يرهن «سان جينييه». لأنهم في مؤسسة التجميل. وبسبب النفقات الباهظة التي وظفها «ديكور»، بالتواطؤ غير المفهوم «لأديان رنو» اضطروا إلى الاستعانة برؤوس أموال جديدة، مما وجدوه أي مما وجدته «روز» التي استدعيت من الأندلس، لدى شخص مشكوك، فيه يُدعى «موزار»، «موزار» بكل بساطة، وكان شيئاً لم يكن! وكان «موزار» هذا عارفاً بالموسيقا. وقد حلّ هو وجماعته في «الشانزليزيه»، ودسّوا أنفهم في الحسابات، واعترضوا على الديون، وطردوا بعض الموظفين مبتدئين بـ «زوي آغاتويولوس»، وعندما اطلعوا على المبالغ التي يدفعها بارينتان شهرياً لمن يُدعى «ليرتيلوا» أطلقوا صرخاتهم عالياً وقالوا هذا غير وارد: إذا كان هذا الرجل مساهماً فله الحق في الأنصبة المعتادة. طيب، ينبغي لآدمون أن يتدبر أمره على صندوقه.

لم تعد مسألة المسرح واردة، ولا المعهد الرياضي أو غيره. وستكون روز سعيدة إن تخلّصت من هذه الورطة دون انهيار مالي فاضح. ما حاجة آدمون إلى أن يحشرها في ذلك؟ و«جيكي» الذي بدت سحنته كسحنة الميت والأبي أشرف على الخور العصبي! وعندما كانت تفكر في ذلك الفتى الجميل في ستوكهولم. كان سيكون أكثر بهجة من السيد موزار! لم يُفاجأ آدمون فوق الحدّ بعقوق «روز». كان يعلم دائماً أنها هكذا، ثم إن فكره كان في شيء آخر، في هذه الفترة. ينبغي إنقاذ ماتبقى من فُتات. لقد طلق، جيد، لكنه عمل زمناً

طويلاً تحسباً لهذا الاحتمال، ولقد أخفى كل ما استطاع إخفائه. لكن الشيء الرهيب هو أن رجل أعمال بلانشيت كان ذا مهارة شيطانية. ولقد وقع مباشرة على الأصول المخفية، والمبيعات الكاذبة الواحد بعد الآخر. فكأن هناك من يزوده بالمعلومات، وهو لا يكاد يضع يده على الأدلة حتى يُعلم ادمون بواسطة محاميه «بلوتيل»، أنه إن لم يعترف بهذا الشيء أو ذاك فإن القضية ستتبع مجراها. وكان ادمون يستسلم أملأ في إنقاذ بعض الحطام الجميل. وهكذا وجد نفسه في النهاية مربوط اليدين ومجبوراً على قبوله الأخطاء في قضية الطلاق، وعلى أن يوكل أمره الى كرم بلانشيت المشكوك فيه أعظم الشك.

- ولشدة ما أدهشه أن ادريان ارنو كان يُظهر له في كل ذلك تحفظاً بارداً. هذا الفتى الذي جرّه من لاشيء والذي أمّن له وضعه! وعندما جاء ادريان ليقول له ان قراره قرّر على تركه، وأنه لا يريد أن يُحسّر في ذلك كله، وجده ادمون على كل حال، يغالي قليلاً: روز تصرفها طبيعي لكن ادريان! صديق الطفولة! قال ادريان: «وماذا تريد أن أفعل! لا يمكنني أن أوافقك.. ولا أريد عند الضرورة، أن أكون شاهداً عليك.. ففي الأعمال كثير من الأشياء التي أعرفها والتي ساعنتي.. وبعد الطريقة التي رعتني فيها زوجتك...» هذه هي الطامة، أقول لك. هذه هي الطامة! إنه ينحاز الى بلانشيت الآن! كان المشهد عاصفاً، لكن ادريان تخلص منه، وهذا كل ما في الأمر.

وبعد بضعة أيام فقط طلب محامي السيدة بارينتان ان توضع تحت الحجز الأموال التي حصل عليها ادمون أثناء فترة التفريق عن طريق سوء استعمال الثقة، وبصفته موكلًا بأعمال زوجته. حتى أنه لم يتسنّ له أن يرهن «سان جينييه». ولم تكن «سان جينييه» إلا صفقة طفيفة في ذلك كله، لكنها تدل على مدى استطاعته. كيف سيتدبر أمره؟ الحق أن كل شيء كان يجري وكأن هناك من يحمل الوثائق بيديه ويزود المحامي بالمعلومات. كان ادمون يسكن في «الكارلتون». لقد وجد أن من الأناقة ان يترك

الشقة لزوجته. كان يتخبط بصعوبة شديدة في أعماله، والحقيقة أنه قد علق في التعقيدات التي حبكها هو نفسه، ثم إن سيمونو الآن يُحجم عن مد يد العون إليه، وكان سيمونو وكيلاً قديماً لال «كيسنيل»، وتستطيع الأسرة أن تعتمد عليه. ليت ارنو بقي هنا على الأقل للقضية التي يعرفها مع مجمع الشركات والمؤسسة.. وبالميد يطعن عليه. وكان لابد له من ان يبيع بالخسارة محطات الوقود التي اشتراها في باريس والضحاحية. وكان واضحاً ان بالميد هو الذي يشتريها سراً. واضطر ادمون الى ترك «الكارلتون» وأقام في شارع المرصد، لكن الشيخ وايسثير كانا يسكنان في الوزارة. لم يكن الشيخ مسروراً من هذا التدبير: لقد قُدمت له تقارير مُغرضة عن وضع أبنه، وكان لها أصدائها في الصحف الصغيرة.

لا حاجة الى أن يكون المرء عالماً كبيراً ليرى أن ادمون يسير سريعاً الى الإفلاس. لقد اختلى بوانكاريه، بوزير نواته ليخطره. كان بالميد وراء ذلك كله، ويجدر بالدكتور بارينتان أن يتفاهم مع بالميد الذي لم يكن شخصاً سيئاً وكان مخلصاً للحزب. وقد وجده كما قيل له، غير متصلب، بل ومستعداً لبعض التسويات... لكن الصعوبة أنه بسبب مجمع الشركات كانت له الآن مصالح مشتركة مع السيدة بلانشيت بارينتان، ابنة «كيسنيل» الممتاز؛ بل لقد كانت بينهما اتفاقات على عدة نقاط، أبرمت بفضل وساطة شاب ذكي جداً، هو السيد «ارنو» فيما أظن الذي كلّفه ابنُ بالميد... أه! عجيباً! ياله من قدر! ذهل ادمون عندما حدثه أبوه هذا الحديث، فحيثُ اتضح كل شيء.

لم يكن ادمون من صنف اولئك الذين تلقي بهم مثل هذه الاكتشافات في الجمود، على العكس، لقد أيقظ فيه ذلك قتالية كانت تتلثم من جرأ الثروة والهدوء. ورأى بسرعة أنه يجب ان يترك شيئاً لكي لا يخسر كل شيء، وسوف تمضي الأمور أبعد كثيراً مما تصوّر في أول الأمر. لابد له من تغيير سلوكه تغييراً تاماً. أولاً الانتهاء بأقصى سرعة من الطلاق، والكف عن عرقلة كما حاول زمناً أن يفعل، وتسريع الإجراءات، ثم...

وصلته برقية من الاسكندرية تحمل إليه جواباً عن برقية كان أرسلها.

كارلوتا تقبل ان تصبح امرأته. كان ذلك ضربة رابحة. فثروة كارلوتا تُعادل ثروة بلانشيت، وقد أخذ يقدر مدى انتصاره وعودته الى مسرح باريس مع كارلوتا وهي تتأبط ذراعه، وسيكون ذلك ضربة لبلانشيت، سوف يصحح وضعه ويثأر لنفسه، وبوسعها الآن أن يكلم بالميد ندأً لندأً، ولن يبقى ما يخافه، وعليه فقط أن يزيل آثار الماضي، وهو لا يستطيع أن يحمل الى زوجة السيد ادمون باربنتان الثانية مهراً من ديون زوج بلانشيت وإزعاجاته وصعوباته، وما عليه إلا أن يتخلّى عن كل شيء، عن المؤسسة، والشركة العقارية، وسان جينييه، وماسوى ذلك، لمصلحة أم بنتيه، ولن يحتفظ إلا بما تنازلت عنه له في العقد. وبعض الأشياء الصغيرة التي تسربت بين القطرات...

كانت روز تقوم بجولة في امريكا نظّمها السيد «موزار»، وقد انتقلت المؤسسة التي تحوّلت وأقيمت على أسس جديدة الى أيدي دكتور يدعى «بيرلتر» وأشخاص متعددين مهرة نظّموا تصدير كريم ملروز، وعطّور «روز - ماري» الى اوروبا الوسطى والولايات المتحدة. ولم يكن الدكتور حاضراً إلا من أجل الشكل، وقد صادفه اوريليان الذي عاد الى باريس ذات مساء في حانة لولبي وهو سكران مع نساء صغيرات. وقد ارتعب من التغير الذي طرأ عليه، ومن هزله، ومن شحوب وجنتيه: ألا تجلس معنا؟ لوسيت، قولي للسيد أن يجلس!... كان مع لوسيت «بالون» ورديّ طائر معلق بخيط، وقد فجره أحدهم بسيجارتته، فصرخت: وحش، وحش! وقال ديكور: ليس وحشاً، يالوسيت، هذا الشاب.. ما اسمه؟ مضى اوريليان الى الحانة، جاء الدكتور لينضمّ إليه، «مالك، هل نسيت الأصدقاء، ليرتيلوا، أم أن القلب سقيم؟ ثم اندفع يروي قصصاً طويلة عن نجاحات روز في نيويورك ومزايا السيد «موزار» كمدير لها، قال: «أه! لعك لا تعلم... انتهى ما بين روز وبينني.. انتهى... غريب، أليس كذلك، زوجان جدّ متحدّين؟ أو كذلك يبدوان... ما الحيلة، كائن من النخبة مثلاً... وشخص تجرّه وراءها مثلي... لا يمكن لذلك أن يستمرّ أبداً، وأنت، ماذا جرى لذلك الحب العظيم، لأنه كان حباً عظيماً!

كان يرثى له، سيء اللباس، القبة المضافة ليست نظيفة جداً، وعلى

سترتة الرسمية بقع. مم كان يعيش؟ أحس أوريليان فجأة بالشفقة العظيمة عليه. رأى ان يدي «ديكور» ترتجفان. ليس السكر هو الذي يهزه هكذا. لابد أنه مريض جداً. «يجب أن تعود الى بيتك، دكتور، وأن قنام... قال الآخر: - لا أستطيع. فمعي هؤلاء الأنسات... لوسيت... بيننا، ألا تستطيع أن تقرضني ألف فرنك؟

لا، لم يكن بمقدور أوريليان ان يقرض ألف فرنك لأي كان. كفاه ماتجرعه من سم. فأرض «سان جينييه» انتقلت حيازتها الى بلانشيت وقد أعلمه ادمون أنه لا يستطيع ان يفعل شيئاً له. بما أن مؤسسة ملروز لم تكن تضمن سوى مبلغ زهيد سنوياً، الفائدة العادية للمال الموظف. والأمر عائد الى بلانشيت، بمقدار ماتعترف بالالتزامات الأخلاقية الصرفة.. أما هو ادمون فلا يستطيع ان يعطي مائيس له، فضلاً عن ان التفاهم مع بلانشيت دقيق على نحو فظيع. فوجيء أوريليان حين وجد هذه المرأة وقد تحولت كل التحول، وجدها جشعة للربح جشعاً لم يكن يخطر على بال! ومستعدة لأن تظهر عجرفتها على رجل ظنّت أنها تحبه ولاسيما أن هذا الرجل كان يبدو لها متواطئاً مع ادمون لكي يخدمها، وقد ردت عليه بخشونة ورجته أن يتوجه الى رجل أعمالها. والتسوية التي خرج بها أوريليان من ذلك كله كانت فوق ما أمل، بعد أن ظن أن مسعاه قد خاب، لكنها لم تكن كافية لكي يعيش. كما كان يعيش ولم تكن تساوي نصف ماقدمه له في السنة السابقة مستأجر «سان جينييه». والى جانب هذا كله. رجته ارماندين ألا يفعل شيئاً يمكن ان يُزعج السيدة ادمون باربنتان التي تفاهم معها «ديبيريه» بصدد المصنع.. من المعلوم أن ادمون كان قد وظف فيه مالاً.. ولا بد من القول أن «جان ديبييريه» كان كريماً مع أخي زوجته. فقد عرض عليه مركزاً صغيراً في المعمل يعوض عليه مانقص من دخله. لم يقبل أوريليان على الفور فقد كان عليه أن يترك جزيرة «سان لويس» وأن يسكن «ليل»... لعله سيُجبر على ذلك، لكنه أراد ان يفكر.

في هذه الأثناء، استأنف تسكعه في باريس. مضى عام على لقائه

بيرينيس، وبدا له أن كل ماقلبَ مصيره انطلق من هنا، من هذا اللقاء. كان يسير في خطوات السنة السابقة خطواته هو وبيرينيس. لم يحتفظ شيءٌ بهيئته نفسها، بحرارته نفسها، تتألى شتاءاً... ولم يعد مغرمًا بتلك المرأة، لم يكن مشغولاً بها. ويمكنه أن يُقسم على ذلك، لكنها تركت في حياته وإلى الأبد حنيناً ظلَّ أسيراً له. وكان يحزن حين يمرّ على آثار هذا الحبّ الذي لم يفهم في نهاية الأمر، وحين يمر بأجواء أيام نُواره. أراد أن يتحقّق من مدى تلاشي ذلك كله، من مدى بقاء الحياة بلا عطر إذا تبدّد هذا العطر. لم يخطر له ولو لحظة واحدة، لو مرةً واحدة، أنه يمكن أن يجد هذا العطر من جديد. أيسقلّ القطار ويلاحق تلك المرأة. لا، مافات مات، لكنه هو القبر. وفكر أوريليان في أنه سيحمل في نفسه إلى الأبد هذا الحبّ الميت مثل حمل من زهور ذابلة. ومن ناحية أخرى، فقد تغيّرت الأزمنة. ولا يمكن لحب أن يلهيه عن ضرورة كسب معيشته. كانت تباشيرُ سنة ألف وتسعمئة وثلاث وعشرين صعبة. وقد بذل ليرتيلوا جهوداً شاقة لينأى عن ريجين فلوريس، وبخاصة أن «غونتران» قد تدخل في ذلك: أراد بكل وسيلة أن يؤمن لأوريليان وضعا. أما هذا فلا: إن له، بإدته.

في مطلع شباط كتب إلى زوج أخته أنه بعد أن فكر ملياً قبل أن يعمل في العمل.



خاتمة

- ١ -

لمساتُ الفجر الواهية أبرزت الأغصان المتدلّية، والأوراق السوداء. لم يكن ذلك طريقاً بل درياً في غابة على الأكثر. وكان لابد من التوقف عند أواخر الأشجار وكانت الأراضي المزروعة والمسورة، البيج والمخططة تنمّ على قرب الإنسان. كانوا يمرّون بين الأسيجة ذاتها بناقلاتهم. وكان الزنجير الضخم المجزأ، الساكن، يجمد من التعب في هذا الضياء الطالع. وكان ضبّاطُ يضربون أذرعهم، ويضربون الأرض بأحذيتهم، ويجهّزون الرتل بعصبية أكثر مما هو بواجب عليهم ان يقوموا به. وفي الطريق، كانت الاوجه تطلّ من العربات. كان ذلك كله رمادياً، بلون السهاد، متسائلاً. كان الجنود المتكوّمون تحت الغشايات يتكلّمون فيما بينهم بصوت خافت، وأخذ المعدنُ يلمع، الأسلحة والقصعات. ماذا كانوا ينتظرون؟ ما أدراهم؟ انهم يتبعون العرية التي تسير في الأمام، هذا كلّ ما في الأمر. وهذه التنقلات في الليل قاتلة ولا يبيحُ بسبب بطئها. لا تنزلوا، ويحكم! كانت العربات في هذا المستوى يرافقها سائقو الدراجات النارية والدراجات نوات العربات. تسلّل للعجلات والرجال. كان أحد المرشحين ينام في عربة دراجته. ومنخراه متّجهان الى السماء، وفمه مفتوح، وهو شاحب كالوقت. أما الآخرون فكانوا على مقاعدهم، وينادقهم على أكتافهم، وقد رنّحهم الناس. وكثير منهم أغفوا وهم جالسون وقد تكسّرت أجسامهم. وآخرون انتهزوا هذا التوقّف فاضطجعوا على اليّاتهم التي توقفت عجلاتها، وكانهم في مهودهم، قذالهم على مقاعدهم وأرجلهم على المقود، والخوذة مشدودة على الرأس إلى حدّ أنهم لا يستطيعون ان يناموا دونها. رجال من الجلد والمعدن تتعجّب عند الفجر حين نرى أن لحاهم قد طلعت.

منذ ثلاثة أرباع الساعة وهم راكبون. طويلة ثلاثة أرباع الساعة بعد ليلة طويلة كهذه وهم كامنون في العتمة. القرى التي اجتازوها، وهذه المدينة، ماهذه المدينة بجدرانها العالية، وهؤلاء الناس الذين زعموا أن الألمان كانوا فيها، كل ذلك، ضجة دبابات مجهولة في مفترق طرق، الآثار المفقودة، هاجس البقعة الصغيرة البيضاء التي تحدّد على واقية الوحل في العرية التي تسبقك، إعياء الانتباه الدائم، كل ذلك، الطريق بمسالكه المجهدة دون خارطة ولا ضوء، هذا المسير الأخرس، وهذه الوقفات التي لا تنتهي، كل ذلك بدا متلاشياً في الذاكرة، بعد الكثير من مثل هذه الليالي، وضباب الأفكار في الصباح. لقد نسوا حساب طائفة من الأشياء، الشعور الجغرافي أولاً، فلقد اجتازوا الكثير من أراضي فرنسا حتى إنهم لا يعلمون أين صاروا، والرجال، مَنْ تجاوزوهم في طريقهم، بشرط أن تتبعهم المطاعم المتنقلة! فلقد التهموا الغبار بخاصة. ارتفعت أصوات لانبرة فيها. قال أحدهم إننا لن نعثر على عربات الراديو طيب، مادامت غير المطاعم المتنقلة، كان في الجو عصبية لأن القافلتين عند تصالب الطرق قد تداخلتا، وحينئذ تعذر التفريق بين القافلتين، فقد شطرت سرية شطرين، ومصلحة الخدمات الصحية تضاعفت، ومن هؤلاء الأطباء؟ عناصر الفرقة. هؤلاء الناس ينهكون أنفسهم ويلقون عليك كل شيء مقلوباً. لمن هذه «الرينو» ذات الأطنان الخمسة؟ أه، رجال الدرك، عجباً، ما الحاجة الى رجال الدرك هنا؟ وهؤلاء ليسوا من عندنا، فقيم جاؤوا يعرقلون القافلة؟ في السيارة السياحية، الرمادية كسائر الجيش، تحركت أشكال ورفع كتف الغطاء. كانوا أربعة متجمعين فيه. لصق رأس أصفر بالزجاج ونظر الى السماء. وعندما أحس الجنديان المشيان أنه ضابط ابتعدا. كان الرأس أصفر وشعره أسود، وقد بدأ يتساقط.

كان النقيب «ليرتيلوا» منحنيًا في السيارة، متضايقاً من جزمات النائمين، وقد أحس بالانزعاج. ليس مريحاً أن يُصاب المرء بالحمى في وسط مثل هذه القافلة. في هذا الصباح، تراجعت الحمى، ولكن عندما لا نخلع

ملايسنا أثناء أيام، مع العرق والقميص الوسخ، والحذاء الذي لم يُترك.. وما في المطرة نقطة ماء... ليتهم توقفوا فقط في تلك القرية المحترمة، بدلاً من أن نكون هنا، في وسط الحقول، ربما كانت مقدمة القافلة قد بلغتها. عندما ننتقل وحدنا الأمرُ مقبولٌ، لكن مع فرقة فوق رأسنا.. أه صحيح؛ الباب لايفتح؛ لقد رُتقَ مقبضه بشريط حديدي. كان لايدٌ من تخطي الملازمين، قال «بليزو» الذي كان يغفو على المقود: «أتريد النزول، سيدي النقيب؟» قال اوريليان: أريد أن أشم الهواء.

فاجأته البرودة، والملامسة الصلبة للأرض. كانت إحدى ساقيه متخدرة إلى حد أن قدمه كادت تخونه. التتمل، مثل الف ضوء. عندما نتجاوز العشرين.. كان أشخاص يبولون في الحقل. تنهّد رجل قصيرٌ وسمين: «أه، ليتنا ننام!» خبط اوريليان قدميه بالأرض ألياً كما رأى الآخرين يفعلون، ارتعش، ربما كان عليه أن يُنقل كما أراد المقدم، لكن ماذا. أيترك جتوده ثم إنه فضل أن يقطع اللوار مع جنده. الذين يُنقلون كانوا يُحملون إلى هذا المشفى أو ذاك، على مايتفق لهم، وفي اليوم التالي، يغدو الذين كانوا يبدون بعبيدين جداً. وفي مأمن حقيقي، مُتجاوزين، لكي يعالج قدميه في المشفى. شكراً، الأجدرُ به أن يجرّ جسمه جراً مع بقايا سريته. لقد تعلّق هؤلاء بهذه الفرقة الآلية في مكان ما من جهة أنجيه» بعدلن قطعوا عن الآخرين، وقد صادر «ليرتيلوا» شاحنة صغيرة، وأصلح هو نفسه شاحنة مهجورة وألقى بجنوده الخمسين فيهما، ومضى بهما لقد تجهّز بهاتين الآليتين مثل جميع الرفاق في هذه الساعة. وعندما استقبله الجنرال «ت» عرض اوريليان عليه الوضع، فألحقنا بمتاع الفرقة، وكان النقيب وملازميه يأكلون مع الأطباء. كانوا ينظّمون أنفسهم، وقد استمرّ ذلك منذ «السوم».. أما الخيالة فعانوا من دنكرك عن طريق انكلترا، حتى الهيئة الطبية التي كانت لها كبرياء الفرسان، ووضّع المشاة في كنف الفرقة. أناس يقاثلون وهم على أرجلهم، فكان هذه الحرب، في الواقع حرب المئة عام.

كان اوريليان جائعاً، هذا الجوع المعبّد عند الفجر، قطع وقته بالثرثرة

مع رجاله الذين كانت سياراتهم مفصولةً عن سيارته بأربع من الدبابات المجهّزة بمقاعد، وهي تبدو مع تمويهها الأخضر والأصهب، كأنها تنقل الفرسان المحمولين الى عرسٍ في القرية. أعطاه ضابط صف قطعة من البسكوت. هذا العريف الذي ارتعب عند المرور على «السين»، كان ثمة ما يُرعب، على كل حال. وبإلهذا القدر الغريب الذي جعل المشاة يُجرون هكذا خلف الدارعين والفرسان! وسوف يُستفاد منهم جيداً عند الطلب، فأسلحتهم معهم، لا كهؤلاء الهاربين الذين يُرون وهم يمرّون على الطرقات، بعضهم على الدراجة النارية، وبعضهم الآخر مع نساء هينتيهين رثّة. من كان سيصدّق هذا! حافظت الفرقة على التماسٍ مع العدو بدءاً من «السين» الأدنى. وقد ظنّ أول الأمر أننا كنا نكسب مواقع، من نهر الى نهر. ستكون المعركة معركة «الاور»، معركة «الوار». وكان ثمة حرصٌ شديد على أن تكون المعركة على ماء ما. في المساء، في مدرسة مهجورة، قام رئيس الأطباء بدور الخبير بالستراتيجية، مع خرائط أوروبا، وجمل بيضاء بطولية باقية على اللوح الأسود. يمكننا الصمود على «المين»، هكذا... أركّز الدبابات هنا، «مقهى التجارة»، حتى إذا قطعوا اللوار لم تعد الانهار تسيل في الاتجاه المطلوب. ولم تعد المقاومة ممكنة طويلاً. ولم يبق من داعٍ للتوقف. ومع ذلك فإن بين أيدينا قرى وخطوطاً مرسومة على خرائط «ميشلان»، وهي الخرائط الوحيدة الموجودة مع من يملك الخرائط. ولقد تم اجتياز المنطقة التي قام فيها ضباطُ الخيالة بلعبة الحرب وقت ما كانوا في «سومور»: الفريق الأبيض يواجه الفريق الأزرق... وقد استأنفوا بصورة طبيعية المسألة الخيالية، سوف أحتمي بالجناح، وسأضع رُماء الرشاشات وراء قمة السفح.. الآن، لم يكن العدو يُكبح.. وعندما كانت دراجاته النارية أو دباباته تصل الى مدخل الضيعة التي كنّا فيها، كان يعود أدراجه عند اولى الطلقات. كان يمكننا انتظارهم حتى المساء: لن يعودوا. كانوا يجربون الطرقات، ويتحاشون مراكز المقاومة ويتجاوزوننا. على اليمين، أي في مواجهتهم، كان ثمة فتحة واضحة بين الجيوش الفرنسية، عناصر دفاعية متحركة في مكان ما، لكن

الارتباط كان غير ثابت، وكان المطلوب تأخير سير المنتصرين، ولم تكن تُقال آنذاك كلمة «المنتصرين»، وكانت أيام انتظار فيها الناس الهدنة. لكن الهدنة لم تأت. وفي كل يوم كان يُقتل قليل من الناس، ويؤسر بعضهم. وكان عنصر المكتب الثاني يتشدد في استنطاقهم. كان يقوم بعمله. ولما كانت المعلومات التي يجمعها صالحة للانتفاع بها، لكن هذا لم يكن سبباً كافياً للأقلاع عن عمله.

أخذت السماء تزرقي. سوف يغدو الجو شديد الحرارة مرة أخرى. لكن الحرارة لم تكن محسوسة الآن. هزّ جسم أوريليان الكبير كتفيه. تحقق من حميلته، من نطاقه، ومن أضرار كتفيته تبعاً لعادة تعودها في مطعم الضباط، مع أنه إن فرض الآن جزاءً على جميع الذين تنقصهم أضرار... ودّ لو يغسل فمه. مرّ يده على شعر الشارب الطالع. إن يكون ترفاً أن يطلق ذقنه. فكّر برقة في جورجيت والولدين، كانت فكرة خسنة أنه بعث بهم في عيد الفصح إلى الشاطئ. لقد قلق قليلاً عندما انضمت إيطاليا. لكنه على كل حال جذب الأسرة محنة تلك الهجرة الجماعية، وتلك الطرقات الرهيبة. من يدرى ماذا حلّ بارماندين وصهره وإني لأتساءل ما الذي بقي من المعمل. يزعم قائد الأركان العامة الضخم أن القتال من هذه الجهة كان شديداً.. وفجأة تخيل «ماري دي بيرسفال» التي لا بد أن تكون في «توكيه» هاربة على دروب الشمال. العجوز المسكينة في سنّها. والآخرين جميعاً. دهش أوريليان، الواقع أن هذه أول مرة يفكر فيها في الناس بطريقة شخصية. في مصير الناس الذين باغتهم ذلك الاندحار. لم يكده يتسنى له الوقت، وفيما عدا جورجيت، بمن يتمسك؟

« صباح الخير سيدي النقيب، كيف حالك، هذا الصباح؟ »

كان هذا هو الطبيب الملازم، وكان يبتسم بوجهه الصيني المرسلي، وخوذته في نطاقه، وعلى رأسه قبعة شرطة غائرة الزاويتين على الطريقة الانكليزية، صعد مع الرتل، وتوقفوا ليفسحوا الطريق للدبابات. وبعد ذلك تصبح الطريق هي الطريق الرسمية. ظل الاتجاه غير مؤكد: لقد نزلوا خمسة وسبعين كيلومتراً ليقطعوا الخط على عناصر آلية عدوة، لكن رجال الاستطلاع

أكدوا أنهم لم يروا أحداً. إشاعة كاذبة أخرى على أساسها زُجّت فرقة كاملة..
«الأجدر بنا أن نضحك منها..»

خاض «سوربان» أيضاً الحرب الأخرى، وربط هذا بين الرجلين. أشعل الطبيب سيجارة: «ليتنا نستطيع فقط الاستماع الى الراديو». هزّ أوريليان كتفيه. لم يكن يحبّ الراديو. قال: «مع ذلك فلا بدّ ان رئيس الأطباء قد تلقى تعليمات، حول المأوى الذي.. سوف نستريح حتماً في مكانٍ ما...»
ضحك «سوربان» بصمت: «آه آه! تتشاطر ولم يمض عليك عشرون عاماً. العجيب أن مكانك الطبيعي كان في منطقة المراحل! لعلك فتّشت عنها.. وحدثني عن منطقة المراحل؟ فيما يتعلق بالمراحل، على كل حال... إذن ماذا قال رئيس الأطباء؟

- قال إنّنا سنقف، هذا الصباح، في ر... ونحن في انتظار الأوامر..
زال خدرُ الساق. لكن أوريليان كان يسمع في رأسه أجراساً، أجراساً بعيدة، خافتة، وكان يرتعد أكثر فأكثر لاشك أنهم داروا على أنفسهم بشكل لا يحتمل. في هذه الليلة الطويلة، كان يظن نفسه أقرب الى الجنوب ومنحرفاً نحو الغرب. ولقد تطلع أمس الى «مصورّ الخمر الجيدة» وهي مجموعةٌ للإعلانات عثر عليه «بيليسييه» الطاهي، وكان ينفعهم جيداً بدءاً من «فيرنيي»، بخرائطه لكل منطقة، وهي خرائط غير متقنة، ومزينة بصور بيوت صغيرة، وبالكرمة وبالفنادق، لكن بما أن خرائط ميشلان «مفقودة في السرايا...»
- الى «ر»... أوائق أنت، دكتور؟

كيف يسأله إن كان واثقاً هناك أشياء لا نسمعها إلا كاملة: «ولاسيّما مع هؤلاء الأشخاص، سيدي النقيب! كادوا يقعوننا في التهلكة ثلاث مرات هذه الليلة.. بلى، بلى، بلغ الألمان «سان ميكسان» قبلنا..
- كيف تريد، دكتور. ان تُزجّ فرقة كاملة..

- كيف أريد؟ لاتسلني وتلجّ في السؤال! كانوا في «سان ميكسان» في الساعة السادسة، وقد مررنا بها نحو منتصف الليل هذا كل ما أعرفه. وتلك

البلاهة. أمس، في تعريضنا ثلاثاً مرات بدلاً من مرة واحدة لعبور بارتناي». كان يمكن ان يكون ذلك كارثة..

- كنت أظن أننا نسير مباشرة الى «سان جان دانجيلي»..

- طبعاً، حتى اللحظة الحاضرة، وإن كان الملازم «غرو» قد وعدنا بالكونياك من قبوه.. سيفتاز حين يرى أننا نندفع الى الشرق... في القرية هناك لاقي الأعيان الدبابات... وقد وضع رئيس البلدية وشاحه، وعندما رأى أنه أمام فرنسيين، هاج وقال:

- ألن تدافعوا عن الضيعة. أنتم تتركونا نُذبح...

- لن نبقي فيها إذا أردنا ان تكون في «ر»... هذا الصباح... ما المسافة

التي قطعناها؟

- انتظر، سجلتُ على ورقة صغيرة.. اثنان وعشرون.. اثنان وعشرون..

وخمسة، سبعة وعشرون، وتسعة، ستة وثلاثون. ستة وثلاثون كليومتراً.. وأنا أسوق بنفسي، فقد أغفى سائقي على المقد...

سته وثلاثون كليومتراً. ر... لم تعد شيئاً غير واقعي، مدينة مثل بغداد، ستة وثلاثون كليومتراً. ر... كان لابد من كل هذه البلبلة، هذه الهزيمة، قصة هذين الشهرين غير المفهومة، هذا الانسحاق، هذا البلد الذي جرفه التيار، هذه الفوضى الهائلة، هذه الهجرة لشعب.. عندما نظر عشية أمس الى خريطة «بيليسييه» قرأ فيها اسم ر.. غير بعيدة كثيراً معلّمة بكنيسة على رابية بجانبها زجاجات صغيرة، بل إنه لم يقل في نفسه قط إنه سيمر بجانبها. وأنه سيوشك على بلوغها، تلك المدينة التي سكنت أحلامه زمناً طويلاً جداً حتى إنه لم يؤمن بوجودها. لا، لم تكن على محور السير. كان يظن أنهم يسيرون الى «سان جان دانجيلي»، وإذن فقد كان ذلك بالنسبة إليه مثل مدينة العجر مثل بلد بعيد. ان اسم ر... موجود على الخارطة لكن ذلك طبيعي. إن إسماء المدن موجودة على الخرائط، وذلك لايغني أننا سنمر بها.

عادت إليه الرعشات، كان يرتعد. لم تكن الحمى، بل شبابه، عالم ساقط.

في غمرة نهاية العالم، سيجتاز تلك المدينة الخيالية. ستة وثلاثون كليومتراً، سيبلغونها، إن اتاهم الحظ، بعد ساعتين، ساعتين ونصف، وفجأة، رأى جميع الناس في الطريق يرتمون على التلعة، في الحفرة. صوت محرك في الهواء. التفتت الرؤوس نحو السماء لم يرَ شيء، لعل الطائرة قد حلقت هناك نحو الجنوب، على كل حال، لقد تجاوزتهم، نهض الرجال على مضض، ومزحوا، وامتد الهمس على طول القافلة.

ستة وثلاثون كليومتراً. أحس أوريليان بهدوء وببطء ان صورة أخذت تتشكل فيه، لم يرفضها لم يستعجل وصولها. لم يعد يرى حوله العربات والدراجات النارية والطريق المغطى والحقول. ذهب «سوربان» وظل وحده في هذه الشرذمة من الجنوب والعربات، وحده مع أحلامه، مع بخار أحلامه.. كان لابد من الهزيمة. هو الآن هنا، وسيذهب الى ر... الى ر... التي تحاشاها عشرين عاماً. ان يحول شيء دون توجهه إليها. كانت الآلة تمسك به. ولو أنه قبل أن يُنقل وهو مريض لما وافى هذا المكان، الموضع الذي حتمه القدر. هذا ما يُسمى المصادفة. عثرون عاماً مضت تحاشى فيها ر... وهاهو ذا يصل إليها. لم يفكر في بيرينيس بل في جورجيت. لم تكن له حيلة في ذلك، فالأمر غير منوط به. لا يمكن لجورجيت ان تحقد عليه. بيرينيس. ومع ذلك كانت بيرينيس التي تتخبط فيه، لجورجيت، ولا ر... قسمات بيرينيس المشوشة. تعبير شفتها. التعبير المزدوج للوجه والعينين، كان يحاول ان يهرب منها، ويتألم لأنه لا يجد صورتها الحية في ذاكرته. شعرها الذي لارشاقة فيه. كيف كان ذلك يدور قرب الفلك؟

وعلى نحو غريب رآها بخياله قرب السيدة «دي بيرسيغال» بينما كانت روز ملروز تلقي شعر «رامبو»، في ذلك الفستان الفضّي... لا لم يكن الفستان فضيّاً... وذراعاها ذراعا فتاة صغير، كل ما جرى بعد ذلك المساء، الحياة. الحياة بأسرها، كثير من الأحياء اختفوا، وفكر، لماذا، وعلى الخصوص في الدكتور «ديكور»، وفي بول ديني، الموتى. ليست الحرب وحدها هي التي تقتل، كان يبحث عن الأشباح لينحي شبح بيرينيس، رأى ثانية بوضوح غير عادي

وطء البشر في الليل، في مساء شباط سنة أربع وثلاثين تحت أشجار
الشانزيليّز، من الجانب الأيسر صعوداً... وكليمانصو من البرونز الأخضر
الذي لا يكاد يرتفع فوق الجمهور.
سته وثلاثون كليومتراً...

صفرت صافرات على طول القافلة، ارتدى الفرسان بسرعة على
سياراتهم التي بلون الربيع والخريف، كان هناك نداءات تفقد، ومحركات تجرّب
وتسعل، ضوضاء الدراجات النارية وهي تتأهب للانطلاق، نوع من التمرّج
الفوضوي، مرّ سوربان وهو يركض،

انطلقوا دون ان يعلموا كبير علم كيف، دار اوريليان حول عربته، فُتح له
بابها. تسلّق، ابتسم له الملازم «دي بيكفيل»، بهيئته، هيئة كلب فتّي، كانت
البطانيات غير مرتّبة ومكدّسة تكديساً سيئاً، فضايقتهم في جلوسهم، همّتهم
الانطلاقة، يالها من سيّارة؛ مالك «بليزو»، انتبه يافتاي... ويقول النقيب
ليرتيلوا. «آه»، وكان الانطلاقة أوجعته، فاستفسر «بيكفيل» بقلق: «هل تتألم،
سيدي النقيب؟

- أنا ؟ لا..

لم يبدُ عليه أنه أدرك مايقصده الآخر، لكنه رأى قبل هنيهة بيرينيس تفتح
عينها.



سنةً وثلاثون كليومتراً، التعب، الحمى، في هذا النعاس، كان اوريليان مسكوناً بالأشباح، وفكرة ر... القريبة جداً، ماكان يتراقص في رأسه كان استعادةً للماضي، صورٌ غير واضحة، صورٌ بدىء بها، صورٌ ضائعة، ادمون باربنتان في مراكش مع زوجته الثانية، كارلوتا، وملكيتهما الضخمة، ويختهما. بلانشيت ارنو الذي يكون ابنها قد بلغ الخامسة عشرة، وإحدى البنات قد تزوجت، وإدريان الذي تدخل في جميع تحولات السنين الأخيرة، فنظم جماعات دراسية للتفاهم بين العمال وأرباب العمل، وشارك في اتفاقيات ماتينيون، ثم... النهاية المحزنة للدكتور «ديكور»، ورز ملروز سيّدة قصر. تمول داراً لإيواء الممثلين، وتقدم تحت أشجار حديقته في «بورغونبي» عروضاً لراسين في ثياب من العصور الوسطى، جميع الممثلين الصامتين في المسرحية القديمة، أكانت مسرحية؟ كان على المسرحية الحديثة أن تتعهدهم بيديها.

الآن علم اوريليان وهو يقترب من ر... علم اليقين ان بيرينيس لم تخرج قط من قلبه، لقد أحب جورجيت وما يزال يحبها وهي لم تعلم شيئاً عن بيرينيس، ولولا الحرب، لولا هذه الفظاعة لما رأى بيرينيس ثانية ولما رأى بوضوح دخيلة قلبه، منذ تسع عشرة سنة.. نعم، تسع عشرة سنة ونصف.. حمل في قلبه تلك الذكرى الصافية جداً، تلك الذكرى المصفّاة، لقد أحب جورجيت، وكانت حياته كلها من أجل جورجيت ولديهما، لكنه عندما كان يغمض عينيه كان يرى بيرينيس، سره؟ منذ ذلك الحين لم يكلم أحداً عن ذلك السرّ. منذ ذلك الحديث مع العم «بليز» في «انسبروك»، يا الهي، ماذا حلّ بالعم في هذا الإعصار؟ إن عمره يبلغ الآن خمسة وثمانين عاماً على الأقل، لم يكلم أحداً قط، وقناع الجبس مخبأ في جوف خزانة مع لوحة زامورا، ولم يره أحد قط، وقد أمسكهما اوريليان بيديه عند انتقاله من منزله سنة الف وتسعمئة وست وثلاثين، كان بوّده لو يعود الى المنزل وأن يحطمهما، كان شيئاً كريهاً أن يتركهما خلفه، أحب جورجيت،

لكن بيرينيس كانت سرّه، شعّر حياته، ذلك الشيء الذي لم يكتمل.. كم من مرة، في لحظات القرار، تساءل ماذا ستقول بيرينيس فيما يتوي أن يفعله؟ كان يتوافق معها. كان يخشى أن يبدو لها أدنى من تلك الفكرة العالية عنه التي كان ينسبها إليها في أسطورة حبّهما، وهي فكرة تصحّحت بهدوء، وجاءت ببطء إلى سطح أفكاره، عندما خمد ألم الفراق والفشل، لم يعرف جورجيت رأساً. كانت جورجيت حبّ نضجه، تزوّجا في الثلاثين، لكن بيرينيس كانت وحدة حياته، وشبابه، ماضٍ حيا فيه من شبابه. وعندما كان يفكر فيها كان يلاحظ أنه لم يعرفها ولم يرها إلا شهرين ونيفاً. هذان الشهران كانا شبابه كله، وقد طردا كلّ ماسواهما من شبابه، وهيمنا على ماضي من حياته، نحو عشرين عاماً. وعندما كان يغمض عينيه كان يجد بيرينيس، بيرينيس في صورة مثالية.

حياته في هذه السيارة التي تكدّسوا فيها مع البطانيات والحمى، ومع النور الساطع، التي عبر شباك السيارة، العالق بهذا المشهد التافه من الطرق والقرى، كم كان غريباً أن يستذكر تلك الحياة التي لم يكدها يختارها، والتي لم تكدها تتناسب مع إرادته ما كان يمكن لأوريليان الذي عرفته بيرينيس أن يتصور مصادفات هذه الحياة. لقد عرفته بيرينيس في الفترة التي بدأت تنحل فيها أزمة التردد، وليدة الحرب الأخرى، وكان غريباً أن يعيد التفكير فيها الآن. أه نعم حينذاك أفسدنا على أنفسنا انتصارنا بدا لنا إذ ذاك أن النصر وحده كافٍ.. كنا ننتظر حياة جاهزة، آلية.. كان لابد من هذا الفشل المزوج، ضياع بيرينيس، وانهيار بارينتاتان.. حينئذ كان المطلوب بالنسبة إليه أن يعيد تكوين وجوده تكويناً كاملاً، كان عليه أن ينظر إلى الوجود بعينين مختلفتين. إن العمل في المعمل عند صهره والإدارة العملية التي اضطلع بها في المعمل بسرعة فائقة، لأن أوريليان الذي تغلّب على الكسل، كان في الحقيقة رجلاً قديراً، كما يُقال، كل ذلك أجبره على تبديل أفكاره. فعندما يُقذف بنا في الحياة العملية لابد من أن يُسائر مأنفك فيه شروط هذه الحياة. كان المعمل نهاية الهواية، ففيه يكف المرء عن مغازلة المفاهيم الأخاذة التي كنا نحب أن نحلم بها لما فيها من ضروب الخطر بالذات، لامزاح بعد الآن، لامزاح.

لكن الإنسان محتاجٌ الى نسبة ما من الإوهام، لابد له من الحلم لكي يتحمل الواقع. وكان هذا الحلمُ «بيرينيس»، بيرينيس المتماثلة مع جميع الأفكار النبيلة، مع كل ما يمكن أن يحتويه العالمُ من إباء ورفعة. ربط اوريليان بينها وبين جميع أحلام يقظته، منها استمدَّ النصيحة، وهي التي قادته الى جورجيت. أه! مع جورجيت وابنته وابنه، وإدارته لمشروع توسّع كثيراً بفضل الدعم المالي لآل «ارنو» ومن الواجب الاعتراف بذلك - قد يصعب التعرفُ على اوريليان الزمن الماضي الذي كنا نجده حتماً في حانة لولي نحو الساعة الثانية صباحاً، يصعب التعرفُ عليه في هذا الرجل النظامي، المكبّ على عمله.. إن الطريق من اوريليان ذاك الى اوريليان هذا لم يسلكه احد، ماعدا بيرينيس من تحت أهداب عينيه. بيرينيس هذه التي كان يحادثها... في هذه المنطقة الصناعية من «ليل» كان عليه ان يقيس قدراته ازاء مشكلات لم يكن يتوقّعها. ظريفٌ جداً ان نقول في أنفسنا: سوف نبقى خارج بعض الأشياء، لكن هذه الأشياء تأخذك بخناقك دون ان تكون قد فعلت شيئاً من أجل ذلك. السياسة مثلاً، ولو أن أحداً قال لليرتيلوا أنه سيكون ذات مساء من أمسية سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين مع الاف الآخرين السائرين تحت أشجار الشانزيليري، عند حلول الظلام! ذلك المساء، من السادس من شباط، لم يكن ذلك سوى نتيجة وهم. وهمٌ عنيد. وعندما يكون شباطُ المرء قد دمرته الحرب، أو في الحقيقة عندما لا يكون له شباطُ بسبب الحرب، فمن الطبيعي ان يؤمن بحركات المحاربين القدامى، وأن يؤمن بأن كل ما يجده فهو سيء الصنع، متعفن، ويمكن التخلص منه بأن يتحدّ مع الآخرين، مع الذين كانوا معك في الخنادق... المصيبة أن الناس كانوا منقسمين.. ولم يكونوا يؤمنون بالعقائد نفسها.. كلهم مستأثرون. لكنهم يقفون بعضهم في وجه بعض.. ومع ذلك فقد جاء اوريليان هذا المساء من «ليل» الى «باريس» مع الآخرين... كل شيء قد غرق في الهياج الشعبي، في الطلقات النارية، في الباصات المحروقة. الأمر غير مفهوم. وفي اليوم التالي، ظنّ اوريليان، بدهشة الموتى، وبالإحساس أنهم قد أثاروا البلاد، وأن الأمور

ستمضي بعيداً، وإن شيئاً لابد أن يخرج من ذلك. لكن لم يخرج شيء. لاشيء البتة، ضربٌ من الاختناق. وفيما بعد... كفَّ عن الإيمان بعمل هذه الجماعات المخوِّلة للعمل. بالناطقين الرسميين، الناطقين باسم الحرب. لابد من طرائق أخرى. لقد اعتقد بطرائق أخرى. لا الطرائق نفسها. كل شيء خيب آماله. الصراع السياسي والانتخابي في هذا البلد الذي يعيش فيه، لا أمل فيه. كان من أولئك الذين يؤمنون أنه لا يمكن إعادة صنع العالم إلا بالعنف. لقد استمع إلى هؤلاء وأولئك. لم يكن يحب أن يفكر، في هذه السنوات الأخيرة. كل ذلك للوصول إلى ما وصلنا إليه! ربما خرج الخير من الشر المستطير.. في هذه اللحظة، غمضت عينه، فرأى بيرينيس...

ماذا كان يروي «بيكفيل»؟.. إلّا نذهب هكذا سيدي النقيب؟ ان أرادوا الهدنة فالأفضل أن يفعلوها الآن..

دخلوا ضيعة لاشكل لها ذاهبة في كل اتجاه، مع شارع طويل، صاعد يتسلق كثف الوادي. ربما كان محور المدينة الصغيرة. لكن هذه تتخذ شكل الأسرور بأرجل جانبية، وشوارع أخذوا يدورون فيها.

قال «بليزو». انظر قليلاً، سيدي النقيب، هذا المكان قديم.. فيه منحوتات.. مع كثير من الناس...» لامجال للكلام. أخذت القافلة تتفكك في الزحمة، فجأة على ساحة عرضانية، محفّرة، أمام الطاولات الحديدية. وبيوت كليها منحرفة. الناقلات مصطفة، جهتها الخلفية إلى الرصيف. وعلى مئة وخمسين متراً جنود يتسكعون، وجماعة من الضباط، وجرال اجتاز الساحة تتبعه فئة صغيرة من أركانه، والمدنيون على عتبات بيوتهم. وكأنهم تراجعوا ليكونوا متفرجين. مرّ سنغاليون مكومون في عربات صنعت لاستعمال آخر. نوذي بالأوامر فتوقّف الرتل. شوهدت من الخلف سيارات الفرسان المحمولين. خرجت دبابة من شارع ودارت على نفسها. تراجع الناس.

قال النقيب ليرتيلوا. أين صرنا؟ لابد أنها ر.. إذا أخذنا برأي «بليزو»

أيده بيكفيل: «إنها ر...» سيدي النقيب... كان المطلوب أن يجدوا مأوى لهم.

« أه! سيد ليرتيلوا.. سيدي النقيب.. يعني... كنتُ سأُتعرّفك بين ألف

شخص...»

كان الصيدلي قد غدا ضخماً، تام الصلع، مع شعرات على صلته، بيد أن وجهه مازال فتياً. أما الكمّ الفارغ فقد اكتسى بطولاً عى مرّ السنين، لكون لوسيان موريل يعلّق في عروته الآن شريطاً غير واضح، ناصل اللون. كان الجو شديد الحرارة، وقد واجهت اوريليان أشياء كثيرة رآها دفعة واحدة. بيت بيرينيس، الناس، العجوز في مقعد مجدول بالخيزران، الكلب الأصهب الذي كان ينبع، النباتات الخضراء العالية.. كانت الصيدلية تطلّ على الشارع الرئيسي، مع تمثال لعذراء في زاوية الزقاق، وهي بناءً عال، قديم، يبدو سقفه من بلدٍ آخر؛ لكن المرأة الشابة ببلوزتها البيضاء، ويشعرها الجعد الأسمر، وبجسمها الملائق للبلوزة حتى ليظن أنها قد خرجت لتوها من الحمام، قادت النقيب من باب الشارع الضيق، دائرة حول الزاوية، الى المدخل الخاص لمسكن موريل، الى باب عالٍ يطل على فناء للتفرّج، مائل، واقع بين جدار بلا نوافذ والمزل... فناء مثلك له أرصفة حجرية حول مركز من الحصا الناعم، ونباتات خضراء كبيرة في أصصٍ خضراء وطف غير متناسب مع مدخل الشقق، وأزهار في أنية زرقاء وبيضاء، ويجنبها سفن. والناس يشكلون زمراً ببزات رسمية وفساتين خفيفة، ورجال بالقمصان وحدها. سأل الصيدلي الذي انشق عن إحدى الزمر. أول الأمر: «ما هذا جيزيل؟» وتبيّن من سؤاله على الفور العلاقة الحميمة القائمة بين جيزيل وبينه هيئة المالك. وكان واضحاً وضوح النهار أن ذلك الشاب المعروق والأصفر الذي يلبس قميصاً ذا مربعات صغيرة والذي نهض، يتألم من تلك الحميمة: كان يمسك بيده أغصاناً كبيرة أوراقها مقطعة، شديدة الخضرة. والأرجح أن المرأة العجوز عمياء. كان هذا هو الدكتور «سوربان» ومعه المساعدان الصحيّان. احتفوا بليرتيلوا، وقف الرجلان اللذان ربما كانا هنا مصادفةً ولوحاً بالتحية.

«أه! يا للعجب!»

كان البيت عتيقاً، وربما من القرن السادس عشر، وقد جُصِّص من جديد علم نحو مقبول، وكان في هذا الفناء المستور أقفاصُ تغرَّد عصافيرها، وكلها من الكناري، لكنها بدت لأوريبيان ملونة بألف لون. وكان ثمة هرُّ يلعب بكبة السيد التي تسرد، والمرتدية ثوباً أزرق سماوياً، وعلى حطام عنقها شريط أسود عريض. جرى التعرف مصحوباً بالأصوات. انسحبت جيزيل صاح به الصيدلي: جيزيل، احزري مَنْ هذا؟ لم تحزري جيزيل. «هو السيد ليرتيلوا أتعلمين، أوريبيان ليرتيلوا...» وكأنه يقول فيكتور هوغو. أحسَّ أوريبيان بالضيق الحمي أكثر من هذه الشهرة الغريبة. عادت جيزيل إلى المحلِّ عبر البيت. وكانت تسير القهقري تقريباً لتحسن رؤية السيد ليرتيلوا الشهير. سارع الشخص المعروق ليمسك لها الباب الزجاجي الذي أوشك تيار هوائي غير متوقع أن يصفقه.

قال سوربان بذهول: أتعرف النقيب؟ تخلَّى «بريمون» أحد المساعدين للقادم الجديد عن كرسي القش. ما أحلى الجلوس، كان هناك أكثر مما تتحملاً الرؤية والسمع.. إن ذلك مرهقٌ مثل عرض مسرحي. جميع الأشياء المقدرة الكلمات النافلة والضرورية، ذقن الصيدلي المضاعفة، العجوز التي لاتفهم، ولا تكاد تسمع، والتي أخذت تستعيد اسم ليرتيلوا. «السيد ليرتيلوا؟ لا أذكره. السيد ليرتيلوا.. أليس ابن عم «بريزانج»؟ «وينفجر لوسيان» مالك ماما، مالك؟ السيد ليرتيلوا... أوريبيان ويتضح أخيراً كل شيء، هناك أصواتٌ مختلطة، وسوربان الذي يصر. «إذن هذه مصادفة!» وأسئلة المساعد القصير، والشخص المعروق بلهجة راعدة: «يجب أن نخبر بيرينيس.. كانوا يشربون شراب اللوز في كؤوس زرقاء، بدا الجميع مطلعين حتى الرجلين المارين اللذين استقهما فقالا «آه» ونظرا معا إلى الوافد الجديد. كان لأحدهما عقدة في جبينه. سمع صوت الراديو في غرفة مجاورة. كان الحصا ذا لون غريب، ليموني تقريباً، بسبب مسحوق الأجر الذي امتزج به، من غير شك. بدا البيت مليئاً بالظل، إذ مشربيات النوافذ مغلقة. ومن الباب المفتوح، شوهد التماع النحاس فيه. أنت العجوز وحاولت أن ترى بوضوح أكبر وعبر نظارتها القادم الجديد.

قالت. «اعذرني، كل ذلك بسبب هاتين العينين الرديئتين... إذن أنت أوريليان بيرينيسنا؟ أحسّ أوريليان بتعاضم الضيق. ماعنى هذا؟ انحنى الرجل الهزيل المديد الجسم، وهمس: «لاتندهش، أنت هنا كالكاثن الأسطوري...» وضحك لوسيان موريل ضحكاً مهزوزاً، دُعيتُ الخادمة، بنت ستة عشر عاماً، قوية، فجاءت بشراب اللوز، كان فيه حلاوة لكنه بارد. أخذ «سوربان» يروي من جديد حيلة، كان في مكان ما في جهات «البان سان نازير» أكانوا يصغون إليه؟ نعم فتاة طويلة حزينة، شديدة السمرة جالسة، متراجعة قليلاً، لم يلحظها أوريليان في أول الأمر: في ثوب كتانيّ مخطّط رمادي وأسمر، وذراعاها قد لوّحتهما الشمس حتى يياض الكم القصير الذي كان يمكن ان ينزل الى أدنى مما هو عليه... عالم بيرينيس حيث تدحرجت خوذة «فينستر» الملقاة أرضاً قرب الصندوق الأخضر، بجانب خريطة «ميشلان» التي طويت طيّة سيئة.

نقّ لوسيان بصوت متحمّس:

- كل الأشياء وصلت في وقت واحد، الحرب، الهزيمة، جميع هؤلاء الناس الذين يمرّون في بلدنا، السيد ليرتيلوا بعد كل تلك السنوات! أتعلم، ياسيد ليرتيلوا، مَنْ كان عندنا منذ ثلاثة أيام، لا، أكثر من ثلاثة أيام (لم نعد نعرف كيف نعيش).. ادمون.. نعم، ادمون وكارلوتا.. آل بارينتانا... في سيارة، كان ينبغي ان ترى ذلك! اللحفُ على سطح السيارة، والبطانيات وصناديق، صناديقاً شيء لا يُصدّق! كانت كارلوتا تحمل جميع ثيابها.. جُنّ الناس، أضاعوا دماغهم! أنا، إن وصلّ الألمان الى ر...

صاح الشخصُ المعروق:

- لن يصلوا إليها...

قال سوربان:

- إنني لأخشى ذلك.

أردف لوسيان.

- أما أنا فلن أرحل من هنا، وليذهب مَنْ يشاء... لكن ماذا تفعل بيرينيس؟ ستجنّ إن عرفت

تحرك الرجلان الدميتان، كان على أحدهما سترة من الكتان رزقاء مفسولة ألف مرة، وكان الآخر ظلاً لوقاره، مرتدياً الثياب اليومية التي أرقق نفسه بها وله لحية قصيرة تحت الورم .

صاح لوسيان.

- لا تقل لي إنك أخذت غرفة في مكان آخر! لن أسمح بذلك! دعك من ذلك، دعك! سيذهب الجندي المرافق ليحضر أغراضك! قال سوريان.

- وفوق هذا، فالنقيب موضوع...

حينئذ جرى ما هو أدهى، إذ تدخلت السيدة العجوز وصاحت أن حمّاماً حسن السخونة.. كان على الجميع عرق مصفر، لاحظ الصيدلي أنه لم يبق بسكوت صغير... «يا الهي! كيف نستقبلك!... عندي ماراسكان»... نعم، نعم، لكن لعل «الأرمانياك» أصبح لحالتك؟ دكتور؟ مارأيك؟ الأرمانياك؟ حسناً، وأنت نفسك، وأنت مريضاً؟ سأحضر الأرمانياك وأنت، غاستون، أرى السيد ليرتيلوا الغرفة الصفراء، وسيخبر الجندي المرافق لك أحد هؤلاء السادة.. هرع مساعدوه. أنا! لا، أنا! جلسوا جميعاً معه، لم يكن للنقاش من جدوى. والحقيقة أن أوريليان كان يشتهي اشتهاً عظيماً أن يستلقي، تبع غاستون حين وجد غاستون. بدا له المنزل، في نوره المخفف مليئاً بالقماش القاتم، وبأثاث من طراز فلاحى، وخزائن للأطباق مقلدة بالخزف المزخرف، وبالصحن على الجدران. أه نعم، فالصيدلي من هواة جمع الصحن، حاول غاستون الهزيل في طريقه أن يشرح عن قطعتين أو ثلاث قطع نادرة، على نحو سريع. كان يود أن يُحرز سبق على رب المنزل، ويبطل تأثيره. لم يكد أوريليان يستمع إليه، كان يعبر منزل بيرينيس في ضَرْبٍ من الذعر يقارب الغرابة، كان كل شيء في مكانه المناسب، الدهان الذي جدد حديثاً، وذوق «الأحياء الثلاثة» في ذلك كله، هذه

الحداثة القديمة الزائفة، هذه البساطة في ألف تفصيل، تلك التحف المقبولة إذا نظر الى كل واحدة على انفراد. كان اوريليان يحس بأنه ضخم، هائل في هذه الغرف التي ليست بأكبر أو بأصغر من غيرها. ولعل ذلك بسبب حذائه الوسخ. وكان يبدو له أن حركة خرقاء ستقلب كل شيء. كان ذلك فريداً جداً. في غمرة الحرب، ومع قافلة الصباح، والمعلومات عن تقدم العدو. الألمان في ر... كابوس... لم يصلوا بعد، لكن لا بد من ذلك... انفتح الباب على الغرفة الصفراء.

« سيدي النقيب، خذ راحتك، على الخصوص... وإذا مانقصك شيء... فلا تتردد... لن تغفر لنا السيدة موريل... »

لابد ان تكون تلك الغرفة في الزاوية، مع نافذة على الزقاق. وأخرى على الشارع الرئيسي، فوق الصيدلية. وكان فيها رفوف عليها كتب، دائرة معارف «كيبه».. سرير أريكة.. مقاعد كبيرة من المخمل الأصفر لها مساند للرأس.. فتح غاستون باباً على غرفة الحمام، وطشتاً في خزانة، وفتح الحنفيتين ثم أوقفهما. الماء جارٍ، يا لها من أعجوبة! خلع ليرتيلوا حميلته. وضع رأسه في هذا التيار البارد. كان الآخر ينظر إليه وهو يفعل ذلك. «سيدي النقيب..

ماذا يُريد هذا الرجل العاجي الغريب؟ أدار عينه نحوه من تحت الحنفية. كان في صوت غاستون ذلك الانزعاج الذي في اسطوانة بالية.

- «سيدي النقيب... اعذرني إذا تدخلت فيما لا يعني، لكن... إنك تُوافي هذا المكان دون ان تعلم.. أود أن أخطر... بسبب بير... بسبب السيدة موريل على الخصوص..

قال اوريليان:

أرجوك...

وامتخط في الماء. رأى ان لغاستون عينين جميلتين، عيني كلب أمين مع عريق صغير تشظت حمرة في بياض إحدى العينين، جلس غاستون متعمداً على احد المقعدين الأصفرين وصالب ساقيه

الطويلتين. رفع البنطال عن جورب لولبي الشكل، وداعب ريلته المشعرة، انحنى ليحسن الكلام. رُسمت علامة الغاسلة على كتف قميصه ذي المربعات الصغيرة الخضراء والخبازية على أرضية بيضاء، قال بلهجة مَنْ يُسرّ سرّاً.

- أولاً يجب ان تعلم أن موريل وزوجته غريبيان أحدهما عن الآخر منذ

سنين.. هل رأيت «جيزيل» المتمرّنة في الصيدلية، فهمت؟

تنحنح قليلاً، قال اوريليان بجفاف:

- هذا لايعنيني...

هزّ الآخر يده:

- بلى، بالضبط... بلى.. يجب أن تعلم، سوف ترى السيدة موريل، فهي

لم تخرج إلا للحظة.. إن كلمة واحدة منك، إن لم تعلم، كقيلة بأن تُفسد كل

شيء..

لم يقبل احتجاجات اوريليان، وتغلّب عليها بصوت غدا حاداً على حين

غرة:

- إن بيرينيس تعيش على الذكرى منذ عشرين سنة... أتفهم؟

لا؟ أنت حياتها، كنت حياتها كلها..

- هذا سخيف! لم تقول لي ذلك؟

- هذا أولاً، ثم يجب ان تعي قبل أن تلقاها أنه عندما تكون كل حياة

المرأة...

دفعه ذلك الى الكثير من التفكير، جلس على حافة السرير، ولاحظ، دون

أن يعلم حقاً لماذا، الرسم المدموغ على الغطاء الأصفر، كانت قدماء تؤلنانه،

وصعّب عليه فكّ عقد رباط جزمته، ألقى فردة الجزمة على الأخرى، كانتا

إنسانيتين على نحو غريب، مثل يدين متصالبتين، سحب ليرتيلوا قدميه اللتين

أذاهما الجلد، وتناولهما بين يديه الواحدة بعد الأخرى، مع الجورب الرمادي

المبقع، كان بحاجة الى أن يستلقي، تابع الآخر كلامه...

- ظل لوسيان زمناً طويلاً يحاول أن يستميلها إليه، لم يكن يريد أن يقبل

فكرة.. ثم ما الحيلة؟ الحياة أقوى... كانت له صوابه... وبقيت وحدها. عدت ذلك في البدء بركة.. والآن، لكن كيف لم تدرك ذلك من النظرة الأولى، «جيزيل».. إنها تدرس الصيدلة في تولوز، جاءت الى هنا في العام الماضي... إنها فتاة غريبة الأطوار، فتاة أنيقة..

كان كل شيء يصل الى اوريليان عبر ضباب ضوء كابوس، عدم تماسك الأحلام، منطلق النوم. وكان ذلك يمتزج بمرارة الأيام الأخيرة، بهذا الشعور. شعور السقوط في بئر. بذل الهزيمة، بعدم قابلية ما يحدث للفهم... ماذا قال الصيدلي قبل قليل عن ادمون وكارلوتا؟ كان الرجل الغريب يتلوى على مقعده. كان في عينيه هوى الشباب، وكما يكشف بغمه البشع، فم تأباه النساء، ماذا كان يقول؟ إنه كان يحبها، هو؟ من هو؟ وجيزيل هذه... لا، غير ممكن؟ كان عاشقاً لبيرينيس... أه من أجل هذا... ماذا كان يقول عن أمها؟ تذكر اوريليان بغموض قصة أم بيرينيس التي سافرت الى افريقيا.. وقال شيئاً بهذا المعنى. - لكنك رايتها، تحت، إنها العجوز بالثوب الأزرق!

أه السيدة العجوز أم بيرينيس، لقد عادت! إذا صدق غاستون فإن قصة حياتها انتهت بالفشل. فقد تركها صاحبها عندما كبرت. وجاءت الى جوار ابنتها لتُنهي هذه الحياة المحكوم عليها بالموت. الحق أنه لو لم ينتزع من غاستون هذه الكلمات، فإن ماكان يشترك الى الكلام عليه هو حياته، طفولته والده الرياضي الفذ.. سُمع من بعيد صوت انفجار. ونظر غاستون الى النافذة بقلق: «ما هذا؟»

همس اوريليان: «قنبلة طائرة».

وانقلب على سريريه ويدُه على عينيه. ودَّ حقاً لوينام.

- «في ظلها»، منذ ست سنوات عشتُ في ظلها... مع هذا الشبح إزائي.. لاحيلة لي على هذا الشبح.. وها أنت ذا، وأنا أكلّمك، أنت مضطجع في الغرفة الصفراء... لقد كرهتُك، لكنها تحبّك..

كل ذلك كان غير معقول.. جورجييت، استنجد اوريليان بصورة

جورجيت. لكن صورة جورجيت لم تتشكل في عينيه المغمضتين. فكان جورجيت والولدين قد غرقوا في زاوية مظلمة من ذاكرته. وهذا العالم الذي تهزّه الجلبة. صوت غاستون العتيد.. غاستون ماذا؟ على كل حال..

- حينئذ، كنت أستقلّ سيارتي الصغيرة.. عندي سيارة «وسنر» قديمة.. وكنت أهرب الى الريف... أتعرف الريف في هذه المنطقة؟

سقط اوريليان في ظلمة رجراجة. وبه ذلك الإحساس بالخطأ، إحساسه بأنه لا ينبغي ان ينام، في وسط قافلة ليلية، عندما يبذل وسعه، يجنب السائق، ألا يغيب عن نظره المربع الأبيض المدهون في مؤخرة السيارة التي تسبقك، في الغياب الكلي للنور. المربع الأبيض الذي ينأى ويدنو. بخطر، المربع الذي يرقص أمام العينين المحملقتين، المربع الأبيض الذي لم يعد سوى مانحلم به، ما نراه، المربع الأبيض للواجب غير المعقول، للسهرة غير المحتملة..

أين كان؟ على تلك الطريق في شمالي «آراس»، حيث كانت تضطرب على نحو ملتبس كتلة بشرية مجزأة، في تلك الليلة من ركام الانقراض المهددة والمأتمية، وكانت تشتعل في مكان ما ناقلةً محتركة وارتضى سكيراً على مراقبة السيارة وهو يبغى أن يسوق بهم، فالتقاء اوريليان بقدمه التي أسندها الى صدره..

وفجأة أحس بما في الصمت من مخالفة للمألوف، مثل غطاء ينسدل عليه. تحرك في الفراش بإحساس من الضيق. لم يكن بحاجة الى أن يفتح عينيه، كان يعلم أنها هنا، ان بيرينيس هنا. وفتح عينيه، كانت بيرينيس هنا.



كانا وحيدين في الغرفة الصفراء. وقد تلاشى غاستون، لم يبق مايراه سوى بيرينيس، لكن كل شيء كان يحلّ محلها، كان يصرف انتباهه، صورة عاصفة ومغارة، تتقدّم فيها، في آن واحد، خرائب رومانية وصيادون، وقارب يغرق في إطار أسود.. وما على الرفّ الى اليمين غرق في الضباب... وبيرينيس... وعلى حاجز مدفأة رسم ديباج زعفراني حنوّه مختلطة بمحارٍ وبقرون وفيرة مع زبد ثمار أو أزهار.. وبيرينيس، قالت:

- ينبغي ان تلزم الفراش، فالطبيب يقول أنك لست في صحة حسنة... ارتعش لهذا الصوت الذي ظلّ مألوفاً، كان السرير يهرب من تحته مثل سفينة. تمكّن من الجلوس، وهو ساهم، وأمسك بيدي المرأة. تركت له يداً. وبالأخرى التي أفلتت سحبت الوسادة من تحت الأغطية. وسندت خاصرتي ليرتيلوا.

- بيرينيس..

ماذا بوسعه أن يقول وراء هذا الاسم الذي يلخص كثيراً من الأشياء التي لا سبيل الى صياغتها؟ فهمته، وابتسمت ابتسامة شاحبة:
- نعم.. أوريليان... كان لابدّ من أن تكون الأشياء هكذا...

أخذ يراها رؤية أوضح. لم يكد يتغيّر وجهها، لعل قسا، واشتد بروز الفكّين. وظلّ التعبير هو نفسه، لكن الأجفان كانت ثقيلاً، ومصبوغة قليلاً، ثم إن الشمس لوحتها. وقد صُفّ شعراً على نحو مختلف، مع عقائص في المقدمة، وطوق حيث كان كيّ المزين محسوساً، ولعل لون الشعر قد نصل. الشيء الجوهري لم يكن هذا الثقل الخفيف في قامتها، لكنه كان في الوجه: السرّ المفقود، ربما كان رونق الوجه. وقد صبغت شفيتها بالحمرة أكثر كثيراً من ذي قبل، ولعلها قد وضعت شيئاً منها قبل أن تدخل الغرفة الصفراء. خفض أوريليان عينيه، وكرّر:

- كان لابد ان تكون الأشياء هكذا ..
 لاحظ قدميه الحافيتين، فهبّ كمن سينهض، أوقفته،
 - هلا بقيت، هادئاً، يا صاحبي، ولا تتكأف معي...
 كانا صديقين قديمين، وهو لم يرها منذ «جيفرني»، في ربيع السنة الثانية والعشرين، أي منذ مايزيد على ثمانية عشر عاماً، قال:
 - كان يمكن أن يكون لنا ولد ابن سبعة عشر عاماً.
 أشاحت بوجهها، فاستغل هذه الحركة ليقول:
 - بيرينيس.. لم لم تكتبي إلي قط... ولم تجيبي قط؟
 - جاءت رسائلك متأخرة جداً، كانت تصل في أزمته شتّى، ولو أنني أجبتك.. ما الذي كان سيغيره جوابي؟ على كل حال، لقد أجبتك، كتبتُ إليك، يا اوريليان، كل أيام حياتي..
 - لكنني لم أتلّق شيئاً!
 - لاشك، وذلك لأنني لم أرسل شيئاً.. قط
 ربما كانت في الثانية والأربعين، وهذا الفستانُ البيج، السابل، لآخر فيه. وقد هزلت ذراعاها قليلاً، وكان الوشاح الصغير الذي برزتا منه نون كم يدور كنفها، ولا يزيد في حسنها.
 تمشت أصابع أوريليان الواهية صُعداً وببطء في إحدى الذراعين الباردتين، يالللغربة! لم يعد يستطيع أن يفكر في جورجيت لم يعد يعلم ماهيئة جورجيت، قالت بيرينيس:
 - ينبغي ان تظل فصيلتك هنا وقتاً كافياً لتتمكن من الاستراحة..
 عاد كل شيء في هذه الجملة، الحرب، الانسحاب، الألمان الذين سيبلغون ر... إن لم توقع الهدنة مباشرة، وقد طال انتظار هذه الهدنة.. والشعور بضعفه، والحمى في عروقه.. إن ظروف هذا اللقاء كانت تتدفق على هذا اللقاء مثل موج اعتدال الربيع، وكانت تلك الظروف تتخذ أهمية مبالغاً فيها، الظروف. نوى ان يقول جملة فقال غيرها: «هل مرّ ادمون من هنا» أجابت نعم

بجفניה، بهذين الجفنين المسمرين اللذين كان عليهما بقعٌ صغيرة، بل شذرات.
لم تعد شابة، ولا شك أنها قرأت ذلك في عينيهِ، وبدرت منها حركة بكتفيتها
وذراعيها كأنها تريد أن تحمي نهديها من نظرة الرجل. قال.
- ألم تنسيني؟

وكم كان الصمتُ. شاقاً فكان عليه أن يضيف..
- لقد أفسدنا حياتنا..

حينئذٍ قالت بشيء من المرارة، وهي طبيعية مع ذلك، وعلى وجهها ذلك
التعبير القديم الجلي الذي ما إن شوهد ثانية حتى استحضر دفعةً واحدة ذكرى
مقهى على «الجادات»، ونوراً باريسياً من كانون الثاني:
- امرأتك جميلة.. أروني صورتها.. وصورة ولدك..

ماهية جورجيت؟ لم يتذكّر منها سوى الفساتين، الولدان.. حركةٌ محدّة
ذلك كله. كانت الحمى تلطم صدغيه. كانت في أوريليان قوة تدفعه الى الكلام.
وكأن شخصاً آخر غيره يتكلم:

- لا تصدّقيني، إن شئت، بيرينيس... لم أحب قط غيرك... وأنت لم
تفارقيني قط... ولم أسف على شيء من شبابي.. إلا عليك... إلا عليك... وددتُ
لو أقول لك.. طوال هذه السنوات جميعاً، كنتُ أهيةً جملاً للنهار... ثم إن
النهار كان مختلفاً عما كنتُ أتصوره.. اعذري هيئتي؟

ضحكت ضحكة طفولية، متحرّجةً، وقالت:

- أهذا ما هيّاته لتقوله لي؟ لاتعلم كم خفتُ عليك، حين علمتُ أنك
مُستنفّر. لكن البقاء هكذا دون أخبار! لأنك منذ خمسة عشر عاماً لم تكتب إلي..
وعندما مرّ آدمون وكارلوتا منذ مدّة..

كانا لايعلمان شيئاً عنك... قيل إنك ربما التحقت بالجيش على
«السوم».. يا الهي! أي كابوس!...

ظل ممسكاً بالذراع العارية، شدّ عليها، بذلت قصارها حتى لا تُجهش
في البكاء، ومرة أخرى تقدّمت الظروف، فهمس.
ياله من عالم غير معقول! لقد أفسدنا حياتنا، لحياتنا نحن الاثنين فقط.

بل حياتنا جميعاً وكل شيء. انتصارنا كان ينبغي...

توافدت الى حنجرته كلمات، جميع الكلمات التي كان لايفتا يرددها هؤلاء الرجال المغلوبون، هؤلاء الضباط فيما بقي لهم من سلاح، وسط الجند المتألمين الثائرين. جملٌ جاهزة، تفسيرات سريعة، اعتذارات، أفكارٌ مبتذلةٌ تتولد، كلمات جديدة متجمدة، انتقلت تدريجياً، من وحدة الى وحدة، في هذا الجيش الذي كان يرى كالهاجس مقدمة «البيرينييه» المتدرجة، والذي كان أفرادُه يقولون في أنفسهم «وماذا بعد ذلك؟» الكلمات المحرقة والمهدئة التي كانت تلقي مسؤولية الفظائع على أشخاص وهميين، على أشباح.. وتسمح بمتابعة الحياة، والتخلص بلباقة... كانت بيرينيس تصغي إليه وهو يتحدث عن كل شيء ماعدا الحب... ولعلها أحست إحساساً غامضاً أنه يقرن جميع ضروب الخيبة بعضها ببعض، خيبتهما، خيبة الجميع الكبرى، وجميع ضروب الخيبة في حياته، في هذه الكلمات التي لم تكن عندها كلمات مكرورة، والتي لم تكتسب بعد ذلك الطابع الآلي الذي ستكتسبه، فاشتتت أن تناقشها... وحاولت مرةً أو مرتين أن تعترض على تلك الأشياء التي يقولها، لكن تلك الأشياء كان فيها شيء من نبرة الهذيان، ويجب ألا يغيب عن البال ان اوريليان كان محمواً..

- يحب ان تنام، يا صاحبي.

أخذ يتوسع، بخشونة مفاجئة، وبلهجة انتقامية، في موضوع السهولة. كانت هذه أول مرة تسمع فيها بيرينيس ذلك، ونسيت قليلاً من المتكلم، وحمى ليرتيلوا. والغرفة الصفراء، فقالت:

- لست أفهمك، من الذي كانت الحياة سهلةً عليه، سهلةً الى هذا الحد؟

نظرت إليه فجأة وكأنه غريب، لا الى اوريليان احلام يقظتها، اوريليان الزمان المنصرم، اوريليان شبابها، وكأنه رجلٌ آخر: شخص كبير، اسمر، ذاكن السمرة، خف شعره، وأبيض عند الصدغين، وتحدت تقاطيعه، شخصٌ طويلٌ وهزيل، وكأنه محزومٌ بعضلاته، ضابطٌ فرنسي ارعدته الحمى ونزع سترة النقيب وتهالك هناك، على مسند كرسي، خلع جزمة الطيار، وجلس على السرير

الأصفر تسنده وسادة، في قميص خاكي، وبنطاله مربوط عند الساقين، وهو يقول كلمات يصعبُ هضمها، وفي وجهه تشنجات غير معهودة. أكان أوريليان حقاً؟ لقد حلق نقنه قبل أن يأتي الى بيتها. لكنها كانت حلاقة سيئة، فقد ترك شيئاً من الشعر المزرق عند قرن الذقن، كان الآن يتهم السياسة. هزّت كتفها: - أوريليان... ونحن، نحن نتحدّث في السياسة الآن؟ كان بينهما ارتباك كبير.



تراجعت الحمى، عند المساء. وبالرغم من تعليمات الطبيب، قصد ليرتيلوا الذي حلَّ في بيت «موريل» الى مكتب الفرقة ليرى ماذا يجري. كان عليه أن يصعد الشارع الطويل الذي يتسلق رابية بيوت المسكنة المستندة بعضها الى بعض، وبناء قوطي طويل، ليبلغ فندقاً صغيراً منعزلاً خلف شباك رمادية مغطاة بشجرات الورد التي كادت تتعري من ورودها. كان ثمة حركة لأتصدق لرجال من جميع الأسلحة قلما يحيون الضباط، وجنود من السنغال عند مفترق الطرق، وجماعة من الجنود المشاة يتصايحون مع امرأة ضخمة كانت تصرخ من شباك بيتها الأرضي بكرها للجند، واستعجالها أن ينتهي ذلك، وأن يأتي الألمان أخيراً ليحلوا النظام. ولم يكن المدنيون على العموم، يُظهرون الود. وكانت تمر سيارات غريبة. وكانت الفرقة تقيم في ثلاث غرف مظلمة في أسفل مسكن تفوح عفونته، وفي البهو المعتم، تماثيل بالحجم الطبيعي لمقاتل من ١٨٧٠ ورجل بيتسم ويمد منديلاً لامرأة غير مرئية. همس العريف الشاب الذي أدخل أوريليان الى المقدم «بوبيه» كان والد السيدة غريزوري قُناناً..»

كان المقدم بين خرائطه الكبيرة المقياس، بوجهه الضخم الأنيس وشعره الرمادي، وهو يشطب عليها بالقلم الأحمر والقلم الأزرق، حتى ليُخيل إلينا أننا في أيام دخول بلجيكا. «آه! أهذا أنت، ليرتيلوا... اعدرتني، فقد يبدو الأمر... وضع قلبيه وتنهَّد: «وصحتك؟» أكد ليرتيلوا انه على أتم الاستعداد. فرك الآخر منخريه. كانت هيئته كهيئة كلب «دوغ» عاطفي، وأدنى وجنتيه تثيران العطف. «حسناً، سنوَجِّل هذا... نعم.. سنحلّ محل الفرقة التي حلّت محلنا أمس... لقد أزلقونا نحو الجنوب، بسبب رتلٍ أليّ اخترق في الغرب، على حد فرا، بعض الناس الحسنى الاطلاع... ثم بحث عن هذا الرتل، فلم يعثروا عليه لافي الغرب ولا في... مزح بلطف، لكن بدا عليه التعب. كانت تحملُ إليه أوراقاً ليوقعها، وحشرج: «سنظل نوقع أوراقاً حتى عندما نكون في «سان سيباستيان»! ثم التفت الى أوريليان:

«وأذن فسوف نصعد من جديد.. خمسة وسبعين كيلومتراً نحو الشمال هذا المساء.. يا الهي! متى تنتهي هذه الحرب التي لاجدوى منها؟ وكيف نقول لهؤلاء الرجال اذهبوا وقاتلوا حتى الموت في حين تُفتحُ المدنُ، وبينما يسبُّنا المدنيون، وعندما نعلم أننا مغلوبون! سأترك هنا، ليرتلوا، مع رجالك.. لستُ بحاجة إليك للرياضة.. وقد أفرزت في الإعاشة الى السنغاليين... وإذا مانزلوا من هنا فتشبتُ بمطابخنا... ربما غداً مساءً... هل رأيها، أنت الحرب الأخرى؟» كانت ضحكة المقدّم مريرة. وكثّر. فتهدّلت وجنتاه، من كل الجهات حول أنفه الأفطس، «أنت حاربت في الحرب الأخرى؟ أليس كذلك؟ لا أنصحك في الإكثار من الكلام عليها..»

لم تخفّ الحرارة مع مرور النهار، واختلطت بالبنزين والعبار. السماء وحدها أظهرت شيئاً من الرقة بين البيوت، حيث الشوارع تنفتح على الغرب العجيب الاختراع للساتان الوردي واللون البرتقالي في أواخر الانعكاسات على الزجاج. وكانت تُرى الأشجار خلف جدار وقد بدت كأنها استيقظت لتوها. مر اوريليان على مركز السريّة. لم يكن أفرادها مغبونين الى حد كبير. كان لابدّ لهم من انتظار الصباح زمناً طويلاً يُسمح بالدخول، وتدبّر أنفسهم، والنوم كيفما اتفق. لكن الامور انتظمت. وقد سهر «بيكفيل» على كل شيء بينما كان النقيب يرتعد على سريره. «لاتقلق، سيدي النقيب، فعندهم كل مايلزم.. إذن سنذهب؟» لا، سوف يبقون. «ستتناول طعامك» معنا؟ رُتب المطبخ في المدرسة.. المعلمة لطيفة... لم يكن يستطيع البقاء، فال موريل ينتظرونه، وكان يفضل ان يشارك جنوده طعامهم، نصيبهم. وهل يقبل «بيكفيل» على العكس، أن يأكل معه، عند آل موريل؟ رفض بيكفيل بسبب المعلمة. كان نورمانديا ظاهر النعمة، ممتلئاً، لاتتنيه الهزيمة، صياداً بالفطرة، ولايطارد غير النساء؛ والعجب ان هناك من يزعم ان الفرنسيين في سبيلهم الى الانحلال!

البطء الذي تجشّمه اوريليان ليعود الى منزل «موريل».. هذا العشاء: ستحضره الأم العجوز العمياء، والمتمرّنة الصغيرة، وعشيق بيرينيس، وإصيدلي، والحديث... مستوى هذه الحياة الريفية... كان الصيدلي يقرأ

«ديهاميل» و«جيرودو» ويعجب بـ «سيزان». وكان يعرف ماله أهمية ومالا أهمية له. ثم كانت هناك الصحون. نموذج ايطالي منسوب الى شخص ما، دي غيببو.. تذكر أوريليان شارع «واغرام». لماذا شارع واغرام فجأة؟ ربما بسبب «فندق سيراميك» مقابل «الامبير»...

الغريب ان ليرتيلوا لم يكن يستطيع ان يتصور المستقبل، الاشياء عن المستقبل، ولا اليوم التالي، ولا الأمسية. المرء هكذا في العشرين، لكنه عندما يشرف على الخمسين.. لم يكن يتخيل انه سيتابع حياة التنقل هذه ولا أن يتركها. جورجيت، والولدان... المسافة التي قامت بين جورجيت والولدين وبينه.. خيل إليه أنه لن يستأنف أبداً حياة ما قبل الحرب... العمل هُدم. كان فصلاً منتهياً منذئذ. جورجيت، كل حياته مع ذلك. وكيف يقارن بيرينيس، الأربعين سنة التامة من عمر بيرينيس بنضارة تلك الأم الشابة، الناصعة البياض، المليئة بالحيوانية، العظيمة الإمتاع... لقد تبين له أنه تصرف طوال هذا اليوم - ودون ان يصوغ ذلك بوضوح - وكأنه سيمضي ببيرينيس، وكأنه سيعيش معها، وسينسى كل شيء من أجل بيرينيس. كان يخضع لهيمنة هذه المرأة، لحب هذه المرأة الهائل. دعاها لابد انها فكرت في تلك الأثناء، في شيء آخر غيره وهل نسي «بول ديني». وما كان أوريليان يقول في نفسه هكذا قلما كان يُصيبه هو. لقد مرّه هذا التعلق قبل عشرين عاماً أو نحوها وراوده إحساس بالذنب إزاء بيرينيس وأراد أن يتدارك الذنب. وعبثاً حاول أن يحتمي ببول ديني... حب بيرينيس.. ودّ لو يُعطي حبّ بيرينيس هذه النتيجة، هذا التآليه... كان به دوارٌ هو أنه أخيراً فردوسٌ آخر. حلم اليقظة هذا كان يسكب شيئاً من عظمة قصة الحب التي لامثيل لها على أنانية رجل ابن خمسين يحمل في ذاته الهلع من شباب امرأته، على كل حال لم يعد يفكر بامرأته. وكل ما قد ذبل من بيرينيس كان حجةً تتضاف الى رصيد هذا الدوار الخيالي.. كان يتحنن على نفسه قائلاً: «كم تغيّرت!» علا صياح المذيع من إحدى النوافذ: صوت الحقد العنيف الذي كان يصرخ احصوا رجالكم! اتبعوا تعليمات حاملي البطاقة الصفراء! ما المقصود بذلك؟ مرّ أوريليان كتفيه.

كانوا يتناولون طعامهم في الفناء، حول طاولة كبيرة مدورة، غطاؤها أزرق وعليها ثلاث كؤوس ثقيلة حسنة الصنع لكل شخص. لم تكن الأرض قط برتقالية مثلما هي في هذه الساعة من آخر شمس، مع ظلال بحرية وكأئها القار الذي يقطع الطاولة وأجسام المدعوين، كل ما بقي من نور ساقط على السيدة العجوز العمياء، وردي متوهج، وكأئها يسخر سخرية الخادمتان، الفتاة ذات الستة عشر عاماً الجميلة والقوية التي رآها اوريليان من قبل، وامرأة تجاوزت الشباب، منهوكة، لها نواذب طويلة سوداء على وجه قرايبي تنور حول الأكلين مع الأطباق، والأواني الفضية، ورائحة الحساء. وكان لجيزيل في تنورتها السوداء وصدرتها الشفافة من الشيت الأبيض التي تشف عما تحتها من شرائط وردية، نضارة السمراوات الفتيات، نضارة كأئها من ثبع الجبل. لكن في ابتسامتها شيئاً سوقياً. ولاشك ان موريل مغرم الى حد الإسراف. فهو وإن وجه الحديث الى تلك الفتاة الكبيرة الحزينة. ابنة عمه، بذراعيها، وفستانها المخطط المصبوغ، والأسمر، التي كانت تجيبه بكلمات مقتضبة، وإن التفت نحو النقيب وفي عينيه اضطراب شديد، وأن مرر الأطباق نحو بيرينيس، وإن تسال مع الرجال، فقد كان واضحاً أنه لا يفكر إلا في «جيزيل»، وفيما تاكل، وفي كأس جيزيل، وفي عزلة جيزيل وسط هؤلاء الناس وقد أوشكت ان تغدو مهملّة، كان مدوراً، منتفخاً، وبما أنه كان يدور على نفسه، فإن كمّه الفارع كان يتمايل على نحو غريب. وقبلته هزاً غاستون الذي ضاعت عظام وجنتيه اللامعة في لون لامع كريح حفر فيه الغسق ظلالاً خضراء. كان الجميع يتحدثون على نحو جد مزيف، حتى السيدة العمياء. كان الصمت في بيرينيس وحدها، في شقرتها الذابلة. لاحظ اوريليان التفضّنين اللذين بدأا يحتفران على جانبي فم بيرينيس، وكان يرى لدى الأم، إلام سيؤول هذان التفضّنان، حفرتا الخيبة. لكن بيرينيس كانت تمحوهما بابتسامة مقتسرة متجمدة، أبدية وكأئها الحفاظ على الثمانية عشر عاماً. وكان

أجفانها التي تثاقلت تلقي ثقلها على النظرة السوداء التي تُستشفَّ استشفافاً. ولعلها قد مُسحت بمسحوق أمغر يتنافر مع اللون، وربما كان ذلك من انعكاس مغيب الشمس، كان وجه بيرينيس هو وحده هنا الخالي من أي أثرٍ من آثار التعرق. ما كان يمكن أن يوجد فيه شيء من صورة زامورا، ومع ذلك، تذكر أوريليان، برعشة تعبير وجه الغريقة في قناع الجبس، لم تغير بيرينيس فستانها للعشاء، لكنها تقلدت في عنقها خمسة صفوف أوسنة من المرجان الوردي، المبتذل، الرخيص الذي يتدلى حزماً عند بائعي الذكريات في فلورنسا. بدا ذلك كأنه يشدُّ رأسها الى الأمام. وكان الكلب الأحمر يُنطنط حولهم.

لم تكن للأقوال كبير قيمة، وتشعب الحديث، وفي كل ما كان يتطاير من نتف الأفكار، في مزق المشاغل المختلطة، وفي تصالب الحيات بتلك الكلمات الفارغة، كان أوريليان يجد فكرةً مشتركةً واحدة بين الجميع، لعلها انعكاس أحلام يقظته الخفية، التي لم يكشفها أحد. الهزيمة. لم يكن أحدٌ يقول شيئاً عن الهزيمة، ومع ذلك فقد كانت تصبغ الكؤوس والصحون وظلال البسمة ولامبالاة الأحاديث، إنها «هذا غير ممكن يا الهي»، التي كان المرء يجدها دائماً في ذاته. ومن الذي قال قبل حين لأوريليان «تصور أننا انتصرنا...؟» بمرارة تلامس السكر. كان يحمل نفسه على التفكير أن الأمر سيكون أسوأ لو انتصرنا، يجب أن نوطن أنفسنا على الهزيمة. طريقة «كوي»، كيف سنكيف أنفسنا مع الهزيمة؟ لأننا سنكيف أنفسنا مع الهزيمة، ارتعش: كانت بيرينيس تكلمه، بم أجابها؟ إن هذا اللقاء بعد عشرين عاماً هزيمة. كان عليه في الحقيقة أن يجبر نفسه ليتعرف في هذه المرأة الغريبة على كائن حبه ذاته. لقد احتفظ في نفسه بفكرة بيرينيس، لكن بيرينيس كانت تجعل هذه الفكرة مضطربة. وفكر بينه وبين نفسه، بمرارة، أن الأمر نفسه كائنٌ بالنسبة الى جميع الأشياء، ولقد جرت الحياة بينه وبين حماساته، وحملته الى بلاد ضاعت فيها معالم الأشياء، لا بيرينيس، ولا فرنسا. أهي فرنسا شبابه، فرنسا الحرب الأخرى، هذا الاندحار، هذا الفرار الهائم على الطرقات، هؤلاء الشباب على دراجاتهم النارية، هؤلاء الفتيات

بالبنطال القصير، لا، لا، لا، لا.... الجمهورية لا فرنسا.... من أين جاءت هذه الفكرة؟ من أوحى بها إليه. ما كان بوسعه ان يقول. كانت هذه الفكرة تساعد على ان يحيا، كانت في الجو، كانت تجعله يتحمل العار. شأنها شأن بيرينيس. لم تكن بيرينيس، هي بيرينيس هذه المكتهلة. بيرينيس كانت ذلك القناع من الجبس، تلك الميتة الشابة، الجميلة أبداً. وفرنسا أيضاً التي يحبها ميتة، وليست هي فرنسا هذه التي تمكن رؤيتها. إنها لسعادة أن نحب ميتة، فنحن نفعل منها مانشاء، وهي لاتستطيع ان تتكلم وتقول فجأة جملة كنا نود لو لم نقلها... سألت بيرينيس هل رأيت إعلان عمدة المدينة؟ لا، لم يره. نشطت السيدة موريل. كادت تكون بشعة، وكان في عينيها غضب شديد: «يقول العمدة إن الألمان سيدخلون المدينة، وهو يطلب تجاههم موقفاً مهذياً، محترماً... وبهذا الثمن يمكننا أن نؤمل التساهل من المنتصر، وفهم وضعنا، بل واللطف....» قهقهة الرجال لم يكن العمدة محبوباً، لم يكن العمدة المنتخب الذي عزل في الشتاء السابق لأسباب خاصة، بل كان راديكالياً يمينياً. انتظر حياته كلها هذه الفرصة ليكون عمدة، وقد عين عمدة بقرار، أه، راديكالي، أحس أوريليان أنه في صف بيرينيس، إذ لم يكن يحب الراديكاليين. الأب باربنتان مثلاً. قهقهه مع الآخرين.

قالت بيرينيس "أظن أننا لانتكلم على الشيء نفسه...» نظر إليها وهي تلك التي عاشت ثمانية عشر عاماً في ذكرى تلك الأيام القليلة من شبابهما؟ هي التي لم يكن لها شمس غيره؟ لحظة أخرى ويثمل من ذلك ثملاً شديداً. وكانما يثمل من خمر محرمة.

أغمض عنه وفكر "إنها لم تعد شابة... وما أهمية ذلك؟ سأضحى لها بحياتي.. سأجعل لهذه القصة هذه النهاية المذهلة. طابع أنشودة الحب...» شعر دفعة واحدة بعدم الرضا كله عن حياته الخاصة. لم يفكر في ذلك قط لكنه صعد الى حنجرته. زوجته وولاده، كان مستعداً ان يترك كل شيء لكي ليستأنف حلماً من أحلام يقظته الماضية.. لقد انساق على الأقل وراء هذا الإغراء، هذه

الرعشة التي سرت فيه من جرّاء ذلك. قال في نفسه: «سأرحل مع بيرينيس.. وسأجعل تلك المرأة سعيدة..» قال ذلك بكبرياء هي كبرياء تلك الفكرة. والواقع أنه كان يعلم أنه لن يفعل شيئاً من ذلك. ولعل ذلك كان جبناً... قال: «انتصر علينا الألمان لأنهم كانوا أفضل تجهيزاً منا، وأكثر انضباطاً على وجه الخصوص.. وليس لديهم هذه الثروة الدائمة.. كل الناس يريدون ان يأمرؤا..

سأل موريل وإذن، ماذا تستنتج من ذلك؟

أوقفته عينا بيرينيس. عبث بسكينه. وقال غاستون «على اللاعب أن يرضى بالخسارة، لقد خسرتنا ، لقد خسرتنا...» ولم يسمع أوريليان ما الذي كانت تصرخ به جيزيل. قُدِّمَت الخمر العذبة. لم يكن الجميع على وفاق. رأى موريل ان الخطر يكمن في خوض هذه الحرب، وغرق ليرتيلوا في لجة الكلام. أراد ان يمسك بيد بيرينيس. فسحبتهما دون تكلف، مَنْ الذي ألقى أولاً بهذه الفكرة المنافية للعقل في الحديث؟ لقد كانت تطوف، منذ زمن طويل، في الصحن الوسخة وفوضى الحلوى. لا بد أن الكلام دار حول هذه المغامرة منذ بداية العشاء. لعله موريل، أو غاستون ، لم يصنع إليه أحد أولاً. وكانوا يتكلمون عن شيء آخر، ويتخاصمون. ثم عادت الفكرة بالحاح. ولقد نُحِيتْ لكن دون جدوى. لقد استقرّت وأخذوا يناقشونها. غضبت بيرينيس وصاحت. هذا جنون، في النهاية... لن تفعلوا هذا! أوريليان ما يزال مريضاً..

قال:

- أنا كلا، على الإطلاق... ذهبت الحمى ولا مجال للكلام عليها. وكأنما كانت بين الجميع مؤامرة ما، مؤامرة تحيط بهما الاثنين. تواطؤ. الحبيبان اللذان التقيا وعُثر عليهما. ولم يكن موريل آخر الناس في ذلك. وقد شربوا ولم يقتصدوا في الشراب. انتابهم إحساس بأن كل ما يشربونه كان كسباً من العدو. فشربوا. وكان شيء من النور ما يزال ينحلّ في الأقداح، ولم يبرد المساء. كان كشيئاً ثقيلاً، مثل ذراعي امرأة عاشقة. تخبّطت بيرينيس. قلت لكم لا.. مالك

اوريليان، قلّ لهم إن هذا جنون.. لايمكن السير على الطرقات..
بدا غاستون مُقنعاً. مع هذا! سنأخذ السيارة الصغيرة، سيارته، دعوني
افعل ذلك، فالدرك لهم هموم أخرى...

- أنت مجنون، غاستون! فاوريليان نقيب... وإن سبّب له ذلك مشكلة..
لم يكن أحدٌ يبالي بذلك، ولابد من القول أن النقيب ليرتيلوا لم يكن يسعى
أحياناً الى النجاح في مهنته، قالت جيزيل إن منزل غاستون جميل جداً، كان
أشدهم ضراوة موريل، هزّت العجوزُ العمياء رأسها بأسى، وسألت: أما تزال
الشمس طالعة؟ هذه الجملة في غمرة جلبه الآخرين. وتفاهة القهوة التي جلبت،
كانت لها نبرةٌ من الأسى الواقعي العميق الذي تتمرّق فيه حياة، نظرت بيرينيس
الى أمها وارتعشت.

« الأفضل لك أن تصعدي الى بيتنا، ماما... »
كان صوتها مختلفاً عن الصوت الذي عرفه اوريليان. كان صوتاً عميقاً،
مهموساً. كان صوتاً أتياً من الطفولة، ولاشك، عندما كانت الأم والطفلة
تتخاطبان سرّاً عن ذلك الأب الرهيب، ذلك الرجل العاصف في البيت الكبير...
واندفعت الى اوريليان القصة كلها كما حدثتها بيرينيس له في باريس قبل
عشرين عاماً... أمسك به غاستون من ذراعه.

- ياعزيزي، ان قلت إن ذلك يُسلّيك... بيرينيس...
نظر اوريليان إليه، وعيناه فارغتان، ماذا يريدون جميعهم منه؟
وموريل: « لاتتصور، سيد ليرتيلوا، حديقة غاستون.. تحفة.. فيها أشجار
كستناء كبيرة، أشجار كستناء كبيرة...
ماالذي يذهب بالقناعة، ما الذي يُطلق الرغبة من عقالها؟ نظر الى
بيرينيس التي كانت تقود أمها نحو البيت، قال ان ذلك يسليّه.



لم يوقف السيارة أحدٌ. وقد ساقها غاستون عبر الشوارع، الصغيرة الى خارج المدينة ببراعة فائقة، او ببراعة السكّير. لم يلقوا سينغاليين يحرسون في هذه الجهة. كانوا يمرّون بين الخرائب التي تطلّ على ريف فارغ، على حقول، على بيت ريفي، على الكرمة. وكانت أعمدة الدوالي زرقاء من الكبريتات وكان الليل بدأ بها. تسلّق الطريق، أو مأيسمي طريقاً، الأكمة مثل كلب يتتحرّى جانباً ليتفادى العجلات. الكلب الأحمر... صاحبهم لحظة، وعندما تركهم انحنى بيرينيس وتبعته بعينها... يا للعجوز المسكين، فهو لا يستطيع ان يتبعنا أيضاً...» لاجابة لأن يسألها من تعني بـ «أيضاً» فذلك لا ينطبق على شيء، ولا على أحد. وكان ذلك مفهوماً.

أحس اوريليان بها مُلاصقةً له، محصورة بينه وبين غاستون الذي يسوق السيارة. حضورٌ وغياب ممتزجان. كانت ذراعه خلفها، تُحيط بكتفها، لكي يوسّع لها في المكان. كان يشعر بتنفس بيرينيس المحتبس، بالهيئة الغريبة للمرأة التي تعزم ألا تترك نفسها على سجيتها. وفي صدر هذه الـ «وسنر» الصغيرة المرتقة التي أطال غاستون عمرها عشر سنوات على الأقل، كان يُسمع ضحك «جيزيل» بين موريل وابنة العم الحزينة، وموريل وهو يضطرب ويكثر من الكلام. كان المساء خائفاً، ماذا تعني هذه الرحلة الى الريف، فجأة يوم هزيمة، في آخر النهار، مع طيور تهبّ من الكرمة، وغبار يغشى كل شيء. كان القصد تذوق خمر المنطقة الموجود لدى غاستون وكان ذلك لا يخلو من الجنون. وبيرينيس التي استند صدرها الممتلئ على الرجل الذي أحبّته طوال حياتها. لكنه صدرٌ مسكونٌ بفكرة غريبة. وكالغريبة تلك الساق بحذاء ساقى، وتلك الشفة المرتجفة التي لن انحني عليها. وإنه وإن كان المنزل لا يكاد يبعد أكثر من خمسة كليومترات عن ر... إلا أن هذه المغامرة تبدو بلا نهاية، خرساء مع ملاحظات غاستون الضائعة، كأها تغيرات مفاجئة لسرعة.

كم كانت حياتي شاحبة من ورائي لم يرتسم منها شيء جديرٌ بذلك.

أهي كذلك بالنسبة الى جميع الناس؟ لاشك ان هناك مصائر مثقلة بالشمس،
مثل العنب الأسود. لمَ لمَ أكن كذلك؟ لم هذا القرار بحثاً عن لاشيء، هذه
المنافرة الطويلة الزائفة، حياتي؟ ذلك مثل لامعقولية هذه النزهة. اندحار يبدو
مثل رشقة.. كأنني مررت بجانب كل شيء. ألا يجوز ان نبدأ من جديد، ان نعيد
خلط ورق اللعب، أن نصيح أن في توزيعه غلطاً؟ فرنسا. بيرينيس، جورجيت..
تغير المشهد وراء ظهر الأكمة. ودلفوا الى قاع تسده أشجار كبيرة، وغاب
المنظور عن السهل والمدينة. ومال المساء برفق الى الليل. وضع اوريليان ضرباً
من الصلاة في الضمة التي أطبق بها على بيرينيس بصورة غير محسوسة.
كانت كالميتة. بدت كأنها لم تلاحظ تطويق ذراعي الرجل. تنهدت مرة. انحنى
عليها. قالت: «لم يتراجع الحر». أرخى ذلك التوسل الذي لاجدوى منه، ذلك
السؤال الحيواني الذي كان رفض الكلمات كافياً للرد عليه. ضحك جيزيل الأبله.
غاستون ينفجر ضد محركه الذي توقفت مسارعته: كانت الطريق صاعدة،
فداروا وتصافحت أغصان الأشجار فوق المسافرين. وكانت ظلالها إيداناً بالليل
الحقيقي. كان البلد أراضى مهجورة. محا لجنح الظلام شيئاً فشيئاً الفرق بين
الأراضى المستريحة والأجزاء المزروعة مثل قطع لثوب لا يستحق نفقتها. وكان
ايضاً بلداً بيوته مهجورة. مساكن فلاحية صغيرة أخذت أحجارها تتلاشى
وبزرت هنا وهناك تحت فوضى الأجر الذي فقد لونه. وهي على العموم ضيقة
وأبوابها مخلوعة، والرياح تلعب فيها بحرية. ثم أشجار أخرى، ونزلة وأشجار
أيضاً.. وصوت مياه.. تباطأت السيارة وانفجرت سوقية «جيزيل» مثل صوت
مسرف الشدة في كنيسة. صاحت: «عجبا، لقد عطشنا»، «غاستونية» ولوريل:
أوها وانت، أنت شددتني كثيراً..

بلدٌ خربٌ يهبط الصمت عليه، خربٌ، لا من الحرب بلدٌ خربٌ ببطء
سرطانٍ يحمله في ذاته. يصيب الحقول، ثم البيوت، صحراء. صحراء تُخال
بأهولة إذا لم يُنظر إليها. عن كثب، صحراء بأشجار. وماء. صحراء مقفرة من
الرجال. من الغريب أن يدلف المرء إليها بعد دورب الانسحاب والهجرة الجماعية

إن هذه الأشجار هذه الطرقات، هذه الجدران المهجورة، ماتزال على غير علم بالكارثة. بذاك النهر المجاور الذي تدفق على هذه المدينة، من الطريق الكبرى، والذي تنحى عن هذه البيوت الفارغة في بلدٍ هو أكبر من المصيبة، ولقد يُخيّل إلينا أن هذه الأرض سوف تستقبل انحصار هذا الشعب وتلك الجيوش، كل مدرة، كل حصاة. دعك من ذلك، إن في هذه المشاهد أعماقاً سوف تظل مجهولة. فكّر أوريليان فيما قاله له ضابطُ استخبارات الفرسان. جرى الكلام على حكومة مع لافال والمارشال. حينئذ قال الآخر: «كل شيء إلا «لافال»! إن جاء «لافال» فسوف ألجأ إلى المقاومة وسوف أتمرأ! لا بد أنه ماسونى، لماذا فكرتُ فيه؟ أه! نعم، أعماق البلد.. سوف ندخل في زمن المؤامرات، والمشاكل.. أعماق البلد... هناك مساحات كبيرة لن تعرف شيئاً... أو على العكس... بالنسبة إلى المطاردين...

صفتُ السيارة في درب مغطى بأوراق الشجر في أعماقه حاجزٌ خشبي بدا جديداً جداً بالنسبة إلى الجدار التالف، نفخ الركاب أنفسهم، أفلتت بيرينيس من أوريليان وكأنها أفلتت من الخطر. كان في الحديقة ورودٌ ذبلت دون أن تُقطف، بستان فاكهة مربع. وسماذ. قال غاستون: «سترى، البستان الحقيقي يقع في الجانب الآخر..» دخلوا البيت المظلم، الخالي من الكهرباء. تلمس غاستون دريه في عتمة غرفة عريضة ومنخفضة بحثاً عن مصباح بترولى. صاح «انتونيوا! أين اختفى هذا الرجل؟» انفتح بابٌ وشحوب نافذة على الحديقة من الجانب الآخر. «انتونيوا» أوضح موريل: «هذا اسبانيه»... أي اسباني؟ أضواء المصباح إضاءة سيئة غرفة تجمع بين المطبخ الريفي والمكتبة. كان فيها رفوفٌ مثقلة بالكتب المغبرة، ومدفأة كبيرة وبقايا نارٍ متفرقة... رأى أوريليان وجه ابنة العم أقل حزناً في نور الأشباح هذا. كانت في بيتنها. فتحت «جيزيل» خزانة صغيرة وكأنها من آلاف المنزل، وأخرجت أقداحاً، وتعجبت من أن البسكوت قد نفذ تقريباً. كم نحن؟ خمسة.. ستة، ستة حين أعد نفسي! وأمام امرأة مؤطرة بإطار مذهب من طراز «لويس فيليب»، كانت بيرينيس تسوي شعرها بصمت.

قال موريل: «نعم، اسبانيه... انتونيو... جمهوري آواه ليسر بيرينيس، بعد هزيمتهم...» وقد فُخِمَ ضمير الغائب في هزيمتهم تفخيماً جديداً كلّ الجدة. شعر الرجلان بالحرج في الوقت نفسه. وضحك الصيدلي ضحكة طفيفة تنم على الحياء. «الأمر مضحك، إن لنا الآن هزيمتنا.. ليسر بيرينيس... استفهم.. «ولم يسر ذلك بيرينيس؟».

- اوه! أنت تعلم جيداً كيف هي، وكيف تدخل لجاناً وتضع نفسها في مشاكل... لأن غاستون ليست له أفكارها على الإطلاق. هو من جماعة «العمل الفرنسي»... لكن انتونيو يؤدي له خدمة حسنة، فهو يحرس البيت، ويزرع الأرض... وغاستون له غرفة في المدينة... هذا منزل والده، العالم الكبير كما تعلم... والذي كان ينظم قصائد بلهجات جنوب فرنسا.. نعم، نعم..

عاد غاستون بفلاح متين البنية، شاب وسيم الوجه وديعه، أسود العينين، شخص ليس طويلاً لكنه متين، وعليه قميص خاكي مفتوح ملفوف الكمين، وبنطال كتاني أزرق. كان يتكلم برطانة بدا على غاستون أنه يألفها، وكان يحمل سلة كبيرة من الكرز الأبيض. صاحبت جيزيل «مرحباً، انطونيو!» انحنى الاسباني وابتسم ابتسامة يملء فمه. نظر إليها اوريليان وهو يردد كلمات موريل: «أنت تعلم كيف هي، كيف تدخل جميع اللجان... ليس البلد وحده هو الذي يحوي أعماقاً لاتخطر على بال»، مصباح آخر منح الغرفة تقريباً جواً من البهجة مفاجئاً، شوهدت فيه صورة امرأة من زمن «فيليكس فور» وشهادة من معارض الزهور، شرحتها ابنة العم لاوريليان. وفي أثناء ذلك رأى بيرينيس تحادث الاسباني، هز كتفيه. ما أكثر ماسيتصوره! وفجأة تعالى صوت الموسيقى.

كان هذا هو البيان الذي استيقظ في عتبة هذا المطبخ. من تحت رزمة من الدفاتر بينها حوض أزهار من الخزف أخذ يرتجف. كان غاستون يعزف لـ «توبان» مقدمة «مينورك». صاحبت جيزيل. «شيئاً من الجاز!» والتفتت الى ليرتيلوا: لاتستطيع أن تتصور الى أي حد يتعلق غاستون بالعتيق البالي ليس ها هنا من حاك، ولا مذيعاً».

فاحتج من عند البيان:

- أه! بلى، ما من مذياع هنا! الحقيقة أن المرء يعاف المذياع لما لا ينفك
يغنيه كل يوم... قال موريل لجيزيل:

- أتذكرين الربيع الماضي. وكل ذلك الليلك...

طبعاً إنها تذكر. لكن ذلك النبيذ المحلي، أين هو، هلأ جاء؟ قال غاستون
من عند البيان إن انتونيوز ذهب ليأتي به.
وسيحمله مع بيرينيس التي رافقته. «منذ متى تتكلم بيرينيس الاسبانية؟
أجابت ابنة العم.

- أه! لقد تعلّمتها! بيرينيس تتعلّم شيئاً ما طوال الوقت...

الاختزال مرة... والاسبانية مرة أخرى...

أكانت ابنة العم تجد ذلك حسناً أم سيئاً؟ لا يمكن أن يحزر ذلك. توقّف
البيان وفجأة. نادتهم جيزيل: الى المائدة.

كان على المائدة كرز، وحلوى صغيرة، وجين أزرق ونبيذ أبيض. كان
النبيذ الأبيض ممتازاً يستحق هذه الرحلة إليه. وضع غاستون على المائدة
«المارك»، وهو شرابٌ حدّث عنه ولا حرج، وشراب الماراسكي لهؤلاء السيدات،
وهو من جهة أخرى، شراب موريل، لكن الجميع كان رأيهم أن يعيدوا الكرة على
النبيذ الأبيض. إذا شاء النقيب أن يحمل زجاجتين لمطعمه العسكري.. فذلك
لا يرفض له. كان موريل يتكلم كثيراً. عن الحرب، والخزفيات، وذكرياته مع
جيزيل. كانت ابنة العم التي دارت الخمر برأسها تدندن لحناً مأخوذاً من فيلم.
أيّ فيلم؟ كان غاستون يري أوريليان مجموعة صور عائلية، مع «هنري غارا»...
حيث كان طالباً ثم اتّصرف الى الريف، صور أبيه... أخذ يُنشد ورأسه منقلباً
الى الخلف، قصيدة باللغة البروفانسية على ما بدا لليرتيلوا، كان يتلمّظ بها...
تظاهر أوريليان بالإصغاء، وعيناه على بيرينيس، الخرساء، الناظرة الى الفراغ،
وهي تفتّت قطعة حلوى مع اهتزاز عصبّي في أصابعها، ضحكت جيزيل ضحكاً

شديداً عدة مرات. ظهر الإسباني عند الباب ورطناً بشيء جعل غاستون يدير رأسه. لا، لا، شكراً انطونيو. من الخارج كان يأتي صوت أزرع. مدوّخ. الضفادع.

قالت بيرينيس: أليس الجوّ حاراً؟ مَنْ خاطبت؟ الجميع ولا أحد. على كل حال، إنها لم تخاطب اوريليان، أولم تخاطبه على وجه الخصوص. غاستون هو الذي أجاب، لم يجب بيرينيس، بل قال لاوريليان همساً «ألا تريد أن ترى الحديقة؟». الحق ان الجو كان حاراً. والنبيذ الأبيض يصعد الى الرأس. مرّ اوريليان بالغرفة الثانية التي أنارها إنارة سيئة مسحّب من النور أت من المطبخ، ومرّ بيرينيس أمامه. توقفاً عند عتبة الحديقة. كانا وحدهما. لم يتبعهما أحد. كان الظلام دامساً، ولا قمر، في هذه الليالي. كانت الحديقة بُراً من العتمة بين أشجار الكستناء. وكانت ذاهبة طويلاً، مع سخافة جدارين كبيرين منخفضين تحدّانها عن الحقول التي يحدّس وجودها حدساً. وفي ركنٍ ضرب من أليكة خانة رقيقة، مع مقعد وطاولة مدوّرة. كان كل ذلك مُهملاً أشدّ إهمال، وفي الممر أعشاب بريّة، وحبّات كستناء تُدحرج أغلفتها عند الأقدام.

تقدّما معاً دون أن يقولوا شيئاً، وكانهما رادا ان يجعلها بينهما وبين المنزل مسافةً طويلة. وفي طرف الحديقة، كان جدار من الأحجار الجلفة يؤلف شرفة على السهل. ولم تكن الظلال المتراكمة لتسمح بتكوين فكرة عن المشهد الريفي. وأبت البرودة ان تُقبل. وكان البعوض يطنّ.

- قال اوريليان: «كيف جرى أن هذا الاسباني ليس في معسكر

الاعتقال؟»

لم يكن يحرص على الجواب. كان يتكلم ليطرد القلق. في الليل كانت بيرينيس تعود، بيرينيس الصغيرة لعام ١٩٢١، ودهش أنها لم تسمعه على الإطلاق. اوه نعم، لقد سمعته... ومع ذلك قالت دون أي انفعال خاص «غاستون له علاقاته... وقد كفله...» كان كل شيء يبدو وكأن علة وجوده أن يقيس الهوة بينهما. ارتعش اوريليان. «ألا تشعر أنك معافى، يا صاحبي؟» تصاعد هذا!

السؤال في العتمة مثل نغمة آلة موسيقية صدمها أحدهم عرضاً. ودّ لو يقول لها أكان لهما الخيار كليهما؟ لن يعود شبابُهما، كان كلاهما أنشودة الآخر. ولن يسعهما أن يجعلوا الأشياء غير ماهي عليه. قال: «بيرينيس...» ومات هذا الاسمُ في صمت ما لن يقوله، والذي فاتته الى الأبد أن يقوله. قالت - «لك ولدان، ما أغرب ذلك وما أعجبه! إني أغبطك وأودّ لو أعرفهما. لعل الصبي يشبهك، ولعل للبنت حركاتٌ من حركاتك، همس - الصبيُّ يشبهني.

كان يطير في الهواء، غير بعيد عنهما، شيءٌ ما. استشفّ أكثر مما رأى أن بيرينيس رفعت يديها الى شعرها. هل فهمتُ، وأنّى لها، أنه فاجأ هذه الحركة. سألت

- أليست هذه خفافيش؟

لم يكن يعلم شيئاً من ذلك. فزعم:

- لا أظن.

أكانت تحلم حقاً بالأطفال. كان الظلام حالكاً بحيث يحول دون الكذب. كل ما كان أوريليان يود أن يقوله لها، كونه أراد أن يكن في مستوى الوضع. لقد تألم طوال حياته من أنه لم يكن في مستوى الوضع، لكنه لم يحسّ قط بمثل هذا اللذع.. من أنه ليس في مستوى...

- أرايت، يابيرينيس، فها هنا، في هذه الحديقة، في ظلمة هذه الأعشاب

البرية، ينبغي لي...

أراد أن يقول «أن أمسك بيدك» فلم يقلها. ولم تطلب إليه أن ينهي جملته. لعلها ستنهيه عنه وكيف ستنهيه؟ ماذا كانت تنتظر أن يفعل، وهي تنهي جملة، فلم يفعله ولن يفعله، لأنه كان يجهل أن هذا هو بالضبط ما تنتظره منه.. أو على الأقل ما تنتظر أن يفعله...

أراد أن يقول «أن أمسك بيدك». فلم يقلها. وقد فات الأوان الآن، ثم ان كلماتٍ أخرى دفعت هذه بكتفيها، كلمات أخرى لم تُلفظ، كانت تتساقط

بعضها فوق بعض في الصمت، مثلما تتساقط وريقات تويجة الزهرة. وغيرها، وغيرها من الكلمات. فحمل نفسه على أن يقول كلمات أكثر رصانة. ولم يقل هذه المرة بيرينيس لأنه خشي مرة أخرى، أن يوقفه هذا الاسم، مثل حجر مسرف الثقل، وعطر يقطع الصوت.

- «كنت أفضل وأعمق ما في حياتي... لا، لا تقاطعيني، فلقد عانيت كثيراً قبل أن أقرر.. أنت كل ما غنى في حياتي... وإذا شئت، مع ذلك، أن أحصل على نظرة عن حياتي... عنيت.. اتفهمني؟ إننا نسعى الى تبرير أنفسنا أمام أنفسنا... ونطعن في السن. لا يجوز لنا أن نفوت أنشودتنا العاطفية. نحن لانسمح بذلك. أليس كذلك؟ أما في هذه الليلة، ولا يمكنها أن تكون دون حلم.. أو أسوأ من ذلك، مع الأسف على حلم فسد... الحلم الوحيد...»

ماذا أراد أن يقول بالضبط؟ لم يبد أنها تبينت قصده إذ قالت بعد صمت، وبهجة بعيدة: «إنك لا تتكلم إلا عن نفسك...» وغلط في فهمها فقال إنه يتكلم عنها أيضاً. أرادت أن تقول إنها استغربت أن تمرّ بذهن أوريليان أفكار غير الأفكار المتصلة بالهزيمة، بهذه المغامرة الرهيبة، بفرنسا... بدا اسم فرنسا بالنسبة الى ليرتيلوا، ناشزاً، مفخماً. في فمها غير المرئي الذي تذكره بشفتيه اللتين كانتا مثل شقيين صغيرين عموديين. ورأى قناع الغريقة، قديماً، ووجنتيها... وهامي ذي تقول. فرنسا... أحسّ بحرق لم يُحس تفسيره. شوشه ذلك، ودمر فيه «بيرينيس». إن هذا يظهر المسافة بين الدمية التي في ذاكرته وبين هذه المرأة الحية، مسافة عشرين عاماً خارجة.. كل ماجرى في هذه الأعوام العشرين كل ما فرق بينهما.

- تكلمت بيرينيس:

- «إني أصغي إليكم، أنت والآخرين... فإذا ما صادفكم موضوعٌ لحديث أقبلتم عليه ولم تفوتوه! وأنا أصغي إليكم... وأنتم مغتبطون أشد اغتباط بأن تخرجوا عن جادة الصواب أو أن تتألقوا.. الرجال... كلهم متشابهون... أنتم في رضا عن الواجب الذي اتمتموه... لقد عبؤوكم.. فقمتم بواجبكم.. وماذا

يُطلب منكم بعد ذلك إذن؟ الآن انتهى الأمرُ انتهى الأمر، خمد عزمكم... وذلك كأن تكفّوا عن خلق ذقونكم بسبب الهزيمة... ها أنتم بالقميص وحده في الحياة..

- لكن لاشك، يا بيرينيس، أن الأمور قد انتهت... ماذا تريدان أن نفعل؟ ليس بوسعنا، مع ذلك أن ننطح الجدران برؤوسنا!

- ولمَ لا؟ الحاصل أنكم إن لم تفعلوا ذلك هذه المرة، فمن المؤكد أن لن يكون لديكم أبداً أدنى فرصة لتفعلوها رؤوسكم الثمينة! اعترف بأنكم تنفستُم الصعداء عندما أدركتم أن الأمور انتهت؟

- أولاً، لم تنته الأمور بعد..

- لم تنته بعد؟ ألم تسمعه، ذاك؟

- مَنْ هذا؟

- المارشال.. يا أولادي.. والدموعُ في عينيه، أه يا الهي!

- لا تتكلمي هكذا. كان مؤثراً، هذا الشيخ.. ثم ماذا تريدان أن نفعل، في

آخر المطاف؟

لم تجب. انتصر.

- وهكذا. فأنت ترين جيداً..

انفجرت من الغيظ

- ما كنتُ أريده؟ أن نُقاوم! أن نُقتل!

- لكننا قاتلنا.

- نعم، قاتل الأشقياء الذين ظنّوا أنهم يقاتلون حقاً، في حين أن...

- لستُ أفهمك: تقولين شيئاً، ثم تقولين شيئاً آخر... ألم يقع مايكفي من

القتلى، في نظرك؟

- وقع مايكفي من القتلى بحيث لا يحقّ لنا أن نخونهم، بحيث لا يكونون قد

ماتوا من أجل لاشي.

- إذن كان يجب أن نُقتل أنفسنا..

- أن تقاتلوا، قلتُ، أن تقاتلوا، تصوّر أننا لم ندافع عن باريس!

- برأيك أنه كان يجب ان نترك باريس تُدمر! نعم، شكراً

- كان الأفضل ان تُدمر باريس.

- سهلٌ عليك أن تقولني هذا، وأنت تعيشين في ...

- لا تكن غيبياً، يمكننا أن نحبّ باريس من ... مثلما تُحبّ من «ليل» أو

من باريس نفسها.. وإذا وصلوا ر.. غداً..

- أتريدين أن تموتي في رماد ر...

دهش من هذه اللهجة الساخرة، واستدرك

- ماذا جئنا نقول هنا؟

فردت بيرينيس.

- جئنا نقول الأشياء الوحيدة التي علينا أن نقولها اليوم... الليلة... لا،

لأتعارض، لا تقلّ إنك تبغي ان تكلمني عن الحب.. كما كنت قديماً.

كل المارة كانت في الكلمات الأخيرة، بعد وقفة، وإذا كان أوريليان، ان

صدقنا غاستون، حياتها كلّها أثناء هذه السنوات الميته، فكيف قام اليوم بينه

وبين بيرينيس عالم، وهو أسوأ من حياة؟ وعالم من الأفكار أيضاً، أفكار كان

يعدّها مضحكة، بدائية، لكنها كانت من جراء ذلك محسوسة، مدوّخة على نحو

أشدّ، مثل عطرٍ سوقيّ وجده عليها، فحقّر ووسخ الذكرى الجميلة التي يحملها

في نفسه عنها. قطع الصمت:

- بيرينيس... لقد تركتك، تركتُ بنتاً صغيرة مشغوفة، عفوية، جاهلة

العالم، أه، غريبة بعمق عن هذا العالم الذي يتقاتل فيه الناس ويتعارضون،

ويترامون بالأفكار، الأفكار التي لا تحسن أن تخفي المصالح والدسائس.. وها

أنا اذا ألتقي المرأة التي تحمل الهوى نفسه الذي كانت تمنحه الحياة.. تحمله

الى تلك الأشياء الملطخة.. الضبابية.. الى تلك الأشياء التي كانت داعية.. ثملة

بتلك الألفاظ الجوفاء التي تقود جماهيرنا. ثملها السهل وهي بنتٌ صغيرة بمنظر

باريس، وبأمسية، وبأغنية...

ما حاجته الى أن يكون صوته متوسلاً؟ بم كان يرجوها؟ لم يكن هو

نفسه يدري، وأحست بيرينيس بأن في ذلك نشاراً، ومראה، لم يبق بينهما

الشباب ليومهما بذلك الوفاق العجيب الذي احتفظ كلاهما بذكراه المعظمة. بيرينيس على حق. عمّ يمكن أن يتحدثّا هذه الليلة؟ إن الكلمات التي انتظرها منها وانتظرتها منه، على نحو غامض، كالسديم، كانت تتحلّ في العتمة. تلك الكلمات المؤثرة التي إن أُلغيتْ انبأت بالكذب، وإذن فمن الأفضل أن يبقيا عند هذا الحدّ.

صاح صوتٌ من مربّع النور الزجاج في الباب خلفهما: «من يُريد الارمانيك؟» أتريدان شيئاً من الارمانيك أيها العاشقان؟ كانوا يضحكون في الداخل، وكان البيان جارياً مع التيار، ثم تصاعد صوتٌ «جيزيل» وهو صوتٌ ضبطته بعد بعض النغمات. غنّت أغنية مضى عليها شيءٌ من الزمن، شنيعة، مقطّعة، بأسلوب الجاز الفرنسي. ماذا ننتظر لنكون سعداء!

سألت بيرينيس: «ألا تظن المطر سيهطل؟»

كان الجو، بالفعل، ثقيلاً. لم يشأ أوريليان أن يقبل أن يكون معنى ذلك «لندخل». فقال باللهجة الخشنة التي أزعجته قبل حين: «ما الذي يجعلك تهتمين بهؤلاء الاسبان، بهؤلاء الحمُر؟» لم يبدُ عليها أنها بحثت عن الجواب الذي جاءها بسرعة. فقالت. مصابهم...

أغضبه ذلك، فرد: مصاب الذين اخطؤوا ما هو إلا العدل... قالت.

- هذا ماسيقوله الألمان اليوم عن مصابنا... حدث ثقبٌ عظيم من الصمت في هذه الدنتيلا السوداء التي تحيط بهما. ثم بدا صوتٌ بيرينيس كأنما يتسلّق بمشقة جرفاً وعراً.

- لم يبق في الحقيقة جامعٌ مشتركٌ بيني وبينك، ياعزيزي أوريليان. لاشيء... ألم تدرك ذلك؟ ولّني لأتساءل لم قدّر لنا أن نتلاقى في هذه الأيام... ربما من أجل ذلك نفسه، لكي نعلم ذلك بالذات، ويحمل كل منا من جهته... ضاعت الجملة مهموسة. كان قلبُ أوريليان يخفق. مزيج هائج من

العاطفة. الهولُ من إحساسه بأنها قد أصدرت حكمها عليه، اليقين بأنه على حق، الغضب من أنه وجد امرأة تحاكم محاكمة عقلية بدلاً من فتاة ذاكرته... أكرهُ المحاكمة العقلية.. وعادت إليه ذكرى امرأته وشبابها ونضارتها مثل نفحةٍ من الذاكرة. «أه! ياربى! لم تكن جورجيت هكذا». وجدها في بعض الأحيان محدودة من الناحية الذهنية كان ذلك ظلماً لها. إن للمرأة نوعاً آخر من الذكاء.. وعندما تتدخل النساء فيما لايعنينهن...

« وإذن فقد أفسدنا ذكرياتنا، هذا كل ما في الأمر.. »

قال ذلك بلهجة متجردة. ومع ذلك فقد تلقى الجواب في صميم قلبه:

- هذا كل ما في الأمر..

العجبُ أنه حلم باصطحاب بيرينيس معه، بأن يفسخ علاقته بكل شيء، بسببها. بسبب تلك القصة التي مضى عليها ثمانية عشر عاماً إنه محمومٌ، في الحقيقة... وفكر... على كل حال، لا يمكننا أن نبقى في الهزيمة» ثم استولى عليه معنى آخر لهذه الجملة، بمرارة. بسخرية. فضحك ضحكة جافة، قصيرة.

- سألت بيرينيس:

- أضحكك ذلك؟

اعتذر:

- لا، خاطرة... شيء آخر... ألا يهملُ أنت في شيء أن يكون ذلك كلَّ

ما في الأمر؟

هذه المرة، تركت سؤاله يطفو في الظلام.

- لا.. بلى يمكننا ان نتكلم عن ذلك بتجرد... لولا تلك الكبرياء الرجولية

التي تملكها كالآخرين، ياعزيزي اوريليان...

لاحظ أن لها طريقته الخاصة بها، هذه المرة وسابقتها، في التشديد

على «ياعزيزي»، وليست وقحة ولا عدوانية. وكأنها تتحدث الى ميت...

رددت.

- ياعزيزي اوريليان...

وكان من الممكن جداً أنها تبكي.

كان «الارمانيك» مفاجأة غاستون. لقد احتفظ به الى ما بعد المارك والماراسكان العاديين، فعل الفنان البارع، المفاجأة المسرحية في هذه الأمسية. كانت ردود الفعل جلية. بدءاً من موريل وهو عاطفي، عاطفي الى حدّ لا يُصدّق، وجيزيل المفتونة، أما ابنة العم فلاتسل عنها... إلا أن الوقت تأخّر، وقد قالت بيرينيس وهي تقاطع الجمل الانفعالية لزوجها عن الظروف الغريبة، والأحداث الخارقة التي تضافرت لتأتي بليوتيلوا الى هذا المكان، وهو يلقي على بيرينيس نور عينيه المسرف الرقة، قالت إن الوقت قد تأخّر، وإن الحرب، على كل حال، ماتزال قائمة. وقال غاستون ان السير على الطرقات ممنوع، لكن الناس كانوا مشغولين بأشياء اخرى، وكانت ابنة العم تُلقي أشعاراً من «بولييكيت»، لماذا بولييكيت. كان بولييكيت هو ماتحفظه عن ظهر قلب، وليس . «اعتنِ بأميلى».

جلسوا في تلك السيارة العتيقة المغبرة، وعندما انطلق غاستون وثبت بهم وثبة جانبية بدت لهم كأنها دعابة. استقروا في الأماكن التي جاؤوا فيها . طوّقت ذراع اوريليان كتف السيدة موريل وكان شيئاً لم يكن. لقد اتفقا ضمناً على أن يقوموا بجميع الحركات المنتظرة منهما ليحولا دون الاستفسارات. همس موريل: «لقد التقيا، جيزيل، لقد التقيا! كان ذلك أعجوبة!» ممّا حرك كتفي غاستون بحركة غريبة، وحاولت ابنة العم ان تلمس واقية الريح وهي تؤكد أن لها هشاشة الزجاج مثلاً أن لها بريقه.

كان مشهد الرجوع هو المشهد نفسه وقد ساروا فيه القهقهري، هي الطريق التي جاؤوا بها معكوسة. لقد طفوا من العتمة المليئة بأوراق الشجر ليسلكوا تلك الطريق المغطاة أيضاً بأشجار أقل تراصاً، المتموجة التي تنسلّ فيها «الوسنر». لم يعد الجو شديد الحرارة، وكانت السماء مكفهرة، وكانت السحب الكثيفة تركض أمام النجوم. كان غاستون يسوق سيارته يمشي من

العصبية. لا يمكن القول إنه كان ثملاً. كان مستعجلاً للعودة فقط ممّا جعله يسوق بشيء من العصبية. غرابة هذه الطريق المعادة التي ألفها الجميع والتي كان اوريليان يعرفها معرفة تكفي لأن يشارك السائق عصبية.. وقتامة السماء أيضاً... كانوا يفرحون في الظلمات، وبعد ليالي القافلة تلك كان شيئاً غريباً الطواف في سيارة حرة، رجّاجة لا يحدها في وثبها ذلك الجسم الكبير المترابط الحلقات، الممتدّ خارج المدى البشري في ذلك الخطر المظلم. كان اوريليان يسعى الى عدم التفكير في شيء كان يعود الى... وهذا كلّ ما في الأمر. إن التعب الذي زادت الخمر في ثقله كان أقوى هيمنة من شبكة تلك الذكريات، ومن نتف الأفكار في رأسه. تشنّجت ذراعُه التي حول كتفي بيرينيس. وبدت له أصابع تلك اليد بعيدة ومتوجّعة، ومع ذلك فلم ينقلها من موضعها. ما الذي كان يجري في هذه المرأة البكماء؟ ذلك الطلاق بينهما الذي غلّف بكذب غير معقول، بتحنان الآخرين الملتبس، الذين لم يُنبهوا الى خطئهم... قال في نفسه بين حين وآخر إن قصتهم، والفشل التام للحب، وتكذيب الحياة للحب، وأيضاً وهم الحب، غير المفهوم، المتولّد من ثمانية عشر عاماً من النسيان المتعاضم... قال في نفسه... ما من شيء كان يقوله في نفسه قد أفلح. وتغلب فيه على نفسه، تصلّب... مهلا الكلام على الفشل في الحب بصدد مثل هذه القصة التي توقفت في بدايتها، والحياة كلها بينها وبينني، دون التفكير فيها تقريباً.. لا، ليس ذلك صحيحاً، لقد فكّرتُ فيها دائماً... على كل حال ليس ذلك شبيهاً بما.. أُلقت الرجّاتُ بكلّ منهما على الآخر فتزايد حرجهما. انتابه إحساس رجل في سريره مع امرأة خاصمها وظلّ نائماً وإياها مع ذلك.. الرجّات.. ثماني عشرة سنة من النسيان المتعاضم، لكنه نسيان... كان يقول في نفسه... كان يقول في نفسه. الحياة كلها.. حياتي كلها... ولقد تحنّن على نفسه تحنناً غير معقول.. مثلما تحنّن عليهما هؤلاء الناس خطأ... وربما كان تحنّنه على نفسه خطأ أيضاً في ليلةٍ مثل هذه مع كل ما يجري في البلاد. شعر اوريليان أنه مثل حيوان في العاصفة لم

تُحسن إخفاءه أوراق الغابة، قصته هو نفسه في تلك الأحداث غير محتملة الى أقصى حد، ومهمة الى أقصى حد، إلهاء في الحريق. كان في الأفق البعيد ضجة مخنوقة، وكانوا يسировون نحو تلك الضجة، صاح به غاستون أستمع؟ نعم. دبابات، كأنها دبابات، ماهذا؟ لعل الفرقة تعود، أو هل تركنا المدينة؟ ضاعت الضجة، كانت متعاطمة فحقت في قطن العتمة، لا، بد أننا قد ابتعدنا كثيراً عن ر... كان صمت بيرينيس ثقيلاً بينهم، حاول ركاب المقعد الخلفي ان يقولوا شيئاً، وتغيير في السرعة. لقد خرجت السيارة على الطريق الرئيسية عند التصلب. وبعد ذلك .

« ماهذا؟.. مامعنى هذا؟.. ماذا يجري؟ اختلطت الأصوات، وخفتت في ضجة المكبح، الانحراف... الرشاشات، صوت سُماني، صوت الرشاشات والنار من على اليمين، فكر أوريليان: «قضي الأمر، وجرحت»، كانت ذراعه ثقيلة، ثقيلة لم تكن تؤله، ولا شك أنها كانت تنزف، الذراع التي حول بيرينيس، صاح بغاستون، «اجر ولا تقف!» كان غاستون قد ألجأ السيارة الى الطريق الترابية الممتدة قبالة الطريق التي.. وأخيراً فبدلاً من أن ينعطف الى الطريق الرئيسية اوتي حضور البديهيّة.. وطلع صوت زجاج واقية المطر، وهطل عليهم شيء من الزجاج . سأل موريل وهو قلق وقد صحا من نشوته: «ألم يُصبك شيء؟» قال أوريليان: لا، لا، خشي ان يتوقف لو قال.. «بيرينيس غاستون؟ همس غاستون: «وأنتم في الخلف؟ في الخلف، كائن ابنة العم تضحك ضحكاً هستيرياً، هذا كل شيء». قال أوريليان لغاستون: «اسرع، يا صاحبي، سيان، أتعرف الى أين تُفضي هذا الطريق؟ لا... المهم أن تخرج من دربهم..

- من دربهم؟ من هم؟

جاء الاستفهام من الخلف، كانت جيزيل واقفة. اجلسي، بالله، يا جيزيل! «وشدّها الصيدلي الى تحت، وغدت الرجّات خيالية.

قال أوريليان: «من المؤكد... أنهم الألمان! لم تكن ذراعه تتحرك، ولا شك أنها تفقد دماها، كانوا، دون شك، في سيارة مصفحة، من تلك المصفحات التي

يرسلونها هكذا كالطفل الضائع، تُتسَبَّر الطرقات، في هذه الأيام، كانوا يقومون بالسبر، لكي يتفادوا الخسائر التي لاجئوا منها، وهم لا يترددون عندما يصادفون العدو، وهم يجرّون الى اليمين أو الى الشمال ليدوروا علينا من طرق أخرى.. أراد ان يلمس ذراعه المتخدرة في ألم بعيد..

كان غاستون يجذّف، وكان الآخرون في الخلف يصيحون بكلمات حانقة: «أهم يتبعوننا؟ - لا أظن، أتمكن أن ترى، أنت؟ كان هذا السؤال موجّهاً الى ليرتيلوا، أما هو فتمس وأحس برطوبة الدم الذي سال من ذراعه على كتف بيرينيس، سوف تفتن لذلك قال لها: «بيرينيس، لاتخافي.. همست: - لستُ خائفةً. كان هذا الصوت هو صوتها فيما مضى، في سيارة أجرة باريسية. أحس أوريليان بكبرياء غير معقولة تصعد إليه، لكونه جرح» وهمس لجارته همساً: ليس هذا بذي بال، قالت: «أعلم.. ليس هذا بذي بال..» حتى إن ذلك أغضبه قليلاً: أراد ان يقول ان جرحه ليس بذي بال، لكنها كم استهانت، بما قال، ولذلك قال لها: أنا حريحٌ... لكن غاستون سمعه، فكبح السيارة كما توقع: «جريح» - اوه، جرحاً خفيفاً... أحس ليرتيلوا برأس بيرينيس يتهدى عليه.

نقّت ابنة العم من الخلف: السيد ليرتيلوا جريحاً
أخرج غاستون مصباح الجيب، أثار بحزمة الضوء الصفراء الركب أولاً، ثم قفز الى الوجهين باحثاً عما يجب ان يُنظر إليه، قال ليرتيلوا ليقود الضوء، «الذراع».

سقط الضوء على تلك اليد المتدلية، على هذه الضمّة لعاشقين زائفين، على تلك الذراع الدامية التي كانت تسند بيرينيس وقد سال الدمُ مدراراً على الفستان، وكان رأس بيرينيس منحنياً.

«بيرينيس!»

صرخوا جميعاً معاً، رفع أوريليان وجهها بيده الصحيحة، كانت عيناها مغمضتين نصف إغماضة، وعلى وجهها ابتسامة، ابتسامة مجهولة السنين.. لقد

اخترقها الرصاصُ اختراقاً مميتاً على شكل متصالب قاتل، كانت ميتة، رأى
اوريليان على الفور أنها كانت ميتة.

قال:

«وأنا الذي كان يتكلم عن ذراعه!»

لم يسمعه أحدٌ لحسن الحظ، أخذت جيزيل تنتحب، وكان الصيدلي
يصرخ ويتأوه:

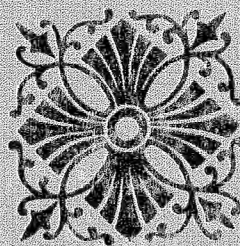
- «نيسيت، هذا غير صحيح! نسيت!»

انطفأ الضوء، قال صوتٌ غاستون الذي لانبرة فيه:

« الآن يجب أن نعيدها الى البيت.

انتهت

1990 / 1 / 16 30..



الطبع وفزر الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٥

في الاقطار المهرتية ما يعادل
٦٠ ل.س

سعر النسخة داخل القطر
٣٠٠ ل.س